موسوعة
عالم علم النفس

NOBILIS

الموسوعة النفسية

1

علم النفس والطب النفسي في حياتنا اليومية

إسم الموسوعة	:	موسوعة عالم عِلم النفس
إسم المؤلّف	:	الدكتور عبد المنعم الحفني
إعـداد	:	قسم الدراسات في دار نوبِليس
		بـإشراف الأستـاذ غسّان شديـد
قياس الكتاب	:	27.5 × 19.5 سم
عدد صفحات الجزء	:	320
عدد صفحات المجموعة	:	6436
إسم الكتاب	:	الموسوعة النفسية – عِلم النفس والطب النفسي في حياتنا اليومية - مجلد (1)
مكان النشر	:	بيروت – لبنان
دار النشر والتوزيع	:	دار نوبِليس
تلفاكس	:	961 1 583475
تلفون	:	961 1 581121
		961 3 581121
الطبعة الأولى	:	2005

عالم عِلم النفس

1

الدكتور عبد المنعم الحفني

الموسوعة النفسيّة

عِلم النفس والطب النفسي في حياتنا اليوميّة

المجلّد الأول

NOBILIS
MAISON D'EDITION

كلمة الناشر

عالمُ علم النّفس

موسوعة كاملة لعلم متكامل

الطب النفسي، وعلم النفس والتحليل النفسي، العِلم النفسي للأحلام، معجم التحليل النفسي، مدارس عِلم النفس وأعلام عِلم النفس، إضافة إلى الموسوعة النفسية الجنسية؛ جمعناها ٢٤ مجلداً بعنوان «عالم عِلم النفس» لتُـؤرِّخ بالتفصيل تاريخ هذا العلم منذ بداياته الأولى، والحركات التي تفرَّعت من مدرسة فرويد الذي يُعتبر، من دون منازع، رائدها الأول. ثم أفردنا المجلّدات الثلاثة الأخيرة لمصطلحات هذا العِلم ولما وضع فيه من مؤلّفات، وللموتمرات التي عقدها المؤسّسون له في معجم موسوعي شامل بأربع لغات، هي العربية والانجليزية والفرنسية والألمانية.

وبذلك تكون دار نوبِليس قد ساهمت، في هذا الميدان العلمي المهم والشيِّق، لتزوّد المكتبة العربية سلسلة كاملة لعِلم النفس الذي يؤثّر في حياتنا اليوميَّة ويسبر أغوار عمرنا منذ الطفولة الأولى، وما قبل!.

ويطيب لدار نوبِليس أن تتقدَّم بالشكر إلى الدكتور عبد المنعم الحفني الذي جمع بعلمٍ وصبرٍ ودقَّة، هذه المعلومات الموسوعية المتعلّقة بعِلم النفس التي نزفُّها إلى قرّاء العربية من المحيط إلى الخليج في أروع ما يكون من المجلّدات، لتكون متعة للنظر والفكر. والله وليُّ التوفيق.

نبيل عبد الحق

صاحب دار نوبِليس

الموسوعة النفسية

علم النفس والطب النفسي في حياتنا اليومية

في التعليم، والتربية، والتجارة، والصناعة، والأدب، والفن، والحرب، والسلام، وفي الصحة والمرض، والعلاج النفسي، وفي البيت، والمصنع، والشارع، والزواج، والغرائز، والحب، وفي التخيل، والقيم، والمعايير، وفي الموضة، والبغاء، والقمار، والمرور، واللعب، والجنس، والنوم، والعادات، والتحيل والإنجاز، وفي النوم واليقظة والأحلام، وفي الحسد والخرافة، والسحر، والدين، وفي الجريمة والعقاب والثواب، والإعلان والدعاية والإعلام إلخ، والاختبارات والاستبيانات والمقاييس المستخدمة في ذلك...

الباب الأول

علم النفس والطب النفسي
في خدمة الأدب
والفن والفكر

- ١ -
سيكولوجية الأدب والفن

الأدب والفن ومعناهما النفسي. أنماط الشخصيات الأدبية في علم النفس. الدراسات النفسية للأعمال الأدبية. عالم الأديب وطريقة الأدب في الاصطفاء من الواقع. الأدب يتسامى على الواقع. إختلاف الميول النفسية عند الأدباء بحسب تخصصهم. الإبداع الفني والحدس الأدبي. الأدب السيكولوجي. الموهبة الفنية وصراعات الأديب والفنان...

❖ ❖ ❖

الكثير من الأعمال الأدبية والفنية المعاصرة يتصل بناؤها بعلم النفس وكشوفه ومجالاته بأسباب قوية. وينصرف الأدب Literature إلى استجلاء النفس البشرية، وهو الهدف نفسه الذي يترسّمه علم النفس. وكلما تقدمت البحوث في علم النفس فإن ذلك له انعكاساته على الكتابات الأدبية، وخاصة في مجال الدراما بفرعيها، الرواية والمسرحية. وكانت شهرة بعض الروايات أو المسرحيات سبباً في اتخاذ علم النفس من بعض أسماء شخوصها أو مؤلفيها مسميات لانحرافات أو اضطرابات نفسية اشتُهرت بها، فالسادية Sadisme نسبة إلى الماركيز دي ساد Marquis de Sade (١٧٤٠ - ١٨١٤)، الكاتب الفرنسي الذي تخصّص في وصف حالات الأشخاص الذين يعانون من العنف الداخلي، ويستمدون لذّة من إنزال الألم بالآخرين، كما في رواية «Justine ou les malheurs de la vertu». والماسوكية Masochismus نسبة إلى ليوبولد فون ساخر ماسوك أو ماسوخ Masoch (١٨٣٦ - ١٨٩٥)، الكاتب النمسوي الذي كانت شخوص رواياته واغلة في الجنس، وتجد لذّة من معاناة الآلام يُنزلها بها الآخرون، على عكس السادية؛ وتشتَهر العُقد النفسية بأسماء شخصيات درامية من أعمال كبيرة لسوفوكل ويوروبيدس وغيرهما، فهناك عقدة أوديب Oedipus Complex مثلاً نسبة إلى الملك أوديب Oedipus the

King، الشخصية الأسطورية، صاحب أروع مأساة في تاريخ المسرحية اليونانية، وكذلك عُقَد أوريست، وكليتمنسترا، وإليكترا، وجوكاستا، وميديا، وفيدرا، وجميعها تناولها المسرحيون الثلاثة الكبار: إسخيلوس Aeschylus (٥٢٥ - ٤٥٦ق.م). ويقتبس علماء النفس أسماء مشهورة من الأدب الأسطوري والديني مثل عُقدة قابيل، وعقدة ديانا، وعقدة إخوة يوسف، وعقدة سارة زوجة ابراهيم عليه السلام. وهناك دراسات نفسية لروايات ومسرحيات مشهورة مثل مدام بوڤاري Madame Bovary لفلوبير Flaubert (١٨٢١ - ١٨٨٠) ويطلقون على الحالة النفسية التي تتسم بها إسم البوڤارية Bovarism. وبعض الروايات هي دراسات نفسية خالصة لاضطرابات معروفة، مثل الجريمة والعقاب Prestupleniye i nakazaniye (١٨٦٦) لدستويفسكي Dostoyevsky (١٨٢١ - ١٨٨١)، وكان روائياً له بصيرة نفسية نافذة، وعلم ودراية بالنفسية الإنسانية وانحرافاتها وشذوذها.

وهناك مسرحيات لكتّاب مشهورين مثل هنريك إبسن Ibsen (١٨٢٨ - ١٩٠٦)، أفادت من نظريات علم النفس، وإن كان إبسن وغيره من الموهوبين لا يَظهر تأثرهم بالاتجاهات العلمية السيكولوجية مباشرة. وتدور معظم مسرحيات إبسن على أفكار ترتبط بالوراثة، مثل: «الأشباح Ghosts»، «وعدو الشعب An Enemy of the people»، و«بيت الدمية A Doll's House». ونعلم أن الجدال ما يزال بين أصحاب نظرية الوراثة ونظرية البيئة حول تشكيل النفس الإنسانية وميولها ونوازعها واهتماماتها. وكان الأدب دائماً كاشفاً لخبايا النفس التي يمكن أن تحتجب عن الناس في تعاملهم اليومي بسبب الغفلة التي يكونون عليها، حيث لا تتطلب تعاملاتها كبير دراية بالنفس، ويميل الأفراد إلى فهم الناس باعتبارهم أنماطاً، وميزة الأديب أنه إنسان يخترق الحُجُب، وينزع الأقنعة، ويُعرّي الأشخاص وأهدافهم، ويناقش قيمهم السلوكية، ويطرح ذلك من خلال العلاقات الشخصية البيئية، والاحتكاكات والمماحكات والصراعات

وتبادل الأفكار ومطارحة الأقوال. وإذا كنا كبشر نميل إلى تبسيط الأمور وردّ الكثرة إلى الوحدة في معاملاتنا، ونميل إلى التجريد والعموميات، فإن الأديب على العكس في رسمه للأشخاص لا يكرر الشخصية، ويصوّرها متميّزة، بتفاصيلها ورغباتها وعواطفها وآمالها وآلامها وطموحاتها. وعالم الأديب هو عالم أفراد متكثرة، وطريقة الأدب هي الاصطفاء من الواقع، واختيار ما يخدم الرؤية الفنية من الأحداث والوقائع. وكل أديب ينحصر اهتمامه بالواقع وإدراكه ومن ثم له رؤياه الخاصة، على عكس الإنسان العادي غير الأديب الذي تتوجه إهتماماته للواقع إلى ما يشبع حاجاته، ويفهم من الناس بقدر ما ييسر له التعامل معهم، بينما الأديب يدرك الأفراد لذواتهم، ويحيط بالواقع من علاقاته بهم سلباً وإيجاباً. وإذا كان بعضنا قد يغلب على اهتماماته بالحياة الجانب الحسّي العملي، أو العقلي، أو الأخلاقي، أو الديني، فإن الأديب يغلب عليه الجانب الجمالي، إلا أنه أيضاً يمكن أن يكون له أيٌّ من الجوانب السابقة، أو أن يكون في الوقت نفسه حسياً عملياً، أو عقلانياً، أو أخلاقياً، أو متديناً صوفياً، وأن تكون له إشراقات ميتافيزيقية. ولعل ذلك يفسّر أن بعض الأدباء لهم رسالات اجتماعية، كتولستوي مثلاً أو نجيب محفوظ، أو يوسف السباعي، أو يكتبون بإلهامات دينية كفرانز كافكا، وعبد الرحمن الشرقاوي، وقد كان الكثير من المتصوفة شعراء، كرابعة العدوية، وابن عربي، والبوصيري، وأبي العلاء المعري.

والأديب له مواقفه المتميّزة من المجتمع والإنسان والكون، وتبعاً لاختلاف هذه المواقف يكون اختلاف عوالم الأدباء، ويمكن أن يكون عالم الأديب محدوداً بحدود ثقافته وخبراته واهتماماته، ويمكن أن يتسع ليشمل الكون كله ويكون زاخراً بالعواطف الغنية والأفكار الثريَّة. وكما نفرّق بين عالم الأديب وعالم غير الأديب، فكذلك نفرّق بين عوالم الأدباء، فمنهم من يكون شاعراً، أو روائياً، أو مسرحياً، وينعكس عالم كلّ في أدبه. وهذا التخصّص يفسّره علم النفس بأنه ظاهرة نفسيّة وتعويض عن طموحات ورغبات أساسية، لم يشبعها الأديب في نفسه وحياته بسبب

عوائق من داخله أو خارجه والأدب على ذلك تعويض يتسامى Sublimation به صاحبه عن الواقع غير المفهوم والمختلط والمتشابك، ويصنع به واقعاً متميزاً ومفهوماً. وهناك دراسات كثيرة في مجال علم النفس على الآثار الأدبية. وفي حياة الكثير من الأدباء لاستكناه الدوافع التي تجعل من الأديب أديباً، أو التي تدفعه إلى هذه الصياغة الأدبية أو تلك، أو التي تجعله يختار موضوعات بعينها، أو يرسم شخوصه على منوال معين، أو [illegible] من خلال رواياته ومسرحياته رؤيا فلسفية وفنية خاصة.

وتذهب بعض النظريات النفسية في الأدب كما عند فرويد وأدلر، إلى أن الأديب إنسان مُخفق في حياته، وأنه يعوّض عن اخفاقه بالخَلق الأدبي، متسامياً بغرائزه. ومن رأي بعض النفسانيين أن الأديب تسيطر عليه من طفولته بعض ميوله الغريزية ورغباته، فتجعله يؤثر مجالاً من مجالات الأدب على سائر المجالات، سواء بالخَلْق أو التذوّق. وقد تتعرض ميولنا ورغباتنا للكفّ أو الكبت، فتتّجه إلى مسارب أخرى غير مباشرة للتنفيس، وتؤدّي بنا إلى الخلق أو التذوق لأنواع من الكتابات دون غيرها، وقد نتّجه إلى الرسم أو التصوير أو التشكيل. وقيل إن الشعراء يغلب عليهم الطابع النرجسي Narcissistic، بينما المسرحيون لديهم ميول إستعراضية Exhibitionism، والروائيون يحبون الكلام ويبدو عليهم الطابع أو النمط الفموي، أو أن شخصياتهم بها الكثير مما يقال له الشخصية الفموية Oral personality. كما قيل في مجال الفنون أيضاً إن العنصر السادس الشرجي Anal sadistic يميل بالفنان إلى ممارسة التشكيل، وإلى أن تكون تعبيراته تشكيلية، وأن يصوغ أفكاره صياغات فنية تشكيلية. وكذلك فإن حب الاستعراض قد يجعل البعض يمتهن التمثيل. ولا شك أن الممثل إستعراضي من الطراز الأول، كما أن هواة الفنون والمسرح والباليه خصوصاً لا شك قد وُهبوا ما يقال له حُبّ التطلّع Voyeurism، كما إن الميول الجنسية المثلية قد تجعل البعض يهوى فن الرقص. وقد تبين إحصائياً أن أغلب مشاهير الراقصين مأبونون، وأن مصمّمي الأزياء يعانون

غالباً من التخنث بارتداء الملابس النسائية والتفنّن في صُنعها وتصميمها. ويقال لذلك النوع من الشذوذ Transvestism أي التشبّه بالنساء في الملبس والمظهر والمخبر. ويؤيّد هذه النظرة النفسانية أن الأدباء والفنانين في تخصصاتهم المختلفة تُلاحَظ فيهم هذه الطباع. ولعل أكثر ما يلفت النظر إلى تخصص الأديب أن عالمه هو عالم فني وليس عالماً عملياً. بمعنى أنه ينسجه من خياله ويختاره بإرادته الحرّة، كما يقول سارتر عن بودلير - أنه قد اختار في أشعاره أن يرى نفسه، أو أن اختياره لهذا العالم بوحي من تكوينه البيولوجي النفسي كما يقول برجسون - إن بعض النفوس بها ميل فطري تنفرد به في النظر والفهم والتفكير، وان الأديب يكتب بتأثير من نزعاته الخاصة. وربما كان هذا الاختيار لأن الأديب ليس له أن يختار إلا ما اختاره الله له كما يقول شعراء المتصوفة وفلاسفة الوجودية، مثل سارتر في روايته الفذّة «دروب الحرية Les Chemins de la Liberté». وقول سارتر إن بودلير Baudelaire (١٨٢١ - ١٨٦٧) اختار أن يرى نفسه في أشعاره. لأنه كان بوهيمياً بحكم تكوينه النفسي البيولوجي، فكان لا يكتب إلا أشعاراً بوهيمية، وقد اختار لنفسه عشيقة عاشرها كزوجة كانت سوداء وفي غاية القبح كانت تدعى جان ديفال، وكتب عن النساء المثليات الجنسية كما في مجموعته الشعرية: «اللزبيانيات Les Lesbiennes». والمهم أن عالم الأديب، وهو هذا العالم الفني، يصنعه بحيث يأتي وكأنه ليس من الخيال وإنما هو عالم عياني Concrete. ويتميّز الأديب عن غير الأديب بأنه زُوِّد بقابليات حسية وعقلية ونفسية تهيؤه للرؤية والتعبير بفن من فنون الأدب دون سواه، فهو شاعر، أو ناثر مسرحي، أو روائي، أو قصّاص حسب تخصّصه. وهو في أدبه ينحو إلى أن يُخرج من إطار شخصيته، ويتمثّل نفسه في شخوصه التي يطرحها كائنات حيّة تسعى، ولها تميزها وحياتها وتفاصيلها الشخصية. والأديب يتّجه في أدبه إلى أن يكون لاشخصياً Impersonal، فلا تدرك مما يكتب أو يصوغ أنه يحب هذا أو ذاك، أو يؤثر هذا على ذاك، وإنما هو يعلو على

ذاته ويصنع عالماً قد يكون متّسعاً، أو قد يضيق قليلاً، أو يرحب كثيراً، بحسب رؤياه الفنية، ويستهدي فيه بخيال فني، ليس كالخيال الذي يكون لنا في حياتنا اليومية، فهو خيال خاص يصبو به إلى واقع أكمل، ولا يحتاج به إلى أن ينتقي شخوصه من الحياة، وإنما هو يصوّرهم من ذاته التي تتسع لتكون كل هذه الذوات للشخوص التي يصوّرها، وذلك أن ذاته تتضمن كل هذه الذوات الأخرى التي كان من الممكن أن تكون هي نفسها ذاته. ومن رأي النفسانيين أن الذات التي يؤلّفها الأديب هي إمكانات لذاته، أو أنها ذاته في حالة كمون أو خمود، والأديب لا يفعل سوى أن يوقظها ويبعث فيها الحياة فتتحرك وتتحدث وتنفعل وتفعل كما في رواية: «A Portrait of the Artist as a Young Man» لجيمس جويس Joyce، وشخصية ستيفن ديدالوس في القصة هي نفسها الصورة الفنية لشخصية جويس نفسه. فالأديب بين ذاته وشخوص أدبه في علاقة جدلية، وكلما كانت ذاته ذات ثريّة بالخبرات والانفعالات والعواطف كلما كانت شخوص أدبه غنية وجاءت على قدر من العمق والرحابة يلفت إليها الأفهام، وبمعنى آخر فإن شخصية الأديب كلما تحررت من التحديات والتقييدات كلما كان تمثله لما يرسم من شخوص أرحب وأعمق. ويتميز الأدباء في ذلك بحسب شخصياتهم، والذي يميّز الخيال الأدبي أو الفني عن الخيال الذي يكون للمفحوص في اختبار من اختبارات الشخصية، أن أخيلة المفحوص في هذه الاختبارات هي إسقاطات شخصية محدودة بحدود شخصيته ويتجاوزها باستمرار. والكثير من الأعمال الأدبية الحالية هي محاولات في التحليل النفسي، وبعضها يكون كما نقول في مجال علم النفس «تاريخ حالة»، وبعضها لا يكون التحليل النفسي فيه صريحاً ومباشراً، ومع ذلك لا يمكن إلا أن تكون هناك هذه المحاولات في تحليل الشخصيات ودوافعها من جانب أبطال الرواية أو المسرحية أنفسهم، أو من جانب المؤلف أو النقاد. وبعض الأعمال الأدبية تظهر فيها «النفسانية Psychologism» ظهوراً واضحاً كرواية «السراب» لنجيب محفوظ حتى ليكون

تأليفها كالتلفيقات المصطنعة، فلا نحسّ فيها بنبض الحياة الصادر عن صدق الرؤيا والحسّ، وصدق الحدس الفني والبصيرة الأدبية، وهي قدرة الأديب على معايشة أبطاله وتعاطفه معهم. والأديب في ذلك يقارن موقفه بالطبيب النفسي، ففي الطب النفسي لا بد أن يتعاطف الطبيب مع مريضه دون أن يتورط معه عاطفياً، والأديب أو الطبيب النفسي غير المتعاطف مع أشخاصه أو مرضاه لا يمكن أن يتمثل أحوالهم النفسية، ويسبر أغوارهم، ويعايش خبراتهم. ولن يستطيع الأديب الذي لا يتعاطف مع أشخاصه تصويرهم تصويراً فيه بصيرة الأدب وصدق الرؤيا الأدبية. والرواية الأدبية التي تقوم على المعرفة السيكولوجية دون الحدس الأدبي Literary intuition لا بد أن تأتي مطبوعة بالصنعة والافتعال. ولا يفيد الأثر الأدبي أن يكون مبنياً على حقائق من علم النفس. والعبرة أن تأتي هذه الحقائق في ثناياه وتبطّنه ولا تشدّ الانتباه إليها دونه. ومسرحية كعطيل لشكسبير Othello تقوم على الغيرة، وعلى حقائق نفسية أجناسية لا تشدّنا إليها واقعية الخصائص النفسية لإياجو وعطيل وديدمونه، وإنما روعة الصياغة الأدبية والسياق الفني للمسرحية، بحيث يصنعان واقعاً فنياً يوازي واقع الحياة إن لم يتفوق عليه من حيث الوضوح والتفرّد. فإذا شئنا ونحن في معرض الحديث عن الغيرة مثلاً أن نضرب لها مثلاً فإننا لن نجد أوضح وأميز من مَثَل عطيل، وتلك خاصة من خصائص الأدب الرفيع أنه يقوم على حقائق نفسية حتى ليُستشهَد به، ويأتي ذلك فيه من خلال النسيج الأدبي. ولربما يَصدُق يونج في تفسيمه للأدب بأنه إما أدب سيكولوجي وإما مجرد وقائع عيانية، والأدب الأول هو الأدب الذي ينصرف الاهتمام فيه إلى النفس الإنسانية وتصويرها والتوعية بها، وهو لذلك أدب يصور الناس في حياتهم وهم يعتركون ويتصالحون، ويحبون ويكرهون، ويسعدون ويشقون، وينفذ إلى دوافعهم ويصف سلوكياتهم، بينما الأدب الثاني فيه الكثير من الخيال والحبكة والصنعة دون أن يتوغل في النفوس أو يهتم بالعواطف، ومن ذلك أدب الخيال العلمي Scientific fiction والروايات

البوليسية Detective stories. ومن الطبيعي لذلك أن يهتم علم النفس في تطبيقاته بدراسة «العملية الأدبية The literary process»، أي الخلق الفني في الأدب، والمقومات النفسية للأثر الأدبي وللأديب والتي بها يتميز هذا الأثر عن أية كتابة أخرى ليست أدبية، أو تكون للأديب فتميزه عن غير الأديب، وتجعل منه خالقاً ومن أدبه إبداعاً. ومن مزايا الدراسات السيكولوجية للأدب: إنها تجعلنا نفهم المضمون الأدبي أكثر، واتجاهات الأدباء، ونتذوق العمل الأدبي. وما من شك أن شخصية الأديب تؤثر في أدبه، وفي تذوقه واختياره لموضوعاته، وفي صياغته لأسلوبه ولغته، وفي بنائه لشخوصه ومواقفهم من الحياة. وكان لفرويد Freud (١٨٥٦ - ١٩٣٩) ولمدرسة التحليل النفسي Psycho-analytic school، وخاصة من بعده عند يونج Jung (١٨٧٥ - ١٩٦١) ومدرسة زوريخ، وعند أدلر Adler (١٨٧٩ - ١٩٣٧)، وشتيكل، وجونز، وجرافت، ورانك، وفون هيلموت، وسانجر، وجراف، وستوفر، ووايت وجيليف، ومن تابعهم؛ الفضل الأكبر في إيجاد نقد أدبي سيكولوجي من نوع جديد، والتوعية بالمبادئ اللاشعورية التي أوضحت الكثير من جوانب عملية الخلق الأدبي والتذوّق الفني، والتدليل على أن الأدب ظاهرة بيولوجية نفسية Psycho-biological phenomenon في المقام الأول، وانه تعويض متسام Sublimating compensation لرغبات لم تشبع، فالحرمان وما يترتب عليه من ألم ينشّطان الموهبة الأدبية، وبواسطة الإبداع الأدبي يعوِّض الأديب عما حُرِم منه، فيحل عالم الأدب عنده محل عالم الواقع. والحرمان يُذكّي الخيال، ومن شأن الفقر الذي تكون عليه ظروف الأديب الخارجية أن يدفعه إلى أن يكون له عالم داخلي غني يطرحه خارجه في رؤية أدبية عظيمة، وما من أديب، ولا فنان، ولا رسّام، ولا موسيقار حقيقي، إلا وكان يعيش في واقع مصادمٍ له، ويستشعر الحرمان، ويعاني من الجدب العاطفي. ويذهب أصحاب هذه المدرسة النفسية في الأدب إلى البرهنة على دعاواهم النفسية بالتغييرات التي تستحدثها ظروف الأديب الجديدة إذا انصلحت

بالنجاح أحواله المادية، فيتضاءل إنتاجه من ناحية الكم والكيف، وتنتفي عنه - للعجب - صفة الابتكار، وتضمحل ملكته الأدبية بتأثير الدعة والاسترخاء والإشباع الذين يصير إليهم مع الشهرة والرواج.

وطالما أن الأديب أو الفنان يعاني - كإنسان - سيكولوجياً حتى لكأنه كالمريض النفسي، وطالما أن الإبداع عموماً إنتاج فني أو أدبي يميّزه باعتباره مريضاً نفسياً، فإن معالجته من اضطراباته النفسية ستفسد عليه حتماً تفرّده وعبقريته، فعندما يعاني الفرد من الكبت أو الكفّ أو القمع، فإن غرائزه، لتتحصّل على الإشباع ولو رمزياً، قد تلجأ إلى الأحلام أو إلى التسامي الديني أو الأدبي أو الفني، كطريقة بديلة للإشباع، ولذلك كان الحب هو المحور الذي تدور عليه غالبية الأحلام والقصص والشعر والتصوير والنحت والإشراقات الصوفية. وكل الأدب الفني محوره الفَرْج أو البطن، فالأدب الجنسي أو الرومانسي هو من نوع أدب وفن الفرج، وإذا تطرّف كان الأدب المكشوف أو ما يسمى Pornography؛ والأدب الثوري أو الأدب الاجتماعي هو من نوع أدب وفن البطن، ومن ذلك رواية «البؤساء Les Miserables» (١٨٦٢)، ومن أمثال أدب الجنس روايات هنري ميللر Miller، كثلاثيته في سيرته الذاتية بعنوان: «Sexus»، و «Plexus»، و«Nexus» (١٩٤٥ - ١٩٦٠)؛ ومن أمثال الأب الفاضح أو المكشوف رواية لورنس Laurence: «عشيق اللادي تشاترلي Lady Chatterly's Lover» (١٩٢٧). ولا يمكن أن يحلم بالجنس إلا المحروم منه، وكذلك لا يمكن أن يتغنّى به إلا من كان معذباً به. والجوع إلى الجنس أو إلى الخبز - كما سنؤكد دائماً هو مصدر كل النشاط الفني والأدبي. وليس الشعر والموسيقى والرقص والكثير من التصوير والنحت إلا أشكالاً مثالية للرغبة والحرمان بأنواعه وبدرجاته. وليست اللذة المتحصّلة من مشاهدة الجمال ومعاينته إلا إشباعاً نفسياً جنسياً في حقيقتها، وهي لذلك قد تكون جزئياً سادية أو ماسوشية أو نرجسية، أو أساسها الميول الاستعراضية، ومنها أيضاً لذّة الأديب إذ يرى رواج روايته، أو إقبال الناس على مسرحيته، أو إنصاتهم لشعره، فيُرضي

ذلك غروره، وتتحقق به أحلامه في المجد والعظمة، ويولّد ذلك سعادة ترقى إلى التهيُّج الشبقي. والحب الذي يلهم كل الأعمال الأدبية الكبيرة هو الحب الذي لا يشبع نفسياً، وقديماً قال بلزاك (١٧٩٩ - ١٨٥٠) عبارته المشهورة: «إن كل امرأة ينام معها هي رواية لم تكتب»، أي ان ما يكتب هو قصة الحب اليائس. وبلزاك أيضاً هو القائل: «إن إيروس - إله الجنس - كان الأجدر أن يكون الماسك بقيثارة الشعر بدلاً من أبوللو - إله الشعر والموسيقى والفن»، يعني كان الأجدر أن يُنسب الإبداع إلى إيروس أو الجنس أو الرغبات الشهوية، وليس إلى نشدان الجمال للذة الجمال.

ويتصل الأدب اتصالاً وثيقاً بالحلم، والعمل الأساسي للأدب والحلم هو تحرير الغريزة من عقالها تحريراً رمزياً. والحلم والشعر كلاهما نتاج رغبات جنسية لم تتحقق ولم تجد الإشباع وكُبتت في اللاشعور، والفرق بينهما أن الإنسان العادي يتواصل مع اللاشعور أثناء النوم، بينما الشاعر بالإضافة إلى ذلك يمكنه أن يتواصل معه في اليقظة. «والشاعر» هو الذي يستطيع أن يخلق في حال اليقظة ما لا يستطيع أن يخلق «الانسان العادي» إلا في النوم. ومن غير الممكن أن يقوم شعر عظيم بدون حرمان، وكان ذلك سبب عظمة دانتي كما قال شوبنهاور، فقد استطاع دانتي أن يكتشف أن بإمكانه أن يحلم أثناء اليقظة، وأن يستعيض بالحلم عن الواقع، وأن يكون شعره تعبيراً عن حب عظيم. والشاعر أو الأديب عموماً أو الفنان، في موقف يتوسط بين الحالم والعُصابي، وفي حالة الحالم، والأديب، أو الفنان، والعُصابي فإن الثلاثة يهربون من الواقع إلى عوالم متخيّلة، إلا أن الحالم يفيق من حلمه مع اليقظة، والأديب أو الفنان يلجأ إلى الخلق والإبداع، بينما العُصابي Neurotic هو الوحيد الذي يستمر سادراً في عالمه المتخيَّل. ومع ذلك لا يخلو التعويض بالتسامي من بعض العُصابية، ويمكن أن يكون تعويضاً عُصابياً Neurotic compensation، كما إنه عند العصابيين قد تتسرب بعض الميول الأدبية والفنية فتكون لهم كتابات فنيّة في بعض الأحيان. وهناك الكثير من الابداعات الأدبية فيها الكثير من عناصر

العصاب والذهان مثل رواية: «Justine ou les malheurs de la vertu»، ورواية: «La philosophie dans le boudoir» للمركيز دي ساد. ومن رأي شتيكل Stekel (١٨٦٨ - ١٩٤٠): «إن الأديب يتخفف بالأدب، والشاعر يتداوى إلى حد كبير بالخَلْق، والإبداع الفني هو إفراغ وتنفيس وتطهير، وهو تحليل نفسي يتولاه الأديب بنفسه لنفسه. والإبداع الأدبي بالنسبة لأديب يعاني - هو غذاء»، والكثيرون يصفون إلهة الإبداع بأنها للأديب أو الفنان كالأم الحنون، والأدب والفن عزاء الأديب والفنان. والأديب يقارب في إبداعه الفني الانسان الانطوائي العصابي The neurotic introvert، ورغباته التي لم تشبع تقوّي خياله، وهو بالأدب يعود من الخيال إلى الواقع مع استمرار الحلم. ويقول فرويد إن الأديب الذي يحلم بالحب والمجد والسلطة والثراء تتحقق له أحلامه ورغباته وأمانيه من خلال كتاباته الأدبية، ويحصل بها على ما لم يكن له من قبل إلا في خياله.

ولا بد للأديب من أن يعرض أدبه على الناس، وأن يقرأوه ويطالعوه، ليشبع بذلك ميوله الطفولية للاستعراض أو للاستعراء. وهو يطرح في أدبه مخاوفه الطفولية من العقاب ليبرئ نفسه، وإنتاجه الأدبي هو نوع من الاعترافات، والكثير من الأدب العظيم هو اعترافات، وحتى في الأدب العربي كان هناك أدب الاعترافات، ككتاب المنقذ من الضلال للغزالي، والغزالي أديب عظيم ومفكر له تأثيره على الفكر الفلسفي الأوروبي والاعتراف من عمليات التحليل النفسي، وهو إسم آخر لميكانيزم من ميكانيزمات التحليل النفسي هو التداعي الحر Free association والأديب يحلل نفسه بالاعترافات، وهو في حاجة إلى قرّائه ومطالعيه، وهم بالنسبة له كالمحكمة، كما في مسرحية «الشرفة Le balcon» لجانيه. والأديب في حاجة لأن يقف أمام محكمة نفسه وإلا فإنه يظل يعيش في قلق وصراعات، وتعتصره مشاعر الذنب. وطرح الأديب لمنتجه الأدبي في الأسواق ليس سببه حبه للظهور، أو إثبات وجوده على مسرح الواقع، أو أن ينال الشهرة والمجد فقط، ولكنه كي يتخلص من الرغبات المستعرة في اللاشعور والتي

تهدّد توافقه مع المجتمع والناس ونفسه، وينفض عن نفسه عقدة النقص ومشاعر الذنب التي تستولدها، والإبداع الفني هو تحرير لنفسه.

ومحبة الناس للأدب، والفن عامة، لأنهما عالم يمكن أن نهرب إليه، وأن نجد فيه العزاء والسلوى، والانسحاب إلى هذا العالم ليس انسحاباً ولكنه يكفي لكي يعطينا بعض الخدر اللذيذ الذي لا نستشعر معه بقسوة الحياة وسلطان مطالبها، وهو انسحاب بسيط لا يبلغ من العمق ما يكفي لكي ننسى به شقاءنا الواقعي كما يقول فرويد. وحتى بالنسبة للأديب أو الفنان فإن ما ينتجه لا يكفي ليتخفف به من شقائه فيعاود لذلك الكتابة والإبداع ليكتمل له التخفف والتطهر اللذان لا يكتملان أبداً.

والواقع أن نفسية الأديب أو الفنان لا بد أن تكون محلاً لصراعات نفسية لا تنتهي، وليس معنى ذلك أنه بالصراعات النفسية فقط يكون الأديب أو الفنان، فلا بد من الموهبة الأدبية أو الفنية، وليست هذه الموهبة ميلاً فطرياً للفنون والآداب، فهذا الميل يمكن أن يوجد للكثيرين ولكن القلة تكون لديها هذه الموهبة التي يتجه بها الحرمان والشقاء والتسامي إلى الابداع الأدبي أو الفني، ولا يمكن أن تتفتح الموهبة للأديب إلا بالمعاناة ومعايشة الواقع. وبعض الأدباء وخاصة في الشعر يمكن أن تستغرقهم عملية الإبداع فينصرفوا إليها، إلا أن الروائيين والقصّاصين والمسرحيين والموسيقيين والرسّامين يمكنهم كثيراً أن يوفقوا بين تفرّغهم للأدب وللفن وحياتهم العملية. وكل أديب أو فنان هو في الواقع إنسان يحاول أن يتوافق مع الواقع بشكل من الأشكال، ولو إلى الحد الأدنى الذي بدونه لا يمكنه أن يداوم البقاء في الحياة، والبعض كانت حياته زاخرة وحافلة ونشيطة، وتلك حالات نادرة لا يقاس عليها حيث الأغلبية يعانون من سوء التوافق. وقد لاحظ علماء النفس أن الأدباء والفنانين بوجه عام - كما سبق أن نوّهنا - يتصفون بما يتصف به العُصابيون، وأن حياتهم تمتلئ بالمآسي وتحفل بالصدمات النفسية، وقد تكون هذه الحياة الأسيانة هي السبب في هذه العصابية، كما قد يكون الميل الفطري

لـلإبـداع هـو السـبب فـيـهـا، أو أن تـكـون العصابية هي التي تدفع إلى الإبداع.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Eysenck: Some Factors in the Appreciation of Poetry and their Relation to Temperemental Qualities.
- Jung: Modern Man in Search of his Soul. Psychology and Literature.
- Jung: On the Relation of Analytical to Poetic Art. Contributions to Analytical Psychology.
- Freud: The Relation of the Poet to Daydreaming. Collected Papers Vol.4.

❖ ❖ ❖

- ٢ -
سيكولوجية الإبداع

الـبـديـع والـمـبـدع ومـعـنـى «الأصـيـل». الـبـديـع هـو الـكـامـل. مـراحـل الابـتـداع. الانـفـتـاح والـصـراحـة والاسـتـقلالية عند الـمـبـدع. الـقـلـق الـخـلاّق. أنـا الـمـبـدع. التدريب على التفكير الابتداعي...

❖ ❖ ❖

الإبـداع Creativity هـو القـدرة عـلى خلق البديع الذي قد يكون رسماً، أو نغماً، أو فكرة، أو نظرية، أو تمثالاً، أو اختراعاً. والعمل المبدع لا يصدر إلا من شخص خـلاّق مـبـدع، لـه خصـائـصـه وتـفـكـيـره والخلفية الاجتماعية والثقافية، والظروف البيئية التي تواجهه بمشكلة في مجال تستعصى على الحل، ويعيها جيداً ويحيط بها فيتصدى لها، ويكون انتصاره عليها بـمـا يـقـدمـه مـن جـديـد مـبـتـكـر. ودراسة الابتداع إذن تقتضي دراسة العمل المبدع أو ناتج عملية الإبداع Creative resultant، وكذلك دراسة ما يكتبه المبدعون من تواريخ لحياتهم، والظروف التي أهّلتهم لـلإبـداع، ومـطـابـقـة مـا كـتـبـوه أو مـا كـتـبـه الغير عنهم، ووقائع حياتهم. ولعل مثل هذه الدراسات تكون معيناً للنقاد عندما يكونون بصدد الحكم على عمل ما بأنه بـديـع، أو مـبـتـكـر، أو خـلاّق، بـمـعـنـى أنـه

«أصيل Original» ولم يسبق إليه أحد من قبل. وقولنا بأن العمل المبتكر أو البديع هو جديد في بابه، وأصيل ليست له سابقة، أننا ننسبه إلى مجال معين أو إطار مرجعي Frame of reference، فلا بد للحكم على عمل ما بأنه جديد أو أصيل أن يكون حكمنا عليه من خلال هذه النسبة. فالطفل الذي يأتي بسلوك غير مسبوق قد يكون مبدعاً بالنسبة لزملائه الأطفال، ولكنه ليس بالمبدع إذا قيس عمله إلى أعمال الكبار. وكذلك فإن ما قد يظنه شخص ما في مجتمع جديداً وأصيلاً، قد لا يكون كذلك في مجتمع آخر، ولذلك كان من تمام الجدّة والأصالة أن تكون نسبة الجديد للخبرة الإنسانية بعامة. وثمّة متطلبات أخرى في العمل لكي يكون مبدَعاً أو مبتكراً، ومن ذلك أن يكون كما قدّمنا حلاً لمشكلة قائمة، والتفكير الابتكاري Creative thinking في بابه هو نوع من التفكير في حلّ المشكلات، ولذلك كان لا بد للشيء كي يكون مبدعاً أن يأتي وفق المقتضيات التي تطلّبت التفكير فيه، وأن يخدم غاية ويتحقق به تقدم في مجال معيّن. وكل عمل فني أو علمي اعتُبر إبداعاً في مجاله كانت له غاية وتحقق به الارتقاء في هذا المجال، إلا أن الحلول التي قد تطرح للمشكلة التي عالجها العمل المبدع قد تكون جميعها حلولاً طيبة، ومع ذلك لم نعتبرها إبداعاً، وإنما كان هذا العمل وحده هو الإبداع بعينه بالنظر إلى أنه كان الأمثل الذي يلبي حاجات الموقف، والذي يمكن أن نرتاح إليه أكثر من غيره ويستحدث فينا إحساساً بالجمال والكمال. وجمال الشيء البديع في كماله، ويتأتى جماله وكماله من بساطته وتعقيده معاً، فهو البسيط الذي نرتاح إليه وإن أخفت بساطته تعقيده، وهو المعقّد شديد التعقيد الذي ينصرف تعقيده إلى الربط بين عناصره ربطاً محكماً يخلق منها وحدة بسيطة معجزة في بساطتها. وربما كان الشرط الثالث الذي لا بد أن يتحقق في الشيء ليكون بديعاً، هو أنه بظهوره وتحقّقه يخلق ظروفاً جديدة وتتغير به مواصفات وجودنا البشري، ولكي تكون له هذه الخاصة لا بد أن يتجاوز نطاق خبرتنا بواقعها الحالي، ويستشرف تغييراً في مسارها، بما يقدم من مبادئ أو أفكار

أو مفاهيم جديدة تتحدى القديم، وتغير من نظرتنا إلى الأشياء. ولعل خير نموذج نقدمه في هذا المجال للشيء المبدَع الذي يتجاوز زمنه ويستحدث التغيير الهائل هو: «النظرية الفلكية Astronomical theory» عند كوبرنيك Copernicus (١٤٧٣ - ١٥٤٣)، و«نظرية التطور Evolutionary theory» عند داروين Darwin (١٨٠٢ - ١٨٨٢)، و«نظرية التحليل النفسي Psycho-analystic theory» عند فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩)، و«نظرية فائض القيمة Surplus-value theory» عند ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣)، و«نظرية النسبية Relativity theory» عند إينشتاين Einstein (١٨٧٩ - ١٩٥٥).

ومن صفات العمل المبدع أنه في أول الأمر يكون مجرد رؤية أو استبصار بالحل، ثم يأتي تحقيقه على مراحل، يكون فيها تقويمه وتطويره، ليأتي على الصورة المبتكرة التي هي كماله أو تمام صنعه، وبعد ذلك يكون تقديمه للناس منتجاً مبدعاً. ولربما يكون أيسر علينا أن ندرس الأعمال المبتدَعة دون ما يكتبه المبتدعون عنها، بالنظر إلى أن الشيء البديع هو الملموس والمحسوس، غير أن كتابات المبتدعين ومذكراتهم وما يصرحون به عما ابتدعوا، هي بمثابة التقارير الاستبطانية لعملية الخلق، وقد سهّلت على علماء النفس أن يتبينوا المراحل التي يتم من خلالها الابتكار أو الابتداع، وقيل إنها مراحل خمس، قد تُختَصر إلى عدد أقل، أو قد تزيد عن ذلك أحياناً. وأولى هذه المراحل: هي مرحلة الإعداد أو التأهيل للابتكار والابتداع، بأن يدرس المبتدع ويراكم المعلومات، ويكتسب المهارات والتقنيات، وتكون له عناصر الخبرة التي تمكّنه من استطلاع مشكلة من المشاكل في هذا الباب أو ذلك - من الخبرة أو المعرفة، وحتى تاريخ مواجهته للمشكلة، فإن حياة المبتكر تكون منصرفة إلى هذا التحصيل السابق. ويذهب بعض علماء النفس إلى أن هذا الانصراف إلى التحصيل يكون من بعد مواجهة المشكلة، وأن ماهية المشكلة هي التي تحدّد نوعية الخبرات والمهارات التي عليه أن يكتسبها. والإعداد والتأهيل الكاملان كثيراً ما يكون لهما المردود الفعّال على

الزمن الذي يستغرقه أن يصل المبتدع أو المبتكِر إلى حلّ المشكلة. ولقد بدأ أينشتاين مثلاً يفكر في المفاهيم الأساسية للفيزياء في علاقاتها بسرعة الضوء منذ كان طالباً في السادسة عشرة. واستغرق منه ذلك سبع سنوات أخرى من الدراسة المركّزة وتجميع المعلومات والحقائق قبل أن يدرك أن بإمكانه أن يحل التناقضات في النظريات المعاصرة، بالتوجّه مباشرة إلى المفهوم العادي للزمن، وبعد ذلك لم تستغرق منه كتابة أطروحته الثورية عن النسبية Relativity إلا خمسة أسابيع فقط، رغم أنه كان موظفاً في مكتب لتسجيل براءات الاختراع يضطلع بأعباء الوظيفة الكتابية شأن الموظفين. وقد يبدو أحياناً أن الكثير من الأعمال المبتكرة تأتي نتيجة الصدفة وحدها، فالعالم فليمنج (١٨٨١ - ١٩٥٥) إكتشف تأثير البنسلين بالصدفة، فلقد كان يصنع نوعاً من البكتريا التي من شأنها استحداث الصديد على شريحة زرع عليها فطر البنسلين، وتبين له أن البنسلين حلّل البكتريا. وكانت حادثة سعيدة وصفحة جديدة في علم الطب، ومع ذلك هل كان اكتشافه ذاك عملاً من فعل الصدفة وحدها؟ والذي لا ريب فيه أنه لولا خبرة فليمنج وعلمه الغزير وتخصّصه المتمكّن لما استطاع أن يتفهّم هذه الواقعة ويعلنها اكتشافاً علمياً. ومن قبله كان الناس يعرفون أن عَفَن الخبز - وهو البنسلين - يعالج الكثير من الالتهابات والتلوث، ولكن أحداً لم يرَ في ذلك ما رآه فليمنج. ويبدو أنه في مجال الفن يوجد الكثير من الإلهام Inspiration، لدرجة أنه قد يظن البعض أن الإعداد غير لازم فيه بالضرورة، إلا أن النقاد والمؤرخين ينفون ذلك بشدّة، فخلف كل الأعمال الفنية الكبيرة والمبتكرة كان هناك جهد كبير ومعاناة هائلة ومحاولات مستميتة، إلى أن يجد الفنان المبدع طريقه ويحدّد أسلوبه، ويخرج على الناس بالتحفة التي طالما حلم بها. وهناك موسيقيون معجزة من الأطفال قد نحسب أنهم بدأوا فجأة، إلا أن ذلك من الخطأ البيّن، فالطفل المعجزة Prodigy child يتدرب كثيراً حتى ليمضي النهار كله في التدريب وصقل موهبته وإنضاج قدراته.

والمرحلة التالية التي يعايشها المبتكر أو المبدع هي مرحلة الحضانة Incubation، وفيها تكون المشكلة التي يفكّر فيها، معه دائماً، وتلاحقه باستمرار، ويعيش بها شعورياً ولاشعورياً، ويحتضنها مركّزاً عليها انتباهه، وقد يستغرق ذلك وقتاً نسبياً، بحيث يتوجّه انتباهه تماماً للمشكلة وحلّها دون غيرهما، وكثيراً ما يحدث أن لا يوفق المبتكر أو المبتدع، وأن تواجهه العقبات ويصاب من كثرة التجريب والتفكير وإعمال الرأي بالإجهاد والتوتر والاكتئاب، وقد يدخل المرحلة الثالثة من باب أن يحمي نفسه مما يحلّ به من إحباط، فيتوقف لبعض الوقت، وقد نحسب أنه قد آثر السلامة وانسحب من الميدان، إلا أن تلك مرحلة نسميها «مرحلة ما قبل الاستبصار»، وفيها يكون توقفه وكأنما يحشد قواه النفسية ويعدّ نفسه لكَرّة أخرى على المشكلة، وهو ينتزع نفسه من التفاصيل ويبتعد قليلاً ليراها في منظور كلي، وعندئذ تأتي المرحلة الرابعة وهي مرحلة التنوير Illumination stage، ويلتبس التنوير عند البعض بالإلهام، ويكون في مرحلة التنوير الاستبصار بالحلّ وإدراكه، ويستشعر له بغثيان يصيبه، وتكون به نشوة غريبة حتى لقد يصيح مثل أرخميدس Archimedes (٢٨٧ - ٢١٢ق.م): وجدتها! وباليونانية Heureka ويشتهر نطقها Eureka. ويذهب بعض علماء النفس إلى أن فترة ما قبل الاستبصار هي فترة تريث وراحة، وأنها فترة ضرورية، حيث أن التفكير الابتكاري أو الابتداعي قد ينهكه طول التثبت على المشكلة ومحاولات تنظيم الخبرة، ثم صياغة المشكلة وإعادة صياغتها المرّة بعد المرّة. ومن شأن التوقف لفترة أنه عند البدء من جديد يكون الطرح المتجدّد للمشكلة ورؤيتها من زوايا جديدة. ويذهب علماء نفس آخرون إلى أنه برغم التوقف الظاهري إلا أن المشكلة تظل في التفكير الباطن حتى أنها تكون في الأحلام، وكان ديكارت Descartes (١٥٩٦ - ١٦٥٠) يقول بأنه رأى في حلمين فكرة الهندسة التحليلية: ويذكر فريدريك كيكوليه Kekulé (١٨٢٩ - ١٨٩٦) أنه رأى الحل في حلم تمثّل في ثعبان يستدير على نفسه ويعض ذيله،

فأعطاه ذلك فكرة الشكل الحلقي لجزء البنزين؛ ويذكر هنري بوانكاريه Poincaré (١٨٢٤ - ١٩١٢) تأكيداً لنظرية التفكير الباطن أن فكرة حساب التفاضل والتكامل جاءته وهو يخطو بقدمه على عتبة أحد الأتوبيسات، وكان الموسيقار موتسار Mozart (١٧٥٦ - ١٧٩١) يقول إن الأنغام تأتيه على شكل خطوط متموجة تظل تتحرك إلى أن تأتلف حركاتها في الموسيقى التي يكتبها. ولعله لذلك يقول علماء نفس آخرون إن التفكير الابتكاري هو تفكير حدسي Intuitive thinking. ومن رأي البعض أن المبتكر قد لا يرى في لحظة التنوير حلّ هذه المشكلة فقط ولكن حدسه أو بصيرته «تتفتح» على مشاكل أخرى وحلول لها تتعلق بالمشكلة الأولى وتفجّرها.

ولا شك أن المرحلة الأخيرة وهي مرحلة التحقيق Vertification من أهم المراحل التي يمرّ بها التفكير الابتداعي أو الابتكاري. فالمبتدع إذ يتوصل إلى حلّ المشكلة أو يكتشف الجديد يكون عليه أن يتحقق من صدق ما توصّل إليه والتجريب عليه، واختبار صدقه وتطويره وطرحه حقيقة واقعة، فالرؤية التي تجيء الفنان لا بد أن يجسدها في الألوان والأشكال، أو ينحتها في الحجر، أو يكتبها كلمات وحواراً وفصولاً وأبياتاً شعرية أو عبارات موسيقية. والفرض الذي يتوصل إليه العالم يتوجب عليه أن يختبره بالملاحظة والتجريب. وهناك معايير للحكم على الإبداع الفني تختلف عن تلك التي تستخدم في مجال الإبداع العلمي، بسبب اختلاف الموضوعات، إلا أنه لا بد في كل الأحوال من أن تكون هناك محاولات يتحقق من خلالها العمل البديع الفني أو العلمي. ولربما يكون من الأيسر أن نرى رأينا في الإبداع العلمي بالنظر إلى أن مجاله لا يخضع للذوق، إلا أنه حتى في الابداع العلمي هناك اختلافات لا بد منها، فمثلاً كان من الميسور التحقّق من صدق نظرية النسبية من ملاحظة واحدة لحالة الكسوف الشمسي، بينما اقتضى الأمر إجراء آلاف التجارب على العقاقير النفسية المسماة بالمهدئات للتأكد من صدق تأثيراتها على الجهاز العصبي.

وهذه المراحل الخمس السابقة قد

تتحصل في عملية الابتداع تباعاً وبالترتيب الذي أوردناه، أو قد تنضغط وتتداخل وتُختَصر. وقد تستغرق وقتاً قد يستمر لسنوات كما في حالة أينشتاين ونظرية النسبية، وقد لا تستغرق إلا أقل الزمن كما عند ارتجال الشعر المعجز والكثير من الموسيقى المبهرة. وعملية الابتداع عملية شديدة التعقيد فيها التذكر والتفكير والتصور، وفيها الكثير من الدوافع، وتتضمن إصدار القرارات. وهناك الكثير من الدراسات حول شخصية المبتدع. وتقيس الابتداع إختبارات الابتداع Creation tests. ويتميز المبتدع بأنه إنسان ذكي، أو انه في الابتداع لا بد من قَدْر من الذكاء قد يختلف من مجال إلى مجال آخر، لكنه في كل الأحوال لا بد أن يكون ذكاء المبتدع فوق المتوسط. والذكاء وحده لا يكفي. ويُروى أن توماس هكسلي Huxley (١٨٢٥ - ١٨٩٥) عالم الأحياء الأشهر وكان معاصراً لداروين، عندما سمع بنظرية التطور صاح متعجباً كيف لم تعنّ خواطرها له وهو يعرف كل حقائقها التي قامت عليها. والأهم من الذكاء أن تكون للمبتدع القدرة على استخدام الذكاء بكفاءة عالية، ويبدو أن صفة «الانفتاح» التي نوَّهنا عنها من أهم صفات المبتدع، وبقدر ما هو منفتح على ما يأتيه من العالم الخارجي من مؤثرات فإنه أيضاً منفتح على تجاربه الباطنة، ويستقبل المدركات الحسية ولها عنده معان ومتضمنات. وانفتاحه يجعله صريحاً يكشف باطنه، ومرناً مع الناس والمواقف، ويريد أن يتواصل بالغير. ومع ذلك فهو المستقل بتفكيره وسلوكه والذي لا ينتمي عن غير تعمّد، إلا أن هموم جماعته تعنيه ويصدر في قراراته عن التزام بمشاكلهم برغم أنه لا يلتزم بتقاليدهم. وصراحته تصادمه مع الغير، ونقده حاد يأخذ به حتى نفسه، ويغيّر باستمرار في قراراته، ومستعد لتقبل ما يقتنع به من غير حساسية، وأن يبني عليه ويطوره. وثقته في نفسه تجعله دائباً على العمل ولا يعوّل على أحد. وفكرته عن ذاته عالية جداً حتى ليتصرف وكأنه الذي على يديه خلاص الناس وارتقاء العالم وحلّ المشاكل، ومع ذلك فهو المتواضع شديد التواضع وبه رقّة كالنساء. واحتماله

لأعباء عمله تجعله مجاهداً، وذكورته ضرورية لكي تكون به هذه العدوانية التي تدفعه إلى مهاجمة المشاكل والتصدّي لها حتى يبلغ فيها إلى الحل، إلا أن سلوكه الأنثوي ليحجب أحياناً ذكورته. والمبتدع يتميز بالطلاقة في التعبير، ويقصد إلى العبارة التي ينشدها من أيسر سبيل، وطلاقة تعبيره تكون بحسب مجاله، فإن كان موسيقاراً فهي بالأنغام، وإن كان رسّاماً فبالألوان والخطوط، وإن كان نحّاتاً فبالأوضاع، وإن كان رياضياً فبالأرقام والرموز. والمبتدع الفنان يتميّز بحسّ وجداني عال؛ والمبتدع العالم له القدرة العظيمة على التفكير، وفي كل الأحوال هو الذي يرى ويسمع ويفكر ويتصور كما لا يفعل الناس، ولا تحدّه الحدود، ولا يعاني من العُقَد والكوابت والقوامع، ولكنه يعاني القلق أثناء الخلق والابتداع، ولكنه ليس القلق العصابي وإنما القلق الخلاّق، وقيل هو قلق ينفرد به المبتدعون، وأنه طوال عملية الخلق والابتداع تكون به عصبية Nervosity، إلا أنها ليست العُصابية Neuroticism وإن كانت تجعله مغرباً في السلوك بعض الشيء. وقد يلبس كما لا يلبس الناس، وقد يتَّسم ببعض الشذوذ، إلا أن المبتدعين عموماً أسوياء بدنياً ونفسياً وعقلياً، وأهم ما يميّزهم أنهم القادرون على السيطرة على الأنا والتحكم في انفعالاتهم. ودراسة حياة المبتدعين تجعلنا نجزم أن الابتداع ربما يتوافق وظروف خاصة تكون لهم في طفولتهم، وقيل إن الملاحظ أن الغالبية منهم كانوا أيتاماً، وكانت لهم طفولة بائسة، وأشرفت أمهاتهم على تربيتهم، وعاشوا معهن في التصاق شديد ألهب فيهم الحسّ الأنثوي، وأوقد جذوة الذكاء والخيال والطموح، وجعل لهم حياة باطنة ثريّة لولاها لما كانت توجهاتهم الابتداعية المستقبلة. وحتى من تربّي منهم في أحضان الوالدين، ولم يعانِ المعاناة السابقة، فإن حياته اتسمت بالاستقلالية وتشجيع والديه له على أن يكون له تفكيره وسلوكه المستقلان، وأن تكون له الحرية التي تيسر له الاستكشاف وأصدار القرارات، وكانت في محيطه العائلي أو بيئته الاجتماعية نماذج جيدة يقتدى بها ويتمثل قيمها ويكوّن على منوالها أناه

المثالي. وكانت المعايير التي يأخذ بها من الوضوح بحيث يسهل عليه أن يتمثّل معاني وموضوعات الخير والشرّ، والحقّ والباطل، والصواب والخطأ، والجميل والقبيح. ويميّز حياة المبتدعين جو التدريب على التفكير الابتداعي الذي كان لهم في حياتهم وعبر مراحلها المختلفة، واختلاف ما نشأوا عليه من الطرق التربوية التقليدية. وينفي المؤرخون الدارسون لحياة المبتدعين أن تكون لهم بيئات متزمتة، أو أن يكون قد أخذهم أحد بالنظام الصارم، أو أن تكون طريقة التعلّم عندهم هي طريقة الحفظ بدون فهم. ويروون أنهم منذ الطفولة كانت لهم أسئلة تُحتَرم من قبل ذويهم ومدرّسيهم، وأن خيالاتهم ما كانت تُسَخَّف، وأن أفكارهم كانت تُقابل بالاحترام، وأن استجاباتهم ما كانت تواجَه بالتهديد بالتقويم الخارجي، غير أنه بالنظر إلى أن المبتدع يميل بطبعه إلى المعقّد عن البسيط، والتسامح مع الغامض، ونقصان التصلب الوجداني والمعرفي، والانفتاح الذهني، وروح الدعابة، والميل إلى القَدَرية، وسعة الخيال، فإنه قد يصدّق كل ما يقال له ويسايره لتجربته، ويُروَى الكثير عن سذاجة مبتدعين من أمثال كوبرنيك، ورمبرانت، ومايكل أنجلو، وبيتهوفن، وجوته، وفرويد، وداروين، وأينشتاين. وقيل مثلاً إن فرويد وهو عالم النفس الذي له عمق النظرة قد صدّق لفترة الفلسفة الحروفية التي للأعداد والحروف وأخذ بها وسايرها لبعض الوقت، وأن أينشتاين قد أخذ بالفكرة الصوفية وكان أوقيانوسي Oceanic النظرة كما يقولون أي شمولياً كونياً، وأن داروين كانت له بساطة أهل الريف حتى كانوا يتحدثون عنه باسم «القروي The villager».

والمبتدع بالإضافة إلى الذكاء الذي نوهنا عنه ينبغي أن تكون له قدرات خاصة بحسب مجال تخصّصه الذي يكون فيه إبداعه. ولا يتأثر الابداع بالسن كثيراً، وقد ثبت من الدراسات المختلفة أن المبتدع يظل ابتداعه وابتكاره طوال العمر، إلا أن هناك فترات يبدو فيها كما لو كان معين الابتداع قد نضب، أو أن هذا المعين قد أخذ يدر بغزارة وثراء. ويختلف ذلك أيضاً بحسب مجال

الابتداع، ففي الرياضيات والشعر مثلاً ثبت أن أفضل القصائد وأعظم النظريات وضعها المبتدعون في سن العشرينات، بينما كان تأليف أفضل الروايات والقصص عند الروائيين والقصّاصين في سن الثلاثينات وحتى في الشيخوخة. وفي العلوم الطبيعية لوحظ أن أحب سنين العمر هي السن بين السادسة والعشرين والثانية والثلاثين. وبرغم ذلك كانت هناك أعمال مبتكرة عظيمة وكثيرة في كل الأعمار حتى سن الثمانين وما بعدها. وقد يحدث أن المبتدع يُشغَل بالحياة والوظيفة، وتكوين الأسرة وإعالتها وتأمينها، حتى ليؤجل إبتداعه إلى سن يستطيع فيها أن يواصل بحوثه وقراءاته. وقيل إن فرويد تأجل اكتشافه للعُصاب وسبقه إليه بروير بسبب انشغاله بميعاد غرامي مع زوجته المستقبلة. وعندما تستقر أمور المبتدع فقد يعود إلى قراءاته التي يحبّها وبحوثه التي تركها، وقد نسمع آنذاك عن أعمال بديعة يأتيها في سن متأخرة. ويعوق الابتداع أن يكون هناك قصور في ثقافة المبتدع، أو أن تعوقه ظروفه والبيئة الاجتماعية غير المشجعة أو المعلومات المغلوطة، أو تكون له اتجاهات ثابتة وآراء جامدة، أو تكون دوافعه غير كافية أو دوافع مادية محضة أو ذاتية خالصة، أو كانت به مخاوف من أن يساء فهمه، أو ينبذه قومه أو يصدم الناس من حوله. وقد تكون له طرق في التفكير والبحث تجعله دائم الشك ويغالي في التحليل، حتى ليذهب فيه بعيداً عن دائرة المشكلة ويدخله في متاهات فكرية وتجريبية، ويصرفه إلى المزيد من القراءة والتحصيل حتى ليشغل بذلك دون ما يعالج من مشاكل وما يتصل بها مباشرة.

وقد يبدو أنه في الابتداع والابتكار يختلف الذكور عن الإناث، ويكاد يكون الابتداع تاريخياً وقفاً على الذكور دون الإناث، وهناك مجالات تقتصر بالكلية على الذكور دون الإناث، إلا أنه مع الظروف المتغيرة حالياً والتنشئة الاجتماعية المختلفة بدأت الإناث يتعرضن للتربية نفسها التي يتعرض لها الذكور، ومن ثم صارت النساء يشاركن في مختلف الأنشطة الاجتماعية والعلمية

والأدبية والفنية والوظيفية، وبدأت تظهر لهن إبداعات ملحوظة، وإن كان أكبر إبداع يمكن أن يكون للمرأة هو إنجابها للأطفال وتنشئتها لهم بحكم تكوينها البيولوجي، وحتى من كانت لهن أنشطة فكرية من النساء فإن الإنجاب كان متساوقاً مع الإنتاج الفكري، وهو مثلاً ما علمناه من حياة الروائية جورج صاند George Sand (١٨٠٤ - ١٨٧٦)، والعالمة مدام كوري Marie Curie (١٨٦٧ - ١٩٣٤). وربما تكون المرأة أكثر عصبية من الرجل، وربما تعاني من قلق أساسي وتفتقد الاستقرار الانفعالي والإيجابية والمبادأة اللازمة لعملية الخلق والابتداع، إلا أن البعض قد يكون بهن المطلب الذكوري Masculine protest بتعبير أدلر، وربما ينشدن لذلك بتأثير عُقدة الذكورة Masculinity complex الدخول في منافسات مع الرجال، وأن تكون لهن اتجاهاتهم وميولهم، ومن ثم يدخلن ميدان الابتداع والخلق والابتكار. ومع ذلك فقد قيل أيضاً من ناحية أخرى إن المبتدع رغم ذكورته به بعض الأنوثة، وكذلك فإن بعض المبتدعين يعاني من اضطرابات نفسية واضطرابات في الشخصية، إلا أنه في الابتداع عموماً تلزم للذكور والإناث بعض المعاناة النفسية التي لا شك فيها. ويختلف المبتدع من جهة العصبية عن غيره، ويزيد به القلق، غير أنه يسيطر على قلقه وعلى عصبيته، وكانت الاختبارات النفسية في صف: القليل من الاعتلال النفسي مع الكثير من الذكاء وثراء الشخصية، والصراحة في التعبير، والميل إلى النقد الذاتي، وأخذ النفس بالشدة والاعتراف بأوجه القصور، وأثبتت أيضاً أنوثة المبتدعين أو اهتماماتهم وطرائقهم الأنثوية في التعبير من جهة العواطف والمشاعر، وبلغة يونج فإن ذكور المبتدعين لا يتعينون تماماً بأدوارهم الذكورية، وأن أنوثتهم تجعل لهم حساسية للخبرات الباطنة، حتى انهم ليحدسونها،ويضفون عليها إيحاءات تجعلهم يميلون إلى الانطواء وإن غالبوا أنفسهم أن يكونوا منبسطين، ولعل هذه المراوحة بين الأنوثة والذكورة بمقتضياتهما، وبين الانطواء والانبساط، هي ما يجعل سلوك

المبتدع على غير المألوف حتى ليُتّهم أحياناً بالشذوذ أو الإغراب.

مراجع:

- Wertheimer,M: Productive Thinking.
- Koestler, A: The Act of Creation.

❖ ❖ ❖

-٣-
سيكولوجية الأحلام
Dream Psychology

الأحلام وضرورتها، وأنواعها، وأنماط الناس الذين يحلمون، والأسباب التي من أجلها نحلم، والفرق بين أحلام الكبار وأحلام النساء، وأحلام الأطفال.

❖ ❖ ❖

الناس غالباً عمليون وماديون، ورغم أنهم أنماط، إلا أن النمط العملي المادي هو النمط السائد الذي كثيراً ما نلتقي به في الحياة، وكذلك صار الفنانون والأدباء عمليين وماديين، وصارت نظرياتهم في الفن نظريات عملية مادية، تهتم بتصوير حاجات المجتمعات والشعوب والأفراد، وبلغة علم النفس فإن ما يهم الجميع اليوم هو الأشخاص كأنا the «I»; the ego، وكَهُوَ the «he»; the unconscious، وأما بواطن الناس ونواياهم وما تنطوي عليه أفكارهم وتحتوي عليه عقولهم، فذلك ما لا يهتم به أحد، وعلم الباطن هذا هو الذي نسميه علم اللاشعور the unconscious. والأنا ego هو الجزء المستور من النفس والذي يتعلق غالباً بالماضي، والناس يعنيهم الظاهر دون الباطن، ويهمهم أن يعرفوا من أمر الذات والأنا ما يساعدهم في لقاءاتهم مع غيرهم بحيث يخرجون من هذه اللقاءات بحصيلة من الفوائد، أو بحيث يستطيعون أن يتنبأوا بسلوكهم فيكيّفون أنفسهم على ذلك، ويغيّرون من معاملاتهم، ليجنوا أكبر الفائدة. وسيكولوجية الأنا ego-psychology تجد رواجاً معاصراً دون سيكولوجية اللاشعور unconscious psychology، سواء من الناس العاديين أو من علماء النفس. وتقوم سيكولوجية

الأحـــــلام Dream-psychology على الإحاطة بمجريات اللاشعور، فليس ما يظهر في الحلم هو حقاً موضوع أو معنى الحلم Dream-thought، والحلم نفسه Dream-text كجبل الثلج، ما يظهره من أحداث the d.-phantasies هو شيء بسيط جداً يعلو على السطح، بالنسبة لما يخفيه تحت السطح وفي الأعماق the d.-problem، والإحاطة بسيكولوجية الحلم هو ما نعرفه باسم تحليل الأحلام Dream-analysis. وكانت الأحلام وما تزال من أهم وسائل الكشف عن ديناميات الشخصية ومكوناتها النفسية وأبعادها. وإذا كانت مذكرات الشخص أو يومياته أو كتاباته التي بينه وبين نفسه هي من وسائل الإحاطة بما يفكر فيه الشخص، وما يدور في نفسه، وما يخبئه ولا يفصح عنه إلا لماماً، فإن الأحلام هي الأكثر فائدة في هذا المجال، وذلك لأن الكبت Repression يعمل عمله في الكاتب عند كتابة المذكرات أو اليوميات، أو ستر الأشياء، والتمويه على القارئ، وأما في الحلم فالكبت أقل عملاً؛ والحلم أقدر على التعبير عن الأماني والرغبات والحاجات والآمال والمخاوف التي تعجّ بها نفس صاحب الحلم.

والحلم سجل للشخصية، وإذا كنا نتميز عن بعضنا البعض في المشي أو الكلام أو الكتابة بطريقة معينة نُعرف بها وتكون علامة علينا، وإذا كان في استطاعتنا أن نوجه كلامنا أو نصطنع الكتابة أو المشي بطريقة مختلفة للتمويه، فإنه في الأحلام لا سبيل لنا للاصطناع، فنحن في الحلم على سجيتنا، ونعبّر عن أنفسنا بتلقائية.

ولا تراعي الأحلام الأصول الاجتماعية، وتوصف بأنها وسيلة إسقاطية، بمعنى أننا نسقط فيها كل ما نتمنى ونرغب متحررين من أية قيود اجتماعية، ونُخرج كل ما عندنا من المعاني، وكل مشاعرنا، بعفوية لا يمكن أن نجدها في أي موقف آخر. ونحن في الأحلام نتخيل ونمارس الخيال، غير أن خيالاتنا في الأحلام ليس فيها إعمال وتكلف واصطناع كممارساتنا له في الكتابة مثلاً أو في التمثيل.

والحالم في حلم النوم Night-dream ليس كالحالم في حلم اليقظة -Day

waking dream or d.، فإن كان حلم اليقظة إهتمامه بالحاضر، ومشاهده الخيالية لأحداث مستقبلية، فإن حلم النوم يتوجّه بمشاهده إلى الماضي وإلى المستقبل معاً. والحلم منه ما هو هروب من الحاضر إلى الماضي، وما هو هروب من الحاضر إلى المستقبل، ففي الحلم تتصارع الرغبات، وبعضها من الماضي يدفع إليه الندم، وبعضها يمت بصلة للمستقبل ويستشرقه، والحلم ينظمها جميعاً بعد شتات، وينفخ فيها حياة جديدة، لها وحدة درامية فريدة تجعل كل حلم نسيج وحده، وتضمه لبقية أحلام الشخص، كفصول المسرحية الواحدة أو تابلوهاتها المتابعة، فيفسّر كل حلم أحلاماً أخرى ويضفي عليها معان جديدة. وحتى لو لم تكن الأحلام تهمّ الحالم، فإن عملية الحلم Dream-process نفسها ضرورية كنشاط حيوي، والكثير من الناس يحلمون أحلاماً مبهرة تعطي لحياتهم بريقاً ولمعة ليست لها، وكأن الأحلام تعويض أو استكمال لحياة تخلو من كل بهرج أو جمال.

والحالم قد يحلم لأنه يريد أن يحلم، وكان المصريون القدماء يستجلبون الأحلام ليستلهموا منها حلول مشاكلهم وعلاج أمراضهم، ومن ذلك حلم فرعون يوسف في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ المَلِكُ إنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ(٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ(٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ(٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إلى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ(٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ(٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ(٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ (يوسف: ٤٣ - ٤٩)، فلو لم يكن مشغولاً بالفيضان وبالمحصول ما كان يمكن أن يحلم هذا الحلم. وكان الملوك والغزاة

والفاتحون يطلبون الأحلام ويعيّنون في بلاطهم المفسّرين، لعلهم يستفتحونها تواريخ الأحداث الكبرى والنتائج المترتبة عليها، وفي عصرنا من يفعل ذلك، وقيل إن السادات استجلى الأحلام وطلب المفسّرين قبل هجومه على خط بارليف في حرب التحرير، والكثير من الروائيين سعوا أن يحلموا بنهايات لوقائع رواياتهم.

وللأحلام لغتها ومنطقها Their language and logic، فهي نشاط ونتاج إنساني، ومن ثم كان لا بدّ أن تُطبَع بالطابع الإنساني، ولا بدّ أن تشترك الأحلام عند كل الشعوب في بعض الصفات، وهذا هو الجانب الإنساني العالمي فيها، ويلزم لهذه اللغة المشتركة كتيبات يؤلفونها كقواميس للأحلام Dream-dictionaries، مع فارق أن معاني بعض النباتات أو الحيوانات قد تختلف باختلاف الثقافات، فمن يحلم بالخنزير مثلاً في بلاد الإسلام قد يؤوِّل الحلم تأويلاً مختلفاً عما يمكن أن يؤوِّله الحالم من دائرة الثقافة الأوروبية والتي فيها الخنزير محلل أكله بعكس بلاد الإسلام.

ويبدو أن الناس يتباينون في الأحلام كنشاط إنساني إبداعي تباينهم في سائر الأنشطة الإبداعية بحسب أجناسهم، والملاحظ أن الساميين هم أكثر شعوب العالم إهتماماً بالأحلام، ولذا قيل إن الشعوب السامية شعوب ميتافيزيقية وليست فيزيقية، ولذلك أبدعت الديانات وهي من مجال الميتافيزيقيا، وكانت أقدم مؤلفات في الأحلام سامية، وقيل إن أقدم كتاب في الأحلام كان ورقة بَرْدى مصرية (والبردى نبات مائي كالقصب يُصنع منه الورق قديماً) من الأسرة العشرين يرجع تأليفها إلى زمن بين السنوات من ٢٠٠٠ إلى ١٧٩٠ق.م، وقيل إن البابليين مهروا في تفسير الأحلام، وكانوا يعتبرونها رسالات سماوية منبئة أو منذرة أو مبشرة. وكان مفسرو الأحلام يشكلون طبقة عليا من المجتمع، ولا تخلو منهم مدينة ولا قرية، وكانوا نوعاً من الكهنة. وكان الناس يذهبون للمعبد وينامون فيه لعلهم يحلمون بحلّ لمشكلتهم أو مرضهم. وكان الاسكندر الأكبر (الاسكندر وشهرته الأكبر، وذو القرنين (٣٥٦ - ٣٢٤ق.م، وكان من أكبر الغزاة

والفاتحين) يحلم ويهتم بتفسير أحلامه ويراعي التفسير في قراراته، وكذلك فَعَل رمسيس الثاني (من أمجد ملوك مصر ١٢٩٢ - ١٢٢٥ق.م) وحلم ابراهيم أنه يقتل إبنه اسماعيل، وحلم الامبراطور (أشور بانيبال ٦٦٨ - ٦٣٣ق.م)، وتحتمس الرابع (من ملوك مصر عاش نحو سنة ١٤٢٠ق.م)، وعرفنا أحلامهم لأنها كانت محورية في سيرتهم الذاتية، وفي تحريك الأحداث في العالم. وتقوم سيكولوجية الحلم على أن الأحلام تأتي الناس أصحاب الشفافية، وأن الأحلام إما رغبات لم تتحقق، أو نرجو أن تتحقق، وإما أخبار ننتظرها ونتوقعها لأحداث نخشى مغبتها. وكما في الأحلام دراسات سيكولوجية، كذلك فيها دراسات انثروبولوجية. وهناك نظريتان فيها، إحداهما تُرجع الأحلام كرؤى إلهية وتجسّدها كتعبير عن القَدَر، وعن الإيديولوجية الدينية السائدة في الأمة، والثقافة التي تميّزها؛ والأخرى نظرية عقلانية تعامل الأحلام كرؤى خاصة بالأفراد وتصنّفها كأنماط، وتعمد إلى تفسيرها وتحليلها وتأويلها باجتهادات فلسفية، والنظريتان موجودتان في الثقافة العربية، فابن سيرين (محمد بن سيرين، ٦٥٣ - ٧٢٩م، إشتهر بتعبير الرؤيا، ويُنسب إليه الكتابان «تعبير الرؤيا» و«منتخب الكلام في تفسير الأحلام») يقسّم الأحلام إلى قسمين: فقسمٌ من الله، وقسمٌ من الشيطان، ويطلق على الحلم من القسم الأول «الرؤية الصالحة»، وينسب إلى الثاني: أن بعضها أحلام فسيولوجية، مصدرها الجسم وما يصيبه من امتلاء بالطعام أو خلوه منه، فالجائع يحلم بالخبز، والمحروم جنسياً يحلم بالنساء، وبعضها أحلام نفسية فيها الآمال والمخاوف والأحزان.

ومن عباقرة سيكولوجية الأحلام في العربية عبد الغني النابلسي (١٦٤١ - ١٧٣١م وله في التفسير «تعطير الأنام في تعبير المنام»)، ويذهب إلى نظرية في مصدر الأحلام، فيقول: إن النائم يرى في منامه ما يغلب عليه من الطبائع الأربعة، فإن غلبت عليه السوداء، رأى الأحداث والسواد يجللها، والأهوال والأفزاع تتخللها؛ وإن غلبت عليه

الصفراء، رأى النار والمصابيح المعصفرات؛ وإن غلب عليه البلغم، رأى البياض والمياه، والأنهار والأمواج؛ وإن غلب عليه الدم رأى الشراب والرياحين والمعازف والمزامير. ويطلق النابلسي على هذه الأحلام إسم الأحلام النفسية، أو الأحلام التي من هِمّة النفس، ويقول: «إنَّ أنصح الرؤى هي البشرى، وهي التي تبشّر الرائي بالخير، بعكس الرؤيا الزاجرة التي تحذّر الرائي من شيء من الأشياء. والرؤيا البشرى صريحة، بعكس الرؤيا الزاجرة، وهي المرموزة التي تكثر فيها الرموز، كأن يحلم الشخص بأن زوجته تخونه، فيراها تدسّ له السمّ، والسمّ هنا رمزٌ للزنى؛ أو كأن يرى الرائي نفسه يغنّي في المسجد بدلاً من أن يصلي، فذلك رمزٌ إلى إتيان المعصية وافتضاحه». وابن سيرين يُخضع سيكولوجية الحلم في العربية أو في الإسلام للمكان والزمان ولنوع الثقافة. ويقول النابلسي: «واعلم أن تربة كل بلد تخالف غيرها من البلاد، لاختلاف الماء والهواء والمكان، ولذلك يختلف تأويل كل طائفة من المعبرين باختلاف الطبائع والبلدان، كالذي يرى في المنام في بلاد الحر ثلجاً أو جليداً، أو بَرَداً ، فإنه يدل على الغلاء والقحط؛ وإن رأى الرائي ذلك في بلد من بلاد البرد فإن ذلك لهم خصباً وسعة. والوحل لأهل الهند مال، ولغيرهم محنة وبلية. والسمك في بعض البلاد عفونة، وفي بعضها مصيبة».

ويذهب كثير من ثقاة الأنثروبولوجيا إلى ردّ الصور الحلمية إلى بداية الإنسانية، وأنها بمنزلة الفطرة، ويقولون إنها لغة بدائية، وتشبه لغة الديانات البدائية، وكأنما التفكير البدائي أو الفطري يجمع بين الاثنين، ولعل ذلك سبب القول إن بعض الأحلام مصدره إلهي، وكل الثقافات بها ما يثبت أن البعض يردّ بعض الأحلام إلى الوحي الإلهي، وفي تصنيفها أن الأحلام إما رؤى وإما منامات، والرؤيا صادقة لأنها موحى بها، والمنام يحتاج إلى التفسير ومصدره الشخص نفسه والظروف المحيطة به. وكان القدماء يؤمنون بما يسمى الاحيائية Animism، نسبة إلى الأحياء، بمعنى أن كل ما في الطبيعة هو حيٌّ بحياة، حتى الجبال والصخور والمياه والمعادن. وفي

العلم الحديث فإن ذرة كل عنصر تشتمل على النواة وحولها تدور إلكترونات ونيوترونات، إلخ، وهذا الدوران دليل حياة حتى في أعتى الصخور صلابة وأقوى المعادن. وكان الناس قديماً يرون أن قوى الطبيعة في تواصل، وأن كل الأرواح والحيوانات على اتصال، وأظهر ما يكون ذلك في الأحلام، وفيها تبوح الكائنات والموجودات بأسرارها. وكان ابن سيرين - هذا العبقري العربي - يقول: إن الناس يرون الرؤيا بالروح Spirit، ويفهمونها بالعقل Mind. وعنده أن مكان كل حركات الحياة القلب، والقلب هو روح الإنسان، ويتصل بالدماغ، ويؤثّر في النفس، فالقلب المريض يعني أن الروح مريضة، ومن ثم فالدماغ والأعصاب والجسم كله مريض، وكذلك في كل الانفعالات والمزاجات، فإذا نام الإنسان إمتدَّ روحه مثل السراج أو الشمس واتصل بهذا وذاك، ورأى من يحب، وخاف من يكره، وتمنى وأمِل، وبذهاب النوم ترجع إلى النائم نفسه، فتعود الحواس باستيقاظه إلى أفعالها العادية.

وهناك رأي يصنّف الحسّ إلى حِسّيْن، الحسّ الروحاني والحسّ الجسماني، والروحاني Spiritual علوي وأشرف من الجسماني ويدل على ما سيكون؛ والجسماني Carnal خسيس، ويدل على ما هو موجود، يعني أن الأرواح في الأحلام تستشرف ما سيكون، وأنها تستبطن النائم، وتظهر بواطنه، وتكشف مكنونه، وتعرّي أسراره.

وزيارة القبور من العبادات، ومصدر هذه الشعيرة هو الأحلام، فإذا كان الميت عزيزاً فإننا نزوره تأكيداً للتواصل بيننا وبينه، وأهم من ذلك أن نجعل الزيارة سبباً لأن يردّ الميت زيارتنا له بزيارة مماثلة في الحلم. ولولا أننا نعجب لحشود الأحلام التي نحلم بها وتنوعها، لما كان اعتقادنا في زيارة الجبّانات، فعالم الأحلام الحافل هو عالم روحاني، والدليل على ذلك أننا ونحن نيام، والمفروض أن تتعطل كل الحواس، فإن حاسة الأحلام تنشط حينئذ لتواصل حياة النائم وتحقّق له ما كان يتمنى، وما كان يلح عليه على هيئة رغبات شديدة. والأحلام هي السبب في قولنا بالروح Soul; spirit; nous; psych; pneuma، وأنها

كائن يتخارج عنا، ويجوب الآفاق ويعود إلينا مع نهاية الحلم ليواصل عمله في الجسم، وذلك يدل على أن الروح لا تنام بينما ينام الجسم، وأن مجالها الأحلام في النوم، كما أن مجالها الحياة الخارجية في القظة، وما كان يمكن أن نقول بذلك لولا الأحلام ومعرفتنا ودراستنا لسيكولوجيتها. والأحلام هي سبب قولنا بفكرة الخلود Eternity ، لأن النوم موت أصغر، والروح فيه تتجوّل إلى الجوار، فإذا كان الموت الأكبر فلا بد أنَّ الشيء نفسه يحدث معها إلا أنها لا تعود فيه إلى الجسم، فرحيلها هذه المرة رحيل بلا عودة، والروح إذن موجودة ولا يعتريها الموت كالجسم، وهي كائن خالد، فإذا وقع عليها عقاب، أو نالها ثواب، فلا بد أنهما خالدان بخلودها، ولذا قيل بجهنم وبالجنة خالدين فيهما. والأحلام أكبر دليل على وجود الله، وأنه حيّ لا تأخذه سِنَة ولا نوم، فالأرواح المتكثرة لا بدّ أن ترجع إلى الواحد غير المتكثر، مثل الناس الكثيرين، فمرجعهم إلى آدم وحواء، ثم هذان مرجعهما إلى واحد وهو آدم. وآدم لم يخلق نفسه، لأن كل مُحدَث (بالفتح) لا بد له من مُحدِث (بالكسر)، وإذن فالله موجود، وكانوا قديماً يسمونه الروح الأكبر The supreme spirit. والأرواح لا تنام، وتواصلها أكيد مع بعضها في أثناء نوم الأجساد، وبعضنا قد يرى أن الله تحدّث إليه أو أشار عليه، وذلك من عمل الأحلام في عالم الأرواح، وحتى فكرة التناسخ Transmigration; metempsychosis مردّها إلى الأحلام، ففي الحلم يمكن أن يتحول الإنسان إلى حيوان أو طائر، ومن ثم تولّد الاعتقاد بإمكان ذلك في الحياة، باعتبار أن عالم الأحلام يعكس عالم الأرواح، وعالم الأرواح هو عالم المُثُل أو الأصول، وعالم الواقع هو عالم الأشباح، وما يجري في عالم الأرواح لا بد أنه أيضاً يجري مثله في عالم الواقع. ومن ثم ذهب الناس إلى الاعتقاد في فكرة التناسخ، والقول بالطوطمية Totemism، وبالطوطم Totem، وهو أن يكون لنا جميعاً كقبيلة أو شعب أصل إلهي نُنسَب إليه، ويسري فينا، ويجعل من ثم من الممكن أن نتحول شكلاً إلى بعضنا البعض في الواقع وفي الحلم أيضاً.

ومن البديهي أن تكون للشخصية ومكوناتها والأحداث التي تمرّ بها تأثير على أحلامنا، غير أن القليلين جداً تحدثوا في تأثير الأحلام على سلوكياتنا وعلى الثقافة التي نتفيأها، والأنثروبولوجيون النفسيون Psychological anthropologists هم أكثر العلماء دراسة لهذا المجال، فضلاً عن أن الأحلام تجعل الحالم بمزاج معين بعد أن يصحو من نومه، فيتوجه لأفعال معيّنة، أو يفكّر بطريقة خاصة، كأن يحذر - بعد الحلم - أحد الناس، أو يحاذر فيما يسلك، فإنَّ الكثير من الإنتاج الفكري هو من وحي الأحلام، والكثير من الأساطير، والملاحم، والشعر الملحمي، والعقائد، والخرافات، يمكن ردّه إلى الأحلام. وعند اليهود والنصارى والمسلمين مثلاً فإن النبيّ يوسف لم يُعيَّن وزيراً إلا نتيجة حلم - هكذا تقول الرواية، وانه لم يبنِ صوامع الغلال ويغيّر النظام الاقتصادي الإنتاجي المصري، والنمط الاستهلاكي في أرض جاسان من أرض مصر (محافظة الشرقية) حيث جرت وقائع قصص إبراهيم ويوسف وموسى، إلا بسبب الأحلام. ولو لم يكن حلم إبراهيم بأنه يذبح إبنه إسماعيل لما كانت نظرية الفداء Redemption theory في الدين، ولما كان احتفال المسلمين بالملايين بعيد الأضحى وتضحيتهم بالأكباش السمان، وقد نتساءل: لو لم يكن ذلك الحلم، أكان العالم يخسر سنوياً هذه الثروة الحيوانية التي تذهب هباءً في يوم واحد باسم أضحية العيد؟ وقد صدّق ابراهيم الرؤيا وهَمَّ بذبح ابنه، ولولا أن تداركتنا رحمة الله لكان الفداء الآن بالابن الأكبر! ولكن تصحيحه تعالى لفهم إبراهيم بوظيفة الحلم أكّد أن الأحلام رمزية، وأننا لا ينبغي أن نأخذ الحلم بحذافيره، وأن للحلم محتوى Dream-material، أو d.-content، وظاهراً - ظاهر الحلم Manifest-d.، وأن ظاهره هو ما نتذكره من الحلم، وباطنه هو ما تتداعى به ذاكرتنا حول أحداثه وينتهي إليه تفسير الحلم أو تأويله. وابراهيم رغم أنه كلداني أو أشوري من بلاد ما بين النهرين، حيث تزدهر صناعة تفسير الأحلام، لم يكن يعلم شيئاً عن تأويلها، ففسّر الحلم على ظاهره، وأما يوسف فقد

تعلم التأويل وبرع فيه حتى أن القرآن ليذكر ذلك من مناقبه؛ وكذلك كان حفر زمزم بناءً على حلم. ويوسف كان من صغره شديد الطموح حتى أن إخوته لاحظوا ذلك فيه، ولاحظه أبوه، فحلم يوسف حلمه المشهور الذي رأى فيه عصاه قد طالت حتى علت على عِصيّ إخوته، وحلم كذلك أن أحد عشر كوكباً بعدد إخوته والشمس والقمر سجدوا له. وما كان من الممكن أن يرتقي لولا أحلام صاحبيه في السجن. وموسوليني ظل أبوه يردّد عليه أنه يحلم باستمرار بابنه يخطب في الناس ويقودهم، حتى أن الابن توجّه في دراسته إلى ما يؤكّد ما كان الأب يحلم به. وتقوم ملحمة جلجاميش في الأدب الفارسي بناءً على حلم. وكان «أوتنا بشتم» قد حلم بالطوفان فصنع فُلكاً لينجو بجنس الإنسان وسائر أجناس الكائنات من الغرق. وكانت الأبقار والعجول والقطط في أحلام المصريين طواطم لقوى الخير في الطبيعة، فكانوا الآلهة حاتحور، وإيزيس، وتوت، وأبيس، وبسطة، وكان سلوك المصريين قديماً يوجهه رؤياهم لهذه الحيوانات في الأحلام، ولكل حيوان في الحلم هيئة يكون عليها التفسير ويتوجه بها السلوك في الغد، فالكبش: رجل عظيم من قومه، والبقرة: إمرأة؛ والأخذ بقرن الكبش: يعني المَنَعة؛ والأخذ بإليته: يعني التسيّد والغِنَى؛ وذبح الكبش: إنتصارٌ للحالم؛ والبقرة الحلوب: إمرأة مخصبة؛ وذات القرون: المرأة المنيعة؛ والعثور على بقرة: يعني العثور على زوجة. وقد يرى الحالم الذي طمه الكبش - قد يراه غاضباً أو راضياً، وقد يتوارى منه الحالم، وقد يراه في هيئة والده، أو أخيه الأكبر، بحسب الكيفية التي يكون الحالم بها راضياً أو غاضباً من نفسه. وسُخط الطوطم: معناه سخط الوالدين أو أولي الأمر؛ وغَضَبُ الطواطم قد يعني أنه مغضوب عليه من جهة عليا. وهذه التفسيرات كانت في الماضي وما يزال الناس يأخذون بها حتى اليوم.

وحتى في السياسة تلعب سيكولوجية الأحلام أدواراً مهمة، فالحزب السياسي قد يتخذ الحمار مثلاً رمزاً له كما في أميركا، وهو أيضاً تعويذة للحرب، واتخذ ست أخو إيزيس شكل الحمار في إحدى

تحولاته، ولعل ذلك سبباً في أن الحمار في الحلم يعني الخير، وقد يعني الحكمة أو الصبر، والحمار أيضاً إمرأة معينة على المعيشة، وكثيرة الخير، وذات نسل. ولفظ الأتان والأتانة من الإتيان وهو مباشرة الأنثى. وقيل من مات حماره في الحلم فقد مالَه. وهذا التبادل النفسي بين الحالم وقوى الطبيعة والكائنات فيها يضفي معانٍ وقيماً على الأحلام، ويسقط الناس هذه المعاني والقيم من بعد على الحياة.

وقد تلهم الأحلام الدواء، وتستحدث الشفاء، وهكذا كان حلم أيوب في قوله تعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرابٌ﴾ (ص: ٤٢)، وقد تستحدث الإيمان والتحوّل من ديانة إلى ديانة مثلما حدث مع بولس الرسول (أعمال الرّسل الفصل الرابع كتاب الأناجيل)، وقد تلهم أعمالاً أدبية كبيرة مثل الكوميديا الإلهية Divina Commedia عند دانتي Dante (١٢٥٦ - ١٣٠٧)، وقصيدة كوليردج Coleridge (١٧٧٢ - ١٨٣٤) المشهورة Kubla Khan. ولم يكن فرويد أول من أعطى إسم اللاشعور إلى الروح أو الإله أو الولي، أو الشيطان، أو السلف، المنوط به الأحلام، ونذكر أن إسم اللاشعور بدأ أول مرّة في الفلسفة في القرن التاسع عشر عند هارتمن Hartmann بكتابه: «فلسفة اللاشعور The philosophy of unconscious»، وفرويد ليس صاحب التسمية.

والأحلام فسّرها الإنسان كرسالات إلهية موحى بها، أو كإشراقات روحية وتأثيرات شيطانية، وإنذارات وتحذيرات أو مبشّرات، وفُسِّرت كانعكاسات للتفاعلات النفسية والاجتماعية للمدرَكات؛ وقد تكون رغبات تنفّس عن نفسها، أو تحقّق نفسها، أو تكون محاولات من قِبَل الحالم لسبر أغوار نفسيته واكتشاف أحوالها، وأن يتبصّر مشاكله وحلولها، وقد تعبِّر عن أسلوب كل حالم الذي ارتضاه لنفسه في حياته، أو تكون محاولات من الحالم لحلّ صراعاته، وقد تكون كل ذلك أو بعضه، ولن تتوقف محاولات الذين يحلمون عن تفسيرها مختلف التفسيرات، وسيظل الناس مشغولون بتفسيرها طالما أنها مستمرة

معهم. غير أن الأحلام أنواع، وبعضها بلا معنى .Nonsensical d أو معناه سخيف - الحلم السخيف .Absurd d؛ وبعضها يتصل بشدّة بحياة الحالم Biographical .d؛ وبعضها مصطنع - يعني به تنبيهات خارجية تسببت فيه .Artificial d؛ وبعضها محتواه القلق - حلم القلق .Anxiety d، وضدّه الحلم المعزّي .Consolation d يعني إذا كان حلم القلق عن الموت، فالحلم النقيض هو الذي يطمئن الحالم إلى أنه لن يموت؛ وبعضها يتضمن إعترافات للحالم أو لغيره - حلم الاعتراف .Confession d؛ وقد يتمثل الخصاء في الحلم - حلم الخصاء .Castration d؛ وقد تكثر الأحلام في فترات النقاهة - حلم النقاهة .Convalescent d، وهكذا.

والأطفال يحلمون كما يحلم الكبار، والطفل يحلم لينفّس عن نفسه ما يعانيه ويكابده، ويصب في الأحلام آماله ومخاوفه. والحلم يعكس إحباطات الطفل وفشله وعداواته، غير أنه للفارق في التركيب النفسي عند الطفل والتركيب النفسي عند البالغ، فإن أحلام الطفل فيها المباشرة والبساطة والوضوح. وتكثر أحلام الأطفال في الريف عنهم في المدن، وتتأثر أحلامهم بظروفهم المعيشية وأحوالهم العائلية والاجتماعية والصحية، وخبراتهم اليومية، وذكائهم، وأعمارهم، وبناء شخصياتهم، ويتعذر على المعالج رصد أحلام الطفل لعدم درايته وقلّة خبرته وضآلة محصوله اللغوي. ويميل الطفل إلى أن يسقط من روايته للحلم ما لم يفهمه منه، وما لم يحبّه فيه، وقد تختلط عليه أحداث الحلم بالخيال والشطحات، ومع ذلك أمكن رصد الكثير من أحلام الأطفال عقب اليقظة مباشرة، والكثير من حركاتهم وكلامهم أثناء النوم وخلال الحلم. وأحلام الأطفال الذين يعانون الفقر أو العوز المادي أكثر من أحلام غيرهم ممن يعيشون في بحبوحة. كما إن الأطفال الذين ينامون في سرير وحدهم يحلمون أقل من الأطفال الذين يتشاركون في سرير واحد. وتختلف موضوعات أحلام الأطفال بحسب انتماءاتهم الطبقية، فالأطفال الفقراء يحلمون بامتلاك الأشياء التي تعوزهم، وتكثر أحلامهم في

الأعياد والمناسبات حيث تكون الهدايا لغيرهم ويُحرم منها الأطفال الفقراء.

ومعظم أحلام الأطفال عن حوادث اليوم السابق، والرغبات التي تَحرُم عليهم أو يتعذر تحقيقها، وما يعاني الأطفال في ذلك اليوم من عقاب أو إحباط. والحلم يعوّض الطفل عما فاته، ويشفي غليله في الانتقام، فإذا كان قد أهين فهو يردّ الإهانة، وإن كان قد حُرم إحدى الألعاب فهو يلعب بها حتى يشبع. ويتأثر الطفل الذي يقرأ قبل النوم بما قرأ، وما قرأه كأنه حوادث جرت له يحلم بها، ويتقمّص شخصية بطل القصة أو من يشاء من شخوصها الأخرى التي يتعاطف معها ويرى نفسه فيها.

والطفل الصحيح البنية يحلم أقل من الطفل المعتل، والصحة والمرض يوثران في السلوك سواء في اليقظة أو في النوم. وإذا مرض الطفل وزادت درجة حرارته كثرت أحلامه. ومع التغيّر الكمي للأحلام يكون التغيّر الكيفي أيضاً، فتصبح الأحلام أوضح، ولها طبيعة عصبية. وقد يحلم الطفل بالموت، وتتنوع صور الموت في أحلامه، فإذا شفي الطفل من مرضه، وهبطت درجة حرارته، قلّت أحلامه بعد الكثرة، واختلفت طبيعتها. ولوحظ أن الأطفال إذا أصابتهم الأنفلونزا تكون أحلامهم من نوع الكوابيس، وتكون لهم هلوسات في اليقظة.

ويرتبط الذكاء بكثرة الأحلام، وكلما زاد ذكاء الطفل كثرت أحلامه، وإذا زاد الذكاء عن المتوسط فقد لوحظ أن أحلام الأطفال تتّجه إلى كائنات خرافية، وكثيراً ما يحلمون بالسقوط من حالق، وبالتواجد في أماكن عالية، ويلتقون بالأغراب. وأما الأطفال متوسطو الذكاء فأحلامهم عن الواقع كما هو، فإذا قلّت أعمارهم عن المتوسط إتجهوا إلى معاودة رؤية ما شاهدوا من أفلام سينمائية أو ما جرى لهم من نوادر طريفة، وما سمعوه من حكايات ونوادر. والأطفال الجانحون أكثر أحلاماً من الأطفال الأسوياء، وكذلك الأطفال الذين تُطلّق أمهاتهم وينفصلون عن أحد أبويهم، ويعانون كثيراً من الانفصال عن أخواتهم وإخوتهم وأجدادهم. وفي إصلاحيات الأحداث لوحظت كثرة أحلام

الأطفال، وحالة الأرق المزمن التي يمكن أن تلازمهم. وإذا انتقل الطفل من بلد إلى بلد وتغيّر أصدقاؤه والمحيط المدرسي، كثرت أحلامه، وبعد أن يموت أحد أقاربه تزيد عنده الأحلام.

وتتغير طبيعة الأحلام عند الأطفال مع تغيّر أعمارهم، وتتضح أحلام الطفل مع نضوجه العاطفي، والأطفال الصغار أشد تأثراً بالحيوانات في محيطهم، وحتى الأليف منها فإن الصور الحلمية عنها لا تكون مبهجة، وقد يرى الطفل الناس من عائلته أو المتعاملين معه في شكل حيوانات من البيئة، وإذا سمع أمه مثلاً تصف الخادم بأنه حمار فقد يراه في الحلم في شكل حمار لا غير. والطفل عموماً يغالي في تقدير عقاب المحيطين به له، فالكلمة من أحدهم قد يراها في الحلم صرخة، وقد يرى أباه الذي يكثر من عقابه مرّة في صورة كلب متوحش، ومرّة في هيئة قط مخيف، وإذا سمع حكاية عن الغول أو العفاريت، فقد يرى الأب أو المعلم أو المربية أو حتى الأم، أو الأخ، في صورة الغول أو العفريت كما قيل له في وصفه.

والطفل بعد الخامسة تتحول أحلامه عن الناس إلى نفسه وإلى المحيط الذي يعيش فيه. وهو لا يرى نفسه بطلاً للحلم ولكنه يكون كالمتفرج يراقب ويشاهد، ولذلك فأحلام الأطفال بعد الخامسة ليست أحلام حركة ولكنها أحلام مشاهد، ومعظمها أحلام مثيرة للخوف، عن العفاريت، والغيلان، واللصوص، والعصابات، والكلاب الضالة، والقطط المؤذية.

ومع بلوغ الثامنة أو نحوها، حتى ما بعد البلوغ، فإن الكوابيس Nightmares تكثر، وتدور أحلامهم حول الهرب والمطاردة، والعجز، والهلع، واليأس.

والنوم منه المُرَمَّش REM sleep أي الذي ترمش فيه الجفون، ومنه النوم غير المُرَمَّش non-REM sleep أو العميق Deep sleep. ويخبر الأطفال فترات النوم المرمش أقل في المراحل الأولى من النوم، ويكثر هذا النوم بعد الخمس ساعات الأولى، وعندئذ تكون الأحلام أكثر بعد هذه الساعات، وتأتي الكوابيس وهم نيام على الجنب، ومعظم الخوف الذي يظهره الأطفال هو خوف لم يخبروه

فعلاً، ولكنهم استلهموه مما قيل لهم من قصص، أو قرأوا عنه، أو شاهدوه في الأفلام.

والأحلام قبل العاشرة أحلام عن المحيط الخارجي، وبعد العاشرة تكون الأحلام عن موضوعات من داخلهم.

والبنات يحلمن أقل من الصِّبيان، لأن خبراتهن بالحياة محدودة، والمحيط الذي تجري حياتهن فيه ضيق، فإذا كان البلوغ Puberty فهنا الطامة الكبرى، فإن قدوم البلوغ له أبلغ الأثر في البنت عنه في الصبي، وتكثر الأحلام لذلك في سن البلوغ عند البنات أكثر من الصِّبيان، وتكون لها طبيعة فسيولوجية بسبب دم الحيض Menses الذي ينزل على البنت كل شهر، ثم تصبح لها طبيعة جنسية مع زيادة الرغبات الجنسية قوة وإلحاحاً. وتكثر عند البنات أحلام الغيرة، وأحلام سندريللا Cinderella's dreams والرغبة في الظهور، والأحلام الرومانسية وامتلاك الملابس والملابس من نوع أحلام مدام بوڤاري.

وأحلام الأطفال بحسب شخصياتهم، فالطفل العدواني أحلامه عدوانية، والطفل القلق أحلامه فيها القلق، وقد يبول الطفل أثناء النوم لتخلف نضجه العاطفي عن عمره الزمني، أو لمخاوف يعانيها، ولقصور في الشخصية. وكذلك يؤثر العمى والصمم على أحلام الأطفال، والطفل الأصم يحلم أحلاماً كلها بصرية وتخلو من الأصوات، وخاصة إذا كان صممه منذ الولادة. ولا يميل الطفل الذي أصيب بالعمى قبل سن الخامسة إلى الأحلام كثيراً، فإذا كان العمر به بعد سن السابعة فإنه يرى في أحلامه كالمبصر تماماً. وأحلام الأعمى أحلام تمنّي، ويحلم بأن يتحرك في حرية، وأن يرى أشخاص بيئته، فإذا خاف أو زال عنه الشعور بالزمان فإنه يحلم بالنار، وهي أخوف ما يخافه الطفل الأعمى. وحركة الطفل الأعمى في الحلم محدودة وأقل من الطفل المبصر، والحركة في أحلام الطفل الأصم معدومة.

وأحلام البنات عموماً أقل حركة من أحلام الصِّبيان، والخوف هو السمة الغالبة على الطفل الجانح والطفل اليتيم، والفروق الجنسية بين الأطفال تستتبع

فروقاً في موضوعات الأحلام وكثرتها، وأكثر أحلام البنات أنهن مطاردات.ويتأثر الصِّبيان بالأحلام أكثر. والبنات أدق في سرد أحلامهن، ويصفن شخوص أحلامهن بحذق. وتحلم البنات أكثر بالهدايا والأطعمة والسفر والزيارات والملاهي والضيافة، ويمارسن الثرثرة في أحلامهن. وأحلام الصِّبيان عن الشجاعة والبطولة، الصِّبيان يخشون في أحلامهم الحيوانات كبيرة الحجم كالحصان والثور، وأما البنات فينتابهن الرعب من الحيوانات صغيرة الحجم كالفئران والثعابين والعناكب والقطط.

والاختلاف بين الذكور والإناث الكبار في الأحلام كثيرة، والنساء أحلامهن عاطفية، وفيها الحزن والشجن، وقد يكون فيها اغتصاب، وأكثرها عن أماني، وأقلها عن مشاكلهن اليومية، وتدور حول نفسها. ويحلم الرجال أحلاماً جنسية، ومنها أحلام إمناء، ويدفع إليها التهيج، وقد يضاجع الذكر من لا يعرف من الإناث في الحلم، وذلك عكس التي لا تجعل الرجل الذي لا تعرفه يقربها، والأنثى عموماً لا تحلم بمواقعة الرجل إلا إذا كانت شديدة الحب له، وقلما يحلم الرجل المتزوج حلماً جنسياً، بعكس المرأة المتزوجة التي تعاني من الحرمان الجنسي أو الإجداب العاطفي في حياتها. وقد يواقع الذكور الحيوانات في الحلم ولا تفعل الإناث ذلك، ولا يحلمن جنسياً في الحيض. والمرأة تحتلم كالرجل، إلا أن الذكور أكثر احتلاماً من الإناث. والفروق بين النساء في الاحتلام بسبب السن، وكلما زاد تعليم الذكر كلما تهيّأ أكثر للاحتلام على عكس الأنثى. وللتدين علاقة بذلك. والأحلام عموماً صورة لثقافة صاحبها، وبوسعنا من خلفية الحلم وأحداثه أن نلمَّ بالمستوى الثقافي للحالم، وتأتي الأحلام الجنسية متوافقة مع نمط الشخصية.

ولتفسير الحلم يقتضي أن يُسأل صاحبه فيه، والأفضل أن لا يكون حلماً واحداً وإنما عدّة أحلام، ليقارن بينها فتُعرَف التماثلات والمتغايرات فيها، ويُربَط بينها، ويساعد ذلك كثيراً في تفسيرها حتى أن بعض الأحلام تُسمَّى

من سهولة تفسيرها أحلاماً مكشوفة Bareface dreams. وما من شيء في الحلم إلا وللحالم يد فيه وهدف، والحالم هو الذي يؤلف حلمه، وهو المسؤول عنه، وقد يحلم الحالم بشخص واحد في عدد من الأدوار، وبتركيب ذلك على بعضه البعض يظهر نسق الحلم والصورة الحلمية للدافع الموضوعي لهذا الشخص. والحلم كلٌّ عضوي فلا يجوز أن نعزل جزئية منه عن السياق ونفسّرها وحدها.

ولولا أن هناك أفكاراً كامنة في الأحلام لما كانت الرموز، وتفسير هذه الرموز له مدرستان، إحداهما تقول بالتفسير المادي الرمزي، حيث الرموز لها معان ثابتة، كرمز الثعبان فقد يتّصل في الحلم بمعناه المؤذي، وصفته المكر والخداع؛ أو بالتفسير الوظيفي وهو كشف ما يؤدّيه الثعبان من دور في الحلم بصرف النظر عن أذاه. ومن تفسيرات المدلول الرمزي المادي أن الغمر في الماء في الحلم قد يشير إلى الحمل والولادة، والعدوى بالحشرات ربما تشير إلى الإخصاب، وقد تشير المجوهرات إلى أعضاء المرأة الجنسية. ومن التفسير الوظيفي أن يحلم حالم بأمه كبقرة، لأن أمه تهتم بغذائه وتمدّه كالبقرة بالحليب، ولو طلبنا من فنان مثل بيكاسو (الرسّام الاسباني الأشهر صاحب المدرسة التكعيبية) أن يصور أماً فربما لن تجد أبلغ من أن يصورها كبقرة، والعبارة البليغة في الأدب تقابلها الصورة البليغة في التصوير، والحلم تصويري ولغة الأحلام التصويرية إختزالية عقلية. ولتفسير هذه الرموز قد نسأل فيها الحالم ونتركه لانطباعاته عنها، ويسمون ذلك منهج التداعي الحر Free association method في التفسير. وقد تكون صور الحلم إدراكية حسيّة تهتم بالشكل، وقد تكون عقلية تستقي وجودها من الذهن والأفكار.

والأحلام أنواع، منها أحلام العنف، والقتل نادر في الأحلام، وكذلك السرقة، ويتفاوت العنف بحسب الأعمار والذكاء ونمط الشخصية وثقافة الحالم، والأحلام صور تجسّد مشاهد وشخصيات وأحداثاً، وما نحلم به كأننا نخبره في الواقع، فإذا كان شراً

فقد نستشعر الذنب، وإذا كان خيراً رضيت نفوسنا. وتتمثل في الأحلام أنواع من الصراعات الأخلاقية، وأكثر ما يكون ذلك عند الذكور، وأما الإناث فأحلامهن أكثر واقعية، وأغلب مشاعر الذنب عند الذكور عن الجنس والعدوان. وهناك أحلام مدارها مظاهر الصراع على الدور الجنسي، فالمرأة قد تعاني أنها تريد أن تكون لها حقوق الرجال، والرجل قد يعاني أن تهضم حقوقه فيبدو كالإناث، وتكشف الأحلام هذا الصراع - صراع الأدوار الجنسية Gender conflict، أو صراع إزدواج الجنسية Bisexuality conflict. وهذه المعلومات التي يمكن أن يزودنا بها الحلم هي التي جعلته وسيلة من وسائل تشخيص الشخصية، والأحلام إسقاطات لكل ديناميات الشخص الباطنة، وتستخدم الأحلام بعض الحيل لإخفاء وجه الحقيقة فيها، ومن ذلك أن تكشف الأحداث ليعمى عنها الحالم.

والأحلام منها النمطي Typical أي التي نعرفها جميعاً ولنا بها خبرة، كأحلام العري Nackedness dreams، وهو العري الذي لا يعيره أحد إلتفاتاً أثناء الحلم، ومع ذلك فإن الحالم يرتبك، وهو تناقض يلفت الانتباه، ولولا ذلك لما كان للحلم معنى. وتعكس أحلام العري رغبات من الطفولة عندما كنا نمشي عرايا ويلذ لنا ذلك. وكذلك أحلام موت الأحباب Dreams-of-the-beloved-persons، ويثيرنا منها أنها لا تقترن بالحزن، وذلك دليل على أنها ليست عن موت حقيقي ولكنه أمنية أن يموت الذي حلمنا به. وأحلام الامتحان Examination-dreams، وأحلام الطيران Aviation ds.، وأحلام السقوط، والحفاء، وسقوط الأسنان، وسقوط الشعر، وأحلام النار، والولادة، والحمل، والسقط، والميلاد، والرضاعة، والحيض، كل ذلك من نوع الأحلام النمطية. وهناك أنواع أخرى كثيرة من الأحلام، يهمنا منها الكابوس وأحلام اليقظة. فأما الكابوس Nightmare فهو الحلم المفزع المتكرر، والصور فيه تكون واضحة جلية، ويأتي الكابوس الأصحاء والمرضى النفسيين على السواء، والطفل قد يرى في الكابوس

حيوانات يخافها، ويسهل تذكر الكوابيس، وتأتي البنات والنساء أكثر من الفتيات والرجال، وهي ليست أحلاماً جنسية، وأسبابها غالباً جسمية كالتخمة وامتلاء المعدة وما ينشأ من ذلك عن ضغط على الحجاب الحاجز وإعاقة الدورة الدموية للقلب والرئتين، وقد تستحدثها منبهات خارجية، فقد تتعرى القدم خلال النوم فيحلم النائم بأنه يغوص في البحر، وكانوا قديماً ينسبون الكوابيس للشيطان.

وأما أحلام اليقظة Waking dreams فالانسحاب فيها بانشغال الفكر وانصرافه تماماً إلى موضوع حلم اليقظة، والحالم في أحلام النوم يتنبه بأن يصحو من نومه، وأما الحالم في أحلام اليقظة فيتنبّه بأن يعود إليه وعيه. وأحلام اليقظة مدارها الحالم نفسه، ومنها أحلام نمطية. ويكشف تحليل الحلم عن ميول انطوائية للحالم، ومنها أحلام ألعاب إيهامية، وللطفل فيها قرين متوهم يلاعبه. ومن أحلام اليقظة أحلام إستعراضية نتصور فيها أنفسنا نقومبأعمال بطولية، وأحلام إنقاذ ننقذ فيها من نحب، وأحلام عظمة نتصرف فيها بخيلاء وكبرياء، وأحلام ولاء نحلم فيها أننا نوالي ونخلص لإنسان ما. وهناك صلة بين أحلام اليقظة والأدب والفن، وقد نشارك الكاتب ونحن نقرأ ونرى أنفسنا في شخصياته. والفن والأدب باعتبارهما خبرة جمالية يشاركان حلم اليقظة في نفس الخبرة الجمالية نفسها. والفنان أو الأديب وهو يرسم أو يكتب يستحضر صوراً لاشعورية ويطرحها بشكل شعوري إنتقائي لا سبيل إليه إلا من خلال أن يحلم بالعمل الفني أو الأدبي. وأغلب الأعمال الأدبية والفنية تأتي على أساس من أحلام اليقظة، ولعل ذلك أحد الفروقات بين الأحلام المناميَّة وأحلام اليقظة، واستمتاعنا بالعمل الفني أو الأدبي ربما لأننا ونحن نقرأه أو نتأمله أو نستمع إليه نعيش التجربة بحواسنا ووجداننا كأننا في حلم يقظة، يتطابق فيه العمل الفني أو الأدبي مع مكونات شخصياتنا وتوجهاتنا. وربما لا يكون النقد الأدبي أو الفني إلا معايشة لحلم يقظة عن هذا العمل الفني أو الأدبي،

بحيث يتوافق فيه مع تطلعاتنا وما نتمناه لأنفسنا ونرغب فيه في حياتنا.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- التحليل النفسي للأحلام: دكتور عبد المنعم الحفني.
- تفسير الأحلام لفرويد: ترجمة دكتور عبد المنعم الحفني.

- The New World of Dreams: R.L. Woods and W.B. Greenhouse. Mcmillan.
- Some Must Watch While Some Must Sleep: W.C. Dement. Freeman.
- Night Life Exploration in Dreaming: Englewood, N.J.: Prentice Hall.
- The Mind in Sleep Psychology and Psychophysiology: Antrobus, J.S. and S.T. Ellman. New York.
- Handbook of Dreams: Van Nostrand Reinhold.

❖ ❖ ❖

- ٤ -

سيكولوجية التخيُّل

Imagination Psychology

التخيُّل والأخيلة وأحلام اليقظة. إستجابة التخيُّل عند الطفل والراشد. اللعب التخيُّلي. التخيّل إستعداد من أبعاد الشخصية. سيكولوجية التخيّل...

❖ ❖ ❖

التخيّلات Fantasies لا تستند إلى الواقع بخلاف الأخيلة التي قوامها الواقع. والتخيّل عملية يلجأ فيها المرء إلى الخيال ولكنه الخيال الجامح أو الشاطح. ويتمثل التخيّل في أحلام اليقظة، والحالم يلجأ إلى التخيّل كنوع من التعبير حيث يفتقد التعبير في الواقع أو يعجز عنه، أو كنوع من تحقيق الرغبة التي لم يتيسر له أن يُشبعها. وقد نستحث التخيّل بأن نطلب من الفرد أن يتخيّل ما يراه في صورة غامضة فيذهب به خياله مذاهب شتى بحسب شخصيته وداخلياته. والوسائل الإسقاطية كاختبار الرورشاخ Rorschach

Inkblots Test، «واختبار تفهم الموضوع TAT» من الوسائل التي تُختبر بها الشخصية، والمفروض أن المفحوص يُسقِط على الصور أو غيرها من محتويات الاختبار ما يدور في نفسه ويكشف عن صراعاته ورغباته وخواطره في الشطحات التي يذهب إليها خياله. وقد نبّه فرانسيس جالتون Galton (١٨٢٢ - ١٩١١) إلى التخيلات باعتبارها من ضروب الخيال، كما أن وليام جيمس James (١٨٤٢ - ١٩١٠) إختصَّها بالتعريف فقال إنها خواطر جامحة. والكثير مما قيل في التخيلات هو من إسهام نظرية التحليل النفسي وسيجموند فرويد نفسه. وهو يقول: إن التخيل كالحلم، كلاهما تنفيس عن مكبوتات ورغبات لم تُشبَع. والشاعر حالم متخيِّل، وأحلامه أحلام يقظة يصوغ بها عوالم من نسجه يضمّنها الرغبات من الطفولة التي لم تتحقق، والتي قد لا يعيها أو لا يعترف بها، فيموّهها على نفسه بأن يجعلها تخيلات شعرية. ومن رأي فرويد أن الإنسان السويّ الذي لا يعاني في حياته لا يحلم أحلام يقظة لأن رغباته كلها مجابة ومحقّقة، وأن التخيلات أو أحلام اليقظة منصرفات للطاقة التي لا تجد منصرفاً لها تحقق به مطالب الشخص، وأنها وسيلة لخفض التوتر. والطفل يصرف معاناته اليومية من خلال اللعب والتخيل. والمتخيل الذي يبتدع هذه الوسيلة لنفسه للتنفيس يستطيع من ثم أن يسيطر على الكثير من عدوانيته وميوله اللاإجتماعية، وهو إذ يحلم أنه بطل يضرب الأعداء ويلحق بهم الهزيمة، أو يحلم بأنه بطل هذا المسلسل التليفزيوني أو الفيلم الكارتوني، يصرف في توهمه أو تخيّله كل عدوانيته، ولولا ذلك لصرفها في أعمال عنف مع زملائه أو جيرانه. ولولا أحلام اليقظة الجنسية لوقعت الكثير من المشاحنات بسبب الجنس، والكثير من حوادث الاغتصاب.

وتفسر نظرية التعلّم إستجابة التخيل تفسيرها للاستجابات المتعلّمة الأخرى، فالطفل الذي يجوع يتخيّل أمه وقد عادت تحمل له الطعام الذي يشتهيه، وتتعلق عينه بالباب، فإذا حضرت الأم تعزّزت إستجابة التخيّل بانتظام عودتها كلما استبدَّ به الجوع أو حاصرته الوحدة،

وهكذا يتعلم الطفل النشاط التخيلي كاستجابة لرغبات مؤجّلة التحقيق أو معاقة التحقيق. والتخيّل في بعض النظريات مهارة معرفية يتدرب عليها الطفل وتُصقَل عنده وتساعده على التوافق من بعد في مواقف مماثلة. ولقد ثبت أن الطفل الأعمى تقل عنده ممارسة التخيّل في الحكايات وما يمكن أن تشتمل عليه من حركة. والتخيّل يُعِدّ الطفل للسيطرة على العالم الخارجي بزيادة استبصاره لعملياته النفسية الداخلية وتنامي قدرته على استدخال خواطره ومشاعره الارتدادية. ويختلف الأطفال فيما بينهم في قدراتهم على التخيّل السمعي أو البصري. واللعب التخيلي Fantasy play كما يقول بياجيه هو ممارسة للتمثّل والتكيّف، ويصبح به التخيّل مهارة كاملة وقدرة على التعامل مع المواقف والظروف والأشخاص وليس مجرد استجابة نمطية وقتية.

ومن رأي البعض أن التخيّل يزكّيه في الطفل تمثّله لأبويه وتخيله لنفسه في أدوارهما. وتثبت اختبارات الرورشاخ أن الأفراد الذين يظهرون قدرة ومهارة أكبر على التخيّل هم الذين تكون لهم بالأبوين علاقات وديّة. وتكثر أحلام اليقظة عند الذكور والإناث على السواء الذين لهم علاقات حميمة بالأم أكثر من الأب، ومن الشائع لجوؤهم إلى التخيّل، وكذلك فإن الأبناء الذين يكونون موضع سر أمهاتهم تزيد عندهم قوّة التخيّل. وقد يزكّي التخيل في الطفل أن يكون راغباً في استرضاء الوالدين ومحاكاتهما في السلوك. وهناك من الشواهد ما يثبت أن الطفل الذي يلعب مع من هم أصغر منه سناً يلجأ إلى تخيّل نفسه في دور الأبوين أو المعلم. وأما الطفل الأصغر فإن اشتراكه في اللعب مع الأطفال الأكبر يحرمه من التخيّل، لأنهم يخطّطون ويرتبون له كل شيء ولا يتركون له مجالاً لإعمال تخيُّله. والطفل الأكبر، وكذلك الطفل الوحيد، يكون لجوؤهما أكثر للتخيّل وكأنهما يدفعان به شعورهما بالوحدة. كما ان الأطفال الذين يسعدهم اللعب الإيهامي يصيبهم الإحباط إذا ما تدخلت ظروف تفسد اللعب، وحينئذ يلجأون إلى أن يقتصر لعبهم الإيهامي على أنفسهم، أو أنهم يحاولون من جديد

تشكيل الفريق من أعضاء لهم تأثير عليهم لينتظم الجميع في اللعب الإيهامي، من أمثال العسكر والحرامية، والبوليس السري، إلخ. ويشجّع الطفل على الاشتراك في اللعب الإيهامي أن يكون وحيداً أو من أسرة تشجّع على القراءة وتأليف القصص، أو أن ينشأ في وسط ثقافي يزكّي الرياضات الذهنية والتخيّل كوسيلة لتصور المشاكل والحلول لها. ويتميز الطفل الذي يكثر من اللجوء إلى التخيّل بثراء الخبرة بسبب دخوله في مواقف متخيّلة متعددة ومتنوعة، وتكثر مفرداته، ويتعاظم فهمه للعلاقات التفاعلية. وهو بتخيلاته يحتمي من الشعور بالفشل ومن ضغوط الحياة. ولا يعني انخراطه في التخيل أنه يهرب من الواقع، ولكنه ينتصر بالتخيّل على الواقع ويتجاوزه، وهو وسيلة إضافية عنده تزيد بها مشاركته لإخوانه في اللعب وإشباعه لحاجاته. وليس هناك ما يثبت أن الاستغراق في التخيل من علامات الذُهان، وليس ما يشكو منه مريض الذُهان هو التخيلات ولكنه الهذاءات. ومريض الذهان على العكس يشكو عجزاً عن التخيّل، وفقراً في تخيلاته إن وُجدت، ونضوباً في حياته النفسية الداخلية. ولا يصاب المشهورون بلجوئهم إلى أحلام اليقظة بالهلاوس، كما أن الشخص الذي يتعامل كثيراً مع التخيلات لا يعاني القلق إذا تواجد وحده، فله من تخيلاته مُعين له على وحدته، وإذا خلت بيئته من المنبهات المثيرة فإن عوالم تخيلاته تسعفه بها، ويُثري الشخص الذي يُنمّي في نفسه القدرة على التخيّل من خلال القراءة والاطلاع واللعب الإيهامي مخزون استجاباته. وقد تزيد كفاءته بذلك على التعامل مع المواقف الجديدة والمتطلبات الاجتماعية المتزايدة. كما أن الشخص الذي يتخيّل نفسه مقدّماً في الموقف قبل دخوله تزيد قدرته على التعامل معه عند اللزوم ويتهيأ له نفسياً. ويبدو أن الرغبة أو الاستعداد للتفكير التخيلي هو بُعدٌ من أبعاد الشخصية يستحق الدراسة. ومن صفات المستغرق في التخيلات أن تثبُت حركة عينيه، وعلى العكس فإن محاولة قطع حبل تخيلاته يتسبب عنده في الرَّمَش وحركة العينين. ولم يُكتَب إلا القليل حول تيار التفكير، والعوامل التي

يمكن أن تؤدّي إلى ترتيب الأولويات في الانتباه، والفروق بين الأفراد في أحلام اليقظة وما يتعلق بها من فروق في الشخصية، والفروق بين الشعوب في التخيلات وتأثير اقتصادياتها على اللجوء إلى أحلام اليقظة عند الأفراد، والمحتويات التي يمكن أن تكون لهذه الأحلام، وهناك ما يُثبت أن أحلام اليقظة تزيد مع الحرمان.

مراجع:
- Atkinson,: Motives in Fantasy.
- Mckellar, P.: Imagination and Thinking.

❖ ❖ ❖

- ٥ -
سيكولوجية الحرية

الحرية السيكولوجية، وحرية الإرادة. الحرية إختيار بين بدائل، وهي نسيج الوجود الإنساني. آدم أول إنسان مارس الحرية. الحرية عند السادي والماسوشي. حرية الفنان والطفل. فردية الذات في الحرية.

❖ ❖ ❖

الحرية Freedom في علم النفس هي «تحرر من Freedom from» القيود والخوف والعوز، وأن يصدر سلوك المرء دون تأثير عليه من خارجه، وهي «حرية لأن Freedom to» يفعل الفرد الحر ما يريد، وأن يختار لنفسه، ويفكر بوحي من نفسه. وحرية الإرادة Free will تقابلها الحتمية أو الجبرية Determinism، وهي القول بأن الحرية مقيّدة، وأن السلوك تحكمه الضوابط والظروف، وأن الإنسان محتوم من داخله وخارجه، وأن لسلوكه محددات في إمكانيات الفرد وقدراته وميوله واتجاهاته، وفي انتماءاته الطبقية والثقافية، وتكوينه البنيوي، وسماته أو خصائصه النفسية والعقلية، وبيئته الطبيعية والاجتماعية. ويذهب أنصار الحرية إلى أن للحرية سيكولوجية، وأن الظروف النفسية والاجتماعية والمادية ليست عبئاً على الحرية، ولا تحددها، لأن هناك باستمرار إختيارات وبدائل على المرء أن يفاضل بينها. والحرية هي الشرط الأساسي لكل موجود فاعل، وليست لها ماهية لأن وجودها يسبق الماهية ويحدّدها، فالحرية تصير

بالأفعال، وهي ليست صفة مضافة أو خاصية من خصائص طبيعة الفرد، وإنما هي نسيج وجود كل إنسان. وإذا كان الإنسان مقدوراً فهو مقدور بالحرية، ولا مناص من أن يكون حراً، ولا فكاك له من الحرية. وقد يُقال هذا حر وذاك عبد، وتلك مغالطة لها ظاهر التعبير عن الواقع، إلا أن الإنسان دائماً هو الإنسان الحر، لأن الحرية هي وجود الإنسان وليست أي وجود آخر. والعبارة «أنت حر» تعني أن لك أن تختار بنفسك، ولكن أن يتحقق إختيارك أو تنجح في نيل ما تريد فهذا شيء آخر بخلاف الحرية، فالنجاح لا يهم الحرية، إلا أنه لما كان الاختيار هو نفسه الفعل، فإن الاختيار يفترض إمكان تحقيقه، وذلك ما يميّزه عن الحلم أو الأمنية.

وتحكي قصة آدم وحواء في الجنة أن آدم عصى ربّه فحكم الله عليهما بالهبوط إلى الأرض، وأن يعاينا الخوف والحاجة والعداء، ومعنى أن آدم وحواء إختارا أن يأكلا من شجرة المعرفة أنهما قاما بأول فعل حر، ومارسا أول اختيار إنساني. والإنسان يَعرِف بالحرية، ويختار عندما يكون حراً، وجوهر الفعل هو الحرية.والمغزى الواضح من القصة أن الإنسان منذ أن خُلِق محكوم عليه بالحرية، أو بتعبير هايدجر Heidegger أنه قد أُلقي به في الحرية. وكان بمقدور آدم أن يذعن فتكون له الجنة خالصة فلا يتعب ولا يحتاج ويعيش في أمان، ولكنه كان نفسَه، وفضّل الحرية، فتقطّعت أسبابه بالجنة. والقصة كلها تلخص حياة الإنسان عموماً، فأولاً إن الإنسان في بداية وجوده كان غريزياً، ولكنه انفك من قيود الغريزة وتصرّف بحرية، واختار سلوكه وارتقى في مدارج الاستقلال، وأصبحت له هوية وفردية. والطفل ثانياً يبدأ معتمداً على أمه، وأسبابه بها عضوية أو بيولوجية، وكلما نما تقطّعت أسبابه البيولوجية بأمه، وتخلّص من سيطرتها النفسية، واستقل بنفسه وأصبح الراشد الواعي الحر. ومع ذلك فسيكولوجية الحرية جدلية، فإذا كان الإنسان قد تحرّر واستقلّ، وصار ذاتاً وله هوية وفردية، فإنه بحريته قد أصبح وحده واغترب عمّن حوله، ووحدته واغترابه يصيبانه بالقلق، وهو يعي الموت لأنه

يواجهه وحده وفي عزلة، وهذه أزمة الحرية التي يعاني منها الإنسان، ومن أجل ذلك قد يلجأ البعض إلى الهرب من الحرية والتحلّل منها، ربما بأن يعهد بحريته لغيره يفكّر له، في مقابل أن يضفي عليه حمايته. والهارب من الحرية إما ماسوشي يعيش معتمداً على آخر، وإما سادي يؤكد ذاته بأن يسيطر على ذوات الآخرين، والماسوشي يستشعر الحرية بالمعنى السلبي، بأن يتخلص من وحدته وعزلته وشعوره بالعجز، بأن ينصاع للآخرين، والسادي يستشعر الحرية سلبياً أيضاً بأنها السيطرة على الآخرين وإخضاعهم، أو استغلالهم، أو أنها تدمير لكل ما يبعث في نفسه الخوف ويشعره بالوحدة ويستشعر منه الخطر. وقد يختار الماسوشي الدور الذي يناط به، وتكون له قيم الناس والشخصية النمطية في المجتمع، وتزول المفارقة بين الأنا عنده والعالم من حوله، أي بأن يتأتمت Automatonized، ويفقد ذاته. والحرية الإيجابية Positive freedom هي التي يعيشها الفرد باعتباره ذاتاً مستقلة، ولكنه ليس معزولاً عن الناس، وفي توحد مع العالم والطبيعة والآخرين. وهو يحقّق ذاته بأن يكون نفسه ويعيش فكره ويعبّر عن وجداناته، وكل فرد يستطيع ذلك. والحرية الإيجابية هي أن تكون لنا شخصياتنا المتكاملة، وأن نمارس الحياة تلقائياً Spontoneously. وليست التلقائية فعلاً عفوياً صادراً عن الشعور بالعجز وبتأثير الوحدة، وليست الفعل المؤتمت الذي تشايع فيه الآخرين على ما يذهبون، ولكنه النشاط الحر للذات، الصادر عن إرادة حرة، وعن انفعال حقيقي به واقتناع كامل بأدائه. ولعل خير مثال للنشاط التلقائي هو نشاط الفنان ونشاط الطفل، وكلاهما يعايش فكره ومشاعره ويعبّر عن ذاته. ومن خلال التحقّق التلقائي للذات يتوحّد الإنسان من جديد بالعالم والناس والطبيعة ونفسه، والحب هو أعظم ما يؤلف هذا التوحّد، وهو ليس الحب الذي يعني أن يذوب الفرد في الآخر، أو الحب الذي يعني امتلاك الآخر، ولكنه الحب الذي هو تأكيد تلقائي للآخرين. والذي يدمج الفرد في الآخرين. ولعل الصفة الدينامية للحب هي هذه الازدواجية، أنه يصدر عن الحاجة إلى إلغاء التمايز

والتباعد، ويؤدّي إلى الاتحاد والوحدة، ومع ذلك لا يلغي الفردية.

والعمل عنصر آخر من عناصر النشاط التلقائي، وهو ليس العمل الذي تأتيه قسراً وقهراً وهرباً من الوحدة، وليس العمل بمعنى السيطرة على الطبيعة، وليس هو العمل الذي يتضمن الاستعباد والاستغلال، ولكنه العمل بمعنى الإبداع، وأن يخلق الإنسان ويضاهي الطبيعة. وما يصدق على الحب والعمل يصدق على كل النشاط التلقائي، سواء كان تحقيقه لمتعة حسية أو مشاركة في الحياة السياسية، وهو يؤكّد فردية الذات، وفي الوقت نفسه يوحّدها بالإنسان والطبيعة، وبذلك تختفي الثنائية الأساسية الكامنة في الحرية، والتي تشكل أزمتها السيكولوجية وتصنع منها مشكلة نفسية - ثنائية ميلاد الفردية، وآلام الوحدة والعزلة. وفي النشاط التلقائي يحتضن الفرد العالم ولا تظل ذاته كما هي، وإنما تكبر وتمتّن، لأن الذات تكون قوية طالما هي ذات فاعلة، ولا توجد قوة حقيقية في الامتلاك والحيازة والملكية المادية، ولا في الاستغلال والنفوذ والسيطرة والهيمنة، وإنما القوة هي أن تحقق الذات نفسها وأن يكون انتسابها لما تملكه فعلاً، وينتسب لها على الحقيقة، وهو نشاطها الخلاّق المبدع، وهو مضمون الحرية الإيجابية.

مراجع:

- Sartre: L'Existentialisme est un Humanisme.

- Fromm: Fear of Freedhom.

❖ ❖ ❖

- ٦ -
سيكولوجية الخرافة

معنى التفكير الخرافي، والاعتقاد الخرافي، والسلوك الخرافي، ورواجه في مجتمعات دون مجتمعات، وأحوال هذه المجتمعات من العلم والجهل والوفرة والحاجة؛ ومواصفات التفكير الخرافي.

❖ ❖ ❖

التفكير الخرافي Superstitious thinking تفكير غيبي بدائي، مِن خَرِف (بكسر الراء) وخَرُف (بضم الراء) أي فسد عقله من الكِبَر، فهو خَرِف وهي خَرِفة. والاعتقاد الخرافي Superstitious belief إيمانٌ بالخرافات تفسّر به العامة والبسطاء من الناس المبهم والغامض من الأمور، ويلجأون إليه كلما أعوزتهم الحيلة، وكمحاولة للسيطرة على الأمور بطريقة ما. والسلوك الخرافي Superstitious behaviour سلوك ينبني على هذا التفكير وذاك الاعتقاد، ويستهدي بهما. وتذهب المدرسة الاشتراطية الإجرائية عند سكينر Skinner (١٩٤٠) إلى تفسير السلوك الخرافي بأنه من تأثير التدعيم للاستجابات العشوائية، والتزامل الجزافي بين ظهور فعل ما وحدوث عملية التدعيم. ويشبّه سكينر السلوك الخرافي عند الناس بسلوك الحمام الذي يجيعه إلى حد أن يفقد بعض وزنه، ثم يضعه في الصندوق المشهور باسم صندوق سكينر Skinner box، ويطعمه جزافاً بصرف النظر عما يُصدِر من سلوك، وإجاعة الحمام بهذه الطريقة تجعل للطعام عندما يقدم له تأثيراً تدعيمياً فاعلاً على سلوكه. وقد لاحظ سكينر أن الحمام يميل إلى أن يسلك السلوك الذي يصدر منه قبل التدعيم مباشرة، وأنه يكرّر ذلك ولا يمل تكراره. وربط سكينر بين هذا السلوك عند الحمام وسلوك الفلاّح الذي قد يحدث أن يؤدّي طقوساً معينة طلباً لنزول المطر، ويتصادف أن ينزل المطر فعلاً، فيزامل بين طقوسه وبين نزول المطر، ومن ثم يظل يؤدّي هذه الطقوس من بعد كلما أعوزه المطر، وبالطبع فقد يحدث أن ينزل المطر مرة ثانية، وثالثة، وفي كل مرّة يزيد التدعيم.

ويروج التفكير الخرافي في المجتمعات البدائية، وأينما تدنّت الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. والسلوك في الريف وعند العمال كثيراً ما يكون أقرب إلى السلوك الخرافي، والفلاحون والعمال أكثر مَنْ يأخذ بهذا المستوى. وللمستوى التعليمي، وكذلك النضج، والسن، علاقة بالاعتقاد الخرافي. والأطفال أكثر أخذاً بالخرافة من البالغين، وكذلك النساء أميل إلى

الخرافة من الرجال، وخاصة فيما يتعلق بالزواج والإنجاب. ويزيد الأخذ بالخرافة وقت الأزمات والنكسات الاقتصادية أو الاجتماعية أو الصحية، وقد يلجأ الناس كلما أعوزتهم الحيلة وأعياهم تلمس الأسباب إلى الدجّالين والمشعوذين والسحرة. وتكون للناس اتجاهات قَدَرية في بعض الظروف أو المجتمعات. وبعض الناس يكون تقبلهم للخرافة عندما يصابون بالنَّهَك النفسي، وشبيه بذلك عملية غسيل المخ Brain-washing التي تُجرَى للبعض باستحداث التهافت النفسي فيسهل التأثير عليهم.

والتفكير الخرافي تفكير إحيائي Animistic، بمعنى أنه يَنسب للأشياء التي لا تحس إحساساً. ويجعل لها أرواحاً وانفعالات، وقد ساد هذا التفكير في فترة غياب الوعي، بتعبير هيجل Hegel (١٧٧٠ - ١٨٣١) في كتابه: «فينومينولوجية العقل Phenomenology of Mind». وللكاتب يحيى حقي دراسة كلاسيكية ممتعة في التفكير الغيبي الخرافي والسلوك بوحيه وهديه في قصته قنديل أم هاشم، وأم هاشم هي السيدة زينب، وكان مسجدها يُضاء بالقناديل بالزيت، فكان الناس يتداوون من أمراض العين بزيت هذه القناديل تيمناً وبركة، إعتقاداً أن زيت قناديل أم هاشم سيشفيهم ببضع نقاط منه في العين، والنتيجة أن بطلة القصة أصيبت بالعمى. وينسب يحيى حقي هذا التفكير لغياب وعي الأمة كلها، وكذلك فعل هيجل من قبله، وفعل توفيق الحكيم من بعده في كتابه «غياب الوعي». ففي الحضارات كلها، وخاصة القديمة، كانت للأشياء كلها، وللوديان والأنهار والجبال وغيرها من أدوات الطبيعة والاجتماع، أرواح قد تتسلّط على الناس، ومن ذلك تفسير غُلْمة الرجال بأنها لسيطرة الروح ساطور من أرواح الغابات على قدرة الرجال الجنسية وإشباقها، حتى لينسب هذا الاضطراب إلى هذه الروح فيقال إنه Satyriasis من ساطور، ومثل ذلك تفسير غلمة النساء بسيطرة النيمف Nymph من الأرواح الهائمة على الأنثى، فيكون تعطّشها الدائم للجنس الذي لا يرتوي بسبب تلبّس النيمف بها، ومن ثم كان إسم الاضطراب Nymphomania. وكانوا قديماً وما يزالون

في المجتمعات المختلفة، يفسّرون الاضطرابات النفسية بتلبّس الشياطين والأرواح الشريرة لأجسام المرضى. ويقرب سلوك المريض بالوسواس القهري من السلوك الخرافي، ويكثر لذلك التطيّر والتشاؤم والتفاؤل. وكان العرب يعتقدون في الطيّرة وزَجْر الطير، ويتيمنون بالسانح وهو الطير يأتي من ناحية اليمين، ويتشاءمون بالبارح، وهو الذي يأتي من ناحية الشمال، ويتطيّرون أيضاً بصوت الغراب ويتأوّلونه البَيْن، ولذا كانوا يسمون الغراب: غراب البَيْن. وكانوا يستدلون بمجاوبات الطيور بعضها بعضاً على أمور، وبأصواتها في غير أوقاتها المعهودة. وهكذا الظباء إذا مضت سانحة أو بارحة. وتطيّر الناس بالوجوه وتفاءلوا بالحَسَن منها وتشاءموا بالقبيح. ونهى الإسلام عن التطيّر والتشاؤم والتفكير الخرافي بعامة، وقال النبيّ (ﷺ): «الطيّرة شِرْك»، وحسم ذلك الأمر تماماً فأمر المسلمين إذا سمع أحدهم مقالة من مقالات الخرافة أن يقول: «اللهمَّ لا طير إلا طيرُك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك»، ثم يمضي لحاجته، وهو تفسير لقوله تعالى: ﴿ألا إنَّما طَائِرُهُمْ عِنْدَ الله﴾ (الأعراف: ١٣١)، وهو نفيٌّ تام، ونهيٌّ قاطع عن التفكير الخرافي، وكذلك الاعتقاد في الحسد والسحر. وبعض المرضى بالهُذاء Psychosis يذهبون إلى تفسير أعراضهم العضوية المتوهمة إلى تأثير السحر ويتّقون العين. والخرافة لغوياً - كما سبق - من الخَرَف، وفي الطب النفسي هو فساد العقل نتيجة الشيخوخة، أو عند الإصابة ببعض الاضطرابات العضوية أو النفسية. وفي خرف الشيخوخة تكون التفسيرات الشاطحة والهلاوس والجنون إلى الخرافة، أي الشطح والتفكير غير المنطقي واللاعقلي.

ويبدو أنَّ من الممكن أن يكون هناك نمط خرافي من الشخصية Superstitious type of personality، حيث قد تبيَّن أن السلوك الخرافي يمكن أن يتحصّل عند بعض المتعلمين تحصُّله للجهلة. ولكثير من عظماء التاريخ وكبار المبتدعين أفكار خرافية هي مصدر تحيّر لكتّاب سيرتهم وللمحللين النفسيين. وصاحب الشخصية الخرافية إستهوائي، يميل إلى

التشاؤم ولا يشعر بالرضا، ويغلب عليه الحزن والتوتر الانفعالي ويعاني من الصراعات، ويميل سلوكه إلى أن يكون خرافياً في أحوال حتى ليمكن أن يؤثّر عليه دجّال أو مشعوذ، أو يسيطر على تفكيره أيٌّ من أهله أو أصدقائه، ويوجهه أحياناً إلى ما لا يقبل أن يأتيه في ظروفه العادية، ومن ذلك ماكبث وزوجته وتصديقهما للساحرات في رائعة شكسبير الخالدة. وفرويد نفسه كانت به هذه الهنة وكان يأخذ بتفسيرات زوجته ومعظمها خرافات، سواء عن الناس، أو عن صيدلية البيت. وكان الدكتور يوسف إدريس من أصحاب النمط الخرافي من الشخصية، وكذلك توفيق الحكيم. وثبت من علم الباراسيكولوجي Parapsychology أو سيكولوجية الغيبات أن الاتصال بالأرواح شأنه شأن التنويم المغنطيسي هو من عمل الإيحاء Suggestion، وكذلك الاتصال بالجان، وقراءة الكف والفنجان وضرب الودع والرمل، وقراءة الطالع في البلورة، والتخاطر Telepathy، والاتصال عن بعد Communication at a distance، والتنجيم، كل ذلك من الخرافة، والأخذ به من التفكير الخرافي، وأساسه العلمي الإيحاء، وثبت أن الآخذين به والعاملين بمقتضاه من الشخصيات الاستهوائية Suggestible. والإيحاء عملية عقلية تنتهي بقبول غير فاحص ولا ناقد - لأفكار تنشأ في العقل ولا أساس لها من الواقع، ومنه الإيحاء الذاتي .Auto-s، وهو أن يوحي الشخص لنفسه ويقنع نفسه ويساير هواه، ومنه الإيحاء الغيري .Hetero-s، وهو التأثير في الآخرين من غير أوامر ولا نواه. وفي الطب النفسي يقال إن هذا الشخص أو ذاك خاضع للإيحاء، عندما تكون لديه فكرة أو يتبنى اعتقاداً، أو ينزع إلى التصرف بلا روية، ودون أن يقيم وزناً لكون الفكرة أو الاعتقاد أو الميل لها أصولها في الواقع الحقيقي. وعرّف بيير جانيه Janet الإيحاء بأنه إيعاز يدفع صاحبه إلى التفكير في شيء أو فعله بدلاً من التحقّق منه (Méditations Psychologiques). وفي تجارب دراسات الإدراك لما هو خارج الحواس أو ما هو فوق حسّي Extra-sensory perception التي قام بها راين Rhine نحو سنة ١٩٢٧،

وتعرف أيضاً باسم تجارب جامعة ديوك Duke University experiments لم يثبت أن التفكير في الأرواح أو الاتصال بها، أو بالجان، له شيء من الواقع، وإنما كانت جميعها تخمينات، وتصدر عن نفوس ضعيفة ومريضة، ولم يكن يؤمن به ويصرّ عليه إلا المرضى العقليون خصوصاً الذين كانت لهم إستجابات هذاء. ومن المعتاد أن يعتقد المريض بالصورة البارانوية من الفصام أن الآخرين على بُعد أميال منه، لا يقرأون أفكاره فقط وإنما يتحكمون فيها بكاملها، وهي الظاهرة التي يطلق عليها البعض إسم قراءة الأفكار Mind-reading، وتبادل الأفكار عن بعد Thought-exchange at a distance، وانتقال الأفكار Thought-transference. ويبدو أن فرويد لم ينكر تماماً في كتابه: «سايكوباثولوجية الحياة اليومية» التفكير الخرافي، ولا نذُر النحس Bad Omens، ولا أحلام التنبؤات، أو خبرات التخاطر، أو الاتصال بالأرواح وبالجان، بينما كان مكدوجال يؤمن بها وينسب خبراتها لشخصيات تحت شعورية لها قوى نفسية خاصة.

(أنظر أيضاً سيكولوجية السحر والحسد).

مراجع:

- Johoda, G.: The Psychology of Superstition.

❖ ❖ ❖

- ٧ -
سيكولوجية السحر

التفكير السحري نقيض التفكير العلمي. السحر والخرافة. أنواع السحر. رواج السحر عند الأطفال والمرضى النفسيين. الشخصية الاستهوائية والاتجاه الغيبي.

❖ ❖ ❖

يصدر السحر Magic عن إعتقاد خرافي Superstitious belief بإمكان التأثير في الطبيعة والأحداث والأشخاص عن طريق استخدام كلمات معينة Magical use of language وإتيان طقوس

خاصة. إذن فالتفكير السحري -Magico pensée phénoméniste ، أو Magical thinking تفكير خرافي Superstitious thinking. والسحر منه الأبيض White m. الذي ينشد تحقيق الخير، ومنه الأسود Black m. الذي لا يتحصَّل منه إلا الشر. وهناك السحر بالمحاكاة Imitative m. بأن يقلّد الساحر الشخص المعني المراد السحر له، وقد يقيم تمثالاً على شكله أو يخط رسوماً على منوال هذا الشيء أو ذاك المقصود التأثير فيه. وهناك أيضاً السحر العاطف Sympathetic m. الذي يقوم على فكرة أن الأشياء والكلمات لها روح، وأن من الممكن أن نجتزئ من الأشياء بعضها فتكون لها بَرَكة تحل بمن يحملها، كأن نقتني التمائم أو التعاويذ، أو خصلاً من الشعر، أو بعضاً من الملابس أو المقتنيات، فيمكن أن تكون لنا معيناً في المواقف التي نحتاج فيها إلى التأييد والتعضيد. ولذلك قيل إن التفكير السحري يخلط الواقع بالرمز، فالذي يصنع دُمية باعتبارها شخصاً ما ثم يحرقها أو يفقأ عينيها وينفث فيها ويُعزّم عليها، ويرسم حولها الدوائر، إنما يصنع ذلك باعتبار أن ما قد يقع للرمز سيحدث حتماً للواقع. والتفكير السحري تفكير يحسب به صاحبه أنه قادر، وهو لذلك يرادف التفكير مطلق القدرة Omnipotent thinking، فمجرد الرغبة والتركيز عليها والنطق ببعض كلمات، يعني عند صاحب هذا التفكير إمكان تحققها وتغيير مجريات الأمور، مثل الدجّالين الذين يعالجون بكلمات مثل بو-ووو Pow-wow، أو أن يقولوا: حابس حابس، إلخ وذلك من غرائب المصطلحات والكلمات والأصوات. ويروج هذا التفكير عند الأطفال خصوصاً، وعند المرضى بالفُصام، والطبقات الاجتماعية المتخلفة، والمجتمعات البدائية. والطفل الصغير قد يحسب أن مجرد تفكيره في الشيء قد يصنعه، وأنه بمجرد أن يغمض عينيه ويرغب بشدّة فإن رغبته ستتحقق. ويذهب أهل التحليل النفسي إلى أن هذا التصوّر يتحصّل للأطفال مما يستشعرونه من القوّة والقدرة عندما يحركون أعضاءهم في مراحل العمر الباكرة. وقد يلجأ الراشد الواعي إلى التفكير السحري كتعبير عن الرغبة

الجامحة والعجز المبين، وعندئذ يتوهم أنه قد أصبح له كل شيء وهو يحلم أحلامه النهارية التي نطلق عليها إسم أحلام اليقظة Waking dreams. وحتى الأحلام العادية هي ضرب من التمنّي الذي يصدر عن التفكير السحري، وهي طريقة بدائية وقديمة تخلّفت فينا وصارت جزءاً من طبيعتنا ويأتيها البدائيون في رسوماتهم. ولغة التفكير السحري لغة غير منطقية، وما يزال بنا بعضها، وذلك أننا عندما نلعن أعداءنا فإنما نكرّر ما يفعله البدائي، حيث كان يعتقد أن مجرد إلصاق اللعن باسمه يستجلب عليه الشر أو الموت. وينكص المريض بالعُصاب الوسواسي القهري أو بالفُصام إلى هذا التفكير السحري، ويحسب أنه بتكرار طقوس معيّنة أو كلمات قد يطرد عنه النحس، أو يغيّر من الأحداث، أو يكفّر عن السيئات، أو يسترضي الإله. والطقوس القهرية Compulsive rituals تصدر عن أفكار سحرية على المستوى اللاشعوري، والبعض قد يبصق مثلاً كلما ذُكر أمامه إسم مَنْ لا يحبّه، وذلك من تأثير التفكير السحري بأن مجرد البصق مصحوباً باسم العدو قد يحقّره ويدفع به إلى دَرْكات السوء والشر. ويذهب المريض بالفُصام إلى إتيان حركات غريبة، كأن يبقى في مكانه ساكناً لا يتحرك بالساعات، والمعنى الرمزي لذلك أن المريض يتمنّى لو ينتهي العالم ويتلاشى ويتوقف عن الحركة، ويحسب أنه لو سكن لسكن العالم أيضاً بسكونه. وبعض المرضى بالفُصام يظنون أنهم يستطيعون أن يستحدثوا الموت لمن يتمنون له الموت بمجرد أن يفكّروا أنه ميت. وحتى عندما يبدو أن المريض بالفُصام لا يفكّر في شيء، فإن تفكيره يكون مشغولاً عما حوله بتصور الأشياء وكأنها تحقّقت بفعل ساحر، فقد يحسب مثلاً أنه يخوض معركة حياة أو موت بالنسبة للبشرية، وتسوس له نفسه أنه سيحسمها بتفكيره. ويختلف التفكير الوسواسي عن التفكير الفُصامي من حيث أن الأول أكثر معقولية من الثاني.

والاعتقاد في السحر وتأثيره ربما يكون ألصق بالشخصيات العُصابية Neurotic، وربما يكون من سمات

الشخصية القاصرة Inadequate التي تعاني من عدم الكفاءة وتُغالي في إظهار الاعتمادية، وتلجأ لذلك إلى التفكير السحري كتعبير عن العجز. وقيل إن السحر يكثر في البيئة التي ترتبط بالفقر والجهل، وإن الساحر فيها يعتمد على الإيحاء Suggestion، ويقصد بسحره إلى الشخصيات الاستهوائية Suggestible personalities. وربما لا يكون تأثير السحر كنتيجة لتدخل القوى الغيبية، وإنما كنتيجة للإيمان به عند البعض، بحيث يعدّلون هم أنفسهم من سلوكهم، فيكون به صلاح أحوالهم. فالمريض الذي يشكو مرضاً نفسياً قد يفيده الإيحاء، وكذلك قد يتوهم التلميذ الذي يستعين بالسحر أنه قادر على النجاح فيذاكر، وقد تصدّق الزوجة ما يقوله لها الساحر فتعدّل من سلوكها، ويكون بذلك توافقها مع زوجها وأسرتها.

وكانت للسحر قديماً وظيفة إجتماعية حيث ييسر الصيد والقنص ويساعد في الحروب. وكان شيوخ القبائل يستعينون بالسحرة ليمكّنوا لهم عند شعوبهم. وارتباط السحر بالقوى الغيبية يجعله يرتبط بالدين، وقد يحذّرنا الدين منه، وقد يذكره كحقيقة، وقد ينقض وجوده. فإن حذّرنا منه: فلأن السحر تفكير خرافي، والتفكير الخرافي ضد الدين؛ وإن ذكرناه كحقيقة: فلأن السحر واقع يمارسه البعض في حياتنا. وفي القرآن أن السحر علمٌ يعلمه ويتعلمه أهله، ومن ذلك مقالة فرعون عن موسى: ﴿إنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ (الشعراء: ٣٤)، أي لديه علم بالسحر، وقوله عن موسى أيضاً: ﴿إنَّ لَكَبِيرُكُمُ الّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ (طه: ٧١)، زيادة في وصفه بالعلم عن السحر، ويقول القرآن عن سحرة بابل: ﴿يُعَلِّمونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ (البقرة: ١٠٢)؛ وإن نَقَض الدين السحر: فلأنه ليس علماً على الحقيقة، لأنه يقوم على الخداع البصري Optical illusion، وأبطله القرآن فقال عن سحرة فرعون وأفعالهم: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إنَّ اللّه سَيُبْطِلُهُ﴾ (يونس: ٨١)، وقال: ﴿وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرونَ﴾ (يونس: ٧٧)، وقال: ﴿يُخَيَّلُ إليْهِ مِن سِحْرِهِمْ﴾ (طه: ٦٦)، فالسِّحر في الإسلام هو مجرد تخيُّلات Phantasies، والتخيُّلات كما قلنا

خداعات بصرية وأوهام، والسحر وصفه القرآن فقال: ﴿سِحْرٌ مُفْتَرىً﴾ (القصص: ٣٦)، وقال: ﴿إنَّ الله سَيُبْطِلُهُ﴾ (يونس: ٨١)؛ والعين من السحر وتدرج ضمن ما يسمى التأثير عن بُعد، وكذلك الحسد، ولا يعني التعوّذ من العين والحسد أن لهما مفعولاً مثل مفعول السحر، وكذلك الوقب في الغسق، والنفث في العقد، والوسوسة، فجميع ذلك مفعولها لا يفلح، فليس التعوّذ منها في القرآن لأن لها نتائج، وإنما التعوّذ من شرّية النفس التي تفعل ذلك، لأنها نفس شريرة. ولو كان بالمستطاع التأثير في المصائر بأي من ذلك، أو الاستعانة بالجن، لكان الاعتقاد فيه من باب الشِرْك الخفيّ، وهو الإقرار بأن هؤلاء الأشرار لهم سلطات إستثنائية غير عادية ليست لأحد سوى الله، وحتى الجن قال الله في رئيسهم إبليس: ﴿إنَّ عِبَادِي لَيْس لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (الحجر: ٤٢)؛ والاعتقاد بأيّ من ذلك هو إذن من باب الأخذ بالتفكير الخرافي الذي لا يجوز لأيٍّ منا، غير أن منا من يغلب عليه الاتجاه الغيبي فيؤمن بالسحر، ومنا من يغلب عليه الاتجاه النقدي فيرفض السحر وإن كان مؤمناً بالدين. وفي عصر العلم الذي نعيشه فإن العلم قد حلّ محل السحر، ومع ذلك فإنه قد يحدث عندما يعجز العلم عن تفسير ظاهرة، أن نسكت إزاء المطروح، لتفسيرها بالخرافة ومنها السحر. وقد ننسب القدرة المطلقة والعلم بالغيب لله وحده، ونقول مع القائلين إن السحرة وإن صدقوا أحياناً فإنما ذلك بمحض الصدفة. ونميل لذلك إلى ردّ الاعتقاد في السحر إلى التعلّم الإشراطي الإجزائي، فحينما يحدث بالصدفة أن تتحقق رغبة ونكون قد قلنا كلاماً أو أتينا بحركات، فقد نربط بين حدوث الاثنين معاً، ونميل إلى تكرار ذلك كلما أردنا النتيجة نفسها. وقد يحدث أن تتحقق النتيجة مرّة ومرّات فيكون لهذا التدعيم أثره في الاعتقاد في سحر الكلمات أو الحركات.

ومن قبيل السحر الاعتقاد بأن الاستحواذ على أجزاء من حيوان أو أكْلِها قد تقوي الأجزاء المماثلة لها في الانسان، إعتماداً على مفهوم التماثل بين الأجزاء، وذلك ما يسمونه السحر

بالتماثل Homeopathic m.، ويقوم على دعوى أن المماثلة أو المجاورة مُعدية، ومن ذلك أطلقوا على هذه الظاهرة أيضاً إسم السحر المُعدي Contagious m..

(أنظر سيكولوجية الخرافة).

مراجع:

- Otto Rank: The Idea of the Holy.
- Levi Strauss: Structural Anthropology.
- Frazer: The Golden Bough.

❖ ❖ ❖

— ٨ —
سيكولوجية خط اليد

الدلالات النفسية لخط اليد. الخط والشخصية. تحليل الخط ومحلل الخطوط. علم الخط. إختلاف الخط عند الإناث والذكور. مقاييس الخط. الهوامش في الخط. الأسلوب والتنقيط والتناسق. مورفولوجيا الخط. الشخصية الخطيّة. الخبير النفسي للخطوط. أنواع الخطوط وتزويرها. الخطوط والكلام والحالات الشعورية..

❖ ❖ ❖

لخط اليد Handwrinting دلالته النفسية، وهو سلوك نتعلمه، إلا أننا نكيّفه لمقتضى ما نكون عليه من تركيب بنيوي عظمي وعضلي، بحيث نكتب بالطريقة التي تيسرها الجلسة التي تريحنا، والتي عليها نملك ناصية القلم والورق. والخط يُظهر ما نكون عليه من صحة نفسية تشتمل على صحة البدن والنفس والعقل، فالصحيح البدن يأتي خطه مناسباً، بعكس الذي يعاني من اضطرابات صحية، فإن خطه يظهر فيه ما يعاني. والخط لذلك مظهر للشخصية. وسلوك تعبيري Expressive Behavior يسجل حركة الشخصية في الزمان والمكان، إلا أنه يجمّد هذه الحركة في الحروف والكلمات. وبرغم أن الخط يتطور تطور الشخصية، وله مراحل عُمرية في الطفولة والشباب والكهولة، إلا أن للخط شخصية يحتفظ بها دائماً.

وتقوم دراسة الخطوط Graphology على دعوى أن الحركات التعبيرية هي أهم ما يميّز الشخصية، لأنها تعكس قدرة الفرد على التجاوب الحركي السريع والتلقائي للتنبيه الداخلي والخارجي، في

محاولة للتكيّف مع مقتضيات المواقف والبيئة. وخط اليد في التعريف هو التجسيم الحرفي لرسائل المخ إلى اليد عبر الأعصاب، والأصابع هي الأجزاء الطرفية الأخيرة من الجسم التي بها يتحقّق طرح رسائل المخ على الورق. والخط تسجيل للفكر وتعبير عن الذات. والصور النمطية الخطية مكانها المخ وليس اليد، ولذلك فإن قطع اليد واستبدال أصابع اليد بأصابع القدم لا يؤثّر بعد التدريب اللازم في شكل الخط، ويأتي توقيع الشخص بأصابع قدمه مطابقاً لتوقيعه الذي كان بأصابع يده. وخط اليد لذلك وسيلة تشخيص علمية لشخصية الكاتب وحالته النفسية وقت الكتابة، وهو وسيلة تشخيص تحاول أن تكشف عن مضمون الشخصية ككل وليس مجرد سمات معينة. وعلم الخط دعوى عريضة، وأما تحليل الخط Handwrinting analysis فهو بحق وسيلة علمية للتشخيص النفسي، ومحلل الخطوط Graphologist هو شخص مدرّب على استكناه السمات النفسية، وله دراية بالطب النفسي وعلم الأعصاب. وقد قيل إنه من المستحيل أن يتشابه اثنان في خط اليد. ومهمة محلل الخطوط أن يكتشف ما يعبّر عنه الخط، ووسيلته في ذلك مرآة مكبّرة، ومَسْطرة، ويعتمد على الحدس أو الإدراك فوق الحسي، أي قراءة المعنى الكلي الذي يتجاوز التفاصيل. وفي تاريخ التحليل النفسي للخطوط كانت هناك دعوة تُعنَى بالتفاصيل، وتهتم بكل حرف والشكل الذي هو عليه، والطريقة التي يكتب بها، وسُمّيت مكوّنات الخط: عناصره Elements، أو إشاراته الثابتة Fixed signs (مدرسة الراهب ميكون Michon في فرنسا نحو سنة ١٨٣٠). وكانت هناك كذلك دعوة عكسية عند أحد تلاميذ ميكون ويُدعى كربيو جامن Crepieux Jamin تقرأ المظهر الكلي للخط وتستشف منه سمات الكاتب. وتُشبه هذه الطريقة الكلية Holistic طريقة الجشطلت Gestalt، في حين أن الطريقة الأولى التي تهتم بالحروف هي طرقة ذرية Atomistic.

وميكون هو الذي له فضل تسمية علم الخط، وكان غالبية الباحثين في الخطوط في القرن التاسع عشر من

الفرنسيين، بينما سيطر المفكرون الألمان على تحليل الخط في القرن العشرين، ومن هؤلاء فيهلم برييير Preyer، وهو الذي نبّه إلى أن الخط تعبير عن العمليات النفسية، وأنه ليس عملية بدنية وإنما هو جهد عقلي ويكشف عن تكوين العقل، ولذا أطلق على الخط سنة ١٨٩٥ إسم Brain-writing، أي خط العقل أو الذهن، بدلاً من خط اليد Hand-writing. واستخدم جورج ميير الخط للكشف عن الاضطرابات الانفعالية، بدعوى أن الانفعالات تعبّر عن نفسها من خلال الميكانيزمات النفسية الحركية، وأن هناك لذلك صلة قوية بين الخط والحركة والانفعال، وأن محلل الخط يحتاج إلى علم جديد، أو علم سمات خطية Physiognomy of handwriting كعلم السمات العامة، وذلك ما توفر عليه فعلاً لودفيج كلاجز Klages فهو الذي وضع أصول تحليل خط اليد، وجمع بين علم الخط Graphology وعلم السمات Chracterology. وأجرى كريبلين Kraepelin (١٨٥٦ - ١٩٢٦) وجماعة قياسات للضغط أثناء الكتابة، وللسرعة في الكتابة عند الأسوياء والمضطربين عقلياً، وقال إن تحليل خط اليد لا ينبغي أن يكون من عمل الأطباء ولكنه عمل النفسانيين، وقد تسبّب ما قاله في قطيعة بين البحث في الخطوط وعلم الخط، لولا أن عالم الأعصاب رودلف بوفال Pophal (نحو سنة ١٩٢٠) دعا إلى دراسة مظاهر التوتر في الخطوط، وصنّف أنماط الشخصية بحسب أنماط السلوك الحركي كما تنعكس في أنماط حركة اليد أثناء الكتابة. وقد تطورت بحوث تحليل خط اليد في العشرينات بفضل ماكس بولفر Pulver الذي نبّه إلى دلالة المسافات الخالية بين الكلمات، واستخدم في تفسيراته لها مفاهيم التحليل النفسي، وهو الذي قابل بين الطول والعرض والضغط Pressure الذي للحروف. واخترع جولدزيخر - رومان Goldzieher - Roman جهاز Graphodyne لرصد الضغط والسرعة لحركة الكتابة. وتتابعت بحوث دوني Downey، وله كتاب: «Graphology and the Psychology of Handwriting» (١٩١٩)، وأولبورت Allport، وفيرنون Vernon، وسوديك

Saudek، ولوينسون Lewinson، وزوبين Zupin، وولفسن Wolfson، بغاية الكشف عن العلاقة بين دينامية الشخصية ودينامية خط اليد. واختبارات خط اليد تكشف عن تنظيم الشخصية وانضباطها وإمكان ملاءمة بعض الأعمال أو المهن لها. ومن الممكن أن نكتشف توجهات الكاتب ونعلم عن مكوناته النفسية من الطريقة التي يكتب بها والتي تكون عليها حروف كتاباته. فالخط المائل بخلاف الخط الواقف، والميل في الخط إلى اليمين بعكس الميل إلى اليسار، وربما كان الميلان إلى اليمين يعني أن شخصية الكاتب من النوع المنبسط الودود، بينما قد يعني مَيَلان الخط إلى اليسار أن الكاتب يميل إلى أن تكون له أفكاره الخاصة وحياته التي تكون بمنأى عن الكثيرين، وربما كان هذا الشخص من النوع المنطوي. وأما الخط الواقف الذي لا يميل يميناً ولا يساراً، فهو دليل انضباط صاحبه عاطفياً وتحكّمه في انفعالاته، وربما كان يعني أن يغلّب تفكيره على مشاعره.

والبحوث في الخطوط مع أنها قديمة قدم التاريخ وفيها وجهات نظر فلسفية من أيام اليونان والرومان ومصر القديمة وسومر، ووجهات نظر صينية ويابانية، إلا أن التجريب في ميدان الخط وارتباطه بعلم النفس والتحليل النفسي كان حديثاً. ومع انه قد ورد عن الخطوط وعلاقتها بالشخصية عند الإغريقي أرسطو Aristotle (٣٨٤ - ٣٢٢ق.م)، والروماني سويتونيوس Suetonius (٦٩ - ١٤٠م)، فإن أول مؤلّف فيها كان كتاب Ideographia، كتبه في بولونيا من إيطاليا كاميليو بالدو Baldo في القرن السابع عشر، وبدأ الاهتمام بالخط يقوى، واهتم به وبتحليله شعراء وكتّاب وفنانون، مثل: جوته، وبلزاك، وديكنز. وتكثر البحوث في خطوط المرضى بالاضطرابات النفسية والعقلية والجانحين، وفي الفروق بين خطوط الذكور وخطوط الإناث، ومدى تأثير الاتجاهات الذكورية أو الأنثوية، أو ما يسمى بتقمّص الدور الجنسي Gendre على توجيه الخط. وقيل إنه في الخطوط تتمايز عدّة عوامل، منها بخلاف الميلان Slope الذي سبق ذكره، الشكل من حيث أن الخط يمكن أن يأتي على شكل تقليدي

لا تجديد فيه، أو يكون خطأ مَدرسياً، والأول يعكس شخصية تقليدية تابعة للكاتب، والثاني هو تعبير عن اتجاه إنضباطي عند الكاتب يكون فيه تابعاً أيضاً ومقلداً، إلا أنه يقلد أفضل ما عند الآخرين. وهناك أيضاً الشكل الزخرفي للخط فيرسمه صاحبه رسماً ويفخّم شكل الحروف، وأمثاله يميلون إلى المبالغة، ودعاواهم كثيرة، وخيالهم خصب، بخلاف الخط البدائي المتخلف الذي لا جمال فيه ولا أصالة ولا تقليد، فتتنافر حروفه من النوع الواحد كالألف مثلاً، فمرّة تكون قصيرة، ومرّة طويلة، ومرّة مستقيمة، ومرّة ملتوية على نفسها، وتختلط الحروف المتشابهة كالتاء والثاء. وبخلاف الشكل هناك من الحروف ما له ذيل كالميم أو الياء في نهاية الكلام، أو ما ينتهي بقفلة كالتاء المربوطة أو الهاء. ولكل من هذه الحروف بأشكالها تلك دلالات نفسية من حيث أن تطويل الألف مثلاً قد يعني اتجاهات مثالية عند الكاتب، وقد تعني القفلات الكبيرة للهاء أو التاء المربوطة أن الكاتب له شطحات خيالية، فإذا كان يكتب الهاء في وسط الكلام بحيث تكون مدببة وتنزل كثيراً عن السطر فقد يكون ذلك لأنه يميل إلى التأمل وله طبيعة رومنسيَّة.

ومقاييس الخط الأخرى هي الضغط Pressure الذي يأتيه الكاتب على الحروف وهو يكتب. ومن الناس من يميلون إلى أن يضغطوا بقوّة على القلم وكأنهم يعتدون على الورق، أو يتخيلون أنفسهم بصدد سلوك عدواني، ومنهم من تأتي كتابته كاللمس الرفيق فلا يكاد يبين، وهؤلاء يفصحون عن طبيعة رقيقة.

وحجم الكتابة من مقاييس الخط، فهناك خطوط منمنمة حتى لا تكاد تُقرأ، وأصحابها من النوع المذعور الذي يخاف النساء وأن يُظهر ما بنفسه، وله حياته الخاصة التي لا يحب أن يشاركه فيها أحد، ومن الصعب التواصل معه. وهناك خطوط كبيرة تكون عادة لأناس منبسطين يحبون الوضوح، وكما نقول ما في قلوبهم على ألسنتهم، وفي حالتنا هذه من دراستنا للخطوط فإن ما تنطوي عليه قلوبهم تسرع أسنّة أقلامهم إلى الإعلان عنه، وذلك نوع سطحي من الناس يجب أن يكون له الأصدقاء يجمعهم حوله

ويسعد بهم. وأما الخط الذي يتوسط الطريقين فصاحبه متوسط أيضاً في كل شيء، ويحب من الأمور أوسطها، وهو عملي ومادي، ويمكن مصادقته، ولكننا لا نتوقع منه الكثير.

والخطوط تتمايز كذلك بالهوامش، فإذا كان الكاتب ينحو إلى الكتابة في وسط الصفحة تاركاً هوامش كثيرة من الجانبين فهو غالباً فنان له ميول جمالية، ويحب الاتساع والانطلاق، وأن يظهر ما يكتب على خلفية واضحة بحيث تصنع ألوان الأحبار تضاداً مع بياض الورق، وتعطي المساحة الخالية شعوراً بالارتياح. وأما إذا كان الكاتب يكتب دون أن يترك هوامش ويستغل مساحة الورقة استغلالاً كاملاً، فإن ذلك قد يعني أنه اقتصادي، أو قد يدل على شحّ وبُخل، وأنه يخلو من الذوق ولا يميل إلى النظام والتناسق، ولا بدّ أن تكون كتابته هذه متمشية مع أسلوبه في الحياة، وتعكس الاضطراب في ملبسه، وبُعده عن الذوق، وتقتيره الشديد.

وتقاس الخطوط أيضاً بإمكانية قراءتها، فالبعض متعذر قراءته، ويتميّز برداءة مسرفة، وربما كان ذلك لسرعة الكاتب نتيجة التفجّر العنيف لأفكاره، وسيولة هذه الأفكار، ودفقها السريع حتى أنه لا يستطيع أن يلاحقها بقلمه، وربما تشابكت الكلمات لهذا السبب، وربما جاء خطه رديئاً لأنه لا يتمهل عند الحروف ليعطيها حقها، وإنما ينساب بها قلمه انسياباً فلا تبين لهذا السبب. وقد تكون رداءة الخط نتيجة إهمال وكسل من شأنهما ألا يجعلا الكاتب يحسن الخط، ويكتب كيفما اتفق، لأن أفكاره أيضاً تأتي كيفما اتفق. وأما الخط المقروء الواضح فصاحبه غالباً مفكّر منضبط، دقيق في تعبيراته، وفي حروفه أيضاً، ويحب أن يكون واضحاً في كليهما، وأن يفهمه الناس.

والتنقيط Punctuation من مقاييس الخط. ويهمل بعض الناس أو يتكاسلون عن وضع النقط فوق أو تحت الحروف. وذلك دليل على عزوف عن التفاصيل، وربما لم يكن بصاحب الخط الذي ينقصه التنقيط ميل إلى التفكير المنظم، فينجو إلى أن يخلص إلى النتائج بسرعة، ويقوم بما يناط به من

أعمال في تعجّل وعدم اتقان. وربما يكون هذا الشخص بحيث لا يُعتمد عليه كثيراً، ولا يؤتمن بالمهام الكبيرة التي تتطلب دقّة وحُسن أداء. وعلى عكس ذلك تماماً الشخص الذي يحفل كثيراً بكتابة النقط، وتوضيح الفروق بين النقطة والنقطتين والثلاث نقاط التي تتطلبها بعض الحروف، وذلك دليل على عناية بالتدقيق، واهتمام بتحديد المطلوبات، وقُدرة على القيام بها وأدائها على ما هو مشروط لها أو متفق عليه بشأنها.

والتناسق مطلوب في الخط، وهناك حروف تتشابه في الشكل والحجم، وحروف مفتوحة، وحروف مغلقة، وحروف تكون عليها شَرْطة أو تتصالب الشرطة عليها، أو تميل يميناً. والشخص المنظم تتناسق حروفه المتشابهة بحيث يكون خطه في الورقة كلها متميزاً بهذا النظام الذي يريح العين ويعكس تنظيماً نفسياً لصاحب الخط. وبعض الخطوط تبدأ كبيرة وتنتهي صغيرة، فتكون بداية الكلمة ذات حجم لا يتناسق مع حروف النهاية، وصاحب هذا الخط يميل إلى الغموض، ولا يبوح بما في نفسه، ويُقبل على ما يكتب برغبة وقلب مفتوح، ولكنه يصدمك لأنك لن تخرج مما كتب بما يرضي فضولك أو طموحك. وعلى عكس ذلك الشخص الذي يبدأ الكلمة بحروف صغيرة ولكنها تنتهي بحروف كبيرة، فإن ما يطرحه عليك من أفكار يوضحه دائماً ما يأتي من عبارات بعد كل عبارة سبقت، وهو عادة إنسان لديه ما يقوله ولا يضن به على الناس، ويحب أن يفسّر نفسه وأن يفهمه الآخرون.

والأسلوب في الخط يُقصَد به أن تكون الحروف مستديرة أو أن تكون قائمة وحادة، فحتى الألف يمكن أن تكتب مستديرة، والكتابة المستديرة تعني أن الكاتب له طبيعة سهلة، وغير مدقق، ويحب أن يعيد نفسه، وأن يسهب في الشرح، وأن يصدقه الناس. وأما إن كانت الحروف قائمة وحادة، فذلك قد يدل على نشاط الكاتب، وهمّته، وطموحه، وقدرته على إنهاء الأعمال وتشطيبها.

وما بين الكلمات من مسافات هو من مقاييس الخط، وله دلالته النفسية ويفصح عن اتجاهات الكاتب الذهنية، فإذا كان يميل إلى الكتابة بحيث يترك

مسافات منتظمة بين الكلمات، فإنه إنسان منطقي له بصيرة وأحكامه سليمة، وإن كانت المسافات غير منتظمة فهو غير منطقي، وأحكامه متهافتة، وإن كانت كتابته مضطربة بحيث قد تتقارب الكلمات بشدّة حتى ليركب بعضها البعض، فذلك يعكس اضطراب التفكير. وإن كانت الصفحة تزدحم بالكلمات فذلك لأن الكاتب لديه زَخَم من الأفكار غير المرتبة، والتي لم يمحّصها، فينعكس دفقها المتلاحق على خطٍّ يعكس هذا التلاحق حتى لتكاد تنعدم الفواصل بين الكلمات.

والسرعة من الدلالات النفسية للخط، وهي صدى للسمات الشخصية للكاتب، والخط المتسرّع دليل على سطحية في التفكير، فإن كانت السرعة في الكتابة مع وضوح في الخط فإن ذلك يعني أن الكاتب لا تهمه التفاصيل، ولا يتوقف عندها، ويحرص على الكليات، وأن يجمّل نفسه في عدّة عبارات متعجلة، وإن ترافقت السرعة مع ترك النقط والشُّرَط، وعدم إعطاء الحروف حقّها من الكمال، فربما كان ذلك دليل الإهمال، وربما كان ذلك لأن صاحب الخط خيالي، تتطلب قراءة خطه أن يفكر القارئ كثيراً ليتبين صواب الكلمات، فهو يكتب عن اعتقاد منه بأن الناس تستطيع أن تعرف ما يقصد إليه حتى وإن لم يُفصح. وربما كان تركه للنُقَط والشُّرَط، وتداخل الحروف، لأن الكاتب واثق من نفسه ويطلب من الآخرين أن يجهدوا ليقرأوه، والبعض قد يُغرَم بالغموض إذا تحدث ليقال إنه غير مفهوم، أو ليبدو أنه أكبر عقلاً وفكراً من سامعيه، وكذلك عندما يكتب فإنه يفعل الشيء نفسه.

والكتابة على السطر من أصول الخط، فإذا التزم الكاتب بالسطور فإنه إنسان ملتزم ومستقيم في عمله وصادق في قوله، وإنْ مال أن يصعد فوق السطر كلما توغل في الكتابة، فهو غالباً لا يحب الانضباط، ويميل إلى الخيال، وله طموحات، وقد تتجاوز به طموحاته أن يتغاضى عن القوانين أحياناً. وأما إن كان يكتب بحيث يميل إلى النزول عن السطر، فذلك لأن به ميولاً إلى أن ينفذ إلى قلب الأشياء، وأن يحلل ما يقال له، وهو متشكّك ولذلك يسأل كثيراً ويتحرّى،

وغالباً ما يصل إلى نتائج لا تسرّه، وهو يتوقع السوء لهذا السبب، ويكتب وهو غير مطمئن، وتفضح كتابته النازلة ميوله. وبعض الناس يستهويهم الجدل النازل، ويبدأون بالتعليمات وينتهون إلى التفاصيل، وبعضهم إتجاههم في التفكير نحو الجدل الصاعد، فيبدأون بالتفاصيل ويخلصون منها إلى التعميمات، والأولون دأبهم غالباً أن تنحو كتابتهم إلى النزول عن السطور، بينما الآخرون يميلون إلى الصعود على السطور.

ومن كل ما سبق فقد يمكن اعتبار تحليل الخطوط Graphic analysis إختباراً كاختبار رورشاخ مثلاً، يمكن به تحليل الشخصيات ومعرفة اتجاهاتها، مثله في ذلك مثل تحليل الأحلام، وإن كان ذلك على نطاق أضيق. والبعض يقول بأنه من الممكن الاحتفاظ بملف لخط التلميذ أو المريض، لبيان تدرجه نحو النضج أو نحو الشفاء (Graphopathology)، والتنبؤ مقدماً بأي انحراف قد يستمر أو يستفحل إن لم يعالَج في الوقت المناسب. ولكل شخص فرديته الخطية Graphic individuality، وربما قد تفيدنا كثيراً الدراسات على خطوط العظماء، وعلى توقيعاتهم، فنعلم مدى تأثير سمات الشخصية في رسوم الخط، وكأن هذه الرسوم تشابه رسوم الاختبارات التي تعتمد على الرسوم أيضاً وإن اختلفت في الموضوع.

وفحص الخطوط لتحقيق تزويرها أو صدقها تعهد به المحاكم لخبير نفسي في الخطوط، وذلك من مجالات علم النفس القانوني والطب الشرعي، ويتضمن فحصاً ظاهراً ميكانيكياً للخط (مورفولوجي) ينصب على شكل الكتابة، وتعارج الحروف، والوصلات بينها، واحتمالات التعديل فيها أو كشطها، وفحصاً خطياً نفسياً (جرافولوجي) لاستيضاح الصلة النفسية بين الحركة الخطية وطباع صاحبها، وحالته الانفعالية وقت الكتابة. وهذا الفحص يتبين منه جنس الكاتب إن كان أنثى أم ذكراً، وعمره إن كان طفلاً، أم شاباً، أم شيخاً طاعناً في السن، وخصائصه الانفعالية والعاطفية، وهذه المميزات قد تكشف عن صاحب الخط، وترشد كذلك إلى بعض خصائص الموجّه إليه هذا

الخط إن كان رسالة مثلاً. والفحص الثالث والأخير هو الفحص النفسي الخالص، الذي يتعدّى ظاهر الكتابة إلى مضمونها النفسي ومحتواها الفكري Graphopsychology، لجلاء طبائع وميول وعادات وعواطف وأفكار صاحب الخط، والتوصّل فيما بعد إلى البتّ فيما إذا كان هذا الخط هو خطّه أم لا، بمضاهاة ما نخلص إليه من الخط من تصور لشخصية صاحبه بما نعرفه من خصائص الشخص نفسه.

والشخصية الخطية حقيقة ثابتة يقرّرها العلم، وقد تأكّد مثلاً أن الشخص الذي تُبتر ذراعاه ويُضطر أن يتدرب ليكتب بفمه أو بإحدى قدميه فإنه بنهاية التدريب يأتي خطه على الطريقة نفسها والشكل اللذين كانا له من قبل أن تُبتر ذراعاه.

وكذلك أجرى ثلاثة من العلماء عدّة تجارب على الخطوط تحت تأثير التنويم، فكانوا يطلبون من الأشخاص موضوع التجربة أن يتصوّروا أنفسهم في شخصيات معيّنة وأن يكتبوا من ثمّ رسالة أو أمراً ما، فكان كل شخص يكتب بخط مختلف بحسب الشخصية التي يتقمّصها. إذن فالخطوط تتباين تباين الشخصيات، وهي مرآة للشخصية وتعكس خصائصها.

ويذهب عمل الخبير النفسي للخطوط إلى فحص المستند الخطي لملاحظة ما يتواتر فيه من خصائص حركية، كأن تكون هناك جرّات معينة طويلة أو قصيرة، وحروف ضخمة أو صغيرة، لأن ذلك يأتيه كل منا بالعادة ويألفه ويصبح منهجاً له. ونحن نضخّم الحروف أو نصغّرها بحسب الحالة النفسية التي نكون عليها، وبحسب خصائص الشخصية، ومن ثم فقد يكون الشخص منطلقاً فتكون حروفه كبيرة، وقد يكون مدققاً موسوساً فتكون حروفه كالمنمنمة.

ويذهب بعض العلماء إلى تقسيم الخطوط بحسب نوعية الشعور، ونوعية الفكر، ونوعية الإرادة: فمن جهة نوعية الشعور فالعاطفي الذي له مشاعر رقيقة يكتب بميل؛ والانفعالي يكتب على عدّة أوضاع ولا وحدة بينها؛ والهادئ لكتابته وضع واحد؛ والحزين المنقبض وضع

خطّه نازل؛ والمبتهج المنشرح المتفائل وضعه صاعد؛ والرقيق وضعه دائري؛ والقاسي الجاف يكتب بوضع له زاوية؛ وكتابة البارد عديم الإحساس بوضع رأسي؛ والحسّاس المرهف بوضع مدبَّب؛ والبخيل بوضع متقارب متزاحم؛ والكريم بوضع رحب متسع؛ والشكّاك، وكذلك المتصنّع، بوضع مرتدّ على نفسه؛ والمزهوّ بوضع مرتفع؛ ومن جهة نوعية الفكر: تتميز كتابة المثقف بالبساطة؛ وكتابة متوسط الذكاء بانطلاقات غير متحفظة وغير أنيقة؛ وكتابة الخيالي بانطلاقات واسعة الشُقّة؛ وكتابة المفكر المتأنّي بتدقيق وعناية بالحروف؛ وكتابة الإنسان الواضح التفكير بخطوط منضبطة؛ ومن جهة نوعية الإرادة: تتميز كتابة قوى الإرادة بجرأتها الثابتة التي تتجلى في استقامة عصا الألف واللام والكاف إلخ؛ وكتابة ضعيف الإرادة بجرّات ضعيفة لها نهايات مدببة؛ وكتابة المهمل أو الغافل بإسقاط أجزاء من الحروف وإغفال النقط والهمزات.

وهناك اختلافات كثيرة في مجال تفسير الخطوط وتحليل الشخصية من خلالها، غير أنه برغم هذه الاختلافات فإنه كان هناك اتفاق فيما يخصّ خط البخيل، حيث انعقد الإجماع على خصائص لهذا الخط تعكس خصائص الشخصية. وكتابة البخيل تتلاصق كلماتها ويكثر عدد الكلمات في السطر الواحد، وربما لأن البخيل حريص على أن لا يستهلك ورقاً وحبراً، في حين أن الكريم يفخّم الكلمات ويكبّر الحروف حتى لتمتلئ الصفحة بعدد قليل من الكلمات، وتشير نهايات الحروف على سعة كمن يبسط يده بالعطاء والبذل.

ومن المسائل التي اختلف العلماء حولها أن بعضهم ذكر أن العبقري خارق الذكاء: كتابته جميلة واضحة، وحروفه فيه قوّة وبساطة، وخطوطه لها خصائصها المتميزة التي لا تتكرر مع غيره. واستشهد هذا الصنف من العلماء بكتابات للموسيقيين المبدعين كفاجنر وبيتهوفن. وقال بعض العلماء إن العبقري على العكس لا يحرص على الخط الجيد ولكنه يتعجل الكتابة، لأنه يريد أن يطرح أفكاره المتلاحقة. ولأنه يفكّر بسرعة فإن الكتابة تواكب انطلاقة التفكير، فلا يحفل

إن كانت رسومها رديئة أو متقنة طالما أنها ترصد أفكاره، ولذلك تأتي كتابته كالاختزال صعبة القراءة. وكان خط نابليون رديئاً، وكذلك العالم لمبروزو، والفيلسوف سارتر، والكاتب المسرحي برنارد شو، والكاتب أنيس منصور، علاوة على أنه لا يضع النقط إطلاقاً.

وعلى أي الأحوال فإن الخط يعكس فعلاً طريقة التفكير، ومن ذلك أن يكون تفكيراً مضطرباً مهوشاً كما عند المرضى بهوس الكتابة Graphomania، والمعروف أن كتابة المجانين مضطربة كاضطراب كلامهم، ويمكن أن يكتبوا الصفحات والصفحات يومياً، وهذا هو الإسهال الكتابي Graphorrea، وفي مثل هذه الأحوال يسوء الخط جداً ويعكس الاضطراب في الفكر وهو من أعراض المرض. وقد يأتي الخط يعكس تفكيراً منضبطاً منظماً كما عند العقلاء. وحتى العباقرة قد يأتي تفكيرهم فيه الانضباط أو الاضطراب وإن كانوا شديدي الذكاء، والتمايز في الخط موجود بين العباقرة وجوده بين غير العباقرة.

وتزوير الخطوط كالتزوير في الرسم والتحف الأثرية، عمل قد يتقنه البعض، إلا أن اكتشافه يسير على الخبير النفسي في الخطوط. والخطّاط المقلّد أو المزوّر قد يستخدم الشفّ ثم التحبير، وقد يستخدم الملاحظة المدقّقة وقدرة ذاكرته على رصد الصورة الخطية ومميزاتها، ثم استحضارها وقت الكتابة فتطاوعها أصابعه وتنساب بها في سهولة. ويُكشف أمره كمقلّد ومزوّر أن يكون المستند المطلوب تقليده أو تزويره طويلاً فعندئذ لا يقوى المقلّد أو المزوّر على أن يستمر في انتحال الخط، لأن خصائصه هو تغلبه على نفسه في النهاية، وتفضحه كمقلد أو مزور. وربما كان لعنصر التعب النفسي دخل في تخلّيه عن حذره وحرصه، فتنطلق أصابعه بحكم العادة تكتب حرفاً هنا أو هناك لا يمت بصلة للحرف المماثل في المستند الأصلي، وخاصة في الحركات الانسيابية النهائية التي ختم بها، والتي يكون بها التوقيع، وهو عادة يأتي بلا تكلّف من جانب صاحب الخط الأصلي غير المشتغل ذهنه بتقليد غيره، فالحرص على التقليد وانشغال الذهن به يمنع انسياب التوقيع

ويفضح المزور. ومهما كانت مهارة المقلد وحرصه على انسيابية التوقيع، وانسيابية الخط عموماً، فإن تقليده يكون آلياً لا انسيابياً، ولا بد أن يُخطئ عَرَضاً وبغير وعي منه، لنهجِه هو في الكتابة وليس لنهج صاحب الخط الأصلي، فيكون خطؤه بمثابة الثغرة التي يمكن من خلالها اكتشاف التقليد.

ومن الممكن تحديد العمر من الخط، فالتغيرات التي تطرأ على الجسم تظهر في الخط، والتلاميذ مثلاً في الصف الواحد قد تتشابه خطوطهم بالنظر إلى عدم نضجهم، وبالتالي عدم نضج خطوطهم، وأيضاً قد تتشابه خطوطهم لأنهم في بداية سِني الدراسة يلتزمون البطء في الكتابة، وتتعثر بها أقلامهم، ومع الزمن والنضج تنطلق أيديهم بسرعة، وتنضج خصائصهم الكتابية، ويفترقون عن بعضهم البعض. ولقد لوحظ أن الكاتب الذي تستلزم مهنته الكتابة تكون له انسيابية خط لا يتمتع بها من لا تستلزم مهنته الكتابة، ومع التدريب والكتابة المستمرة عند الكاتب تنعكس خصائص شخصيته على خطه، أما من لا تستلزم مهنته الكتابة فإنه يتوقف عند حدود ما تعلمه منها، وتظهر كتابته على الصورة التي تعلمها، وتكون خطوطه كُتبية، أي مأخوذة من تعاليم الخط والكُتُب التي تعلمها. ومن ثم نجد تلاميذ مدرسة الخطوط تتشابه خطوطهم لأنهم ما يزالون في مرحلة التقليد، ويتخرجون من المدرسة وخطوطهم متشابهة لالتزامهم بحرفية ما تعلموا، بل إن خطوطهم لتتشابه وخطوط من سبقوهم وتخرجوا قبلهم ومن سيتخرجون بعدهم. وأما إذا أتيح لأحدهم التمرّس العملي بالكتابة واستمرار ذلك، فإن خطّه يكتسب ذاتية مميّزة لم تكن له من قبل.

ونلاحظ أن الأميين الذين لم يتعلموا الكتابة ولا يعرفون سوى رسم التوقيع بأسمائهم فإن توقيعهم يأتي مقلقلاً لم يصقل ككتابة الأطفال، ولا يمكن أن نحلل منه شخصية صاحبه. وكتابة الأميّ كالنبش، أو توصف بأنها كنبش الفراخ، بالنظر إلى أن الحروف تكون صغيرة ولا تأخذ حقّها في الرسم، ولا تتسم بالاتساق وتملأ الصفحة في

فوضى. وأما الإنسان البالغ فشكل الحروف عنده أكثر انتظاماً وثباتاً وترتيباً. وبعد سن الخمسين يظهر التعب على الكاتب وهو يكتب، وينعكس هذا التعب على الكتابة، ويظهر في صورة إغفال لبعض الحروف أو للتنقيط، أو تخلٍّ عن طريقته في الكتابة التي هي خصيصته ومرآة شخصيته. وأما بعد الستين فإن رعشة اليد تتجلى في اهتزاز الحروف، فلا تكون الألف مثلاً مستقيمة، ويحاول الشيخ الطاعن في السن أن يتغلب على رعشة يده فيضغط بسن القلم، ويتمهل ويعود إلى بطء حركة الطفولة، فنستطيع أن نحكم مباشرة بأن هذا الخط هو خط إنسان قد أوغل في العمر كثيراً أو قليلاً.

ومن الممكن أن ينكشف جنس الكاتب من كتابته، فكتابة الذكور أكبر من كتابة الإناث، والصورة التي تأتي عليها خطوط الإناث أرق، فالأصابع أصغر وأدق، والقوة العضلية المحركة لها أضعف. وعندما تجلس الأنثى لتكتب لا تميل على طاولة الكتابة حتى تحتويها كما يفعل الرجل بصدره الضخم وطوله الذي يمكّنه من أن ينكب على الطاولة، وإنما تجلس الأنثى فلا تكاد تملك الطاولة لقصرها نسبياً، ولا تكاد يدها ترتاح وهي تكتب، ولا ذراعها الذي تسند عليه، ولذلك فإن القلم في يدها يمس الورق مسًّا رفيقاً. والأنثى بها ميول فنية أقوى، وأحب الفنون إليها الوشي والنمنمة، وكتابتها وشي ونمنمة، والخط يأتي لذلك أصغر، ويعوزه بساطة خط الرجل وانطلاقته. والمثقفات من الإناث تنزع خطوطهن إلى التعامد مع السطر. وتكثر الأخطاء الهجائية في كتابات الإناث، وهذه ميزة أخرى في خطوطهن، بالإضافة إلى أنهن لا يملن كثيراً إلى وضع النقط والفاصلات، وتنساب كتابتهن حتى لتحتاج إلى أن تتريث كثيراً لتعرف نهاية الجملة. وربما ذلك لانفعالات الأنثى ورغبتها في طرح أفكارها، ويبدو من خصائصها أن الأفكار لا تكون مرتبة، ولذلك تحتاج في رسائلها أن تكتب ملحوظات كثيرة كحاشية، وربما لهذا أيضاً تنسى أن تضع النقط والفواصل والشُّرَط كما في شَرطة الكاف مثلاً، وتميل أن تقلد في عباراتها، وأن تحاكي

المقربين منها وأحباءها في خطوطهم.

وكثيراً ما تبين مهنة الكاتب من كتابته، ومن المفردات التي يستخدمها، فالمثقف قد يستخدم للمعنى الواحد أكثر من كلمة، ولا يميل إلى أن يكرّر نفسه بالكلمات نفسها، وتسعفه ثقافته وتعطيه زاداً من المفردات، على حين يميل نصف المثقف إلى استخدام العامية، فهي أسهل له، وفيها يحاول أن يكون مرحاً خفيف الظل إذا كان يكتب رسالة مثلاً. وتُعرف كتابة الطبيب أو المحامي مما يقول، ومن الحكايات التي يرويها، واتجاهاته مع الناس، كما تبين مما يقصه عنهم.

ويبدو أن الخطوط تعكس طريقة الأشخاص في الحديث، فكما تتحدث يكون خطك، فالذين يلجأون إلى الصوت العالي وتأكيد العبارات بالضغط على الحروف نطقاً، يفعلون ذلك في كتاباتهم، وتظهر العصبية في الخط ظهورها في الكلام. والإنسان وافر النشاط جمّ الحركة، المحب للكلام، يكتب بهذه الخصائص نفسها، ويهتم أن يضع النقط والفواصل والشُّرَط. وإذا حدث أن تخلى إنسان عن طريقته التي هي خاصته في الكتابة لظروف معيّنة، فإنه أيضاً إذا عبّر عن نفسه بالكلام يتخلى عن طريقته في التعبير، فإذا كان منطلقاً خفّف من سرعته، وإن كان عصبياً تريّث نوعاً ما، وكذلك في الكتابة فلربما يتوقف هنا وهناك ليضع علامة استفهام، أو يضع عدداً من النقط، ويخفف ضغطه على القلم عند نهاية العبارات، ويبدأ العبارة الجديدة عليه بالضغط على القلم وعلى الحروف وهو يكتبها، والبدايات تكون كبيرة، بينما النهايات صغيرة، ويميل بها إلى أسفل السطر. وفي الانفعالات الحادة مثلما يكون الكلام حاداً عالياً، فإن الخط ينطلق سريعاً لا يكاد يلمس القلم الورق، ولا تكاد تكتمل الحروف وتأخذ حقها.

وقد يبدأ الشخص الكتابة بحالة نفسية معيّنة، ثم ينفعل وهو يكتب، وقد يهدأ من بعد. وهذه الحالات النفسية المتضاربة تظهر في الخط فلا يتساوق. والخط نتاج الجهاز الحركي الذي يحرّكه الشخص، وتبعاً لنشاط المخ تكون حركة اليد، فإذا كان الشخص مبتهجاً إتجه بالحروف صعوداً أعلى السطر، وإذا كان مبتئساً إتّجه بها نزولاً أسفل السطر،

والغاضب تتميز حروفه بالحدّة في الحركة والشكل، ومن ثم فمع الانفعالات المختلفة تتشكل الحروف هنا وهناك.

وينعكس التعب على الخط ويميل الخط نزولاً إلى أسفل الورقة. وقد يبدأ الكاتب الكتابة ثم يتعب فيجد أن خطه يسوء، وأنه يخطئ في الهجاء ويغفل النقط، فيترك الكتابة ويستأنفها من بعد، ونستطيع أن نحدّد متى توقف، ومتى بدأ من جديد، من شكل الحروف والهيئة التي تكون عليها من حيث النقط وغيرها. ومن المسلم به في حالات التعب أن لا يكون هناك اتساق في الخط ولا ترتيب ولا انتظام.

وقد يُظهر الخط الحالة الشعورية للكاتب تجاه المكتوب له الرسالة، فمثلما يتأثر الخط بالمضمون فكذلك يتأثر بالحالة الشعورية، وأمكن في حالة شخص واحد أن نرصد تغيّراً في الخط في كتاباته لكل من أمه، وأبيه، وأخته، وأخيه، وصديقه، وأستاذه، ومدير البنك الذي يعمل فيه، من حيث الحرارة التي تكون عليها التعبيرات وظهورها في انسيابية الخط، ومن حيث الخوف وما يستحدثه من قمع وكفّ فيرتعش الخط وتضطرب العبارة. ومن حيث الاحترام وما يفرضه من تعبيرات وما ينبغي له من خط يُصطنع إصطناعاً... وهكذا.

وكذلك فإن الرغبات والانفعالات اللاشعورية قد تظهر في الكتابة وفي الخط، ويروى مثلاً أن المكتوب له كان يدعى «الأستاذ جاد عفيفي»، ولم يكن الكاتب يحبّه، فكان يخطئ التنقيط فيكتب «الأستاذ جاز»، وذلك من زلات القلم التي ذكرها فرويد ضمن سيكولوجية الحياة اليومية. ويروي جونز صديق فرويد أن سيدة كان يكاتبها أرسلت إليه رسالة قالت له فيها «وأرجو أن تكون على خير حال وأن تكون تعيساً في حياتك»، وكانت هذه السقطة منها كاشفة لحقيقة مشاعرها نحوه، فقد كان ينوي الزواج منها ولكنه عدل. وزلات القلم على الورق تشبه زلات اللسان في الكلام، ويعلق عليها فرويد أهمية بالغة، بالنظر إلى أنها تكشف صاحبها وتفضح مشاعره ونواياه الحقيقة، ولعلنا نلحظ أن الكثير من الناس لا يحبّون أن يردّوا على الرسائل التي تأتيهم، ويسوّفون في الردّ،

وإذا ردّوا كانوا مقتضبين، وأمثال هؤلاء يعانون من صراعات معيّنة نتيجة كفّ هائل يمارسونه مع أنفسهم، ويحول بينهم وأن يُظهروا مشاعرهم فيما يكتبون، والكتابة بالنسبة لهم مؤلمة، لأنها توقظ هذه الصراعات، وكتاباتهم فيها الكثير من التردّد حتى إنك لتلمس في الكلمة الواحدة المشحونة شحناً نفسياً عالياً إختلافاً في النسق لا يجعلها على وتيرة واحدة. ويذكر أن فتاة كانت قد خطبت لشخص لا تحبه، وكان يكثر من مراسلاته لها، ويشكو من عدم ردّها، وكانت كلما تهيأت للرد توقفت عند كلمة «عزيزي» فلا تستطيع أن تكتبها، فإذا كتبتها جاءت العين صغيرة جداً لا تكاد تبين، ثم تكون هناك مسافة بين عزيز والياء، وتنسى أن تضع النقط، ومن ثم كانت شكوى الخطيب أنها تبدأ الخطاب في كل مرة إذا كتبته هكذا «عزيز-ي».

مراجع

- Pokorny: Psychologie der Handschrift.

❖ ❖ ❖

- ٩ -
سيكولوجية الدِّين

التفكير الديني ليس تفكيراً خرافياً... الدين كاعتقاد وتجربة. أدب الغريزة الدينية. سيكولوجية المتدين والواعظ الدينية. الارتقاء الديني والارتقاء في مراحل الحياة. سيكولوجية التحريم والدعوة التبشيرية. الاصطلاحات الدينية وأبعادها النفسية.

❖ ❖ ❖

التجربة الدينية تجربة إنسانية عالمية، فلم يوجد شعب يخلو تراثه من الأدب الديني. والاعتقاد الديني، والعاطفة الدينية، من المسائل التي يتعامل معها الغالبية من الناس كمسلّمات، حتى أن البعض يقول بغريزة دينية Religious inistinct، قيل هي الغريزة الفيصل بين المستويين من الوجود الإنساني والحيواني، وأنه كلما ارتقى الإنسان وجدانياً كلما كانت له إشراقات أو فيوضات صوفية كونية، قد

تعبّر عن نفسها تعبيراً دينياً صريحاً، أو تكون اهتماماً أو «همًّا» بالوجود وبقضايا الإنسان الوجودية.

وعلم النفس الديني أو سيكولوجية الدين، باعتبارها مجالاً حديثاً من مجالات الدراسات النفسية، تبحث في التجربة الدينية وسيكولوجية الإنسان المتدين أو العابد أو المؤمن، وشخصيته، وسلوكه، ودوافع الإيمان عنده. ومن أولى الدراسات النفسية في مجال الدين كتاب ڤُنْت Wundt سيكولوجية العامة Volkerpsychologie»، الذي يذهب فيه إلى ربط ارتقاء الإيمان في الدين بالارتقاء في مراحل النمو، ويقول بمراحل دينية تتواكب مع ارتقاء الوعي الإنساني وتساير النمو عند الطفل، فهناك أولاً الطور الأوّلي Primitive stage، والإيمان فيه إيمان بدائي بسيط قد يتوجّه لقوى الطبيعة المؤثّرة في حياة الناس، والتي تكون لها في حياتهم الواعية ردود فعل نفسية مدارها الخوف والرهبة والإجلال والتوقير. وليست عبادة النار مثلاً، أو عبادة الكواكب، إلا لأن العابد بتمثلها يستدمج في نفسه قوة ما يعبد، فلا يصيبه منها مكروه، وتكون له عوناً على غيره. وهناك الطور التوتمي Totemism، بانتساب الأفراد إلى توتم واحد يكون لهم سلفاً، ويجعل منهم أخوة يستشعرون في أخوّتهم أماناً يوفّره لهم التضامن والتماسك والانتماء. وهناك أخيراً الديانة الإنسانية التي بها يكون الوعي بالمسؤولية الاجتماعية والتكافل العائلي والوطني والإنساني، والتي تقوم على المحبة وليس العداوة، والتعاون دون التصارع أو البغضاء. وسيكولوجية ڤُنت الدينية أساسها أنثروبولوجي نفسي، وأما السيكولوجية الدينية المحدثة فتوجهاتها إختبارية Empirical، وتجريبية Experimental، وتفيد في مناهجها من كلٍ من التحليل النفسي، وعلم نفس النمو، وعلم النفس الاجتماعي، وسيكولوجية الشخصية. وكان لمدرسة ڤيرتسبورج Wuszburg دور قيادي في تأصيل المنهج التجريبي كمنهج أساسي لدراسة التجربة الدينية. واستخدمت هذه المدرسة طريقة عقد اللقاءات مع المتدينين، والاستبيانات، ودراسة الظواهر الدينية كالرِدّة، والتحوّل من ديانة إلى أخرى، أو

من مذهب إلى مذهب، أو التحوّل من الكفر إلى الإيمان أو العكس.

وتهتم سيكولوجية الدين إهتماماً خاصة بدراسة التجربة الصوفية Mysticism في مختلف الديانات. وهناك كثير من البحوث في الاتجاهات الدينية عند الكبار والأطفال، وتستخدم في قياس هذه الاتجاهات مقاييس الميول والاتجاهات كمقياس أولبورت وڤيرنون. والوعي الديني قد يكون بمعناه الضيّق الذي قوامه الشريعة أو جوانبها المعرفية والتطبيقية، أو التقبُّل الكامل للغيب والإيمان باللامعقول وهو المسمّى بالهوس الصوفي والحكايات الدينية الغيبية Mythomania، وقد يكون بمعنى أوسع هو انفتاح عقلي ووجداني على الحياة بكاملها والكون كله، ومن ذلك ميول البعض لعبادة الأبطال Hero-worship، وتوقير الأسلاف وكبار السن، والمحافظة على التقاليد ومسايرة العرف واحترامه، وطاعة الأبوين وأولي الأمر.

وهناك الكثير من المجالات يمارس فيها تسييس الدين أو تديين السياسة، وتُستَغل فيها المشاعر الدينية استغلالاً لصالح الأفراد أو الجماعات. وقد يمارس العنف باسم الدين. ويذكر التاريخ الكثير من الاغتيالات الدينية والحروب المقدّسة كالحروب الصليبية، وسيذكر التاريخ حرب الخليج، وحروب البوسنة، كحروب دينية، ويردّ البعض الكثير من صور الاضطهاد النفسي والتعصُّب العرقي إلى الصراعات الدينية.

وتقوم الدعوة التبشيرية الدينية حديثاً على الكثير من مقولات علم النفس والطب النفسي. وتشمل الدراسات النفسية في الدين البحث في المحرّمات Taboos، والميكانيزمات الدفاعية الدينية في مواجهة الخوف والقلق والتعصب. ومن المجالات الأساسية التي تبحث فيها سيكولوجية الدين: التسامي Sublimation بالغرائز والدوافع والحاجات، والتَّصوّف Sufism والرهبنة Monkhood، والاعتقاد في المشايخ والأولياء، وزيارة الأضرحة والقبور، والتداوي بالرُّقَى والتعاويذ، وطهارة الأولاد والبنات، والجهاد الديني والاستشهاد، والنبوءات والرؤى، والإيمان بالظواهر الخارقة والمعجزات وقصص

الخَلْق غير الطبيعية، كخلق آدم وحواء، والحكايات عن الأنبياء والبعث والحساب، والتباين بين الديانات، والوظيفة النفسية التي يخدمها هذا التباين عند أفراد المؤمنين وجماعاتهم، والحياة النفسية لكبار الفقهاء من أصحاب المذاهب والنحل الدينية، ومردودها على فقههم أو تشريعاتهم أو العكس، ومعنى الطاعة الدينية، وما تنصرف إليه، والدلالات النفسية للأوضاع الاجتماعية للمرأة والرجل والطفل والشيخ في الديانة، والمعنى النفسي للصوم، والراحة النفسية التي تستحدثها الصلاة عند العابد، ودلالات الوضوء والاغتسال، والعلاقات النفسية الجنسية بين الذكور والإناث، والعلاقات العائلية، ومعاني الضمير والأخلاق والجنة والنار والثواب والعقاب، والدين كيوتوبيا، والتجارب الأدبية والفنية الدينية، والنصوص المقدّسة، والكتابات الشعرية والنثرية في الدين، وفن الأيقونات والخطوط والزخارف الدينية، والدلالات النفسية للزي الديني ولباس الرأس الديني واللحية والمسبحة والسجادة، والوظائف النفسية لمناصب المفتي وشيخ الطريقة، والمقرئ والكاهن، والقسيس والحبر والراهب والفقيه، والبطريرك والبابا الإمام، وأمثال هذه الشخصيات الأبوية، ومعنى أن يُنَادَى أيهم بألقاب مولانا أو الشيخ أو الأب أو الأم أو الأخت أو صاحب الفضيلة، ودلالة الاختلافات في أن يكون الإله ذكراً أو أنثى. ويدرس علم النفس الديني وظيفة الرموز في الديانات، والطقوس التعبدية. وهناك الكثير من المصطلحات الدينية ذات الأبعاد النفسية مثل: التعالي Transcendence، والإيمان، والمحبة، والأخوة، والفداء، والوجد، والوجدان، والوصال، والوله، والنجوى، والنفس، والمشاهدة، والتجلّي، والفيوض والفتوح والإشراقات، والشواهد والمطالعات، والكمال والجلال، والقُرب والوصول، والقُدرة، والفراسة، والغضب، والغشية، والغيرة، والغرور والكِبْر، والعشق، والعزلة، والشوق، والشرود، والسكينة، والسلوك، والشُّكر، والسرّ، والرياضة، والرياء، والرهبة، والرؤيا، إلخ.

والاعتقادات الدينية تحدّد سلوك الناس، وهي طرقهم الخاصة في التعامل مع الصراعات.

وتتباين التجارب الدينية إلا أن طبيعتها السيكولوجية واحدة. ولا تختص التجربة الدينية بناحية نفسية واحدة عند الإنسان ولكنها تستغرقه كله. ومن شأن الصلاة مثلاً أنها ترتقي بالإنسان العابد من التعبّد الموضوعي إلى التُّقَى الذاتي، وهي تثري شخصيته وتتسامى بغرائزه ودوافعه وتجعل له أهدافاً ومعان لحياته تتجاوز الأهداف المادية التي لعامة الناس. وتقوم التجارب الدينية على التأمل الذي ينتزع العابد من الماديات ويكون به إنسانياً. والمقارنة بين الأديان علمٌ يقوم في بعض جوانبه على البحث في سيكولوجية الدين عموماً عند الشعوب، وعند الأطفال خصوصاً. وقد تناول بعض علماء النفس بالدراسة تكوين فكرة الله عند الأطفال خصوصاً. وقيل إن الطفل بين السادسة والسابعة يميل إلى التشبيه المادي، وفي السن بين الثامنة إلى الحادية عشرة تكون ميوله خليطاً من التشبيه والتعيين والتجريد، وفي السن من الثانية عشرة تكون له تصوراته المجرّدة عن الله. ويذهب البعض إلى القول بأن فكرة الله عند الأطفال حتى سن السابعة أو الثامنة حدسية، ثم تتحول إلى العينية من السابعة أو الثامنة إلى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، وبعد ذلك تكون فكرتهم عنه هي الفكرة الرسمية نفسها، أي فكرة الدين الرسمي. وقيل إن الطفل في نحو التاسعة أو العاشرة تكون معرفته بالله توصيفية أي معرفة بصفاته، ثم تبدأ مرحلة التشخيص في نحو الثانية عشرة، وبعد الخامسة عشرة تكون مرحلة استدخال أو استدماج الديانة الرسمية واعتناقها. وقد أجرى «مركز لوڤان للبحوث النفسية في الدين» بعض الدراسات حول صورة الله عند الطفل ومقارنتها بصورة الأبوين عنده، وتبين أن خصوصية صورة الأبوين تقابلها عمومية صورة الله. وكذلك أجريت بهذا المركز بحوث حول علاقة الارتقاء الأخلاقي بالإيمان الديني، وأنماط السلوك الديني وأبنية الشخصية (Vergote: Psychologie Religieuse).

ولقد نبهت القضايا الكثيرة في

التربية الدينية لما يمكن أن يكون مجالات جديدة للبحوث النفسية، ومن ذلك إمكانية عدم المصادمة بين المنهج العلمي والتعاليم الدينية، وعدم التعارض بين الأخلاقية الدينية ونتائج البحوث النفسية في المجالات التربوية والاجتماعية والسياسية والأدبية والفنية. وفي مجال الدعوة الدينية كان السؤال المطروح دائماً هو إمكانية الاستفادة من بحوث علم النفس في الحِجاج، وطرح المشاكل، والخلوص إلى النتائج، وقيادة الجماعة أو إمامتها. غير أن البعض قد يرى في علم النفس إيديولوجية تنافس الإيديولوجية الدينية وتعارضها، من حيث أن الإيديولوجيتين تتناولان كل نواحي السلوك والحياة، وأن كليهما يشكل نظرة كونية شاملة Weltanschaung، غير أن علم النفس علم عقلاني، بينما الدين غيبي وله سلطة آمرة، والأخذ به يقوم على الخوف من المجهول. ويختلف الناس في التدين، ويتبين من مختلف الدراسات أن النساء أكثر من الرجال التزاماً بالأوامر والنواهي والزواجر الدينية، وأن الرجال أكثر تطرّفاً من النساء في حالة الإذعان للدين أو الخروج عليه، وأن التدين يرتبط بالمستوى الثقافي، وأنه أكثر عند أبناء الطبقة المتوسطة، وأن مستوى ذكاء المتدينين عموماً هو المستوى المتوسط، وأن الدين أقرب إلى أصحاب الشخصية المتسلطة والميول المتعصبة. ويميّز وليام جيمس William James (١٨٤٢ - ١٩١٠) بين ما يسميه ديانة الأصحاء عقلياً ونفسياً وديانة المرضى. ويفرق آخرون بين التعبّد الموضوعي الذي يسلك بمقتضاه المتدين سلوكاً ليس عن اقتناع بأهدافه ولكن لأن الدين يأمره به، والتعبّد الذاتي الذي غاية العابد منه أن يصنع ذاته، وتكون التعاليم الدينية جزءاً من كمالاته الشخصية، وتطبعها بطابعها. والعابد يهمه في المقام الأول حقيقته هو، وأن يكون الصورة المثالية المتحقّقة لكل الأخلاقيات الدينية. ويفرّق علماء النفس بين الخبرة الباطنة الصادقة والسلوك الديني الروتيني والذي مجاله مظهر الشخصية وليس مخبرها. وأطلق بعضهم على هذا التمايز إسم الباطن

والظاهر Internal-external و Intrinsic-extrinsic في شخصية الإنسان المتدين، أو الأوّلي والثانوي Primary-secondary فيها، ومن ثم يتمايز في التجربة الدينية أن يكون الإيمان والالتزام ذاتياً أو مفروضاً وفوقياً، ويصنع هذا التمايز الفرق بين الدين Religion والتديّن Religiosity.

وقد نبّهت كتابات فرويد عن الدين إلى الكثير من أوجه الشبه بين الأشكال التي قد تكون عليها التجربة الدينية وبين الأعراض الوسواسية القهرية. ويكشف القصص الديني عن الكثير من الرمزية الجنسية، كالرمزية القضيبية Phallic التي للحيّة في الجنة وفي كثير من الديانات. ومن رأي فرويد أنه في التجربة الدينية تتميز التربية الاعتمادية للدين والتي يكون فيها الإله بالنسبة للعابد ما تكونه الأم بالنسبة للطفل، فالأم يعتمد عليها الطفل في طعامه وشرابه وإخراجه ونومه وصحوه وأمنه وسلامته، والإله يعتمد عليه العبد في الرزق والأمن والصحة والنجاح وفي كل شيء. وينبّه فرويد أيضاً إلى الجانب الآمر في الدين، والدوافع النفسية للتعصب، ودور الأب، باعتبار أن الحياة الدينية هي طرح درامي على المستوى الكوني للمواقف والمخاوف والأشواق التي تفجّرها علاقات الأفراد في طفولتهم بالأبوين.

ولقد تنبّه الكثيرون إلى هذا التقابل الذي يقوم عليه الدين بين التوبة والرحمة والعفو وبين القصاص الواجب، وأخذ المذنب بالشدّة، وتطبيق النص. وقد يستميل البعض في الدين هذا الجانب الأول أو ذاك الجانب الثاني الذي يمكن أن تكون عليه شخصية المتدين. والكثيرون يرون أن الأنبياء أُرسِلوا رحمةً للناس، وأن الكتب السماوية فيها الشفاء للنفوس. والكثيرون أيضاً يُبدهم في الدين جوانب التحذير والتنذير. وربما تكون غلبة أيّ من الجانبين بسبب الأحوال الاجتماعية والظروف المادية للمجتمع، وربما يكون الإيمان الديني بأي وجه من الوجوه بمثابة الإسقاط للصراعات بين الوالدين والأبناء، أو بين الأبناء بعضهم البعض.

مراجع:

- Freud: Obsessive Acts and Religious Practices.
- Freud: Totem and Taboo.
- Freud: Moses and Monotheism.
- موسى والتوحيد - ترجمة ودراسة دكتور عبد المنعم الحفني.
- William James: The Varieties of Religious Experience.

❖ ❖ ❖

- ١٠ -
سيكولوجية الزمن

الوجود والعيش في الزمان، والاعتقاد في الحياة خارج الزمان. الوجود النفسي للزمن. الزمن الذاتي واختلاف الإحساس به عند الشعوب وعند الذكور والإناث. والزمن والانتظار والسأم. الإدراك المرضي للزمن. الوعي بالزمن. التوجه الزمني. الزمن الميقاتي. تحليل السلوك الزمني. الساعة الفسيولوجية. الأفق الزمني.

❖ ❖ ❖

نحن نخبّر أو نُحسّ الزمن Time sense بتمثّله في الوعي، وأقصر مدّة زمنيّة يمكن أن نخبرها ويعيها الإنسان هي اللحظة The moment. والزمن ظاهرة سيكولوجية كما هو ظاهرة فيزيائية. وللزمن وجود مادي أو موضوعي يُقاس بمقاييس الزمن، كما ان له وجوداً نفسياً أو سيكولوجياً أو ذاتياً - الزمن السيكولوجي Psychological time، يختلف بإزائه الأفراد كما تختلف الأمم والشعوب. وبعض الشعوب إحساسها وتقديرها، وإدراكها للزمن Time-perception، قاصر، ويتمثّل ذلك في لغاتها، من حيث تعبيراتها عن الأزمان في تعاقبها أو تتابعها أو تواليها أو ديمومتها. والطفل الصغير لا يبدأ يعي أن للزمن وحدة يمكن أن يحسب بها إلا في نحو سن الثامنة. وهو في نحو هذه السن يبدأ إدراكه للزمن كمنظور Time field، فهو يكون ماضياً، أو حاضراً، أو مستقبلاً. والزمن الذاتي Subjective time يتمثّل عند كبار السن أكثر من تمثّله عند الشباب، فقد يتعجل الشاب الزمن ومن ثم يستشعر لجريانه وطأة ويحس

للانتظار ألماً. والشيخ الطاعن قد يستثقل الزمن في بطئه عندما تقصر أمانيه ولا يستشرف مستقبلاً. وقد يزيد إحساسه بالزمن الماضي ويكون تفكيره فيه، وتتناوبه المشاعر لخبرات يأسف لها أو يفرح، ويعاود التفكير فيها ويعيشها بكل انفعالاتها. والرجال عموماً أكثر إدراكاً للزمن وتقديراً للوقت من النساء. والمرأة قد تتقلب مشاعرها وتضطرب وجدانياً أكثر من الرجل إزاء الزمن متمثلاً في التواريخ وما تعنيه لها - أي للمرأة، أو ترمز إليه، وهي أحفظ لها من الرجل. والمرضى العقليون لا يستشعرون الزمن، ولديهم ما يُسمى العمه الزمني Time-agnosia وهو عجز عن تفهم معنى الوقت أو إدراكه. وانقضاء الزمن أو استنفاده يكون أسرع كلما كان العمل أو النشاط الذي ينصرف الإنسان فيه أحب إلى النفس، أو كلما كانت هناك دوافع للقيام به. ولا نحسّ بالسأم ويطول بنا الوقت ذاتياً، إلا إذا كرهنا ما نقوم أو نُشغَل به في الزمن. والشيوخ أكثر معاناة للسأم الذي يكون مع الزمن، والشباب يخبرون الانتظار في الزمن أكثر من الشيوخ.

وتتسبب بعض العقاقير في اضطراب الإحساس بالزمن وتقديره، فعقار الهلوسة مثلاً، والمسكالين، والبيلوسيبين، والكافيين والثيروكسين، يكون بها التقدير المُغالي فيه للوقت، فالساعة قد تنقضي كساعتين، بينما قد يتسبب عن تعاطي المهدئات أو الكينين، أو استنشاق الغاز الضاحك أن يستشعر المتعاطي أن الساعة قد مرّت كنصف الساعة أو نحو ذلك. ومن ظواهر الإدراك المرضي للزمن Pathological perception of time زيادة أو تناقص إدراك الزمن، أو فقدان الحسّ الزمني، أو غياب الوعي بالمتصل الزمن Time-continum ، أو اضطراب النسبة للماضي والحاضر والمستقبل، وقد لا نتذكر الماضي أو يتشوّش الإدراك بالحاضر، أو يتوه عنّا معنى المستقبل.

ويتغيّر إدراكنا للزمن بعوامل خارجية كما يتغيّر بعوامل ذاتية، ومن العوامل الأولى ما يكون مصدره الجسم، ومع ارتفاع أو انخفاض درجة حرارة الجسم قد يتشوّش الإدراك بالواقع. وبعض الأفراد يتميّزون بتقلبات حرارة

أجسامهم، ومن ثم يزيد عندهم الاضطراب في إدراك الزمن من غيرهم.

والزمن متمثلاً في الوعي يرتبط بأحداث، والوعي بالزمن Awareness of time هو وعي بالتاريخ. والزمن أزمان في علاقاته بالأحداث، أو أن الأحداث ترتبط بالتواريخ، أو نتذكرها، أو نتحدث عنها، في علاقاتها بالزمن Relation to time، أو بموضوعها في المنظور الزمني Time perspective للفرد. وبعض الناس والشعوب مرتبطون أكثر من غيرهم بالزمن Time-bound. وتتشكل الأحداث زمنياً باعتبار علاقاتها البعدية أو القبلية ببعضها البعض. ونحن نفكّر في الأحداث من حيث معناها للمستقبل وتنبؤاتها عنه، أو من حيث ارتباطها بالحاضر وما يمكن أن نقوم به فيه من أنشطة وانجازات، أو ما قد نعي لها من دروسٍ نحفظها في الذاكرة ونستعيد ذكرياتها من الماضي. وكل حَدَث عندما يقع فإنه يقع لمرة واحد، وليس من الممكن أن نستعيد حدوثه هو نفسه. ولكل حدث فترة زمنية Time-span أو Duration يستغرقها، وقد تقصر أو تطول. والحدث قد يتزامن Simultaneous مع أحداث أخرى، وقد يسبقها ويقدّم لها ويكون إرهاصاً بها، وقد يتلوها Successive ويتراتب عليها. والأحداث قد تكون مفردة، وقد تترابط في سلسلة، ترابطاً إجتماعياً وثقافياً يصنع ما يسمى التوجه الزمني Temporal orientation في التاريخ والمجتمع والعالم بأسره.

وتذكر كتب الفلسفة أن كنط Kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤) كان أول من تناول الزمن كموضوع للإدراك، ومن ثم جعله بالتالي من الموضوعات الرئيسية لعلم النفس A time-study. وتقوم سيكولوجية الزمن على المقابلة والمقارنة بين الزمن الموضوعي الميقاتي Objective clock time والزمن الذاتي Subjective time، أو الزمن الباطن Internal time المشعور داخلياً ونفسياً، ولكل من الزمانين إيقاعه Tempo؛ ولكل منهما ساعته، فالزمن الفيزيائي أداته الساعة الزمنية Temporal clock، والزمن النفسي أداته الساعة الباطنة Internal clock. ويتحصّل الوعي بالزمن من تخالف الأوقات والتغييرات التي يستوعبها في الإنسان

نفسه والأشياء من حوله، ومنها ندرك أن الزمن في تتابع، وأن له مدّة أو مدداً هي الفترات التي يستغرقها التغيير، أو التي تستقر فيها الأحوال إلى حين، ومن ذلك تعاقب الفصول، وتخالف الليل والنهار، وأزمان الحياة، والأوقات لمتباين الأنشطة.

والزمن ظاهرة ميتافيزيقية عندما يكون تفكيراً في الآخرة وفيما بعد الموت، ومن المنطقي أن لا يكون الموت هو نهاية الحياة والوجود، وأن لا يكون هناك حساب وعقاب وثواب، والأولى الاعتقاد في الآخرة لا نَفْيها والإعتقاد فيها إيجاب ونفيها سلب. ومجال التفكير في الوجود خارج الزمان هو الدين، مثلما مجال التفكير في الوجود في الزمان هو الفلسفة والعلم وعلم النفس بالذات. وكان هايدجر وسارتر، وعبد الرحمن بدوي: يقولون بالوجود في الزمان لا غير، فلا وجود إلا هذا الوجود، بينما تسعون في المائة من الفلاسفة وأهل العلم يجزمون بوجود خارج الزمان.

والزمان أو الزمن ظاهرة فيزيائية ونفسية، وهو بهذا الاعتبار ظاهرة للتأمل، والإحساس بالزمن Sense of time أو الزمن. كظاهرة محسوسة، يقوم عليها ما يسمى الفيزياء النفسية للزمن، وكان هنري بيرون Piron سنة ١٩٢٣ أول من تناول سيكولوجية الزمن في إطار سلوكي من خلال دراسة السلوك في علاقته بالزمن، وواصل بيير جانيه Janet (١٩٢٨) هذه الدراسة بالتركيز على أوجه التكيف التي يلجأ إليها الإنسان في تواؤمه مع الزمن، ودرس جان بياجيه Piaget (١٩٤٦) تطور فكرة الزمن عند الأطفال، وتوفر بولس فريس Fraisse (١٩٥٧) على تحليل السلوك الزمني Temporal behaviour، وقال إنه مجموعة التهايؤات للتغيّرات في الفرد أو البيئة من حوله، ومنها تهايؤات نتعلمها أو نكتسبها، ونخترع الرموز من أجل التعبير عن الزمن وأوقاته وفصوله وتواريخه، ونعلّمها للأجيال لكي يكون التفاهم بها حول وقائع وحقائق الزمن، ومن خلالها يكون إدراكنا للوقت، وللمدّة، وإحساسنا بالزمن وانقضائه أو ما يسمّى إيقاع الزمن Temporal rhythm، ونحن نوقّت الزمن من خلال إيقاعه المرحلي أو

الفصلي أو اليومي المتعاقب Nychthemeral rhythm، ويتحول الإيقاع الخارجي إلى إيقاع داخلي ينظم حياة الأفراد في نومهم وصحوهم وسعيهم وتناولهم للطعام، وينتظم به معاشهم وهضمهم وحرارة أبدانهم خلال ٢٤ ساعة هي مدة اليوم بليله ونهاره. وهذا النشاط المنتظم هو الذي يصنع من الكائنات الحيّة جميعها أشباه ساعات، وهو أيضاً الانتظام الذي نرتّب عليه أنشطتنا وصلواتنا. ولقد قام أحدهم بتجربة حبس فيها نفسه داخل كهف، لا يدري بداخله عن أمر الليل والنهار، وليس لديه ساعة يعرف بها الوقت، وكان ينام كلما احتاج إلى النوم، وظل في الكهف ٥٨ يوماً، نام خلالها ٥٧ مرة، ولكنه قَدَّر عدد الأيام التي قضاها فيه بثلاثة وثلاثين يوماً، الأمر الذي يقطع بأن ساعته الفسيولوجية Physiological clock (عدد مرات نومه) كانت أصدق وأدق من تقديراته للوقت (Siffre, Michel: Hors du Temps). وهذا التحول للإيقاع الخارجي إلى إيقاع داخلي حقيقة علمية نجد لها تفسيراً في إشراط باڤلوف Pavlov (١٨٤٩ - ١٩٣٦)، فعندما نقوم بإطعام الكلب كل ثلاثين دقيقة فإننا نجد لعابه لا يبدأ يسيل إلا قرب انقضاء الدقائق الثلاثين، وليس قبل ذلك أو بعد ذلك. ونحن أيضاً نبرمج أنفسنا على الإيقاع أو النبض الحضاري الذي يكتنف حياتنا من حيث مواعيد العمل والنوم والأكل وغيرها. وحتى الذين يعانون نقصاً عقلياً يشمل حياتهم تنظيم من نوع ما، ولا يتناولون طعامهم إلا على فترات منتظمة. ولكننا بالإضافة إلى ذلك نتعلم أن نوجّه أنفسنا بحيث نتواءم مع ما يطرأ من تغيرات مرحلية أو دورية، من أهمها التغيرات أو التقلبات في الطبيعة، ونتعلم أن نستخدم أجهزة لقياس الزمن وحسابه كالتقويم Calendar، والساعة Clock، أو الكرونومتر Chronometer، ونعيش الزمن كدورات Cycles، أو أن لكل منا أفقاً زمنياً Temporal horizon. والأفق الزمني الذي يمكن أن يدركه العامل المياوم بخلاف الأفق الزمني لأستاذ الجامعة، وكذلك الأفق الزمني للطفل الصغير وللراشد. وكلما تقدمنا في العمر إتّسع هذا الأفق واستوعب أزماناً، وصارت للأزمان دلالات

نفسية لم تكن لها، وتعكس اللغة ذلك، ولا يقتصر الأفق الزمني للطفل على تجاربه الشخصية، ولكنه يستطيع من خلاله وفي إطاره أن يتصور المستقبل ويتذكر الماضي، ويعيش أحداث أسرته والمجتمع من حوله وتاريخ أمته. وليس بوسع الطفل أن يتصور نفسه في دورة حياته كزوج، ولكن المراهق يستطيع ذلك، والجدّ يفكّر في دورات حياة سابقة كانت له. ويتميّز الإنسان عن سائر الكائنات في اتساع دوائره أو آفاقه الزمنية، وكل حرفة أو مهنة. وكل شعب. له وجهة نظره في الزمن. ويتحدث بعض علماء النفس عن تعدد الأزمان الاجتماعية. وقيل إن بعض القبائل البدائية في جزر المحيط الهادي لا تعرف الزمن المنقضي ولا الآتي، ولذلك تخلو لغتها من الأفعال الزمنية الماضية والمستقبلية. وقيل أيضاً إن أولاد الفلاحين يحكون عن قصصٍ، الزمن فيها بسيط، بينما أولاد المدينة تحفل قصصهم بالزمن المركّب، وإنه لذلك يختلف الزمن في القرية عنه في المدينة. ولكل فرد منظوره الزمني، وأحياناً يكون للفرد الواحد عدد من المناظير الزمنية بحسب تعدد انتماءاته الطبقية أو الاجتماعية، ومن ثم فقد يختلف إيقاع الزمن العائلي عنده عن إيقاع الزمن الوظيفي. ومع اتساع الدوائر الزمنية والنضج والتثاقف المستمر نتعلم أن نصبر على الزمن، وأن نحتمل تأجيل إشباع حاجاتنا، وأن نطلب الأهداف البعيدة ذات القيمة الأكبر والإشباع الأطول عن الأهداف القريبة زمنياً والأقل قيمة وإشباعاً، غير أننا في كل الأحوال نستشعر للزمن ضغوطاً Pressions temporelles، ونستخدم بسببها الساعة في المدينة أكثر من استخدامها في الريف. وأحياناً نتغلب على حقيقة انقضاء الزمن بأن نستحضر الماضي والمستقبل في الحاضر ونقيم لهما المتاحف، أو نرصدهما في السجلات، أو نصنع لأنفسنا التواريخ التي تكتب لنا الخلود عبر الأزمان.

مراجع:

- Fraisse: The Psychology of Time.

❖ ❖ ❖

- ١١ -
سيكولوجية القيم

معنى القيمة ونسق القيم. تأثير القيم في الإدراك. القيمة النفعية وقيمة اللذة. القيم والثقافة والتربية. الاختلافات في القيم بين الشعوب، وبين الذكور والإناث. القيم الإيجابية والسلبية.

❖ ❖ ❖

تُمثل القيم Values ما نؤثره ونفضله ونختاره من موضوعات تتّجه إليها رغباتنا وتمليها علينا حاجاتنا. وهل يمكن أن نوجد ونكون بلا قيم؟ وكيف نتعامل إذن إن لم تكن هناك قيم كما يزعم العولميون والليبراليون؟ وكيف نطالب بالعدالة والحق، وندعو الآخرين أن يعاملونا بالخير؟ والقيم لذلك من المحدِّدات الهامة للسلوك Determinants of behavior، لأنها أشمل من كل رغبة وحاجة واتجاه ودافع، وهي التي تستولد الحاجات والرغبات، وهي جزء من نسق الدوافع ولكنها هي نفسها ليست دوافع، وليست معايير للسلوك لأنها عامة ولا ترتبط بمواقف كالمعايير. والقيمة يمكن أن تكون مصدراً للكثير من المعايير، فمثلاً المساواة كقيمة، هي معيار لأكثر من إنسان في مواقف مختلفة وعلاقات متباينة. وعندما ترسخ الاتجاهات وتقوى فإنها تصنع قيمة. وتنتظم القيم في الشخص الواحد لتكوّن ما يُسمّى بنسق القيم Value system عنده، وربما يبدو أن نسق القيم هو ما نعنيه بالإيديولوجية الشخصية للفرد، فكل إيديولوجية ليست شخصية، ونسق القيم وحده هو الذي يمكن أن يكون شخصياً وجماعياً. والقيمة ضرب من الاتجاه الأمثل Super-attitude، وإذا كان الاتجاه هو استعداد نفسي أو تهيؤ عقلي متعلَّم للاستجابة الموجبة أو السالبة نحو الأشخاص أو المواقف أو الموضوعات المختلفة، فالقيم أبعد من ذلك لأنها مفهوم مجرد يتصل بالذات، ومن نسق القيم يتكون مفهوم الذات Self-conception، وتقدير الشخص لنفسه واحترامه لها. وما يجعل نسق القيم يستمر ويثبت عند الشخص هو مفهومه

عن ذاته، وبدرجة ما تنعكس صورة الشخص عن نفسه في قيمه بقدر ما تكون ردود فعله العاطفية على محاولات تغيير قيمه أو اتجاهاته التي تقوم عليها القيم. وتخدم كل الاتجاهات النفسية القيم. وكل نسق القيم يدعم فكرة الشخص عن نفسه واحترامه لها. وكل وظائف الاتجاهات النفسية أن تكون معبّرة عن القيم. ومفهوم القيمة من المفاهيم الكبرى سواء في الفلسفة أو في علم الاجتماع أو في العلوم السياسية والاقتصادية. والتعبير عن القيم هو المصدر الرئيسي لتحقيق الذات.

وتؤثر القيم في الإدراك، فما نضفي عليه قيمة أكثر من غيره هو ما ندركه ونتعرف عليه بسهولة، وما نسعى إليه ويهدي سلوكنا. ويتعلم الطفل من لحظة أن يولد ويطعم ثدي أمه، أن لفمه، ومن ثم لأعضائه، ولكل شيء في بيئته، ولكل أحد، قيمة نفعية Utility v.، وقيمة لذة Pleasure v.. وخلال عملية النمو ينتقل الطفل من أنماط السلوك المفروضة عليه إلى نوع من ضبط النفس تتحكم فيه قيمه الشخصية. وتشكّل الأسرة والجماعات المرجعية قيم الطفل. وحتى عندما يتمرد المراهق على قيم الوالدين فإن المشاهَد أن كل الأولاد ينتهون إلى أن تكون لهم قيم الأبوين. وقد يبدو أن تنكُّر المراهقين لقيم الأبوين هو لإثبات استقلاليتهم، غير أن ما يحدث أن هذا التنكُّر يؤكّد هذه القيم ولا يلغيها، إلا أنه يصنع بالمراهقين كما لو أن ما أخذوا به أنفسهم من قيم هو من إبداعهم هم أنفسهم وليس نقلاً أو تقليداً للوالدين.

ويختلف عالم اليوم عن عالم الأمس الذي كان ينبض بالقيم والمُثُل والأمثال والحِكَم، ويضطرب تمثّل الأولاد للقيم نتيجة المفارقة بين التربية ومقتضيات العصر. ورغم أن أطفالنا يتمثّلون القيم التي تهيؤها لهم الثقافة، إلا أنهم يصيبهم الاضطراب نتيجة اكتشافهم الفارق بين ما تذهب إليه قيم المجتمع أو الأسرة والممارسات السلوكية في هذا المجتمع أو تلك الأسرة.

وهناك اختلاف بين الذكور والإناث فيما يتعلق بتمثّل القيم والالتزام بها. وينحو البنات في المراهقة إلى عدم الإذعان لقيم الوالدين ولكنهن ينتهين

بقبولها والتعيّن بها، ويظهر الصبيان عنفاً أكبر تجاه القيم العائلية والاجتماعية. وقيل إن مرحلة التمرد على القيم عند البنات هي التي تقع بين سن إحدى عشرة وسن الثالثة عشرة، وتُسمى لذلك المرحلة أو الطور السلبي Negative phase، ويتوجه معظم الرفض للأم خاصة.

والقيم إيجابية Positive أو سلبية Negative، والأولى ما كانت الإثابة على الأخذ به، بينما الثانية ما لحق الفرد من جرّائه العقاب. ومن القيم الإيجابية التي يتمثلها المراهقون: الأمانة، وأدب السلوك، والتعاطف، والتعاون، والصداقة. ويُلام الأولاد على خيانة الأمانة، أو التنكّر للصداقة أو الإهمال. وفي عصرنا المادي قد تسود القيم المادية Material values، إلا أنه في المراهقة والفتوة قد يكون الاتجاه للقيم الدينية Religious values بخاصة، وهو ما يظهر جلياً لدى شبابنا هذه الأيام، كردّ فعلٍ لسيادة القيم المادية بعامة.

ويتصل بالقيم المادية ما يُسمى بنظرية قيمة العمل Theory of labour value، وهي نظرية مادية أصلاً ترى أن قيمة الأشياء فيما يدخلها أو يُبذَل فيها من عمل إنساني، وأن لها قيمة تبادلية Exchange value بما يمكن أن يُستبدَل بها من أشياء مختلفة. وتحفل وجهة النظر النفسية بما يمكن أن تستثيره الأشياء من رغبة فيها أو عزوف عنها، وكل عمل بمقتضى وجهة النظر هذه هو قيمة في حدّ ذاته بما هو مرغوب فيه أو معزوف عنه، والقيمة هي ما يستثيره الاهتمام بالشيء. وكل قيمة تدخلها عناصر عقلية ووجدانية واجتماعية وبيولوجية، وتصنّف القيم على ذلك بحسب ما فيها من عناصر، فالقيم الوجدانية Affective Vs. هي ما يجعلنا نرغب في الأشياء أو نعزف عنها؛ والقيم العقلية Conative Vs. هي التي يكون بها إقبالنا على التحصيل العقلي ومن ثم نحقّق به النجاح ونتجنّب الفشل أو الإحباط؛ والقيم الشخصية Personal Vs. هي التي يعبّر عنها اهتمام الفرد بنفسه ومتطلباته، والقيم الاجتماعية Social Vs. يعبّر عنها اهتمام الفرد وميله إلى غيره من الناس، والقيم البيولوجية

.Biological Vs هي ما يكون به التعبير عن الاهتمام بأوجه الإعاشة والإعالة الاقتصادية بما فيها من منافع للفرد. وتدخل القيم في كل الانساق التي يندرج تحتها الإنسان، فهي جزء من نسقه ككائن حي، ومن نسقه كشخصية، ومن نسقه الاجتماعي، وتتأثر القيم على ذلك بكل خبراته، وتتعرض للتأثير من قِبَل أية تغيّرات تطرأ على بنية السكان أو المجتمع، أو تطرأ على التكنولوجيا أو الانتاج الاقتصادي أو التنظيم السياسي، فإذا ثبتت واستقرت فإنها تفعل فعلها مستقلة كموجّه للسلوك.

وللقيم الخلقية .Moral Vs تأثيرها في تشكيل الفرد وتنشئته وفي ضبط سلوكه. ويكشف التحليل النفسي عن صراعات تقوم بالنفس بين القيم، فهناك القيم الاجتماعية التي نتمثلها ونذعن ونعمل بإحيائها، وهناك القيم الشخصية أي ما نفضله ونختاره ونهتم به أو له، وقد نكبته إلا أنه يظل يعمل داخلنا لاشعورياً. ويهدف العلاج النفسي إلى تقوية نسق القيم ودعم بعض القيم وإضعاف بعضها. وهناك دائماً هوة لا تُجتاز بين القيم الشخصية والقيم الاجتماعية. ويتوقف التوافق النفسي والاجتماعي على حلّ الصراعات بين القيم، أو التوفيق بينها، وخلق حالة من التوازن بين القيم الشخصية والقيم الاجتماعية والقيم البيولوجية.

والقيم تتلاحم مع بعضها ولا تنفصل عن بعضها، وتتأثر ببعضها البعض وبالتغيرات التي تطرأ على البعض. وتتميز المجتمعات المتغيرة بتصارع القيم. ومن النادر أن تسيطر قيمة واحدة ولمدة طويلة على سلوك الشخص، فمثل هذه القيمة تكون تفضيلاً مطلقاً Absolute preference، والعكس هو الذي يحدث غالباً، فالقيم تعمل معاً في شكل زُملة قيم V. cluster، ونسق أو نظام القيم V.-system هو مجموع القيم التي تسود جماعة أو مجتمعاً بحيث تتسق بها استجابات أفراده للمواقف المتشابهة. وقد يغلب على هذا النسق أن يكون دينياً كما في المجتمعات المسلمة، أو مادياً كما في أوروبا أو أميركا. ومن الممكن أن نستخلص هذا النسق من أقوال الناس وما يفضلونه ويؤثرونه ويرغبون فيه

ويحتاجون إليه، وما يدفع سلوكهم ويوجهه، وما يثابون عليه ويعاقبون بفعله.

مراجع:
- White, R.: Value Analysis.
- Allport et al.: A Study of Values.

❖ ❖ ❖

- ١٢ -
سيكولوجية الحسد

الحسد والثورات الاجتماعية. أخلاق العبيد وأخلاق السادة والحسد. الخرافة في الحسد. الدين والحسد. الاضطرابات النفسية والاعتقاد في الحسد. حسد القضيب عند الإناث. حسد الثدي عند الذكور.

❖ ❖ ❖

الحسد Envy تفكير راغب يتمنى به الحاسد أن تزول النعمة عن الغير وتكون له. ويعيش الحاسد في همّ نتيجة حسده، ويستبد به القلق كلما قارن حاله بأحوال الناس الأفضل منه. وحسده يولّد فيه غضباً، وقد يدفع إلى صراعات يميزها أنها تصدر عن حسد أو منافسة حسد Envious rivalry.

وللحسد زخم إجتماعي ونفسي، وقد يشحن المجتمع بالكراهية العلاقات بين طبقاته المالكة والمعدمة، ويدفع إلى ما يُسمى بالصراع الطبقي Class-conflict، وقد يكون وراء الكثير من الثورات. ويذهب الكثير من العلماء إلى اعتبار الحسد من أخلاق العبيد، وأنه لا يليق بالسادة، وأن خُلُقية الحسد خُلُقية هابطة. ويسلك المحسود سلوكاً يضاد به تفكير الحاسد، ومن ذلك لبس التمائم والأحجبة وقراءة التعاويذ. ويشتهر في درء الحسد لبس الخرزة الزرقاء لشبهها بعين الحاسد، إذ يقال إن وسيلة الحسد هي العين، وإن العين الزرقاء هي عين حاسدة غالباً. وقيل إن عين الحاسد ترسل موجات كهرومغنطيسية من شأنها التأثير في المحسود أو فيما يملك من نعمة. والحسد نوع من التفكير المؤثر عن بعد، إلا أنه لا يؤثر فعلاً، ويأخذ به بعض

المرضى النفسيين عندما يشكون من هُذاءات اضطهاد، بدعوى أن الحاسد يزعجهم بحسده فكرياً، أو يؤرقهم ويسلبهم النوم. والحسد يصدر عن شعور بالنقص وعدم الكفاية، والدين ينهي عنه لأنه من الخصال غير الطيبة، مثل النميمة واللمز والغمز، وفي القرآن سورة يتعوّذ بها المسلمون من الحاسد، يعني من نفسيته الحاقدة الشريرة، وإلا لو اعتقدنا في الحسد لكان ذلك من باب الشِرْك الخفي، لأن الحاسد في هذه الحالة يكون له سلطان يغيّر به ما قسم الله، فكأنه إله. وكان فرويد يقول بحسد القضيب Penis envy، يتحصّل للإناث في الطفولة، إذ يكتشفن أن للذكور عضواً هو عضو الذكورة يميزهم ويكون علامة تفوقهم، فيزكّي ذلك فيهن الحسد ويدفع بهن إلى مغالبة الذكور، وأن يتخلقن بأخلاقهم. وقد تهوى البنت أباها تعويضاً لنفسها عن نقص تركيبها، بأن يكون لها الأب الذكر ملكاً خالصاً تستأثر به وتغار عليه من أمها، وقد تكبر فتطلب الزواج من رجل يشبه أباها، وتتمنى أن تنجب ولداً تستعيض بذكورته عن الذكورة التي حُرِمت منها. ومن ذلك أيضاً حسد الثدي Breast envy، يكون بالطفل الرضيع لاشعورياً، إذ يلمس سيطرة أمه عليه بثدييها، فهي ترضعه وقتما تشاء، وقد تنزعهما عنه دون أن يشبع، وقد يتثبّت هذا الحسد للثدي عند الطفل، فلو كان بنتاً فإنها مع البلوغ وبعده قد تهتم كثيراً بثدييها، وتحفل بهما، وتتيه فخراً بكبرهما، وتُبرزهما، ويكون إشباق منطقة الصدر على حساب بقية المناطق الشهوية، ويكون إتيانها من ثدييها أكثر من أي من أعضائها الأنثوية الأخرى. ولو كان الطفل صبياً فسيظل به الحسد للجنس الآخر، إذ يكتشف أن الثدي ميزة الإناث دون الذكور، وقد يهوَى الثدي في النساء بعد البلوغ، وقد يشبق تفكيره في ثدييه هذه المنطقة عنده، فيكون إحساسه الجنسي فيهما أكبر، وقد يطلب من شريكته في الفعل الجنسي أن تمص ثدييه أو تلوكهما، تحقيقاً لرغباته اللاشعورية في امتلاك ثدي كثدي أمه، يمكنه أن يمنحه أو يمنعه من يحب.

(أنظر أيضاً سيكولوجية الخرافة).

مراجع:
- Klein, M.: Envy and Gratitude.
- Russell, B.: Dictionary of the Mind.
- Freud: Introductory Lectures an Psychoanalysis.

❖ ❖ ❖

- ١٣ -
سيكولوجية المعايير

السلوك المعياري. معايير الذكور والإناث. أنواع المعايير وصحة المعيار. المعايير الدينية والمعايير المتعارف عليها والصراعات النفسية. المعايير والحرية. نشأة المعايير والمدارس في ذلك.

❖ ❖ ❖

المعيار Norm في اللغة هو كل ما تقدّر به الأشياء من كيل أو وزن، وما اتخذ أساساً للمقارنة، وهو أيضاً النموذج المتحقّق أو المتصوّر لما ينبغي أن يكون عليه الشيء. والمعايير في علم النفس هي قواعد السلوك العام التي يقاس إليها سلوك الأفراد، فيُقضي فيه بالاستحسان أو الاستهجان أو الانحراف، ومن ذلك أن نصف السلوك بأنه سويّ Normal لو وافق المعايير العامة، أو نصفه بأنه شاذ Abnormal عندما يخالف ما اصطلح عليه الناس، وقد نصف السلوك كذلك بأنه مضطرب Disordered behavior.

وليس المعيار في السلوك هو المتوسط الإحصائي للسلوكيات السائدة، ولكنه إطار مرجعي Frame of reference للاتجاهات المرغوب فيها للسلوك، والمعيار لذلك سلوك نموذجي أو مثالي Ideal behavior يأخذ به الناس أنفسهم ويقيسون تصرفاتهم إليه. وتتكون المعايير من خلال التفاعلات الشخصية للأفراد بعضهم ببعض، فيتعرفون على أدوارهم وحدود تصرفاتهم ليسهل بذلك تعاملهم. والوعي بالمعايير في السلوك ييسر توقعاتنا لما يمكن أن يكون عليه في مختلف المواقف، وتنكُّب المعايير يوقع الفرد في صراعات مع الأفراد الآخرين ويعرّضه للعقاب الاجتماعي. وكلما التزم

الفرد بهذه المعايير كان ذلك دليل صحة نفسيه Mental hygiene وتوافق نفسي واجتماعي Social and psychic adjustment. وللمعايير ضغوط نفسية واجتماعية لأنها تُقنّن السلوك وتجعل الأفراد يكثرون من قمع أو كبت رغباتهم. وبينما نجد أن الكثير من الرغبات الشعورية التي مصدرها الأنا واحتياجاته تساير المعايير، فإن الرغبات اللاشعورية لا تتماشى مع هذه المعايير. و«الأنا Ego» واقعي غالباً بينما «الهو Id» يسعى إلى اللذة ولا يعترف بالحدود. ومعايير السلوك التي تصدر عن إطار مرجعي واحد غالباً لا تتصادم وتعمل زُملة Norm cluster، وتصادمها لا يقع إلا إذا كان تعارضها بسبب صدورها من أُطُر مرجعية متعدّدة أو ثقافات متباينة، وإذا تضاربت المعايير فإن سلوك الفرد لا بد أن تظهر عليه أعراض الصراعات أو التوترات النفسية. والإجماع على أن المعايير داخل الجماعة أو المجتمع تحول دون الميول المنحرفة للأفراد. ونحن نتعلم المعايير خلال التنشئة الاجتماعية Social upbringing. والمعيار بحكم تعريفه مقياس يتفق عليه أكثر من شخص، وربما اتفق عليه زوجان، أو ربما كان الاتفاق عليه من قِبَل جماعة صغيرة كجماعة الأصدقاء، وبعض المعايير تأخذ بها طوائف دون طوائف، وبعضها اختصاصه الذكور دون الإناث. والمعايير إلى حد ما قواعد معممة، وقد تصلح لكل الناس في كل زمان ومكان، وقد يرجع إليها شخص واحد في موقف محدّد في زمان بعينه. والمعيار هو الذي ينبّه إلى السلوك الصحي، وصحة المعيار تستمد من القيمة التي يصدر عنها، والتي يكون بها تطبيق القيمة، فالأمانة مثلاً قيمة، والمعايير المرتبطة بها هي قواعد السلوك التي يمكن تطبيق الأمانة من خلالها في مختلف المواقف والثقافات والمجتمعات. والمعايير تعبير عن حاجات ورغبات الأشخاص الذين يأخذون بها. وكل نشاط إنساني له أهميته ونتائجه يمكن أن يخلق فوراً المعايير الخاصة به، ومن ثم فهناك معايير للإدراك، وللشعو، وللتفكير، وللحكم، وللتقويم، وللعلم. وتصنّف المعايير لذلك إلى معايير عقلية منطقية

مجالها البحوث العلمية، ومعايير جمالية للحكم بها إذا كان المجال فنياً، كأن يكون موسيقى، أو نحتاً، أو تصويراً، أو تمثيلاً، أو غناءً، أو رقصاً، ومعايير نحوية للكلام ولأنواع الكتابة. والمتدين يرجع إلى المعايير الدينية. وتنتظم المعايير كافة المجالات في التقاليد، والعادات، والعرف، والتقاضي، والموضة. وبعض المعايير مشهور ومقبول ومعمول به، وبعضها قبوله محدود غير أنه معمول به، وبعضها غير مقبول ونذعن له، وبعضها نتعلمه من الطفولة وبالتعيين بالوالدين وغيرهما من الرموز الاجتماعية، وبعضها لا ندركه إلا كلما توغلنا في العمر وبالتدريج، وكلما زاد تفاعلنا الاجتماعي مع الآخرين. والمعايير التي نستدخلها ونستدمجها في الضمير، ومن ثم نعمل بوحي منها ونسايرها تلقائياً دون انتظار لثواب على الأخذ بها، أو تجنباً لعقاب لو تنكبناها، هي المعايير التي تكون معنا منذ الطفولة، وهي المعايير المتعارف عليها Institutional Ns. والشائعة. وما لا نستدمجه من المعايير قد نسايره طمعاً في ثواب أو هرباً من عقاب. وكلما زاد توافق الشخص مع بيئته وجماعته كان أخذه بالمعايير، ولو طمعاً في ثوابها، كالثروة أو المركز الاجتماعي، أو حتى طمعاً في استحسان الجماعة له.

فما الذي يجعلنا نأخذ بالمعايير وقد تتصادم أحياناً مع مصالحنا؟ والجواب أن المعايير هي قواعد السلوك التي تواتر نجاح الأخذ بها على المدى البعيد، ولذلك فربما تكون مسايرتها في غير صالح المذعن لها حالياً، إلا أنها قد تكون في صالحه من بعد. وكثيراً ما لا نكون على ثقة من السلوك الذي نفكّر في الأخذ به، ومن ثم فربما يكون من الأسلم والأوفق أن نأخذ أنفسنا بما يأخذ الناس به أنفسهم وجرّبوه وكان صحيحاً. والتنكب للمعايير قد يستولد في نفسه صراعات وعذابات ضمير نتيجة لمخالفته للجماعة. والضغوط النفسية Psychic pressures التي جرّبها مرة قد تجعله ينأى بنفسه عن أن يجرّبها مرّة أخرى. كما ان الشخص المخالف قد يواجَه من جماعته بضغوط نفسية، كالتهديد بالعقاب البدني، أو العزل، أو

إنقاص القدر الاجتماعي وقد تتحصل له صورة لنفسه بخلاف ما يتصوره عنها. وعلى العكس قد يشعر الفرد بالراحة النفسية إذ يجد أنه متوافق ومنتمٍ للجماعة، وأنه يأخذ بمعاييرها، ومن ثم يجد لما اختار من سلوك أو ذهب إليه من رأي سنداً له في الواقع الاجتماعي من حوله.

وقد تبدو مسايرة المعايير غير متماشية مع الحرية، خاصة إذا كانت معايير الجماعة من النوع المفروض على الأفراد، والتي يؤخذ الفرد من جرّاء تنكبها بالعقاب أياً كان. ومن الصعب مراقبة سلوك الأفراد، ناهيك عن مراقبة تفكيرهم، أو مراقبة ضمائرهم فيما يتعلق بهذه المعايير وتطبيقها. ويدفع إلى مغايرة الأفراد لمعايير جماعتهم غموض هذه المعايير، والتعرض لها بالنقد الكثير، وعدم جاذبية الجماعة بالنسبة للقدر، وعدم أهمية ما تقوم به الجماعة والذي به تتقوم معاييرها. ويتفاوت الأفراد في إحساسهم بالضغوط النفسية للمعايير. والحرية شعور نفسي، وكل إنسان حر نفسياً، بمعنى أنه يستطيع أن يفعل ما يريد ويرغب فيه، فإذا كانت رغباته أقل من الإمكانات المتاحة له فإنه يستشعر هذه الحرية كاملة، وله أن يمارس هذه الحرية الذاتية، وقد يرى المراقب الخبير أنها مع ذلك حرية محدودة جداً. وقد تكون الحرية من مقومات المجتمع نفسه وفي تكوين مؤسّساته، وهذا النوع من الحرية البنيوية Structural freedom لا يتوافر إلا إذا شارك أفراد الجماعة في صياغته وتشكيل معاييرهم، وعندئذ تكون أمام كل فرد خيارات كثيرة من المعايير ينتقي منها ويسايرها ويشايع الآخرين عليها. وهذه العلاقة بين الحرية الفردية والمعايير قد تجرّ إلى مناقشة نشأة المعايير، وهناك مدرستان في ذلك، إحداهما المدرسة الوظيفية التي تقول بأن المعايير قامت لتلبّي حاجات نفسية واجتماعية إليها، فمثلاً زنا المحارم لم يصبح له معيار إلا لأنه كانت هناك حاجة إلى مثل هذا المعيار عندما تبين للناس أن الكثير من الآباء يستغلون بناتهم إستغلالاً جنسياً. والمدرسة الأخرى تقول بالصراع Conflict school، وتردّ المعايير

إلى الصراع على القوة والسلطة والحكم، وتنسب نشأتها إلى الأفراد والطبقات الأقوى التي تشرّع المعايير لتُحكِم بها سيطرتها ونفوذها وتحمي بها نفسها، والماركسيون من هذه المدرسة. ويبدو أن التجارب حول المعايير تثبت أن بعض الأفراد قد يستقلون برأيهم عن رأي الجماعة، وقد يذهبون في مخالفتها حدّ الصدام معها، وأن البعض قد يرى الخطأ في رأي الجماعة، وأن البعض أيضاً قد لا يذهب في الفعل والقول إلا إلى ما تذهب إليه الجماعة ويتابعها عليه، وقد يبلغ بهم ذلك حدّ الصدام مع غيرهم دفاعاً عن رأي الجماعة.

مراجع:

- Sherif, M.: The Psychology of Social Norms.
- Stouffer, S.: Communism, Conformity and Civil Liberties.

❖ ❖ ❖

الباب الثاني

علم النفس والطب النفسي
في خدمة الحياة المدنية

- ١ -
دورة الحياة Life Cycle

أطوار الحياة وتحليلها. الأطوار النفسية الجنسية. عند بيلر وإريكسون وفرويد وسوليڤان. الطفولة والمراهقة والنطق والرشد والشيخوخة.

❖ ❖ ❖

تشتمل دورة الحياة على الأطوار التي يمر فيها الإنسان أو الكائن الحيّ منذ لحظة تخليقه واستحالته نطفة، إلى أن يكتمل الجنين ويولد وينمو كطفل، من المهد إلى المراهقة، ثم الشباب والنضوج، فالرجولة، ثم الشيخوخة والكهولة، وأخيراً الموت. ودورة الحياة التطورية Evolutionary l.c. تتضمن تاريخ حياة الكائن Life history، أو الانسان، والمجرى الذي تسير فيه هذه الحياة Life course. وقد يتخذ تحليل دورة الحياة Life-cycle analysis، منحىً سيكولوجياً أو إجتماعياً أو سلوكياً أو إنسانياً، يصنع ما يسمى أسلوب الحياة Life style، ويستهدي هدفاً هو: هدف حياة Life goal كل شخص خلال عمره الحياتي Age life. ويُذكَر أن تشارلوت بيلر (١٩٣٣) كانت أول من درس دورة الحياة وتعرّضت للأطوار التي يمكن أن يمر بها الفرد (Bühler & Massarik: The Course of Human Life)، وميّزت في هذه الدراسة بين السلوك والأحداث المؤدّية إليه، والخبرات الداخلية ونتائجها على مجرى الحياة، وتناولت أثناء ذلك التفاعلات بين كل ما سبق وعلاقتها بعمليتي النمو والنضج الفيزيائيتين. وقد ذهبت بيلر Bühler (١٩٦٨) إلى تقسيم دورة الحياة إلى خمسة أطوار أو مراحل تشغل أحداثها مدّة الحياة Life span، وذهب فرويد إلى تقسيمها إلى سبعة أطوار، وقسّمها إريكسون Erikson (١٩٥٩) إلى ثمانية أطوار، وسوليڤان Sullivan (١٩٤٥) إلى ستة أطوار، إلخ. ويحكم هذه الأطوار قصدية Intentionality، أو غائية Teleology، تجعل لها تنظيم حياة Life organization، أو طُرز تنظيم حياة l.-o. petterns، وخط سير إرتقائي. والبعض يقول إن دراسة دورة الحياة هي بمثابة

علم للنشأة والتطور Originology. وقد ميّز فرويد في تاريخ أو دورة الحياة للإنسان ما يسميه الأطوار النفسية الجنسية Psycho-sexual stages، ففي المهد يكون الطور الفموي Oral stage الذي تتركز فيه اللذة في الفم، حيث الفم هو وسيلة الطفل لإشباع اتصاله بالناس والأم، ثم تبدأ الأسنان في الظهور ويمارس العَضّ والقضم، بعد أن كان نشاطه قاصراً على المص والبلع والرضاعة، وتنغرس في الطفل من هذه المرحلة عادات سلوكية مدارها الأخذ والرغبة في الاستحواذ، والاتحاد مع ما يحصل عليه. ومن العادات السلوكية التي تتحصّل له فيما بعد وتترتب على اللذة التي يستشعرها بالفم، القُبلة والتدخين وتعاطي المخدرات والكحوليات. وفي الطور الشرجي Anal stage في نحو السنة الثانية من العمر تزيد اللذة بمنطقة الإست والمستقيم إلى جانب اللذة بالفم، ويكون الإخراج عند الطفل من العمليات التي يكون بها شعوره بالرضا مع ما يؤدّي إليه استخدامه لعضلات هذه المنطقة من سيطرة على التبرز، وتحكم فيه على هوى الأم أو على غير هواها، ويكون بذلك بدء شعوره بذاته. ولما كانت الثقافات المختلفة تولي عملية التدريب على الإخراج أهمية خاصة، فإن الطفل يستخدم أنماط السلوك المصاحبة والمتعلمة للتعامل مع الغير، فالتبرز يعني التخلص من شيء يخصّ الطفل، وقد يستشعر لذلك أثناء التبرز أنه يفقد جزءاً من ذاته، ويجمد على هذا الشعور ويترتب على ذلك أن عطاءه يعزّ ويتعلم البخل ويتثبت عنده. وقد ينكص الطفل إلى المرحلة الفموية إذا نال تدريباً على التبرز ينفّره منه، وقد يلجأ في هذه السن إلى مص الأصابع، أو قضم الأظافر، أو تكثر مطالبه، أو يتحول إلى طفل عدواني يستغل لهفة الوالدين على تبرزه بالشكل الصحيح وفي المواعيد ليغيظهما وليثبت ذاته. وفي نحو سن الثالثة ينتقل الطفل إلى المرحلة القضيبية Phallic stage من المراحل أو الأطوار النفسية الجنسية لنموه أو من دورة حياته، ويصبح مركز اللذة هو القضيب Penis عند الصَّبي، والبظر Clitoris عند البنت، وتكون لذته في انتصاب القضيب ولهوه بتناوله، أو

تضع البنت إصبعها في فرجها، ويبدأ عمل عقدة أوديب Oedipus complex، ويهوى الولد أمه ويغار من أبيه، كما تهوى البنت أباها وتغار من أمها، ولكن تهديد الأب أو الأم بقطع يده أو بتر قضيبه كلما تناوله بها يجعله يخاف، وذلك ما يسميه فرويد عقدة الخصاء Castration complex، ومن ثم ينتهي اهتمامه بالقضيب وتنتهي بذلك المرحلة القضيبية بالنسبة له. وأما البنت فتطول معها المرحلة القضيبية بالنظر إلى أنها لا تخشى من الإخصاء، وإنما الذي تدركه في نفسها أنها أقل تكويناً من الولد، حيث تفتقر القضيب ويترتب على ذلك شعورها بالنقص Inferiority feeling، وقد تحاول أن تعوّض عن ذلك بأن تكون عدوانية كالصبيان وتدخل معهم في منافسات. وفي السن من السادسة أو السابعة وحتى المراهقة تكون مرحلة الكمون Latency period، ومعنى تسميتها بالكمون أن الدوافع الجنسية تقل حدتها، أو أنها تخمد فلا يظهر في سلوك الطفل ما ينبئ عنها، ويميل الأولاد لذلك إلى اللعب مع الأولاد مثلهم، بينما تميل البنات إلى اللعب مع البنات. ومرحلة المراهقة Adolescence stage هي مرحلة النضوج الجنسي وبروز الدافع الجنسي، والمرحلة التناسلية Genital stage هي المرحلة التي يكون فيها نضوج الرجولة والأنوثة بشكل كامل، والحاجة إلى شريك من الجنس الآخر ليكون للشاب أو الشابة. وهذه النظرية الجنسية في دورة الحياة وما يصاحبها من نضوج هي نظرية بيولوجية كما قيل في نقدها، وقد أعطت للنمو ولمختلف المراحل معانٍ جنسية ونفسية وسلوكية تصاحبها. وقد ذهب إريكسون إلى شيء من قبيل التقسيم السابق على أساس فرويدي، إلا أنه جعل الأهمية لعامل التنشئة. والمقابل عنده للمرحلة الفموية: مرحلة الثقة التي نقيضها عدم الثقة Basic trust versus basic mistrust stage، حيث أن حنان الأم أثناء الرضاعة يُشعر الطفل بالأمان، ومن ثم يغرس في نفسه الثقة بالأم ويعمم ذلك على الناس. على عكس ما يتحصل له لو لم يستشعر الحنان في الرضاعة ولم يشبع منها، فينمو فيه الشك في الأم والناس من بعد. والمرحلة الثانية المقابلة للمرحلة

الشرجية عند فرويد: هي التي يكون فيها تدريب الطفل على الإطعام والإخراج، فإذا تمّ له ذلك بسهولة وفي جو عائلي متّسم بالسماحة والتقبُّل نشأ يشعر بذاته وكان سمحاً بدوره مع الناس، فإذا أسيئت معاملته بالتدريب القاسي والمتشدّد إستشعر النقص، وتولدت به حساسية للنقد والشك في قدراته وكفاءته. ويطلق إريكسون على تلك المرحلة لهذا السبب إسم مرحلة الاستقلال الذاتي مقابل الخجل والشك Autonomy versus shame and doubt stage. والمرحلة الثالث: هي التي تكون في الثالثة وحتى الخامسة تقريباً، وهي مرحلة المبادأة مقابل الشعور بالذنب Initiative versus guilt stage، وفيها يتعلم الطفل التعاون مع الآخرين وأن يكون زعيماً أو تابعاً، ويكتشف البيئة المحيطة، ويتعلم السيطرة على حركة أعضائه وتتكون له مهارات مختلفة، فإذا وجد التشجيع من أهله فإنه ينشأ وبه صفات المبادأة والمبادرة، وإلا فإنه كلما أخطأ عوقب فينكص أن يقوم بفعل أي شيء من نفسه، وتقل ثقته في نفسه، ويشعر بالذنب كلما أخطأ، ويلاحقه هذا الشعور مستقبلاً ويكون أساس الشعور بالذنب لكل ما لم يقم به أو يخطئ فيه. والمرحلة الرابعة هي: مرحلة الجِدّ مقابل النقص Industry versus inferiority stage وتكون في سن دخول المدرسة، ويتعلم الطفل أن يجِدّ ويحقّق التحصيل لأنه به ينال الاستحسان والتقدير والإعجاب، وعقاب الطفل على أخطائه يشعره بالنقص ويقصر به عن الاجتهاد، وفي سن المراهقة تكون المرحلة الخامسة: مرحلة الهوية مقابل الاختلاط Indentity versus confusion stage، بمعنى أن التنشئة تهدف إلى إعداد الطفل لدوره كصبي أو كبنت، ومن بعد لدور الرجل أو المرأة. وترسيخ الهوية والإحاطة بأبعادها لا يتيسر إلا إذا تعيّن الطفل براشد ذكر أو أنثى يتعلم من خلاله القيام بالدور الذكوري أو الأنثوي بحسب هوية الطفل. واختلاط الأدوار نتيجة فساد التنشئة وغياب القدوة يترتب عليه أن تتشوش لدى الطفل فكرته عن هويته، وبالتالي يعجز عن إدراك توقعات الناس منه والسلوك المناسب له. والمرحلة السادسة: هي مرحلة النضج

Maturity stage وتتلو المراهقة، وهي مرحلة الانسجام مقابل الانعزال Isolation versus intimacy stage، بمعنى أن المراهق الناضج يطلب العلاقات الحميمة في الصداقات والحب، وهي علاقات تؤكّد له هويته ويمارس فيها دوره، فإذا لم يكن نضجه صحيحاً، أو إذا عجز عن إدراك هويته، وأن يلعب الدور المتوقع منه، فإن فشله وعجزه يعلنان عن نفسيهما بأن يطلب الانعزال، ويؤثر ألا يكون له بالآخرين علاقات يتفاعل بها معهم ويعطي لهم ويأخذ منهم. والمرحلة السابعة: هي مرحلة الإنجاب مقابل العقم Generativity versus stagnation stage، فمعنى النضج الجنسي أن يكون الفرد قادراً على اختيار شريك من الجنس الآخر، وأن يرتبط معه بعلاقة منتجة، وأن يتناسل وينجب منه، ويتحمل مسؤولية هذه الشركة وما يترتب عليها، وأن يعول أسرته ويحوطها بالرعاية، وإلا فهو العاجز عن ذلك كله، وعن تكوين الأسرة والإنجاب وتحمل مسؤولية الزواج وتكاليف الأبوة، أي أن حياته لن تكون الحياة الولود ولكنها الحياة العقيم والبتراء. ومرحلة النضج هذه هي ظهيرة الحياة Noon of life، والخط الفاصل بين نصفي حياة الفرد: ما قبل النضج، وما بعد النضج. والمرحلة الثامنة والأخيرة: هي مرحلة الشيخوخة Old age stage، أو مرحلة الحكمة Wisdom stage التي سَمتها الرويّة، واكتمال القدرات، وتحصيل المعرفة، والحُكم الصائب، والفهم السديد، أي أن الخبرات فيها تتكامل، وتكتمل بها الذات، برغم أن القوى البدنية تكون في انحسار وانحدار. واكتمال الحكمة لا يصنعه فرد وحده ولكنه الجيل بأسره، وينقله إلى الجيل اللاحق عن الجيل السابق، ويتماشى مع فكرة كل جيل عن الجيل السابق واللاحق والتوقعات المرتهنة بكل جيل. وفقدان أو نقص هذا التكامل يتسبب فيه الخوف من الموت، وأن تنتهي الحياة ولمَّا ننجز فيها ما أردناه، وقد تتحصّل لنا بسبب ذلك إحباطات ويأس واكتئاب وتجتمع لنا فلسفة حياة وكأن كل شيء قَبض الريح، ولذلك سميت هذه المرحلة باسم مرحلة التكامل مقابل اليأس Integrity versus despair stage، واليأس عنصر سلب في

الحياة، وتكامل الذات بالحكمة الجامعة عنصر إيجاب، والحكمة تعني: المسؤولية، والاختيار، والاستقلال، والحرية، والإخلاص، والهدفية، وإرادة القوة، والانتصار، وهي أمور يقوى بها الأنا، وتنتقل عبر الأجيال، وتسري من الشيوخ أو حكماء المجتمع إلى مؤسساته التي يسيطرون عليها ويحكمونها أو يديرونها. وقوة الأفراد من قوة هذه المؤسسات، وهي قوة نفسية واجتماعية، أو قوة حياة Life force، قوامها كل عمليات دورة الحياة التي تشل الفرد والمجتمع والأجيال. وليس العلم والتكنولوجيا إلا متغيّرات تتماشى مع متغيّرات دورة الحياة. ودراسة دورة الحياة لها مردودها على علم نفس النمو، وعلم الارتقاء الإنساني بالمؤسسات، وعلم الطب النفسي بالتقويم التشخيصي والتنبؤي للاضطرابات خلال مراحل النمو، وعلم النفس القانوني بالتشريعات التي تناسب أطوار الحياة والسلوك الواجب داخل الأطر الاجتماعية والذي مصدره الحاجات النفسية والفيزيائية المتغايرة.

مراجع:
- Erikson: Insight and Responsibility.
- Erikson: Childhood and Society.

❖ ❖ ❖

- ٢ -
سيكولوجية التوازن

نظرية التوازن، وتوازن الشخصية، والتوازن النفسي. واصطلاح الهوميوستاز الفسيولوجي والستاتيكي، والسلوكي، والديناميّ. والتوازن المتغاير. والتوازن والانطباع. وخلل التوازن، ومصادر الاضطراب فيه.

❖ ❖ ❖

التوازن Equilibrium أو الهوميوستاز Homeostasis هو الحالة المتجانسة أو المستقرة، أو هو توازن البيئة داخلياً وخارجياً، باعتبار هذا التوازن مطلوب في الكائن الحيّ على المستوى الفسيولوجي والعصبي والنفسي، وفي البيئة الخارجية

التي يمكن أن تؤثّر على حالة التوازن في الجسم أو في التوازن النفسي بشكل عام. والتوازن - التوازن الاجتماعي - مطلوب أيضاً للأفراد وللجماعات في علاقاتها التفاعلية بعضها ببعض.

واصطلاح الهوميوستاز بمعنى التوازن إغريقي الأصل لغوياً، قال به الأمريكي والتر كانون (Cannon, W.: The Wisdom of the Body) سنة ١٩٣٢ في مجال الفسيولوجيا، إلا أنه استخدمه كذلك في علم النفس وفي السبرنطيقا Cybernetics، ويعني به تلك الحالة المستقرة التي ينبغي أن يكون عليها الكائن الحيّ، من حيث أن الجسم مثلاً يتوجب أن يكون على درجة حرارة معينة، وهي في الإنسان نحو ٣٧ درجة مئوية، وقد تزيد قليلاً أو تقل قليلاً ولا بأس في ذلك، فإذا ارتفعت عن ذلك فإن الجسم يلجأ إلى ميكانيزمات من داخله تهدف إلى استعادة الوضع السابق، كأن يعرق مثلاً ليعمل العرق على ترطيب الجسم، وقد يكون الغرض من العرق تخفيف شدّة الحرارة من خارج الجسم، وقد يقوم الفرد بعرض نفسه على الطبيب ليعطيه دواءً يخفف من حرارة جسمه، وذلك نشاط يأتيه بإرادته، على عكس العرق الذي يكون انعكاساً داخلياً ولاإرادياً. واشتداد حرارة الجو قد يجعلنا نلجأ إلى أخذ حمام بارد أو استخدام المكيّفات. وفي كل الأحوال فإن تغيّر الأوضاع المستقرة يستحثنا داخلياً بميكانيزمات من داخلنا، أو يستحثنا خارجياً بأن نأتي السلوك الذي نستعيد به ما تغير من أحوالنا. والميكانيزمات الداخلية أو الأفعال المنعكسة Reflex actions هي التي يدور عليها اهتمام علماء الفسيولوجيا، بينما ينصب اهتمام علماء النفس على الأنشطة التوازنية والهوميوستاتية التي يمكن أن نلجأ إليها كسلوك متعلَّم. ويتميّز الإنسان بأنه يبذل قصارى جهده ليكون في أفضل حالاته، وليحافظ على هذه الحالات، ولذلك فقد يقوم إذا ما اضطربت أحواله أو شملها الفساد أو الخلل بنشاط من شأنه استعادة حالة التوازن التي كانت له Restorative action، كأن يُشعل ناراً إذا أحس البرد مثلاً، أو يقوم بنشاط أساسه التنبؤ بظروف مستقبلة يكون بها اختلال

التوازن Forestalling action، فيسبق الظروف، كأن يرتحل مثلاً مع بداية سقوط الأمطار إلى حيث المرعى والكلأ وينأى بنفسه عن مواقع الجدب المتوقعة.

ومن العلماء من يطلق على ردود الفعل الانعكاسية التي هدفها استعادة التوازن إسم الهوميوستاز الفسيولوجي Physiological h.، أو الهوميوستاز الستاتيكي Static h. أو الساكن، بينما يطلقون على استجابات السلوك المتعلم إسم الهوميوستاز السلوكي Behavioral h.، أو الدينامي Dynamic h..

ومن شأن الدفاعات الكيميائية الحيوية والانعكاسية أن تحمي الأحوال المستقرة والمتجانسة في الجسم، فعندما يزيد تركيز الفيتامين مثلاً، فإن ميكانيزمات الكُليتين تعمل على تصحيح هذا الوضع. وفي الحالات التي تتدنى فيها ردود الفعل الانعكاسية فإن السلوك المتعلّم يُستَحث لهذه الغاية. وإذن فهناك نظامان، أحدهما للاستجابة الانعكاسية، والثاني للنشاط الإرادي، فإذا تعطلت الميكانيزمات الانعكاسية، أو لم تكن على مستوى الحالة من اضطراب التوازن، فإن الاعتماد يكون على نظام الدفاع المتعلّم، أو أن هذا الاعتماد يزيد. ويبدو أن المتحكم في ذلك هو اللحاء المخي Cerebral cortex، باعتباره أعلى مستويات الميكانيزمات الهوميوستاتية الواقية. وقد يكون نشاط نظام من الأنظمة لاستعادة التوازن الارتشاحي في الدم ويتسبب عنه العطش، ويُطلَق على هذه الظاهرة إسم التوازن المتغاير Heterostasis، بمعنى أن الأنظمة المختلفة تتراتب هرمياً من حيث قيمة التوازن، ويستحدث الاضطراب في توازن النظام الأكثر أهمية إضطراباً في توازن النظام الأقل أهمية في ترتيب الأهميات، وهكذا دواليك، علماً بأن الأقل أهمية لا يتسبب إختلال التوازن فيه في اختلال توازن النظام الأكثر أهمية، فمثلاً يأتي العطش في الأهمية قبل الجوع، كما أن الحاجة إلى الأوكسيجين أهم من الحاجة إلى الماء والطعام معاً، ومن الممكن للفرد أن يحتمل نقص الأوكسيجين لمدة دقائق فقط، بينما يمكنه احتمال نقص الماء لمدة يوم أو اثنين، والطعام لمدة أيام.

ويعتمد استبقاء التوازن أو استعادته

على عمليات التغذية الرجعية السالبة Negative feed-back، فالخلل في الحالة المستقرة يستحث بعض الأحاسيس التي تستثير استجابات من شأنها استعادة الحالة السابقة. وكلما قارب المدخل الحسي من تحقيق أقصى قيمة له فإن شدّة النشاط التصحيحي تتضاءل. ولا بد أن يدخل في الجهاز الضابط لكل حالة مستقرة ما يمكن أن يمثّل الحدّ المحتمل من القيم والعتبات الأعلى والأقل في شكل عصبي أو كيميائي حيوي، وتتصل كلٌّ من هذه الأجهزة بميكانيزم الهوميوستاتية الدينامية. والتوتر إذن: متغير وسيط لا بد منه في نظرية التوازن.

ولبعض المنبهات الصفة الذاتية لاستحداث اختلال التوازن أو استعادته، فمثلاً تعمل المذاقات الحلوة على خفض الجوع، ومن ثم فلها قيمة من حيث أنها تعمل على خفض التوتر، بينما الألم يفسد التوازن بزيادته للتوتر. وأيضاً فإن الملامسة الرقيقة المدفئة قد تكون من عوامل خفض التوتر عند الثدييات. ولا يعني ذلك أن كل ما يدخل السرور وتكون له لذّة تكون له قيمة هوميوستاتية، وكذلك فإن التعلّم قد يجعلنا نُعلي من قيمة أشياء رمزية خالصة وليست لها في ذاتها خاصية إفساد التوازن أو استعادته.

وفي الانطباع Imprinting فإن صغار البط بمجرد أن يخرج من البيض قد يتبع أول موضوع يراه يتحرك أمامه، وتكون له عندها قيمة توجيهية موجبة، ويسلك كما لو أن هذا الموضوع يفسد توازنه إذا اختفى.

وتتعامل الضوابط الحسيّة الهوميوستاتية باختلاف مستويات التكيّف، وهناك خط أساسي Baseline قيمته هي الأعلى، وقد ينتقل من مكانه نتيجة الدخول في خبرات متفاوتة، فالطفل مثلاً يتكيف مع مواعيد التغذية إذا جعلناها كل ساعتين، فإذا زدناها إلى ثلاثة، ثم أربع ساعات فإنه يتكيف أيضاً مع المواعيد الجديدة ويشعر بالجوع بعدها. وإذا تعرّض لضوضاء الراديو أو التليفزيون فإنه ينزعج في أول الأمر، ولكنه من بعد ذلك يبدأ يألفها ويُسَرّ لها على المستوى الذي هي عليه. وكذلك فإن المصريين يجدون أن درجة الحرارة في الصيف إذا بلغت خمساً وثلاثين درجة

مئوية فإنها تكون حرارة مثالية، في الوقت الذي لا يطيق الإنجليزي مثلاً هذه الدرجة إذا كان الطقس في بلده على هذه الحرارة في الصيف.

وتتباين عمليات الاستجابة لخلل التوازن من أبسط أشكال التغيرات في تركيب الدم مثلاً أو في الانعكاسات العصبية الأوتونومية إلى أعقد أشكال السلوك المتعلم. ولا يلجأ الكائن الحيّ، أو الإنسان بالذات، إلى الأشكال المعقّدة من السلوك، إلا إذا كان المنبّه مزعجاً، كالحر الشديد فإنه لتلافيه قد نلجأ إلى الانتقال إلى الظل، أو نستحدث بالنشاط توازن البيئة الخارجية باستخدام المكيفات مثلاً، أو قد تكون به المحافظة على الظروف الرمزية التي بها يتحقّق التوازن، كفتح الحساب في البنك فإنه أمان للشخص يدعمه مالياً واقتصادياً ونفسياً.

وقيل في تقويم نظرية التوازن إنها نظرية شديدة الرجعية لأنها تهدف إلى تكريس الأوضاع القائمة، وتستبقي الأمور على ما هي عليه، وإن الدوافع فيها تتوجه لاستعادة الظروف السابقة على التوتر والاضطراب. وذلك نقد صحيح إلى حد ما، لأنه بدون أن تستعاد الأحوال العادية المستقرة السابقة نصاب بالموت. إلا أن نظرية التوازن لا تقول باستعادة التوازن بالظروف السابقة نفسها وإنما بشكل مجدّد، فالثياب مثلاً المقصود بها حماية الجسم أو ستره، إلا أن شكل هذه الثياب أو ألوانها أو نسجها يمكن التجديد فيه باستمرار. والتوازن والمحافظة عليه أو استعادته باب من أبواب دراسة الدافعية. وقد ذهب البعض إلى تفسير الظواهر السلوكية في ضوء التوازن باعتبار أن الجهاز العصبي المركزي له مستوى تنبيه معين لا يقل عنه ولا يزيد عليه، ومن ثم فإن أي تنبيه حسّي يقل أو يزيد عن هذا المستوى هو بمثابة خلل في التوازن يتطلب تصحيحه، تماماً مثلما أن الجسم لديه مستوى معين من الجلوكوز أو فيتامين ب، واضطراب هذا المستوى هو دافع للجسم لتصحيحه. وأيضاً فإن للطموح مستوى، وتحقيق هذا الطموح يكون في حدود هذا المستوى، والحافز على السلوك إذا قل عن قدرة الفرد على الإنجاز فإنه يُهمله، وإذا زاد عن هذه

القدرة فإنه يهمله أيضاً باعتباره مستحيلاً، ومن ثم فالحافز الفعّال ينبغي أن يقع في الحدود العادية لمستوى الطموح. ويؤدّي النجاح المتكرر إلى رفع مستوى الطموح، وكذلك فإن الفشل المتكرر يهبط بمستوى الطموح.

ويتضمن المفهوم الهوميوستاتي للشخصية وصف الشخصية بالتراتب الهرمي للحالات التي ينبغي الدفاع عنها، والمنبهات التي يمكن أن تضطرب بها هذه الحالات، والتقنيات المستخدمة للوقاية من الاضطرابات ولاستعادة التوازن.

وبعض حالات التوازن تُفضل البعض الآخر، ويتباين الناس في إضفاء القيمة على الراحة البدنية، والبعض يفضّل عليها الحياة العائلية الهادئة، والبعض قد يؤثر أن يعيش حياة صاخبة حافلة بالنشاط والحركة. وقد تتحول الموضوعات التي ترمز للتوازن الداخلي كالأم أو المنزل أو الرصيد المصرفي إلى قيم نحميها في ذاتها. وقد تتحول صورة الذات ومفهوم الشخص عن نفسه إلى موضوع لقيمة، وتهديد صورة الذات بالفشل أو بالتسخيف الاجتماعي أو فقدان المكانة قد يرفع ضغط الدم ويستحدث تغيرات غدّية ويستوجب نشاطاً جاداً لاستعادة تكامل الأنا.

وتختلف مصادر الاضطراب للتوازن، والبعض قد تكون اضطراباته عصابية ومصدرها القلق، ومن ذلك الوساوس والفوبيا، والبعض قد تكون اضطراباته حقيقية وليست متوهمة وتصدر عن تهديدات واقعية للثوابت الفيزيائية أو القيم المكتسبة.

وقد يعتمد الفرد لاستعادة التوازن على الحركة العضلية الصريح لحماية واستعادة القيم الثابتة، أو قد يستخدم الرموز والتخيل. ويختلف الناس في المدى الذي يمكن أن تبلغه الاستجابات الدفاعية لديهم للمحافظة على الحالات المستقرة وصيانتها.

وكان فرويد سبّاقاً إلى القول بنظرية التوازن منبهاً إلى ميكانيزمات الكبت والإسقاط والأحلام والتبرير وغير ذلك من الوسائل التي توفّر الحماية للفرد من تهديدات الاضطرابات أو التي يستعيد بها التوازن. وعندما يستثار القلق والتوتر

فإن الفرد قد يلجأ إلى وسائل بدائية لخفض التوتر، ومن ذلك الإقبال على الأكل أو الشرب أو الجنس، إلا أن هذه الوسائل قد لا يكون بها التخلص من التوتر والقلق بشكل دائم، والسلوك العصابي بالاصطلاح الهوميوستاتي هو سلوك يقلل من التوتر بدون تصحيح هذا اللاتوازن الأساسي. ويذهب بعض علماء النفس صراحة إلى تصور الشخصية باصطلاحات هوميوستاتية، ومن رأي أولبورت Allport (١٨٩٧ - ١٩٦٧) أن الإنسان يمكن فهمه أكثر بما يسعى إليه مستقبلاً أكثر مما يسعى إلى استعادته من الماضي.

مراجع:

- Fletcher, J.: Homeostasis as Explanatory Principle in Psychology.
- Ashby, W.R.: Design for a Brain.
- Apter, M.J.: Cebernetics and Development.
- Allport, G.: Personality: A Psychological Interpretation.

❖ ❖ ❖

- ٣ -

البيئة Environment

البيئة النفسية والبيئة السلوكية، ومطالب البيئة وأنواع البيئات، ومحددات البيئة والحتمية البيئية...

❖ ❖ ❖

يُقصد بالبيئة في علم النفس مجموع الظروف المحيطة بالفرد والتي يمكن أن تكون ذات أثر في تشكيل شخصيته وتوجيه سلوكه. والبيئة السلوكية Behavioral e. هي الوسط الذي يتمثله الفرد سلوكياً، ويسهم في تحديد أنماط سلوكه أو أساليبه في مواجهة مختلف المواقف. ومطالب البيئة Environmental demands هي المقتضيات التي يفرضها نوع الحياة فيها، وهي مطالب أو مهام Tasks حيوية واجتماعية وثقافية وحضارية. والعوامل البيئية Environmental factors هي كافة الظروف والعوامل المؤثّرة في الكائن الحيّ من خارجه. وعلم النفس البيئي

Environmental psychology هو فرع علم النفس الذي يدرس العلاقات التفاعلية بين الأفراد أو الجماعات والبيئة التي يتواجدون فيها أو يعيشون عليها، وتجتمع فيه الكثير من مجالات علم النفس الاجتماعي، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، وعلم السياسة، وعلم العمارة، والإيتولوجيا ethology أو علم الطباع الخُلقية. ويقسم بعضهم البيئة إلى بيئة مادية إجتماعية Physico-social e. وهي كل ماديات المجتمع التي لها وظائفها وفوائدها للإنسان، كأدوات الإنتاج والزينة ووسائل المواصلات والاتصال، إلخ، وبيئة حيوية إجتماعية Bio-social e. وتشتمل على السكان من البشر والحيوان والنبات، وبيئة نفسية إجتماعية Psycho-social e. تضم العادات والعرف والتقاليد والمعايير والقيم والمعتقدات واللغة وأنماط السلوك، والعلاقات بين الجنسين وبين الطوائف والطبقات، والعلاقات الدينية والسياسية والأخلاقية والاقتصادية. ومجموع كل ما سبق هو البيئة الكلية Total e.؛ وما يكون من كل ما سبق له تأثير مباشر أو غير مباشر على الفرد هو البيئة الفاعلة Operant e.؛ وما يدركه الفرد من البيئة سواء في معناها المحدّد أو المتّسع هو البيئة المدركَة Perceived، والبيئة المتصوّرة Conceived e. هي ما يكون لدى الفرد من تصورات أو أفكار عن البيئة، كأن يرى مثلاً أنها تحتوي على عفاريت أو جان، ويتصرف بناء على ذلك وعن اعتقاد في وجودها.

والبيئة الإنسانية بخلاف بيئة أي كائن حي آخر، ويستطيع الأفراد أن يتحكموا فيها وأن يتناولوها بالتغيير والتعديل، وبالزرع والاستصلاح والتعمير. والبيئة المصنوعة Biome هي التي يتغير نسقها البيئي Ecosystem، ويكون لتغييره تأثيراته على سلوك الأفراد. والبيئة المحايدة Neutral e. هي البيئة الفيزيقية والاجتماعية التي لا تفرض قيوداً على الناس، ويسمونها أيضاً بيئة سمحة Permissive e.

والمذهب البيئي Environmentalism هو قول المتطرفين الذين ذهبوا إلى تفسير السلوك والشخصية بتأثيرات البيئة والتفاعلات بينها وبين الأفراد،

ويردّون هذه التأثيرات إلى ما قبل الولادة، ومن رأيهم أن مفهوم البيئة يشمل كذلك البيئة الرحمية .Uterine or prenatal e. منذ أن يتم إخصاب البويضة وحدوث الحمل. والمحددات البيئية Environmental determinants هي مؤثراتها الحاسمة والتي تطبع السلوك والشخصية بطابعها، وتصنع سماتها Environmental-mol d traits - أي سمات البيئة تصنعها على الشخصية، ومؤثراتها مصدرها البيئة الداخلية .Internal e، ومحدداتها فسيولوجية أو بنيوية أو وراثية؛ والبيئة الخارجية .External e. ومحدداتها مناخية أو جغرافية، أو سياسية، أو إجتماعية، أو عرقية، أو ثقافية، أو حضارية. والقول بالحتمية البيئية Environmental determinism يقابله من ناحية أخرى القول بالحتمية الوراثية .Hereditary d، وهو اتجاه متطرف آخر تؤيده كنقيضه دراسات مستفيضة إشتهرت في تاريخ علم النفس باسم جدل الوراثة - البيئة Heredity-environment controversy or debate، أو مشكلة الطبيعة - التطبع Nature-nurture problem. وربما كانت الوراثة هي العنصر الأظهر في نمط سلوك الحيوان، إلا أنه في الإنسان فإن مشكلة أثر الوراثة والبيئة يحسمها دائماً أن الإنسان كائن حيّ منفعل وفاعل في الوقت نفسه، وأنه يتأثر ويؤثر، ويطبع وينطبع، وتجتمع فيه خصائص وراثية خالصة، وأخرى بيئية خالصة، كما أن به من السمات ما تتضافر عليه تأثيرات الوراثة والبيئة معاً، وهي استعدادت وراثية تعتمد على البيئة في نضجها وتتأثر بها، ومن ذلك مثلاً الذكاء والتحصيل.

مراجع:

- Anastasi, A: Differential Psychology.

❖ ❖ ❖

- ٤ -
الوراثة Heredity

نظرية الوراثة وداروين. وعلم الخصائص الموروثة والاستعداد الوراثي. والخلل في الوراثة. وجدل

الوراثة - البيئة. ودراسات الصفات الوراثية للشعوب، والمجمع الجيني.

❖ ❖ ❖

الوراثة إنتقال للصفات الوراثية من الأبوين والجدود إلى الأبناء، عن طريق ما يُسمى بالكروموسومات Chromosomes أو الصبغيات، وهي حاملات المورثات أو الجينات Genes. ويهتم علم النفس بالوراثة من حيث تأثيرها في الأفراد، بأن تكون لهم صفات لم يختاروها لأنفسهم وتتحدد بها أنماطهم السلوكية وأساليب تعاملهم مع الناس ومع مختلف المواقف في الحياة. ونظرية الوراثة Theory of heredity أو Hereditarianism هي افتراض داروين Darwin (١٨٠٩ - ١٨٨٢) الذي طرحه في كتابه «أصل الأنواع Origin of Species» (١٨٥٩)، بأن الكائنات الحية قد تخلّقت بعضها من بعض، وأن الصفات الموروثة من السلف تتطور مع الخلف باستمرار - نظرية التطور Evolutionary. وعلم الخصائص الموروثة Hereditary charecterology هو أحد العلوم التي قامت على نظرية الوراثة في القرن التاسع عشر، بدعوى أن هناك خصائص وراثية Hereditary predisposition، أي تكون الوراثة فيها بالإمكان ثم يُظهرها التعرض لمؤثرات البيئة، والمثال على ذلك الفصام والصَرَع. وبعض الأمراض تحصل نتيجة خلل في الوراثة، فعندما يحدث التزاوج بين الذكر والأنثى فإن الخلية الملقحة تحتوي على ٤٤ كروموسوم، نصفها من الأب والنصف الثاني من الأم، يُضاف إليها زوجان من كروموسومات الجنس، إما XX في الأنثى، أو XY في الذكر، فيكون المجموع ٤٨ كروموسوم، ومعنى ذلك أن الصفات الوراثية يتشارك فيها الأم والأب مناصفة. وقد يحدث انحراف عن هذا النمط في تزاوج الكروموسومات الجنسية أو غير الجنسية، فمثلاً في الضعف العقلي المنغولي المسمى بمرض أو متزاملة داون Down's syndrome يكون عدد الكروموسومات ٤٧ بدلاً من ٤٨، وهي حالة نادرة تحدث مرة من كل ٦٠٠ حالة ولادة، وترتبط بأماكن معينة، مما يجعل القول بتأثير البيئة محتملاً. وتعمل

عوامل البيئة مع عوامل الوراثة منذ اللحظة التي يتم فيها الإخصاب ويحدث الحمل. وتتواجد الخلية الملقحة في بيئة رحمية توثر في تطورها، كما أن الجينات أو الموروثات التي تحملها الكروموسومات تعمل عملها أيضاً داخل بيئة الخلية الملقحة وفي تفاعل مع الجينات الأخرى، وتتأثر بالبيئة الخارجية وقد تستحدث بها تغيرات نتيجة مؤثرات كيميائية أو إشعاعية. والخلاف حول دور البيئة ودور الوراثة قديم واشتهر في تاريخ علم النفس باسم جدل الوراثة - البيئة Heredity - Environment controversy، أو إشكال الطبيعة - التطبُّع - Nature nurture problem، وهناك حالات يظهر فيها دور البيئة على دور الوراثة وبالعكس. وقد تبين مثلاً من دراسة التوائم المتماثلة Identical twins، وهي التي تأتي من بويضة واحدة وحيوان منوي واحد، أنه من شأن الوراثة الواحدة والبيئة الواحدة التي ينشئآن منها ويتربيان فيها، أن تأتي سمات الشخصية لكل منهما متقاربة، في حين أن اختلاف البيئة لكل منهما يباعد بين سمات شخصيتيهما. وعموماً فإن البيئة غير المؤاتية والمعوقة لنمو الطفل تكون لها آثار ضارة على شخصيته ونموه وسلوكه مهما كانت الصفات الوراثية التي تؤول إليه من الأبوين.

وتُسمّى الكروموسومات أحياناً باسم «خيوط الحياة»، وذلك لأنها تشبه الخيوط، وعليها يتوقف نمو الخلايا ونشاطها. والكروموسومات كما ذكرنا تحمل الجينات أو الموروثات، وأي صفة من الأب أو الأم ترجع في أصلها إلى واحدة من هذه الجينات أو إلى مجموعة منها. وتحتوي الكروموسومات والجينات على الحامض النووي DNA، وتركيبه بسيط وقد أمكن إعداده إصطناعياً، إلا أن الترتيب الفريد الذي عليه جزئياته هو الذي يقرّر خصائص النوع، والأفراد الذين يحملون هذه الخصائص، كما أنه ليوجه النشاطات المباشرة داخل الخلية يقوم بصنع أنواع مختلفة من حامض آخر هو RNA، مهمتها تخزين المعلومات الوراثية وتحويلها لشفرة وراثية تُستَدعى بها الأحماض الأمينية المطلوبة وتُرتّب بطريقة خاصة يكون بها تكوينها كبروتينات وتحليقها في أماكنها، ومن

البروتينات أنزيمات تستحث التفاعلات الكيميائية الوراثية في الخلية بدقّة وسرعة، وعند حدوث أي خطأ فإن شذوذ الخلقة يترتب عليه ويتحصل بسببه المرض النفسي أو العقلي نتيجة عجز الحامض النووي عن تكوين البروتين المطلوب.

والإمكانات الوراثية التي تنتقل من الأبوين والجدود على هيئة صفات سائدة Dominant أو متنحية Recessive، أي غير ظاهرة، تصنع ما يُسمى النمط الجيني Genotype للفرد، ويقابله النمط الظاهر Phenotype وهو ما يبدو عليه الفرد من خصائص جسمية وغير جسمية تشابه خصائص الأبوين ويمكن التعرف عليها فيه ومقارنتهما بها. ولكل مرحلة من العمر نمطها الظاهر. والنمط الظاهر هو الذي يبدو فيه أيضاً تأثير البيئة، فلون الجلد مثلاً له نمطه الجيني، وإنما النمط الظاهر له يتّضح فيه أثر البيئة بأن تزيد سمرته قليلاً أو كثيراً بتأثير الشمس والحرارة. وعلم الوراثة الظاهرة Phenogenetics هو دراسة التغيرات الوراثية الظاهرة عبر مراحل النمو، ولذلك فقد سُمّي أيضاً علم الوراثة الارتقائية Developmental genetics، ويبدو من هذه الدراسة أن القول بالنمط الجيني كالقول بالحتمية العضوية أو البيولوجية، إلا أن تأثير البيئة بما عليه النمط الظاهر يؤكّد أن الإنسان ليس مشروطاً بالوراثة فسيولوجياً وعضوياً وعقلياً ونفسياً. والقول بالنمط الجيني أو الإشراط الوراثي قد يعني أن الإنسان محكوم مسبقاً بصفات وراثية، وقد يكون ذلك صحيحاً من الناحية النظرية، إلا أنه عملياً فإن الإشراط الوراثي يتغيّر بالبيئة بما تكون عليه التربية التي ينشأ عليها الفرد وما تتيحه له من عناية صحية واجتماعية وثقافية وحضارية، وكلها من وسائل البيئة التي يمكن أن نسيطر بها على نموه. ويقوم علم تحسين السلالات Eugenics منذ أن قدّمه جالتون Galton (١٨٢٢ - ١٩١١) على هذه الفرضية من حيث التدخل لتعديل تأثير الوراثة واختيار الأفراد ذوي الصفات الجيّدة لإنجاب سلالات ذات مواصفات أفضل. وقد يبدو أن الغاية التي تتوخاها الوراثة هي المحافظة على الأنواع واستبقاء صفاتها،

إلا أن الوراثة بهذا التحديد تكون عنصر جمود. ومن شأن الطفرات Mutations الخروج عن إطار الخصائص المتوارثة الجامدة وتجربة صفات جديدة، والطفرات الشاذة تضرّ بالنوع ويجري عليها ما يسمى بالموت أو الإعدام الوراثي Hereditary death. ولقد قيل إن الطفرة ربما لا تتناسب مع بيئة معينة ولكنها قد تناسب بيئة أخرى، وذلك شأن الطفرات الخفيفة والتي يوصف الأفراد الذين تجري عليهم بالضعف البنيوي أو رهافة الخلقة والصحة. والطفرات الخفيفة أكثر شيوعاً من الطفرات الشاذة، وتكثر الطفرات الشاذة في البيئات التي يصدق عليها التلوث الكيميائي أو الإشعاعي الشديد.

ودراسة الصفات الوراثية لجماعة أو لشعب Population genetics تميل بالبعض إلى أن يقول بما يسمونه المستودع أو المجمع الجيني Gene pool للجماعة، وهو مجموع صفاتهم الوراثية المميزة لأفرادهم والتي تجعل منهم وحدة عرقية تختلف في صفاتها عن صفات غيرهم من الأعراق المتباينة عنهم. والمجمع الجيني ليس اجتماعاً وقتياً من هذه الصفات ولكنه جُماع الصفات على طول الزمن، وهو افتراض سليم طالما أن الجيل الحالي يرث صفات الجيل السابق عليه ويسلمها للجيل اللاحق له، وطالما أن الجماعة أو الشعب تضمه بيئة محدّدة يكون التقاء أفراده على أرضها متاحاً والتزاوج بينهم ميسراً ومغلقاً عليهم دون أفراد غيرهم من الجماعات أو الشعوب. وتضيع الصفات العرقية لشعب ما بانتشار أفراده في المعمورة وتباعد المسافات بينهم وتزاوجهم من الآخرين. ومثلما هناك مجمع جيني عرقي فهناك أيضاً المجمع الجيني العام للإنسانية كلها، فلم يُعرف أن الإنسان تزاوج وكائن آخر غير إنساني، وأيضاً فإن الفرد من الإسكيمو وإن بدا أنه من المستحيل أن يتزاوج من عربية مثلاً، إلا أنه من الممكن أن يتزوج من فرد من سلالة مغايرة وقريبة مكانياً، بحيث تتصل الحلقات بين الإسكيمو وغير الإسكيمو وإن بعدت المسافة، فتجتمع الإنسانية على صفات وراثية خاصة

بها. والمفروض أن الوراثة يكون بها تكيف الفرد مع بيئته، وتنوع البيئات يستلزم صفات وراثية متعددة ومتباينة، ولذلك فإن الاحتمالات لاتحاد الجينات حاملات الصفات الوراثية تزيد باستمرار. وكثيراً ما يشار إلى مقولات داروين في الوراثة بأنها انتخاب طبيعي يكون البقاء به للأصلح. ولا يعني البقاء للأصلح وجود صراع بين الأفراد والأنواع، وإنما أن المعول عليه في الوجود انتقاء الصفات التي يكون بها تكاثر النوع، والتي بها تكون صلاحية الأفراد لمواكبة الحياة والظروف والملابسات. والصلاحية التي يقول بها داروين هي صلاحية وراثية، أي نرثها من الآباء ونورثها للأبناء. ومن دأب الحياة أن كل فرد يحمل معه صفات طفرة تخرج به عن التشابه المتطابق مع الآباء، ولهذه الصفات عبؤها غير المنكور الذي ليس الأصل فيه تماماً لمكدرات الحضارة، ولا بد أن تُقابَل الطفرة السيئة بمبدأ يوازنها، وهذا المبدأ هو الانتخاب الطبيعي Natural selection، وأيضاً فإن الموت الوراثي مبدأ آخر يحول بين النوع وأن يكون تطوره للأسوأ. ويميل التطوريون أو القائلون بالتطور Evolutionists إلى تأكيد أن الإنسان يتطور للأفضل، وأن الوراثة في إجمالها تؤكّد على الصفات الأفضل وتعمّمها، ولربما يكون هناك ما يُسمى توازناً وراثياً Genetic equilibrium يقابَل فيه بين السيئ والجيّد من الصفات الموروثة. ولربما في الإنسان الواحد نفسه قد لا تكون الغلبة لمورثة على غيرها، فالمورثات تعمل جميعها في تفاعل مع بعضها، إلا أن الإنسان يستطيع أن يتحكم في تزاوجه وفي مواصفات البيئة بما يرجّح تحسين سلالاته، وهو ما أمكن التحكم فيه فعلاً بطريقة ظاهرة في الحيوان والنبات، حيث يسهل التجريب في مجاليهما دون تثريب ولا مسؤولية.

(أنظر أيضاً البيئة).

مراجع:

- Stern: Principles of Human Genetics.

❖ ❖ ❖

- ٥ -

التطور Evolution

معنى التطور على مدار العمر، وتأثير البيئة فيه. السلوك صناعة الوراثة والبيئة. الانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح. القدرة على التعلّم من الثوابت الجينية. التطور البيولوجي والتطور الثقافي. التطور والأخلاق. التطور وتحسين السلالات.

❖ ❖ ❖

التطور هو سُنّة الحياة، والصيرورة هي ناموس الوجود. وكل الكائنات الحيّة تتطور، ومنها الإنسان، والإنسانية لها بدايات تثبته الحفريات والآثار، وكل فرد له مراحل نمو تتطور به نحو النضوج، وبعده يتحصّل التنكّس Degeneration أو الشيخوخة Senescence، ولكل فرد نمطه الجيني Genotype الفريد داخل الإطار الجيني العام للنوع. ورغم أننا نورث الأبناء الجينات التي نرثها عن الآباء، إلا أن ما نتناقله ليس هو الميراث نفسه، وإنما يجري عليه التغيير والتعديل، ويساعد على التغيير والتزاوج بين أفراد أو أجناس متخالفين. ويهدف التطور إلى أن يرتقي بالنوع، والتكاثر وسيلة الأنواع لاستمرار البقاء، والمحافظة على النوع هي غاية الوراثة، والتغييرات أو التعديلات التي يستحدثها التطور تزيد بها كفاءة أفراد النوع على التكيف مع ظروف البيئة والتوافق مع متطلباتها. والبيئة كعنصر مؤثر في التطور لا تستحدث التغييرات والتعديلات وإنما هي تحث الأفراد على أن يتجاوبوا معها، والاستجابة التي ينجح الأفراد في التوافق بها مع البيئة تتدعم وتتثبت، والجينات التي تؤهل لها هي التي يتناقها الخَلَف، لأنهم بها يكون استمرارهم في الحياة وتكاثرهم. والخلايا الجنسية من الذكر والأنثى هي التي تصل بين السلف والخلف، وهي لا تحمل أنماط السلوك، فالسلوك لا يورث، وإنما الذي يورث هي الاستعدادات له والإمكانات التي بها يتحقق، والسلوك نفسه نتعلمه من البيئة في حدود هذه الاستعدادات أو الإمكانات. والوراثة والبيئة Heredity and

environment يصنعان السلوك، والوراثة تنقل الصفات النوعية، فالإنسان مثلاً كائن له القدرة على الكلام، ولكن ما يتكلم به من موضوعات هو ميراث حضاري بيئي. والوراثة والبيئة كلاهما يصنع الشخصية ويطوّرها. والتطور الذي يلحق النوع تحدّده عوامل بعضها موروث وبعضها من البيئة. والإنسان له السمات الثابتة في حدود كونه إنساناً، وهي سمات لا تتغير بالمكان ولا بالزمان، وثبوتها الجيني هو الذي يحفظ على انسانيته، وله أيضاً سماته المرنة التي يتكيّف بها مع الظروف ويتواءم مع المكان والزمان. وهو يدخل تجارب مع البيئة الواحدة والبيئات المتعددة، ويتمرس بمختلف الأجواء والمناخات، والتطور يجعل له هذه القدرة التلائمية Adaptive ability، وكلما زادت به هذه القدرة كان أقدر على الحياة والاستمرار. والانتخاب الطبيعي Natural selection بين الأفراد هو الذي يجعل البقاء للأصلح Survival of the fittest. والثقافة Culture عنصر آخر من العناصر التي بها يتأهل الإنسان للانتخاب الطبيعي، فهو يتعلم ويتدرب في حدود الثقافة، وتزيد قدرته على التكيف مع البيئة والتطور نحو الأفضل. والثقافة لا تنتقل من جيل إلى جيل بالوراثة الجينية، ولكنها تُكتَسب دوماً بالتعلّم والتعليم بواسطة اللغة، والتعلّم Learning والقدرة عليه هما المحكان للقدرة على التطور، والقدرة على التعلّم من الثوابت البيولوجية التي تميّز الإنسان كإنسان، وكل فرد غير مؤهل جينياً للتعلّم يتخلف عن التطور ويستبعده الانتخاب الطبيعي.

والقدرة على التعلّم بالإضافة إلى المرونة الجينية تساعد على تطوير السلوك والإرتقاء بالشخصية إلى مستويات ثقافية أرقى. ومن الممكن أن يتعلم أي فرد أغلب المهن والحرف، ولا تتعارض المرونة الجينية مع التخصّص المهني أو الحِرَفي والنبوغ فيه. ويقوم التخصّص على التنوع الجيني للأفراد، وبذلك يتباين الأفراد جينياً، وأيضاً يتباينون من حيث الحِرَف والصناعات والمهن والأنشطة ويكون تمايزهم الثقافي. ويذهب دعاة العنصرية Racists إلى تأكيد التخصّص الجيني، ويبنون عليه تفوّق بعض الأجناس ثقافياً، كالتفوق

الجيني للجنس الآري Aryan race ، أو الجنس اليهودي، أو السامي Jewish or semitic race، أو الجنس الأصفر Yellow race، وهم يقولون إنه كما أنه في نوع الكلاب مثلاً هناك أجناس يتميز كل منها بميزة عرقية أو جينية، فكذلك النوع البشري هناك أجناس وشعوب تتمايز عرقياً وتتفوق على غيرها، والجنس الآري مثلاً كان تفوقه في الموسيقى الكلاسيكية والفلسفة. والمغالطة في الدعوى السابقة أن التطور في الحيوان هو تطور بيولوجي، في حين أن التطور في الإنسان هو تطور بيولوجي وثقافي بالدرجة الأولى، والتطور البيولوجي عند الإنسان يبدو وكأنه قد توقف باكتمال العقل البشري، وما يزال الإنسان يتطور ثقافياً ويوجّه نفسه وجهة إرتقائية بحسب ميول كل شعب وكل جنس. ويثور الجدل حول ما إذا كانت أجناس الإنسان كانت كذلك دوماً، أم أنها تنوعت بتأثير البيئة. والغالب أن الثوابت الجينية عند الإنسان هي نفسها عند كل الأجناس، وأما السمات الأخرى من لون وخلافه فهي من خصائص تكوينه الجيني المرن والمتجاوب مع متطلبات المكان والزمان. والدليل على ذلك أنه ما إن تغير أجناس الإنسان بيئاتها كما في الهجرة إلا ويكون اشتراكها الكامل في الأنشطة الثقافية المرتبطة بهذه البيئات، وقد صار اليهود وهم من الجنس السامي - الذي قيل إنه لا يتفلسف وليست له موسيقى - فلاسفة كباراً وموسيقيين ورسّامين وعلماء بعد أن سكنوا ألمانيا وفرنسا وانجلترا وغيرها من بلاد الآريين والأوروبيين. والقدرة الأنسب للإنسان هي قدرته على التعلّم والتعليم، والتمايز بين الأجناس هو في دعم هذه القدرة عبر التاريخ. والتعلّم في الإنسان ليس كالتعلّم عند الحيوان. ولم تكن المرونة الارتقائية في الإنسان محض صدفة تحصّلت له، ولكنها على العكس محصّلة تكيّف تطوري أساسي يميّزه عن بقية الكائنات. ولقد ثار الجدل حول دور التطور في تأسيس الأخلاق Ethics وتأصيلها عند الإنسان. ومن الممكن تطبيق مبدأ الانتخاب الطبيعي على مجال الأخلاق كما في أي مجال آخر، فمن خلال التطور كانت المفاضلة بين أفراد جيناتهم غيرية Altruistic وأفراد جيناتهم أنانية

Egoïstic، والأولون إتجاهاتهم نحو الناس والتضحية حتى بأنفسهم من أجل الآخرين، على عكس الأنانيين الذين يحاربهم الناس ويعادونهم ويعتزلونهم، ومن ثم يكون استبعادهم تطورياً بمقتضى مبدأ الانتخاب الطبيعي. والأخلاق تعني السلوك الجمعي المتحضر وانتصار الغيرية، والتطور يؤكّد الوراثة الغيرية على الوراثة الأنانية. والتطور مع الأخلاق. والانتخاب الطبيعي يجعل من الإنسان كائناً أخلاقياً Ethical being، ومتلقياً للأخلاق يجيد التلقّي، ومتقبّلاً للسلطة الأخلاقية، لأنها تؤكّد وجوده، وتدعّم بقاءه في الحياة، وترقّي سلوكه. والإنسان في كل مراحل حياته وتطوره، وخاصةً في طفولته كفرد أو كنوع، كان تواقاً لمعرفة الخير والشر والصواب والخطأ والحق والباطل. ويشغف الإنسان بالتعلّم من أبويه والمحيطين به. وقد لا تكون الغيرية والأنانية من التكوينات الجينية في الإنسان، وإنما هي من مكتسبات الثقافة التي نتحصلها بالتعلم وليس بالجينات، إلا أن التطور، والانتخاب الطبيعي، والبقاء للأصلح، في صالح الغيرية، والمجتمع بمصالحه مجتمعة، وثقافة وقوانينه، والديانات فيه، ضد الأنانية. ويُولد الإنسان ولديه الاستعداد الجيني ليسلك السلوك الفاضل أو السلوك الإجرامي، وهو يتعلم الأخلاق من الثقافة، ويتحصّل له الوعي بأبعاد الأخلاق، ويختارها لنفسه سلوكاً، لأنه بها يكون أصلح للاجتماع، وأقدر على التوافق والارتقاء تطورياً. ومن الصعب التكهن بما يمكن أن يؤول إليه الإنسان بالتطور. والتطور الثقافي للإنسان أسرع من تطوره البيولوجي، ويجعله تقدُّمه الثقافي على قدر كبير من اللياقة البيولوجية للبقاء والتطور، ولكن هذه اللياقة لا بد أن تواكب الطموحات الثقافية إذا أريد لها الاستمرار، وذلك ما يجعل علماء تحسين السلالات Eugenics يسعون إلى تحسين السلالة الإنسانية جينياً، بتعقيم غير الصالحين، وتعميم الدعوة للتلقيح الاصطناعي من سلالات مختارة، وقد روّج لهذه الدعوة العنصريون في بداية القرن العشرين، الأمر الذي جعل الجمهور يتشكك في نوايا علم تحسين السلالات، ويطالب

بقصر بحوثه على مجال الحيوانات دون الإنسان.

مراجع:

- Dobzhansky: The Evolution of the Human Species.

❖ ❖ ❖

- ٥ -
سيكولوجية المرور

حوادث السيارات ومسبباتها، وديناميات شخصية السائقين، والشروط الواجب توافرها في السائق، والقيادة وسيكولوجيتها، والعلاقة بين السائق والمركبة، والتأثيرات النفسية لألوان إشارات المرور الكهربية، والتحليل النفسي لحوادث المرور...

❖ ❖ ❖

سيكولوجية المرور Traffic psychology من المجالات التي يهتم بها علم النفس التطبيقي Practical psychology، والتي صارت تحتمها التطورات الهائلة في المدن، والمواصلات والزحام المروري الذي صارت تعاني منه، والتجارة الضخمة التي تبلغ مليارات الدولارات سنوياً، بيعاً وشراءً للمركبات أيّاً كانت، سواء الطائرات أم السفن أم القاطرات أم السيارات، والأرقام المذهلة للوفيات بسبب حوادث المرور، وما يترتب عليها من خسائر مادية وخسائر نفسية واجتماعية أكبر من ذلك بكثير.

والبحوث في سيكولوجية المرور ينصرف أكثرها لحوادث السيارات ومسبباتها النفسية، والشروط الواجب توافرها في السائق المسؤول، وديناميات شخصية السائق، والاضطرابات النفسية التي قد يعاني منها، وخاصة الطيارين. وأقل البحوث تتناول مشاة وركاب وسائل المواصلات، والأسباب النفسية لتفضيلهم وسيلة على أخرى، وسيكولوجية السلوك القيادي، وسلوك المشاة والركاب. ويتعرّض علماء التحليل النفسي كثيراً لتفسير رعونة الشباب في قيادة السيارات، وقد يُرجعون ذلك إلى مشابهة فعل القيادة للممارسة الجنسية،

والتعويض بالقيادة عن الجنس، وقد تعطي القيادة إشباعاً بالسيطرة والضبط والتحكم. ويعاني الطيارون مثلاً من عُصاب الطيارين Aviators' neurosis، وهو خواف يتحصل لهم ويمنعهم من الطيران، وقد يعانون بسببه من العمى الليلي، أو من خواف الأضواء الذي يحول بينهم وبين قيادة الطائرات في أوقات دون أوقات. ويدرس علماء النفس العلاقة بين السائق والمركبة ضمن ما يُسمى نسق الإنسان الآلة Man-machine system (MMS)، ويتبعون لذلك عدّة وسائل، منها رصد حركات السائقين وآرائهم، وردود فعل المشاة والركاب. وهناك طرق لتسجيل معدلات الزحام، وتصوير متعلقات المرور جميعها ولكافة الأطراف على الطبيعة، وبالصوت أيضاً، وقد تُصطنع المواقف كما في المختبرات لرصد جوانب معيّنة، وإجراء البحوث فيها والدراسة عليها والتجريب بصددها، سواء من حيث السلوك، أو التعديلات في تصميم المركبات لتلافي عيوب معيّنة، أو إجراء تحسينات فيها. وتأتي التحسينات السنوية نتيجة البحوث النفسية التطبيقية، سواء على الشارع وتصميمه، أو إشارات المرور وتأثيرها وأشكالها وألوانها، أو العِدَد المُشَغِّلة للمركبة، وتواؤمها مع القدرة الحركية والإدراكية للإنسان.

ويهتم الأخصائيون النفسيون بالسلوك القيادي Driving behaviour ومكوناته الحركية، والإدراك البصري والسمعي للمجال القيادي، والتأثيرات النفسية للزحام، وللتجاوز، ولأعطال السيارات. والزحام يستحدث أحوالاً من التوتر، وتوقف سيولة السير بسببه يستحدث الإحباط، وهناك تجارب على الحيوانات ترصد ما يتحصّل لها فسيولوجياً نتيجة إحباط الزحام. ومن أسباب القرحة الهضمية Peptic ulcer عند بعض السائقين الزحام الذي عليه المدن الكبيرة، وكذلك قد يُردّ الصداع النفسي المنشأ Psychogenic headache إلى الزحام والإحباط، وإلى التوترات الدائمة خلال القيادة، ومعاناة القلق نتيجة التأخير. والقيادة بشكل عام لها ضغوطها النفسية. ويميل السائقون في المؤخرة إلى متابعة سيارات المقدمة

والاقتداء بها في السرعة والتهدئة والتوقف. وهناك علاقة بين نوع السيارة وسلوك جندي المرور مع السائق الذي يقودها، وقد تفسر المعاملة الطيبة لجندي المرور مع سائقي السيارات الفارهة بأنه من تأثير ما يسمى «أثر الطلعة Halo effect»، والانحياز أو الاحترام الطبقي عند الجندي لسائق أو مالك السياراة الفارهة، بالنظر إلى ما تمثّله عنده كرمز طبقي له استجاباته النفسية. والكثير من الرعونة عند الشباب من أصحاب هذه السيارات مغفور عند جنود المرور، بينما هو غير مغفور عند سائقي الأجرة أو السيارات الصغيرة. وقد قيل في أسباب استخدام اللون الأحمر للتوقف الفوري، إنه لون يلفت النظر ومنبّه للذهن ومثير انفعالياً، بينما اللون الأخضر له تأثيرات هادئة ومخفّض للانفعالية، واللون البرتقالي تأثيراته بين اللونين، وهو لون محذّر يجعل القائد يتمهّل في السرعة ويلتفت يمنةً ويسرةً يحذر الحوادث. وتُستخدم هذه الألوان الثلاثة في إشارات المرور بالنظر إلى تأثيراتها النفسية، كما يستخدم اللونان الأحمر والبرتقالي في أنوار السيارة الخلفية للأسباب نفسها، ولضمان استحداث التأثيرات نفسها عند السائق الآخر للمركبة التالية فيتوقف أو يهدئ. ومن شروط القيادة القدرة على استيعاب المجال البصري، وعلى التثبيت الإدراكي البصري على أشياء بعينها فيه، بعيدة أو قريبة. واتخاذ القرار. وكذلك المخاطرة، من أهم الوظائف التي يمكن أن يأتيها السائق، زِد عليه في بعض الأحيان أن يقرّر بسرعة مذهلة، أو يخاطر، إنقاذاً لنفسه ولغيره من حوادث مؤكّدة، ويستلزم ذلك سرعة في الحركة، قيل إنها أهم من السرعة الإدراكية. وتشكّل إشارات المرور وإرشاداته، ودلالاتها، والشكل الذي عليه الطريق، وعدد السيارات به، وانتظام المشاة، وانفعالات جندي المرور، ضغوطاً على السائق، وعبئاً ذهنياً Mental load يتطلب في السائق مستوى معيناً من الذكاء، والانتباه، والتوازن النفسي، والقدرة على الحركة، وعلى التصرّف واتخاذ القرار. ولم يدرس أحد حتى الآن سيكولوجية الحركة التلقائية التي تتحصّل بالمران

والتدريب على القيادة، وتأتي بعفوية ودون قصد ولا انتباه. والسائق يتحدث مع غيره، وأحياناً يقرأ أو يأكل أو يستمع تماماً لبرنامج إذاعي، أو يفكّر تفكيراً عويصاً في أمر من الأمور، أو يتحدث في الهاتف مع غيره. والقيادة كلها مخاطرة، والتعامل معها يتوقف على نمط شخصية السائق. وقد ثبت بالدراسة إرتباط وقوع الحوادث وشخصية السائق. ويبدو أن هناك ما يسمى بالشخصية القابلة لإتيان الحوادث، ومنها حوادث المرور، والقابلية أو الاستعداد للحوادث Accident proneness يكون بالبعض نحيزة Diathesis نفسية وبيولوجية، أي تجعله ينحاز إلى عمل الحوادث. وقد تبين بالدراسة أيضاً أن أشخاصاً بعينهم يميلون إلى تكرار الحوادث وينسبونها فيهم إلى الغفلة أحياناً، أو النسيان أحياناً أخرى، أو التفكير المشتت. وهناك ارتباط أكيد بين تدنّي الذكاء وإتيان الحوادث، وترتفع معدلات الحوادث - وحوادث المرور بالذات - عند أصحاب الذكاء المنخفض، بنسبة تزيد إلى نحو خمسة أضعاف عن معدلاتها عند أصحاب الذكاء المرتفع. وهناك من أهل العلم من يحدّد سمات معيّنة للشخصية القابلة لإتيان الحوادث، مثلما توجد سمات معيّنة للشخصية العدوانية مثلاً أو الشخصية السيكوباتية، إلخ. ومن سمات هذه الشخصية الاندفاع، والرعونة، وسطحية التفكير، والآنية، والنرجسية. ومثل هذه الشخصية يستوي عند صاحبها إتيان الهفوة المرورية الصغيرة واستحداث الخطأ الجسيم. وبعض حوادث المرور تقع بالصدفة ولا ذنب للسائق فيها، كأن يعبر الطريق أحد المشاة فجأة والسيارة منطلقة. والبعض ممن تقع لهم الحوادث بالصدفة قد يأتي الحوادث من بعد ذلك بتأثير الخوف، والحرص، والحذر، ونقص الثقة في النفس، فيتأخر اتخاذ القرار في اللحظة المناسبة، ويتسبّب ذلك في وقوع الحادث. وتهيّىء حوادث الصدفة السائق لحوادث مستقبلة وتجعله مؤهلاً لإتيانها. ويذهب بعض الباحثين النفسيين إلى القول بأن الأهلية لارتكاب الحوادث، ومنها حوادث المرور، تكون فينا جميعاً وإنما بفروق

فردية، وتتوزع علينا توزيعاً على بُعد واحد فيما يُسمى بالمتّصل. وتقع حوادث المرور لأسباب خارجية وأسباب ذاتية من السائق نفسه. والأسباب الخارجية منها عدم صلاحية السيارة، وتخلّفها عن مواكبة التحسينات، وصعوبات الطريق، وضعف الرؤية أو انعدامها، ورعونة الآخرين، وتدنّي الوعي المروري بتأثير ضحالة الثقافة أو انتشار الأمية، وتأثير الظروف المناخية كارتفاع الحرارة، وكلها ظروف بيئية لها مردودها النفسي الضخم على السائقين. ولا شك أن الارتفاع لأثمان السيارات يستوجب الاهتمام باختيار السائق عليها وتهيئة الظروف الميسرة للقيادة الخالية من الحوادث. ولكل سائق أسلوبه الذي يتكيف به مع السيارة بحسب سماته الجسمية والحركية والإدراكية. وللتعب تأثيره على سائقي السيارات العامة والشاحنات والأجرة، والتعب يولد السأم، كما ان السأم يولد التعب، ويُفتَعل السأم بتأثير القيادة لمسافات طويلة عبر طرق لا تتغير مناظرها والأحداث فيها. وللسن والجنس والخبرة تأثيرها أيضاً، وذلك لأن قلة الخبرة ترتبط بالسن، ويزيد بطء الحركة والتفكير مع تقدم السن. والنساء عموماً أكثر إتياناً لحوادث المرور وخاصة في الفترة السابقة على الحيض وخلاله، والمرأة تكون أثناء ذلك عصبية وكثيرة الغفلة والنسيان والشرود الذهني، كما أن النساء عموماً يُعانين من نقص في الاتزان النفسي والفسيولوجي يجعلهن أكثر تعرضاً للتعب والسأم، وأقل انتباهاً وتركيزاً، وأميل للعصبية والإصابة بالتوتر والقلق، بالإضافة إلى أن نمط الحياة الاجتماعية الذي تعيشه المرأة التي تقود سيارة، أي المرأة العاملة غالباً، يجعلها أكثر تعرضاً للتعب عن الرجل بحكم مسؤولياتها المنزلية والعائلية والوظيفية. وأثبتت الدراسات النفسية أن الإناث أكثر تعرضاً لعُصاب القيادة Driving neurosis من الذكور.

وتؤثّر الحالة المزاجية في القيادة، وتبين الدراسة أن أغلب الحوادث المرورية لأفراد في حالات مزاجية متدنية أو منتشية، كالحزن الشديد، أو

الفرح البالغ، أو الغضب، أو الخوف، فيقل الانتباه ويسوء التوجّه والحكم. ويميل علماء التحليل النفسي إلى ردّ السلوك الجامح في القيادة أو الإهمال فيها، إلى رغبة في الانتحار أو إيقاع الأذى أو العقاب بالنفس، أو بالغير، لميول عدوانية تتوجه إلى الذات أو الغير، أو ربما لمشاعر ذنب وصراعات ودوافع لاشعورية. والأخطاء في القيادة مثلها مثل الأخطاء في أي عمل، يمكن أن يكون لها سببٌ نفسي شعوري أو لاشعوري، وليس من الصواب ردّها لمجرد الطيش أو السهو، إلخ، فحتى الطيش والسهو لهما أسبابهما النفسية. ولم يكن فرويد يؤمن بالصدفة النفسية تترتب عليها الحادثة وتستحدث الإصابة للفرد أو الغير، وإنما لكل حادث حتميته السيكولوجية.

مراجع

- J. O'Day: Driver Behavior: Cause and Effect.

❖ ❖ ❖

- ٧ -
سيكولوجية الموضة

معنى الموضة. الموضة وروح العصر. الموضة والحضارة. النساء والأزياء وأدوات التجميل. التطور ومواكبة الموضة. لذة تجربة الجديد واكتشاف الذات وتأكيد الشخصية. الموضة والبدعة والذوق العام...

❖ ❖ ❖

للموضة Fahion أو Mode أسباب نفسية تقتضي تغيير الأشكال والقوالب الفنية أو الأدبية أو النظرية السائدة. وتشمل الموضة كافة المجالات والأنشطة، فهي تكون في العلوم، والفنون، والآداب، والهندسة، والترفيه، والأزياء، والمآكل، والمشارب، إلخ. وتتحكم في الموضة روح العصر Zeitgeist، وأغلب ما يُستخدم إصطلاح الموضة في الأزياء وخصوصاً الأزياء النسائية، أو أنه يُستخدم بكثرة في كل ما يتعلق بفن التجميل عند المرأة، كتسريحة الشعر، وأنواع العطور، والألوان

والخطوط، وأشكال الأحذية، وأدوات الزينة، والحليّ، وكل ما يتّصل بالحضارة بسبب من الأسباب. وتأخذ بأساليب الموضة المجتمعات المرفهة، والطبقات الموسرة، والأفراد الذين يطلبون التغيير في حياتهم وينشدون المغايرة عن الناس والخروج عن المألوف والروتيني ويسعون للتجديد. والمرأة أحق بذلك من الرجل لأسباب نفسية، يذكر منها علماء التحليل النفسي أن المرأة تميل إلى الاستعراضية Exhibitionism، في حين أن الرجل يميل إلى التطلّع Voyeurism، والموضة ترضي الطرفين من حيث انها تهيئ للمرأة أن ترتدي من الأزياء والأدوات ما يظهر جوانب شخصيتها، بحسب المواقف المتباينة التي تريد أن تظهر فيها بمظهر معيّن يلفت إليها الأنظار ويحبّب فيها «الجنس الآخر The other sex». وملاحقة المرأة للموضة تعني أنها تريد لنفسها ملاحقة التطور، وأن توصف بأنها امرأة عصرية، والمجتمعات التي تأخذ بالموضة هي مجتمعات تموج بالمتغيرات. ولا تعرف الموضة المجتمعات الساكنة أو المحافظة من بدو وأرياف. وتقضي الموضة أن تكون هناك أذواق عدّة يفاضل الناس بينها ويختارون منها، وأن تكون الأوضاع الاجتماعية متطورة، تحتاج باستمرار إلى أشكال فنية وأدبية ونظريات وفلسفات تواكبها. ولا بد أيضاً من وجود شخصيات إجتماعية ذات مكانة تكون قدوة للآخرين وتأخذ بالجديد. وقد تُفسَّر الموضة سيكولوجياً بأنها ميل للتحرر من التقاليد والأطر الفكرية والمعيشية التي تسود لفترة ثم تجمد. وقد تكون الموضة بسبب شعور بالملل والسأم، وقد تستدعيها الرغبة الدائمة في إضفاء لمسات جمالية على الأوضاع القائمة وتحصيل لذّة تجربة الجديد. وقد تكون الموضة وسيلة من وسائل اكتشاف الذات، وقد تكون أيضاً إثباتاً للذات بممارسة الاختيار وتجربة الجديد الذي لم يسبق إليه أحد، وتحمّل مسؤولية الأخذ به وانتقاد الناس له. والموضة في الأزياء يستهدف بها المتزيّي أن يجد فيها التعبير عن جوانب من شخصيته لم يتعرف إليها الناس. وتعدّد الأزياء يتيح للمتزيّي أن يظهر بشخصيات متعدّدة، أو أن يخفي أشياء ويظهر أشياء

من جسمه ورسمه بحسب ما يريد أن يؤكّده للناظرين، وأن تتحقّق له بها وحدة جمالية، أو انتظام يعطي عنه انطباعاً جمالياً أو إدراكياً معيناً. واختلاف الموضة فيه تكثير للشخصية بحسب المواقف المتباينة التي تستدعيها. والمرأة بالموضة لا تكون بها امرأة واحدة ولكنها تكون أكثر من إمرأة، أو أنها تكون بها حواء الخالدة Eternal Eve ذات المائة وجه، أو المائة حضور، والمائة شخصية. ومهمة الموضة أن تحقّق هذا التباين وتضفي على المتزيّي هذا الثراء. وتتميّز في الموضة مرحلتان، الأولى: مرحلة الطرح للجديد؛ والثانية: مرحلة الاختيار. والموضة Mode تختلف عن البدعة Fad، ذلك لأن الموضة، ولو أنها تغيير، إلا أنه تغيير موصول بموضات قديمة، في حين أن البدعة تأتي فجأة وتنتهي فجأة وليست لها استمرارية تاريخية. والموضة يمكن وصفها بأنها معايشة للزمان والمكان، أو أنها معاصرة Modern، في حين أن البدعة تكون غريبة، وقد تنتشر ولكنها غالباً ما تقاوَم وتقابَل بالاستهجان. والموضة فيها خيال وإبداع، والبدعة غالباً شطحات. واتباع الموضة ومشايعتها يخلّص من استعباد العادة، ويتيح للأنا الفرصة أن يستعرض نفسه، كما أنها فرصة لإرضاء النزعات والميول الجنسية. وتشكّل الموضة الذوق العام General taste، أو الذوق الجمعي Collective taste، وهو عنصر إيجابي، يستقبل ويطوّر ويتقبّل ويرفض، ويشكّل عالم من الجماليات للأفراد والجماعة، ويتشكل هو نفسه من خلال تفاعل الأفراد وتجاوبهم مع الخبرات نفسها. وعملية تكوين الموضة هي عملية تكوين ذوق جمعي. والذوق الجمعي دائماً في حالة تشكّل، ومن خلال الموديلات الجديدة New models والاقتراحات يصمّم واضعو الموضة الخطوط والسكتشات المحتملة للتغيرات المتوقعة، وبعضهم يتميز بالإبداع الحقيقي والخلق باستمرار، وبعضهم شاذ Eccentric يخرج عن المألوف ويقدم الغريب. وكثيراً ما يكون مصممو الموضة من الرجال وبهم تشبُّه بالنساء ويحبّون أن يسلكوا مثلهن، وأن يلبسوا على نمطهن. وذلك داء التشبُّه Transvetism. والفيصل في الذوق هو

تقبُّل الجمهور، وأن تتوافق الموضة والذوق العام، وهو قوّة ناشطة في عملية اختيار الجديد، وهو أثناء ذلك ومن خلال الممارسة يزداد رهافة بارتباطه بأشكال أو موضات معيّنة يتجسّد فيها.

مراجع:

- Flugel: The Psychology of Clothes.
- Bergler: Fashion and The Unconscious.
- Hurlock: The Psychology of Dress.

❖ ❖ ❖

- ٨ -
سيكولوجية البغاء

معنى البغاء عند النساء والرجال وشخصية البغي. دور القوّاد أو الديوث وغواية البغي. تمايز شخصية البغايا واضطرابات الشخصية عند البغي، وارتباطات البغاء بالجريمة. البغاء والأخلاق والدين. وأسباب لاأخلاقية البغاء...

❖ ❖ ❖

البغاء Prostitution من بَغَى أي عدل عن الحق، والبغاء هو العدل عن الاستقامة، وهو عَمَلُ البغيّ وهي الفاجرة بائعة الهوى؛ ويأتي عن البغاء في القرآن مرة واحدة، يقول: ﴿وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ (النور - ٣٤)، وهو في القرآن الزنا (والزنَى أيضاً) وقد نُهي عنه، قال: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ (الإسراء - ٣٢)، وجزاؤه الجلد، قال: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مائَةَ جَلْدَةٍ﴾ (النور - ٢). والبغاء إنحراف جنسي تُؤْجَر فيه البغي وتقتضي أجرها عيناً، ومنه بغاء مثلي الجنسية Homo-sexual p.، أي من امرأة لامرأة، وقد يحترف الرجال البغاء غيري الجنسية Hetero-sexual p.، أي من الرجال للنساء، والرجل البغي يضاجع النساء ويعتمد ألا يُمنِي. ومن بغاء الذكور Male p. ما يكون مثلي الجنسية، وعادة ما يكون بالمواخير Brothels، فيلحق بها عدد من الأولاد تحت الطلب Call boys، وقد يكون للبغي المأبون Catamite رفيق يهوى إليه، كما قد يكون للبغي الأنثى رفيق Comrade.

والبغي اللوطي Homo-sexual male prostitute لا يمني عادة، ويسلك مع الزبون الذي يقوم أساساً ليواقع رجلاً غيري الجنسية. وبغاء النساء المساحقات Lesbian prostitution نادر، وقد تفعله البغي إرضاء لزبونة مفاحشة. والبغايا يتفاضلن، فالعاهرة Whore هي البغي المرخصة في بيوت الدعارة، والمومس Strumpet هي الفاجرة جهاراً، من ماست أي تبخترت واختالت، وتعمل غالباً لدى قواد Procurer يتولى تسويقها، وقد تؤم الحانات وتسامر السكارى ولها عمولة على ما تغريهم به من شرب الخمر، وإسمها في مصطلحهم لعوب الخمارة Bar girl، وقد تتصيد زبائنها من الشوارع وتسمى السكّاكة Streetwalker، وهي أقل البغايا شأناً، ولا تختار زبائنها ولا تدقق في السعر، وسلوكها ترصده شرطة الآداب. والبغي أعلاهن أجراً. وقد تتخصص بعض البغايا في المصابين بالأمراض النفسية كالسادية والماسوشية، وتتجنب بعضهن المباشرة، وقد تقتصر لعوب الخمارة على القول الفاحش، وقد تُمني الزبون بيدها، أو تستعري أمام الزبائن، وقد تستعرض الجماع مع أحدهم بشهادة الحضور.

وامتهان البغاء قد يحدث من خلال ديوث، من داث أي سهّل البغاء، فهو الديوث أي المسهّل للبغاء، ويقابلها Gigolo (فرنسية) وهو حامي البغي؛ والجلاّب Procurer وهو الذي يغوي البنات لاحتراف البغاء، من Procure أي يجلب بالاحتيال؛ والمرأة يقال لها الجلاّبة Procuress؛ وهو الوسيط Pander من الإغريقية Pandaros، لأنه يتوسط لدى المرأة ويغويها، ويتوسط بين البغي والزبون؛ والمَعَرّس Luckold لأنه الذي يرتضي أن يصنع من نفسه خيال مآتة، وزوجاً أو عريساً بالاسم، ويشهد زنا امرأته ويحرّض عليه ويرضى به، وقد يجري امتهان البغاء بتأثير غواية بغي Procuress، وعند ذلك قد تستغرق إحاطتها بثقافة البغايا Prostitus' culture بضعة شهور فتكوّن لها عن نفسها صورة مختلفة تماماً عن صورتها القديمة، وتغيّر إسمها وعاداتها ولغتها، وتتوثق معرفتها بفنون البغايا وتقاليدهن وأفكارهن.

والبغي تهفو للحب، وإلى أن تكون محبوبة، ويزيد شوقها لذلك كلما زاد تورطها في دنياها الجديدة، وانبتّت صلتها بحياتها القديمة، وحذقت أن تتباعد عن زبائنها. وقد تجد الحب عند عشيق Gigolo هو نفسه قوّادها، ويُشبع عندها الحاجة إلى الحبّ، ويدفع عنها الأذى ويضفي عليها حمايته. وبوسع البغي ألا تستجيب في الجماع، ومن الممكن أن تبلغ الهِزّة في الجماع مع عشيقها، وقد تكون أسرع في التجاوب معه من كثير من النساء السويّات مع أزواجهن.

وعلى العموم فإن البغي تشكو العُنّة Impotence، وربما لذلك تحترف البغاء لأنها لا تنفعل جنسياً على الحقيقة، فهي باردة جنسياً Frigid وتعاني البرود الجنسي Sexual frigidity، ومن أجل ذلك تطلب معاودة الرجل لها، ومن الممكن أن تباشر أكثر من عشرين رجلاً تباعاً.

وتتمايز البغايا في الشخصية والدوافع والخلفية الاجتماعية، وبعضهن لانحرافه أسباب عضوية، والكثيرات منهن مصابات بالفُصام واضطرابات الشخصية، وبعضهن يندفعن للبغاء لإدمانهن الخمر والمخدرات، ولأنهن بالبغاء يحصلن على المال اللازم لشراء الكيف. وربما كانت للبغاء أسبابه الاجتماعية والاقتصادية أكثر من أسبابه النفسية، ولكن الأسباب النفسية مع ذلك تظل هي الغالبة، ولولا استعداد البغي نفسياً للبغاء لما غلبتها الأسباب الاقتصادية أو الاجتماعية على نفسها. وتتفاوت حظوظ البغايا بحسب ذكاء كل واحدة، ودوافعها، وقدراتها، ومستواها الثقافي وصراعاتها. وتقرّ البغي بمغايرتها لبقية النساء، وتردّ ذلك إلى نمط المجتمع الذي يجعل للبغاء قيمة مادية أكبر من قيمة الكثير من المهن الشريفة. ولا ترفض البغي القيم الاجتماعية ولكنها لا تعمل بها، وتعلل انحرافها بتأثير ظروفها الاجتماعية أو الاقتصادية، وقد تكون نشأتها في البغاء أصلاً.

ويبدو من نتائج الاستقصاءات على البغاء أن جميع البغايا كانت لهن حياة عائلية مضطربة في طفولتهن ومشحونة بالكراهية، غير أن العامل الحاسم في الانحراف إلى البغاء هو الاضطرابات

النفسية الجنسية عند البغي، لدرجة أن الغالبية منهن يعانين من كراهية لجنس الرجال Misandria؛ وكراهية للزواج Misogamy؛ وكراهية لجنس الأولاد Misopaedia؛ بل والكراهية للناس جميعاً Misanthropy؛ والكراهية للحياة Misopsychia. والبغاء في هذه الحالة نوع من التنفيس عن هذه الكراهيات باستغلال الرجال جنسياً. وقد يتّصل البغاء بالتخلّف العقلي، وضعف المقاومات النفسية، وتهافت الأنا الأعلى، وسوء التربية، والافتقار إلى إطار مرجعي من القيم الاجتماعية والأخلاقية والدينية. وكثيراً ما يرتبط البغاء بالجريمة، بحكم المجتمع المعزول للبغي، والثقافة الخاصة التي لهذا المجتمع، واعتماد البغايا على السماسرة والقوّادين في حياتهن، وعلى تجارة الجنس والمخدرات. والبغي الملتزمة تفيد من البغاء المنظم، وتلتزم بما يُفرَض عليها من إتاوات، ولا تسرق عادة حتى لا يشكوها الزبون، إلا إذا كانت سكّاكة، وإن كانت تعرف أن الزبون غالباً لن يشكوها اتقاءً للفضيحة. وهي كمحترفة لا تريد لتجارتها البوار، وترجو من الزبون أن يعاود زيارتها. وقد تتورط كشريكة في الجرائم التي قد يرتكبها السماسرة والقوادون، وكثيراً ما تكون المواخير المكان المفضل لعتاة المجرمين بعد ارتكابهم لجرائمهم، وتعرف الشرطة ذلك، وتستخدم البغايا للإبلاغ عنهم.

وربما كان إقبال الرجال، أو نوعية خاصة منهم، على البغاء بقصد التنويع الجنسي. وغالباً ما يكون زبون البغايا هو المعاق، أو كبير السن الذي لا تسمح ظروفه بأن تكون له علاقة سوية شرعية بنساء محترمات، وقد يندفع الشباب للبغايا نتيجة القيود والشروط على الزواج، أو بسبب الاضطرابات النفسية التي تلحقهم من جراء تواجدهم في مجتمعات تملؤها الصراعات ومشحونة بالكراهية، وفي عصر يوسم بأنه عصر القلق Age of anxiety، والثورة الجنسية Sex revolution، وما يترتب على ذلك من عجز الكثيرين والكثيرات أن تكون لهم علاقات جنسية سويّة لها صفة الاستمرارية.

مراجع:

- Jackman & O'toole & Geis: The Self-image of The Prostitute.

❖ ❖ ❖

- ٩ -
سيكولوجية القمار

أنواع المقامرين، وسيكولوجية المقامر القهري، واضطراب سمات الشخصية عنده، والمقامر السيكوباتي...

❖ ❖ ❖

يُنشد المقامر المال السهل، ويلجأ للخداع ويدأب على إتيانه في الليل خصوصاً، وكانوا قديماً يسهرون للقمار في الليالي القمرية تحصيلاً للضوء، ومعنى القمار مِن يقمر، أي يأرق في الليلة القمرية، ويتعهد غرّة الآخرين للإيقاع بهم. وهو أيضاً الميسر من اليُسر بمعنى الرخاء، أو بمعنى أن ينفس على أحدهم في المطالبة، أو يصير ذا مال. وليست لفظة القمار من ألفاظ القرآن، وإنما في القرآن لفظة الميسر، وتُذكر فيه ثلاث مرات، وفيها أن الميسر إثم كبير، ورجسٌ من عمل الشيطان، أي أن من يأتيه ويدمنه فلا بد أن يكون مريضاً نفسياً. والقمار Gambling أنواع، كما أن المقامرين Gamblers أصناف. والمقامر الاجتماعي Social gambler هو الذي يلعب بقصد التسلية، وقد يخسر أو يكسب بعض المال ولكنه القليل الذي لا يذكر، ومن ذلك أن البعض قد يلعب للفوز، أو لإظهار مهارته الفكرية، أو لأنه يجيد الحدس ومراوغة الخصم نفسياً، وقد تأخذه الحمية إلا أنه دائماً يستطيع أن يكبح جماح نفسه ويمتنع عندما يريد. والمقامر القهري Compulsive gambler على عكس ذلك، فهو يُقبِل على القمار بدوافع نفسية لا تقاوم، ويشغل به عن كل نشاط آخر، ويصرف فيه وقته وماله، وتتعطل به مصالحه، ويفقد وظيفته، ويهمل واجباته الاجتماعية والعائلية، وتفسد به علاقاته الزوجية. وتزيده هذه المشاكل إنصرافاً إلى القمار ينفث فيه مشاعر الإحباط والعدوان، فيكون

اعتماده النفسي الكامل على إتيانه، وتلاحقه فكرته باستمرار وكأنه الحواز، ولا يكون له نشاط إلا ما يتصل به. والقمار من هذا النوع إضطراب نفسي.

والمقامر القهري وإن كان يعاني نفسياً إلا أنه من النادر أن تكون له أعراض مرضية نفسية، طالما أنه لا يعاني من صراعات داخلية، وليس مصاباً بالقلق الذي يجعله عاجزاً عن الفعل، وإنما هو إنسان مدفوع بغرائزه يصرفها في القمار دون نظر في العواقب. وتعتبر بعض المصنفات العلمية القمار القهري من اضطرابات سمة الشخصية، أو أنه اضطراب تسيطر فيه على الشخصية سمة واحدة، أو تكون لها به استجابة خاصة واحدة تظهر بمظهر العَرَض، أو أن القمار إدمان Gambling addiction، ولكنه ليس إدماناً فسيولوجياً كما في المخدرات أو الخمر، وإنما إدمانه إدمان نفسي كإدمان العادة السريّة مثلاً. وعموماً فإن شخصية المقامر تكون عادةً شخصية غير ناضجة تكره المسؤولية والأصول والقواعد، ولا تبالي بالأخلاقيات والتقاليد والعرف، وصاحبها يبدو سطحياً كالاجتماعي، ولكنه في الواقع ليست له بالآخرين علاقات حقيقية، وهو بالأحرى يستخدم الآخرين لمصلحته، فإذا رفضوا إقراضه مثلاً إنقلب عليهم جهاراً، أو أسقطهم من حسابه، ويحاول مع آخرين. والإثارة التي عليها فعل المقامرة تشبعه نفسياً، وهو ينشد تلك الإثارة Gambling excitation ويعيش عليها ويطلبها، ومبدؤه في الحياة أن يعيش في خطر To live in danger، واتجاهاته كثيراً ما لا تكون واقعية ولا منطقية، ويقاوم تغييرها. وصورته عن نفسه لذلك لا تنسجم مع مؤهلاته واستعداداته، وهو يحسب أنه أفضل من غيره، وتفكيره سحري Magical thinking أو غيبي Supersticious، ويؤمن بتأثير الكلمات والأرقام والأشكال والعلاقات، ويتشاءم ويتطيّر ويتفاءل، ويركز عينيه وعقله على الورق وكأنه يستنطقه أو يستلهمه. ويعتبر البعض المقامر صاحب شخصية سلبية اعتمادية Passive-independent personality بحكم تربيته، حيث تكون نشأته في أسرة مسيطرة. ويعتبره البعض صاحب شخصية وسواسية قهرية

personality Obsessive-compulsive، تستشعر الرضا بتكرار الأفعال والأفكار نفسها، ومن ثم يكون القمار مجموعة من الطقوس السيكولوجية التي تأتيها المقامر. وربما كان المقامر سيكوباتي Psychopath، طالما أنه متمرد وأناني ومعادٍ للآخرين، ولا تهمه عائلته أو عائلات الآخرين التي يمكن أن تتأثر معيشتها بالخسارة التي يُلحقها بعائلهم. ويرى بعض المحللين في المقامر شخصاً ماسوشياً Masochist، تتملكه رغبة لاشعورية لأن يخسر بدلاً من أن يكسب، ويسيطر عليه دافع لأن يخسر ويستمر في الخسارة كنوع من العقاب ينزله بنفسه، ربما لسلوك آثم أتاه، أو لرغبات أو دوافع آثمة إستقرت في نفسه من الطفولة ولا يرضى عنها، ويرى أنه يستحق من أجلها أن يُعاقَب، وهو لا يعي هذه الرغبات أو الدوافع ولا مصدرها، ويحاول لذلك أن يكفّر عن أحساسه بالذنب باستمرار ودون كلل، بأن يخسر أمواله، وعلاقاته، ومكانته الاجتماعية، وأصدقاءه، ويشدّ عائلاتهم معه إلى الحضيض.

مراجع:

- Bergler, E.: The Psychology of .gnilbmaG
- .semaG dna yalP ,naM :.R,siolliaC
- ehT .gnilbmaG dna ksiR :.J ,nehoC .ytilibaborP evitcejbuS fo ydutS

❖ ❖ ❖

الباب الثالث

علم النفس والطب النفسي
في خدمة التعليم والتربية

- ١ -
سيكولوجية الاستعدادات والميول والاتجاهات

الاستعداد العام والخاص والاستعدادات الفارقة والمهنية. الميول ومقاييسها عند سترونج وغيره. الاتجاهات النفسية واكتسابها بالخبرة والتعلّم. الاتجاهات الموجبة والسالبة. زملة الاتجاهات. مقاييس الاتجاهات. الاتجاهات الجامدة وتغيير الاتجاهات.

❖ ❖ ❖

الاستعداد Attitude هو قدرة كامنة أو صلاحية تكون بالبعض فتؤهلهم للتعلّم وتصبح قدرة بهم على الأداء العضلي أو العقلي. والاستعداد العام .General a هو قدرة كامنة عامة أو تأهيل فطري أو أوّلي، أو هو الذكاء العام General intelligence الذي يلزم للتعلم واكتساب الخبرة، وتوظيف القدرات العقلية والبدنية التوظيف الذي يخدم مصلحة الفرد، على عكس الاستعداد الخاص .Special a، كأن يكون استعداداً فنياً .Artistic a، أو استعداداً لغوياً .Language a، أو ميكانيكياً .Mechanical a يؤهّل صاحبه للتعلّم والتفوق في أي من المجالات السابقة. وتكشف إختبارات الاستعداد a. tests عمّا إذا كان الشخص لديه هذه الصلاحية على الأداء الخاص، ومن ذلك الاختبارات التي تُجرَى للكشف عن الاستعداد المدرسي Scholastic a. tests، أو الاستعداد الأكاديمي .Academic a، للتنبؤ بقدرات الأفراد على التعلم أو صلاحيتهم للالتحاق بالمدارس أو الجامعات، وهي اختبارات من نوع اختبارات الذكاء الجمعي Collective intelligence. وتقيس اختبارات الاستعدادات الفارقة differential (DAT) a. tests الاستعداد لفهم العلاقات العددية، وإدراك العلاقات بين الكلمات، وفهم مدلولاتها، واستخداماتها، والعلاقات الميكانيكية، والاستدلال الميكانيكي، وسرعة ودقّة القيام بمختلف الأعمال الكتابية. وتفيد اختبارات الاستعدادات المهنية Vocational a. tests في التوجيه

والإرشاد المهني. وفي اختبارات قياس الاستعدادات الآلية اليدوية مثلاً تُعرَض على المفحوص لوحة بها ثقوب يحاول أن يَشْغلها على وجه السرعة باسطوانات معدنية، بهدف قياس إستعداده على استخدام ذراعيه ويديه وأصابعه، وقد نجعل ثقوب اللوحة صغيرة كما نجعل الاسطوانات دقيقة وكأنها المسامير، حتى ليستعين في رفعها بملقاط يمسكها به. وتُحسب السرعة بالوقت الذي يستغرقه المفحوص، وتقاس دقة الأداء بجهاز كهربي يُحصي الخطأ في وضع القطع المعدنية. وقياس مثل هذا الاستعداد يجعل من الممكن التنبؤ بإمكان تعلّم المفحوص للمهارات المشابهة التي تتطلب إستخدام الأيدي والأذرع والأصابع والتنسيق بين حركاتها جميعاً. وهناك من المهارات ما يتطلب إستعدادات متباينة يتوجب معها أن يؤدّي المفحوص عدداً من اختبارات الاستعدادات المتكاملة، ونطلق عليها إسم الاختبارات المتعددة، وقد يقتضي الكشف عن استعداد فني مثلاً أن يُجرى القياس لاستعدادات الفرد العقلية على إدراك المسافات والمساحات وإصدار الأحكام الجمالية.

والميل Interest نزعة سلوكية نحو موضوع، أو نشاط يستهوي صاحب الميل، حتى ليشغل انتباهه، ويستأثر باهتمامه، ويستحوذ بوقته. والميول إهتمامات مستقرة وممتدة، تسفر عن نفسها كسمات للشخص في فترات مبكرة من حياته، ويبدأ صقلها ورعايتها وبلورتها فيما بين سن العاشرة والرابعة عشرة.

والميول تعكس تفضيلات الشحن الشخصية، وربما المهنية، وقد تكون تفضيلات لها طبيعة تخصصية. وقد يكون من المناسب أن نسأل الشخص صاحب الميول عن ميوله مباشرة، إلا أن ما يقدمه من معلومات بشأنها قد تعوزه التعبيرات السليمة نتيجة قصورٍ لغوي، وقد لا يأتي حديثه عنها علمياً، ولا يمت للواقع، ويتسم بالكثير من الدعاوى، فقد نسمع من أناس أن لهم ميولاً فنية أو رياضية ثم يتبين كذبهم، أو قد يحسبون توجهاتهم الطارئة من باب الميول وهي ليست كذلك. والأولى أن تكون إختبارات الميول i. tests موضوعية تقوم على

ملاحظة السلوك ورصد نزعاته التي لها صفة الاستمرارية، مما يكشف عن إهتمامات بنواحي معينة وتفضيلات لنواح أساسها الميول. ومعظم مقاييس الميول i. measurements تعتمد على اللغة في صياغتها، وقد تكون اللغة من معوقات فهم أسئلة هذه المقاييس، وتختلف المقاييس في لغاتها وصعوبة هذه اللغات، وبعض المقاييس يتحرى اللغة السهلة بحسب المستوى اللغوي للمفحوص، والبعض قد تكون لغته عالية، ومطالبه دقيقة تستلزم مستوى أعلى من المفحوصين، والبعض قد يتنكّب الوسيلة اللغوية في الاختبار، ويلجأ إلى الصور التي تعطي لمحات عن بعض الموضوعات أو الأنشطة أو الأشخاص، ثم تقاس ميول المفحوصين تجاهها، بسؤالهم عمّا وعوه من المعلومات عنها، وما احتفظت به ذاكرتهم مما قيل حولها مصاحباً للصور، أو قد يُطلَب من المفحوصين أن يقولوا ما يعرفونه من معلومات حول الحِرَف أو المهن التي تمثّلها الصور، باعتبار أن مَن له ميولاً معينة لا بد أن تكون لديه المعرفة بأشياء حولها، وبمدى معرفته وحرارة حديثه فيها يمكن أن نحذر ميوله نحوها.

ولقد تقدمت دراسات الميول وخاصة في مجال التفضيلات المهنية Professional preferences، وتتعدد اختباراتها ومقاييسها، وتختلف باعتبار اتّساع ما تغطيه، والأسس التي تقوم عليها، وبعض هذه المقاييس تقوم على تجانس بنودها التي يتم اختيارها بحسب صدق مضمونها، فيختار مصمم الاختبار أو المقياس البنود الصادقة في تعبيرها عن الاهتمامات المهنية المعينة والمرتبطة مع بعضها بحكم التجانس الشديد الذي بينها، بينما يكون ارتباطها بمجموعات أخرى من البنود التي تقيس اهتمامات مهنية أخرى منخفضاً. ومن المقاييس التي صمّمت وفق هذا المحك: مقياس كودر للاهتمامات والتفضيلات Kuder Preference Record. وقد تعتمد بعض المقاييس الأخرى على محكات أخرى كالصدق الواقعي، بأن تُستبقَى البنود الخاصة باهتمامات كل فئة مهنية، وتُقارَن باهتمامات وتفضيلات مجموعات مهنية مرجعية يعمل أفرادها في المهن نفسها وقد حقّقوا فيها نجاحاً. ومن

الاختبارات أو المقاييس التي صمّمت على هذا المحك: إختبار الاهتمامات المهنية لسترونج Strong Vocational Interest Blank. وقد تصمم الاختبارات بمحك منطقي بحيث تدرس مكونات الاهتمامات المهنية والخصائص المتوافرة في الأشخاص الذين يبدون نجاحاً في هذه المهن، ثم تصمّم بنود الاختبار لتعكس السلوك والاهتمامات التي يُظَن أنها تعكس الخصائص المطلوبة في الشخص المناسب. ومن الاختبارات أو المقاييس التي صُممت بحسب هذا المحك: إستبيان لي ثورب للاهتمامات المهنية Lee Thorb Vocational Interest Inventory.

والاتجاه النفسي Psychological attitude توجُّه خاص يكون بالشخص حيال فكرة أو فرد أو جماعة أو موضوع أو موقف، فيميل به إلى أن يسلك بطريقة معيّنة تَلزمه دائماً بشكل أو بآخر، وتُعرَف عنه، وربما قد لا يكون لاتجاه صريحاً فيخفيه صاحبه، أو ربما يكون الاتجاه به اتجاهاً يَلزمه ويَلزم غيره، كالاتجاهات التي تكون بالجماعة تعصباً أو انحيازاً.

والاتجاهات النفسية لا نولد بها ولكننا نكتسبها بالخبرة أو نتعلمها، وتتحصل لنا من خلال ما نتعلمه أو نخبره من نتائج، نسلك بإزائها السلوك الخاص الذي قد يتثبت أو يتعزّز، فنعممه على كل التجارب أو المواقف المماثلة أو المشابهة.

ويتصل تكوين الاتجاهات إذن بعملية التعلّم والتنشئة الاجتماعية وبنظريات الشخصية. وللتعيّن بالوالدين أو بالرموز الاجتماعية في محيط الطفل أو المراهق أثره في تكوين الاتجاه. والاتجاهات طريقة يحلّ بها الشخص صراعاته في الطفولة، فيكون له هذا السلوك أو تلك الفكرة، فيسهل عليه أن يرجع إليها في مختلف المواقف، فتكون كوسيلة للدفاع عنه، يدفع بها ما يتهدد أناه أو ذاته. وللجماعات المرجعية، والأطر المرجعية، تأثيرها على تكوين الاتجاهات باعتبارها من محدّدات السلوك، ولعله لهذا السبب فإن نظرية التحليل النفسي تهتم غاية الاهتمام بالاتجاهات وتكوينها وتعديلها. ويقوم العلاج النفسي على إمكان تعديل الاتجاهات واكتساب أو تعلم إتجاهات

جديدة تحلّ محل القديمة التي تعتبر من أعراض الاضطرابات النفسية.

وتدخل في تكوين الاتجاهات عناصر عقلية وانفعالية وسلوكية، وأقوى أنواع الاتجاهات ما يُشحَن منها نفسياً ويكتسب حِدّة انفعالية، وأفعلها ما يطبع السلوك بطابعه. وكان يونج Jung (١٨٧٥ - ١٩٦١) يقسّم الشخصية بحسب اتجاهها للانطواء أو للانبساط. والاتجاه المنبسط Extravert هو الذي ينفتح بالشخصية على الناس والبيئة والمجتمع، بينما الاتجاه المنطوي Introvert يكون توجّه صاحبه داخلياً وذاتياً ويميل إلى العزوف عن التفاعل الاجتماعي ويبدو عليه الاكتئاب، ومن ثم تنقسم الاتجاهات بحكم تأثيرها على الشخصية والسلوك إلى اتجاهات موجبة Positive as. تدفع بالشخص نحو موضوعات هذه الاتجاهات، فيكون تعامله معها تعاملاً بناءً مفيداً، واتجاهات سالبة Negative as. تنأى بالشخص عن موضوعاتها وتطبع سلوكه حيالها بالسلبية، والوطنية من هذه الاتجاهات الموجبة، بينما التعصّب من الاتجاهات السلبية.

ويتفاوت الناس في الاتجاه الواحد كما في التعصّب، فالبعض يغالي في التعصّب حتى ليستغرقه، والبعض قد يكون به شيء من التعصّب. وكذلك فإن الاتجاهات تتعدد بتعدد موضوعاتها التي ترتبط بها. ومن الصعب تعديل الاتجاه إلا بشروط خاصة إذا تكوّن وترسّخ، ومن ذلك الاتجاهات التي تبدأ معنا من الطفولة والتي تتحصل لنا بالتقليد الاجتماعي والتي نكتسبها نتيجة خبرات مؤثرة ربما ندخلها في الطفولة أو من بعد، كحالة طفل يمر بتجربة جنسية يكون فيها اعتداء أحد البالغين عليه جنسياً، ومن ثم يشبّ وهو يعاف الجنس ويخشاه ويكون به ذلك اتجاهاً يطبع شخصيته وتصرفاته كلها.

وللاتجاهات فوائد فهي تصنع للشخصية أسلوباً يكون به تعاملها سهلاً ميسراً في المواقف المختلفة، ولا يتأتى هذا الأسلوب إلا عندما تجتمع الاتجاهات فتتكامل لدى الشخصية وتكوّن ما يسمى زُملة الاتجاهات cluster .a، فتعمل جميعها في غير تصادم، ويجعل إجتماعها هذا، والأسلوب الذي تسلك به،

من اليسير التنبؤ بتصرفات الفرد بمجرد الإحاطة باتجاهاته أو بزملة اتجاهاته، أو بأسلوب هذه الزملة. ومن الممكن أن نعلم عن هذه الاتجاهات بما يسمى مقاييس الاتجاهات a. scales، وهي كأية مقاييس نفسية يمكن بها أن نتعرف إلى اتجاهات الشخص أو الجماعة بأن نرصد ما نلحظه عنه أو عنها من العبارات المعبّرة عن هذه الاتجاهات، وخاصة أكثر العبارات شيوعاً وألصقها بهذه الاتجاهات، ثم نختبر الأفراد من حيث موافقتهم عليها أو معارضتهم لها. وتصلح هذه المقاييس خصوصاً مع الاتجاهات البارزة والعلنية والجماعية، والاتجاهات الجامدة Stereotyped as. أي المتأصّلة في الشخصية والمتمكّنة منها، والداخلة في صميم تكوينها، والتي تطبع الشخصية بطابعها.

ومن أهم مقاييس الاتجاهات مقياس ثيرستون Thurston Attitude Scale، ومقياس ليكرت Likert Scale، ومقياس جوتمان Guttman Scale، ويتكون الأول من عدد من العبارات يجمعها الباحث ويرى أنها تمثّل أو تعارض هذا الاتجاه أو ذاك، ثم يعرضها على عدد من المحكّمين، يختارون منها وينقّونها ليكون بعضها ممثلاً لأقصى اليمين أو الموافقة، وبعضها ممثلاً لأقصى اليسار أو الرفض، والبعض يتوسط بين الاثنين، وتكون لكل عبارة درجة أو قيمة على المقياس Scale value، وتُجمَع الدرجة الموجبة والسالبة لتعطي الدرجة الكلية للاتجاه عند الشخص. وفي الطريقة الثانية - طريقة ليكرت - يُستَغنى عن المحكمين، ويتدرج المقياس من موافق جداً، فمحايد، ثم غير موافق، وأخيراً غير موافق بالمرة، وبذلك فإن المقياس يعطينا صورة دقيقة عن قوة الاتجاه من حيث الموافقة أو الرفض. ويقوم مقياس مينيسوتا Minnesota Scale المشهور على هذه الطريقة الأخيرة، وهو يقيس اتجاهات الرجال نحو موضوعات مثل «على العموم كل المحامين أمناء» أو «التعليم لا يصنع منا إلا أشخاصاً ساخطين»، ومنه نوع يقيس إتجاهات المدرسين حيال الطلبة.

وأما مقياس جوتمان، أو بالأحرى طريقته في القياس، فهي أشبه باختبار الإبصار من حيث أن الباحث يجمع

العبارات التي يرى أنها تمثل الموافقة على الاتجاه أو رفضه ويرتبها بالتدريج، بحيث أن الموافقة على عبارة منها تعني بالتبعية أن كل العبارات التي تليها تتدرج عليها الموافقة السابقة، بينما العبارات التي تسبقها تكون مرفوضة، والشيء نفسه في اختبار الإبصار، فتمييز سطر من سطور الاختبار يعني أن المفحوص يستطيع أن تميز عينه السطور الأعلى على هذا السطر بينما لا يستطيع أن يميّز السطور الأدنى.

ولربما يكون بهذه المقاييس قصور، وهو أن المفحوص قد يوافق أو يرفض حينما تكون المسألة مجرد إدلاء برأي، فإذا كانت المسألة مسألة مواقف فقد يكون سلوكه مختلفاً فيها عن إجاباته اللفظية، ولذلك قد تستكمل مقاييس الاتجاهات بالاختبارات الإسقاطية بالصورة أو العبارات التي تحتاج إلى إكمال، كأن تعرض على المفحوص صور لزنوج في مواقف مختلفة ليعلن موافقته عليها أو رفضه لها حينما يكون الاختبار بصدد معرفة إتجاه المفحوص حيال موضوع الزنوج مثلاً.

وتغيير الاتجاهات a. change عملية يتوخى بها الفاحص أهدافاً، ربما علاجية، وربما إجتماعية أو سياسية، ويستفاد منها في الدعاية والإعلام والحرب النفسية والإعلان، وتعبّأ لها الجهود وتُحشد الطاقات وتوظّف الأموال. وتغيير الاتجاه قد يكون بالمنافسة والإقناع، وقد يكون بالوعظ، وقد تشترك فيه كل المؤسسات الاجتماعية كالأسرة والمدرسة والجامع والنادي، وقد تنهض عليه وسائل الإعلام السمعية والبصرية. ويساعد على استحداث التغيير أن يكون الاتجاه المطلوب تغييره فعلاً في غير صالح الأفراد، أو أن يكون إتجاهاً ضعيفاً، أو أن يكون إتجاهاً فيه مخاطر على ذوات هؤلاء الأفراد، وذلك لأنه لا جدوى من محاولة استحداث تغيير بالأفراد، بينما التأثير الاجتماعي موجود دائماً ويعارض هذا التغيير ويقاومه. وتعزيز الاتجاهات الجديدة ومكافأة السلوك عليها يرسّخ هذه الاتجاهات ويجعل من الممكن على الأفراد أن يطرحوا عنهم الاتجاهات القديمة، وأن يأخذوا بالجديد. ولعل التغيير الذي يشمل تغيير المواقف أو

البيئة أو الجماعة المرجعية أو الأطر المرجعية هو التغيير الذي يمكن أن ينجح. والمناقشة المفتوحة من أهم وسائل نجاح التغيير، ويقوم عليها العلاج النفسي الجماعي. والدعاية الزائدة عن الحدّ التي تُستَغل لاستحداث التغيير قد تأتي بنتائج عكسية أو تأثير عكسي Boomerang effect، وبدلاً من تعديل الاتجاه أو تغييره، فإنه قد يُعمَّق ويترسّخ أكثر، ويكون تناميه في الاتجاه العكسي للمطلوب، وهو ما نسميه التغيير السلبي للاتجاه Negative change. (أنظر أيضاً التنشئة الاجتماعية والتحليل النفسي والعلاج النفسي والقياس النفسي).

مراجع:

- Allport: Attitudes.
- Sherif & Hadley: Psychology of Ego-involvements, Social Attitudes and Identifications.
- Sherif & Sherif: Attitude and Attitude Change.

❖ ❖ ❖

- ٢ -
سيكولوجية التحصيل والإنجاز

مستوى التحصيل، والتحصيل الأكاديمي وعلامة التحصيل. الاختبارات التحصيلية ودوافع التحصيل. الرفاهية والأزمات الاقتصادية والتحصيل. الفارق بين الإناث والذكور في التحصيل. أثر المناخ في التحصيل.

❖ ❖ ❖

التحصيل Achievement هو أن يحقّق المرء لنفسه مستويات أعلى من العلم أو المعرفة، ولذا يُقرَن التحصيل عادة بالدراسة فنقول: مستوى التحصيل Achievement level، ونعني به الدرجة التي يتحصل عليها المرء في امتحان مقنن. والتحصيل المدرسي أو الأكاديمي Academic a. هو نوع التحصيل المتعلق بدرساة مختلف العلوم والمواد الدراسية، وعلامة التحصيل a. mark، هي الدرجة التي يحصل عليها الطالب في امتحان

مقنن، والرقم القياسي في التحصيل .a record هو أعلى علامة يحقّقها طالب لنفسه، وسجل التحصيل .record a يُرصَد به ما يحقّقه الطالب من الدرجات التحصيلية خلال فترة معينة، وبطارية الاختبارات التحصيلية a. battery هي مجموعة من الاختبارات التحصيلية حول موضوع معين، تُطبّق على عيّنة واحدة لتحليلها من بعد، ونسبة التحصيل .a quotient (AQ) هي خارج قسمة العمر التحصيلي على العمر الزمني مضروباً في مائة. فأما العمر التحصيلي a. age (AA) فهو سن نفترض أن الشخص المعني قد بلغها بخلاف عمره الزمني، بمقتضى ما يحقق لنفسه من تحصيل علمي أو معرفي يكون على مستوى معيّن، نعرفه من الدرجة التي يحصل عليها في اختبارات مقننة وُضعت لتناسب أعماراً معينة، فإذا أجاب عليها بنجاح كان عمره التحصيلي هو العمر المحدّد للاختبار، والهدف من ذلك أن نحدّد مستوى التحصيل بالنسبة للعمر الزمني. وتقيس الاختبارات التحصيلية a. tests قدرة الفرد على أداء عمل معيّن، ومدى ما استفاد من التعلّم، وما حقّق من خبرات بالنسبة لآخرين من زملائه، ولا نهدف من الاختبارات التحصيلية قياس استعدادات الفرد للأداء أو الإنجاز أو التحصيل فذلك من عمل اختبارات الاستعدادات aptitude tests، والاستعداد بخلاف ما يحصّل الفرد من معرفة أو مهارة، ويتوقف التحصيل على الاستعداد، إلا أن الاستعداد قد يوجد ومع ذلك فإن التحصيل لا يكون متناسباً معه بالنظر إلى تدنّي الدافع إلى التحصيل. وهناك أنواع من اختبارات التحصيل، ولربما بوسعنا أن نقسمها إلى مجموعتين، إحداهما تقيس التحصيل الدراسي .scholastic or academic a في مجال من المجالات، وعادة ما تكون هناك بطارية إختبارات من هذا النوع، والأخرى إختبارات لقياس التحصيل من نوع آخر كالتحصيل المهني .Vocational a.

والدافع إلى التحصيل a. motive هو حافز إلى الجِدّ، وبمقتضاه يثابر الشخص على التحصيل بتصميم وعزم ليحقّق غاية معيّنة يوليها عنايته

الشديدة. والدوافع تختلف من فرد لآخر، ومن شعب لآخر، ويمكن قياسها في الأفراد بالطرق الإسقاطية مثلاً، بإعطاء الفرد أربع صور، كأن تكون الصورة الأولى لرجلين يعملان على آلة، والصورة الثانية لصبي يجلس إلى مكتب وأمامه كتاب، والصورة الثالثة لأب مع ابنه، والصورة الرابعة لصبي يبدو مستغرقاً في التأمل. ونطلب من الفرد المراد قياس الدوافع عنده أن يقصّ علينا قصة لكل صورة، مع ملاحظة أن كل صورة تقيس ناحية من نواحي الدافع، لا تقيسها الصورة الأخرى، ويكشفها تحليل القصص، فنحيط علماً باتجاهات هذا الشخص نحو تحقيق ما قد يناط به من عمل، ورغبته في أن ينجح فيه، وأن يؤدّيه على صورة طيبة. وعادة ما يكون الشخص الذي يحصل على درجة عالية في هذا الاختبار صاحب أداء عالٍ إذا نيط به عمل ما.

ولقد ثبت من مختلف الدراسات أن التشجيع دائماً والحفز على التحصيل يرفعان من شأن الدافع إلى التحصيل، حتى وإن ووجه التشجيع بالمقاومة من الشخص المطلوب رفع مستوى دوافعه للتحصيل. وهناك دائماً حاجة للتحصيل a. need بكل منا، هي ميل قوي ونزوع شديد لأن نحوز المعرفة أو المهارة التي بها نحقّق النجاح، أو ننجز شيئاً أو نؤدّيه، إثباتاً لكفاءتنا.

وتذهب الدراسات الأنثروبولوجية إلى أنه في المجتمعات البدائية التي يُترَك فيها الأطفال بحيث ينشأون نشأة إستقلالية، تكون دوافعهم للتحصيل عالية عن غيرهم من أطفال المجتمعات الأخرى التي يُدلَّل فيها الأطفال، وتُضفى عليهم رعاية وحماية من الوالدين، بحيث لا تكون بهم حاجات ماسة للتحصيل، ومن ثم تتدنّى دوافعهم له.

وتؤكّد الدراسات أيضاً أن الرفاهية لا تجعل للذين يحيون في ظلها دوافع قوية للتحصيل، وكذلك الظروف المتدنية والأحوال المعيشية السيئة، فإن الدافع إلى التحصيل يتدنّى بتدنّيها. ويقوَى هذا الدافع في الأوساط التي تهيئ للأفراد المناخ النفسي الصحي للتحصيل وتُحفزهم عليه a. societies. وهناك فارق هام بين الإناث والذكور فيما يتعلق

بالدافع إلى التحصيل، وذلك أن الإناث بشكل عام يقوى عندهن هذا الدافع إلى التحصيل فإن غير الموهوب لزومه لغير الموهوب، والموهبة إن لم يشحذها الدافع إلى التحصيل فإن غير الموهوب قد يتفوق على الموهوب. وثبت أن الدافع إلى التحصيل يشحذ الهمة ويحفز الفهم، ويسرع بصاحبه إلى حلّ المسائل أو صقل المهارة في وقت أقل مما يستغرقه الفهم والتدريب عند من لا يكون لديه دافع إلى التحصيل. ويقترن الدافع إلى التحصيل بمستوى الطموح، فكلما زاد الطموح بالشخص كلما كان هذا الدافع قوياً فيه، يعجّل له بأشياء، ويعينه على أشياء، ويحقّق له فهم أشياء ما كانت تتسنّى له لولا هذا الدافع القوي فيه الذي يستحقه الطموح الشديد.

ويبدو أن الظروف الاقتصادية وما يواجه الأمم من تحدّيات يرفع من مستوى طموحات الأفراد ويلهب الخيال ويستحث التحصيل، ونستدل على ذلك من دراسة أدب الطفل، والأدب عموماً عند الشعوب المختلفة، حيث تتبين كثرة الموضوعات عن التحصيل في أوقات التوسّعات الاقتصادية في إنجلترا، والفتوحات الحربية في اليونان القديمة، والانتقال من الزراعة إلى الصناعة في الروسيا.

وكذلك تبين أن هناك علاقة بين التحصيل والمناخ، ويقع معظم تاريخ العالم وأحداثه المهمة في المنطقة المعتدلة منه، بينما يكون التخلف شديداً في المناطق الحارّة والاستوائية خصوصاً، وتذهب أغلب الطاقة لمقاومة البرد في المناطق الباردة، ومن ثم يتدنّى فيها الدافع إلى التحصيل.

مراجع:

- McCelland, D.C. & Atkinson, J.W. & Clark, R.A. & Lowell, E.L.: The Acievement Motive.

- McClelland, D.C.: The Achieving Society.

❖ ❖ ❖

- ٣ -
سيكولوجية الجنس
Sex Psychology

الجنس في الإنسان، وعند الرجل والمرأة والطفل، والعادة السرية، وخيانة الأزواج، وسيكولوجية الجنس عموماً والزواج، والشباب، والشيخوخة.

❖ ❖ ❖

العلاقة الجنسية خلاف أي علاقة إنسانية، وفي العلاقة الجنسية يتوحّد الأنا والأنت، ويتغير كل من الرجل والمرأة نحو التكامل، وتتحول علاقتهما إلى علاقة «نحن». وفي الجنس ينصهر الإنسان بكامله ويتورط جميعه: نفسه، وعقله وبدنه، وروحه، وماضيه، وحاضره، ومستقبله، فكل درجات الوجود كائنة في الجنس، وأعلى صوره هو الجنس في الزواج، لأنه ينشد الاستمرار والدوام، وينفر من الوقتية، وينأى عن الانفصال. والدافع الجنسي: غريزة، أو حاجة، تشبه الجوع والعطش، وتتطلب الإشباع مثلهما.

ومثلما تبعث رؤيانا للأطعمة الرغبة في الأكل، فإن المثيرات الجنسية تعمل فينا عمل المشهيات للأطعمة، فتطلب الجنس بإلحاح. والجنس نشاط كالأكل، ومثل ضربات القلب، إلا أننا في الأكل وفي الجنس لدينا الإرادة، وفي ضربات القلب لا إرادة لنا، والنشاط الذي تدفع إليه الإرادة هو النشاط اللذيذ، والأكل يشبع المعدة، ولكن الجنس يشبع كل الإنسان، ولذا كان النشاط الجنسي هو أرقى، وأجمع، وألذّ، وأرفع نشاط يقوم به الإنسان. وبعض الفلاسفة السخفاء يقولون إن الحياة لها إرادة، وإرادة الحياة تستعين بالجنس ليستمر النوع، فالجنس حيلة وخداع، ونقول نحن: إن الجنس كنشاط لا بد له من غاية، اللذّة لمجرد اللذّة شيء عقيم وعبثي كقولنا الفن للفن، فهل الفن للفن، وهل الجنس للذّة؟ إنما الفن والأدب فيهما الرقي والسمو، وهما عمليتان منظمتان لقوّة الإنسان ولدواخله النفسية والبيولوجية، وتصنعان الشخصية وتوجهانها، وكذلك الجنس فإنه يرقى بالإنسان ويهذّب غرائزه، ويناسقه مع نفسه ومع الوجود، ويجعله

متفائلاً ومحباً للخير، ولقد قيل إن المنية بدأت لمّا أمسك الصياد فريسته ولم يأكلها فوراً وادّخرها ليشويها في البيت ويقدّمها لأهله، فأجّل استمتاعه وجعله لغرض أكبر، وفصل بين اللذّة والحاجة، وتسامى باللذّة، وهذه هي روح المدنية أو الحضارة، وهذا الفصل للذّة عن الحاجة لم يجعل اللذّة مطلوبة لذاتها ولكنها لقيم أعلى، والجنس هو طريق الكمال للعلو، والطريق الواقعي والذي تجتمع فيه الفلسفة والحكمة والمعرفة في شخص الإنسان المحب المحبوب.

ومن غاية الجنس توليد النوع، ولكن أي نوع؟ إنه النوع الأفضل. ولو تأملنا قضيب الرجل في ذاته سنجده قبيحاً، وكذلك فرج المرأة، ولكنهما لِما هُيّئا له من أجمل ما يكون، كفرشاة الرسّام، شكلُها وهي ملقاة شكلٌ غبيٌّ، ولكنها وهي ترسم وتلوّن عظيمة بكل المقاييس. وكل ما في جسم المرأة إنما خُلق لغرض الإنجاب أصلاً، وإن لم تحب المرأة وتلد وترضع فإنها ستذبل، ولأن كل ما فيها مخلوقٌ للإنجاب، فإن لم نستخدمه كما ينبغي فإنه سيضمحل، كالقمر يصغر إلى أن يصير كأن لم يكن. وامرأةٌ بلا أطفال لا وجود لها، ورجلٌ بلا امرأة كأنه ضائع. فالجنس عظيم وله رسالة، وقد تقص عليك امرأة أنها لم تعرف الشبق أو الإنعاظ في حياتها إلا مرتين، وفيهما حملت وَلَديْها، وأما بقية عمرها حيث كان الجنس يؤدّي بموانع الحمل، فلم تعرف أبداً طعماً للشبق ولا الإنعاظ، والمرأة أحرص أن يكون لها الولد، فلهذا خُلقت، والرجل إن لم يكن لديه ما يورثه الولد فلا حاجة به للأولاد، والنبيّ زكريا طلب الولد ليرثه ويرث آل يعقوب، ووراثته يعني أن يخلفه على ماله، ووراثة آل يعقوب يعني أن تؤول إليه عنها الحكمة التي اختُصت بها والنبوة. والمرأة لهذا ترى نفسها في الولد، وإذا حدّثْتَها عن نفسها حدّثتك هي عن إبنها. والرجل لا ينشد الولد إلا إذا كان عنده ما يعطيه للحياة ويحمله ابنه من بعده، وإذا تحدّث الرجل فإنه لا يتحدث إلا عن نفسه أولاً وأخيراً أو عمّا لديه، ولهذا يطلب الولد ليعهد إليه به وينمّيه، فالرجل خالق قيم، والمرأة منجبة الأولاد حَفَظة القيم، ولهذا كان الولد أقيم عن البنت، لأن الحفيظ بعد

الأب هو الولد وليس البنت، والولد حفيظٌ على تراث وميراث الأسرة - أسرته وأسرة أبيه وأجداده، والبنت تعطي أسرة زوجها وتُربّى لأغراب عن أسرتها. وأعرف رجالاً أنجبوا عدداً من الأولاد، ولكن عيونهم كانت فقط على من يحمل الرسالة بعدهم، والرجل غنيٌّ بأولاده الذكور. وأما المرأة فأولادها الجميع: الذكور والإناث، وهم زهورٌ في حديقة حياتها، فإذا لم تكن بها كثرة من الزهور إعتبرت حديقتها مجدبة. وأعرف نساء أجرين عمليات لم يعدن بعدها يصلحن كأمهات، ولم يعُد بوسعهن أن يحملن، فأصبن بالبرود الجنسي Frigidity، وعافت نفوسهن الجنس. وكأن منطقهن: لماذا الجنس إن لم يكن لإنجاب الأولاد؟

وأعلى ما في المرأة غريزة الأمومة Maternal instinct، ولا يوجد عند الرجل مثيلٌ لها، وليس عنده غريزة أبوة، وغريزة الأمومة هي التي تتسبب عندها في إدرار اللبن بعد الولادة لإطعام طفلها.

والرجل به غريزة جنسية ويشتهي، والإيقاع الجنسي عنده محصور بين الرغبة والإشباع، والمرأة غريزتها الجنسية غير موقوتة وكما يقولون Circadian أي مستمرة ودؤوبة، وإفرازها حبٌّ مستمر، وعطف، وحَدْب، ورأفة، ورحمة، وأُنس، ولهذا السبب كانت أعضاء المرأة التناسلية داخلها، لأنها لا تنفتح لأي رجل، وإنما فقط للرجل الذي ترى أنه يصلح أباً لابنها. بينما في الرجل يكون عضو الذكورة خارجه، لأن الحب عنده ليس أصيلاً في شخصيته، والحب أرقى من الجنس، وغالبية النساء يطلبن الحب، وأكثرية الرجال من الرجال ينشدون الجنس، والمرأة تبحث عن الحب، والرجل يريد الجنس، ولذا كانت المرأة في الحب شاعرة، بينما الرجل فيه طالبٌ للجنس ومغوار، وفاتح جَسور ومغتصب. فهل سمعنا عن امرأة تغتصب رجلاً؟ بل إن في الأزواج من يغتصب زوجته ويضاجعها قسراً، والحب سيكولوجي، والجنس بيولوجي، والدافع الجنسي يشبع الرغبات الفردية، والحب يتخطى الرغبات ويدفع بالمرأة إلى الرجل الذي تهواه. والغريزة الجنسية لو أُشبعت كفّت، بينما الحب ميل مستمر. وفي علم النفس فإن الحب انفعال، ولا

شك أنه انفعال قوي، إلا أن جوهر الحب أنه فعل يقوم على الفناء في الآخر، وهو اتحاد أجساد، وانسجام أرواح، والتقاء نفوس، والحب بدون أخلاق فاشل، وجوهر الرجولة هو الأخلاق، والرجل الذي بلا أخلاق لا يستطيع أن يضاجع المرأة مضاجعة موفقة، لأنه رجل غير كامل، وبدون الأخلاق يتدنّى الدافع الجنسي بين سائر الدوافع في حياة الإنسان.

وكان فرويد يظن خطأ أن كل فرد بوسعه أن يستغني عن الجنس بالتسامي بالدافع الجنسي، وهذا غير صحيح، لأن الحياة إذا خلت من التجربة الجنسية تظل ناقصة مهما كانت نظرتنا إلى هذه الحياة. والجنس روح الحب ومهما بذل الرجل في مجال مُتسامٍ مثل الفن أو العلم أو فِعل الخير، ولم يحب ويمارس الجنس بالأخلاق، فكأنه ما فعل في حياته شيئاً جميلاً، وما عرف الخير، ولا الحق ولذلك كان من الخطأ البيّن ترك الناس يتعلمون الجنس من الطبيعة، ففي الطبيعة أنماط من السلوك الجنسي لو مارسناه لحوكمنا كمجرمين، وكذلك من الخطأ تدريس الجنس في المدارس من خلال علم الأحياء، لأن هذا العلم يشيع الاضطراب في سلوك الأولاد والبنات، فأنثى العنكبوت تتغذى بالذكر بعد الممارسة الجنسية، وذكور النحل يُطرَدون من الخلية بعد تلقيح الملكة، وهناك حيوانات تأكل صغارها، وحيوانات تأكل بيضها، فلا يمكن إذن تعليم الجنس من خلال دروس في هذا العلم عند الإنسان، والتربية الجنسية إذن لا بد أن تكون من خلال تدريس الدين، وإذا تعلم الطفل الجنس في المدرسة بلا دين وأخلاق، فهل يتحمل فكرة أن والديه يفعلان ذلك الشيء، أي الجنس، كغيرهما من الناس؟

ويبدو أن تعليم الجنس Science of sex لا بد أن يتوخى التعريف بأن الجنس ضروري، ليس للإنجاب وحفظ النوع فقط، وليس لأنه مصاهرة بين العائلات تقوى به الأواصر بينها، ويكون به الأساس لمجتمع متكافل ومتحاب ومتعاون، ولكنه ضروري لكمال الحياة، وكمال الشخصية الإنسانية ولتحقيق رغبته في الخلود.

ولا تبدأ الحياة الجنسية عند الأطفال في البلوغ Puberty وإنما تكون

بدايتها في الطفولة الباكرة Infantile sexuality، وفيها يكثر أن يلعب الأطفال بأعضائهم الجنسية للتسلية وربما تتولد لديهم مشاعر لذيذة تشجّعهم على الاستمرار في ذلك ومعاودته، والعادة السرية Masturbation سواء كانت إستمناء بالعادة .Habitual m، أو قهرياً Compulsive m، أو عادياً .Normal m، أو نفسياً .Psychic m، تبدأ من هذه السن، والصبي أو البنت تستغرقه التجربة، ولا يقبل على العادة السرية إلا الأطفال المهمَلون عند ذويهم، أو الذين لا يجدون ما يشغلهم، فإذا كانت هذه العادة عند الطفل كافية له، فذلك هو الشذوذ، وإذا لم يجدها كافية ومشبعة فإنه يكون سوياً، وتنمو هذه العادة إلى حب لمن يكونون على صلة وشيجة بالطفل، وهو حب خالٍ من الشهوة في صورة تعلّق بالشخص. وإذا ما انتهت المرحلة الأولى من النمو الجنسي، غاب الاهتمام الجنسي بضع سنوات وهذه هي فترة الكمون Latency period، تنشغل فيها قوى الطفل واهتماماته بالعمل في نمو جوانب أخرى من الشخصية بخلاف الجنس، إلى أن يبلغ سن المراهقة Adolescence، فتستيقظ عنده الناحية الجنسية. والمراهقة أخطر مراحل النمو النفسي الجنسي Psycho-genital development، وبدايتها تختلف باختلاف البلاد والأجناس والثقافات والمناخات Sex-differentiation، وعادة ما تكون في نحو الثانية عشرة من العمر. وكل إنسان يمر بثلاث مراحل نفسية جنسية: الطفولة Infancy، والنضج Maturity، ثم الكهولة Senility، ويتخللها المراهقة وسن اليأس Menopause. والطفل في المراهقة يكتشف ذاته، ويكتشف أن أمامه مستقبلاً فيعرف الزمن لأول مرة، والدليل على ذلك كتابته لليوميات، ويكتشف أن هناك عالماً يعلو على الواقع، وهو عالم الأفكار والقيم، ويتعلق اكتشافه بالأخلاق، ويعرف معاني الشرف والحق والصدق، ويبدأ يلبي نداء الواجب، ويتنامى شعوره بالمسؤولية. وربما في المراهقة يدمن العادة السرية .m addiction، والإحصاءات تؤكّد أن ٨٥٪ من المراهقين يمارسون العادة السرية، وسمعتها سيئة عندهم، وينفّرهم منها

إسمها Masturbation – أي التدليك باليد، والبعض يفضلون إسم Onanism – نسبة إلى عونان بن يهوذا Onan في قصة التوراة (تكوين ٤/٣٨, ١٢/٤٦) الذي كان يستمني بيده، وآخرون يفضلون إسم Auto-erotism أي الاشتهاء الذاتي، وتنتشر بين الذكور عن الإناث، وقلما تفعلها أنثى وقد يجرّب الأولاد مع بعضهم ممارسة العادة السرية، كل اثنين مع بعضهما. وقد يجرّب الحب بعض الأولاد على الطريقة المعروفة باسم الحب الأفلاطوني Platonic love، وهو ليس جنساً بالمرة، ولكنه خبرة عاطفية يعرفها الأولاد في سن المراهقة، وقد يتورطون في علاقة لواطية Homo-sexual، فيأتي الذّكران الذّكُران، وينتشر ذلك خصوصاً في المجتمعات المغلقة التي يُترك فيها الأولاد الذكور بلا رعاية، وعادة ما يستغل الولد القوي من هو أضعف منه، أو يوفّر له القوي الحماية نظير أن يسمح له بمضاجعته في الدُّبر. وهنا يبدو أن التربية الجنسية Sexual education مطلوبة لأنها تحول دون ذلك، وتعطي للأولاد من المعارف ما يوفّر لهم إدراك خطورة مثل هذه العلاقات الشاذة.

والتربية الجنسية ضرورية في المدارس وفي البيت، ويقسّمونها قسمين، الأول التعليم الجنسي العام General-s. education، بنظرياته ومعانيه ومدلولاته، والثاني الخبرة الجنسية s. experience وتوسعة مدارك الأولاد والبنات وتوعيتهم. وكلما كان بالأولاد حياء Sex-flush كلما أفادتهم التربية الجنسية، والمطلوب دائماً ترسيخ هذا الحياء لأنه يحمي الشخصية ويضفي على التعليم جدية. وفي سن المراهقة يعرف الطفل معنى الله، فطالما أن كل شيء مخلوق فلا بد له من خالق، ووجود كائن أعلى قوي يضمن للأطفال الحماية، ويؤدّي نمو الشعور الديني إلى يقظة الوعي الديني، ويُدرّس للأولاد ضمن برامج التربية الدينية موادٌ كالدعارة Prostitution، وتنتشر الدعارة الآن بشكل هائل كلما اتجهت البلاد المعنية نحو التحرّر الأخلاقي، وكلما تعثّرت جهود الشباب أن يكون لهم الزواج الصالح. والمومس Prostitute إمرأة تمارس الجنس لقاء أجر، وتعتبر السيدة التي تفعل ذلك نظير هدايا أو خدمات من

نوع البغايا، والسمة الغالبة على البغي هي النقص العقلي والأخلاقي، وتعوزها القيم الأخلاقية، والوعي بقيمة العمل، وقيمة الحياة الاجتماعية. وزبائن المومسات إما مراهقون من الطلبة، أو عُصابيون يخشون العلاقات الجنسية المحترمة، أو عُمّال من الطبقة الدنيا وسواد الناس من السفلة. وهناك فرق بين البغي والعشيقة Mistress، لأن الثانية لا تعمل بأجر ولكنها مولهة بالحب، والعشق خطوة إلى الزواج، وعلاقة الشاب بالعشيقة هي آخر علاقة جنسية تكون له قبل الزواج Pre-marital sex، وأية علاقة بعشيقة لها مدّة معيّنة، ولا يسعى العاشقان إلى الارتقاء بعلاقتهما إلى الزواج غالباً، والجماع Intercourse في العشق غاية في ذاته، وليس الهدف منه استحداث الحمل وإنجاب طفل، والنساء عادة يتورطن في هذه العلاقة بنسب كبيرة، وتذكر الإحصائيات أنه من بين كل عشر نساء هناك امرأة لها علاقة جنسية خارج الزواج، وأما الحب Love، فهو تجربة فريدة، لأنه نقيض القلق، فالحب يعمل على استقرار الإنسان بثبات واطمئنان.

والحب ليس شهوة، ولغته هي لغة القلب، وهو اندفاع نحو الكمال، وكلما كان لا يخضع للعقل كان صحيحاً، والمثل يقول الحب أعمى Love is blind، يعني أنه أعمى عن كل ما هو خارج مملكة الحب. ويحتاج الحب إلى الحياة الجنسية كي يستمر، وبدون الجنس يذبل سريعاً، وغالباً ما لا يدوم الحب، وهو ليس كل التجربة الإنسانية، ولا يحقّق جميع ما في العلاقات الجنسية من ثراء، ولا يسهلكها جميعاً، لأن الحب ليس سوى شرط للزواج، والزواج هو العلاقة الجنسية الكلية التي يجب على الحب فيها أن يستمر ليستقر للأبد. والفرق الأساسي بين الجنسين Sex-differentiation هو الاختلاف بين وظائفهما الجنسية أو بالأحرى أدوارهما الجنسية Sex-roles، غير أن المرأة تتميز عن الرجل، بأن لها عقلاً وقلباً وبينهما دائماً نزاعٌ ما، وأما الرجل فله عقل، وأيضاً فإن الوظيفة الجنسية أساسية للمرأة، وهي عَرَض بالنسبة للرجل، والمرأة أيضاً تنجب طفلاً، أي تخلقه، وهذه الوظيفة هي أصل الطابع الأنثوي Feminine type وهو طابع

الأمومة Maternal type. والحياة الجنسية عند المرأة تظل خاملة إلى أن يوقظها مُحب، بينما الحياة الجنسية عند الرجل جاهزة دائماً ويمكن استثارتها تلقائياً، ولذلك فالعادة السرية عفوية عند الرجال ولكنها لا لزوم لها عن النساء، والمرأة في الجنس تنشد الكمال Consummation وليس أنصاف الحلول، ولذلك فالجنس عندها تجربة مثيرة، وليس أي رجل يمكن أن يجعله هكذا معها. والحب يبدأ دائماً بشكل فجائي، وهو ليس الحب الذي يتولد من أول نظرة، ولكنه ينمو بالتدريج دون أن تُعرف له بداية، وربما كان أدوم الحب لذلك هو ما كان بين اثنين يعرفان بعضهما من زمن بعيد، إلا أنهما يدركان فجأة أنهما متحابان، وأنه لا غناء لأحدهما عن الآخر، وأنهما لم يَعِيا من قبل ما عليه كلٌّ منهما من فضائل ومحاسن، وكل قصص الحب المشهورة كانت هكذا، مثل قصة قيس وليلى، وكُثيّر وعزّة، وأما قصص الحب التي تتولد فجأة فمصيرها كذلك إلى الموت فجأة كقصة روميو جولييت. والحب الصادق هو الذي لا يقضي على شخصية المحب أو المحبوب، ولا يستعبد أيهما الآخر، بل أن كلاً منهما يستحيل مصدر ثراء لشخصية الآخر. والحب فيه العشق، ويرتقي فيصبح هياماً، ثم شغفاً، ثم وجداً، إلخ. وكلمة «حب» لها مدلولها الثقافي والأنثروبولوجي عند مختلف الشعوب، فالألمان يسمون الحب Liebe، والإنجليز Love، والفرنسيون Amour، والإيطاليون Amore، إلخ، وكل لفظة لها جَرسُها ومدلولها النفسي، واللفظة العربية «حُبّ» هي أبسطها وأقلها في عدد الحروف، وذلك دليل على أن الجنس ليس له عند العرب هذه الاحتفالية التي له عند غيرهم، غير أن اللغة العربية غنية بالألفاظ عن أحوال الحب، فلكل حالة لفظتها، فالهوى مثلاً: هو إرادة النفس إلى ما تستلذ سواء كان خيراً أو شراً، والهُيام: هو العشق بجنون، أي الحب الذي يستلب عقل صاحبه، ولهذا يقال والهُيّام للعشّاق الموسوسون: الهُيّام؛ والجوَى: هو شدّة العشق لدرجة أن يصاب العاشق بالاكتئاب، ويرين عليه الحزن والسُقام، وكلمة «حب» هي التي تجمع كل ذلك وتختصره، غير أن الحب قد يكون

للأشياء، أو يكون حب امتلاك، أو حب الله، وكذلك قد يكون حباً للجنس.

والحب لا يقاس وليس له مقياس، وهو شعور، فأنت تستطيع أن تشعر بأنك تحب حباً عظيماً، أو حباً ضئيلاً. ولا يخطئ الحب، وإنما الخطأ مرجعه المحبون، وكما تكون شخصيتك يكون حُبّك، فالشخص التافه حبُّه تافه مثله، والشخص العظيم حبُّه عظيم. وكلُّ حب مهما كان تافهاً أو عظيماً فهو خلاّق، ويتراوح بين السعادة والشقاء، وبين اللذّة والألم. وتُنمّي التعاسة في الحب الرهافة، والحساسية الروحية، وتثري الشخصية. وقد يتعارض الواجب مع الحب، كما قد تتعارض الفردية مع الحب. ولا يستغني الحب عن الجنس كما قلنا، والجماع هو قمة الوصال. والحب يريد أن يكون خالداً، ولهذا يتنازع المحبون لأن الجماع في الحب وقتي، ومهما كان الحب صادقاً فمآله إلى الموت، ووداع الحب أشد ألوان الوداع مرارة، ولولا الإيمان بوجود الله لمات المحبّون من شدّة حزنهم.

وفي وقتنا هذا يدور الحب حول المساواة المطلقة بين المرأة والرجل في كل شيء، والعقل يقضي بأن يكون معنى المساواة أن يكون للمرأة ما يناسبها من واجبات وحقوق، وللرجل ما يناسبه منها، فمن العدل أن لا يوكل عمل لإنسان ليس مؤهلاً له، وليست لديه الاستعدادات والقدرات والإمكانات لأدائه، وكلما انخرطت المرأة في سلك العمل طالبت أكثر بالمزيد من الحقوق، ولم نسمع أبداً أنهن يتحدثن في الواجبات، وكلهن يؤكّدن أن المرأة كالرجل، ولا فرق بينهما إلا ما يتوهمه الرجل أنه فرقٌ بينه وبين المرأة، وكل النساء المتحررات ينفين بشدّة أن يكن مختلفات عن الرجال، وأن إصرار الرجال على أنهن مختلفات إنما تدفع إليه أسباب إقتصادية وعقدة نقص، والرأي في علم النفس، وفي الطب النفسي: أن الرجال مختلفون عن النساء، ولكنه اختلاف التكامل Completion، وكان الشيخ الشعراوي يذهب إلى الرأي نفسه، فمهما كان الاختلاف بينهما فإن عليهما القيام بمهمة واحدة، وكل منهما يعين الآخر عليها بحسب ما عنده، ولا يكلّف الله نفساً إلا وسعها، ويتشابه الاثنان في التركيب النفسي الأساسي، ولكل منهما

صفات الشخصية الإنسانية نفسها، إلا أن الظروف التاريخية والاجتماعية أثّرت في نمو الفروق بين الجنسين، وكانت لكل منهما صفات إنفرد بها نتيجة النجاح أو الفشل في الملاءمة بينه وبين المجتمع، إلا أنه لا مفر من الاعتراف بأن مزاج الذكر Male temperament يختلف اختلافاً أساسياً عن مزاج الأنثى. وهناك مفهوم للأنوثة والذكورة يشتمل على عدد من المميزات النفسية المحدّدة، ولم يكن عبثاً أن هناك تصوراً عاماً لمفهوم «الأنوثة الخالدة Eternal femininity» أي الأنوثة في اعتباراتها الأساسية، ويقوم الفرق الأساسي بين الجنسين على الاختلاف بين وظائفهما الجنسية، وقد يقال إنه ليس في عالم النساء عباقرة كما عند الرجال، وأنه حتى العظمة عندهن فإنها عظمة أنثوية، أي عظمة من نوع خاص، هي في صميمها «أنوثة». ومن الصعب اتهام النساء بأنهن يفتقرن للمنطق، إلا أن ما يميّز المنطق الأنثوي أنه منطق مادي، والنساء عموماً لا يتعمقن الأشياء ولكنهن يعشنها، ولا يتعاطفن مع الألم وإنما المرأة تحسّه، والمرأة لها كرامة، والرجل له شرف، ولا شك أن المرأة سلبية في الجنس، ويقتصر دورها على الألم، والرجل إيجابي فعّال ونشيط في الجنس، وهو الذي يغازل المرأة، ومعظم النساء ينجحن بالغزيرة الجنسية وليس بالذكاء، ومن الصعب عليهن أن يضعن حاجزاً بين عقولهن وقلوبهن، ومن المستحيل قيام صداقة صرفة بينهن وبين الرجال، والنساء ينغمسن بعمق في الجنس وهو ما يميزهن عن الرجال، والجنس عند الرجال ممارسة متفرّقة، ولذا كان إحساسهم بالجنس أقل من إحساس النساء عموماً. والمرأة تطلب الزواج وتسعى إليه، لا لتأمين حياتها المادية، بل لوجودها نفسه الذي هو شرط لكيانها، ولتحقيق هذا الكيان، لأنها تنشد استمرار الحياة. وأما الرجال فكلمة «ذَكَر» تدل على الوظيفة البيولوجية مقابل كلمة «أنثى»، والصفة «رجولي» تدل على الشدّة والقوّة والمبادرة، بينما «أنثوي» تدل على الرقّة والليونة، والحب، والتسامح، والعفو، والرحمة. ومن الغريب أن الجنين يكون في بدايته أنثى، ثم يتحول إلى

الذكورة لو كان مقدراً له أن يكن ذكراً، وكأنما الذكر يتولد عن الأنثى وليس كما تقول الأسطورة في التوراة: إن حواء تخلّفت من آدم، غير أن نزعة التاريخ مع الرجل ضد المرأة، ومع ذلك فالنساء كنّ أول من مارسن الزراعة والأشغال اليدوية، غير أن ذات المرأة تتحقق في قيامها بوظيفتها الجنسية، وأما الرجل فذاته تتحقق بالعمل، ولا يوجد في عالَم الرجال «ذكورة خالدة»، بينما عند النساء توجد «أنوثة خالدة»، والرجل يبزّ المرأة حتى فيما ترتدي كما ذكرنا أي في التفصيل والخياطة، وفي أخصّ وظائفها وهو الطهو.

والعلاقة الجنسية عند الرجل تختلف عنها عند المرأة، وهي عنده مجرد لون من النشاط كسائر العلاقات، وتسمّى القدرة على إتمام العلاقة الجنسية بالقوّة الجنسية Sexual potency، والرجل القادر جنسياً هو الذي ينتصب ويولج، ويظل منتصباً فترة كافية حتى تنعظ امرأته، ومن لا تنعظ امرأته فليس بقادر جنسياً، وما تحتاجه العملية الجنسية حتى ترضى المرأة هو الوقت اللازم ليبقى منتصباً، ويحب بعض الرجال أن لا يقرب المرأة إلا إذا بذل جهداً، ويسمى ذلك غزواً وفتحاً، ولا يعجز الرجل جنسياً إلا نتيجة اضطراب نفسي عصبي، والبرود الجنسي Sexual frigidity عند المرأة وسيلة عُصابية في معظم الأحيان لتحقير الرجل والحطّ من شأنه، عندما يعجز عن إتيان إمرأته. ولا شك أن الحب الجنسي الصحيح هو المتوافق مع الأخلاق الجنسية Sexual ethics عند الرجل والمرأة على السواء، والمطلوب دائماً أن تكون المرأة عفيفة وبكراً، وليس كذلك الرجل، والأخلاق الجنسية ضد الإباحية Libertinism، والإباحي Libertine هو الذي يهين الخفر والحياء. والمرأة العفيفة Chaste بها طمأنينة وثقة في نفسها لا يُخطئها إنسان. ولا يتطلب مراعاة الأخلاق الجنسية أن نلغي مطالبنا الجنسية، أو نكبتها، وإنما أن نشبعها بطريقة مشروعة Ligitimate، والطهارة الجنسية Sexual purity عنصر أساسي في أخلاق المرأة الجنسية. والزواج أمرٌ مفروض بحسب هذه الأخلاق، وبنات هذه الأيام ضد الزواج

نتيجة آراء فاسدة لا تصمد للنقاش. والزواج إتحاد بيولوجي واجتماعي ونفسي وثقافي وعقلي بين رجل وامرأة، وبدون الزواج لا تنمو الحياة الإنسانية. ومن السهل التدليل نفسياً على أن فكرة الزواج المتعدّد Polygamy هي الفكرة السليمة، وكذلك من السهل التدليل بيولوجياً على أن الزواج من واحدة هو الزواج الأمثل Monogamous، وأخرى متعدّدة الزواج Polygamous، والغالب في العالم عند الإنسان هو الزواج من واحدة. وقد يكون الاختيار في زواج الواحدة فاسداً، وبذلك يكون الإصرار على استمرار هذا الزواج خطأً كبيراً ومفسدة عظيمة. وعادة لا يكون الحب جوهر الزواج، وتتوثق أواصر الحب بين الزوجين بما يصادفان من مشاكل ومصاعب، وبالعيش معاً تتولّد الإلفة وتتنامى المعرفة الكاملة بالآخر. وتتّحد بالزواج حياتي الزوج والزوجة، ويتّحد جسداهما في جسد واحد، ولا يفصل بينهما حياء ولا خجل، وليس أهم في الحياة الزوجية من أن ينام الزوجان معاً على سرير واحد، والزوجان اللذان لا ينامان معاً لم يرتبطا برباط الزوجية الحقيقي: رباط الوحدة. والإخلاص Loyalty، والوفاء Fidelity بينهما واجب أخلاقي، وهما تعبيران عن الأخلاق الجوهرية، وبهما يتقاسم الزوجان كل نواحي الحياة، وتقضي الخيانة الزوجية Marital infidelity على الزواج نهائياً. والأطفال عامل جوهري في الزواج، والمرأة تحتاج إلى إنجاب الأطفال لتحقّق به الضرورة الجوهرية في طبيعتها، فإذا حُرمت من ذلك فقد الزواج بالنسبة لها جزءاً كبيراً من مغزاه. وتزداد الآن النزعة إلى الطلاق حتى باتت كالوباء، ولا شك أن قوانين الطلاق في كل العالم ناقصة وتحتاج إلى التهذيب، والزواج في علم النفس علاقة دائمة، وكل زواج لا يدوم غير سوي. وتهدّد الزواج فترة اليأس Climacteric في الخمسين من عمر المرأة، وتستمر حوالى ستة أشهر أو ثمانية عشر شهراً، وترجع هذه الحالة إلى ضمور في المبيض، وترهُّل في الرحم، وضعف عام، ثم انقطاع للطمث، وارتفاع في درجة الحرارة، وهشاشة العظام، إلخ، وتفقد المرأة غالباً رغبتها الجنسية، والبعض يحتفظن بهذه الرغبة، ويختلف

فـي ذلك أمـر الـرجـل، لأن خصـيـتـيـه تستمـران في العمل، إلا أنهما تهرمان، وليست عند الرجل مرحلة يأس كما عند المرأة، وهذه السن تمثل عند الاثنين عتبة الشيخوخة ونهاية النضال.

مراجع:

- الموسوعة النفسية الجنسية: دكتور عبد المنعم الحفني.
- The Physiology of Reproduction: Marshall, H. A.
- Sexual Life of a Child: Moll, A.
- Analysis of the Sexual Impulse: Ellis, H.
- Ideal Marriage: Van de Velde.
- The History of Human Marriage: Westermarck.
- Sex in Man and Animals: Baker, J. R.
- Nudism in Modern Life: Parmelee, M.
- Man and Woman. Studies in the Psychology of: Ellis, H.
- Love in Children: Pfister, O.
- The Eation of Love Between the Sexes: Bell, S.

❖ ❖ ❖

- ٤ -
سيكولوجية الثواب والعقاب

الثواب والعقاب في التربية والإنتاج الصناعي. مدارج الثواب والعقاب. أنواع المكافآت والحوافز. موقف العقاب ومتضمناته. أنواع العقاب...

❖ ❖ ❖

يُستخدَم مبدأ الثواب والعقاب Reward and punishment principle في التربية، وفي الإنتاج الصناعي، وفي المعاملات اليومية، فما نُثاب عليه نميل إلى تكراره ويكون أخذُنا به والتعويل عليه، وما نُعاقَب عليه، أو يكون التهديد بالمعاقبة عليه، ننفر منه ونتجنبه. ويرتبط تطبيق مبدأ الثواب والعقاب بمفهومنا عما هو صحيح أو خطأ. وللثواب مدرج، كما للعقاب مدرج يكون بهما تراتب أنماط السلوك التي يُثاب أو يُعاقَب عليها. ويختلف تقويمنا للسلوك أو للنشاط بحسب الأحوال والظروف، وقد

يكون السلوك مُثاباً عليه في ثقافة، بينما يُعاقب عليه في ثقافة أخرى.

ويرتبط مبدأ الثواب والعقاب في مجال علم النفس أكثر ما يرتبط بقانون ثورانديك Thorandike المسمّى بقانون الأثر Law of effect، من حيث أن المثاب أو المعاقب يشعر بالرضا والارتياح أو بالضيق والسخط والألم، فيسعى الأول للارتباط بالمثير المريح، بينما ينفر الثاني من المثير المزعج أو الذي لحقه بسببه الفشل. وهذا المبدأ هو الذي تطوّر حديثاً في شكل مبدأ التعزيز Reinforcement principle، ومنه التعزيز الإيجابي Positive r. بالمكافآت (كالمكافأة بالطعام مثلاً)، على إتيان الاستجابة الصحيحة أو السلوك المرغوب فيه، والتعزيز السلبي Negative r. بالعقاب على صدور الاستجابة الخاطئة أو السلوك غير المرغوب فيه. ومن الطبيعي أن تكون المكافأة أو الإثابة دافعاً للتعلّم ولكل سلوك مستحسن إجتماعياً، وليس شرطاً أن تكون المكافأة مادية (بالنقود مثلاً) دائماً، فهناك مكافآت معنوية (كالتشجيع بالكلام وإظهار الاستحسان)، والمكافأة سواء كانت هذه أو تلك فمن شأن ارتباط موقف المكافأة Reward situation بالمكافأة، أو ارتباط الاستجابة بالمكافأة عليها، أن تتعزّز الاستجابة الناجحة ويقوى السلوك المرغوب. والمكافأة الأولية Primary reward هي التي يكون بها إشباع حاجة أولية كالطعام بالنسبة للجوعان، وليس من المناسب أن نقدم للجوعان مكافأة على شكل ماء، والمكافأة الثانوية Secondary r. كأن تكون بالمال الذي هو وسيلة إشباع لأية حاجات، والمال هنا أيضاً مكافأة رمزية Token r. من حيث أنه لا يشبع مباشرة الحاجات الإنسانية، وليس له قيمة في حدّ ذاته، وإنما قيمته بما يمكن أن يتيحه من إشباع لهذه الحاجات. وفي التجارب على القرود تعلموا أن يحتفظوا بالفيشات ليقايضوا بها على الطعام. وعندما تكون الإثابة على العمل من خارج هذا العمل ولا تتعلق به فإنها تسمى مكافأة خارجية Extraneous r.، فإذا كانت من صميم الأداء فهي مكافأة ذاتية Intrinsic r. والمكافأة المالية، والجوائز والميداليات،

والدرجات والتقديرات المدرسية، والترتيب في التفوق، والمدح بالألفاظ، من قبيل المكافأة الخارجية، بينما حالة الرضا التي يستشعرها الناجح، أو زوال التوتر عنه، أو تحقيقه لذاته بالنجاح، أو النجاح نفسه كإنجاز، هو من نوع المكافأة الذاتية. وعندما تتكرر المكافأة على استجابة معيّنة أو سلوك بعينه فإن من شأن ذلك أن يستحدث لدينا أو عند الكائن الحيّ عموماً ما يسمى بتوقع المكافأة r. expectancy، فإذا كانت كل الظروف مهيّأة للمكافأة ومع ذلك لم تتحقق، فالملاحظ أنه تتولد حالة من التوتر يكون معها سلوك البحث والسعي.

والمكافأة المرجأة Delayed r. هي التي يتأخر تحصيلها بعض الوقت، وفي التعلم الشرطي الإجرائي فإن الاستجابة قد يأتيها المفحوص ولكنه لا يحصل على المكافأة إلا بعد فترة، وهو ما يسمى بالتعزيز بالفترة Interval reinforcement، وكلما تأخرت المكافأة كلما قلّ الارتباط بينها وبين الاستجابة. ويبدو أن التعجيل بالمكافأة وأن تكون خارجية أليق بالأطفال منه بالكبار، وبالمتأخرين عقلياً منه بالأذكياء، وبنمط الشخصية من حيث الاندفاع، وإيثار العاجل على الآجل، والمادي على المعنوي. ويميل أصحاب المبادئ والاتجاهات الدينية والمثالية إلى المكافأة الذاتية والآجلة على المكافأة الخارجية والعاجلة.

والمكافأة الموجبة Positive r. هي التي تصاحب التعزيز الموجب Positive reinforcement، أي الذي تتأصل به الاستجابة وتثبت. والمفروض أن المكافأة من حيث هي كذلك إيجابية، غير أن التعزيز السلبي Negative reinforcement بالعقاب أو بالحرمان من المكافأة يقال له أيضاً المكافأة السلبية Negative reward أو المكافأة بالسلب. ونلاحظ أن لفظ مكافأة من الفعل يكافئ أو يعادل، والمعنى الدلالي إذن للفظة هو ما يُعطَى كمقابل، وما يُعطى - أي الإثابة أو المكافأة - ينبغي أن يُعادل العمل، فإن يكن العمل خيراً كان المقابل المعادل خيراً يساويه، وإن يكن شراً يكن هذا المقابل المعادل بقدره، وذلك ما يسمونه قيمة المكافأة Value r.. وفي البحوث على القيمة للمكافأة في المجال الصناعي

يتبين أن العمال يؤثرون المكافآت ذات القيمة الآجلة والتي لها مردودها على حياتهم عند التقاعد. ومن الطبيعي أن تختلف القيم للمكافآت الواحدة بحسب المجتمعات والأفراد والمستويات الاقتصادية والحضارية، ففي مجتمع محروم لا بد أن تعلو القيمة المادية على أية قيم أخرى، بينما في مجتمعات الوفرة يكون التطلّع للمكافآت المشبعة للدوافع الثانوية. وهناك الكثير من البحوث فيما إذا كانت المكافأة أفضل على مستوى الأفراد أو على مستوى الجماعة، ومن النظم ما يأخذ بالمستوى الأول على أساس من الزيادة الملحوظة في الإنتاج وفي نوعه، ومنها ما يأخذ بالمستوى الثاني بالنظر إلى المردود الاجتماعي الذي للمكافأة في هذه الحالة. والبعض يجعل المكافأة مادية في صورة أجر زائد، والبعض يجعلها في شكل خدمات صحية تعليمية وترفيهية.

ومن شأن المكافأة أو الإثابة أن تكون لها نتائج وجدانية ومعرفية سارة، من حيث أنها تقوّي من الدوافع، وتشجّع على التعلّم، وتنشطهما، والمكافأة المشجعة .Stimulating r هي من قبيل ذلك، وينبغي التمييز بينها وبين المكافأة المُسكِّنة .Sedative r، والأولى لا تثيب على النشاط على قَدْره، والثانية يُقصَد بها أن يستمر النشاط ولو لم يُكافأ صاحبه المكافأة التي لها قيمتها. والمكافأة عموماً تستحث على الاستفادة مما نتعلم، وكذلك فإن من شأن التمايز بين المكافآت أو ما يسمى الإثابة الفارقة .Differential r أن تتمايز الدوافع عند المتعلم أو العامل، وتقوى بعض الدوافع بتعزيزها بالمكافآت الفارقة، وتزيد المكافآت الثقة في النفس، وتشجّع على المغامرة والابتكار، وعلى المثابرة، وتزيد من جاذبية ما يأتينا منه الثواب، فضلاً عن المترتبات المعرفية من حيث أن المكافأة تعطينا العلم بمدى ملاءمة استجاباتنا وسلوكنا، وتجعل للتعلّم معنى بالربط بين الاستجابات والأهداف. ومن شأن المكافأة بالتغذية الراجعة المدعمة أن تجعلنا نركز على استجابات دون استجابات، فيكون السلوك الانتقائي، ومن ثم تكون أيضاً إمكانية توجيه السلوك. غير أنه من جهة أخرى فإن

المكافأة عندما تكون من مصدر خارجي قد ترتبط بالأداء إرتباطاً زائفاً يُفرض عليه فرضاً، وقد تكون لها آثار سلبية من حيث توجيهها للسلوك فيصبح المستجيب للمكافأة مُسَيّراً وليس مُخيّراً، فيعمل أو يتعلم ما يطلبه منه الآخرون، وينقاد لهم، ويرضخ للشروط التي يكون بها أداؤه لما يطلبونه منه، وتقل بذلك ابتكاريته أو تتحدد تحديداً في منصرفات بعينها. وربما يرتبط المؤدِّي بالمكافأة إرتباطاً نفسياً دائماً، فيكون أسلوبه في التعامل بحيث لا ينهض بالمطلوب إلا إذا كوفئ عليه، وربما يدفعه ذلك إلى منافسة قد تجرّه إلى القيام بأي فعل من شأنه أن يبلغ به إلى المكافأة من أي طريق ومهما كانت السبل، فيتحرّر من الالتزامات الأخلاقية ويجيز كل شيء مهما تعارض مع القوانين، وخاصة إذا كانت المكافأة محدودة بينما المتنافسون عليها كُثر، وتتحقّق للفائز بها متحصلات نفسيّة بالإضافة إلى المكسب المادي، إلا أن ذلك قد يتسبّب عند غير الفائز الملتزم أن يناله الإحباط. ولنا أن نقارن بين آثار إيجابية عند واحد أو اثنين من الفائزين ونتائج سلبية عند الأغلبية. وقد يترتّب على الإحباط شعور دائم بالفشل، ومشاعر نقص قد تتعزّز عند هؤلاء وتظهر نتائجها في سلوكهم وتطبع شخصياتهم.

ويتوخى العقاب نتائج بخلاف ما يقصد إليها الثواب. ويتضمن موقف العقاب Punishment situation طرفين، أحدهما يعاقِب (بكسر القاف)، والآخر واقع عليه العقاب لقيامه بفعل من شأنه الإضرار بالأول. والعقاب إما بموقف يستحدث الألم، أو أنه يشتمل على خبرة غير سارة، أو قد يكون بفرض عمل لا يريده الآخر أو لا يحب أن يؤدّيه، أو ربما بحرمانه من شيء أو فعل يريده أو يحب أن يقوم به. والعقاب منه الرسمي Formal الذي تصدر به أحكام وتنهض على تنفيذها جهات رسمية، ومنه العقاب غير الرسمي Informal p. وهو كل ممارسات العقاب بين الأفراد بعضهم البعض في معاملاتهم اليومية. والعقاب منه البدني Corporeal p. الذي يتوجّه للجسم وأعضائه كعقوبة الجَلْد أو الإعدام، ومنه المعنوي Incorporeal p.، وأوجاعه تكون

لها وطأة عقلية ونفسية، فنظرة عدم الرضا التي يواجه بها الأب إبنه قد تفوق في نتائجها الضرب الموجع. والعقاب البدني غالباً ما يكون خارجي المصدر Extrinsic p. غالباً، بينما في كثير من الأحوال يكون العقاب المعنوي داخلي المصدر Intrinsic p. ومن رأي علماء التحليل النفسي أن مشاعر الذنب وما تجرّه على صاحبها من اضطرابات نفسية هي بمثابة العقاب الذاتي Self-p. الذي ينزله المرء بنفسه بدوافع داخلية منه دون الدوافع الخارجية. ويذهب فرويد وأتباعه إلى أنه بالإنسان دون الحيوان حاجة إلى العقاب Need for punishment، بتأثير تكوينه النفسي، حيث ينفرد الإنسان بالضمير Conscience أو الأنا الأعلى Super-ego، وهو الذي يجعله دائماً حسّاساً تجاه ما يفعل ويشعر ويفكّر، فإذا خالف النواهي والزواجر والأخلاق والعرف والشرائع والقوانين إنتابته من ذلك مشاعر ذنب، فيميل بسلوكه لاشعورياً إلى أن يكفّر عن رغباته أو مشاعره أو أفعاله Unconscious need for p.، بأن يُنزل بنفسه العقاب التكفيري Expiatory p.، كأن يعوّض الآخرين عمّا شعر تجاههم أو لحقهم منه من أذى، وقد يغالي في التعويض أو يتطرّف في التكفير حتى لقد يحاول الانتحار أو ينتحر فعلاً. ولربما يطبّق البعض العقاب بالمِثل p. by reciprocity، وهو مقولة دينية من باب السن بالسن والعين بالعين كقوله تعالى: ﴿وإنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ (النحل - ١٢٦)، وأحياناً يُمارس هذا العقاب على نطاق رسمي، وقد يُعمل به أيضاً على نطاق غير رسمي كمقولة أخلاقية. والعقاب الذي ينزله الله بالناس - العقاب الإلهي Divine p. - هو من نوع العقاب التكفيري عمّا ارتكبوا، كما حدث لليهود الذين عبدوا العجل فأُمروا أن يكفّروا عن فعلهم، بأن يقتلوا أنفسهم عقاباً لما فعلوا، كقوله تعالى: ﴿وإذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْم إنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُم باتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (البقرة - ٥٤)، وكما تقول التوراة فإنهم قتلوا من أنفسهم عدّة آلاف. ومثل ذلك عقاب ميداس Midas p.، فقد كان يمارس الاستمناء فعاقبته الآلهة على فجوره.

والعقاب الطبيعي Natural p. هو من نوع العقاب في الآية: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ (النساء - ١٢٣)، والآية: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ (الشورى - ٤٠).

ومن أهداف التربية أن تجعل العقاب ذاتياً من داخل الأفراد، أي عقاباً نفسياً، بحيث يكون الرادع عن الفعل اللاأخلاقي بوازع من الضمير أو الأنا الأعلى وليس الخوف من العقاب الرسمي أو البدني أو العقاب الاجتماعي. ومن رأي دوركايم أن المقصود بالعقاب ليس التمثيل بالمجرم، ولا جعله أمثولة لغيره، ولا إصلاحه بالعقاب، ولكنه لإذكاء الفضيلة عند الناس، وبيان الحدود بينها وبين الرذيلة، أي بيان المسموح به اجتماعياً وغير المسموح به، والفواصل بينهما. ولربما تكون بنا حاجة دائماً للعقاب حينما لا تكون هذه الحدود واضحة، ويذهب البعض منا إلى حدّ اختبار الحدود، وخاصة الأطفال. وفي التربية قد يجدي الحزم عن القسوة، وأن يكون العقاب فورياً وبدون انفعال ولا تناقض. والمبالغة في استخدام العقاب في التربية كستراتيجية دائمة قد يولّد القلق عند الطفل، ويؤثّر على تكوين شخصيته واتجاهاته المعرفية، وقد ينفّره من موضوع التعلّم، ويعمّم الطفل هذا النفور على كل التعلم ويكون سبباً في فشله. وقد تزيد المبالغة في استخدام العقاب من مستوى الطموح لدى الطفل بشكل إصطناعي لا يناسب قدراته، ويدفعه إلى مواقف حرجة، وربما يؤدّي إلى المزيد من الإحساس بالفشل، حتى ليلازمه الفشل كبُعد من أبعاد شخصيته، ولعله من هذا الطريق تتكون الشخصية غير الكفوء Inadquate personality. غير أنه من جهة أخرى فإن العقاب يدفع إلى تركيز الانتباه، والدأب على العمل ومحاولة التعويض. ويُستَخدم العقاب بالتنفير Aversive p. كعلاج، ويسمّى أيضاً العلاج بالتنفير، وهو طريقة من طرق العلاج السلوكي بالتنفير من الاستجابات غير المرغوبة بالمعاقبة عليها، على أن يُدرّب المريض على الأخذ باستجابة بديلة مرغوبة ويُكافَأ على إتيانها. والعيب في العقاب أنه لا يخبر عمّا ينبغي فعله، بعكس الثواب، ولذلك

يُتبع دائماً العلاج بالعقاب بعلاج آخر بالثواب.

وقد تستهوي البعض أنواع من العقاب يكون بها شعورهم بالألم، ولكنه الألم المطلوب الذي يتوافق مع طبيعتهم الماسوشية والذي ترضَى به نوازعهم. وقد يدأبون لذلك على ارتكاب الأخطاء لتوجَّه إليهم الإهانات، أو لينالوا العقاب البدني كما في حالات الميل لارتكاب الحوادث Accident-proneness، فقد ثبت أنه في ثمانين في المائة من هذه الحالات فإن ما يدفع إلى ارتكاب الحوادث هو الرغبة اللاشعورية في إنزال العقاب بالنفس أو البدن، وكأن مرتكب الحوادث يسعى قصداً لينال العقاب. ومن ذلك ما يعانيه البعض من تحقير الذات Self-abasement، بحيث يناسبهم أن يؤكّد لهم الناس ذلك فيهم كلما ارتكبوا ذنباً أو حادثاً، وأن يؤكّدوه هم أيضاً كذلك بسلوكهم. وينهي علماء التحليل النفسي عن العقاب البدني بالنسبة للأطفال، والعقاب الذي من شأنه تحقير الطفل، ويرجعون الكثير من الشذوذ الجنسي للضرب على المقعدة وزيادة الحساسية بها، وكذلك يرجعون ما يسمى بمحو الذات Self-effacement إلى خبرات العقاب الصادمة التي يترتب عليها أن ينسحب الطفل على نفسه، وأن يتوقف نمو شخصيته بالشكل الصحيح، ويسمّي علماء الطب النفسي ذلك بتر الشخصية Amputation of personality أو قتلها، وقد يتوجّه الطفل في حالات كهذه للتعيّن بشخصية الذي يُنزل به العقاب ويذوب فيها، وتنمحي ذاته إلى جوار ذات الآخر. ولربما تتعقّد صورة العقاب بحيث أن ما نعتبره عقاباً للطفل قد يكون مصدر سرور له، أو قد يفاخر به كعلامة على شدّة مراسه وقوّة تحمله. وقد يتوهم بعض الأطفال عقاباً نزل بهم وهو ما لم يحدث، إلا أن البعض يفسّر ذلك بالذاتية Autism، وتتميز بمثل هذه الهواجس التي يكون معها التخيّل بأن الطفل موضع عقاب من الآخرين - هاجس العقاب p. phantasy، بالتآمر عليه أو بحرمانه أو باغتيابه، من نوع التفكير الاجتراري الذي يتميّز به الفصاميون.

ومن المفارقات التي للعقاب أنه يحدث به تعزيز الاستجابة غير

المرغوبة، فمثلاً لو عوقب حيوان في موقف هرب فإنه بدلاً من أن ينتهي عن الهرب، قد تزيد استجابة الهرب عنده. وكذلك فإنه في المواقف المشتّتة قد يرتبط العقاب بمثير غير المثير الذي ينبغي أن يرتبط العقاب به، وذلك من تأثير غموض الكثير من المواقف التي يمارس فيها العقاب. وبعض العقاب يكون غير متناسب مع شخصية المعاقَب، نتيجة عدم دراسة المعاقَب ودراسة تراتب العقاب والثواب عنده. وفي بعض الأحيان قد يكون العقاب بالحرمان p. by deprivation مثلاً غير مجدٍ لعدم حاجة المعاقَب لما يُحرَم منه، وقد لا يُنتج العقاب أثره إذا لم يرتبط مباشرة بالاستجابة. والعقاب الموزّع Distributed p.، أي العقاب كلما كان هناك الفعل غير المرغوب فيه - هذا العقاب أفضل من العقاب بالجملة .Wholesale p. والعقاب الرادع .Preventive p له تأثيره الناجز إلا أنه يؤثّر على الأداء.

مراجع:

- Thorndike, E.L.: An Experimental Study of Rewards.
- Levin, K.: The Psychological Situations of Reward and Punishment. In «A Dynamic Theory of Personality».
- Banduara, A.: Principles of Behaviour Modification.
- Skinner, B.F.: Science and Human Behavior.

❖ ❖ ❖

- ٥ -
سيكولوجية التعزيز

نظرية التعزيز وقوانينه وأنواعه. التعزيز الشرطي والثانوي والأولي والذاتي. جداول التعزيز. التعزيز بالنسبة، والمتقطّع، والمتغيّر، والفارق، والمتغاير، والاتفاقي، والخرافي، والعارض، والمُنتِج، والمرجَأ، واللاّدوري، والمتناسب، والتسلسلي، والنهائي...

❖ ❖ ❖

التعزيز Reinforcement أو التدعيم هو التقوية. تقول التعزيز الاجتماعي Social r. وتقصد مجريات الأحداث الاجتماعية التي يمكن أن تدعِّم سلوكاً كان قائماً قبلها ولكنه بها يتأكّد ويرسخ. والتعزيز أكثر ما يستخدم في مجال التعلم. ونظريات التعزيز r. theories مجال بحثي من مجالات السلوكيين من أتباع سكينر Skinner (١٩٤٤) وكلارك هل Hull (١٩٣٠)، الذين يفسّرون تعلّم السلوك واستمراره بالتعزيز. وقانون التعزيز Law for r. عند «هل» يقضي بأنه في حالة تكرار ظهور عملية الاستجابة زمنياً مع عملية الاستثارة، أو مع الأثر الذي تنتجه هذه العملية، وترافق هذا الاقتران، وتناقص الحاجة لدى الكائن الحي، فإن ذلك من شأنه أن تزيد به احتمالات استدعاء هذه الاستجابة في الحالات اللاحقة. كما أن الزيادة في التعزيز وتواليه يؤديان إلى قوّة العادة Habit strength (SHR)، ويُطلَق على قانون التعزيز إسم فرض التعزيز r. Hypothesis أيضاً، أو أن فرض التعزيز هو ما كان مطروحاً للبرهنة عليه في تجارب الإشراط الكلاسيكي، ومؤدّاه أن تَقارُن ظهور المثير الشرطي والمثير الطبيعي يقوّي من احتمال أن تكون للمثير الشرطي الاستجابة نفسها التي للمثير الطبيعي. وفرض التعزيز هو أيضاً ما يذهب إليه البعض من أن كل تعلُّم لا بد فيه من التعزيز. أو أن التعلُّم يتم دائماً بالمكافأة عليه.

والتعزيز في اللغة الاصطلاحية يعني تعلم إستجابة معيّنة أو مرغوبة بتقوية الرابطة بينها وبين المثير الذي يؤدِّي إليها، بحيث كلما كان المثير كلما زاد احتمال صدور الاستجابة. وفي التعلُّم الشرطي يكون ذلك بتقوية الاستجابة الشرطية، بأن يتكرر ظهور المثير الشرطي أو غير الطبيعي ثم المثير الطبيعي، أو غير الشرطي، لتتم الرابطة بين المثير الشرطي والاستجابة، ويسمى ذلك تعزيزاً شرطياً Conditioned r. وأما التعزيز في التعلُّم الشرطي الإجرائي، فيكون بتقوية احتمال صدور الاستجابة عن طريق مُعزِّز يقوم بدور مثير جديد. فالحيوان الجائع يستجيب لوجود الرافعة في

صندوق سكينر Skinner box بالضغط عليها، وهذه الاستجابة هي سلوك إجرائي Operant behavior يلجأ إليه الحيوان، أو هو وسيلة الحيوان لظهور الطعام الذي يطلق عليه سكينر إسم المُعزِّز Reinforcer، ويقوم بدور مثير جديد يؤدّي إلى صدور إستجابة إفراز اللعاب. وفي ضوء التعلم الشرطي فإن أي مثير يمكن أن يصبح معزِّزاً عندما يقترن بالمثير المعزِّز الأصلي. فحينما يتعلم الحيوان الضغط على الرافعة فيظهر ضوء ثم يتبعه ظهور الطعام، فإنه إذا حدث وضغط على الرافعة فظهر الضوء دون الطعام فإن استجابة إفراز اللعاب ستصدر أيضاً، ونقول حينئذ إن الضوء إكتسب خصائص التعزيز، إلا أنها خصائص ثانوية وليست أولية، ومن ثم نطلق على هذه العملية إسم التعزيز الثانوي Secondary r.، في مقابل التعزيز الأولي Primary r. المعمول به في الإشراط الكلاسيكي، والذي يكون بتقوية الرابطة بين المثير الطبيعي (الطعام) واستجابة إفراز اللعاب. ونطلق أيضاً على الطعام إسم المعزز الأولي Primary reinforcer، بينما نطلق على الضوء إسم المعزز الثانوي Secondary reinforcer.

والتعزيز ذاتي المنشأ Autogenic r. هو نوع التعزيز عندما تكون الإثابة فيه ذاتية، بمثابة رضا الشخص عن نفسه كلما حقّق إنجازاً، وهو تعزيز خارجي External r. إذا كان الحافز إليه إجتماعياً كأن يكون مكافأة تُكتسب أو نجاحاً مادياً يتحقق.

والتعزيز له نظم قد يتم بها، أو أنه يمكن أن يتحقّق طبقاً لجداول يطلق عليها إسم نظم أو جداول التعزيز r. Schedules، ومن ذلك أن يكون التعزيز متصلاً Continuous r. كما في التعزيز الشرطي، فتثاب كل استجابة ويكافأ المتعلّم عليها، أو أن يكون تعزيزاً متقطعاً Intermittent r. فلا تثاب كل استجابة وإنما بعضها دون البعض، ولذلك فقد يقال له أيضاً التعزيز الجزئي Partial r.. وقد يكون تعزيزاً بالنسبة Ratio r.، أي بنسبة ما يصدر من إستجابات، كأن يقوم المتعلم بعدد معيّن من الاستجابات، قبل أن يحدث التعزيز، وفي هذه الحالة نقول إنه تعزيز بالنسبة الثابتة Fixed ratio r.،

وقد تتغيّر النسبة فيكون التعزيز عشوائياً Random r.، وبعد أي عدد من الاستجابات كيفما اتفق بشرط أن يكون متوسط الاستجابات عدداً ثابتاً أيضاً، وذلك هو ما نقصد إليه بالتعزيز بالنسبة المتغيّرة Variable ratio r.. وقد يكون التعزيز على فترات Interval r.، كأن يكون كل أربع دقائق، فنقول إنه تعزيز بالفترات الثابتة Fixed interval r.، أو يكون على فترات غير منتظمة إلا أن متوسطها أيضاً ثابت وذلك هو التعزيز بالفترات المتغيّرة Variable interval r.. وقد يكون النظام المتّبع في التعزيز خليطاً من نظامين أو أكثر من النظم السابقة، كأن يتوفّر به شرط النسبة الثابتة والفترة الثابتة معاً قبل أن يقوم التعزيز (Mixed schedule).

وتؤكّد نتائج تجارب سكينر وتلاميذه أن التعزيز بنظام الجدول المتقطع أكثر كفاية في التعلّم من التعزيز بنظام الجدول المستمر، وأن جداول التعزيز المتغيّر بالنسبة أو بالفترة أكثر كفاية من جداول التعزيز الثابت بالنسبة أو بالفترة، وأن جداول تعزيز النسبة الثابتة أو المتغيرة أكثر كفاية من جداول تعزيز الفترة الثابتة أو المتغيرة، ومن ثم فمن الممكن ترتيب هذه الجداول أو النظم بحسب كفايتها كالتالي: النسبة المتغيرة فالفترة المتغيرة، والنسبة الثابتة فالفترة الثابتة، وأخيراً التعزيز المستمر.

وقيمة التعزيز r. value هي مقدار ما للموقف من تأثير على احتمال صدور استجابة، لها به إرتباط تعزيز هذا الارتباط أو مكافأته. وإذا كان المعزِّز من شأنه أن يؤدّي إلى زيادة احتمال وقوع الاستجابة أو صدورها، قلنا إن التعزيز موجب Positive r.، والمعزِّز موجب أيضاً، وأما التعزيز السالب Negative r. فهو الذي من شأنه التنفير من إتيان الاستجابة غير المرغوبة بالعقاب عليها مثلاً. والانطفاء Extinction هو الصورة المقابلة للتعزيز (واختصاره الاصطلاحي EXT)، وهو أن لا يكون هناك تعزيز بالمرّة فتتوقف الاستجابة.

ومن النظم أو جداول التعزيز البسيطة نظام التعزيز الفارق Differential r. فتثاب استجابة لمثير معيّن ولا تثاب الاستجابة نفسها من مثيرات

أخرى، أو تثاب إستجابة بعينها ضمن استجابات عدّة لمثير معيّن. وفي التعزيز الشرطي الكلاسيكي Classic conditioned r. نجد أن الطعام والضوء عندما يقترنان تكون لهما الاستجابة نفسها إذا ظهر أيهما وحده كمثير، والتعزيز بهذه الطريقة يقال له التعزيز المتجانس Homogeneous r.، وأما التعزيز المتغاير Heterogeneous r. فكما في التعزيز الشرطي الإجرائي Operant conditioned r.، فالرافعة في صندوق سكينر مثير يستجيب لها الحيوان بالضغط عليها، فيظهر الطعام الذي هو مثير معزِّز يستجيب له الحيوان بأن يسيل لعابه، ونلاحظ أن المثير الأول ليس له استجابة المثير الثاني نفسها بل تغايرها. والتعزيز المشروط Contingent r. هو الذي يتوقف على صدور الاستجابة ويكون ممكناً فقط لو صدرت أو وقعت هذه الاستجابة، أما التعزيز الاتفاقي Noncontingent r. فهو الذي لا يستلزم استجابة بعينها ولكنها أي استجابة، ففي تجارب سكينر فإن نظام التعزيز قد يكون عشوائياً، فإذا صفقت الحمامة مثلاً بجناحيها وحدث أن حبّة قمح نزلت، فإنّ من المحتمل أن تأتي الحمامة هذا التصفيق مرّة ثانية لعلها تنال حبّة قمح أخرى، فلو حدث وتحقق ذلك فإن هذا السلوك يتعزّز وتقوى تلك الاستجابة في الحمامة، ويصفها سكينر بأنها استجابة خرافية، أي انها غير منطقية ولا صلة سببية حقيقيّة بينها وبين المثير، وذلك نفسه يحدث على الصعيد الإنساني، فالبدائي الذي يتصادف نزول المطر إذا رقص، قد يعقد ارتباطاً بين نزول المطر والرقص، ومن ثم فكلما أعوزه المطر قد يرقص ثانية وثالثة، وكلما تحقّق نزول المطر بالصدفة مع الرقص أو بعده، تعزّز فيه هذا السلوك الخرافي Superstitious behaviour، فكأن التعزيز الاتفاقي هذا هو أصل كل سلوك خرافي سواء عند الإنسان أو غير الإنسان، ويُسمَّى أيضاً التعزيز العارض Adventitious r.، لأنه يأتي عَرَضاً وليس قصداً.

والتعزيز المُنتج Reproductive r. هو الذي تزيد به احتمالات صدور استجابة معيّنة بحكم ارتباط هذه الاستجابة بمستدعيات كثيرة، فتكون النتيجة أياً من

هذه المستدعيات يمكن أن يثير الاستجابة. والتعزيز المرجأ .Delayed r في التعلُّم الشرطي الإجرائي يكون بتأخير المكافأة على صدور الاستجابة لبعض الوقت. وقد يقال أيضاً للتعزيز بالفترة المتغيّرة إنه تعزيز لا دوري .Aperiodic r. والتعزيز غير المتناسب .Irrelevant r هو ألا تكون للمثير علاقة بالحالة الحافزة، كما لو قدمنا الماء لحيوان جائع كمكافأة. والتعزيز التسلسلي .Serial r هو المكافأة أو ردّ الفعل المدعِّم الذي يواجه به أداء فعل يتم على حلقات أو في تسلسل بحيث تكون المكافأة على كل جزئية من أجزاء الفعل. والتعزيز النهائي .Terminal r هو مكافأة الفعل عند تمام أدائه بعد القيام بكل جزئياته شريطة أن يكون الأداء بالتسلسل المفترض فيه.

(أنظر أيضاً سيكولوجية الثواب والعقاب).

مراجع:

- Hull, C.L.: Principles of Behaviour.
- Thorndike: Animal Intelligence.

❖ ❖ ❖

- ٦ -
سيكولوجية التنشئة الاجتماعية

التنشئة للأطفال والتطبيع للكبار. التنشئة الأولية. تكوين الضمير أو الأنا الأعلى. دور الثقافة والمؤسسات التربوية والإعلامية. الانضباط الداخلي وتعديل السلوك. دور الإثابة والقدوة...

❖ ❖ ❖

التنشئة الاجتماعية Social upbringing، أو التطبيع الاجتماعي Socialization، إكتساب الفرد للصفات التي يكون بها عضواً نافعاً في الهيئة الاجتماعية، فيكون له السلوك والمعايير والاتجاهات التي يساير بها مجتمعه ويتوافق من خلالها، فيندمج اجتماعياً فيه وينضج إجتماعياً Social maturity، ويشارك في العقل الاجتماعي s. mind وتكون له العقلية الاجتماعية s. mindedness. والتنشئة الاجتماعية تكون للأطفال عملية تشكيل لسلوكهم، وبها

يتحوّلون من كائنات بيولوجية إلى كائنات إجتماعية Social being، لها ذوات إجتماعية s. selves. والتنشئة الاجتماعية تكون أيضاً للراشدين وكبار السن، فهي عملية مستمرة مع دورة حياتنا، ونسميها بالنسبة للراشدين تطبيعاً اجتماعياً. وفي التطبيع الاجتماعي يكون تعلمنا للأدوار المهنية الاجتماعية، والأدوار التي تتوافق مع مراحل أعمارنا حيث نكون آباء ومواطنين وموظفين أو مهنيين. والتنشئة الاجتماعية سواء للأطفال أو للراشدين هي عملية تعلّم إجتماعي Social learning، يتعلّم فيها الفرد - من خلال التفاعل الاجتماعي Social interaction - أدواره الاجتماعية Social roles وما يناسبها من معايير. وهي عملية نمو مطرد، ففي الطفولة يكون تعلمنا للغة، ومن خلالها يتنامى فينا فهمنا لذواتنا، ثم يبدأ استدخالنا للمعايير الاجتماعية s. norms وتعلمنا للأدوار من خلال الجماعة الأولية، وهي الأسرة، والصِّحاب Peer group، ثم في المراهقة تكون لنا جماعات مرجعية جديدة، وتتغير فينا باستمرار مفاهيم الذات، وننطبع بالطابع الاجتماعي Character .s من خلال مؤسسات إجتماعية s. institutions كالمدرسة والجامع، وعن طريق وسائل الإعلام كالتليفزيون والصحيفة. ويطلق البعض على التنشئة الاجتماعية في الطفولة إسم التنشئة الأولية Primary s.، في مقابل التطبيع الاجتماعي للراشدين Adult socialization. وفي الطفولة نتعلم المتطلبات الأساسية للسلوك والمهارات التي بها يمكن أن نتعامل بذكاء مع مختلف المواقف التي تتغير بتغير الأيام، ونتعلم من اللغة الكلمات التي نستطيع بها أن نؤثّر في سلوك الآخرين وأن نتأثر بها لنعدّل أو نغيّر من سلوكنا، ونفهم أن هذا النمط من السلوك موافق عليه بينما ذاك مستهجن، ونستدخل ذلك فتكون لنا القيم والمعايير الاجتماعية التي تشكّل فينا الأنا الأعلى The super-ego، وتكون لنا بمثابة الضمير Conscience والكابح للرغبات غير المشروعة أو غير المرغوب فيها. والهدف من عملية التنشئة الاجتماعية في الطفولة أن نستبدل السيطرة التي تُفرَض علينا من خارجنا بسيطرة داخلية تضبط سلوكنا وتوجهنا

من داخلنا. وهذا الاستدخال للقيم والمعايير الاجتماعية هو الذي يستحدث فينا التنظيم وتنطبع به الذات. ونحن نستدخل الاتجاهات الاجتماعية .s attitudes ونتصرف بناءً عليها، أو قد تغيّر من سلوكنا فتكون لنا اتجاهات تتوافق مع هذا التغيير. وتغيير السلوك أو استدخال الاتجاهات والتشكُّل الاجتماعي Sociomorphism يتم بناءً على نظرية التعلّم الاجتماعي، وهي التي تقضي بأن يكون الاستدخال بحسب ما نتوقع من ثواب أو مكافأة على أي سلوك متوقع في المستقبل وتدفع إليه تلك الاتجاهات المستدخلة، ومن ثم فإن الرغبة في تحصيل الثواب أو المكافأة وتجنّب العقاب تجعل من التصرف الممكن الذي زمانه المستقبل واقعاً حاضراً نحققه بما نستدخل. ولا ينضبط سلوكنا ذاتياً إلا عندما يكون تجاوبنا مع المواقف المختلفة تجاوباً ليس توقعاً لثواب أو تجنباً لعقاب خارجيين، ولكنه من داخلنا. ونحن نعيش بهذا الانضباط الداخلي في أزمات نفسية حقيقية إذا فعلنا عكس ما تعلمنا إجتماعياً. ولا تزول الأزمة النفسية إلا بتعديل السلوك بما يناسب المعايير الاجتماعية. وينضبط السلوك ذاتياً عندما تكون لنا الاتجاهات النفسية الاجتماعية التي تجعلنا نختار من الصحاب من يعزز فينا السلوك المثيب. والشخصية السوسيوباتية Sociopathic هي المعتلة إجتماعياً كما في أحوال السلوك المضاد للمجتمع، والتنشئة الاجتماعية ليست دائماً إنطباعاً إجتماعياً ولكنها أيضاً مشاركة إجتماعية s. participation، ومع أن السلوك ينضبط ذاتياً بتأثير المجتمع إلا أن من شأن هذا الانضباط أن يجعل المنضبط بجهاز طابع بعد أن كان بجهاز مطبوع، ومن ثم فانطباعه التأثري يتحول إلى طابع تأثيري ويتقلد من الأدوار الاجتماعية الفاعل النشيط الذي من دأبه التأثير في البيئة. ونحن في الطفولة خلال التنشئة الاجتماعية الأولية قد نتبادل مع الأبوين التأثر والتأثير، ونَعلَم جميعاً بالخبرة أن الأطفال يؤثّرون بشدّة في ذويهم ويغيّرون من الكثير من اتجاهاتهم وسلوكياتهم. وحبّ الاجتماع Sociophile هو سمة الشخصية التي لا تستغني عن الاجتماع

بالناس. ويطلق على الكائن المشارك في العلاقات الاجتماعية إسم «الاجتماعي socius». ورهبة الاجتماع Sociophobia هي المقابل لحب الاجتماع، وتفرض على صاحبها العزلة.

وتنتقل الثقافة والأنماط الثقافية في الطفولة بخاصة، وهي فترة تحصيل التعلم، إلا أن التعلّم عملية مستمرة طوال العمر كما قلنا، والثقافة التي ينشأ الفرد في إطارها تؤثر في شخصيته، وتطبعها بطابعها، وتحدّد سلوكياته ومعاييره، ويتعلم منها أدواره الجنسية وأدواره الأخرى المتمشية مع مراحل عمره. وهناك ثقافات مفتوحة Open cultures، وثقافات منغلقة Closed cultures جامدة، والأخيرة تؤثّر بالسلب على نمو الشخصية وينعكس تعقيدها عليها. وللثقافة أجهزة ومؤسسات تربوية واجتماعية وثانوية ودينية بالإضافة إلى وسائل الإعلام، وتشارك جميعها في عملية تعليم الفرد ثقافياً بدرجات متفاوتة، إلا أن من الممكن أن تتعارض تأثيراتها فيه فتجعل له اتجاهات متصارعة.

وهناك من البحوث الكثيرة ما يثبت أن السلوك غالباً ما نحكم عليه بنتائجه، وأن النتائج الطيبة تجعلنا نكرّر السلوك المثيب الذي يستحسنه الناس وله مردوده الحسن على صاحبه، بينما ما نُعاقَب على فعله، أو ما يكون منه الوبال على صاحبه، فإن الأعم أن لا نأتيه مرة أخرى، ولذلك تلجأ المؤسسات التربوية والمعنية بأمور التنشئة الاجتماعية، كالأسرة والمدرسة وغيرهما، إلى هذه القاعدة فتتخذها أسلوباً لتعزيز ما تراه من أنماط سلوكية سوية فتثيب عليها، بينما تعاقب مادياً أو معنوياً على السلوك غير السوي لتطفئه. ويتعلم الناس وخصوصاً النشء من ملاحظة تطبيق هذا الأسلوب على الآخرين، فينضبط سلوكهم بالعدوى. ولو تُرِك الأمر في التنشئة إلى ملاحظة نتائج السلوك والتعلّم من المحاولة والخطأ وحدهما لكانت عملية شاقة بالنسبة للأفراد، ولكن المؤسسات الاجتماعية المختلفة تأخذ على عاتقها التوعية والتوجيه والوعظ والإرشاد. ولو أن ذلك ارتبط مع الإثابة على السلوك السوي وعقاب السلوك غير السوي، لكانت الفائدة أكبر ومردود التنشئة الاجتماعية

أعظم. وللقدوة دور في تعزيز الأنماط السلوكية والاتجاهات والمعايير المطلوب تعزيزها، وذلك لأن مشاهدة آثار ذلك على القدوة، بما ينال سلوكه من ثواب أو عقاب، يسرع بعملية التعلم الاجتماعي، ونقل ما تهدف المؤسسات الاجتماعية إلى نقله، أو تعديل ما تتوخّى تعديله، من خلال التأثير المشترك للقدرة والإرشاد والتعزيز المتمايز.

مراجع:

- Bandura, A.: Principles of Behaviour Modification.
- Goslin, A.: Handbook of Socialization, Theory and Research.

❖ ❖ ❖

– ٧ –
سيكولوجية حلّ المشاكل

السلوك المُشْكل. للحيوان أفكاره العملية. سلوك إتخاذ القرار. التفكير الابتكاري. خطوات حلّ المشكلة. الأسلوب المعرفي وأثره في حلّ المشاكل. أساليب الحل المختلفة...

❖ ❖ ❖

قد يبدو أننا نعايش التحديات باستمرار، وأن الوجود نفسه سلسلة متّصلة من المُشْكلة التي نواجهها ولا بد من أن نعثر على الحلول المناسبة لها، وقد يوفق بعضنا، وكثيراً ما نفشل ونحاول من جديد، وقد يترتب على ما نصادفه من إحباط أو فشل أننا نصاب بمختلف الأعراض العُصابية التي نحاول بها أن نتوافق مع عجزنا عن حلّ ما نتعثّر به من مشاكل وصعوبات. والسلوك المُشكل Problem behaviour هو السلوك المضطرب الذي يصدر عن اعتلال نفسي Psychopathy، والذي ينبئ عن سوء توافق Maladjustment، وقد يوصف لذلك بأنه سلوك غير متوافق Maladjusted، أو سلوك لاإجتماعي Non-social، أو مضاد للمجتمع Antisocial. والطفل المشكل Problem child هو الذي له مثل هذا السلوك المشكو منه مِن قِبَل

أبويه ومعلميه وزملائه. وسلوك حَلّ المشكلة Problem-solving behaviour يبدو لذلك من المجالات التي يتعرض لها علم النفس بالبحث، وقد بدأ الاهتمام به في نهاية القرن الماضي، ويذكر أنه كانت للويد مورجان Morgan (١٨٥٢ - ١٩٣٦) تجارب على الكلاب، خلص منها إلى أن الحيوانات تتبع في سلوك حلّ المشكلة طريقة «التعلّم بالمحاولة والخطأ trial-and-error learning» (١٨٩٤)، ثم أكّد ثورندايك Thorndike (١٨٧٤ - ١٩٤٩) هذه النتيجة (١٨٩٨). وذهب آخرون وجهة أبعد من ذلك باعتبار أن الحيوان له «أفكاره العملية»، كما أسماها هوبهاوس Hobhouse (١٩٠١)، ويعرّفها بأنها مجموعة من المجاهدات التي يحاولها الحيوان ليغيّر من مكونات الموقف لصالحه. ويبدو أنه بعد ثورندايك لم يلتفت أحد لدراسة عمليات حل المشكلة مثلما كان الاهتمام بالإدراك والتعلم والدافعية والشخصية، وبدأ مؤخراً في الخمسينات فقط التفكير في سلوك حلّ المشكلة والاهتمام به، وبما يمكن أن يتعلق به من مقولات مشابهة مثل عملية إتخاذ القرار Decision making process، وكذلك العمليات التي يتضمنها التفكير الابتكاري Creative thinking. وقد تبدو هذه المجالات الثلاثة ملتبسة باعتبار أن اتخاذ القرار هو نفسه التوصل إلى حلّ لمشكلة قائمة، وأنه في عملية الابتكار يستهدي المبتكر إلى ما يتوصل إليه كحلّ يتسم بالجِدّة لمشكلة ربما كان إحساسه بها أكثر من غيره. وكذلك قد ننبّه إلى أنه في المجالات الثالثة لا بدّ أن يتواجد الدافع، وأن يكون هناك تحديد للمشكلة، وأن نفترض الحلول لها، وأن نجرّب هذه الحلول. والوعي بالمشكلة وتحديدها ييسِّر التفكير في الحلول المختلفة. وما لم يوجد الوعي بالمشكلة فليس ثمة مشكلة أصلاً. ومن رأي الجشطلتيين Gestalt psychologists أنه ما من سبيل لحل المشكلة إلا إذا كان هناك استبصار Insight بأبعادها، وتنظيم جديد لمكوناتها، وأن النظر إلى المشكلة كما هي بعد تنظيمها تنظيماً ييسر فهمها أهم من أن تكون لنا بها خبرة سابقة. والقرود في تجارب الجشطلتيين بإدراكها للمواقف والعلاقات بين أجزائها، تعيد

بهذا الإدراك صياغتها فيكون استبصارها للحل. وتختلف الطريقة الجشطلتية عن طريقة الترابطيين Associationists في التعامل مع المشاكل. وعند الترابطيين فإن حلّ المشكلة يستلزم الاستعانة بالخبرات السابقة وما تعلمناه من مفاهيم ومبادئ، ومخزون الاستجابات السابقة التي قد نختار منها ما نظن أنه يناسب الموقف أو المشكلة، ويحكمنا في ذلك ما يسمونه انتقال أثر التعلم، ويُقصَد به استخدام ما قد تعلّمناه، ربما في حجرات الدراسة أو في غيرها بحيث نفيد منه في الحياة بعامة. وربما استلزم لحلّ شكله أن يكون الشخص نفسه على مستواها، ذكاءً ومعرفةً. ولمكونات شخصيته كذلك تأثيرها على سلوك حلّها. ولكل منا أسلوبه المعرفي Cognitive way في التعامل مع المشاكل، فالبعض قد يكون جامداً، والبعض قد يكون مرناً، وقد تكون لنا العقلية المتفتحة أو المنغلقة، وقد نميل في تعاملنا مع المشاكل إلى استخدام الأسلوب التحليلي، وقد يستهوينا أكثر الأسلوب الشمولي، وقد نلجأ إلى ستراتيجية المسح Scanning، بينما قد يفضل آخرون ستراتيجية الجزئية. وبعضنا قد يكون تأملياً، أو مندفعاً، وقد نميل إلى المبالغة وتهويل الأمور، وأن نصنع من الحَبّة قُبَّة كما يقول المثل الجاري، أو قد نميل إلى تصغير المسائل والتخفيف من وقعها والتسامح مع مقتضياتها. وربما يمتدّ تقبّلنا للأمور حتى لنتغاضى عمّا يكون غامضاً، وبعضنا لا يتسامح مع الغموض ويسعى إلى الوضوح ويستجلي كل شيء، وقد نسمع أو نرى ما لا نوافق عليه أو ما يتعارض مع مبادئنا أو معارفنا فنسكت عنه، أو نرفضه ولا نوافق عليه. وافتراض الحلول Hypothesizing solution خطوة تالية وتترتب على استبصار المشكلة وتنظيمها بالشكل الذي ييسِّر التعامل معها. ويبدو أن عملية إفتراض الحلول لا تتهيأ إلا للأشخاص الذين يتدربون عليها ويأخذون بها أنفسهم منذ الصغر. ويقول علماء النفس بطرق كثيرة لافتراض الحلول، ومن ذلك الطريقة اللوغاريتمية Algorithmic method، وهي أن يأخذ صاحب المشكلة نفسه بحل وحيد لها

يتابعه على خطوات، والطريقة الكشفية أو التنقيبية Heuristic method فيما يسمى تحليل الوسيلة الغاية Means-end analysis، بأن نقارن بين ملابسات الموقف أو عناصر المشكلة بوضعها الحالي، وبين ما ينبغي أن يكون عليه الموقف أو أن تنتهي إليه المشكلة من حلول، وأن نحدّد الفروق والنواقص، ونجرّب إزالتها، ونسدّها الواحد تلو الآخر إلى أن نبلغ تمام حلّ المشكلة أو ما يقاربه. وهناك طريقة كشفية أو تنقيبية أخرى هي طريقة إيجاد خطة Make-a-plan، بأن نتخيّل مشكلة أخرى على منوال المشكلة الأولى، غير أنها أقل حجماً وأبسط، فنفكر في الحلّ لها، ثم نتابع الطريقة نفسها التي استخدمناها في حلّ المشكلة الأبسط لحلّ المشكلة الأعقد. وبديهي أن يأتي الحل للمشكلة نتيجة إدراك لأبعادها ومكوناتها، وتفيد في ذلك أية معلومات تضاف إلى معلوماتنا عنها وخبراتنا السابقة، غير أنه قد تعوق الخبرة السابقة حلّ المشكلة بالتزامنا لأفكار قد نرى أن لها علاقة بالمشكلة وهي ليست كذلك، والكثير من المشاكل لا نستطيع مواجهته بإيجابية نتيجة أخطاء في التقدير أو التزام أفكار نجمد عليها، أو نتيجة لعادات واتجاهات جامدة. وربما نعجز عن إيجاد الحلول للمشاكل نتيجة أن العناصر الداخلة في المشكلة قد اعتدنا على التعامل معها بطريقة معيّنة، أو فهمها على وضع معيّن، أو كما يقولون نتيجة تثبيتنا لها وظيفياً Functional fixation. وينبغي أن يأتي الافتراض للحل محدّداً بحيث يمكن تجربته بنجاح أو يثبت فشله، وأن تتوفر الحلول البديلة. والتفكير في الحل مرحلة من عملية إيجاد الحل للمشكلة، وربما تكون بمثابة مرحلة يكون فيها تجميع الانتباه والأفكار، «والتفكير بصوت عال Think aloud»، وتسبق لحظة التنوير أو استبصار الحل. وما من سبيل للجزم بجدوى أحد الحلول إلا بتجربته. وتتحصل مصداقية الحلّ من خلال التجربة وبما يكون لها من نتائج. واختبار فروض الحل عملية قد يطول أمرها، واستلزمت مثلاً من إديسون السنوات ليجد الحلّ لمشكلة احتراق المواد التي كان يستخدمها في الإضاءة بالكهرباء، وقد جرّب العشرات من

المواد، ومن ذلك الكربون، والبلاتين، والسليلوز، والفلين، والقش، والورق إلى أن اهتدى أخيراً إلى التنجستن.

مراجع:

- J. Dewey: How We Think.
- Van de Greer: A Psychological Study of Problem Solving.

❖ ❖ ❖

- ٨ -
سيكولوجية الدوافع

لكل سلوك دافع، والدوافع تتنوع. مبحث دوافع السلوك والنظريات فيه عند فرويد ومكدوجال ويونج. نظرية الحوافز. الحافز والباعث والمكافأة والعقاب. مبدأ اللذّة والألم. الإرادة والحالات الانفعالية والدافعية...

❖ ❖ ❖

لكل سلوك غرضي دافع Motive يحضّ عليه ويعمل على استمرار نشاطه، ودوافع السلوك قد تكون شعورية Conscious ms. يعيها صاحب السلوك، وقد يصدر سلوكه عن غير وعي Unconscious ms. ببواعثه ودوافعه. وهناك دوافع شخصية Personal ms.، ودوافع إجتماعية Spcial ms.، ودوافع من الثقافة والبيئة Environmental or cultural ms.، ودوافع فسيولوجية Physiological ms. ومن الدوافع للسلوك ما قد يكون نوايا، أو مصالح، أو غايات، أو آمالاً وطموحات، أو إتجاهات نفسية، أو رغبات، أو معتقدات وأفكاراً، أو قيماً، أو عادات، أو إنفعالات، ويستثني البعض الحركات العشوائية، والسلوكيات المرضية، والأفعال غير الهادفة التي لا تخدم غرضاً وليست لها غاية، ومن رأيهم أن السلوك لا يكون كذلك إلا إذا كان له دافع Motivated.

ومبحث دوافع السلوك Motivation research: هو العلم الذي يبحث في الدوافع كمبحث من مجالات البحوث النفسية، مثل البحث في الإدراك أو الإحساس أو التفكير. وتهم الباحث فيه الناحية العلمية، فالمدرس يحتاج أن

يعرف دوافع إقبال تلاميذه أو عزوفهم عن دروسه، ومن التلاميذ من يكون دافعه للتحصيل التفوق، ومنهم من يكون مدفوعاً بأسباب مادية، كأن يكون طامعاً في مكافأة أو تكريم علمي. ويحتاج القاضي في أحكامه أن يتعرف إلى دوافع المجرم الذي ينظر قضيته، وشتّان بين متّهم يقتل عن عمد وسبق إصرار وترصُّد، ومتّهم قد صدر منه الجُرم بالصدفة أو في لحظة ضعف، وربما بعد أن استثير بشدّة، وقد يكون ارتكابه للجُرم دفاعاً عن النفس أو المال أو العرض. ومبحث الدافعية من المجالات التي يرتادها المتخصّصون في الإعلانات التجارية، والدعاية للمنتجات التجارية والصناعية، ويحتاجون بشأنها أن يتعرّفوا إلى دوافع الجمهور عند الشراء فيعملون على تلبية متطلباته في الذوق والتكلفة وأغراض إنتاج السلعة.

ويبحث المهتمون بالدافعية فيما يكون عليه النشاط وقت الاستثارة، والشكل المنتظم الذي يكون عليه هذا النشاط وقت صدوره وفي توجهه نحو هدفه. وقد يكون هذا الشكل المنتظم سلوكاً «بالسلب» أي ليس فيه إقدام، ويتسم بالإحجام Avoidance motive. وربما يكون سلوكاً «بالإيجاب»، أي فيه الإقدام Approach motive وليس الإحجام. والدافعية عملية نشيطة ومستمرة طوال الحياة Conjunctive motivation. ونحن دائماً وأبداً لنا دوافعنا التي تحدّد وتوجّه سلوكنا. وتتغير الدوافع أو تتبدل، ويحلّ بعضها محل بعض، ويريح بعضها البعض Affiliative motives، ولكنها موجودة دائماً وأبداً عبر مراحل العمر. وقد تتآلف الدوافع وتتآزر، أو تختلف وتتعارض وتتصارع، وتصنع معاً مدرجاً هرمياً Motivational hierarchy، في قاعدته توجد الدوافع الأولية ثم الدوافع الثانوية.

ودراسة الدوافع من الدراسات النفسية الحديثة نسبياً، ويُذكر أن أول دراسة علمية فيها كانت دراسة عالم النفس الأمريكي روبرت وودورث Woodworth سنة ١٩١٨ في كتابه «علم النفس الديناميكي Dynamic Psychology»، وهو يجعل الدافعية علماً يطلق عليه إسم علم الدافعية

Motivology. ومن الكتب الأولى التي تخصّصت في الدافعية كتاب يونج Jung «دافعية السلوك Motivation of Behaviour» (١٩٣٦).

وهناك نظريات كثيرة في الدافعية، فطبقاً لاسمها فإن الدافعية هي الحركة Motion باعتبارها سلوكاً، ومن وجهة النظر الفيزيقية هي عملية إستحداث الحركة وتنظيمها من خلال إطلاق الطاقة في الأنسجة، واستثارة السلوك نتيجة تنبيه معيّن هو عملية معقّدة من التحويل للطاقة، تتضمن سلسلة من العمليات الجسمية المتفاوتة في البساطة والتعقيد بحسب موضع الكائن الحي في سلسلة الترقّي. والدافعية من وجهة النظر الفسيولوجية هي عملية استثارة من المنبهات الخارجية والداخلية للأعصاب الحسّية، وصدور للسلوك كنتيجة لذلك. والدافعية من وجهة النظر الاجتماعية هي عملية تأثّر الفرد ببيئته الحضارية، فهي التي تقرّر طبيعة نشاطاته وصراعاته وتصنع سمات شخصيته. ولمحددات السلوك الحضارية والاجتماعية وجودها الموضوعي مثلما لها وجودها المادي.

وتشير مفاهيم مثل الاتجاهات Attitudes، والميول Tendencies، والعادات Habits، والعواطف Emotions، والرغبات Desires، والحوافز Incentives، والبواعث Drives، والاهتمامات Interests، والحاجات Needs، إلخ، وهي من المحددات البيئية، إلى نواحٍ مختلفة من الدافعية. والدافعية من وجهة النظر الدينامية عملية يتكون بها السلوك باعتباره محصلة تدافع قوى متعارضة تريد لنفسها الإشباع دون بعضها البعض، ويتوقف نمط السلوك على قدرة الكائن على التوفيق بين القوى المتدافعة التي تحفز إلى السلوك. والكثير من سيكولوجية الدوافع يقوم على مفاهيم علم النفس الدينامي Dynamic psychology، وعلى نتائج التحليل النفسي Psychanalysis التي قدّمها فرويد وأتباعه. وكان فرويد من القائلين بالغريزة Instinct، ويذهب الاتجاه الغريزي Instinctual attitude في الدافعية Motivation إلى تفسير السلوك باعتباره نتاجاً لعمليات من توليد الطاقة وتوجيهها وجهة معيّنة. وكان مكدوجال McDougall

(١٨٧١ - ١٩٣٨) يجعل الغرائز غرضية لها غاية وهدف، ومن ذلك غريزة الأبوة مثلاً، أو غريزة التناسل. والغريزة عند فرويد لها مصدر كما أن لها هدفاً وموضوعاً، ومصدر الغريزة هو حالة الاستثارة أو التوتر داخل الجسم، والهدف هو إزالة التوتر، والموضوع هو ما يكون به تحقيق الغريزة وإشباعها. ومعنى أن الغريزة تستهدف إزالة التوتر أنها تتوخى الإشباع الذي به يصل الجسم لحالة التوازن. ولو كانت الدافعية قد اقتصرت على الاتجاه الغريزي لتجمد البحث فيها، إلا أن السلوكيين Behaviourists إنتقدوا الاتجاه الغريزي، وذهبوا إلى تفسير السلوك مذاهب شتى. ومن ذلك أنهم قالوا بالأفعال المنعكسة Reflexes كأصل لكل سلوك، وبالحاجات والحوافز والبواعث، وذكروا في معرض هذه الدوافع مبادئ مثل مبدأ اللذة والألم Pleasure-pain principle باعتبار أن كل الكائنات الحيّة ينحو سلوكها إلى خفض توتراتها بتجنّب الألم وطلب اللذة. وغير ذلك ذهب إليه السلوكيون، ونلاحظ أن ما قالوا به جميعاً يستقي تقريباً من مصدر واحد، وهو وجود استعدادات فطرية موروثة تدفع إلى السلوك وتوجهه وتحدّده. ويتميّز في الجدل القائم حول الدافعية الاتجاه الإيتيولوجي Etiologic الذي يقوم على إرجاع السلوك الغريزي لآليات فسيولوجية تدفع إليه، وحتى إذا لم توجد الأهداف العادية أو المواقف التي تستثير هذا السلوك، فإن الكائنات الحيّة سوف تستمر في تفريغ سلسلة نشاطاتها وكأنها توجهها نحو موضوعات حقيقية أو مواقف بديلة غير مناسبة، بمعنى أن النشاط الذي لا يتم تفريغه يستحيل إلى نوع من الدوافع. وتقوم نظرية الحوافز Incentives في الدافعية على فكرة أن الحافز مصدر للطاقة، فالإفراز الهرموني الجنسي مثلاً عندما يزيد هو حافز جنسي يحفز الكائن الحيّ أن يحقّق لنفسه الإشباع الجنسي عن طريق شريك فيعود التوازن للجسم. ويفترض البعض أن كل صور الإثابة تقوم في النهاية على خفض حافز عدم التوازن، فمثلاً تعمل إثابة الطعام على خفض عدم التوازن الذي يسبّبه الجوع. ويتعلم الكائن الحيّ أن يأتي باستجابات

معيّنة كي يحصل على الإثابة. وقام حديثاً إتجاه يهتم بالمصادر الخارجية Extrinsic للدافعية اهتمامه بالمصادر الداخلية Intrinsic التي أهمها التوازن Equilibrium، فمثلاً الطعام وظيفته أنه إثابة، وهو في الوقت نفسه باعث Incentive، أي أنه يخدم أيضاً في إثارة الدافعية. والفرق بين الحافز والباعث أن الحافز طاقة فسيولوجية تحفز على الحركة، والباعث منبّه خارجي. والدوافع تصدر عن حاجات، والحاجة Need على ذلك لها دافعية، والحاجات منها الأولى أو الفسيولوجي، كالحاجة للطعام، ومنها حاجات اجتماعية أو نفسية يكون بها الانسان إجتماعياً أو يكون بها نفسه. وإشباع الحاجة باعث، فإذا كان الجوع دافعاً نفسياً فإن حركة البطن وتقلصاتها المترتبة على الجوع هي حافز، والشخص الجائع تكون به حاجة إلى الطعام، وأما الطعام نفسه فهو باعث للشخص على أن يسعى للطعام فيتناوله. وللطعام مثلاً شهوة Appetite، ويعني اشتهاء الطعام أن بالفرد رغبة Desire فيه، وللشهوات Appetites أو الاشتهاءات، وكذلك للرغبات، دافعية. ونقيض الشهوة النفور Aversion. والشهوة أو الاشتهاء يتطلبان سلوكاً إقبالياً Adient Behaviour، بينما النفور يوجب سلوكاً إحجامياً .Abient b. وللبحوث في دافعية البواعث نتائج مؤثّرة في توجيه التعليم. والبواعث قد تكون سلبية وقد تكون إيجابية، فوجود أسد في موقف قد يبعث على الهرب (سلب)، بينما كلمة تشجيع من مدرس قد تبعث على المذاكرة (إيجاب). ومن نتائج بحوث البواعث أن الهدف المحدّد يبعث أكثر على العمل، وكذلك الوعي بالنتائج المرجوة للعمل، فالذي له هدف يعمل بهمة أكثر ممن يعمل ولا يعرف لنفسه هدفاً، والذي يدرك نتائج عمله، ويستمع للمحاضرات فيه، ويشارك في المناقشات حوله، خير ممن يجهل مترتبات مما يعمل ولا يشارك في المناقشات. وكذلك فإن امتداح العمل والتشجيع عليه والنجاح فيه يؤكّد الثقة في النفس، فتسهُل الأمور على العامل، ويتيسر له التعلّم والأداء معاً، على عكس تثبيط الهمة وتوجيه اللوم والنقد والفشل.

والمكافأة والعقاب Reward and punishment دافعان للسلوك. وتعزّز المكافأة نمط السلوك الذي كانت به المكافأة، أما العقاب فله نتائج وخيمة، ومنه العقاب الخفيف الذي ينبّه إلى الخطأ، والعقاب المعتدل الذي يبعث على أن نتنكبه، والعقاب الشديد الذي يتسبّب في اضطراب نفسي وحالة من الهياج يطيش فيها التعلم ويضل الأداء، إلا أن شدّته تجعل من يقع عليه لا يكرر الخطأ الذي تسبب فيه. وكان فرويد يقول بمبدأ اللذّة الذي سبق التنويه عنه باعتباره موجهاً للسلوك، وعنده أن الإنسان يميل إلى تكرار وتأكيد السلوك الذي تتحصّل له به اللذّة، ويتجنّب كل ما من شأنه أن يعود عليه بالألم. وقديماً كان مذهب اللذّة Hedonism من المذاهب الكبرى في الفلسفة، بمعنى أن كل إنسان يميل إلى أن يأتي من السلوك ما يعطيه اللذّة ويكون به شعوره بالمتعة، وهو المذهب الذي حدا بفيلسوف مثل هيربرت سبنسر Spencer (١٨٢٠ - ١٩٠٣) إلى أن يقول بمبدأ اللذّة والألم Pleasure-pain principle، باعتبار أن اللذّة والألم يصدر عنهما كل سلوك.

ولعل ذلك أيضاً هو ما دعا ثورانديك Thorndike (١٨٧٤ - ١٩٤٩) إلى أن يقول بقانونه المسمّى قانون الأثر Law of effect، فأنماط السلوك التي تتعزّز بمقتضاه هي التي لها آثار مشبعة. ولو طبقنا وجهة نظر المجال عند ليفين Lewin (١٨٩٠ - ١٩٤٧) على قانون الأثر أو مبدأ اللذّة لقلنا إن كل سلوك مشبع له جاذبية Valence، وجاذبيته هي دافع لتكرار السلوك. وليفين عندما يؤكّد على الحاجة كدافع للسلوك يؤكّد على قيمتها النفسية، فالحاجة إلى الطعام مثلاً ليست حاجة أولية بل نفسية، لأن للطعام عند الجائع قيمة نفسية وليست مادية، ولذلك يرى ليفين أنه حتى الميول والرغبات هي شبه حاجات Quasineeds، ولها قيم نفسية كالحاجات، ومن ثم دوافعها السلوكية هي دوافع نفسية.

وقد تكون العادات Habits دوافعاً للسلوك، إلا أن العادة تختلف عن الدافع، فالعادة نمط من السلوك المكتسب والمختزن الذي يُستدعَى عند الحاجة، ورغم أن العادة موجودة دائماً وكامنة فإن استدعاءها يكون على فترات، وكمون

العادة واستثارتها ليس فيه توتر، بعكس الدافع فهو وإن كان كامناً أحياناً، فالكائن يظل متوتراً به إلى أن يتحقّق له الإشباع، فإذا أُشبع زال أثره وتوقّف عن التأثير، وأما العادة فممارستها لا تعني أنها قد زالت وانتهت.

وأما علاقة الإرادة Will بالدوافع، فالإرادة تعني التصميم والاتجاه نحو فعل، وبمقدار التصميم تكون قوّة الإرادة أو ضعفها. والإرادة هي أن يقرّ قرارك على شيء وتختاره دون أمور أخرى، ومعنى ذلك أنه في الإرادة تتراوح المريد دوافع كثيرة، وربما يقوم الصراع بينها، وعلى المريد أن يختار بينها، وأن يفاضل بين كل الدوافع. والاختيار والمفاضلة يعنيان التفكير، والتدبّر، والتعلم من المحاولة والخطأ، ومقارنة التوقعات لبلوغ قرار ما. غير أنه في القرارات الإنسانية لا تكون كل الدوافع ظاهرة، فهناك الدوافع الدفينة .Internal ms التي تعمل عملها في الإرادة والاختيار واتخاذ القرار، فإذا اخترنا وقرّ قرارنا فإننا نمهر في تبرير اختياراتنا. والتبرير Rationalization، والإسقاط Projection، والتعيّن Identification، والكبت Repression، والتسامي Sublimation والترميز Symbolization، إلخ، من الدوافع اللاشعورية التي يرجع فضل الكشف عنها لفرويد، وإن كانت لا ترجع لفرويد تماماً وإنما كان التوسع في استخدامها وتأكيد دورها من أهم إسهاماته في مجال الدافعية. وفرويد من القائلين بأن: كل سلوك لا بد له من دافع وإن خفي علينا، وحتى زلّات اللسان، ونسيان الأشياء والمواعيد، والغفلة عن أشياء، والغفلة التي تتسبب في الحوادث، والحركات العفوية، والأحلام، وأحلام اليقظة، وشطحات الخيال؛ تصدر جميعها عن دوافع لاشعورية، ونحقق من خلالها ما لم نستطع تحقيقه بالوعي، وفي اليقظة والانتباه، فإذا كانت تأتينا أحياناً رغبات لا نرضى عنها، أو نخاف أن نعلنها، ومن ثم نكبتها، فإنّ كبتَنا لها لا يعني انتهاءها، بل تظل في اللاشعور وتؤثّر في السلوك، وقد تظهر كأعراض سلوكية مرضية، فيكون الخوف المرضي أحياناً من أشياء لا داعي للخوف منها إطلاقاً، أو قد تتملكنا بسببها أفكار تستحوذ على عقولنا

وتعوق تفكيرنا وتكيّفنا مع الواقع، وقد نعي الأعراض أو ينبهنا إليها آخرون، ولكننا لا نعي الدوافع التي خلفها والتي استثارتها وكانت السبب فيها. وليس التبرير إلا محاولة لإضفاء المعقولية على السلوك وإظهاره بمظهر التوافق. ويهدف التحليل النفسي إلى تبصير المريض بدوافعه المكبوتة وصراعاته، بأن يعايش من جديد خبراته الصادمة التي أظهرها التحليل، وبذلك ينفّس عن توتراته ويستعيد توافقه.

ويمكن أن تكون الحالات الانفعالية دوافع في بعض الأحيان، وقد تصاحب الدوافع، فالجوع مثلاً دافع، ومن الجوع يكون الضيق والعصبية. والجائع في سعيه إلى الطعام وفي توقعه له قد يستشعر إنفعالات معيّنة، وإذا اعترضته عوائق ربما ثار واحتدم غضبه، وإذا ما تجاوز العوائق فقد يسعد لذلك ويبتهج. والخوف إنفعال ودافع، وهو انفعال لأن الخائف يتوتر وقد يندفع إلى الهرب، وقد يكون خوفه من النوع الحاد المرضي كالخوف من الخلاء، أو من الأماكن العالية، أو الأماكن الضيقة. وتؤثّر المخاوف المرضية على السلوك وتكون دوافعاً قوية تطبع حياة الخائف بطابعها المرضي. والقلق كذلك دافع وإن اختلف عن الخوف، لأن الخوف يكون من موضوع بعينه، وأما القلق المرضي فهو من كل شيء ومن لا شيء، والقلق المرضي هو هذا القلق الهائم أو القلق النفسي، ويُرجعه أصحاب التحليل النفسي إلى خبرات الولادة والانفصال في الطفولة عن الأم، وحالة الإهمال والحرمان العاطفي للطفل. والغضب إنفعال مصاحب للدافع يستثير العدوان. ويتسبّب الفشل والإحباط في الغضب. وقد يتوجّه الغاضب بعدوانيته إلى نفسه. والانفعالات الحادة عموماً تقلل من كفاءة الفرد وقدرته على التعامل مع المواقف المختلفة وتعطّل التفكير وتفسد الأداء. ويتميز بعض الأفراد بانخفاض تحمُّلهم للإحباط، فإذا استثيروا فقد يلجأون إلى الانتحار على أن يستمروا في حياة فاشلة، وقد يصيبهم الاكتئاب الشديد. ويفسّر العلماء السلوك السيكوباتي بتأثير خبرات الطفولة الانفعالية الصادمة. ومن الواجب

إستشارة الأخصائيين النفسيين في أمثال هذه الحالات.

ومن الممكن تغيير الدوافع والاتجاهات، ونحن نغيرها فعلاً باستمرار خلال مراحل الحياة كما ذكرنا، إلا أن بعض الدوافع والاتجاهات المريضة لا يسهل تغييرها إلا بالعلاج النفسي. والدوافع التي يمكن تعديلها هي الدوافع الاجتماعية، لأن الدوافع الأخرى والمسماة بالفسيولوجية دوافع أساسية يكون بها بقاء الإنسان واستمراره في الحياة، وأما الدوافع الاجتماعية فهي دوافع مكتسبة وليست فطرية. والدافع الاجتماعي دافع يثيره ويشبعه أن يكون الشخص مع آخرين وأن يتفاعل معهم، ولذلك فالدوافع الاجتماعية معقّدة لأنها تنشأ وتنمو في ظل الظروف النفسية للشخص، مثل الحاجة إلى الانتماء إلى جماعة، والمشاركة الاجتماعية، والتقدير، بينما الحاجة إلى النجاح، أو إلى الاستقلال، أو التملك، دوافع ثانوية، في مقابل الدوافع الأولية، إلا أن الدوافع الذاتية هي أعلى الدوافع في ترتيب الدوافع Motivational hierarchy. وتأتي «تأكيدات الذات» كحاجة تُشتَق منها الحاجات وتصدر عنها كل أنواع الدوافع، والشخص لكي يؤكّد ذاته لا بد أن يعدّل باستمرار في سلوكه ليتوافق مع الظروف ويتكيّف معها، منفعلاً بها وفاعلاً فيها، وهو مضطر لإجراء هذا التعديل أو التغيير، وقد يطلب مساعدة العلاج النفسي أحياناً، والتغيير المطلوب في الذات بتعديل الدوافع ومساراتها يكون بالتدريج، أو بالتحوّل الحاد الذي قد تتزعزع به الذات ويصاب الشخص من جرّائه بالانهيار النفسي.

وقياس الدوافع يكون بقياس الظروف التي تؤدّي إليها وتستثيرها، وبقياس المظاهر التي تصاحب الدافع وتكون علامة عليه، فالجوع مثلاً كدافع يمكن قياسه بعدد الساعات التي لم يتناول فيها الشخص الطعام، وما يمكن أن يكون فقده من وزن بسببه، والسعرات الحرارية التي يمكن أن يكون قد استنفدها في فترة الجوع. وقد يقاس الدافع بقوّة السعي لتحصيل الطعام مثلاً، وسرعة الاستجابة له، وبترديد الشخص لكلمات نستشف منها تملك

الدافع لنشاطاته النفسية، كأن يلاحقه في منامه ويقظته على شكل الأحلام أو أحلام اليقظة.

مراجع:

- Lindzey: Assessment of Human Motives.
- Maslow: Motivation and Personality.
- Eysenck: Experiment in Motivation.
- Bolles: Theory of Motivation.
- Allport, G.W.: Function Autonomy of Motives.
- Atkinson, J.W.: An Introduction to Motivation.

❖ ❖ ❖

- ٩ -

سيكولوجية العادات

العادة سلوك له قوّة دفع. العادات سمات للأفراد يُعرفون بها. العادات الخاصة والفكرية والانفعالية والحركية، والموجبة والسالبة. تكوين العادات وقوّة تأثيرها وتداخلها. تقادم العادات وتدهورها.

❖ ❖ ❖

العادات أنماط معيّنة من السلوك المكتسب الذي نتعلمه أثناء الممارسة ووفقاً للتكوين النفسي والعضوي والحركي والذهني الذي لكل فرد، وبحسب المستوى الثقافي والأنماط السلوكية والمعرفية والوجدانية التي تنتقل إليه من مجتمعه. والعادة Habit سلوك يتكرر معنا فيثبت وتصبح له قوّة دفع توجّه الفرد وجهات معيّنة، وتطبع تصرفاته، ويُعرف بها، وتكون بمثابة السمة أو الدليل عليه. والعادات جزء من الشخصية، وكل فرد لا بد أن تكون له عاداته الخاصة في المأكل والملبس والمشي والنوم والقراءة والكتابة وقيادة السيارة، إلخ، كما لا بد أن تكون له عاداته الفكرية Intellectual hs.، وهي طرقه في التفكير وتناول الأمور ومواجهة المشاكل، وهو إذ يتحدث فهناك ألفاظ معيّنة تتكرر منه، وأساليب لغوية تكثر معه، وله أيضاً عاداته الانفعالية Emotional hs. وهي طرقه التي يُظهر بها انفعالاته في الغضب والسرور وغير ذلك، وعواطفه التي يعبّر بها عمّا يحب ويكره.

والعادات تتكون نتيجة وجود الفرد في عدد من المواقف المتشابهة ذات

الخبرات الواحدة التي تؤثر فيه، ويكون تكرارها معه بالطريقة نفسها أو بطرق مشابهة - طُرز العادة h. patterns، فينظمها بطريقة غير شعورية حول هذه الخبرة أو تلك h. training، وتتكون بها العادة، سواء كانت عادة إنفعالية أو معرفية أو حركية Motor h.. والعادات الانفعالية تتحكم في اختيارات المرء وعلاقاته التفاعلية، وقد تُسمَّى أحياناً باسم العواطف أو الميول السائدة، فالبخيل الذي لديه عادة اكتناز المال يوجّه سلوك هذا الميل السائد نحو جمع المال. والعادات منها الموجب أو السالب، والتدخين عادة سالبة Negative h.، بينما عادة القراءة قبل النوم قد تكون موجبة Positive h.. ولأهل المهنة الواحدة عادات فكرية متقاربة، وهي طريقتهم في التفكير التي اكتسبوها بالتعلّم على أيدي غيرهم من المشتغلين بالمهنة. وقد يكون للفرد الواحد أكثر من عادة فكرية، فالطبيب قد يفكّر بطريقة الأطباء في مجال الطب، ولكنه أيضاً قد يكون شاعراً فيفكّر بطريقة الشعراء إذا كان المجال هو مجال الشعر. والعادات الحركية Motor hs. مهارات حركية مكتسبة، فالعازف على البيانو يعتاد العزف بطريقة معيّنة تسهّل له أن يجلس وأن يحرّك أصابعه، ولاعب الكرة يكتسب مهارة اللعب بعادات سلوكية في اللعب من شأنها تحقيق أبسط الجهد مع الأداء المتميّز. والعادات عموماً لها هذه الخاصية، حيث أنها تساعد على التوافق بأقل الجهد، والقيام بأكبر قدر من الأفعال بطريقة آلية شبه تلقائية. وتحتل العادات عند الإنسان مكانة أنماط السلوك الفطري عند الحيوان. ومن العادات السالبة ما يسمى العادات العُصابية Neurotic habits، أو الهستيرية Hysterical، أو اللوازم tics، وهي أنماط سلوك خاطئة يتوافق بها العُصابي مع ظروفه. واضطرابات العادات h. disorders هي اضطرابات في السلوك، مثلما في العادة السرية، أو قضم الأظافر، أو مص الإبهام، إلخ. وتكوين العادات habit formation هو عملية اكتسابها بالتعلّم. ومن العقاقير ما يكون تعاطيه مُكسِباً لعادة التعاطي Drug habit-formation، أو اعتياد العقار Drug

habituation. وهـرمـيـة الـعـادات Habit hierarchy إصطلاح «هل» Hull (١٨٨٤ - ١٩٥٢) باعتبار أن للعادات قوّة تأثير Habit strength بحسب التعزيز الذي تناله h. forming وتتدعم به، ويكون به قوّة دفعها وتوجيهها للسلوك، أو أن العادات الأبسط ذات الموضوعات المتشابهة قد تجتمع وتتآلف وتكوّن عادات أكبر وأكثر تعقيداً، فعادة الكتابة مثلاً قد تتضمن عادة كتابة الحروف المفردة، وكذلك عادة إيصال ما بين الحروف لتكوين الكلمة، وأيضاً عادة التزام الخط المستقيم، أو أن يتّجه الخط إلى أعلى أو إلى أسفل، والطريقة التي تأتي بها نهايات الكلمات، أو تنقيط الحروف، إلخ. والعادات قد تتداخل Habit interference فيجُبّ بعضها البعض، أو يُضعف بعضها البعض، أو يختلط بعضها بالبعض. وتقادُم العادات Habit progression هو أن تَضعُف القديمة لتحلّ محلها العادات الجديدة. وتدهور العادات Habit deterioration هو ضعف تأثيرها كظاهرة من ظواهر تحلّل الشخصية، فالشيخ الطاعن مع انتكاس قواه العقلية لا يلتزم عاداته في النظافة والآداب الاجتماعية وضبط الإخراج، وتسوء ممارساته اليومية إلى أن تتدنّى وتصير ممارسات نمائية كما عند الحيوانات. وعلاج اضطراب العادات يتم بالعلاج التنفيري Aversive therapy، بالتنفير من العادات السيّئة، وإحلال عادات طيبة بديلة بدلاً منها.

مراجع:

- James W.: Princples of Psychlogy.

-Eysenck, H.J.: Behaviour Therapy and the Neuroses.

❖ ❖ ❖

- ١٠ -

سيكولوجية الرشد Adult Psychology

سن الرشد. الذكاء فيه والبلوغ والنمو الوجداني. الرشد والموقف الأوديبي. منافسة الأشقاء. الهوية الجنسية. الرشد سن الفتوة والنقد. مجتمع الراشدين. الشباب صوت التغيير. سن

العواطف والتحديات والهوايات والتجارب الجنسية. أدوار الفتاة والفتى. الشباب سن الاكتئاب والعصاب النفسي. الرشد الناضج. معاناة التناقض. صراعات الأجيال...

❖ ❖ ❖

الرُّشْد Adulthood هو سن التعقّل والرشاد والهداية، ويبدأ في نحو العشرين، وبعض الشعوب تجعله شرعاً في الواحد والعشرين، وينتهي قبل الخمسين، غير أنهم يميّزون فيه بين الراشد الغر Young adult والراشد الناضج Mature adult، والأول هو الشاب بين العشرين والثلاثين، والثاني هو الراشد الذي يتجاوز الثلاثين إلى ما قبل الخمسين. ولا يبلغ الشاب الرجولة قبل الثلاثين أو نحوها، فإذا تجاوز الثلاثين إلى الأربعين، فالبعض يُسمي ذلك أواسط العمر Middle age، والبعض يجعل السن بعد الأربعين إلى الخمسين سن الكهولة Later adulthood، وقد يقال لهذه السن ما قبل الشيخوخة Presenility، وقد تمتد السن ما قبل الشيخوخة حتى الستين.

وقبل الرشد يكون المرء حَدَثاً أو قاصراً، ومعنى رَشُدَ أنه قد أصبح شرعاً أهلاً للمسؤولية، فيتزوج، ويتعاقد، وله كافة الحقوق المدنية، ما لم يكن مصاباً بنقص عقلي أو جنون.

والرشد لا يتساوق في كل النواحي باعتبار السن، فالذكاء ينضج قبل العشرين بكثير، وهو يبلغ غاية نموه Adult intelligence في السن بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة، والبلوغ الجنسي، يحدث قبل ذلك، وربما في السن بين العاشرة والخامسة عشرة، وربما قبل ذلك وربما بعد ذلك. «والنمو الوجداني» يكون في ذروته في السن بين الرابعة والعشرين إلى الثلاثين. «ونمو القامة» يتوقف في نحو الثامنة عشرة، وإن كان نمو الجسم في غير الطول يستمر إلى نحو الثلاثين. وقيل إن النضج يبلغه الدماغ بمقتضى الرسم الكهربي في نحو الواحدة والعشرين، وأما قبل ذلك فصورة الدماغ لا تنبئ عن نضوج. ويتأخر نضج العُصابيين، وربما تبقى

الصورة الكهربية للدماغ على شكلها الطفلي طوال الحياة.

ولسن الشباب سمات واتجاهات واهتمامات، وفي الشبوبية تكون «الشخصية» ما تزال في التكوين، وما تزال معالمها تتحدّد، وإن يكن الشاب في جاوز المراهقة، إلا أن آثار المراهقة ما تزال تعتمل فيه، وما تنفك خبراتها توجهه.

والراشد الشاب يحتاج لبعض الوقت لكي يزول عنه ما يعلق بشخصيته في المراهقة Adolescence، وربما تتثبت الشخصية على بعض السمات، أو يتمرّد الشاب على بعضها وينهج عكسها. ومن ذلك الخبرات الجنسية، وتتوجه جنسيتنا ونحن بعد أطفال للأبوين من الجنس الآخر The other sex، ويكون تعيُّننا من بعد بالأبوين من الجنس نفسه، ونميل في الصبا للأطفال من جنسنا، وفي المراهقة تتوجه ميولنا للجنس الآخر، فإذا أصبحنا شباباً تراوحتنا الميول بين الجنسين فلا نستغني عن الأصدقاء والأتراب، ونهفو كي نحب وتكون لنا علاقات جنسية غيرية. وفي سن الرجولة ترتقي دوافعنا الجنسية Sexual motives وتصبح دوافع تناسلية Genital ms.، فنتزوج كي نشبع فينا الرغبات الجنسية، ولكنها الرغبات المتسامية الهادفة الغَرضية التي يكون لنا بإشباعها الولد. والشبوبية هي سن الذروة الجنسية، وفي الرجولة تكون لنا السيطرة على شهواتنا، وندرك أبعاد قدراتنا، وتتحدد غاياتنا من الجنس، كما تتحدّد معالم شخصية الشريك الآخر الذي نأمل أن يقاسمنا الحياة، وصفاته وشكله، ثم تأتي الكهولة فيقف نشاطنا الجنسي. وقيل إن النساء يكن في الكهولة في قمة النشاط الجنسي، وفي هذه السن، أي بين الثلاثين والأربعين لا تعود المرأة مُحرَجة جنسياً، ويزول عنها خجلها، ولذلك فهي تستمتع في هذه السن بالجنس خيراً مما كانت تفعل في العشرينات.

وفي طور الشباب تظهر إيجابيات وسلبيات الطفولة والمراهقة، وذلك أننا نكون في صراعات ومجاهدات مع أبوينا وإخوتنا وأخواتنا، وليس منّا من لم يدخل «الموقف الأوديبي Oedipus situation» الذي يضم الأب والأم والطفل، وتكون

العلاقات بين الثلاثة في شدّ وجذب ويتأثر بهما الطفل - أي بالأب والأم - ويصنعان شخصيته، ويتوقف على حلّ الصراعات الأوديبية مستقبل الشخصية. وأيضاً فنحن ندخل فيما يسمى «منافسة الأشقاء Sibiling rivalry»، فنقترب من بعضهم، ونتعين ببعضهم، ونكره بعضهم، ثم نسقط من بعد ذلك نتائج هذه الخبرات على علاقاتنا بالأتراب والأصدقاء. فكأن الطفولة والمراهقة تحدّدان نمط الشخصية في الشباب، ونمط العلاقات التي يمكن أن تكون لنا بالناس، وتتدخلان في كل علاقاتنا التفاعلية المستقبلية. ومن شأن هذه الخبرات أن تتكون لنا من خلالها أنماط سلوكية نكررها وتلاحقنا في مراحل حياتنا كلها، وقد نعي أبعادها ونعرف بأمرها، وقد نتصرف بدون وعي باعتبار أن دوافع السلوك منها ما هو لاشعوري، وقد يطلب الشاب في سن الرشد أن يدرس الطب مثلاً لأنه أخذ عن أبيه حبّ هذه الدراسة بالتعيّن به وبأهدافه في الحياة، وربما لأن الأب أو الأم أو الاثنين معاً كانا دائماً يرفعان مستوى الطموح Level of aspiration عنده. ويُزكيان فيه أن يكون ما يريدانه، وذلك ما نسميه السلوك وفق مقتضى توقعات الأهل. وقد تكون لبعضنا شخصية عدوانية فتدفعنا ميولنا إلى دراسة الشُّرطة لنمارس هذه العدوانية فينا، ولكنها الممارسة التي يشجعنا عليها المجتمع ويثيبنا عليها. وربما تكون خبرات الطفولة والمراهقة فيها معاناة الحرمان من أحد الأبوين أو كليهما، من جرّاء طلاق يقع بينهما، أو انفصال بسبب الغُربة، أو السعي وراء الكسب في بلاد بعيدة، أو نتيجة مرض عضال، أو بسبب الحرب، إلى غير ذلك من الأسباب - كالموت والسجن، فينشأ الطفل يفتقد الحنان، وبه جوع للحب، أو ينمو مجدباً من العواطف متقزّم الوجدان، وفي الحالين يعجز في الشبوبية عن أن تكون له علاقات دافئة بالناس، وأن يتزوج كالآخرين، وأن تكون له أسرة يَعمُرها الحب، ويُدفئ أفرادها الحنان. ولربما ينشأ الطفل بين أبوين يحتدم بينهما الصراع والخلاف، أو تكون الأم نابذة والأب مستبداً أو العكس، فيضطرب تعيُّن الطفل بهما ويتوه عنه تفهُّم دور الأب

أو وظيفة الأم، وهو ما نعرفه باسم وعي الهوية الجنسية. وإذا لم يصادف الطفل من يعوّضه عن كل ذلك، كبديل للأب أو للأم، فإنه ينمو نمواً وجدانياً شائهاً، وربما يتأثر عقلياً بالعزلة النفسية التي يعيشها، ومن ثم فنحن في الشيبوبة غَرْسُ الطفولة والمراهقة.

والمراهقة هي «سن العواصف Age of storms»، وتتوقف شخصية الشاب من بعد على طريقة تعامل المحيطين به في المراهقة، وعلى الصورة التي تتحصّل له عن نفسه، وعن الناس، والحياة عموماً. ولربما لكل ما سبق يخرج بعضنا من الطفولة والمراهقة مثخناً بالجراح النفسية، ويقضي عمره كله يداوي هذه الجروح ويتردّد على العيادات النفسية يحاول أن يجد لها العلاج. ونحن نشبّ قساة القلوب لأننا ننشأ في بيئة عدوانية، وقد نكون مستبدين لأن الأب كان مستبداً، وقد نكون خانعين لأن الأم كانت متسلطة، وعكس ذلك الشاب المتوازن وجدانياً، والمنضبط سلوكياً، والمتحمّس للحياة، والمقبل عليها، فذلك لأنه قد تلقى تربية صحيحة ونَعِم بجو عائلي سليم.

وفي سن العشرين أو «سن الفتوة Youthfulness»، تتميّز عموماً إتجاهات واهتمامات، وتبرز سمات للشخصية، ومن ذلك أن هذه السن هي «سن التعقُّل Age of reason»، قياساً إلى سن العواصف في المراهقة، ولعله لهذا السبب يُطلق إسم الرُّشْد على هذه السن، والرشد في اللغة هو الهداية. وفي هذه السن تقوى الدوافع والنوازع، إلا أننا نميل أن نضبطها ونتحكم فيها، وتكون بنا أشواق روحانية تتعادل بها عندنا النزعات المادية. وسن الفتوة هو أيضاً «سن الاندفاع The age rashmess»، وقد يندفع الشاب بلا ضابط يشبع رغباته ويعيش لها، وقد يعاندها وتكون له تطلعات دينية، والغالبية العظمى من أعضاء الجمعيات الدينية هم من الشباب.

ولعل من مظاهر التعقل النقد، وسن الشباب هو «سن النقد The age of criticism» الشديد يلزم به الشاب نفسه والمجتمع الذي يعيش فيه، ونقده لنفسه إختبار لقدراته ولذكائه ولشخصيته عموماً، ويصدر عن الخوف من الفشل أحياناً، والرغبة في النجاح ولتأكيد ذاته.

وهو يقاوم رغباته الشهوية التي قد تستبد به يريد أن يضبط سلوكه، وانضباطه إنجاز لنفسه، ونقده لنفسه يقوّم به المعوج من توجهاته، ويعيد به تقويم أهدافه. وهو يختار من الأهداف ما يقرّه المجتمع فيحقّق بذلك نجاحين، نجاحاً ذاتياً وآخر إجتماعياً. ونقده المستمر لنفسه يجعله دائم المساءلة لنفسه ومعاودة التفكير في أهدافه، والانشغال بأن يجد الفرصة للنجاح. والنقد صورة من الصراع مع ذاته، وانعكاس للصدام بين ميوله الشعورية واللاشعورية. والنقد سلوك عدواني، والشباب في سن الرشد عدوانيون، غير أن عداءهم قد يتوجهون به إلى ذواتهم، وقد يوجهونه إلى مجتمعاتهم. ويصدر نقدهم عن محاولة لأن يقيسوا أنفسهم ومجتمعاتهم إلى ما يتصورونه لها، يريدون أن تتحقق هذه التصورات مستقبلاً. والشباب مستقبليون دائماً ويتحدثون بصيغة المستقبل. وفي الشباب تكثر أحلام اليقظة التي يجدون فيها الإشباع عن الحاضر القاصر والمستقبل الواعد. ونقدهم للمجتمع يصدر عن ميول فيهم من المراهقة لمقاومة السلطة. والسلطة قد يكون من رموزها الحكومة، أو المؤسسات الاجتماعية: كالأسرة، والجامع، والمدرسة. ويتوجّه نقد الشباب لهذه الرموز، وتستغل الأحزاب السياسية هذا الميل فتحاول أن تضم الشباب للمعارضة. وتتميز صحف الشباب الحزبية بلهجة عدوانية وأوجه للنقد لا حصر لها. وتقوم الجمعيات الثورية السريّة على الشباب، ويصوغ منشوراتها كتّاب ومفكّرون من الشباب، وتتوجه أساساً إلى الشباب. ويعي المشرفون على الأحزاب سيكولوجية الشباب ورغبتهم في التميُّز في اللباس والتعبير والمشية. ويصدر هذا التميّز عن رغبة في مقاومة الانتماء، وإظهار العناد للسلطة حتى في الزي، وتُهيئ الأحزاب للشباب أزياء خاصة، وكانت للشباب النازي، والشباب الفاشيستي، وشباب مصر الفتاة، وتركيا الفتاة، قمصان خاصة بألوان معيّنة وشارات مميّزة، وكانت لهم هتافات وشعارات يردّدونها وينفردون بها ويُعرَفون من خلالها.

ومن مظاهر سن الرشد أن يعمل الشباب من خلال التجمّعات، وإذا كان سن المراهقة هو «سن الفردية The age of individuality»، فإن سن الشباب هو «سن الجمعية Age of collectivity»، وتنصرف نشاطات الشباب وطاقاتهم وإبداعاتهم من خلال تجمعات الشباب. وفي التجمع يمارس الشاب المسؤولية عن نفسه والجماعة، ويستشعر الانتماء ويمارس الولاء الجمعي. وميول الانتماء والولاء الجمعي من أبرز الميول عند الشباب، والمسؤولية الجمعية التي يتطوع لها الشاب مختاراً تلزمه من هذه السن، وتمهّد لمسؤوليات إجتماعية أكبر سيضطلع بها مستقبلاً، ويهديه إليها تصوره للمستقبل، وهو تصور يتولّد به عند الشباب توهم أنهم يصنعون المستقبل من جديد. وسن الشباب هو سن هذه الأحلام: أن يكون للشاب مشروعه الخاص لنفسه، ومشروعه الجمعي لمجتمعه، والمشروعان يتوافقان، وغايتهما المجتمع الجديد أو مجتمع الغد، ومن ذلك مثلاً ما تعرضه «مسرحية الناس اللي تحت» لنعمان عاشور، وهي نموذج لكتابات الشباب، ودراسة لتطلعاتهم، وأبطال المسرحية من الشباب، ويدور حوارهم حول الغد وما يكون فيه، وأرض الأحلام التي ستكون، واليوتوبيا Utopia التي سيصنعونها من مصر الغد.

وأحلام الشباب ومشروعاتهم للغد قد تكون من دوافعهم لقلب نظام الحكم، والجدير بالذكر أن أغلب من قاموا بالانقلابات من الشباب، ولم يتجاوزوا الثلاثين إلا قليلاً، وهكذا كانت أعمار أعضاء مجلس قيادة الثورة في مصر، والضباط الأحرار في سوريا، والقذافي، وجلّود، وكاسترو، وماوتسي تونج، والنميري، وتيتو، ونكروما، ولومومبا، وبورقيبة، وبن بلا، وبومدين، إلخ. وقد تُهدى أحلام الشباب إلى مشروعات تخدم مجتمعاتهم والإنسانية كافة، وكذلك كانت أحلام أديسون، وماركوني، ونيوتن، وإينشتاين. «والشباب هم صوت التغيير في الأمم»، وبهم حساسية مفرطة لنواقصها وسلبياتها وعيوبها وأمراضها ومشاكلها، وكذلك يكون تعيّنهم بالمُصلحين والثوريين

والمُبدعين. ولو قرأنا تاريخ العنف السياسي لهالنا أن كل القائمين به من الشباب المتطرّف الذي سعى لتغيير الأوضاع وصُنع المستقبل.

وإذا كانت المراهقة هي «سن العواصف» فالشباب هو «سن العواطف». وعواطف الشباب وأشواقهم جيّاشة، والشاب في السن الصغيرة يقع في الحب لا لأنه يتمنى فتاة بالذات، ويعشق امرأة بعينها، ولكن لأنه يريد أن يقع في الحب نفسه، فتجربة الحب تستهويه، ويستميله منها أن يكتوي بنارها، وأن يعرف حرارة الشوق ويكابد عذابات الحب، على عكس الراشد فيما بعد الثلاثين، فالحب عنده يرتبط بإنسانة لها إسم وكيان وشكل ومواصفات معيّنة، ويريدها لنفسه زوجة، وأن يكون له منها الأولاد، وأما قبل ذلك فالحنين عند الشباب هو معاناة، ينصهرون بها، وتصقل تجاربهم، وتصنع شخصياتهم، وتثري خبراتهم، ولذلك كانت أكبر القصص الرومانسية بأقلام شباب، وأشخاصها من الشباب، وكانت أيضاً أكبر المآسي في الحب، فهكذا كانت مجدولين، وروميو وجولييت، وهكذا كان شعراء مثل مجنون ليلى، وجميل بثينة، وكُثيّر عزّة.

وتواجه الشاب تحدّيات، ولعل أبرزها توقعاته لنفسه، وهي التوقعات التي تستهدي بصورته عن نفسه. وتوقعاته لها «حضور نفسي»، وتشتملها أحلام يقظته، وتختلط بها توقعات أهله له، وتوقعات أصدقائه وأحبابه ومدرّسيه. والشاب في باله هذه التوقعات جميعها، وهي دوافع له توجّه سلوكه، وتتَّحد بها أهدافه، ويعمل من أجلها، وتكوّن ما يُسمَّى شَبكَة التوقعات، وبسببها يكون حضور أهله وأصدقائه وأحبابه ومدرّسيه في ذهنه وفي نفسه، هذا الحضور الذي يربطه بهم ويجعل للعمل معهم قيمة خاصة، ويكون به التزامه، وبسببه قد يقبل المخاطرة، وقد يخطّط لأهداف بعيدة قد تستغرق منه السنوات، وقد تستنفد الكثير من الجهد ويضحّي في سبيلها بالعاجل من أجل الآجل. ورغم أن الشباب متعجلون إلا أنهم أيضاً يتعلمون الصبر ويمارسون «الانتظار»، والتوقعات تلزمهم بالانتظار ولا بد لهم منه، غير أن الانتظار عندما يطول يولد التوتر

ويستجلب القلق. ويتعلم الشاب أن يحتمل حتى لا يعاق عمله ويتهدّد مستقبله، وهذا «الاحتمال» بمثابة تحدٍّ يومي لطاقاته وقدراته ومقومات شخصيته، ولسوف يتعلم أن تكون له «هواياته» لهذا السبب، ويسعى جاهداً ليعرف أي الهوايات تناسبه في هذه السن المبكرة من الرشد، كما يجهد أن يعرف أي المهن يمتهن، وأي الأعمال يتقلد. وسيعرف ما يناسب ميوله واتجاهاته وقدراته فيما بعد عندما يصل إلى «سن الرجولة»، أي بعد الثلاثين. وقبل هذه السن سيمارس كل الهوايات، ويشترك في كل الرياضات، ويتعلم من أسرار كل مهنة سراً، ومن فنون كل حرفة فناً. والهوايات ضرورة من مقتضيات الشبوبية. وسنجد الشباب يلتحقون بالأندية الرياضية، ويشاركون في الأنشطة الاجتماعية، وينضمون للجمعيات الخيرية، وتشملهم قوائم الأحزاب السياسية والتنظيمات المختلفة، وهي ضرورة لأن فيها وفي اهتماماتها يكون صرفهم للتوتر والقلق اللذين يتولّدهما الانتظار الطويل لتوقعات لا بد لها من السنوات لتتحقّق، ثم ان هذه الأنشطة تعطيه جَلَداً أكبر، وتصقله نفسياً وبدنياً وذهنياً، وتعدّه من كل النواحي لمواجهة التحدّي الأكبر الذي ينتظره، والذي يقتضي تكويناً نفسياً وبدنياً وذهنياً واجتماعياً خاصة، وهو التحدّي الذي يستلزمه مشروعه الخاص لنفسه، ومشروعه الجمعي لبيئته، ويلزم له أن يكون على وعي بطموحاته وآماله وتصوراته للمستقبل، وعلى بصيرة بتوجهات مجتمعه ونواقصه وعيوبه، وسلبياته وإيجابياته، والحِرَف فيه والتقاليد والأهداف والسلوكيات، وبذلك يتوازن المشروعان ولا يتصادمان، ويتكاملان، فيجعل منهما مطلبين غير متعارضين.

«وتأجيل مشروع الزواج» تحدّ من تحديات سن الشباب، والشاب يكتمل نموه الفسيولوجي نحو هذه السن، وفيها تكون فورة الجنس وشِرّته أيضاً. وللجنس فورة وشِرّة. والجنس علامة من علامات الصحّة العامة والفتوة. والفتى في هذه السن يكتمل جنسياً، وكذلك الفتاة تنضج ويظهر نضجها. وسن الشباب هو سن التجارب الجنسية، وكان سن المراهقة

«سن العادة السريّة». وفي عهد الشباب يكون التواعد باللقاء، «والحب من أول نظرة»، وتكون خبرات «الحب العُذري»، والحب المادي، ويكون الظمأ الشديد للزواج، وتأجيله للزواج بمثابة التحدي لقدرته على الاحتمال والصمود، ولمثابرته ليتحقّق له أن يتزوج بأسرع ما يستطيع. ويبدو أن نسبة عالية من الشباب يستطيعون أن يمارسوا الجنس بدون زواج، وقيل إن نحو ٥٠٪ من الشباب في سن الرشد ربما قد مارسوا الجنس ولو لمرّة واحدة، وانه ببلوغ الثلاثين تزيد هذه النسبة إلى نحو ٧٠٪ (Kinsey: Sexual Behaviour in the Human Male)، إلا أنه من ناحية أخرى فإن هذا التصرف غير الشرعي للجنس، قد يزيد من وطأة التحدّي الجنسي بما يخلقه من مشاعر ذنب وقلق وصراعات، قد تكون لها أوخم العواقب على تصدّع الشخصية وشذوذ السلوك أو انحرافه. والبعض يرقى بتحدي الزواج ويجعله تحدياً أخلاقياً أو يجعل مضمونه أخلاقياً، وبه يكون اختبار الكثير من أفكار الشاب، ومُثُله، وثقته في قدراته، واحترامه لنفسه. وهو يواجه هذا التحدّي كاختبار لقدرته على الملاءمة بين دوافعه الجنسية وسلوكه الاجتماعي. والجنس إمتحان حقيقي للشباب لأنهم يواجهونه بأنفسهم منفردين، دون عون من أهل أو قريب أو صديق أو ناصح. والجنس يشعرهم بالاستقلال لأنهم فيه إما يختارون السقوط أو الفضيلة، وإما أن يكونوا على مستوى المسؤولية وتحملها، وإما أن يسلكوا بإباحية، وهو تحدٍّ هائل لسيطرة الشاب على نفسه، وأن يفرض إرادته، وأن يكون له نظامه، وتعلو به أخلاقه ومُثُله. والزواج معناه تنظيم الجنس، وإذا اقتنع الشاب بالزواج كنظام، فمعنى ذلك أنه قد اقتنع أيضاً أن يشمل النظام كل مستويات حياته الأخرى. ويحتاج المتزوج إلى نضج في التفكير والعاطفة ليتفاهم مع زوجته ويحقّق التوافق المطلوب في الزواج. وليس الزواج هو مجرد إجتماع بين اثنين في بيت واحد، وعلى الشباب أن يدركوا أن الزواج أكبر تحدٍّ لشخصياتهم ولذكائهم ولصحتهم النفسية.

وأما «تربية الأطفال» فهي تحدٍّ آخر ولكنه لاحق لمرحلة الشباب. وهي تحدٍّ

للأبوة والأمومة. والأبوة مسألة شديد التعقيد وتتطلب إعداداً نفسياً ومزاجياً وعاطفياً وذهنياً معيناً، «والأبوة والأمومة» عطاء خالص. وليس للأب أو للأم أن ينتظر مقابلاً من الطفل. وليس لهما أن يطلبا الإنجاب قبل أن يستشعرا الرغبة فيه. والأبوان منذ البداية هما القدوة للطفل، وهما نموذج لكل سلوك ونشاط، ومنهما يتلقى القيم البنّاءة.

والتحديات كثيرة لا حصر لها في مجتمعاتنا العربية بالنظر إلى كثرة المذاهب فيها: الدينية، والسياسية، والاجتماعية، والفوارق الهائلة بين الطبقات، وأنواع التعليم المختلفة، وانتشار الأمية، وغلبة الأساطير والخزعبلات على العلم والمعرفة. ويواجَه الشاب بكل ذلك، وعليه أن يجتاز كل هذه الصعوبات وينفذ من خلال كل تلك الحواجز. وتشكّل «الواجبات الاجتماعية» تحدٍّ كبير للشباب، وخاصة عند شباب الطبقة البورجوازية والطبقات الكادحة من العمال والفلاحين، ولعدم وجود الضمانات الاجتماعية في حالات كالوفاة والعجز عن الكسب. وتُعوِّل الكثير من الأسر على شبابها في الرزق ومواصلة رسالة الآباء وتعليم الإخوة، ولذلك ضغوط هائلة قد تحيد بالشاب في التفكير وتنحرف به في السلوك.

وللأوضاع الاقتصادية تحدّياتها أيضاً، وبصرف النظر عن تأخيرها للشباب عن تحقيق آمالهم، والوفاء خصوصاً بمشروع الزواج، فإنّ تردّي هذه الأوضاع في مجتمعاتنا قد تدفع بالبعض إلى أفكار ثورية، أو تتسبب لهم في الجُناح. ويبدو أن العوامل كثيرة في الجُناح إلا أن أقواها جميعاً وأخطرها هو العامل الاقتصادي والآثار النفسية المدمّرة التي تترتب عليه.

ولم يكن الحال هكذا قديماً، وربما تغيرت الأمور كثيراً في بلادنا عن ذي قبل. ونحن نمر الآن بفترة تغيير اجتماعي واقتصادي هائل تشمل العالم كله، بين نظم بالية وأخرى حديثة، وعلاقات محافظة وعلاقات متحرّرة، ومؤسسات ونظم آلت إلى القدم وأفكار جديدة تريد أن تتحقق وتتعيّن مكانها، وعلى الشباب أن يبقوا متوازنين بين هذا كله. وعالم اليوم بمواصلاته واتصالاته الجوية

واللاسلكية وعبر الأقمار الصناعية، واضطراباته السياسية والعقائدية، هو عالَم للقلق، حتى ليطلق على عصرنا بحق «عصر القلق The age of anxiety». وهو عالم يتعامل كل يوم مع الوكالات والشركات الكبيرة والأهداف العريضة، والتجمعات السكانية الضخمة في المدن والأسواق والمستشفيات والمدارس والجامعات، الأمر الذي جعل الناس يستشعرون أنهم ما عادوا يتعاملون مع بشر، بل مع أجهزة وآلات حاسبة وبطاقات وأرقام هوية. ويخلق ذلك إحساساً بفقدان الشخصية، وانفصال عن القوى الاجتماعية المؤثرة. وهذه التغيرات بمثابة إنقلابات في أسلوب الحياة، ولها ضغوطها الهائلة على كل الناس من مختلف الأعمار، وخاصة الشباب، لأنهم أعرض الفئات، ولأنهم يتخللون كل الطبقات والفئات والطوائف.

ويُشجَّع الشباب على التعليم، وأن يأخذوا بنصيب وافر منه، بالنظر إلى ما يمكن أن يعود عليهم من مكانة واحترام وعائد مادي، وخاصة التعليم الجامعي. ويسعى الشباب في كل الطبقات إلى تحصيل نوعيات معيّنة من التعليم الجامعي يوافق عليها المجتمع ويثيبها أكبر الثواب، غير أن هذا التعليم باهظ التكاليف، وهو تحدٍّ من أكبر التحديات للشباب. وعنق الزجاجة في التعليم هو الثانوية العامة في البلاد العربية، بالنظر إلى ما يتطلبه التعليم الجامعي من مجموع كبير يستلزم الحصول عليه جهداً شاقاً. والثانوية العامة تحدٍّ للشباب وللأهل. بالإضافة إلى أن التعليم الجامعي يستنفد وقتاً طويلاً، ولربما يتخرج الشاب من كلية كالطب مثلاً وهو في الثلاثين، وعليه أن يعمل عدداً آخر من السنين ليؤمّن مستقبله، وبمعنى آخر فإن الجامعي ربما يبلغ الأربعين وهو لم يتزوج ولم يكوّن أسرة، وذلك إحباط كبير لكل مشروعاته، وله ضغوطه الهائلة على الشاب في العشرينات والثلاثينات.

ومن الممكن أن يقال الكثير عن تأثير الاستخدامات الذرية في كافة المجالات السلمية والحربية على تفكير الشباب. والأفكار في هذا المجال محتدمة والآراء متباينة، والناس بين متفائل ومتشائم، ويعيش الشباب هذا

المناخ القلق تتنازعهم مخاوف الدمار النووي، وتحدوهم آمال هذا العصر الذري الواعد بالخير في الزراعة والصناعة، وتتعلق خواطرهم بمجتمعات مثالية كاليوتوبيا، وربما كان اعتناق الكثيرين للشيوعية أو الاشتراكية لأنهما مذهبان يستشرفان المستقبل ويعدان بمجتمعين مثاليين، قيل في أوصافهما أنهما «مجتمعا الوفرة»، حيث الشعار في أحدهما «من كل حسب جهده إلى كل حسب حاجته»، وفي الثاني «من كل حسب جهده إلى كل حسب عمله». وينبئ الشعاران بأن العمل هو القاعدة، وأنه لن يكون هناك فرق بين الناس بسبب اللون أو الجنس أو العِرق أو الحسب أو النسب، وأن المساواة هي القانون، وأنه في «مجتمع الوفرة» ستتحقّق كل الأماني وستشبع كل الحاجات، وسنجد الشقق للسكن، وسنزودها بالمستحدث من الأجهزة وأدوات الرفاهية، وسيعم الخير، ويجد الجميع الطعام والشراب واللباس. ولعله لهذا السبب كان الشباب يُقبل على «الشيوعية والاشتراكية» إقبالاً منقطع النظير، حتى أنه قيل إن ٩٠٪ من أعضاء الحزبين الشيوعي والاشتراكي كانوا من الشباب دون الثلاثين.

ولا سبيل إلى مواجهة هذه التحديات إلا من خلال السياق الكلي لنمط الحياة بطرق تحترم ظروف الشباب الأدبية والعاطفية والاجتماعية والاقتصادية، وهي ظروف حسّاسة وشخصية وتتطلب إعمالاً ذهنياً وتقليباً للرأي، وبصيرة نافذة، وأحكاماً صائبة شديدة التعقيد. ويساعد على التعامل مع هذه المشاكل أو المسائل أو القضايا التعليم الذي يحصّله الشاب، والخبرة التي تتهيّأ له، فمثلاً لكي يختار لنفسه عملاً أو مهنة، ويواجه تحدي هذا الاختيار فقد يلزمه أن يجرّب عدداً من الوظائف إلى أن يجد الوظيفة التي ترضيه شخصياً وتعطيه الأجر المادي المناسب، والتي فيها يمكنه أن يمارس مهاراته ومواهبه بطريقة فعّالة، ولن يتيسر له ذلك إلا إذا نال قسطاً من التعليم الرسمي أو غير الرسمي حتى يستطيع أن يصقل مواهبه وقدراته ويتبينها. وبعد أن يجرّب عدداً من المهن أو الحرف أو الوظائف يجد أن فرص

الاختيار تقل وتتحدّد في عدد من المهن، أو ربما في مهنة واحدة، أو وظيفة بعينها هي فرصته المعقولة، والتي يمكنه فيها أن يجد نفسه بدرجة أو بأخرى ويحصل منها على أقصى ما يستطيع أن يحصل عليه. وأغلب الشباب يواجهون «تحدي الوظيفة أو المهنة» بهذه الطريقة، وكثيراً ما يلجأ الشاب إلى طلب النصيحة أو المساعدة إذا احتاجهما عندما يشق عليه أن يتّخذ القرار المناسب، وإذا أعوزته الدافعية أو إذا تكرّر معه الفشل. وقد تكون المساعدة في شكل مشورة يسألها من صديق أو من الأسرة، وقد يستنصح أهل الرأي، وربما مدرّسه أو أستاذه الجامعي. وهناك مكاتب إستشارية في الدول الكبيرة يجمع المشرفون عليها - إلى جانب التخصصات المختلفة - بين الدراسات الميدانية ودراسات علم النفس. والمرشد المهني Vocational guide يستخدم مختلف الاختبارات لتقويم المهارات والقدرات، وقياس الشخصية، وتحديد أهداف الحياة، ويساعد الشاب على أن يتعرف إلى حقيقة دوافعه. وقد يتقدّم الشاب بطلب النصح من عالم نفس أو أخصائي إجتماعي أو طبيب نفسي. ومن المهم أن نعرف متى يتحتّم علينا أن نطلب النصيحة، وأن لا نتردّد في طلبها. والشباب بهم هذا الميل لطلب المشورة، ولديهم الحسّ السليم لمن يتوجهون إليه بطلبها. ويتمتعون ببصيرة حول ماهية هذه المشورة ولأي موضوع يطلبونها، وكثيراً ما يصدرون أحكاماً بشأنها أوفق وأفضل مما يصدره الكبار أو الآباء.

وتتميز فترة الشباب بالنسبة للذكر أو للأنثى بأنها عموماً فترة يمارسون فيها «الاستقلال بالرأي» في كافة اختياراتهم وفي العمل، واحتمال الكثير من المسؤوليات، ويتحقّق لهم فيها النضج البدني والنفسي، وتكون لهم البصيرة بالأحوال الاجتماعية وتفاعلات المجتمع. وتتّجه شخصياتهم نحو التكامل، ويجربون الحب والخِطبة، وقد يتزوج «الشاب» وينجب، وفي هذه السن يبلغ أوجه نشاطه الجنسي وقدرته على التعبير عن نفسه، ويهتم بعمله، وأن ترضى عنه أسرته، وتهتم «الشابة» بأن يكون لها بيت وعائلة ترعاها، وتتسم هذه الفترة بالنسبة للاثنين بأنها فترة المشاكل

المترتبة على «الالتزامات الشخصية»، والتزام الشاب يتوجّه لمهنته أو عمله، ويتوجّه التزام الشابة إلى بيتها وأطفالها، وبعض الشبان يلتزمون بالمهنة والبيت معاً، وكذلك الشابات، وقد يبرز الاهتمام بأحدهما على الآخر، وكل شاب أو شابة يرتب إهتماماته في أولويات طبقاً لما يوليها من قيم وما تعطيه من إشباع. ويعاني بيت الشاب أو الشابة اللذين يجدان متعة أكبر في العمل عن البيت، ويسوء توافقهما وتكثر الشكاوى منهما، على عكس من يحاول أن يوفق بين كل النشاطات، فهو في البيت يعطيه كل عنايته، وفي العمل يبذل فيه جهده، ويكامل بين النشاطين.

ويختلف الشباب فيما بينهم خاصة في المجالين الاجتماعي والجنسي، فشباب «الطبقات العليا» يؤجلون اختيار المهنة حتى استكمال دراساتهم العليا، ويجعلون الزواج آخر مراحل الاستقرار. ويعجل أبناء «الطبقات الريفية» بالعمل والزواج معاً. ويميل أبناء «الطبقات العليا» إلى الانخراط في الأنشطة الاجتماعية والسياسية، والزواج في هذه الطبقات كثيراً ما يكون له مضمون إجتماعي أو سياسي. ومن رأي كينزي أن النشاط الجنسي عند المتدينين وأهل الريف والشرائح العليا من المتعلمين يقل كثيراً عن غيرهم: (Kinsey: Sexual Behaviour in the Human Male). وهناك ما يشبه «الثورة الجنسية Sexual revolution» نتيجة انتشار التعليم بين الجنسين، ويتّجه العالم إلى نوع من الأعراف المتماثلة أخلاقياً تستطرق في كل أرجائه وتتسم بالصدق والموضوعية.

ويختلف «دور الفتاة» عن «دور الفتى»، والفتاة عادةً سلبية إعتمادية بينما الفتى عدواني إستقلالي، ويُعنى الذكور بكسب العيش بينما الإناث بالبيت وتربية الأطفال. وتتباين المعايير الأخلاقية بالنسبة للجنسين، فالمباح للذكور لا يباح للإناث، والذكر أكثر حرية أن يفعل ما يشاء بعكس الأنثى، غير أن تحرير المرأة من المطبخ والغسيل والرضاعة بتأثير الاختراعات ووسائل التغدية الاصطناعية أتاح لها أن تشارك أكثر في النشاط الاجتماعي والاقتصادي، ويبدو أن الثروة الاجتماعية

قد آل أمر أغلبها إلى أيدي النساء، وأدّى إلى تشابه التوجهات عند النساء والرجال، وهو تشابه ما يزال الرجال يرفضونه ويعيشون حالة لاواقعية من المفاهيم عن النساء. وهذه الحالة أظهر ما تكون حينما تتخرج البنت والولد بالشهادة نفسها، ومن الكلية نفسها، ويتزاحمان على العمل ويتنافسان فيه، تنافساً يجعل البنات عدوانيات يتذرعن بالعدوانية ليكون لهن الفوز في مهن ووظائف هي من اختصاص الذكور. وهذه العدوانية تضطر إليها الفتاة وإلا فلن يقيّض لها الفوز. ويواجه الفتيان هذا التحوّل في الدور والهوية الجنسيين بسلبية يصفها بعض علماء النفس بأنها سلبية مفرطة قد لا تعجب الفتيات، حتى ليمكن أن تتهم الفتاة فتيان هذا العصر بأنهم قد صاروا مخنثين تنقصهم الرجولة. والنتيجة أن شباب هذه الأيام عليهم أن يعتادوا هذا التخالف في الأدوار بين الجنسين. وصار الفتى يشارك فتاته إذا تزوجا في أعمال البيت وتربية الأطفال، وصار يقاسمها تكاليف العيش، وصارت الاختلافات في الاتجاهات بين الجنسين أقل ظهوراً عمّا مضى. ويبدو أن الاتجاه الآن أن يتحمل الشباب عدوانيةً واسترجالاً أكثر من البنات، وأن تتلاءم البنات مع اعتمادية وسلبية أكثر من جانب الفتيان. ويزيد الأمر سوءاً أن الفتاة رغم أنها تعمل وتنافس الفتيان فإنها ما تزال مصرّة على أن تتجمل كفتاة، وأن تمارس عملها مع احتفاظها بأنوثتها. وأيضاً فإن الفتى ما يزال رغم انطوائه تحت إمرة فتاته التي أحبّها وتزوجها يريد أن تكون له بعض حريته التي كانت له وهو أعزب. وهذا التباين في الأدوار، والتغير الذي شمل الجميع، جعل «مفهوم الأسرة» مختلفاً عند الشباب. وتعاني البنت أكثر من الشاب من جرّاء تأخير زواجها، فالتأخير في الزواج لا يناسب أنوثتها. وهناك ما يشبه الاتفاق على أن تجاوز البنت لسن الثلاثين يجعلها غير صالحة للزواج، وذلك شيء قد يسبّب قلقها وقلق المحيطين بها، وهو ما لا يحدث بالنسبة للشاب. وفي حين قد يكون الشاب الأعزب مادة تسلية ومرح بين زملائه وأقاربه، فإن العانس محط إشفاق من الصديقات والأقارب. غير أن

الإصرار على عدم الزواج بالنسبة للشاب إذا أوغل في الثلاثينات قد يجعل المحيطين به يفكّرون عنه تفكيراً مختلفاً، وقد يتهمونه «بالعجز الجنسي». وما من شك أن الالتزام بالزواج لكلا الجنسين مؤشراً على النضج، وعنصر من عناصر الشعور بالأمان، وتتحقّق به الهوية، وأن للشخص قيمة، أو انه إختصاراً دليل على احترامه لنفسه.

وطبيعي أن يكون لفترة الشباب إيجابياتها وسلبياتها على مرحلة الرجولة وما بعدها، فالزواج السعيد أو الشقي، والوظيفة المتفقة مع الميول أو التي يسوء اختيارها قد تترتب عليهما آثار تستمر مع الشخص مدى الحياة.

وعلاج الفشل أو القصور في هذه السن يناسبه أي من الإرشادات أو العلاجات التي تقوم على التنفيس عن النفس، والكلام بحرية عن المشاكل وطرحها طرحاً صريحاً مع معالج نفسي أو موجه نفسي، وتفيد «المهدئات» أحياناً كعلاج بالعقاقير قد تتيسر به جلسات التحليل النفسي أو العلاج النفسي.

ومن الاضطرابات التي يعاني منها الشباب في هذه السن الاكتئاب، والعُصاب النفسي، والقلق، وتبلغ الإصابة بالفُصام أَوَجّها في سن الشباب، وهناك أسباب عديدة للفصام أهمها الصراع بين حاجات الشاب النفسية والواقع الخارجي. ويأتي الفُصام الشاب الذي نما وجدانياً نمواً غير سليم أو توقف نموّه الوجداني، فيجد نفسه في هذه السن في مواقف تستغرقه ويضطرب بها ويتداعى بالمرض. ولسن الشباب مقتضيات من الواقع تستنفد طاقة الشاب، ولها وطأة قد ينوء تحتها جهازه النفسي. وهذا الواقع في الأحوال الصحية هو الذي يزود الشاب بكل وسائل الإشباع العاطفي وكل الفرص التي تتحقّق بها حاجاته، ولكنه بالنسبة للفُصامي يبدو وكأنه يعارض هذا الإشباع ويعوق ذلك التحقّق، لأن جهازه النفسي أعجز من أن يواكب مقتضياته ويساير مواقفه، فتغرقه المشاكل الاجتماعية، وتتحطّم بها وسائله الدفاعية العادية، فلا يقوى على التعامل بفاعلية وكفاءة مع الناس والظروف.

ولأواسط العمر أو الرشد الناضج مشاكله المختلفة عن مشاكل الشباب. والراشد الناضج يواجَه بتحديات منها «المسؤوليات» الجسام العائلية وغير العائلية الملقاة على عاتقه، فهو مُطالب بأن يعول أسرته وأن يرعاها صحياً واقتصادياً ونفسياً وتعليمياً، وهو يعطي ولا يتوقع لعطائه مقابل، وربما يضطر أن يعول أبويه، وربما حماه وحماته، وكلما زادت سن هؤلاء كلما زادت الأعباء عليه.

والراشد الناضج وسط مسؤولياته الكثيرة قد يُخشَى عليه أن يفقد ذاتيته وتتوه منه هويته وتزول عنه فرديته، ويطلق علماء علم النفس الوجودي على هذه الحالة إسم «السقوط النفسي»، وهو أن ينسى الشخص نفسه في الآخرين وتكون له قيمهم ويتخلق بأخلاق القطيع. ويواجه الراشد الناضج بتحدٍّ المحافظة على ذاتيته وفرديته وهويته ضد ما تهدف إليه وسائل الإعلام في الدولة ونظام التعليم، من مشابهة أفراد الأمة بعضهم بالبعض، وأن يكون التماثل بينهم في السكن واللباس والعقائد والأفكار والمشاعر. وعلى الراشد الناضج أن يوازن بين المطلبين: أن يكون نفسه وأن ينتمي لمجتمعه، وأن يحفظ عليه قيمه وأن يعلي من قيم جماعته، وأن تكون له خصائصه وأن تكون له خصائص قومه وشعبه.

ويعاني الشباب من «التناقض» بين ما تفرضه الحياة العملية من قواعد في السلوك لا تتفق مع ما يقول به الدين والأخلاق من مبادئ، غير أن الراشد الناضج يغلب عليه أن يوفّق بينهما، وأن يعمل على ألا يتضاربا فيه، وهو يعيش وقائع العصر المادية ويعاني أزمة الأخلاق في المجتمع، والمجتمع الحديث من سماته هذه «الازدواجية»، فبينما الجامع يدعو إلى أشياء فإن الشارع والمصنع ودور الحكومة تطبق أشياء مختلفة تماماً.

و«السقوط في الرتابة» تحدّ من تحديات أواسط العمر، وذلك أن الراشد الناضج وقد احترف وظيفة طوال هذه السنوات فقد يُخشَى عليه أن لا يتعامل معها بالإبداع اللازم، وقد تصبح حياته الزوجية مملة لتشابه أيامها ووقائعها، وقد يزهد هذه الرتابة ويصاب بالسأم،

وقد يكره مسؤولياته، ولربما يصحو يوماً ليعلن تمرّده على مهنته وأولاده وزوجته. والتحدّي الذي يواجَه به الراشد الناضج هو أن يظل على اهتمامه ببيته، وأن يوفّق بين مطالبه ومقتضيات وظيفته ومستدعيات حياته الخاصة، وأن يحافظ على خصوصيته وسط هذه العمومية التي تغرقه فيها مسؤولياته، وأن يحفز همّته باستمرار ويحافظ على طموحاته ويستحث دافعيته.

ولربما تواجَه حياته الزوجية بتحديات جنسية تدفع به إلى إنشاء علاقات بطرف ثالث. «وسن الرجولة» هو السن التي قد يتورط فيها الرجل بأن تكون له «علاقات جنسية خارج نطاق الزوجية». كما أن المرأة في أواسط العمر قد تنزلق إلى علاقات عاطفية مع غير زوجها عندما يعزّ عليها أن يفهمها الزوج أو أن تجد لديه الحنان الذي يعوزها في هذه السن.

ويُخشَى على الرجل والمرأة مع التقدم في السن أن يتثبتا على سلوكيات واتجاهات معينة. والتحدّي الذي قد يواجهاه خصوصاً في الأربعينات، يفرضه العزوف عن التجديد والخوف من كل جديد باعتباره بدعة، أو باعتبار أن زمنهما قد تخلف بهما، أو باعتبار الأفكار التي يمثلها المُحدَث والتي لا يفهمانها. والراشد الناضج في هذه السن كثيراً ما يتصادم مع الجديد، والجديد غالباً يبشّر به الشباب، ويتمثّل «صراع الأجيال» في التناقض بين مقتضيات حياة واعدة يطلبها الشباب، ووقائع يومية لُحمتها ارتباطات من الماضي، تُزكيها مبادئ وواجبات قديمة، ينهض بعبئها الرجال والنساء في أواسط العمر وسن الكهولة. والراشد الناضج الذي يحقّق لنفسه التوافق المنشود هو الذي يتصرّف بمرونة مع الأحداث، ويحاول باستمرار أن يتفهّم الجديد وأن يواليه، وألا يتخلف عن الركب، وأن يساير الأفكار الحديثة، وأن ينفتح على العالم ويحاذر الانغلاق والجمود والرتابة.

وهذه الحياة الحديثة بمتطلباتها هي تحدٍّ للراشد الناضج، وعليه أن يفهم باستمرار أن «الصيرورة» هي قانون الوجود، وأنه لا شيء ثابت، وأن كل شيء

إلى تغيّر، ومواكبة التغيّر تستنفد طاقة نفسيّة وتتطلب عزيمة، بالإضافة إلى أن إيقاع التغيّر يشتد. ولئن كانت هناك سمة تبرز على غيرها من سمات عالمنا الحديث فهي «المنافسة والسعي وراء النجاح»، وعلى الراشد الناضج أن يواجه تحدّيات التغيير والمنافسة ومتطلبات النجاح، وكلها أمور لها ضغوط نفسية مردودها على نوعية الحياة العائلية وتخلق مشاكل يعاني منها الراشد الناضج. وكان الأطفال في الماضي غير البعيد بمجرد البلوغ تكون لهم حياتهم المستقلة، وأما اليوم فإن عبء احتمال تربية الأطفال قد يستمر مع الراشد إلى عمر متأخر، وربما قد يبلغ الكهولة وما يزال أولاده يعتمدون عليه. وهذا «الاعتماد الطويل الأجل على الأبوين» من قِبَل الأولاد هو ظاهرة جديدة شديد التعقيد، يستوجب معها على الأبوين أن يطّرد إشرافهما، وأن تتغير مع هذا الاطّراد الأدوار التي يقومان بها بحسب أعمار الأولاد وتطورات نموهم وترقّيهم.

وتتفاوت الحلول التي يمكن أن يلجأ إليها الراشد الناضج بحسب شخصيته والملابسات المختلفة للمواقف التي يتعرّض لها. وعموماً فإن بلوغ هذه السن يجعل صاحبها يميل إلى أن يكون عملياً في تعامله مع مشاكله، وإنْ كان في الوقت نفسه مثالياً في فلسفته، وعفوياً في سلوكه الاجتماعي. وأواسط العمر هي السن البراجماتية من سنوات العمر التي نمرّ بها. بمعنى أننا فيها ندخل مختلف المواقف بذهن مفتوح، ونتعرض لملابساتها ونستعرض الحلول لها عفو الخاطر، ونتحمل مسؤولية ما نفعل، وقد نضطر إلى أن نغيّر من سلوكنا كلما دعت الضرورة.

وفي هذه السن نولي «المال» أهمية خاصة، مع زيادة عدد أفراد الأسرة، وارتفاع تكاليف المعيشة، وتعدّد أوجه الإنفاق، ومن ثم يكون اهتمامنا بزيادة «الدخل» والحرص على البحث عن أعمال إضافية. ومن التحديات التي نواجهها في هذه السن المواءمة بين الرغبة في أن نعمل أكثر والرغبة في أن تكون لنا «إجازاتنا» التي يمكن أن نروّح فيها عن أنفسنا. وكثيراً ما نضحّي بأوقات فراغنا والراحة التي تتوجب لنا

فيها مقابل أن نرفع من مدخولنا. وقد يكون ذلك مصدر مضايقات بين الزوجين من جهة، وبينهما وبين الأولاد من جهة أخرى. ونخطئ إذ نحسب أن المال في شكل هدايا للزوجة أو مصروف أكبر للأولاد قد يعوّضهم عن عدم تواجد الأب بينهم بحجة العمل.

وأواسط العمر هي «سن المسؤولية»، وقد يجد الأب نفسه ممزقاً بين مسؤولياته المتعارضة وخاصة في الأسر التي تعاني من ضوائق مالية. والأبوة سند وعون ودعامة قوية، والأمومة حنان وعطف ومحبة وفهم. وبقدر ما يعطي الانتماء للأسرة من إشباع عاطفي للأبوين بقدر ما تكون رغبتهما في بذل المزيد من الجهد لإسعاد كل الأطراف. والنضج في أواسط العمر يعينهما على تجاوز كل المشاكل، وتقرّب بينهما هذه المشاكل وتكون من عوامل المزيد من التفهّم والمشاركة والتكافل. ومن تحديات هذه السن الرغبة في «استشعار الأمان»، إلا أن السعي من أجل ذلك قد يتسبّب في الكثير من القلق، ولعله من نافلة القول أن نردّد أنه لا سعادة زوجية بدون هذا الأمان، ويطلبه الزوجان، وتلح عليه المرأة خصوصاً، وينشده الأولاد. وأمان سن النضج هو المقدمة لأمان قد يعمل الزوجان نهاراً وليلاً، وتستنفد الضغوط الاقتصادية الكثير من تفكيرهما ووقتهما، وقد تفسد بسببها العلاقات بينهما وخاصة في الطبقات الكادحة والمتوسطة، فأما الأولى فذلك لأنها تعيش في عوز، وأما الثانية فبسبب تطلعاتها، والمستويات الطموحة التي يريد أن يبلغها أفرادها، والمظهرية التي يريدون أن يحافظوا على أنفسهم فيها. وتفرض العلاقات الاقتصادية نوعاً من السلوك الاجتماعي، وتكون لها آدابها الخاصة سواء عند الطبقة العاملة أو البورجوازية. وفي أواسط العمر قد يظهر جمود البعض أو تسامحهم، «والراشد المتزمت» قد يصرّ على سلوكيات معيّنة يحسب أنه بها يحول دون انجراف أسرته مع تيار التغيّرات الاجتماعية والجديد من الآداب والأخلاق، وقد يقول بقدسية مدّعاة للتقاليد. وعكسه «الراشد الناضج» الذي يواكب التغيير والجديد ويسمح به،

ويعيش عصره ولكن دون تبذّل ولا إسفاف ولا تفريط ولا مغالاة، وهو الذي يوازن بين المستحدث من الأفكار والقديم من التقاليد، وعلى هذه الموازنة تعتمد ديمومة الحياة العائلية وتماسك البيت. وتختلف المفاهيم بين الراشدين بحسب الثقافة والطبقة الاجتماعية. وتطبيق هذه الموازنة يتباين في المدينة عنه في الريف، وكلما ساد الجهل، وتدنّت الأحوال المعيشية كلما ساد التعصّب وكثرت المنازعات وندر الفهم، ونحن نعيش فترة من التمزّق بين الحضارة الغربية الوافدة ولها هجمة شرسة، وبين تعاليم الإسلام بمفاهيمها السائدة، ويبدو أننا نعيش حالة من «اللاتوازن الوجداني والانفصام الفكري» تظهر آثارها جلية على الرجال والنساء في بلادنا في أواسط العمر، حتى ليبدو الناس أكبر من أعمارهم. ويصاب الكثيرون في هذه السن بالاكتئاب، وتتراوحهم تقلبات مزاجية، ويظهر عليهم القلق والتوتر، ومن الممكن أن يصابوا بالفصام، ولعله لهذا السبب ينتشر تعاطي المخدرات والخمور، وتعد بلادنا من أكثر العالم إستهلاكاً للمخدرات، ويعاني الناس فيها من اضطرابات الشخصية والكثير من الأعراض العصابية. والناس عموماً في أواسط العمر معرّضون في بلادنا وفي غير بلادنا لمختلف الاضطرابات النفسية، وهذه السن هي التي يكثر فيها المرضى الذين يعالجون بالمصحات النفسية، وعادة ما يبدأ الانهيار النفسي بالشكوى من الأرق والتعب والشرود، وقد تكون هناك أفكار غريبة يشطح إليها الذهن، أو تكون هناك هذاءات من نوع ما، وقد يتعذّر على الراشد أن يتواصل والناس من حوله، سواء في البيت أو في العمل، وقد تفيد المهدئات كعلاج مؤقت أو مساعد، كما قد تفيد الإجازات والسفر، إلا أن العلاج النفسي يصبح ضرورة أحياناً، ومنه العلاج بالتحليل النفسي، أو العلاج بالتنفيس، بمجرد البوح بالمشاكل وطرح المنغصات والمضايقات والتصريح بها، والإفشاء بالمشاعر المختلفة Talking out processes. ومن اللازم أن يكون للراشد «صديق» ينصحه ويُصدقه الرأي ويشير عليه. ويتوجب في كل الحالات أن تسود

العلاقات الزوجية روح المحبة والفهم حتى يتسار الزوجان. و«الإفضاء النفسي» مسألة حيوية في العلاقات الزوجية وللتخفيف من أعباء الحياة. وفي الحالات الشديدة قد يكون من اللازم إستشارة المعالج النفسي.

مراجع:

- Pressey & Kuhlechological Developments through the Life Span.
- Lehman, H.C.: Age and Achievement.

❖ ❖ ❖

- ١١ -
سيكولوجية السلوك

السلوك ومجاله ومحدداته ووراثته. السلوك وأنواعه. السلوك التعبيري. أنماط كريتشمر. دراسات أولبورت وڤيرنون. تأثير الضغوط النفسية على السلوك. دراسة حركات الأيدي عند الشعوب. تعبيرات الوجه. السلوكية، والاضطرابات السلوكية، والعلاج السلوكي.

❖ ❖ ❖

السلوك Behaviour هو الموضوع الذي يدور عليه علم النفس. والسلوك في اللغة سيرة الإنسان ومذهبه واتجاهه، فنقول إن أحد الناس حسن أو سيئ السلوك، ونقصد إلى وصف سيرته أو اتجاهاته أو مذهبه في الحياة. والسلوك في الاصطلاح أمر مختلَف بشأنه، وذلك أن جماعة السلوكيين Behaviorists قالوا إن السلوك هو ما يأتيه الفرد من تصرفات واستجابات واضحة للعيان ويمكن رصدها وقياسها، وقال غيرهم بتعريف أوسع للسلوك حيث ضمّوا إلى ما سبق ما يفكّر فيه الفرد، وما يتحصّل بذهنه من نتائج، وما يذهب إليه خياله وتصوّره، وتلك أمور قد يكون من الصعب ملاحظتها أو التصدّي لها، بالإضافة إلى أن علماء الطب قد رأوا أيضاً أن يوسّعوا من تعريف السلوك، فيضموا إليه العمليات التي تقوم بها الأعصاب وتنقلها إلى مناطق الجسم المختلفة، وتكون سمة لشخص بعينه، تؤثّر على سلوكه الظاهر وإن كانت هي نفسها سلوكاً مخفياً. وكذلك اعتُبرت اللغة سلوكاً فكرياً تنطرح فيها الأفكار فنصوغها كلمات وعبارات

يتفاهم بها الناس. ويبدو أن هذا الخلاف حول مفهوم السلوك قد ترتب على الرغبة في إقامة علم النفس على أساس موضوعي، له شكل وقواعد وقوانين محدّدة. ومن ناحية أخرى كانت هناك رغبة مماثلة في توسيع رقعة علم النفس، بحيث يشمل السلوك: الاستجابات الظاهرة والمخفية كذلك، والأخيرة كما نعلم هي التي تدفع إلى الأولى. والأولى أن نقول بوجهة نظر جامعة، فالسلوك من الاستجابات الكلية التي ينفعل بها الكائن الحيّ جميعه، وإن بدا أنه ينفعل بعضو دون سائر الأعضاء، ومن ثم فإننا إذا تعرّضنا لوصف السلوك الظاهر، عدّدنا أوصافه، فإذا تطرّقنا إلى ما يطرأ على الجسم من تغيّرات مصاحبة للسلوك الظاهر، فإننا قد نتناول العمليات الفسيولوجية الداخلية، أو قد نتناول ما يفكر فيه الشخص أو يتصوّره. ولنضرب لذلك مثلاً بالجائع: فإن ما يعتمل بداخله من عمليات فسيولوجية، تتعلق بالجوع، لِتجعله يستشعر وطأةً له تدفعه إلى أن يحصل على الطعام بطريقة ما من عدّة طرق ينصرف إليها تفكيره، ولكنه يختار أنسبها له ليتصرّف بوحيها محقّقاً لنفسه الشبع.

وتتعلق بالسلوك مجموعة من المصطلحات السيكولوجية، فالسلوك له مجال يتمّ من خلاله، ويُطلق عليه إسم «مجال السلوك Behaviour field»، وقد نقول «حيّز السلوك Behaviour space» أيضاً، ونعني بالمجال أو الحيّز: المكان الذي يحتوي الكائن والمثيرات للسلوك، وربما تكون مثيرات مادية من البيئة أو مثيرات من داخل الكائن نفسه. وتتبادل البيئة والكائن التأثير، وكل كائن لا بد له من مجال أو حيّز مجال، بحيث تكون هناك إمكانات لفعله أو انفعاله فيه. و«محدّدات السلوك B. determinants» هي العوامل التي تتدخل في المجال لتجعل الكائن يسلك سلوكاً معيناً. وربما تكون هذه المحددات وراثية تتعلق بأمور تجعل من الممكن أن يرث الكائن السلوك، وهذه هي الناحية التي تدرسها «وراثة السلوك Behaviour genetics، وموضوع السلوك Behaviour object» هو ما يستهدفه الكائن من سلوكه، و«السلوك التلقائي Spontaneous behaviour» هو العفوي غير

المقصود أو المتعمد. و«ملاحظة السلوك Behaviour observation» هي رصده وقياسه، ويكون ذلك في بيئة طبيعية أو داخل المعمل بإجراءات وأجهزة معيّنة. و«تشكيل السلوك Behaviour shaping» بتوجيه التعلّم وجهة يكتسب بها الكائن مهارات معيّنة تيسر له إتيان سلوك متعلم. و«المخزون السلوكي Behaviour repertoire» هو رصيد الخبرة السلوكية، والإمكانات السلوكية التي يمكن للكائن أن يمارسها، وتكون في استطاعته هذه الممارسة بحكم تكوينه وجنسه وما تعلمه. و«سجل السلوك B. record» هو الوصف التفصيلي لما لوحظ على شخص ما خلال مدّة معيّنة. و«تركيبة السلوك B. setting» هي مشتملات السلوك من حركات وأفعال ترتبط بموضوع أو مكان ما، بحيث إذا غيّرنا الأفراد لم تتغير تركيبة سلوك الأفراد الجدد عن الأفراد القدامى. و«قطعة السلوك B. segment» هي أصغر «وحدة سلوك B. unit» وصفية لاستجابة معيّنة. و«التماثل السلوكي Behavioral homology» هو أن يأتي سلوك كائن مشابهاً لسلوك كائن آخر، من حيث النمط أو ما يدفع إلى السلوك، أو ما يهدف إليه. و«ديناميات السلوك Behaviour dynamics» هي دراسة دوافع السلوك ومسبباته، والنتائج التي تترتب عليه. و«السلوك اللغوي Verbal behaviour» ضرب من السلوك وإنما لا يكون فعلاً وحركة، وإنما ينطرح في عبارات يستجيب بها المرء لمثير من المثيرات. و«السلوك الكُتَلي Molar behaviour» هو السلوك منظوراً إليه ككل، أو كوحدة. وليس كمجموعة من الجزئيات، بعكس «السلوك الجزئي Molecular behaviour»، وهو الخاص بجزئية دون غيرها من الجزئيات المكوّنة للسلوك الكتلي أو الكلي. و«السلوك المتعيّن Intrinsic behaviour» يؤدّيه عضو من الجسم، بعكس «السلوك الخارجي Extrinsic b.» الذي ليس له عضو يقوم به، فالزعامة مثلاً لا يختص بها عضو أو أعضاء، بعكس أن تطرف العين فذلك سلوك العين مجاله. و«السلوك الصريح Explicit b.» نراه رأي العين، بعكس «السلوك المضمر Implicit b.» الذي يدخل كجزء من أجزاء عدّة يتضمنها سلوكٌ

كتلي، أو أنه «سلوك مُغَطّى .Covert b»، وهو أيضاً بخلاف «السلوك المكشوف .Overt b» أو الصريح. و«السلوك المتعلّم .Learned b» نقيض «السلوك المكشوف .Overt b» أو الصريح. و«السلوك المتعلّم .Learned b» نقيض «السلوك الفطري .Innate b»، و«السلوك الجنسي .Sexual b» هو ما يكون له طبيعة جنسية. و«السلوك العُصابي .Neurotic b» عَرَضٌ من أعراض الإصابة بالعُصاب النفسي؛ و«السلوك السوي .Normal b» هو السلوك العادي الذي يأتيه أغلب الناس وليس عليه مأخذ ما؛ و«السلوك الوسواسي Obsessional .b» سلوك عُصابي يتكرر مع المرء نتيجة هواجس معيّنة ويأتيه صاحبه مقسوراً عليه. و«السلوك السلبي .Negative b» يناقض «السلوك الإيجابي .Positive b». و«السلوك الإجرامي .Criminotic b» يصف الفعل الإجرامي الذي يقوم به المجرم. و«السلوك الفوضوي .Chaotic b» ليس لاعتبارات النظام والإعداد والترتيب فيه نصيب. و«السلوك الجمعي .Collective b» يقوم به مجموعة من الناس يتشاركون في التفكير والفعل. و«السلوك كلغة Behaviour-language» هو ما نلجأ إليه من حركات أو إيماءات صامتة تقوم مقام اللغة، وذلك أظهر لدى الأطفال في مراحل العمر الأولى وقبل تعلّم الكلام، حيث قد يبكي الطفل أو يبتسم أو يضحك أو يبدي الضيق أو الانزعاج بأصوات فيها غَناء عن الكلام. و«السلوك العُقْديّ .Normal b» من مصطلحات العلاج السلوكي الجماعي للأطفال، فيُظهر الطفل أسوأ ما عنده من سلوكيات في الجلسات الأولى، ويبدو صخّاباً، وسمي هذا السلوك عُقْدياً من العُقدة – وهي نقطة التقاء مدارين، وهي أيضاً العَجُز، ومنبت الأوراق في الشجر، وفي السلوك هي النقطة التي يبدو فيها المعالج مطيعاً من ناحية ورافضاً متمرداً من ناحية أخرى. و«نُهَيْر السلوك .B. stream» هو استمرار السلوك في مجال معين صادراً لا يتوقف. و«السلوك الأمومي Maternal .b» هو السلوك العاطف الحنون الحادب الذي يميّز الأمهات في رعايتهن للصغار. «والسلوك الإحجامي .Abient b» سلوك اجتنابي، قد يكون به نجاة الكائن الحيّ من أخطار محدقة، ونقيضه «السلوك

الإقدامي .Adient b» الذي به يكون إقبال الكائن على المثير. و«التكامل السلوكي Behavioral integration» هو أن تترابط مجموعة من الأفعال المختلفة والمنفصلة عن بعضها بحيث تصنع سلوكاً كلياً يؤدّي إلى نتيجة واحدة لم تكن لتتحقق لولا اجتماع هذه المسالك عليها. وكل فعل من الأفعال السابقة هو «وحدة سلوكية Behaviour episode» مستقلة لها بدايتها ونهايتها، إلا أنها تصنع مع غيرها من الوحدات سلوكاً كلياً متكاملاً.

و«السلوك التعبيري .Expressive b» هو السلوك الكاشف عن حقائق الشخصية ويتميّز به الشخص، ويُعرف عنه ويكون دليلاً عليه، وقد يكون سلوكاً حركياً، أو لفظياً، أو الاثنين معاً، ومن ذلك الرقص التعبيري، والتمثيل الإيمائي، والتمثيل عموماً، والرسم، وخط اليد، وحركات الدين، والمشية، والأوضاع التعبيرية للجسم كالتي يتّخذها في الغضب مثلاً، وعند الاستعداد والتهيؤ، وما يظهر على الجسم من علامات الانتباه واليقظة أو التعب والتواني والغفلة.

ودراسة السلوك التعبيري تتصل بالتشخيص النفسي، وقد جاءت دراسة رسوم الأطفال الذين يعانون اضطرابات نفسية، متوافقة مع نتائج دراسة شخصياتهم وتحليل ردود أفعالهم على بطاقات رورشاخ، كما ان الدراسات على رسوم الأطفال الأميركيين أثبتت توافقاً في السلوك التعبيري عند العميان.

ويحظى السلوك التعبيري بالاهتمام منذ القدم بالنظر إلى قيمته التشخيصية. وقد نبّه أرسطو Aristotle (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) في كتابه «الشعر Poetics» إلى المعنى الذي يمكن أن ينصرف إليه السلوك التعبيري في الفنون، وقال إن السلوك التعبيري غايته الإظهار الخارجي للدواخل. والفرق بين السلوك العادي والسلوك التعبيري أن السلوك العادي يستهدف عملاً أو فعلاً بصرف النظر عن نتائجه، فأن تتحقق أو لا تتحقق نتيجة له، مسألة مرهونة بالظروف، والنتيجة في السلوك العادي شيء إضافي بالنسبة للفعل، وأما السلوك التعبيري فالفعل فيه ونتيجة الفعل مرتبطان. والسلوك التعبيري محاكاة

للطبيعة، ومعنى أنه محاكاة Imitation أنه يوجِد ما لم تستطع الطبيعة أن توجده على النحو الذي يمكن أن توجده الطبيعة عليه لو أنها أنتجته فعلاً، فالرقص التعبيري مثلاً، أو التمثيل، هو محاكاة للطبيعة، أي أنه يستلهم الموجود منه في الطبيعة ويبدع مثله من غير أن يكون صدى أو نسخة أخرى مكرّرة من الطبيعة.

والسلوك التعبيري قد يكون إظهاراً مباشراً لحالة نفسية، كالفرح، أو الغضب، أو الخوف، وقد يكون سلوكاً تواصلياً غريزياً بأنماط سلوكية وراثية، أو تواصلياً قصدياً بأنماط سلوكية متعارف على معانيها، وقد يكون ظاهرة تنفيس عن توترات إنفعالية، وقد يكون سلوكاً تكيّفياً، بعنى أن صاحبه يصدر به عن رغبة في التكيّف مع البيئة ومتطلباتها، أو أنه سلوكٌ شرطي وكان في الأصل سلوكاً تكيّفياً، كأن يكون تعبيرنا عن رفضنا لحكايات مقززة بأن نظهر التقزز منها بالتعبيرات المتعارف عليها، وهي تعبيرات تأتينا عفوياً في الطفولة ونستجيب بها لما يُقدّم لنا من أطعمة قد لا نتذوقها.

ولعل أبرز الدراسات النفسية للسلوك التعبيري الحركي هي الدراسات في مجال المسرح، والدراسات النفسية الحركية التي يقوم بها علم النفس الرياضي. والحركات المعبّرة التلقائية هي حركات أولية، وأما الحركات التي يكون إظهارها قصداً فهي حركات متعلَّمة ويُطلَق عليها لذلك إسم الحركات التعبيرية الثانوية، وهي تعدّل من الحركات التعبيرية الأولية وتضيف إليها بحسب الثقافة والتربية. وقد ثبت من دراسات أولبورت وفيرنون Allport-Vernon (١٩٦٠) على السلوك التعبيري، أن المهاجرين الوافدين من إيطاليا إلى الولايات المتّحدة تتأثر تعبيراتهم الحركية بالثقافة الأميركية بعض الشيء، ويقل استخدامهم لأيديهم وتعبيرات الوجه عمّا هو عليه الإيطاليون في بلادهم، إلا أن أولادهم الذين ينشأون كليةً في البيئة الأمريكية تقترب تعبيراتهم الحركية كثيراً من التعبيرات الأمريكية العادية. والتعبيرات الحركية قد تصدر مُغالَى فيها، وقد تكون ردود فعل عفوية للمشاركة الاجتماعية أو

للتواصل، وبعضها لا يتضمن تعبيراً حقيقياً عن اتجاهات دافعية، وصدوره ليس إلا من الردود المتعارف عليها من باب التحية أو المجاملة، أو يكون للتمويه والخداع، أو نفاقاً. وبعض التعبيرات يكون رمزياً، وقد تعني الشك أو الاستنكار أو عدم التصديق أو الاستحسان، وهي تعبيرات لها وظائفها اللغوية أو انها تحلّ محل السلوك اللفظي.

ومن التعبيرات الأولية ما يشترك فيه الإنسان مع الحيوان كالصراخ مثلاً، ومنها ما هو إنساني كالضحك، وبعض القرود قد يظهر أنها تضحك إلا أن الإنسان يتميّز بالضحك الصريح. ويأتي الأطفال في الأسابيع الأولى بعد الولادة ردود فعل كالبكاء، وتتقبض عضلات وجوههم ويظهر التوتر على الجسم، ثم يبدأ الابتسام بعد ذلك بقليل. وتلاحظ هذه التعبيرات على الأطفال في ظروف ليس فيها تعلّم، وتخلو من التعزيز الاجتماعي، كما عند العميان أو الحالات التي يصاحب فيها الصمم والعمى. والطفل الأعمى يبتسم برغم أنه لا يرى أحداً يبتسم ولم يتعلم ذلك. وتثبت الدراسات المقارنة تشابه التعبيرات الأولية في كل الثقافات، وصدورها عن الحالات نفسها الدافعة إليها، وتُستَخدم للغايات نفسها، فالضحك مثلاً يعبّر في كل مكان عن الفرح حتى لو كانت له أحياناً معان إضافية، أو كانت هناك أحياناً طرق أخرى للتعبير عنه. ومن الممكن استحداث بعض ردود الفعل التعبيرية كالغضب والخوف والانتباه في الحيوانات، باستثارة المخ الأوسط، وكذلك قد يضحك أو يبتسم أو يبكي الإنسان إذا عانى من تلف بالمخ، أو تعرّض لتنبيه كهربي في منطقة المعاد.

وتثبت الدراسات على أنواع الحركات التعبيرية، انها جميعاً عند الفرد الذي لا يعاني من الاضطراب، تأتي متوافقة ولا تتعارض من حيث المعنى. وجاء تحليل هذه الحركات أيضاً عند أشخاص من أنماط كريتشمر (Kretshmer: Physique and Character - 1971) متوافقاً مع المعروف من حركات هذه الأنماط. كما ان دراسة الأصوات وحدها قد جاءت متفقة مع المعروف عن الشخصيات التي أصدرتها. وأيضاً ثبت توافق الخطوط

اليدوية مع بقية الحركات التعبيرية التي يمكن أن يأتيها أصحاب هذه الخطوط. وثبت من دراسات أولبورت وڤيرنون أن أنماط حركات اليدين والرأس وغيرهما هي سمات ثابتة في الشخصية، وأن العمل نفسه الذي يمكن أن تقوم به مجموعة من العضلات عند شخص ما يتم دائماً بالحركات نفسها كلما تكرر هذا العمل، وأن الأعمال المختلفة التي يمكن أن تقوم بها مجموعات عضلية مختلفة تتم دائماً بالحركات نفسها من مجموعات العضلات نفسها، وهو ما يثبت أن هناك «وحدة في الشخصية» تنعكس على التعبيرات الحركية، وانه لهذا السبب فإن الأفعال وعادات التعبير تُظهر انسجاماً وتوافقاً بينها. وقد اكتشف أولبورت وڤيرنون ان هناك بدلاً من عامل سرعة واحد، ثلاثة عوامل مستقلة: للرسم، وللتعبير اللفظي، وللحركات الإيقاعية، وتبين من ثم أنه لا وجود لإيقاع نفسي واحد، وأن بعض الأفراد يعبّرون عن أنفسهم بتوكيد أكبر من الآخرين نتيجة ما يسميانه «الضغط النفسي Psychic pressure»، وأن البعض يميلون للاتساع في الحركات بحيث تشغل مساحات أكبر من حيث المشية أو خط اليد أو المساحات التي تدور فيها التعبيرات اليدوية، والبعض متحرر ومندفع في حركاته، ومع ذلك فهناك درجات من التوافق الحركي كما ان هناك درجات من وحدة الشخصية، وطالما أن الشخصية منتظمة فإن حركاتها متسقة مع بعضها، وانفراط عقد الشخصية يكون به تناقض الحركات فيما بينها.

وقد ثبت أن وصف الأفراد من أصواتهم فقط لا يختلف عن وصفهم مما يظهر من سلوك عياني في حضورهم. وكذلك فإن توصيف الشخصية من حركات الأيدي فقط والأوضاع التي تتخذها، هو توصيف صادق للشخصية. والمعروف أن المرضى بالفُصام الكتاتوني يستخدمون أيديهم كثيراً للتعبير عن توهماتهم، فقد يبسط المريض أصابع يديه العشرة ويتثبت على ذلك تعبيراً عن الوصايا العشر (هذا هو تفسير أحدهم وليس تفسيرنا، لأن الثقافات تختلف في ذلك)، وقد يضم يديه بشدّة رمزاً للقوة. و«دراسة حركات

الأيدي» عند الشعوب تؤكّد الخصائص النفسية المعروفة عن الشخصية القومية، فالشعب الإيطالي مثلاً يغالي في استخدام الأيدي، وفي التأكيد بها على ما يقوله الأفراد، واليهود عموماً مقتصدون في استخدام الأيدي ويستعملونها كثيراً في التعداد، كأن يقول اليهودي أولاً وثانياً وثالثاً إلخ. فيعبّر بأصابعه عن ذلك. و«المشية» عند كل شخص من خصوصياته، وترتبط بنبضه وسرعة تنفسه، ويتعرف الكثيرون على الأفراد المختلفين من رؤية مشيتهم وحدها أو سماع صوت المشية. وفي إحدى الدراسات كانت تُقرَأ القصص ويُطلَب من المفحوصين إعادة سردها، وقد تبين أن «أسلوب سرد القصص» يتأثر بالشخصية ويتوافق مع الخصائص النفسية الأخرى التي تظهرها مختلف التعبيرات الحركية أو الصوتية. وفي دراسة أخرى على «تعبيرات الوجه» تبين أن الجزء السفلي منه أكثر تعبيراً من الجزء العلوي، وأن الجزء الأيمن أقوى تعبيراً من الجزء الأيسر. وكذلك تبين من دراسة الصور للأعمار المختلفة أن تعبيرات الوجه لا تختلف في سن الرابعة عنها في سن الرابعة والثلاثين. وهناك ما يثبت أن الإنسان يتميز عن الحيوان بعضلات في الوجه، خاصة بمنطقة الحاجبين، مهمتها التعبير عن العواطف والانفعالات الرهيفة، وفيما عدا ذلك فقد يتشابه الإنسان والحيوان في الكثير من تعبيرات الوجه، كالتكشير، وإظهار الأنياب، وفغر الفم، واتساع العينين عند المفاجأة. وكثير من الناس قد يسيئون تفسير صور الوجه وتعبيراته، ودراسة الشخصية من تعبيرات الوجه تصيب في ٢٥ أو ٣٠٪ من الحالات، ولا تفيد دراسة الوجه إلا إذا اقترنت بدراسة التعبيرات الأخرى المصاحبة لمناطق الجسم الأخرى، كاليدين، وحركة الأقدام، والأوضاع التي يمكن أن يتخذها جسم الشخص.

و«السلوكية Behaviorism» اصطلاح قال به لأول مرة جون برودواس واطسون John Broadus Watson سنة ١٩١٣، وهي اتجاه في التفكير، ومدرسة في علم النفس، يشار إليها أحياناً باسم المدرسة السلوكية Behaviour school، تقوم على

الدعوة إلى قصر البحوث النفسية على الظواهر الموضوعية للسلوك التي في الإمكان ملاحظتها وإخضاعها لمناهج البحوث العلمية الطبيعية. والسلوكية كحركة علمية من الحركات التي اهتمت بدراسة ما توصل إليه الاتجاه الموضوعي في علم النفس، وهو الاتجاه الذي يقصد إلى إنشاء علم نفس موضوعي، وكانت في زمنها تعتبر ثورة على المذهبين الوظيفي Functionalism والاستبطاني Introspectionism، والأول يُعنى بدراسة السلوك من حيث وظيفته أو نفعه، والثاني يدرسه من حيث عملياته الشعورية في العقل. وكان واطسون يقول بوجهة نظر تجعل العلم مساوٍ لكل ما هو مادي وميكانيكي وفيزيائي، وقال بأن كل ما يُذكر عنه أنه نفسي فهو غير علمي ومن الظواهر فوق طبيعية، ومن ثم فقد تناول قضايا الشعور بالنقد الشديد، وانتقد أية نظرية تُدخِل في اعتبارات بحوثها النواحي الذاتية والعواطف والإرادة وأية مصطلحات أخرى لا يمكن إخضاعها للملاحظة والقياس. وقال واطسون إن الاتجاه العلمي الحقيقي في علم النفس: هو الذي يقتصر على البحث في السلوك بوصفه استجابة عضلية وغُدِّية، وأما الشعور والحالات النفسية فتلك أمور ليس مجالها العلم كعلم. ووجهة النظر هذه المتشدّدة قد يُطلَق عليها أحياناً إسم «السلوكية الراديكالية Radical behaviorism»، تمييزاً لها عن اتجاهات سلوكية أخرى أقل تشدداً وبها اختلافات هامة عن سلوكية واطسون، ومن ذلك سلوكية سكينر Skinner، حيث يتوجه الاهتمام فيها إلى تأثير السلوك على البيئة وليس على السلوك نفسه كما فعل واطسون ذاهباً في ذلك مذهب بافلوف Pavlov (١٨٤٩ - ١٩٣٦) الروسي. و«سلوكية بافلوف» - وهي نسخة أخرى من المدرسة السلوكية، ويقال لها «السلوكية الروسية» في مقابل «السلوكية الأمريكية» عند واطسون وسكينر وغيرهما - تقوم على دراسة السلوك باعتباره فعلاً شرطياً، وتدرسه من ناحيته الفسيولوجية.

وكانت هناك تخريجات أخرى بخلاف ما سبق حول مناهج السلوكية، ومن ذلك الاتجاه السلوكي عند هل Hull (١٨٨٤-

١٩٥٢)، والاتجاه الغرضي عند تولمان Tolman (١٨٨٦ - ١٩٥٩). وبينما نجد السلوكية الأمريكية والروسية، كلاهما اتجاهان عمليان واهتمامهما بالسلوكية كمنهج في البحث، فإن «السلوكية الأوروبية» إتخذت شكل التنظير والفلسفة عند جيلبرت رايل مثلاً.

ويعرّف واطسون السلوك باعتباره حركة تُؤدَّى في الزمان والمكان، من ثم يصبح من الممكن قياسه باعتبار أن له كَمًّا، وكل كَمّ يقاس، والكمّ مجال العلوم الطبيعية.

ويتوجّه واطسون باهتمامه إلى نشاطات الكائن الحيّ باعتبارها الكليّ، إلا أنه انصرف إلى البحث في نواح معيّنة تتصل بالسلوك والعلاقة بين المثير والاستجابة، وعنده أن كل سلوك إستجابة لموقف أو لإثارة، فالطفل مثلاً تتربّى لديه اتجاهات نحو المحيطين به، وأساس هذه الاتجاهات المواقف الكثيرة التي كان ينفعل لها باستجابات تكوّنت منها هذه الاتجاهات. ويمكن ردّ العادات إلى المثير - الاستجابة، وكذلك العواطف، والتفكير. فلو حلّلنا أية عادة فسننتهي حتماً إلى أنها كانت استجابة لمثير. ومن ثم فإننا لو استطعنا أن نَخْلُص فعلاً إلى المثير الأصلي الذي ترتبت عليه الاستجابة، فإننا باستحداثه قد نستحدث أيضاً الاستجابة المتوقعة، بمعنى أننا نستطيع أن نتحكم في السلوك بتحكمنا في الاستجابات.

ويرى واطسون أن الكلب الذي يتحلّب ريقه لرؤية الطعام، قد يتحلّب ريقه أيضاً بظهور مثير شرطي Conditioned stimulus يترافق مع ظهور المثير الأصلي، كأن يكون جرساً يدق، فإذا دقّ الجرس سنجد أن الكلب يستجيب حتى ولو لم يظهر الطعام، وهو ما يسميه التعلم بالإشراط Learning by conditioning، ويُرَدّ إليه أغلب ما نتعلمه، فالطفل يتعلم أن يحبّ أمه بالإشراط، لأن وجه الأم يترافق وأن يُطعَم من الثدي، فيمتد حبّه للثدي المُطعِم إلى الأم، ويتعلم أن يستجيب لمداعباتها حتى وإن لم يكن هناك إطعام.

والطفل «ألبرت Albert» الذي أجرى عليه واطسون تجاربه في الخوف، تعلّم أن يخاف من أي شيء له فِراء، نتيجة ترافق

هـذا الشـيء ومـثـيـرات يسـتـجـيب لـهـا بالخوف. ولذلك كان واطسون يقول إنه يستطيع أن يعدّل من السلوك كيفما يشاء، ويصنع من الاستجابات والاتجاهات في الأطفال ما يريد، بحيث يتحكم في تكوين الـطـفـل، ومـن ثـم تـكـويـن الـراشـد الـذي سيكونه من بعد!

ولـقـد كـان اهـتـمـام واطسون بـالـنـواحـي العلمية بحيث أنه أراد أن ينشّئ الناس أولادهم على العلم دون العواطف! ولقد قال قولته المشهورة «إن حب الأم هو أقوى ما يمكن أن يُعطَى للطفل من السموم!»، فظن الناس أن التدليل والعطف والحدب يـفـسـد الأولاد، فـكـانـت الـنـتـيـجـة أنـهـم أسـرعـوا إلـى تـعـهـد أطـفـالـهـم بـالـرضـاعـة الاصطناعية حتى يقللوا من أخطار تأثير الأم عليهم. وحتى العواطف قال عنها واطسـون إنـهـا يـمـكـن أن تُـرَدّ إلـى الاستجابات الطبيعية الحشوية! فالحب مثلاً هو أصلاً إستجابة جوع أو جنس؛ وأمـا الـتـفـكـيـر فـيـخـتـلـف عـن الـعـواطـف، وأصل التفكير على ذلك ليس حشوياً مثل العواطف. وكل صور التفكير عبارة عن لغة ضمنية Implict language يمكن ردّها إلـى حـركـات عـضـلـيـة تُكـتَسـب بـالـتـعـلّم الإشـراطـي، والـدلـيـل عـلـى ذلك أنـه بـالإمـكـان تسـجـيـل حـركـة الـحـنـجـرة للشـخـص الـذي يـنـهـمك تـفـكـيـره فـي حلّ مسألة رياضية، وأيضاً فإنه أمكن رصد حركة الأصابع عند المصابين بالصمم والبكم وهم يحلمون أو يفكّرون.

وكـان واطسـون مـن الـقـائـلـيـن بـتـأثـيـر البيئة، ومن دعاتها المتحمسين، وتجاهل أثر الوراثة ولم يتعرض له. وكان يرى أن الإنسـان والـحـيـوان سيّـان إزاء الـطـبـيـعـة والبيئة، وما يجري على أيهما يمكن أن يجري على الآخر، ولذلك خصّص الكثير من وقته لدراسة أثر البيئة على الحيوان لـيـسـتـخـلـص مـن ذلك قـوانـيـن يـمـكـن تطبيقها على الإنسان. وهناك تجارب لا يـمـكـن إجـراؤهـا عـلـى الإنسـان ويـمـكـن الاسـتـفـادة مـن إجـرائـهـا عـلـى الـحـيـوان وتعميمها على الإنسان من بعد، بعد أن نضع في اعتبارنا تعقّد التركيب الإنساني. ونتيجة هذه النظرة أن المدرسة السلوكية كـانـت فـيـهـا الـتـجـارب الـكـثـيـرة عـلـى الـحـيـوانـات وخـاصـة فـي مـجـالات عـلـم النفسي الفسيولوجي والسلوك المتعلّم.

وهناك أوجه نقد عديدة للمدرسة السلوكية: فدعواها العريضة أنها تقوم على «الموضوعية» يمكن دحضه بأن الموضوع الواحد قد يختلف رصده من ملاحظ لآخر، «والذاتية» موجودة طالما كان هناك «ملاحظ». وكان اهتمام السلوكية «بالعالم المادي» دون «النفس» باعتبار أن القول بالنفس يردّنا إلى القول بالروح في الديانات وغيرها، فأسقطت «الدراسات النفسية»، وكان الأولى بها أن تُدرِج الظواهر النفسية ضمن دراساتها العلمية. ولم توفق السلوكية عندما ردّت «العواطف» إلى أصول من الاستجابات الحشوية، وردّت «التفكير» إلى الحركات بالحنجرة، وذلك شيء قد تبدو معه الأقوال أو الآراء التي ذهبت إليها أقوالاً أو آراء علمية، أو لها وجه علمي، وهو ما يمجّه الذوق ويرفضه العقل. وجانَبَ السلوكية الصواب إذ ردّت عمليات التعلّم المعقّدة جداً إلى شيء بسيط غاية البساطة هو «العلاقة بين المثير والاستجابة». و«الإنسان ليس هو هذا الكائن الآلي» الذي يمكن التحكّم في تعلّمه واستجاباته، بحيث إذا عَلِمنا بالمثير فيمكن أن نستحدثه لنستحدث الاستجابة. فالإنسان له «إرادة» ويترسّم «غايات» معيّنة لنفسه، ولا يمكن أن يخضع هذا الخضوع الآلي لما يُفعَل به، بالإضافة إلى أن السلوكيين - ومنهم واطسون نفسه - يستبعدون فكرة «الشعور»، بما يفيد أن الإنسان لا يعي ما يفعله، وذلك أمر غاية السُخف! ويذهب بعض السلوكيين إلى تأجيل البحث في الشعور حالياً مما يجعل مذهبهم مذهباً ناقصاً، طالما أن «النشاط الشعوري» هو حقيقة لا تُنكر من حقائق الحياة. ورغم كل هذه المثالب في السلوكية إلا أن أفضالها على الفكر السيكولوجي لا تُجحَد، فقد أسهب السلوكيون في التجارب وجعلوا من علم النفس علماً موضوعياً وتطبيقياً، ولفتوا الانتباه إلى مجال لم يلتفت إليه علماء النفس من قبل، ألا وهو الناحية التطبيقية للمعرفة العلمية بالسلوك البشري، بهدف حلّ الكثير من المشاكل الحقيقية بدلاً من الانصراف بالكلية إلى دراسة أحوال الشعور دون غيرها.

و«الاضطرابات السلوكية Behaviour disorders» إصطلاح فضفاض أدّعى إلى إدراجه ضمن الاضطرابات الطبية النفسية، ويُقصَد بها الانحرافات السلوكية عند الجانحين المراهقين، كالهروب من المدرسة، والشجار، والسرقة، والتزييف، وإشعال الحرائق، وإتلاف الممتلكات، وتعاطي المخدرات والمشروبات الكحولية، وارتكاب الجرائم الجنسية، والصعلكة، والقوادة، وقد نُلحِق بها العادات السيئة عند الأطفال كقضم الأظافر، والبوال، والاستمناء باليد، ومصّ الإبهام، ونوبات الغضب وسورته التي لا مبرر لها. وغالباً ما تعني الاضطرابات السلوكية كل الأفعال التي يأتيها الشباب ولا يرضى عنها المجتمع وتحاربها الشُرطة، ويمكن أن توصف بأنها أفعال أو أنشطة مندفعة، ومتهورة، ومعادية للمجتمع. وقد تتضمن اضطرابات السلوك بعض الأفعال التي تُعدّ أعراضاً عُصابية مثل اللوازم، والتهتهة، والتجوال الليلي، والنشاط الزائد، رغم أنه من شروط الفعل ليكون اضطراباً سلوكياً أنه لا يصدر عن قلق عُصابي أو سوء فهم ذُهاني للواقع.

والعلاج السلوكي Behaviour therapy نوع من العلاج النفسي يقوم على النظرية السلوكية، بمعنى أن المشاكل الانفعالية لا يصاب بها البعض إلا لأنهم قد فشلوا في تعلّم استجابات ذات جدوى، أو لأنهم اكتسبوا أنماطاً من السلوك الخاطئ، ومن ثم فإنه لكي نصلح حالهم ينبغي أن يخضعوا لعملية تعلّم جديدة من شأنها فكّ الارتباط بينهم وبين الاستجابات الخاطئة أو الفاشلة وتعلّم استجابات جديدة مجدية وفعّالة وناجحة، ولهذا السبب فقد يُفضَّل أن يُطلَق إسم «العلاج بمقتضى نظرية التعلم Learning theory therapy» على إسم «العلاج السلوكي».

وليست ثمة حاجة في هذا النوع من العلاج النفسي لكشف المخبوء في اللاشعور، أو لزيادة استبصار المريض بحالته ومشاكله وأسبابها، أو للتوجه بالتغيير لشخصية المريض تغييراً يتناولها من أساسها، وإنما يهدف العلاج إلى مراجعة الأنماط الحالية لسلوك المريض، والعمل على أن يتخلص من

السيئ منها - وهو عادةً ما يشكّل أعراض الاضطراب، وبتعبير أحد السلوكيين «لو استطعنا أن نعاون المريض على التخلص من الأعراض فإننا بذلك نقضي على العُصاب» (Eysenck ١٩٦٠).

والعلاج السلوكي له عدّة طرق، ومن ذلك طريقة الإشراط التقليدي البسيط Simple classical conditioning، وتُستخدم لتغيير بعض أنماط السلوك دون البعض الآخر، ومنها البُوال، بأن ننيم الطفل البوّال على حشيّة موصلة كهربائياً بحيث يُدَق جرس إذا بدأ يبول فيوقَظ، وبتكرار ذلك لعدد من الليالي يعتاد على الاستيقاظ كلما امتلأت مثانته واحتاج أن يبول، فإذا تحقّق هذا التعديل لم تعد ثمة حاجة أن ينام على تلك الحشية واستقامت حياته.

ومن طرق العلاج السلوكي أيضاً طريقة الإشراط الإجرائي Operant conditioning، واستُخدمت مع بعض المرضى بالفُصام الذين يُضرِبون عن الطعام رافضين أن يتناولوه وحدهم، ويحتاج الأمر لتغذيتهم أن تقوم به ممرضة، وبعض من دأبهم أن يزعموا أن الطعام مسموم، أو أن الله قد أمرهم أن يصوموا، وبعضهم كان شديد الانطواء على نفسه ويعتزل الجميع ولا يفعل شيئاً البتة. وتقوم طريقة العلاج على اشتراط بعض الإجراءات ليمكن للمريض أن يتناول طعامه، فمثلاً لا يُدفع المرضى إلى المطعم، بل يُتركون أحراراً يدخلون إليه أو لا يدخلون، ويستمر الباب مفتوحاً مدّة ثلاثين دقيقة يُغلَق بعدها ويُترك المرضى بدون طعام، فإذا حان وقت الوجبة التالية أعلن أن الباب سيظل مفتوحاً لمدّة عشرين دقيقة فقط، وفي اليوم التالي يُعلن أن الباب سيظل مفتوحاً لمدة خمس عشرة دقيقة، وفي الوجبة التالية يُعلن أنه سيظل مفتوحاً لمدة عشر دقائق، وهكذا إلى أن لا يُفتَح الباب إلا لمدة خمس دقائق فقط. ونجحت التجربة، وفي خلال ثلاثة أيام لا غير كان كل المرضى قد واظبوا على اللحاق بالمطعم في الموعد المحدّد دون إبطاء ودون معاونة من أحد، بل وأكثر من ذلك أمكن للمشرفين على التجربة إشتراط بعض الإجراءات يقوم المرضى بتنفيذها ليمكن لهم أن يتناولوا وجباتهم، كأن يُشترط أن يكون الدخول إلى المطعم

بثياب معيّنة، أو أن يضع المريض قطعة نقدية في صندوق حتى يتسنّى له الدخول، ويُحال بين المريض والدخول إذا لم يرضخ لما يُطلب منه.

وفي العلاج بالإشراط المنفّر Aversion conditioning يمكن تغيير السلوك غير المرغوب بربطه بعقاب من نوع ما، فمثلاً قد نصبغ أظافر المريض بقضم الأظافر أو بمص الإبهام بالمُرّ، بحيث كلما رغب في مص إصبعه أو قضم أظافره أصابه النفور بتأثير المر.

وفي العلاج بالانطفاء Extinction therapy إذا لم تعزّز الاستجابة فإن المريض يقل إتيانه لها إلى أن تزول منه بالكلية، أي تنطفئ مع عدم تعزيزها باستمرار.

وفي طريقة الكفّ المتبادل Reciprocal inhibition يكون علاج الاستجابة غير المرغوب فيها باستثارة المشَاهد التي تستحدثها، ثم تعليم المريض أن يقطع الاستجابة غير المرغوب فيها باستجابة أخرى كالاسترخاء مثلاً، فمع تكرار التجربة تَكُفُ كلٌ من الاستجابتين وتزولان، فمثلاً في علاج المخاوف يُسأل المريض عما يخيفه، كأن يكون مشهد جنازة، ثم يبدأ المعالج فيصف له المشهد ويطلب منه رفع يده إلى أعلى عندما يبدأ شعوره بالحزن والقلق والخوف، ويكرر ذلك عدّة مرات إلى أن تصبح المسألة عادية ويتلاشى الخوف.

وفي العلاج بالانعكاس الشرطي Conditioned reflex therapy يستحث المعالج المريض على أن يعبّر عن انفعالاته باليدين والوجه والكلام، ولا يُخفي أو يكبت شيئاً مما يشعر، باعتبار أن الصحة الانفعالية تكون من خلال التعبير التلقائي والسلوك بعفوية، ومن ثم يحاول المعالج أن يشرط أو يهيئ مريضه ليتصرف بناءً على ما يشعر به، ويظهر ذلك على وجهه (الكلام بالوجه)، أو بأن يعارضه صراحة وبصوت جهير بأن يقول متعمداً «أنا... وأنا... وأنا» دون تردّد، وأن يتقبل مديح الآخرين له ويشكرهم عليه ويبادلهم المديح، وأن يتعلم أن يعيش في الحاضر وفي المكان نفسه بدلاً من أن يفكّر ويخطّط لمستقبل ولمكان آخر.

ويبدو أن تطبيق العلاج السلوكي يزيد باستمرار وتتنوع طرقه بتنوع الاضطرابات التي يتصدّى لعلاجها. وتُعالج به حالياً الكثير من العادات السيئة كاللوازم، وقضم الأظافر، ومصّ الإبهام، والتدخين والتهتهة والكثير من اضطرابات الشخصية، كاللواط، والتشبّه، والفيتيشية، والاستعراء، والإدمان الكحولي، وإدمان المخدرات، وبعض الاستجابات العُصابية مثل التجوال الليلي، والعمى الهستيري، والفوبيا، والبرود الجنسي عند النساء، وعُقال الكاتب، وأيضاً يعالج به الضغط العصبي، والقرحة الإثني عشرية، والربو الشعبي.

وأحياناً يقال للعلاج السلوكي إنه «تعديل السلوك Behaviour modification». وقد يقال للشخص أو للطفل الذي يلزم تعديل سلوكه أنه مشكلة سلوكية Behaviour problem ، أي أن سلوكه مُشكل. والطب السلوكي Behaviour medicine فرع جديد نوعاً ما من الطب يقوم على بحوث ونظريات العلوم الاجتماعية، ويعالج الأشخاص المُشكلين علاجاً سلوكياً كالذي أسلفنا القول فيه. وأما «العلم السلوكي Behaviour science» فهو الاسم البديل للعلم الاجتماعي ويطلق على أي من العلوم الاجتماعية، وهي: علم النفس، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا الاجتماعية، وعلم الأخلاق البيئية Ethologyونقصد به دراسة سلوك الكائنات في بيئاتها الطبيعية لملاحظة العلاقة بين تركيبها الوراثي وظروف البيئة وأثرها على السلوك. ومن ذلك تأثير الازدحام على السلوك، والاختلاف بين الكائنات في ذلك. ويطلق البعض إسم «البؤرة السلوكية Behavioral sink» على المنطقة المزدحمة بالسكان من أي نوع من الكائنات، حيث يشذّ السلوك ويضطرب مع الزحام، وكأن المنطقة المزدحمة بمثابة بؤرة فساد. وكانت البحوث على ذلك على الحيوانات وخاصة القوارض في الأقفاص، غير أن بعض العلماء يرى في تطبيق نتائج هذه البحوث على الإنسان مغالاة قد تكون مرفوضة لهذا السبب.

❖ ❖ ❖

مراجع:
- Watson: behaviorism.
- Watson: Psychology as a Behaviorist Views it.
- Watson: Psychology from the Standpoint of a Behaviorist.
- Darwin: The Expressions of the Emotions in Man and Animals.
- Allport & Vernon: Studies in Expressive Movement.
- Skinner, B.F.: The Behaviour of Organisms.
- Hull, C.L.: Principles of Behaviour.
- Yates, A.: Behaviour Therapy.
- Teasdale, J.: Aversion Therapy and the Behaviour Disorders.

❖ ❖ ❖

- ١٢ -
سيكولوجية العبقرية

العبقرية واختبارات الذكاء والشخصية. ظاهرة العالِم الأبله. بحوث جالتون وتيرمان. العبقرية عند الذكور والإناث. علاقة العبقرية بالاضطرابات العقلية والنفسية...

❖ ❖ ❖

العبقرية Genius، قيل: نسبةً إلى عَبْقَر وهو السيد الذي ليس فوقه أحد، ويقال عبقري لكل من يُتعجَّب مِن كماله وقوته وحذقه. واللفظة الأجنبية لاتينية الأصل، لاسم جني Geni العربية، والعبقري هو الحاذق كالجن، وعَبْقَر في العربية قومٌ من الجن. والعبقرية نبوغ في ناحية من النواحي الإبداعية، والعبقري يمكن أن يكون مخترعاً، أو مؤلفاً، أو منظّراً، أو سياسياً، أو عسكرياً، يأتي بجديد ويغيّر من القديم. والعبقرية لها بصماتها في الفنون والعلوم والآداب، وفي التجارة والإدارة. ومخايل العبقرة تظهر في تصرفات العبقري منذ الطفولة، وقيل إن «سن التميّز» هي الرابعة أو الخامسة، وفي هذه السن يلفت النظر إلى «الطفل الموهوب Gifted child» حصيلته اللغوية، وتفوّقه في النطق، وسعة معلوماته، ونشاطه الفكري، وحركاته الكثيرة، وممارساته التي يسبق بها أقرانه في الرسم، أو الموسيقى، أو الحساب. وقد يقال للطفل أنه «عبقري»، كما قد يقال له أيضاً إنه «طفل متفوق Superior child»، و«طفل معجزة Prodigy»، و«طفل ذكي

Bright child». ولقد قيل إن الكثيرين من العباقرة على العكس عُرِف عنهم تخلّفهم الدراسي وغباؤهم، ومن ذلك أن الأكويني Aquinas (١٢٢٤ - ١٢٧٤م) - الفيلسوف الكبير - كان يُطلَق عليه إسم الثور الغبي Dull ox، وأن إينشتاين Einstein (١٨٧٩ - ١٩٥٥) - عالم النسبية الكبير - لم يبرز كطالب في المراحل الباكرة من عمره، إلا أنه من الصعب التحقّق من صدق هذه الروايات، كما ان المنطقي أن تكون طفولة العبقري متوافقة مع رجولته، وأن يكون تحصيله العلمي وريادته الإبداعية قد بدأهما مبكراً عن غيره.

والعبقرية يمكن رصدها وقياسها باختبارات الذكاء واختبارات الشخصية، إلا أن ذلك يكون من باب التقدير وليس التحديد. فالعبقرية ليست مجرد ذكاء، وجوانب العبقرية التي يمكن أن تكون لشخصية العبقري أكثر من أن تقاس تحديداً، واصطلاح القياس بالمعنى الذي يمكن أن ينصرف إليه في علم النفس يبدو كما لو كان لا ينطبق على العبقرية.

و«العبقرية بالإمكان Potential genius» تكون بالعبقري إمكانات تُظهرها تنشئته، والبيئة التي تتعهده برعايتها، وشخصيته التي من صفاتها الدأب، والمثابرة، وحب المعرفة والتعلم، واستطلاع الأمور واتخاذ القرارات، وحلّ المشاكل. واصطلاح «العبقرية بالإمكان» أو «العبقري بالإمكان» قال به لويس تيرمان Terman (١٨٧٧ - ١٩٥٦) نتيجة بحوث ودراسات لأحوال الأطفال من أصحاب الذكاء العالي والتحصيل المشهود، وهو يذكر أنه من بين كل مائتي طفل هناك طفل واحد له الإمكانات التي يحتمل معها أن يكون عبقرياً، وأن يحقق بها ما لم يحقّقه غيره من أقرانه العاديين أو حتى الأذكياء. ويذهب تيرمان إلى أن نسبة ذكاء العبقري تبدأ من ١٤٠، وذلك ما لم يوافقه عليه علماء وجّهوا لبحوثه النقد، باعتبار أنها نسبة متدنيّة، كما ان تيرمان إقتصر في تحديد العبقرية المحتملة على الذكاء وحده. والصحيح أن الطفل الذي لديه إمكانات العبقري يستطيع أن يبزّ أقرانه في كل شيء، ويتميّز بمجال معيّن، أو قدرة خاصة يتفوق بها في مجالها على الجميع، كأن يمهر في الحساب، أو يستطيع الرسم باتقان، أو يعزف

كالراشـــديــن. وهـــو ســـريـــع الإدراك والملاحظة، وذاكرته الحافظة لها قدرة استيعاب هائلة. وقد يقال إن ظاهرة العالم الأبله Idiot savant تدحض ما قيل عن شرط الذكاء العالي للعبقري، وهذه الظاهرة قد روّج لها بعض العلماء في إنجلترا وفرنسا خصوصاً. وقيل إن الأبله الذي تقل نسبة ذكائه عن ٥٠ قد يأتي من الخوارق ما يذهل العارفين، فقد يستطيع الجمع أو الطرح لأرقام كبيرة في سرعة مبهرة، وقد يتذكر العشرات من الكلمات أو المحفوظات ويرددها بغير خطأ، إلا أن ذلك كما قيل في مجال واحد، وهو في غير هذا المجال الأبله الذي لا يدري من أمر نفسه الكثير. ومع ذلك فربما كان البَلَه في هذا الطفل نتيجة فصام يؤثر في شخصيته، إلا أن قدراته الذهنية تبقى على حالها، أو أن البله به يأتيه وراثياً منذ الميلاد، أو يتسبب عن أذى يلحق الجنين وهو بعد في الرحم، أو يلحقه أثناء الولادة وتتعطل به قدراته إلا هذه القدرة دون غيرها التي يُظهر فيها تفوقاً، ورغم ذلك فظاهرة العالم الأبله قد تكون فردية علمية أذاعها البعض دون سند من الواقع.

وهناك من الشواهد على أن العبقرية لا تظهر إلا في العائلات الموهوبة، وان ظهور أحد أفرادها كعبقري يزيد من احتمالات أن يظهر فرد آخر منها، وثالث ورابع كعباقرة. ولقد أجرى فرانسيس جالتون Galton (١٨٢٢ - ١٩١١) بحثاً إحصائياً في العائلات البريطانية التي خرج منها علماء وتبين له أن العائلات التي تتميز بالتفوق في التحصيل العلمي وتُعقد لها الريادة فيه هي عائلات بعينها، وأن تاريخها حافل بالأفراد المتميزين في كافة المناشط الفكرية، مما يذكر أن جالتون نفسه كان قريباً لداروين شديد القرابة، وكأن ظهورهما معاً في التاريخ نفسه تقريباً لدليل على صدق حدسه العلم، وفي القرآن عندنا نحن المسلمين ما يصادق على مقالته في الآية: ﴿ذُرِّيَّة بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ﴾ (آل عمران - ٣٤). وذهب هافلوك إليس في بحثه المشابه إلى تأييد جالتون على نظريته، وقال إن من المحتمل وجود ميكانيزمات وراثية تنقل الاستعدادات من جيل إلى جيل في

الأسرة الواحدة، وذلك ما ذهب إليه تيرمان أيضاً في كتابه «دراسات جينية في العبقرية Genetic Studies of Genius» (١٩٢٦).

ويكاد ينعقد إجماع الدارسين والمنظّرين على أن العبقرية نتاج الوراثة والبيئة معاً، فالاستعدادات الموروثة لا بد أن تتسلمها بيئة مواتية تشجع على التحصيل، وتنمّي المواهب وتتيح لها فرص التفتح، وإلا فمصير هذه الاستعدادات إلى الذبول والاضمحلال. وحتى مع وجود المورثات للعبقرية فإن ميكانيزم الوراثة لا يمكن أن يعمل عمله إلا في شروط معيّنة وبيئة رحمية واجتماعية صالحة، وبغرض تأمين ذلك كله فلا يمكن أن نأمن عامل الصدفة، سواء أثناء الحمل، أو بعد ذلك خلال عملية النمو. وأما عامل البيئة فالتاريخ يقدّم الشواهد على أن بعض البلاد كان لها في فترات من التاريخ تأثيرها الحاسم في إظهار عبقرية من كان لهم باع طويل في المعارف والعلوم والفنون، وكانت أثينا في المدة من سنة ٥٠٠ ق.م، وحتى سنة ٢٠٠ ق.م، وكذلك فلورنسا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، مثلين واضحين لما يمكن أن تقدمه البيئة من فرص للتعبير الخلّاق وتطوير المواهب. وكذلك كانت بغداد في عصر العباسيين، والقاهرة في زمن الفاطميين. ومن المحتمل أن هناك المئات من العباقرة يولدون إلا أن عبقرياتهم يُضيّق عليها، وتتضافر عليها عوامل الانحراف بها أو إفسادها وتضليلها، أو ذبولها وأفولها، حتى لتبدو الأمة وكأنها قد صارت عقيماً.

والعبقرية أظهر بين الذكور عنها بين الإناث، وقيل إنه في مقابل «كل أنثى عبقرية» هناك «ألف عبقري ذكر»، وتختلف هذه النسبة من نشاط إلى نشاط، ففي مجال الموسيقى والشعر والرياضيات، وفي الهندسة والعلوم الطبية والبحوث اللغوية مثلاً لا يكاد يوجد عباقرة من النساء، وفي مجال الأدب هناك متميزات من النساء ولا توجد عبقريات، وقيل: ربما كان السبب أن هناك فرصاً متاحة للتعبير ولتطوير المواهب بالنسبة للذكور عنها بالنسبة للإناث، وكذلك فإن الفروق البيولوجية

بين الجنسين في صالح الذكور بالإضافة إلى تعطّل الإناث بأشغالهن، بالزواج والحمل وتربية الأطفال وأعمال البيت وهن في سن العطاء، ولذلك تأثيره على انصراف المرأة عن الاشتغال بالتميّز والتفوق. والمرأة بطبعها أرق وأضعف في البنية، ومن ثم لا تحتمل الجِدّ والمثابرة والاجتهاد الذي يستلزمه التفوق والتميّز، والذي لا بد منه لظهور العبقرية وتفتّحها. والمرأة لا تميل بشكل عام للتجديد، وميولها محافظة أكثر من ميول الرجل. والمرأة أقل إقداماً وميلاً للمخاطرة التي تستلزمها ريادة الجديد والبديع. ولا فرق في الذكاء بين الذكر والأنثى، والفروق البيولوجية والاجتماعية والثقافية والحضارية هي الفروق الوحيدة بين الذكور والإناث. وفي بلادنا وقد صارت تُكلّف النساء بأعمال الرجال المضنية، فمن غير المظنون أن تتاح الفرصة للنساء أن يبرزن وتكون لهن عبقرية مشهودة في المجالات الفكرية. وعموماً فإن العبقرية في أي من بلاد العالم يُضيّق عليها ولا تتاح لها الفرصة إلا بشق الأنفس، وربما ذلك لأن الناس عموماً يتشككون في سلوك العباقرة من حيث أنهم دائماً الخارجون على المألوف والمتمرّدون على العرف والتقاليد، والذين يفكّرون في الأمور بطريقة مختلفة، ويتصرّفون بطرق مغايرة، ناهيك عن أن بعض العباقرة لهم فعلاً أوجه شذوذهم في السلوك والتفكير حتى قيل إن العبقرية مرض عقلي، وقيل إنها سلوك تعويضي عن نقص، وإن العبقري إما له شذوذ المرضى العقليين، أو شذوذ الذين يعانون العُقَد النفسية، غير أنه قد ثبت من بحوث تيرمان أن غالبية العينة من العباقرة يتميّزون بالصحة النفسية والانضباط، كما أثبت هافلوك إليس Havelock Ellis (١٨٥٩ - ١٩٣٩) أن احتمال إصابة العبقري بالاضطراب العقلي أو النفسي تتساوى واحتمال إصابة الأفراد العاديين به. والعباقرة عموماً لديهم الحسّ العالي بالواقع حتى وإن تصرّفوا أحياناً بشذوذ أو كانت لهم إنفجاراتهم الانفعالية. والعبقري بوسعه أن يصحّح نفسه بعد فترات من اللاتوازن، وهذه الفترات نفسها ضرورية له ليعاني فيها ويجرّب الفكرة الجديدة

وإن كانت غريبة، وغرابتها هذه ربما هي التي يكون فيها تحوّل الفكر إلى آفاق جديدة. والتعلّم وإن كان لازماً للعبقري إلا أن تواريخ حياة العباقرة تثبت أنهم عصاميون، يتوفرون على تعليم أنفسهم أكثر مما يتعلمون من الغير. وربما كان التعريف الذي يقول: «إن العبقرية ٩٩٪ منها مجاهدة وعرق، وواحد في المائة إلهام» هو تعريفٌ صائبٌ، فالعبقري يلزمه عشرة عقول إلى جانب عقله طالما هو يلزم نفسه بالعمل الشاق، والانضباط الشديد في الأمور التي يرى أنها ضرورية له، وطالما لديه دوافع قوية تتملكه وتستحثه لأن يمهر في الفن أو العلم الذي ينصرف إليه، وان تكون له السيادة أو الريادة فيه، وأن يحيط بدقائقه، لأن ذلك سيقرّبه من بلوغ أهدافه أسرع. وربما يضيّع المجتمع على نفسه العشرات من العباقرة بالتوجيه التعليمي الخاطئ وبتغليب مصالح الأغنياء على مصالح الشعب وإهمال تعليم الفقراء. ومن دأب الطبيعة أن تنجب الأفراد باستعدادات العبقرية بدون تفريق بين غني وفقير أو حاكم ومحكوم، ولكن الذي يحدث بعد ذلك لهذه الاستعدادات متروك للحكومات، ولهؤلاء الأفراد أنفسهم، وللمجتمع الذي ينشأون فيه.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Anastasi, A.: Differential Psychology.
- Terman, L.M. et al: Genetic Studies of Genius.
- Vernon, P.E.: Creativity.
- Harms, E.: Handbook of Child Guidance.

❖ ❖ ❖

- ١٣ -
سيكولوجية الدور الاجتماعي

نظرية الأدوار، والمسرح واصطلاحاته فيها. توقعات الدور والأدوار الرئيسية ومتطلباتها والتدريب عليها وتمثلها وأداؤها. الدراما النفسية.

❖ ❖ ❖

كلمة Role أصلاً فرنسية، من Rôle، وتشتق من لفافة الممثل من الورق المكتوب فيها نصّ دوره في المسرحية. ومفهوم الدور Role من المفاهيم المسرحية - .Dramatic r - التي أخذها علم النفس من مجالها ليستخدمها بمعنى «الوظيفة» التي تكون للفرد في مجتمعه، أو ما يضطلع به من «عمل» في موقف معين، مثل دور الأب، أو دور الأم، أو دور القائد، وهكذا، باعتبار أننا في الحياة نتلبّس شخصيات متعدّدة باختلاف المواقف، وكأننا ممثلون على خشبة المسرح، ولنا في كل مسرحية دور، وكأن الحياة كما يقول شكسبير: مسرح كبير، والأشخاص ممثلون، أو أنه بالأحرى ليست هناك «شخصيات مطلقة» في الحياة، وإنما نحن «شخوص مسرحية»، يعرفنا المجتمع من بينها بالأدوار التي نقوم بها. ونظرية الأدوار Role theory: هي وجهة النظر التي تقول بأن السلوك مظهر لأدوار نمثلها إجتماعياً، وأن التعليم والتربية والتنشئة الاجتماعية عمليات يُقصَد بها تفهّم «الأدوار الاجتماعية Social rs» والتدريب على القيام بها، وأن المعوّل عليه أن كل إنسان يختار من الأدوار النمط الذي يناسبه، وأن القيام بهذه الأدوار منذ الطفولة وتمثيلها يُصقِل الشخصية وينمّي سماتها ويوسّع من مفهوم الذات، وأن لكل مجتمع «مخزون أدوار Role repertoire» كالفِرَق المسرحية، وأن «توزيع الأدوار Role distribution» يتم اجتماعياً ويُراعَى فيه مناسبة هذه الأدوار للشخصيات التي تمثلها، فيكون التوافق النفسي بين الممثل وأدواره التي يضطلع بها. وربما لا يكون الدور الذي يوكل بأحد الأفراد من اختياره، أو يجيء دوره أكبر من إمكاناته أو أقل منها، وعندئذ لا يكون أداؤه للدور Role playing كما يجب، وقد يغالي في التمثيل Overacting؛ أو قد يجيء تمثيله بحيث يقصر عن الدور وأبعاده Underacting. وليس اضطراب السلوك في الحياة إلا لعدم مناسبة الأدوار الاجتماعية للقائمين بها، أو عدم إدراكهم لأبعادها وقصور وعيهم عن تفهمها، أو عن تفهم ذواتهم وما يحتاجون إليه نفسياً. وتفترض نظرية الأدوار أن يسأل كل شخص نفسه عن حقيقته، ومن

يكون، ومن هو الآخر أو الآخرون الذين يتعامل معهم، وما هي أدوارهم، وما هي علاقة دوره بأدوارهم. ولا يكون التفاعل بين الأفراد على وجهه الصحيح إلا من خلال فهم كل شخص لنفسه وللناس المحيطين به. وكما في المسرح فإن المكلف بدور هاملت مثلاً، يتوقع منه أن ينهض بتمثيل هذا الدور بكل ما يمكن أن يكون لهاملت من حركات وسكنات، وأن يقلده فيها حتى ليمكن أن نحسبه هاملت على الحقيقة. وبالمثل في الحياة فإن الشخص الذي يقوم بوظيفة ضابط الشرطة أو المدرس الجامعي عليه أن يمثّل دوره، ويقوم بكل ما يُفترض أن يقوم به ضابط الشرطة أو المدرس الجامعي من واجبات وأعباء، وأن يفكّر مثله يكون له خصائص الدور، وهو ما نسميه «توقعات الدور Role expectations»، وهي مجموعة التصورات، وتقمّصه للشخصية يُطلق عليه إسم «إخراج الدور r. enactment»، كما يطلق على خصائص الدور إسم «شخصية الدور r. personality». وقد تتضارب الأدوار التي يقوم بها الشخص الواحد أو تتصادم مع شخصيته الحقيقية Actual personality. وعندئذ يستشعر الصراع. و«صراع الأدوار r. Coflict» كما في المثل السابق لضابط الشرطة، كأن يجد نفسه مضطراً للقبض على شقيقه فيقوم به صراع بين دوره كضابط ودوره كأخ، أو بين الواجب والحب. وبعض الأدوار تحتاج في الحياة لعدد من «الأدوار المساعدة Auxiliary r.»، فلكي يقوم شخص بدور ضابط الشرطة فإن ذلك يستلزم أيضاً أن يكون هناك شرطة وجمهور، ونطلق على ذلك إسم «مجموعة الدور Role set»، وهي مجموعة الأشخاص المرتبطة أدوارهم بدور ضابط مثلاً حيث هو الدور الرئيسي The leading role. ويتكامل الدور الرئيسي بالتنسيق مع بقية الأدوار المساعدة، وهذا التنسيق مطلوب حتى مع الشخص الواحد وهو يقوم بأدواره المختلفة. وكل منا يقوم بالعديد من الأدوار عليه أن ينظم بينها وينسق حياته على منوالها، بحيث لا يضطرب سلوكه بأعبائها، ولا تختلط عليه خصائص الأدوار. وتفيد نظرية الأدوار في الحكم على سلوك الناس بحيث لا نحسب فظاظة شخص

في موقف سمة من سمات شخصيته، فربما تكون هذه الفظاظة من مستلزمات الدور في هذا الموقف بالذات، فضابط الشرطة الحازم مع المجرمين قد نجده حانياً عطوفاً محباً مع أسرته، وذلك أيضاً من مستلزمات الزوج أو الأب. ولكل دور «مستلزمات أو متطلبات r. demands»، ونحن نتدرب على الأدوار منذ طفولتنا، وهو ما نسميه التعيّن Identification بالآخرين، و«التدريب على الدور rehearsal .r» يزيد استبصارنا بتوقعات الأدوار، ويزيد من إدراكنا لأبعادها Role perception، ويُصقل من قدرتنا على تمثّلها Role taking aptitude ثم إخراجها. وهذه القدرة تكون بنا موهبة خاصة من الله، فبعضنا يتمتع بهذه القدرة لدرجة ملفتة للنظر، وبعض الأطفال تكون بهم باعتبارها قدرة تنضاف إلى بقية القدرات الخاصة التي يكون علينا اكتشافها فيهم في وقت مبكر لنعمل على صقلها. والقائم على الدور باعتباره كالممثل، فإنه يحتاج إلى جمهور، وكلما أتقن دوره وجاء تمثيله متوافقاً مع توقعاتهم للدور، كان استحسان الجمهور له، فضابط الشرطة الذي يقوم بدوره، وينفّذ ما عليه، ويحفظ الأمن، ويصون الأعراض، ويحمي الممتلكات، يُعطَى الأنواط ويُردَد اسمه بالافتخار. وكذلك الطفل وهو يتمرّس على الأدوار، ويزعم أنه الأب مثلاً، أو المدرس، ويسير كما يسير هذا أو ذاك، ويأمر كما يأمر، فنهشّ له ونضحك، فذلك منا الإثابة له A reward على سلوكه، وأيضاً هو تعزيز Reinforcement لهذا السلوك. والتدريب على الأدوار للأطفال يرفع مستوى طموحاتهم. ويدفعهم إلى التحصيل. وليست رسالة المسرح المدرسي The scolastic theatre إلا بعضاً من هذا الذي نذهب إليه. وتؤثر الأدوار التي يحاول الأطفال تقمّصها في تكوين شخصياتهم، ويُكثر الأطفال من هذا التقمّص في أحلام اليقظة، ففي قصة سندريلا Cinderella مثلاً يجعلها تقمُّص دور الأميرة تسلك في الحياة كالأميرات، ويرفع من طموحها فيتحقّق لها الزواج من أمير. ولا شك أن كل ممثل يتأثر بمخزون أدواره التي مثّلها في حياته، ومن الممكن أن نحكم على

الشخصية من مجموعة الأدوار التي يقوم بها صاحبها، أو من «الوظائف» التي تقلّدها، ومن اختياره لها، وأدائه الذي يكون مؤشراً على نضج شخصيته، و«حُسن اختيار الدور» الذي يناسب الشخصية دليل نضج، لأنه يعني أن صاحب الشخصية فاهم لنفسه ولأبعاد الدور، وناضجٌ يتحكم في سلوكه، ومن ثم يستطيع أن يقوم بالدور. ونحن جميعاً من خلال تكرار تعرّضنا لمواقف بعينها ننمّي في أنفسنا طرقاً للاستجابة تتثبت معنا، وهي التي نستدل منها على سمات الشخصية. وكلما اتفقت متطلبات الدور مع فكرة الشخص عن ذاته، كان ذلك أدعى لحُسن أدائه، ولتنافي الصراعات بين متطلبات الدور وفكرته عن ذاته. ونلمس أثر استحسان «الجمهور المشاهِد» لتمثيل الأدوار مما نلحظه من حُسن استقباله، أو مما يجري من مناقشات حوله في جماعات المناقشة أو على صفحات الجرائد والمجلات، أو في محطات التليفزيون، وداخل صالات الألعاب والساحات الرياضية، وبعد العروض الموسيقية. وللجمهور مزيتان، الأولى أنه يؤكّد باستحسانه ويعزّز عنده هذا السلوك ويدفعه إلى المزيد من طلب الإتقان. وقد يحدث أن يتقمّص الشخص دوراً يناسب سياقاً معيناً، إلا أن أسلوبه في القيام بالدور قد يحدث أن يتكرر معه في النهوض بأدوار أخرى، ولسياقات مختلفة، بصرف النظر عن مناسبة حرفية الدور لها، ونطلق على ذلك إسم «إنتشار الدور Role diffusion»، وذلك من تأثير الخلط عليه، فتتوه أهداف الدور عنه، وتضل عنه هويته أو شخصيته، ويتلبّس الدور ويسلك من وحيه، سواء على المسرح أو في الحياة في كل ما يتقلّد من أعمال ومهام. وتقوم فكرة العلاج النفسي بالدراما النفسية Psychodrama على نظرية الأدوار، باعتبار أن المريض وهو يمثل أدواراً من حياته يعايش المواقف التي تسببت له في الاضطراب، ويطرح عنه عُقدَه، فيستبصر مشكلته وصراعاته، فيتحقّق له من ذلك العلاج.

❖ ❖ ❖

مراجع:
Biddle, B.J.: Role Theory: Role Theory: Concepts and Research.
- Gross, N., Mason, W.S. & MC Eachern, A.W.: Explorations in Role Analysis.
- Sader, M.: Rollentheorie.
- Sarbin, T.R.: Role Theory.

❖ ❖ ❖

- ١٤ -
سيكولوجية المهارات

المهارات وأنواعها والتدريب عليها واكتسابها. المهارة في المجالات الاجتماعية والتربوية والرياضية إلخ...

❖ ❖ ❖

المهارة Skill نشاط معقد يُظهر الشخص الماهر على قدرة وكفاءة تميّزانه عن غيره من الأفراد العاديين في نشاط من الأنشطة، وتُكتَسب المهارة بالتعلّم والتدريب والممارسة. وقد نتحدث عن المهارة فنقصد بها في المجال الاجتماعي مهارة الشخص الواعي بالتفاعل الاجتماعي في بيئته، والذي يترقّى صُعُداً في هذه البيئة من حيث الأدوار الاجتماعية وتمثلها والتعامل بكفاءة مع مختلف المواقف الاجتماعية - وهو ما نطلق عليه إسم المهارة الاجتماعية Social skill. وقد نقصد بالمهارة في المجالات التربوية إجادة القراءة والكتابة والعمليات الحسابية مما يقال له المهارات الأساسية Basic or fundamental skills واكتسابها ضروري لاكتساب المهارات الأعلى Higher-skills، أو Higher level skills، كالمهارة اللغوية Language skill تعبيراً وإنشاءً وبياناً. فإذا كانت المهارة قدرة على القراءة السريعة المُجملة للمعاني Skimming s.، أو على الاستيعاب Comprehension s.، أو على التلخيص Summerizing s.، فهي مهارة دراسية Study skill تتعلق بالدراسة والبحث. والمهارات من هذا النوع «مهارات ذهنية Intellectual skills»، في مقابل «المهارات الحركية Motor skills»، والأولى عملياتها ذهنية، بينما الثانية

عملياتها حركية. وبالطبع فإن أي عملية ذهنية قد تترافق معها عمليات حركية، وكذلك فإن أية عمليات حركية لا بد أن تصاحبها عمليات ذهنية، غير أن الأغلب والأعم في المهارة الذهنية أو المهارة الحركية هي العمليات الذهنية أو الحركية التي تطبعها بطابعها، بحيث يمكن أن نصفها بالوصف الذهني أو الحركي فقط، وغالباً ما نتحدث عن المهارة ونقصد بها المهارة الحركية، حيث يرتبط «اكتساب المهارات Acquisition of skills» بالأنشطة الرياضية كالسباحة وغيرها، وبالأنشطة الانتاجية في مجال الصناعة. ومحك المهارة عند العمال والفنيين هو قضاء فترة تدريب، وبلوغ العامل أو الفني مستوى من الإجادة في الأداء يزيد به الانتاج ويجود. ويتضمن «السلوك الماهر Skillful behaviour» عدداً من الاستجابات الحركية غالباً، أي غير اللفظية، التي توظف فيها أعضاء الحركة، كالقدمين، والساقين، والذراعين، واليدين، والأصابع، في تآزر، بحيث يقوم الشخص الماهر بأداء النشاط المنوط به في سرعة ودراية، وبأقل الجهد وأقصر الطرق. وتتألف الحركة في السلوك الماهر من وحدات حركية هي مثيرات واستجابات تتسلسل في انتظام هرمي، بحيث تؤدي الأبسط إلى الأعقد، ويكون الجسم وهو يؤدّيها في وضعه المريح الذي يناسبه للقيام بالأداء الجيد. ومع التقدم في الأداء يستغني الشخص الماهر عن بعض الحركات ويقتصد فيها. وتعمل أعضاء الحركة في تآزر مع أعضاء الحسّ كالعينين والأذنين، ولذلك فقد يقال عن المهارات الحركية إنها «مهارات إدراكية حركية Perceptual-motor skills». ومن خواص المهارات عموماً أن «التآزر» فيها غالباً يشمل الجسم كله، بأعضائه وحواسه، في شكل تكيّف عام، وبالأخص في المهارات الدقيقة كما عند الطيارين مثلاً. ويلزم لتعلّم المهارة الانتباه لطريقة أدائها، ولفت نظر المتعلم إلى طبيعتها، والمكونات الحسيّة والعضلية التي فيها. ويقتضي ذلك أحياناً وصف هذا الأداء وصفاً لفظياً، وتوجيه المتعلم إلى أسلوب الاستجابة الذي قد يفضل أسلوبه الذي قد يختاره لنفسه لو تُرِك بدون إرشاد.

ويَفْضُل «التوجيه الإيجابي» أسلوب التوجيه بالتنبيه إلى الأخطاء. وقد يحتاج المعلم إلى «عرض توضيحي» قد يفيد في التعلم بالمحاكاة لنموذج الأداء الماهر. ولعل استخدام «الأفلام» من خيرة الوسائل التوضيحية بالنظر إلى إمكان عرضها عرضاً بطيئاً يمكن به ملاحظة تفاصيل الأداء. وبعض المهارات تفيد في التدريب على أدائها «الطريقة الجزئية» عن «الطريقة الكلية»، بتقسيم السلوك الماهر إلى وحدات، بحيث تُمارَس كل وحدة منفصلة إلى حدّ اتقانها، فيكون الانتقال إلى الوحدات التالية. وبعض المهارات قد يكون في التدريب على أدائها بالطريقة الكلية إقتصاد في الجهد واختصار للوقت. ويفيد التمرين الموزّع عن التمرين المركّز في اكتساب المهارة. وبعض المهارات أثناء تعلّمها لا يمكن اكتسابها إلا بمعرفة نتائج التعلم، وهو ما يسمى «التغذية الرجعية الإخبارية Informative feedback»، والأفضل في التغذية الرجعية أن تتم مترافقة مع التدريب، وباستمرار مع تكراره. وهناك من الشواهد ما يؤكّد أن وصف المتعلم لما يؤدّيه أثناء الأداء يفيده في اكتساب المهارة. وقد يفيد «التسميع الذهني Mental rehearsal» للخطوات التي يتم بها السلوك الماهر، وهو نوع من التدريب المتخيّل يصلح أكثر مع المبتدئين. وكذلك يصلح مع المبتدئين «التوجيه الآلي» كما في تعلّم الخط، باستخدام النقط المكوّنة للحروف، بالسير عليها بالقلم. وللدراسة التحليلية القَبْلية لسلوك المهارة فائدة الإحاطة بتفاصيل تكوينه - أي السلوك - وشكله. ويبدو أنه في اكتساب المهارة فإن الأسلوب الأمثل هو الذي يبلغ بالمتعلم إلى محك الاتقان بأيسر الطرق وأسرعها، فإذا بلغ المتعلم «محك الاتقان»، فإن أي محاولة تفوق ذلك هي من قبيل الزيادة التي لا مبرّر لها، ويمكن الاستغناء عنها إلى حين الاحتياج إليها من بعد إذا تدنى مستوى السلوك الماهر، أو بعد انقطاع طويل عن الممارسة.

❖ ❖ ❖

مراجع:
- A. Bilodeau: Acquisition of Skill.

❖ ❖ ❖

- ١٥ -
سيكولوجية الملكات

المَلَكات وفراسة الدماغ. بحوث جول وسبورزهايم. فرضية المطبّعات. فرويد والملكات...

❖ ❖ ❖

الأساس في سيكولوجية الملكات أن للعقل وظائف متميزة وطبيعة فيه كالذاكرة والإرادة والحكم والانتباه، وأن هذه «الوظائف أو الملكات Faculties» لها مواضعها من الدماغ، بدليل أن إصابة الدماغ في أي منها يحرم الشخص من الوظيفة أو الملكة العقلية Mental f. المختصة. ومن ذلك أيضاً ما يقال له «فِراسة الدماغ Phrenology»، أي قراءة معالم الشخصية من شكل وحجم الرأس، وما عليه الرأس من بروزات في مواضع، باعتبار أن الرأس هو مخزن القوى العقلية، ومن ثم فإن بعض المواضع قد تكون أكبر عند بعض الناس عنها عند غيرهم، أو قد تكون عند الشخص نفسه أكبر من غيرها في دماغه، فنحكم بأن هذا الشخص لديه القوة العقلية في الموضع البارز أكبر من سائر القوى، أو أكبر من مثيلتها عند غيره من الناس، ومن ثم فإن المتمرس بهذا العلم يستطيع أن يتعرّف إلى ما يتميز به شخص ما من ملكات أو قوى عقلية بأن يتحسّس رأسه ويدرس جغرافيته.

وكان فرانز جوزيف جول Gall (١٧٥٨ - ١٨٢٨) - عالم التشريح الكبير - أول من اشتغل بدراسة مواضع الملكات العقلية في الدماغ، وأما الذي وضع أسس هذا العلم - إن كان علماً على الحقيقة - فهو يوحنا كاسبار سبورزهايم Spurzheim (١٧٧٦ - ١٨٣٢)، وهو الذي ابتدع إسم «فراسة الدماغ»، ووضع المتخصصون في الفراسة Phrenologists من المشايعين له «خرائط» للرأس، حدّدوا فيها مواضع

المَلَكات أو القوى العقلية، وجعلوها سبعاً وثلاثين مَلَكة، تنقسم إلى ثلاثة أقسام، فإذا غلب قسم إنطبعت الشخصية به. والأقسام الثلاثة: قسمٌ منها يصنع الشخصية العاطفية أو الانفعالية، وقسمٌ يصنع الشخصية الفاعلة ذات الحركة والنشاط، وقسمٌ يصنع الشخصية المفكرة. ومن شأن كل قسم أن يؤثّر على بِنْية الجسم بحيث تأتي متوافقة مع نمط الشخصية، ومن ذلك تأثيره على الوجوه وأساريره، فيعدل مظهر الوجه وعلى المزاج والخُلق، وهو ما عُرف باسم «فراسة الوجوه Physiognomy». وبرغم أنه لم يثبت علمياً وجود هذه الملكات، ولا أقسام الرأس الثلاثة، إلا أن القول بالملكات، وبمواضعها في الرأس، وبنسبة الاضطرابات العقلية إلى الاضطرابات في شكل الرأس، وبالتبعية إلى الاضطرابات في مواضع المَلَكات، وفي أحجامها، أرسى دعائم علم النفس كعلم يندرج ضمن العلوم وليس كفرع من الفلسفة الميتافيزيقية. وسيطرت «نظرية المَلَكات» أو «علم نفس الملكات» .f psychology على التفكير النفساني لفترة طويلة إلى أن دالت وعفا عليها النسيان، وحلّت محلها نظريات أخرى، ومنها نظرية أو «فرضية المطبّعات Modularity hypothesis»، و« المطبّع Module» إسم حديث للملكة. فبحسب بروكا Broca (١٨٢٤ - ١٨٨٠) - عالم المخ الكبير - تتحدد في المخ مناطق لها أهمية في التعلّم الإدراكي والوظائف اللغوية. والمطبّعات - كما يقول جرانيت - عالم التشريح الكبير - أعضاء استقبال في هذه المناطق مهمتها تعديل الإحساس الوارد ليتحقق الإدراك بالطريقة التي يتم بها في الإنسان أو في الحيوان. والمطبّعات بذلك بديل للمَلَكات. كما أن القول بالاستعدادات والقدرات العقلية شبيه بالقول بالملكات، وكان فرويد - وهو مؤسّس مدرسة التحليل النفسي - يقول بأقسام للنفس شبيهة بالملكات، ومن ذلك قوله بالمَلَكة الناقدة Criticizing faculty، ويقصد بها الضمير. ومع أن سيكولوجية الملكات غير موجودة الآن على المستوى الرسمي فإن الكثيرين جداً ما يزالون يستخدمون اصطلاح الملكة لوضوح معناه، وما يزالون يشيرون إلى

«ملكة التذكّر»، أو «ملكة التخيل»، أو «ملكة الرسم» وهكذا، ويقصدون بها القدرات الخاصة.

❖ ❖ ❖

مراجع

- T. Acquinas: Summa Theologia.
- R. Descartes: Meditations on First Philosophy.
- C. von Wolff: Psychologia Rationalis.
- W. James: The Principles of Psychology.

❖ ❖ ❖

- ١٦ -
سيكولوجية المشاركة الوجدانية

التعاطف والمشاركة الوجدانية. الأطفال والمشاركة الوجدانية. التجارب الفنية. التقمص الوجداني. المشاركة الوجدانية حاسة سادسة. المشاركة في التربية وفي التحليل النفسي والألعاب الرياضية. زيادة المشاركة الوجدانية عند النساء. الأمزجة والمشاركة في الصحة والمرض.

❖ ❖ ❖

المشاركة الوجدانية Empathy نوع من التعاطف Sympathy، إلا أن التعاطف يكون في الأحزان دون الأفراح، بينما في المشاركة الوجدانية نحن نتشارك في كل الانفعالات سواء بالفرح أو الحزن. والتعاطف عمل نأتيه عن إدراك بما نفعل، ولا نفقد فيه هويتنا أو ذواتنا، ولا ننسى أننا لسنا الآخرين، وأن ما نشعر به هو مجرد تعاطف معهم وليس انفعالاً بالأحداث التي جرت لهم. وليست كذلك المشاركة الوجدانية، فنحن فيها قد نضحك لضحك الآخرين، أو يرين علينا الاكتئاب لاكتئابهم، وحتى وإن لم نعرف أسباب هذا الضحك أو ذاك الاكتئاب، بينما في التعاطف يكون إدراكنا للمصاب

أو الفجيعة، وتعبيرنا عن مشاعرنا المتعاطفة بالإشارة أو بالكلام، وأما في المشاركة الوجدانية فنحن نفعل مثلما يفعلون، فنبكي أو ننوح، أو قد نرقص ونغني، فنحن نتقمص شخصية الآخر حتى ليمكن أن نقول إننا نكون في حالة تقمُّص وجداني Emotional indentification.

ويبدأ الأطفال من سن الثانية أو الثالثة يشاركون وجدانياً غيرهم من الأطفال، فيبكون لبكائهم أو يخافون لخوفهم، ولا يكون التعاطف إلا في مرحلة متأخرة عندما يزيد لديهم الإدراك للحالات الوجدانية للآخرين وأسبابها. وفي التجارب الفنية لا نقول إننا نتعاطف مع الفنان «في» مشاعره، ولكننا نقول إننا نشاركه مشاعره، حتى ليمكن أن تستغرقنا التجربة الفنية بكل ملابساتها فننسى فيها أنفسنا، وذلك ما نقصد إليه من أن المشاركة الوجدانية قد ترقَى إلى حدّ التقمص الوجداني. وهذا التقمّص ضروري لأنه يُدخلنا أو يقدّمنا إلى التجربة الفنية من أوسع أبوابها، وهو سبيلنا لنتعرف عليها. ولا تعني المشاركة الوجدانية أننا نتعين بالشيء تعيناً كاملاً حتى لتكون ذاتنا هي ذاته، فلا بد دائماً من بعض البُعد النفسي، وهو يتمثّل في أن تمثّلنا للشيء هو تمثُّل مؤقت. وفي التحليل النفسي مثلاً يتمثّل المحلل النفسي الحالة الوجدانية للمريض، لا ليكون هو والمريض واحداً، وإنما ليفهم المريض، فهو يضع نفسه مكان المريض ويحاول أن يتصوّر مشاعره، ويتخيّل أفكاره، حتى يستطيع أن يلم بخيوط تفكيره ومشاعره. وقد يتساءل المحلل نفسه عمّا يمكن أن يظنّه به المريض أو ردّ فعله على تصوراته عنه، وذلك ما يسميه «موراي Murray» (١٩٣٣) «Recipathy»، ويطلق موراي على عملية المشاركة الوجدانية التي بهدف تقويم أحوال الآخرين ذهنياً ووجدانياً إسم «المشاركة الوجدانية الناقدة Criticizing e.». ويجعل سوليفان Sullivan (١٨٩٢ - ١٩٤٩) من المشاركة الوجدانية حاسة سادسة A six sense، ويقول إنه ليس من الضروري أن نعبّر عن المشاركة الوجدانية باللغة، وإنها أقوى ما يمكن عند الأطفال في السن بين ستة شهور وسنتين، وإنها وسيلة التطور الباكر

في الشخصية، لأنه عن طريقها يقلّد الطفل أبويه في اتجاهاتهما وقيمهما وأوجه القلق عندهما. ويبدأ الطفل مبكراً في ملاحظة هذه الأمور عند والديه، وينتقل إليه أثرها ويتمثّلهما. ومن رأيه أنه حتى في تذوق الطعام، ينتقل إلينا استحسان الطعام أو استهجانه مما نلاحظه على الأبوين أو المرضعة أو الخدم وهم يتذوقونه. ويرتبط هذا الاستحسان أو النفور عند الأطفال الصغار من رؤيتهم لسلوك الكبار والمشاركة الوجدانية التي يبدونها تأييداً أو نفوراً مثلهم. ويلزم للمربين والمدرسين والآباء أن يكون لديهم قدر من المشاركة الوجدانية، لأنه وسيلتهم لفهم الصغار. وحتى القياديون The leaders فإنهم في حاجة إلى قدر من المشاركة الوجدانية ليكون فهمهم لمن يتزعمونهم أو يقودونهم. ونحن كمتفرجين Spectators إذا كان لدينا بعض من المشاركة الوجدانية فقد نستطيع أن نتفهم دور الممثل، بأن نتصور أنفسنا فيه، ونحكم على سلوكه من تصورنا لهذا السلوك. وكذلك الممثل The actor، فبقدر ما يتقمّص الدور وجدانياً يكون ذكاؤه في تمثّله وعرْضه. ونحن نتشارك وجدانياً ونحن نشاهد مباريات كرة القدم حتى لنتوهم أننا نلعب مع اللاعبين، فنصرّ على أسناننا، أو نركل بأقدامنا، أو تندفع أذرعنا في حركات كما لو كنا ندفع الكرة هنا أو هناك، ونصحّح بعض الألعاب التي لا تعجبنا. وينجح الشعراء والفنانون في أن يجعلوا تصوّرنا لوجدانيات الآخرين تصوراً أرقى أو أرق. ويبدو أن المشاركة الوجدانية تتوقف على مستوى النضج الانفعالي للشخص، ومستوى ذكائه وثقافته، والاتجاهات السائدة عنده. وعموماً فإن الأطفال تكون لديهم المشاركة الوجدانية أقوى أو أكثر احتمالاً من الكبار، وكذلك النساء، وتزيد المشاركة الوجدانية بين الأفراد إذا وجدوا في جماعة كبيرة، أسرع منهم إذا وُجدوا في جماعة صغيرة. ويختلف الأفراد عن بعضهم البعض في قابليتهم للمشاركة الوجدانية بحسب أمزجتهم، فصاحب المزاج الذي يميل إلى المرح يكون أسرع في التأثّر بحالات المرح،

بينما صاحب المزاج الذي يميل إلى الحزن، لا يشارك إلا فيما يكون فيه حزن. وقد نكون أميل إلى الحزن في حالات المرض، بينما نميل أكثر إلى المرح في حالات الصحة. ونلاحظ أن الجماعات تميل إلى أن تتجانس في الوسط الوجداني الذي يسودها.

❖ ❖ ❖

مراجع

- Murphy: Social Behaviour and Child Personality.

❖ ❖ ❖

- ١٧ -

سيكولوجية التعيُّن «التعيّن أو التقمّص أو التوحّد بالغير»

التعيّن الاجتماعي والكوني والمتعدّد. تفسيراته المختلفة بحسب مختلف المدارس. التعيّن الأوّلي والثانوي والإسقاطي والاستدماجي.

❖ ❖ ❖

التعيّن Identification هو التوحّد والتقمّص أيضاً، ونلجأ إليه كثيراً وخاصة في الطفولة، إذ تُعوزنا الحيلة ونعاني من النقص أو العجز أو الإحباط أو الفشل، فتكون استعانة الأنا بالتعيّن - نتعيّن بموضوع Object i.، نرفع به عن أنفسنا هذه السلبيات، فنتوحّد بالكبار والمشاهير والقادرين وأصحاب النفوذ والأقوياء في محيطنا، ونتقمّص شخصياتهم، أو نتعيّن بقيمهم واتجاهاتهم، وبمثُلهم العليا وسلوكياتهم، ونصوغ شخصياتنا على منوال شخصياتهم، فالتلميذ قد يتعيّن بأستاذه الذي يحبّه، والطفل يتعيّن غالباً بذويه، والرياضي يتعيّن بفريقه أو ببطل من الأبطال، والممثّل قد يتقمّص الدور في المسرحية حتى ليتلبّسه في الحياة كما في المسرح من طول معايشته له. والتعيّن لذلك قد يكون وقتياً، وقد يستمر لفترة أطول، ويساعد على نمو الذات، ويسرع بالتعلم، ويطلق البعض على مثل هذا التعيّن إسم التعيّن الاجتماعي Social i.، وهو أحياناً خفيف لا يظهر، وأحياناً يكون بشكل مغالى فيه حتى لتنمحي شخصية

المتعيّن في شخصية المتعيّن به وتذوب فيها، ومثل ذلك يحدث عند الصوفية، وتعيّنهم يقال له التعيّن الكوني Cosmic i.، لأن الصوفي تذوب بالتعيّن شخصيته تماماً في الوجود كله أو تفنى به، وهذا هو معنى الفناء الصوفي Mystic annihilation، وكان ذلك ما ذهب إليه الحلاّج وغيره من صوفية وحدة الوجود Pantheism، وهو أيضاً ما يشعر به بعض المرضى بالاضطرابات النفسية كما في فقدان الشخصية Depersonalization، فيزعمون أن وجودهم غير واقعي، وأنهم يتلاشون في العالم، أو في بعض أنواع الفصام فيكون إحساس المريض بأنه ليس نفسه وأنه شخص آخر، وقد تتعدد الشخوص التي ينتحلها لنفسه ويتقمّصها، وذلك هو التعيّن المتعدد Multiple i.، فيكون مرة هتلر مثلاً، ومرة أخرى يكون نابليون. والمرضى بتعدد الشخصية Multiple personality يكون لهم هذا التعيّن المتعدّد أيضاً. ومن محاذير التعيّن أن المتعيِّن كثيراً ما يتوحّد بشخصية المعتدي - التعيُّن بالمُعتدي i. with the aggressor، وتفسّر ذلك نظرية التعيّن بالمنافس أو الخصم i, with the rival or with the opponent theory، فالشخص الذي يكون في موقف منافسة معنا لمدة طويلة ولا نستطيع أن نهزمه، قد نلجأ إلى التوحّد به، بأن تكون لنا لغته وقيمه وعاداته ولباسه، لعلنا بذلك لا نكون في موقف مواجهة معه، وذلك ما يحدث كثيراً عند الأمم المهزومة أو المغلوبة على أمرها والمستعمَرة، فليس تقليد الأوروبيين والأميركيين بخاصة إلا من هذا القبيل، وكلما اشتدت شراسة الخصم أو المعتدي أو المنافس وظهر تفوقه كلما راج التعيّن به وكَثُر. وشبيه بذلك موقف الطفل في أول حياته، وهو الموقف الذي يشير إليه المحللون النفسيون باسم الموقف الأوديبي Oedipus situation، حيث يختار منافسه الأوديبي من جنسه ليتعيّن به كحلّ للصراع بينهما، فالولد الذي يحب أمه يجد أباه في موقف المنافس له على هذا الحب، ويجده الأقوى والأقدر والمعقود له الغلبة. وكذلك تميل البنت إلى أبيها لأنه عكس جنسها، وتجد في أمّها مزاحماً لها على حبها له، وينحلُّ الإشكال بأن يتعيّن

الولد بأبيه ليكون مثله، وتتعيّن البنت بأمها، ويأخذان عنهما دور الذكورة أو الأنوثة حسب جنس الطفل.

وللتعين تفسيرات أخرى، منها تفسيره بنظرية النفوذ الاجتماعي The social-influence theory، حيث نميل دائماً إلى أن نتعيّن بالأشخاص الناجحين ونقلّدهم، لعلنا بذلك نصل مثلهم إلى النجاح ونحقّق الشهرة، وليست عبادة البطل Hero-worship إلا من هذا القبيل، حيث أصحاب النفوذ هم دائماً أبطال تحتذيهم أممهم، وخاصة في مرحلة المراهقة التي ما يكاد يخلو الشاب الذي يمرّ بها من أن يكون له بطل يتعشّقه ويقتدى به، ويكون له نموذجاً لتفكيره وسلوكه.

وقد يذهب البعض وخاصة الارتباطيين Associanists إلى تفسير التعيّن بالإشراط Conditioning، وأنه نتيجة التعزيز الثانوي Secondary reinforcement، فالطفل الذي يربط بين ما يتحصّل عليه من إشباع بيولوجي ووجود الأبوين، قد نجده يقلّدهما من بعد عندما يصبح في إمكانه أن يأتي بعض الأفعال، لأنه يدرك أنه بهذا التقليد يقترب في سلوكه من مستوى سلوكهما الذي كان مشبعاً له، ومن ثم يعطيه الإحساس بأنه يتابعهما على ما يفعلان، الشعور بالرضا نفسه الذي كان له قديماً.

ويطلق أصحاب التحليل النفسي على التعيّن في الطفولة إسم التعيّن الأولي Primary i. أو البدائي Primitive ، لأن الطفل فيه يتصرف دون تمييز بين ما هو له وما هو من العالَم من حوله، والأم وثدياها والأشياء التي يلعب بها هي امتداد لجسمه، وهي منه، ويغضب أشد الغضب لو حُرِم منها أو حُجبت عنه، فإذا كَبُر تمايز عمّا حوله ومن حوله، ورأى العالم يتسع كثيراً، وعانى من الانفصال عمّن يحبّ وما يحبّ، فيتعين بهذا أو ذاك، ويرى فيه نفسه ويلاعبه أو يحادثه توهّماً، وقد يحتضن الدمية ويقبّلها لأنها نفسه، وهو محروم من أمه التي سافرت أو خرجت لتعمل، فيعوّض نفسه عنها بأن يكون هو نفسه الأم، وتكون الدمية نفسه، وذلك ما يسميه علماء التحليل النفسي التعيّن الثانوي Secondary i.، وهم يقولون أيضاً بتعين إسقاطي Projective i.، بأن نرى أنفسنا في الأشياء أو الناس من

حولنا، فنبرر سلوكهم بحسب دوافعنا لمثل هذا السلوك لو صدر عنا لا بحسب دوافعهم، وكثيراً ما نلمس ذلك بين الزوجين بعد مشاهدة مسرحية أو أحد الأفلام، فينتصر أحدهما لسلوك معيّن بينما يدحضه الآخر، ويذهب الاثنان إلى تبريرات إسقاطية ترجع إلى ظروفهما، وليس لموقف وظروف الشخصية في المسرحية أو الفيلم. والتعيّن قد يكون تعيّناً شعورياً مقصوداً Conscious i. ومتعمداً Deliberate، وقد يكون لاشعورياً Unconscious i.؛ وقد يكون فردياً Individual i.، وقد يكون جمعياً Collective i. وهناك أيضاً التعيّن الاستدماجي Introjective i.، بأن يتّجه توحّدنا أو تعيّننا إلى ناحية من نواحي الشخصية التي نتعيّن بها، كأن نستدمج آراءها في مجال معيّن، فيكون جزءاً من بنائنا الفكري مثلاً، حتى لنتصرف كأنها آراؤنا نحن على الحقيقة. ويبدو أن التعيّن الثانوي والاستدماج Introjection مترادفان في التحليل النفسي، وكان فرويد يستخدمهما بمعنى واحد، والصحيح أنهما ليسا كذلك، حيث الاستدماج هو وسيلة أو ميكانيزم التعيّن، فلا تعيّن بلا استدماج، غير أن كتابات هذه الأيام لا تفرّق في الاستخدام بين المصطلحين.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Freud: Introductory Lectures on Psychoanalysis.
- Freud: The Ego and the Machanisms of Defence.
- Miller, N.E. & Dollard, J.: Social Learning and Imitation.

❖ ❖ ❖

- ١٨ -
سيكولوجية اللعب
Psychology of Play

اللعب في وقت الفراغ. اللعب والعمل. أدبيات اللعب. شخصيّة اللاعب. اللعب ومراحل العمر. اللعب الإنفرادي والإستكشافي، والإيهامي. المحاكاة.

اللعب الدرامي كوسيلة إسقاطيّة. أنواع أخرى من اللعب. اللعب كعلاج...

❖ ❖ ❖

نحن نلعب في وقت الفراغ، واللعب من أنشطة وقت الفراغ، وله شروطه بهذا الاعتبار، وبدونها لا يكون لعباً، ومن ذلك أن اللعب ليس التزاماً، ولا يستهدف الكسب، ويصدر عن رغبة حقيقية في تحريك الأعضاء، وممارسة الرياضة والترويح عن النفس Recreational play، بالانطلاق دون قيود، وصرف الطاقة الحبيسة أو الزائدة، والتحرر من التكاليف الاجتماعية والرسميات. واللاعب الذي قد يجعل من مهارته في اللعب حرفة يكتسب منها، لا يصبح ما يأتيه لعباً ولكنه «عمل»، وقد يتحصّل له منه الإرهاق، وقد يصاب وهو يؤدّيه بالإحباط، وقد يفشل دون تحقيق أهدافه المادية أو الاجتماعية وتعتريه من ذلك مختلف الاضطرابات النفسية التي يمكن أن يتعرّض لها العامل الفاشل أو المُحبَط. والفرق بين «العمل واللعب»: إنه في اللعب يكون السعي لتحقيق نوع من الرضا عن النفس والإشباع الذاتي اللذين هما غاية في حدّ ذاتهما، وذلك يجعل من اللعب نشاطاً له طبيعة إستمتاعية خاصة تختلف عمّا يمكن أن يتيحه لنا أداء «العمل» أحياناً من استمتاع، غير أن «المتعة التي يهيؤها العمل» ترتبط بالتزامات مهنية أو عائلية أو اجتماعية، وذلك شيء يجانب طبيعة المتعة التي تتحصّل في اللعب Play-pleasure، فأنت إذ تعمل تُضطَر إلى استكمال ما تعمل، وأن تنهض به على الوجه الذي ترى أنه أنسب وأفضل، فهناك أصول دائماً لا بد من مراعاتها في العمل، وهي أصول تحكم العامل من خارج نفسه أو ذاته، وأما في اللعب فأنت حرّ أن تلعب بالطريقة التي تحب، وأن يستغرق لعبك ما تشاء من وقت، ولك أن تتوقف عن اللعب إذا تعبت أو أصابك منه السأم، وذلك ما يجعل البعض يقول بأدبيات اللعب Play moralities كأدبيات العمل، فأنت لست مضطراً لأن تلعب «لتُرضي أحداً»، وهذا على الأقل هو حال اللاعب الهاوي Amateur player، بخلاف حال اللاعب المحترف Professional player،

ويكفي في اللعب أنه «يرضيك» وحدك، وينصرف إليه انتباهك كاملاً، حتى أن البعض وهو يلعب قد يستغرقه اللعب تماماً عن كل ما حوله. وفي اللعب تبين شخصية اللاعب Player's personality فيما يختار من ألعاب، والطريقة التي يمارسها بها، ويُظهِر اللاعب إمكاناته وقدراته ومهاراته، ويطرح من خلال اللعب صراعاته، وعُقده، وميوله، واهتماماته، واتجاهاته، واللعب نشاط مهم من ثمّ كأهمية نشاط العمل سواء بسواء، وحتى النظريات الاشتراكية التي تعتبر الإنسان عاملاً بالدرجة الأولى، تجعل من اللعب ضرورة نفسية، كما أنه ضرورة ترفيهية، وضرورة إجتماعية، وضرورة تعليمية. والإنسان يبدأ نشاطه بعد أن يولد كنشاط له طبيعة اللعب، وتتفتح حواسه ويزيد وعيه بما حوله من العالم من خلال لهوه بالأشياء واستمتاعه وهو يلعب بها - Ludic play أي اللعب العشوائي - ويتعرّف إليها، ويتعلّم أن يميز أثناء ذلك بين مختلف الأشكال والألوان والأصوات. وتتعاقب مراحل النمو علينا منذ الميلاد، ومعها تتزايد استعداداتنا ونتضج أكثر، ومن ثم تختلف قدراتنا على إتيان اللعب ونُقبِل على الألعاب التي تشتمل على حركات يمكن أن نقوم بها، والتي تشبع فينا إتجاهات واهتمامات وميولاً ونزعات معينة تنسجم مع مرحلة العمر التي نمر بها. والطفل الصغير يكون لعبه في أول الأمر إنفرادياً Solitary play، أي أنه يُلاعب نفسه، وقد يستمر ذلك معه فيما بعد، ومع أنه قد يحب أن يلاعبه الآخرون إلا أن هذا اللعب الانفرادي قد يستمر معه إلى مراحل أخرى، وحتى الراشد منا قد يؤثّر أحياناً أن يلعب اللعب الانفرادي Solitary playing. وفي اللعب الانفرادي تكون حركات الطفل عشوائية، وكأنما يعبث بالأشياء. ويشبه لعبه لعب صغار الحيوانات، وهو لعب إستكشافي Exploratory play، وهو نفسه اللعب الذي يظل معه مع تنظيم أكثر في المراحل الأخرى من العمر، والذي به يكون إقباله على الأشياء من باب حب الاستطلاع والعلم بالأشياء، فيحاول أن يفك أجزاءها ويتعرّف إلى دخائلها، والطفل في سن ما قبل المدرسة يكون ذلك دأبه، ويستمتع أيما استمتاع بأن يرفع الأغطية

والملاءات لينظر ما تحتها، أو ينحّي الستائر جانباً ليرى ما يكون خلفها. وقد يلذّ له أن يشاهد الآخرين وهم يلعبون، فيحاول أن يحاكيهم، والمحاكاة Imitation شكل جديد من اللعب، والفُرجة Spectating على الآخرين يلعبون لها متعة اللعب، وتستمر المحاكاة والفُرجة معنا حتى النهاية، ويقوم اللعب الإيهامي على المحاكاة، أي استرجاع الخبرات التي يمر بها الطفل فيعاود طرحها ولكن بطريقته وذلك يجعله يسيطر عليها. والفُرجة ميل شديد يكون بالأطفال لمطالعة كل ما يجري حولهم ويكبر معهم ليكون من بعد عند الكبار «حُمّى الفُرجة Spectatoritis» التي تستبد بهم، ويكون من خلالها تعينهم بكبار اللاعبين أو الفرق الرياضية المشهورة، وانتصارهم لها وفرحتهم البالغة بفوزها، واكتئابهم الشديد وحزنهم الواضح إذا حدث وهُزمت هذه الفرق أو خذلهم لاعبوها. ويعني «اللعب الإيهامي Make-believe play» أو «let's ptetend p.»: أن الطفل يتصور نفسه في أدوار Roles معينة. هذا التصور يعني أن الطفل قد بلغ مرحلة التصوّر من الذكاء، وهي مرحلة لا تأتيه إلا ابتداءً من سن السنة والنصف، وتستمر معه حتى نحو السابعة أو الثامنة، وفيها يستطيع الطفل أن يشير إلى الأشياء في حالة عدم وجودها بإشارات أو رموز تحلّ محلها ويعمّمها من بعد، ومن ثم فقد يرمز لأخيه بالدمية ويخاطبها ويتصوّرها تبكي ويهدهدها، وقد يقذف في الهواء بِكُرة مُتَصوَّرة لا وجود لها، ويصبح في استطاعته دون أن يرجع إلى الأشياء الأصلية أن يقوم بسلسلة من الأفعال الإيهامية بالتفصيل، وأن يكرر مشاهد كاملة من الأحداث اليومية كأن يلعب «لعبة الآباء والأمهات»، أو «لعبة الشراء والبيع» في المحلات، ولا تكون الأشياء المتخيلة مجرد أشياء واقعية، بل قد تكون أشياء مخترعة لم تمر في خبرة الطفل. والكثير من الأطفال يكون لهم مثلاً رفقاء لعب متخَيَّلون - Imaginary play companions، ويعطونهم أسماء مُتَخيلة أيضاً هي في أحيان كثيرة تحريف لأسماء واقعية. ومع التقدّم في السن يتطور اللعب الإيهامي ليكون أكثر اتساقاً وتكون أحداثه أكثر تماسكاً. وعادة ما يكون تفكير الطفل

في اللعب الإيهامي تفكيراً إحيائياً Animistic، أي تفكيراً يضفي على الأشياء الجامدة من حوله حياة وروحاً بحيث يتخيّلها تضج من حوله بالحركة والكلام. ويؤثّر الغضب والإحباط في نوع اللعب الإيهامي، فيكون أبطال القصص في هذا اللعب هم الشخصيات التي تتسبب في الضيق للطفل. ويتسم اللعب الإيهامي للطفل الذي يتعرض للمضايقات بطابع عدواني صريح، ويخفف عنه أن ينفّس عن غضبه أو إحباطه في لعبه. وعندما يتيح اللعب الإيهامي للطفل أن يتخفف مما به من عدوانية في لعبه، فإنه يكون أقل عدوانية في سلوكه العادي مع الأطفال أو المربيات أو ذويه. ومن سمات الدُّمَى Dolls التي يلعب بها الطفل إيهامياً، أنها كلما كانت أكثر تجريداً من حيث الشكل كلما يتيح ذلك للطفل أن يتخيلها ممثّلة لمختلف الأشخاص أو الموضوعات، فمثلاً قد يُذكِي عُود من الحطب خيال الطفل فيعامله كحصان أو حمار أو أي حيوان يعرفه، أكثر مما يمكن أن تهيؤه له دمية حقيقية لها شكل الحصان أو الحمار فعلاً. ومن دأب الأطفال أن يتخيلوا الأشخاص الذين تقع منهم مضايقات لهم باعتبارهم أشراراً أو عفاريت أو سحرة أو مُسوخاً شائهة. ويكشف الطفل في لعبه الإيهامي حقيقة مشاعره نحو الناس والأشياء، ومن ثم يكون اللعب الإيهامي وسيلة إسقاطية ويسمى «اللعب الإسقاطي Projective p.»، ويستخدمه علماء التحليل النفسي كوسيلة تشخيصية لمعرفة ما يضايق الطفل ويتسبب عنده في المخاوف أو التهتهة أو التبوّل الليلي أو غير ذلك من الاضطرابات، عندما لا تكون أسبابها عضوية وتدفع إليها عوامل نفسية محضة. ولا ينتهي هذا اللعب الإيهامي ببلوغ الطفل السابعة أو نحوها عندما يزيد احتكاكه بالحياة ويتجه تفكيره لأن يكون منطقياً وليس انفعاليا، ويصبح هذا اللعب من بعد هذه السن «لعباً تخيلياً Fictional play»، وقد يتحقق عنده وهو يحاول أن يقلّد الناس من حوله ويحاكي حركاتهم وطريقتهم في الكلام ويعتمد على المحاكاة في رواياته للأحداث، ومحاكاته ليست طبق الأصل ولكنها لأبرز ما يسترعي الانتباه عنده فيهم. واللعب التخيلي يساعد الطفل على

التمثّل بمختلف الأدوار وإدراك مضمونها والتمييز بينها، والتعيُّن ببعض الناس وتمثّل أخلاقياتهم وأهدافهم، وقد يكبر معه أكثر من ذلك ويكون لعباً درامياً Dramatic play يظهر كقدرة على التمثيل، ويكون دافعاً للطفل إلى أن ينخرط في الفرق التمثيلية، وأن ينمّي هواياته تلك حتى ليمكن أن يكون التمثيل موضوع دراسته ويحترفه من بعد، أو يكون التمثيل موضوعه الأثير للفرجة وتستهويه الروايات التي لموضوعاتها وشائج تربطها بميوله واتجاهاته وعُقَده والمكبوت في نفسه من الرغبات والصراعات.

واللعب في الطفولة الباكرة عندما يكون بقصد التنشيط وأن يمارس به الطفل وظائف أعضائه يُسمّى لعباً وظيفياً Functional play، ويظل هذا اللعب معه باستمرار مع مراحل عمره كلها يهدف منه إلى أن يصقل مهاراته الحركية. واللعب الذي يتمثل في تعشّق الطفل للحكايات والاستماع إليها، وتأمل الصور، ومشاهدة أفلام الكرتون ومسرحيات العرائس، ومحاكاة ما تعرضه ولو محاكاة داخلية، هو «لعب إستقبالي Receptive play»؛ فإذا انهمك الطفل في أن يجرّب الرسم بالألوان أو الطباشير، أو أن يصوّر الأشياء بالصلصال والرمل والطين، أو أن يشكّلها بالمكعبات، فلعبه يطلق عليه إسم «اللعب الإنشائي Constructive play»؛ وإذا جرّب أن يصدر أصواتاً، أو يلعب بآلات موسيقية، أو يغني، فلعبه يقال له «اللعب الموسيقي Musical play»، وكل ذلك أنواع من اللعب يأتيها الأطفال في نحو الثانية وقبل أن يلتحقوا بالحضانة في الثالثة، حيث يبدأ اللعب يتخلّى قليلاً عن انفراديته، وعن أن يكون «لعباً منزلياً Indoor play»، ويبدأ يكون بمشاركة الآخرين، و«خارج البيت Outdoor play»، أو يكون محاكاةً للآخرين في لعبهم، وهذا هو «اللعب المتوازي Parallel play». فقد يظل الطفل يلعب بألعابه دون أن يتعاون مع الأطفال الآخرين أو يتبادل معهم ألعابه، إلا أنه يلعب بها في حضور الأطفال، وهو يُقبِل على اللعب أكثر كلما تواجد مع الأطفال، ولا يبدأ «اللعب التعاوني Collaborative play» الحقيقي إلا في نحو السابعة، وكلما تقدّم الطفل في

السن كلما كان أقدر على اللعب التعاوني، ويتوقف التعاون بين الأطفال في لعبهم على درجة صعوبة الألعاب. واللعب التعاوني يزيد قدرتهم على التواصل فيما بينهم، ويزداد حجم الجماعة التي يلعب معها الطفل مع تقدم السن، ففي نحو سن الثالثة قد تقتصر «جماعة اللعب Playing team» غالباً على ثلاثة أطفال، ولعبهم معاً لا يستمر عادة لفترة طويلة فسرعان ما ينفرط عقدهم، إلا أنهم في نحو سن الخامسة تكبر جماعتهم فتضم أربعة أو خمسة أطفال ويدوم لعبهم لمدة أطول. ومن الملاحظ أن الأطفال قبل سن الثانية أو الثالثة ليس بوسعهم أن يتواجدوا معاً لأكثر من طفلين غالباً يترافقان معاً، والطفل لا يمكنه أن تكون له علاقة حسنة بأكثر من طفل في الوقت نفسه والمكان نفسه، وحينما يوضع ثلاثة أطفال معاً فإنه لا يلعب منهم معاً في أية لحظة إلا اثنان فقط. ويطمئن الأطفال إلى اللعب معاً في حضور الأمهات أو إذا كانت البيئة التي يلعبون فيها مألوفة لهم، ولعبهم مع إخوتهم أكثر. ومن المألوف أن يتلامس الإخوة بين الثانية والثالثة، وأن يقعوا معاً، ويتمرغوا على بعضهم البعض في نوع من «اللعب بالتلامس Tactile play» كما تفعل صغار القطط والكلاب وغيرها من الحيوانات. ولا يعني قيام اللعب التعاوني بين الأطفال أن استجاباتهم لبعضهم البعض فيها مشاركة وجدانية، أو أنها استجابات تعاطفية تجاه شركاء اللعب. وكثيراً ما يكون اللعب التعاوني في السن قبل الحضانة تخيُّلات جماعية، فمثلاً يحب الأطفال في هذه السن لعبة القاطرات، إلا أن كل طفل لا يتخيل نفسه إلا في دور السائق، بينما الأطفال غيره يراهم في أدوار الركاب. ولا يرقى اللعب التعاوني أو المتشارك إلى مستوى «اللعب الاجتماعي Social play» إلا بعد أن يتعلم الأطفال الكثير. واللعب الاجتماعي عندما يبدأ الأطفال ينمو معهم ويستمر في الترقّي إلى ما نعرفه من اللعب المنظم بين الكبار. و«اللعب المنظم Organized play» هو الذي يسير وفق القواعد والأصول، ويكون بالمشاركة، ويقوم على التعاون، وتُحصَى فيه الكثير من العلاقات الاجتماعية. وهو بقدر ما يقوم على المشاركة والتعاون من ناحية فإنه يقوم

أيضاً من ناحية على التنافس. ولا يعني أننا نحتاج إلى شركاء في اللعب أن ترتفع المشاجرات بين الشركاء، وليس التنافس في اللعب وتأكيد اللاعب لذاته على شركائه إلا نتائج للعب الاجتماعي أكثر منها أسباباً له. وقد يرقى هذا اللعب ليصبح هواية Hobby، ومن ذلك «هوايات تربية الحيوانات Animal hobbies»، والهوايات الحرفية Craft hobbies كالنجارة، والتصوير، والتفصيل، والبستنة .Gardening hs.

وعادة ما يتوجّه الطفل قبل سن الثانية بثورات غضبه إلى الكبار من حوله، وأما بعد الثالثة أو الرابعة فإن العراك مع الأطفال الآخرين تكون له الصدارة، وهي السن التي تكون للأطفال أهمية بالنسبة لبعضهم البعض، وقبل الثانية لا يلحظ الأطفال بعضهم البعض كثيراً، وفي الثالثة يضطربون إذا تبين لهم أن آخرين يلحظونهم وهم يلعبون، وذلك أن أداءهم لأي لعب لا يكون بالمستوى والإنجاز الذي يعجبهم، إلا أنهم بعد ذلك وفي نحو الخامسة يختار الطفل طفلاً آخر يلعب معه، ولعبهم يكون أفضل إذا جرى وهم أزواج أكثر منه وهم فرادى، ويرتفع الأداء مع النمو في السن ووجود التنافس، والأطفال بعد الثالثة يميلون إلى التنافس، ولو حدث واجتمعوا وقال واحد منهم أن لديه قاطرة، يقول الباقون: هم أيضاً لديهم قاطرات، وهكذا في كل شيء. وقيل إن سن السابعة أو الثامنة هي السن الانتقالية التي يكون فيها تحوّل اللعب التعاوني إلى لعب الجماعات والعصابات Gangs، ويستمر هذا التحول حتى الثانية عشرة، والطفل في هذه السن يبدأ يعزف عن ألعابه الانفرادية، وينتظم في الجماعة أو العصابة، ويكون التنافس ليس بينه وبين طفل آخر ولكنه التنافس بين جماعته وجماعة أخرى، أو بينهم كجماعة أطفال وبين جماعة الكبار، والتحدي هو سمة هذا التنافس، ويندرج الأطفال في ألعابهم الجماعية في شكل الركض والقفز والمصارعة، وكل أنواع الألعاب التي فيها الحركة والعنف والتحدي، ويلاحظ ذلك على الصبيان أكثر من البنات، وفي هذه السن يكون الافتراق بين الصبيان والبنات، وتدوم الجماعة أكثر وكذلك يقل تقلب الطفل في

صداقاته الفردية. ويعتمد قيام العصابة على ظروف أفرادها الاجتماعية والتركيبات النفسية التي لهم. وربما كان انفراق البنات عن الصبيان في هذه السن مرجعة للضغوط الاجتماعية، وقد لوحظ أن «جماعة اللعب» التي تواجَه بالمقاومة من الكبار يزيد تماسك أفرادها. وتميل جماعة اللعب المسماة باسم العصابة إلى أن يؤلفها الأطفال الذين طالت معاشرتهم لبعضهم بحكم المعرفة الوثيقة من الطفولة الباكرة، وتكثر كظاهرة إجتماعية في الأحياء الفقيرة، حيث يكون لها إشباع نفسي كبديل لحالات العوز والفقر والحرمان العاطفي، بالنظر إلى التفسّخ العائلي الذي يعيشه أطفال هذه الأحياء. والعصابة أو الشِلّة لها قواعد سلوك خاصة بها يدين لها الأطفال بالولاء في ألعابهم.

وربما تكون هناك ممارسات جنسية للأطفال حتى قبل البلوغ. و«اللعب الجنسي Sexual play» يعرفه الأطفال عموماً منذ الحضانة، فقد يجد الطفل متعة جنسية وهو يمسك قضيبه، وقد ينخرط الأطفال الكبار في التنافس على التبوّل لأبعد مدى، أو في الاستعراض بالقضيب، وقد يكون لهوهم باستعراض الاستمناء الجماعي، أو تبادل الاستمناء، أو إتيان الجنس صريحاً واستعراض معاودته لمرات.

والكثير من اللعب في المراهقة وما قبلها يقوم على المحاكاة والتقليد بتأثير ما يسمى «الأقران Peers» أو الصحاب من أعضاء الشِلّة أو العصابة. والكثير من هذا اللعب تُسنَد فيه الأدوار للاعبين وتكون له قواعد وأهداف. ويخلص اللاعبون للجماعة وتكون لهم تخيلاتهم العالية، فقد يحسب اللاعب في مباريات كرة القدم أو غيرها أنه يلعب ليرفع إسم بلده، وربما يتصور أنه يلعب لفتاته أو لكي يصفق له الجمهور.

واللعب قد يقبل عليه الناس في أي عمر وأية مرحلة كممارسة ونشاط، وقد ينمو ذلك معنا ويلازمنا دائماً، حتى انه في تدريبات الجيش - وهي آخر ما يمكن أن يقال عنها إنها لعب، قد تُمارس كألعاب ولو أنها في الواقع تدريبات. واللعب من هذا النوع هو تسام بغرائز القتال

والصراع، ومن شأن هذا التسامي أن يجعل هذه الغرائز تمارَس تحت إسم الفروسية والشجاعة والتضحية والفداء، أو في شكل رقصات الحرب. وهناك فروق لذلك بين الشعوب والأفراد في ألعابهم.

ويميل الناس في الشعوب التي لها حاصل ذكاء عالٍ إلى الألعاب التي تشتمل على الكثير من النشاط العقلي، وكذلك يميل الأفراد من ذوي الذكاء العالي إلى الألعاب التي ليس فيها صخب. ويكثر بين الأطفال الموهوبين أن يختاروا شركاء لهم في اللعب من تخيلاتهم، ويكثر كذلك أن يلعبوا وحدهم. ويتميز لعب الطفل الذكي بأنه أكثر تنوعاً وتلوناً ونضجاً، وعلى عكس ذلك يكون لعب الطفل المتخلف عقلياً، فهو أقل تجديداً في لعبه ويفضل الألعاب التي ليس لها قواعد معقدة. والصبيان بشكل عام أكثر خشونة في ألعابهم من البنات، وتشجّع البنات في كل الثقافات على اللعب الهادئ، ويحب الصبيان «ألعاب التنافس Competitive plays» عن البنات. والطفل الذي يُحرَم اللعب ينشأ متبلد المشاعر والذكاء وعاطل من المهارات الاجتماعية. ويؤثّر الحرمان من الأسرة وخاصة الأم، والنشأة في الملجأ أو المدرسة الداخلية، يؤثر في فاعلية الطفل في اللعب، وهو يأتيه بدون اهتمام، وربما ترجع السلبية عند هذا الطفل إلى حرمانه من المؤثرات في اللعب، بالنظر إلى اختلاف طبيعة المؤسسات عن البيوت، فطفل المؤسسة إنفعالاته محصورة في سريره وأقرانه ودميته، بينما الطفل في البيت يُحتَضن كثيراً ويُحمَل ويتحدثون إليه ويضحكون معه. ولاتجاهات البيت تأثيرها كذلك على اتجاهات اللعب عند الطفل الراشد. ومن دأب الطفل الذي ينشأ في البيوت التي يُطلق عليها إسم البيوت المتسامحة Tolerant homes، والتي تقوم التربية فيها على التحرر من القيود والمخاوف، أن يكون لعبه متحرراً ومنطلقاً ويتميز بالأصالة والتجدد، وعلى عكس ذلك يأتي الطفل الذي يتربّى في بيت مستبد Authoritative home فإنه يكون خانعاً ويميل إلى الألعاب الهادئة ويخاف من التجديد. كما أن الزيادة في تدليل الطفل Child-pampering تطبعه بطابعها فلا يحب الألعاب التي فيها مجازفة، ويخشى

على نفسه من الخشونة، ومن ثم يكبر وبه نقص واضح في المهارات الاجتماعية.

وليس من المستحب أن يكثر الآباء من شراء الدُّمَى وأدوات اللعب للطفل، فذلك يشغله بها عن الاتصال الجماعي، ومن ناحية أخرى فإن نقص هذه الدمى والأدوات يصرف الطفل الى اللعب بالرمل والتراب والحجارة والطين والماء ويتعرض لأن تتسخ ملابسه. والطفل الذي يجد ما يلعب به في حدود ذكائه وطاقته الحركية تنمو فيه الميول للتنشّط والاستكشاف والبناء. وكذلك تختلف تأثيرات الألعاب على الأطفال، فالألعاب التي تحتاج لشركاء تساعد على تنمية الاتصال بالآخرين، والطفل الذي يلعب بالعروسة أو يلوّن بالقلم يميل إلى أن يتحدث مع زملائه، على عكس الطفل الذي ينهمك في قصّ الورق أو التلوين بالزيت أو مطالعة الصور في الكتب. ويألف الأطفال بسرعة الألعاب التي لها ملمس ناعم، و«الدمية ذات الملمس الناعم» أهم بالنسبة للطفل من الدمية ذات الشكل الحسن، ويفيد احتضان الدمى من هذا القبيل في تخفيف توتر الطفل وقلقه، وقد تقوم مقام الأم عنده، وتستخدم كوسائل إسقاطية يعبر الطفل من خلال تعامله معها عن مشاعره تجاه نفسه وذويه والآخرين.

وكان فرويد هو أول من استخدم اللعب كعلاج ووسيلة تشخيص لحالة طفل صغير إسمه هانز، وعُرفت حالته في تاريخ التحليل النفسي باسم «حالة هانز الصغير Little Han's case». وطوّرت ميلاني كلاين Melanie Klein (١٨٨٢ - ١٩٦٠) طريقة فرويد واستخدمت «اللعب الحرّ Free playing» مع الأطفال في مكان التداعي الحر للألفاظ مع الكبار، وافترضت أنه في اللعب الحر يُسقط الطفل صراعاته ورغباته دون أن يعي ذلك، ومهمة المعالج النفسي تكون بأن يُصادق الطفل ويلعب مع ألعابه، ويستوضحه مشاعره وسلوكه، ويفسّر له ذلك من خلال اللعب واضطلاعه بالأدوار المختلفة التي يلمس أن الطفل يريده أن يضطلع بها، وتساعده على إظهار حقيقة مشاعره، ويكون تفاعله فيها مع الطفل إيجاباً. وتؤكّد أنّا فرويد Anna Freud (١٨٤٧) على دور المعالج النشيط في

توجيه الطفل من خلال اللعب أكثر من تفسير العلاقات له في اللعب. ومن خلال اللعب تكون إعادة تشكيل سلوكياته وتعليمه تربوياً، على عكس طريقة ميلاني كلاين التي تعتمد على التفسيرات التي تقدّم عن ألعابه الرمزية، حتى أن بعض المعالجين الذين يأخذون بمذهبها لا يهتمون باللعب إلا لأنه مجرد طريقة للتواصل مع الطفل المريض، بالنظر إلى ما يمكن أن يخلقه اللعب من ظروف ومواقف إجتماعية ومناسبات وموضوعات للكلام معه. وربما كان اللعب الحر بطريقة «العلاج غير الموجه Non-directive psychotherapy »، أو «العلاج المتمركز حول العميل Client-centered psychotheray»، بدون أي توجيه أو تفسير من الكبار، له ميزة علاج الكثير من الاضطرابات الانفعالية. ويقتصر دور المعالج على أن يكون لعب الطفل تحت إشرافه، فيوافق أو يسمح أو يبيح له أن يأخذ زمام المبادرة، ويفترض أن الطفل في هذه الحالة سيُخرج في اللعب صراعاته واندفاعاته غير المقبولة إجتماعياً، ويكون اللعب بمثابة التطهير Purgation أو Catharsis له منها، وذلك لأن إفراغ الانفعالات Cathecting عن طريق اللعب في مناخ يوحي بالطمأنينة للطفل ويَشعُر فيه أنه آمن، يؤدّي بالضرورة إلى خفض ما عند الطفل من قلق، فيستطيع بعد ذلك أن يتوافق مع المتطلبات الاجتماعية بشكل أسرع وأيسر. ويُطلق على العلاج بالطرق السابقة إسم «العلاج باللعب Play therapy»، وتتنوع أساليبه بتنوع المدارس النفسية، فنظريتا الجشطلت والمجال تفترضان مثلاً أن تطور الشخصية يتوقف على نوع التمايز الذي للأفراد. واللعب هو طريقة الطفل لاكتشاف العالم والتوافق معه وتعلّم التناسق الحركي واستخدام الرموز والتخيّل، ومشاركة الكبار للأطفال في ألعابهم يؤكّد للأطفال صلاحية ما يقومون به وما يتضمنه لعبهم من المعاني. ويستخدم اللعب في كل المذاهب النفسية لقيمته التربوية، وبهدف التعديل في سلوك الطفل، أو لمساعدته على فهم مشكلات مثل مولد أخ له، أو خَلْق العالم، أو التغلب على

غيره من الأطفال. واللعب في التحليل النفسي يصدر عن تنامي الطاقة الليبيدية ويتطور بتطورها، وهو سلوك بديل لما يمكن أداؤه في الواقع، وتكون به السيطرة على أنواع القلق، من حيث أن الطفل يمكن أن يعيد تمثيل المواقف المسببة له، ويتعامل معها من جديد التعامل الذي يدعّم أناه ويقوّي ثقته في ذاته، فيستطيع من ثم مواجهة أية اضطرابات مستقبلة بثقة أكبر (أنظر أيضاً المحاكاة، والعلاج النفسي).

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Millar, S.: Psychology of Play.
- Piaget J.: Play, Dreams and Imitation in Childhood.
- Beach, F.A.: Current Concepts of Play in Animals.
- Lehman. H.C. & Witty, P.A.: The Psychology of Play Activities.
- Schlosberg, H.: The Concept of Play.

❖ ❖ ❖

- ١٩ -
سيكولوجية المحاكاة

التعلّم بالمحاكاة. أنواع المحاكاة. المحاكاة الرمزية. النموذج في المحاكاة. الاستهوائية. المحاكاة الخلاّقة والهستيرية...

❖ ❖ ❖

يتم اكتساب الكثير من المهارات والقيم والتقاليد والعادات والاتجاهات بتقليد الآخرين عليها، ونحن نتعلم بالمحاكاة Imitation، ونتعلم أيضاً أن نحاكي في المراحل المبكرة من العمر. وقيل إن الطفل في أسابيعه الأولى بعد الولادة يدرك الانفعالات، ويلحظ تغيرات الوجه في نحو الشهر الثالث ويفهم معانيها، ويأخذ في تقليد الآخرين عليها، فإذا كان في الشهر السادس فهو يتجاوب مع ما يُطلَب منه ويرى ذويه يؤدّونه أمامه، ويتعلم أن يقلّدهم مودعاً وملوحاً بيديه، أو واضعاً يده على فمه

كأنما يعني أنه يرسل قبلة في الهواء، وهو في الشهر الثاني عشر يبدأ يقلّد الأصوات. والحافز إلى التقليد يبلغ أشدّه في العمر من السنتين إلى الثلاث سنوات عندما يبدأ يُلبِس نفسه، ويأكل بنفسه، ويحاول أن يسيطر على نطق الكلام، ويحاكي الوالدين والمحيطين به من الكبار فيما يأتيانه من حركات وخصائص، وما يصدر عنهم من أقوال يردّدها ترديداً، ويلحظ ذلك كله منهم ويكرّره المرّة تلو المرّة وكأنه يدرّب نفسه عليه، ومن ثم يتعلم الكثير حتى ليعجب مَن حوله متى تعلّم ذلك وأين تعلمه، ولكنها قوّة الملاحظة فيه وتنبّهه لما يدور حوله وتقليده له. وقد يساعده الكبار على التقليد بأن يتحدّثوا إليه في وضوح، ويكرروا الكلمات أمامه ويُسمِعوها له كثيراً، ويشجعونه على التقليد، ويطلعوه على الأشياء ويفكّوها أثناء مطالعته لهم، ويطلبوا منه أن يفعل الشيء نفسه. وكلما حاول المحاكاة إمتدحوها فيه، وكلما كرّر واسترجع وقال ما يريدونه أن يقول، أثنوا عليه وعزّزوا فعله واستحسنوه.

ومن المحاكاة ما قد يكون كأنما هي عدوى سلوكية Behavioral contagion، كالتثاؤب نأتيه عفوياً ولا إرادياً دون إعمال فكر أو إرادة لمجرد أن آخر يتثاءب. ومنها ما يكون منابةً لإتيان سلوك كسلوك الجماعة، وعندئذ لا يكون السلوك المحاكِي طبق الأصل كالسلوك المحاكَى «بفتح الكاف» مثلما يرى أطفالٌ أحدَهم يرسم فيطلبون ورقاً وأقلاماً ليرسموا هم أيضاً، فرغم أنهم يحاكونه في فعله إلا أن رسوماتهم تختلف قطعاً عن رسومات بعضهم البعض. وهناك المحاكاة بالملاحظة i. through observation، وهي التي يقوم عليها التعلّم غالباً كما أسلفنا، وكانت مدار بحث وتجريب من علماء النفس منذ القرن الماضي. والمعروف أن مصطلح المحاكاة لم يدخل علم النفس إلا سنة ١٨٩٠، عندما بدأ البحث في مجالها من قبل علماء أمثال جابرييل تارد Tarde (١٨٤٣ - ١٩٠٤) في كتابه «قوانين المحاكاة Les lois de l'imitation»، ووليام مكدوجال (١٩٠٨) صاحب كتابه «مقدمة في علم النفس الاجتماعي Introduction to Social

«Psychology». والمحاكاة في أول عهدنا بالحياة تكون «تلقائية وعفوية i.Spontaneous»، أو أنها «غريزية i. Instinctive»، نأتيها من غير تعلّم وبدون خبرة ولا قصد. وهي شيء أشبه بالانطباع Imprinting، مثل أفراخ البط التي بمجرد أن تخرج من البيض تتابع أمها في السير، وقد تبين أنها من الممكن أن تتابع أي شيء يتحرك ككرة متدحرجة أو المجرّب نفسه. والفطري فيها هو «سلوك» المتابعة وليس «موضوع» المتابعة. وكذلك المحاكاة عند الطفل في الأسابيع الأولى، فإنه يأتيها كأنما هو «مطبوع» المتابعة. وكذلك المحاكاة عند الطفل في الأسابيع الأولى، فإنه يأتيها كأنما هو «مطبوع» على ذلك، ثم من بعد ذلك تكون المحاكاة تصوّراً وتمثّلاً للمواقف والناس، ويتم ذلك بالتشجيع على المحاكاة من قبل الأهل والأقارب. ولو لم يكن هذا الاستعداد للمحاكاة موجوداً لدى الطفل ما طاوع أهله عليها. والمحاكاة من النوع التلقائي، وكذلك «المحاكاة الرمزية» عند الأطفال الكبار، لازمتان لنمو الطفل وتعلّمه، وبدون المحاكاة لن يتعلم الطفل اللغة، وقيل إنه حتى في اللغة فإن أساسياتها البسيطة فطرية في الطفل، ولهذا يسهل عليه من بعد إستحضارها صوتياً بالمحاكاة عليها، وليس خطأ الطفل في المحاكاة في اللغة لأنه يسمعها خطأ ويقلّد الخطأ، ولكن لأن هذه الأساسيات النحوية عنده بسيطة جداً، فلا تسعفه بفهم الفروق بين الحاضر والماضي، والمفرد والمثنى، ومن ثم فرغم حرصه على المحاكاة إلا أنه بسبب عدم النضج والتهيؤ الكامل للمحاكاة الصحيحة، يجانبه التوفيق فيها، ولهذا السبب كثيراً ما تضحكنا محاكاة الأطفال. والمحاكاة لازمة للطفل لتنشئته إجتماعياً، والطفل يحاكي الطفل الأكبر، كما يحاكي الراشد، بسبب أنهما أكبر منه. والناس عموماً تحاكي الأكبر سناً، أو مركزاً، أو علماً، أو الأكثر أناقة أو بلاغة أو فصاحة. ويُطلق على من يحاكونه إسم «النموذج Model» أو «المثال». ومن الممكن أن يحاكي الطفل الشخص المؤثّر في حياته، أو الذي يهديه الحلوى،

أو يقصّ عليه القصص. والشخصيات الجذّابة يمكن أن يحاكيها الكبار أيضاً. وأما الذي يقوم بالمحاكاة فهو «إستهوائي» غالباً، وقد يعاني من نقص في اعتبارات الذات، أو قد تكون له شخصية اعتمادية، أو ربما يعاني من كثرة الفشل فتتزعزع ثقته بنفسه ويميل لذلك إلى مسايرة الآخرين. وربما لهذا السبب كانت البنات أكثر ميلاً عن الصبيان إلى المحاكاة، بسبب تنشئة البنات تنشئة تطبع فيهن الانقياد، ومع ذلك يتوقف سلوك المحاكاة عند المفاضلة بين الذكور والإناث على من يكون صاحب الشخصية الأقوى في موقف المحاكاة. والصبيان عموماً أميل إلى محاكاة سلوك العنف من البنات. وليس من الضروري تواجد النموذج في الموقف لكي نحاكيه. ويختلف مفهوم «القوة» بحسب التربية، وهناك ما يثبت أن الأولاد الصغار يميلون إلى محاكاة شخصيات الأفلام الطيبة، والشخصيات القادرة، وقد تكون «القدرة» في القصة أو المسرحية للشخصية الشريرة، فتكون محاكاتهم لها. ويبدو أنه كان لا بد للمحاكاة في الطفولة الباكرة أن تكون فطرية، حيث يكون الطفل لا حول له ولا قوّة، وليس من سبيل أمامه إلا أن يحاكي ليستمر في البقاء، وتمكّنه المحاكاة من التعيّن بالأكبر منه، والأقدر، فيسلك سلوك القدرة ولو لم يتهيأ له، ويتعلم من المحاكاة كيف يتصرف بالبكاء، وما الذي ينبغي أن يقول ويفعل. والتعيّن والتصوّر الإيهامي من أهم ظواهر الطفولة ومقوماتها على المحاكاة. وفي المراهقة وما قبلها يساعدانه على أن يعثر لنفسه على هوية، ويشق لنفسه طريقاً، ويجد ذلك فيما يسمى عبادة البطل Hero-worship، حيث قد يتعيّن بمُصلح كبير، أو زعيم، أو قائد، أو شاعر، أو ممثل، ويحاول أن يحاكيه في سلوكه، ومن شأن ذلك أن يطوّر تمثّلات الطفل وينمّيه عقلياً ووجدانياً. وفي الكِبَر يستمر معنا سلوك المحاكاة، وربما يكون أيضاً لمشايعتنا للأقوى، أو ربما تيمُّناً واستجلاباً للبركة أو للمنفعة. ولو لم تكن المحاكاة لما كان ميلنا إلى مسايرة الأغلبية واعتناق أفكارها،

ومتابعة أهل الرأي والحل والعقد والثقاة من أقوامنا. ويستغل المعلنون هذا الميل للمحاكاة للمرموقين، فيفضلون أن تكون الدعاية لسلعهم عن طريق الممثلين المشهورين، أو لاعبي كرة القدم البارزين وهم رموز المجتمع، والمحاكاة لذلك رمزية Symbolic i.، ولها تأثير كبير على سلوك المستهلكين.

والمحاكاة لا تعني النقل Copying، ولا المماثلة Mimicking، لأن النقل هو تقليد طبق الأصل لا أصالة فيه ولا ابتداع، والمماثلة نقلٌ مبالغ فيه، وأما المحاكاة فهي صياغة Modelling للسلوك، فيشكل المحاكي ما يقول أو يفعل على منوال الآخر، ويقتضي منه ذلك أن يفهم القواعد التي يقوم عليها السلوك الآخر، فيلتزمها دون أن ينقل السلوك نفسه، وذلك عملٌ خلّاق يميل بالبعض إلى أن يقول بما يسميه «المحاكاة الخلّاقة Creative imitation»، وربما كان هذا هو ما يلتزمه الأتباع والحواريون بصدد محاكاتهم للنموذج أو المثال.

وللمحاكاة مزايا وأوجه قصور، ومن مزاياها أنها اختصار للوقت في التعلّم، ويكفي فيها قاعدة «إفعلْ كما أفعل Do as I do» ليتعلم الشخص الطريقة دون أن يُلمَّ بالأسباب التي حدت إليها أو الفلسفة خلفها. ويكفي العامل أن يلاحظ العمال يعملون ليقلدهم على عملهم، أو يكفيه أن يشاهد فيلماً عن ذلك. و«المحاكاة الاجتماعية Social i.» يكون بها تعلّم العادات الاجتماعية التي بدونها لا يكون الاجتماع. والذي يحاكي يستشعر بعملية المحاكاة أنه واحد من أعضاء المجتمع، وتتأكد بمحاكاته لبقية الأعضاء ولاءاته الاجتماعية، ويقوى به الانتماء للمجتمع. ومن جهة أخرى فإن الغلو في المحاكاة والأخذ بها كأسلوب حياة يجعل الشخص تابعاً دائماً، ويقضي على استقلاليته، وينفي عنه التفكير الإبداعي، ويُرديه في حمأة الآلية، دون فهم للأمور ولا إعمال فكر في المشاكل، وقد يقبل لذلك آراء الآخرين دون تمحيص، وينخرط في الانحيازات، ويكون تقليدياً في حياته.

ومن المحاكاة سلوك مَرَضِي يقال له «المحاكاة الهيستيرية Hysterical imitation»، فيأتي المريض به الأعراض

السلوكية نفسها التي يراها على آخر يتعيّن به فتتلبسه الأعراض ويأتيها مثله، فلو كان الآخر يشكو الشلل مثلاً فقد يصاب المريض بالمحاكاة الهستيرية بشلل أيضاً ليست له الأعراض التشريحية للشلل، ويقال له الشلل نفسي المنشأ، كأن يشكو الخدر في الذراع دون الساق، أو في الكفّ دون الذراع. وربما نلحظ هذه المحاكاة الهستيرية في بعض الناس حيث تجدهم يردّدون ما يقوله الغير أمامهم ترديداً بلا وعي ودون حاجة إليه، وهي الظاهرة المرضية التي يقال لها الصداء اللفظي Echolalia. وهناك الظاهرة المماثلة والتي مجالها الحركة وتسمى لذلك الصداء الحركي Echopraxia، وهي محاكاة قد يأتيها البعض أيضاً دون وعي، فإذا قَطّب المتحدث مثلاً فقد يُقطّب أيضاً المستمع، وإذا ضحك المتحدّث ضحك المستمع، وقد ينهض فينهض مثله وهكذا، وتلك ظواهر مرضية نلحظها واضحة جلية عند مرضى الفُصام بالذات.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Millar & Dollard: Social Learning and Imitation.
- A. Bandura: Social Learning and Personality.
- Ervin, S.M.: Imitation and Structural Change in Children's Language.
- Flanders, J.P.: A Review of Research on Imitative Behaviour.

❖ ❖ ❖

– ٢٠ –

سيكولوجية النَّوم Sleep Psychology

النوم والموت، واضطرابات النوم، وطقوسه، والحرمان منه، ودورة النوم.

❖ ❖ ❖

النوم: غشية ثقيلة تهجم على البدن فتُبطل عمل الحواس، وهذا المعنى في العربية غير موجود في أسماء النوم

الأوروبية، ففي الانجليزية الكلمة Sleep، أصلها جرماني من Sleps وSlaf، ومنها Schlaf الألمانية، وSlaap الهولندية، والمعنى فيها جميعاً هو: التعب الخامل، نقول Schlafen أي خمل، نتيجة التعب، ومنها Schlapp الضعيف المنهك أو الخامل، وليس هذا هو المعنى للنوم في العربية؛ وكذلك كلمة Slumber الإنجليزية فإنها أيضاً تعني الخمول، ونترجمها في العربي النعاس. وأما كلمة Doze، ومنها Dizz، فهي الدوخة، ونترجمها الغفوة، ومثل ذلك Somnus اللاتينية، وSommeil الفرنسية، وSen الروسية، وSan الصربية، وجميعها ترجع إلى Sona الهندية، ولا تفي منها بوصف حالة النوم إلا الكلمة العربية «النوم»، فهي أدقها وأفضلها، لأنها تعني إضطجع ورقد، وسكن واطمأن، وهمد، تقول: نام العرق أي لم يعد ينبض.

والنوم Somnus إله النوم، إبن إريبوس ونوكس Nox، وهو صنو الموت - ثاناتوس Thanatos، ويقال للموت إنه نوم أبدي Somnus longus، والاثنان من أولاد الليل، ولمّا تناولت جولييت في مسرحية شكسبير «روميو وجولييت» عقار النوم، كان القليل منه يسبب النوم، والكثير يسبب الموت، فالنوم والموت شقيقان، وجولييت ماتت بالكثير من العقار. وأما «سنو وايت» في قصة «Snow White and the Seven Dwarfs» من تأليف الأخوين Grimm (١٨١٢م) فإنها أخذت القليل من عقار النوم فعاشت ولم يدركها الموت. وخلط «المسيح في قصة ليعازر» بين النوم والموت وساوى بينهما (يوحنا ١١/٤). والنظريات كثيرة في سيكولوجية النوم وفي فسيولوجيته، فعند إمبادوقليس Empedocles (٤٩٣ - ٤٣٣ ق.م.) فإن النوم يسببه ابتراد الدم ابترادا طفيفاً، واعتبر أبقراط Hippocrates (نحو ٤٦٠ ق.م) هذا الابتراد بسبب انسحاب الدم، ونسبه أرسطو Aristotle (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) إلى أن أدخنة الجسم تتجمع في الرأس فيبترد البدن وينام، وقال الأفروديسي Alexander of Aphrodisias (٢٠٠ م) إن الجسم يفقد حرارته في النوم، وقال غير هؤلاء إن النوم يتسبب فيه هزال يطرأ على المخ من طول اليقظة، وإن الأرواح الحيوانية تقل في

الجسم باستنزافها في العمل فيتراخى ويخمل، أو أن الأوكسيجين يقل بالمخ فتكون الحاجة للنوم لتجديد كل ذلك.

ولم يكن للنوم مكان معيّن قديماً، ثم صارت غرف النوم المستقلة، وأوقات النوم الخاصة. ولا يأتي النوم إلا على مراحل متتابعة، ويكون عميقاً في الساعات الأولى، ثم يخفّ بالتدريج، وله موجات كهربية بالمخ، وبروفيل خاص، ففي البداية تكون تموجات ألفا صغيرة وسريعة وغير منتظمة، ويتذبذب السجل الكهربي للعينين ذبذبات بطيئة تماثل حركة دوران العينين، ثم تظهر تموجات أكبر تُعرف بمغازل النوم، ويتدنى التوتر العضلي، وتهدأ العينان وتسكنان، وهذه هي المرحلة الثانية، ثم تزداد تموّجات السجل الكهربي وتصبح أشد بطأً وتسمى تموجات دلتا، ثم يكون الطور الثالث فتزداد التموجات كبراً، وكذلك في الطور الرابع، والمرحلتان هما مرحلتا النوم العميق، والتموجات فيهما من نوع دلتا، وقد تتغير حركة الجسم فيبدأ التسجيل من جديد، ثم نعود إلى المرحلة الأولى وهكذا، وفي الليلة الواحدة تكون هناك أربع دورات أو خمس، وسميت المرحلة الأولى والثانية مرحلتي النوم المُرمّش REM sleep، والمرحلتان الثالثة والرابعة مرحلتا النوم غير المرمش NREM sleep.

وزمن النوم حدّده البعض بست ساعات، أو بخمس للشباب والكهول، وست للتجار، وسبع للمترفين، وثمان للكسالى والخاملين. ويقضي الرضيع ثلثي اليوم نائماً، وفي الشهر الثالث قلما يستيقظ في الليل، وفي سن ستة شهور يقضي اثنتي عشرة ساعة نائماً، ثم يتحول نمط النوم بالتدريج مع تقدّم السن من النمط متعدد المراحل إلى النمط ذي المرحلة الواحدة. ويتساوى النوم المرمش والنوم غير المرمش عند الرضيع، وتزيد الحركة عنده عنها عند البالغ في فترات النوم المرمش، وتزيد أكثر عند الأطفال مبتسري الولادة، وتتناقص مدّة هذا النوم حتى تبلغ ٢٥٪ من الزمن الكلي للنوم في العام الثاني أو الثالث للطفل. وتأخذ كبار السن غفوات من النوم أثناء النهار، وينتشر نوم القيلولة Nap بالنسبة للكثيرين. والنوم المبكر والاستيقاظ المبكر أفضل صحياً

ونفسياً. والناس في النوم أنماط، فالبعض لا يجدون مبرراً للنوم المبكر في الليل، والبعض ينامون أول الليل ويستيقظون في الصباح أكثر نشاطاً وحيوية، والبعض ينامون لأربع ساعات فقط، وهناك من تطول فترات نومهم، وكان إينشتاين ينام عشر ساعات يومياً، وأنسب مدّة للنوم سبع ساعات، وما زاد عن ذلك أو قلّ دليل على وجود عوامل داخلية تتسبب فيه، ويكثر الموت بين من ينامون أقل أو أكثر من الساعات السبع.

ومن خواص النوم أننا نرى فيه الأحلام عن مشاهد من الماضي القريب أو البعيد، لها طبيعة جذابة، غير أن الأحلام عموماً تفتقر إلى الخيال، وكثيراً ما لا نتذكر ما حلمنا به في الصباح، وفي معظم الأحيان تكون ذكرياتنا عن الأحلام باهتة غير مشوّقة، وكل أحلامنا يظهر فيها على الأقل شخص من معارفنا، وفيها حركة، ومضمونها سلبي، والشفاء والهزيمة والفشل أكثر وقوعاً بها من الرضى والنجاح. وتكثر الكوابيس Nightmares بأحلام الأطفال، وهم يحلمون بالحيوانات، وتتمتع أحلامهم بقدر من النشاط، والأطفال في سن الابتدائي يكونون أكثر إيجابية وفعالية في أحلامهم، ومعظمها ليس من النوع المخيف.

وبعض الناس قد يرون أنهم لا يحلمون، وهذا وَهْم، وعلى العكس فإننا نحلم عدّة مرات أثناء النوم الواحد، وكلما طال النوم طال وقت الحلم، فإذا قصر النوم قصر وقت الحلم، وتتماثل وقائع الحلم مع الطول الفعلي لزمن الحلم. ولا يوجد إرتباط مباشر بين الرَّمَش ومحتوى الحلم. غير أن أحلام النوم المرمّش أكثر حيوية من أحلام النوم غير المرمّش.

وفي النوم نفقد السيطرة على مجرى الأفكار، وليست الأحلام خداعات، ولكنها مجموعة من الرغبات، أو المخلفات Day-residues من انطباعات الحسّ في اليوم السابق، أو أن للمثيرات الحسيّة الخارجية دوراً رئيسياً في استثارتها، وتنشأ حالة الحلم Dream-state من نشاط المخ نفسه، كما تنشأ حركات العينين من نشاط الشبكات العصبية المرتبطة بالبصر، وتنشأ إنطباعات الحركة عن إستثارة المناطق الحركية.

والأحلام لها مغزى حضاري، ومن خلالها نتصل بصور أخرى من صور الحقيقة أو الواقع. وقيل إن العالم الخارجي للحلم ليس فعلاً هو العالم الخارجي، ولكن منطقةٌ في ذهن الحالم، فالحالم لا يحلم بأشياء لا يعرفها وإنما بالأشياء فقط التي يعرفها. وتحتوي الأحلام على معنى ظاهر ومعنى خفي كامن. والحلم لغة الذهن أو العقل، ولا يقل عالم الأحلام في واقعيته عن عالم اليقظة، وإنما واقعيته واقعية مختلفة. وللأحلام نواح إبداعية تلهم الحلول، وتتيح الاهتداء إلى ما يَعْمى عنا في اليقظة، وقد يفيد البعض من الأحلام فيطلب أن يحلم، لعله في الحلم يرى حلاً لمشكلته، ولذا كان الذين يحلمون محظوظين، ولهذا قال الشاعر هيلدرلين Hölderlin (١٧٧٠ - ١٨٤٣): الناس ملوك عندما يحلمون، ومتسولون عندما يستخدمون العقل والحكمة!

ولاستجلاب النوم قد يلجأ الناس القادرون مادياً إلى استخدام الأقراص المنومة، وهي عادةً غالية الثمن لا يقوى على شرائها إلا المترفون، والمتوقع أن خُمس مواطني الدول الغنية يتعاطى الأقراص المنومة، ومنهم أربعون في المائة يبلغون الستين من العمر. وكان الناس في الماضي كلما أعوزهم النوم يلجأون إلى الخمر، إلا أنها تصيب متعاطيها بالصداع، بالإضافة إلى سوء رائحتها وبذاءة لسان شاربيها وسوء أدبهم. وفي العالم الثالث كانوا يتعاطون الحشيش لاستجلاب النوم، وكان المتدينون والفقراء يلجأون إلى استخدام بعض الأعشاب يغلونها أو ينقعونها لعلها تفيدهم كمهدئات، وكمدخل للنوم، مثل الينسون، والكاركاديه، وزهور الشيخ، ولم تعرف الأقراص المنومة Sleeping pills إلا ابتداء من سنة ١٨٦٥، حينما اكتشفت الباربيتورات Barbiturates، إلا أنها كانت تسبب الإدمان، وتُحدث جرعاتها الزائدة التسمم، فاستعيض عنها بالبنزوديازيبين من نوع الليبريوم والفاليوم، وانتشر استخدامهما بسرعة، وتأكّد أنهما يؤديان إلى الإدمان ويتطلبان زيادة الجرعة باستمرار.

وتستحدث الأقراص المنومة آثاراً سيئة على دورة النوم Sleep-cycle، ولها

نتائج نفسية خطيرة، وتؤثر بالإضعاف والإنقاص من النوم المُرَمَّش وغير المرمَّش، وتغيير السجل الكهربي للمخ، واستحداث الخلل في وظائف المخ، وفي قدرة النوم على تعويض نشاط المتعاطي. ولهذه الأقراص آثار لاحقة، ويغلب على المتعاطين النعاس في اليوم الثاني، ويختل بها التنبيه والأداء، ويضعف التركيز، وتتسبب فيما يسمى الأرق المرتد Rebound insomnia عند التوقف بعد فترة طويلة من التعاطي، وتظهر أعراض الانسحاب، ولذلك يتزايد استهلاك الأقراص عند كبار السن، وعند النساء بخاصة في منتصف العمر، ويشيع الإدمان بين هؤلاء، وقد يتسبب لهم ذلك في فقدان الذاكرة، والنسيان الكثير، والخلط، والدوار، وقد نظن ذلك عند النساء من أعراض الشيخوخة المبكرة، وعند كبار السن من أعراض الشيخوخة. وثبت جلياً أن من المستحيل تحقيق أن يوجد قرص النوم المثالي الذي يمكن أن يُعين مَن يتناوله على النوم في يُسر من غير مضاعفات لاحقة، وأن أقراص النوم شديدة الخطورة سواء على وظائف المخ أو انتظام النوم، ولذلك وجب أن يكون تعاطيها في أقل الحدود، ولأقل الفترات.

واضطرابات النوم أعراض شائعة لها أسبابها النفسية قبل أسبابها الفسيولوجية أو العضوية، وتبلغ نسبة الذين يعانون من هذه الاضطرابات بين الرجال ٧٪، وبين النساء ١٢٪، وعلى ذلك فاضطرابات النوم أكثر بين النساء منها بين الرجال، وتزيد مع تقدم العمر، وأكثر الشكاوى منها في صعوبة الدخول في النوم، وفي كثرة الاستيقاظ في الليل، وفي الاستيقاظ المبكر. وبعض الناس يشكون من الأرق في حين أنهم ينامون فعلاً، غير أنهم لا يشعرون أنهم في حالة طيبة في الصباح.

وتتنوع أسباب اضطرابات النوم، فالأرق مثلاً، الغالب فيه أن أسبابه نفسية، وأن صاحبه تلح عليه أفكار معينة كأنها الحواز، وربما تكون شخصيته من النمط القلق، أو أنه يعاني من صراعات نفسية، ومشاكل خارجية، ولعل شخصية ماكبث Macbeth في مسرحية وليام شكسبير، نموذج للمعاناة من الأرق نفسي المنشأ، وقد تتسبب الأمراض الداخلية

في الأرق، وكثيراً ما يرجع إلى أسباب من المحيط والبيئة الخارجية، وربما تكون الضجة في الشارع، والتلوث السمعي من أسبابه، إلا أن ما يعنينا هو الأرق النفسي، وهو الذي يتسبب في الأرق المزمن. وللطقس والتغيرات المناخية علاقة بانصراف النوم عند البعض، وقد يُحدث تغيير سرير النائم أو حجرة نومه أرقاً من نوع ما، وتؤثر في النوم الطريقة التي يقضي بها النائم الساعات السابقة على نومه والتي تسبق موعد نومه، والأوفق دائماً أن لا ينغمس من يعزم على النوم في أي أنشطة جسمية أو نفسية تتسبب له في الإجهاد البدني أو العقلي أو النفسي، وقد يكون الأرق من علامات الاكتئاب.

ولتحسين النوم عدّة وسائل، منها أن يكون التوجّه إلى السرير في موعد معيّن يدأب عليه الشخص ويواليه، والنوم جزء من إيقاع بيولوجي على امتداد اليوم بطوله، فإذا اضطربت مواعيد النوم المنتظمة فإن الشخص يعاني من اضطرابات النوم، وعليه أن يلجأ إلى التدريبات للاسترخاء، وأن يترك همومه وينصرف عنها ويركّز في أن يترك نفسه على سجيتها، وأن يستمع إلى موسيقى هادئة لو أحب، أو يقرأ قصة مبهجة، وأن يتجنب الإثارة والمهيّجات، وما يولّد التعب البدني والنفسي، ويتجنب نوم القيلولة، لأن الذين يعانون من اضطرابات النوم ليلاً يكونون عادة من الذين يُقبلون على النوم في الظهيرة. وعلى النائم أن يختار حجرة نومه بألوان معيّنة هادئة، وأن يكون سريره مريحاً، ومرتبته مستوية.

ومن اضطرابات النوم المشي أثناء النوم Sleep-walking أو Somnambulism، وهو اضطراب نفسي عضوي معروف من قديم الزمان، والمرضى به كثيراً ما يُشاهَدون يسيرون مفتوحي العينين ومبسوطي الذراعين فوق إفريز أسطح العمارات أو الشرفات، وكانوا قديماً يظنون أن المشي أثناء النوم إنما يكون تحت وقع أحلام معيّنة، وثبت خطأ ذلك، حيث أنه لا يكون إلا في فترات النوم العميق .Deep s وليس النوم الخفيف - أي في المرحلتين الثالثة أو الرابعة من مراحل النوم، عندما تكون الأحلام نادرة الحدوث. والصورة المألوفة بهذا

الاضطراب أن يُرى المريض به جالساً على سريره، نائماً أو مستلقياً مفتوح العينين، وقد ينهض ويقول بضع كلمات ثم يعود إلى النوم. والكلام أثناء النوم Somniloquy كالمشي أثناء النوم. وقد يتهيأ النائم للخروج ويغيّر ملابسه ويرتدي الملابس الخارجية، وهو يسمع ما يقال، ويرى ويبصر، ويتجنب أن يصطدم بشيء، ومن الممكن أن يجيب على ما يوجه إليه بكلمات من مقطع واحد، وكثيراً ما يعود إلى النوم ولكنه في هذه المرة لا يستلقي على سريره، وإنما ربما يستلقي في مغطس الحمام، ومن الخطأ الظن أن بوسعه أن يتجنب المخاطر، وعندما يستيقظ من نومه فإنه لا يذكر أبداً ما كان منه أثناء مشيه.

ومن اضطرابات النوم أيضاً: النوم المرضي أو الناركوليبسيا Narcolepsy، والنوم المفرط Hypersomnia، وفي النوم المرضي يأتي النعاس في شكل هجمة لا يستطيع المريض دفعها Paroxysmal sleep، وينام المريض لفترة قصيرة ويستيقظ أكثر نشاطاً، ويتكرر نومه واستيقاظه، وعندما تأتي الهجمة فقد يكون مضاجعاً لامرأته فيسترخي فجأة ويكف عن الحركة ويسقط نائماً، وقد تأتي الهجمة أثناء تناول الطعام أو وهو في الحمام، وسبب المرض سوء التوازن بين النوم الخفيف وبين اليقظة، وهناك حالات توصف بأنها رغبة مفرطة في النعاس Excessive drowsiness، وتأتي بالنهار، ويعاني المريض من صعوبة شديدة أن يبقى يقظاً. وهناك الإفراط في النوم ويرجع إلى اختلال نظام النوم واليقظة. و«مرض النوم Sleeping sickness» هو غفوة مستمرة بسبب التهاب في الدماغ. و«شلل النوم Sleep paralysis» يكون فيه النائم كالمشلول فلا يفتح عينيه ولا يغلقهما. و«النوم السُّكْري Sleep - drunkness» (من السُّكْر) يكون كالغفوة ويعاني النائم ما يشبه الكابوس. ونوم المساطيل Yen sleep من أثر المخدر، وYen كلمة صينية بمعنى الأفيون، ونوم المخدَّر كما يقولون: He sleep like a log، يعني ينام كلوح خشب، وكما يقولون: Dead to the world، يعني ميت عن العالم لا يدري بشيء.

والشخير Snoring، وتوقُّف التنفُّس Sleep apnea من اضطرابات النوم، ويقال إن ١٠٪ من البالغين يشخّرون شخيراً يُسمع من الغرفة المجاورة، ومن الممكن أن يصل علو الشخير إلى مستوى ٨٠ ديسيبل (وحدة قياس الصوت)، أي مستوى صوت الحفّار الميكانيكي في الشارع، وأنه من بين كل مائة رجل فإن ٣١ منهم غالباً يشخرون، بينما تبلغ هذه النسبة عند النساء ١٩ من كل مائة امرأة. ويحدث الشخير بسبب النوم على الظهر، وانزلاق اللسان والفك الأسفل أثناء ذلك، والتنفس من الفم، وتذبذب سقف الحلق، والسمنة المفرطة أو زيادة الوزن. وأما «توقُّف التنفُّس» فيستحدثه غالباً نقص شاذ في التوتر العضلي للحلق، والمريض يتوقف تنفسه عدّة مرات في الليلة الواحدة لعدّة ثوان، وعندئذ يتقلب في سريره، ثم يستأنف التنفس بشخير إنفجاري، ويتسبب ذلك في نقص الأوكسجين بالجسم، وزيادة ضغط الدم في مجرى الرئتين، وعدم انتظام ضربات القلب.

وللنوم طقوس عند «الحيوان»، ولكل حيوان طريقته الخاصة في استجلاب النوم، والمكان الذي يختاره لنومه، وله أوضاعه المفضلة عند النوم. ويلاحظ النوم عند كل الفقريات. ولا يستوي السُّبات الشتوي Hibernation الذي هو من عادة أنواع من الحيوانات. والنوم. وتلاحظ مراحل النوم الخفيف والنوم العميق عند الثدييات، والتناسب عندها بين النوم واليقظة متفاوت، وكلما صغر مخ الحيوان وارتفع معدل أيضه، تقصر دورة النوم غير المرمش والنوم المرمش. وتقضي الحيوان ذات الظفر وقتاً طويلاً في الاغفاء. و«للطيور» أنماط سلوك النوم نفسها كما عند الثدييات، والمؤكّد أن الطيور المهاجرة التي تضطر إلى عبور البحار والمحيطات والطيران بالأيام بشكل مستمر لا يمكن أن تستغني عن النوم أثناء الطيران، والغالب أنها تنام وهي منزلقة على التيارات الهوائية. ويختلف نمط النوم عند «الزواحف»، وتتعاقب أطوار الراحة والنشاط عندها جميعاً، وكذلك في «النباتات»، ويتعقّد النوم كلما اتجهنا من الكائنات البسيطة إلى الكائنات العليا، وكل حيوان أو كائن

يفقد جزءاً من النوم فإنه لا بدّ أن يعوّضه.

والحرمان من النوم يمكن أن يؤدّي إلى خفض قدرة الشخص على الأداء، وقد تكون له عواقب مأساوية على سائقي السيارات وعمّال الصناعة والعسكريين. وكان الناس قديماً يلجأون إلى أسلوب الحرمان من النوم كوسيلة للضغط على الشخص أو لدفعه على الاعتراف، والبعض كانوا يلجأون إليه كوسيلة تعذيب - التعذيب باليقظة Tormentum vigilae، أو التعذيب بالأرق Tortura insomniae، واستخدموا الحرمان من النوم لقياس بطولة الشخص، كما حدث مع البطل الأسطوري جلجاميش Gilgamesh (ملحمة من الفولكلور الشعبي البابلي لملك بطل كان هذا هو اسمه). وبعض الناس يعتبرون النوم مضيعة للوقت، وأجريت تجارب لقياس تأثير الحرمان من النوم، وثبت أن المحروم يعاني من هلوسات وخداعات بصرية وحسيّة، وتسهل استثارته، ويكثر عنده الشك فيمن حوله، والبعض إستطاع أن يستمر يقظاً لمدة سبعة أيام، وتسعة أيام، وقالوا في تبرير قيامهم بهذه التجارب إنها لمجرد قياس قدرة العقل على التحكم في الجسم، ومع استمرار الحرمان كانت هناك هذاءات واضطرابات في الإدراك، وأعراض لفقدان الشخصية، وآلام في الأطراف، وارتعاشات طفيفة. وبعض الناس يعيشون حياتهم ويعملون دائماً على خفض أوقات نومهم خفضاً إرادياً، والناس عموماً يعانون من حرمان مزمن من النوم. ولذلك يعوّضون عنه أيام الإجازات، وفي تجارب الحرمان كان النوم التعويضي يتركز على النوم العميق، واكتشف الباحثون إمكان علاج الاكتئاب بالحرمان من النوم، إلا أن ذلك لم يتأكد تماماً. وتُعالَج بالنوم إضطرابات كالفصام، وذهان الاكتئاب، ويستمر المريض نائماً ثمانية أو عشرة أيام متواصلة ويُغذّى بالحقن.

وللنوم إيقاع بيولوجي سيكولوجي خاص، وكل إنسان لا بد له من الراحة كمقابل للنشاط، والله قد خلق الليل لباساً والنهار معاشاً ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعَاشاً﴾ (النبأ - ١٠)، وتبلغ الراحة في المتوسط ما بين خمس

إلى سبع ساعات، ووقتها هو الليل غالباً. وفي الليل تقل فرص النشاط، وتزيد المخاطر، والاستعداد للنوم يبدأ من بعد الغروب، فإن كان العشاء فإن أكثر الناس يغلب عليهم النوم، ومن الصعب أن نتخيل بيئة لا زمن فيها، وأن بوسعنا أن نهرب من تأثير الليل والنهار على حياتنا، وفي التجارب التي تمّ فيها عزل المفحوصين تماماً عن أي تأثير لليل والنهار، وأي إشارة إلى الزمن، كان المفحوصون ينامون في المتوسط سبع ساعات يومياً، وقد تختلط عليهم الأمور في البداية، ولكنهم بشكل عام لديهم الإحساس الداخلي بالزمن، وبالليل والنهار، وبذلك يكون لدينا يومان: «يوم موضوعي Objective day» - وهو الذي يتألف من أربع وعشرين ساعة، و«يوم ذاتي Subjective d.» يركن فيه الإنسان إلى حسّه الداخلي بالزمن، واليوم الذاتي يزيد عن اليوم الموضوعي، ورغم ذلك فإن نسبة النوم إلى اليقظة تظل كما هي لا تتغير إلا قليلاً. وكل كائن حيّ لديه ساعته الداخلية بالزمن إن افتقد الساعة الخارجية، وحتى النباتات المعروفة بانتحائها إلى الشمس، فإنها لو وضعت في الظلام، فإنها عندما يحين وقت انتحائها ستنتحي رغم عدم وجود ضوء الشمس، والثابت أن إيقاع الساعات الأربع والعشرين هو الإيقاع النفسي والبيولوجي الغالب على كل الطبيعة. والساعة الداخلية، أو ما يسمونها «الساعة النفسية»، أو «البيولوجية»، هي المسؤولة عن تدبير العمليات الإيقاعية النفسية والبيولوجية في الطبيعة. وعندما يفقد الكائن الحيّ الإحساس بالزمن، كأن يعيش في مكان معزول زمنياً عزلاً كاملاً فإن إيقاع الأربع والعشرين ساعة يحلّ محله ما يسمونه «الإيقاع التقريبي Circadian rhythms» أو «الإيقاع الحرّ Free-running rhythm»، بمعنى أن الشخص المعزول عن الزمن أو عن الإحساس بالليل والنهار ينام وقتما يكون في حاجة إلى النوم، وقد يتصادف ذلك في وقت الليل أو وقت النهار، والمهم أن «إيقاع النشاط - الراحة» يستمر، فينام الشخص الساعات السبع المطلوبة في أي وقت، وعلى ذلك قيل إن الساعة البيولوجية تتحكم فيها «إيقاعات الليل -

النهار»، والساعة النفسية تتحكم فيها إيقاعات النشاط - الراحة. وهاتان الساعتان ليستا من باب الافتراض، ولكنهما من الواقع المادي، ويقال لهما معاً «الساعة الداخلية»، وهي في جانب منها نفسية، وفي جانب بيولوجية، ومكانها في المخ، وتنظّم العمليات النفسية والبيولوجية المختلفة في الجسم، ودورتها ثابتة، ومقدارها أربع وعشرون ساعة، والنفسية هي التي تتحكم في إيقاع «النوم - اليقظة»، أو «الاسترخاء - والاستنفار». ولذلك تزداد الحاجة للنوم كلما طالت الفترة التي قضيناها إيقاظاً، ليبقى الإيقاع سليماً، وكلما انخفضت درجة حرارة الجسم زادت الحاجة للنوم، فإيقاع النوم معاكس لإيقاع درجة الحرارة، والميل إلى النوم تتحكم فيه العملية الإيقاعية، وبينما نجد أن هذه العملية أكثر تحكماً في النوم الخفيف، فإن النسبة المئوية للنوم العميق تعتمد على طول فترة اليقظة السابقة.

وعملية النوم يمكن أن نعدها نوعاً من التكيف للظروف الداخلية جسمياً ونفسياً، وللظروف الخارجية الطبيعية والبيئية والاجتماعية. والنوم من كل ما سبق هو نوع من الراحة المفروضة، وبدون النوم ليس بوسع أي كائن حيّ أن يواجه الظروف والأخطار. وتضمن الخاصّة الدورية للنوم أن لا يغادر أي كائن حيّ مسكنه في ساعات الخطورة، فأنواع الحيوانات التي يكون أعداؤها نهاريين تخرج في الليل، والحيوانات المفترسة تكيّف نومها حسب نوم ضحاياها، والحيوانات آكلة العشب ليس عندها الضرورة التي تفرض عليها النوم في وقت معيّن، ونومها لذلك موزّع. والتكيف لا يكون مع البيئة فقط، وإنما مع ظروف الكائن الداخلية، والنوم هو الذي يوفّر له الطاقة بانخفاض معدلات الأيض، ومعدلات تبديد الحرارة. والخمول في النوم إقتصاد في مواد الطاقة المحدودة. والنوم عموماً يقي من الإنهاك والإجهاد الذي يترتب على بقاء النشاط لمدد طويلة. وكما أننا نأكل إذا جعنا، فنحن أيضاً ننام إذا كانت بنا حاجة للنوم. وتجري أثناء النوم عمليات من التركيب الأيضي أو التخليق، فلا عجب إن كان النوم من أعظم النِّعَم والمِنن وجعله الله

آية على قدرته تعالى، فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾ (الروم ٢٣).

❖ ❖ ❖

مراجع:

- The Use and Misuse of Sleeping Pills: Mendelson, W.B.
- Sleep Disorders: Gartfield: Snoring and Sleep Apnea.

❖ ❖ ❖

- ٢١ -
سيكولوجية الإيحاء والاستهواء

الاستهواء في الصحة والمرض، وفي الحرب والسلم. أحوال العقل في الاستهواء. إستهواء الأضعف. الاستهواء الإيجابي والسلبي والمضاد والأولى والمغنطيسي. الإيحاء الوجداني والعلاج الإيحائي.

❖ ❖ ❖

الاستهواء Suggestibility قابلية للإيحاء Suggestion، يكون إستعداداً يميل بصاحبه إلى تصديق ما يقال له من غير تمحيص ولا تحقيق. وبعض الناس يتميّزون بالاستهوائية الشديدة. ومن السهل استهواء الجماهير عند اجتماعها، والسلوك الجماهيري المتجاوب مع الإيحاء سلوك شديد العدوى، والأثر الاستهوائي للسلوك أكبر من الأثر الاستهوائي للكلام. والمَرضى مع ضعف الصحة والتهافت تقل بهم القدرة على مقاومة الإيحاء. وفي الحرب النفسية تضعف الروح المعنوية، فتكون الجماهير أكثر تقبّلاً للإيحاء الذي يتمثّل في الإشاعات، بل إنها لتطلب هذه الإشاعات وتسعى إلى مصادرها لتَوافُقها مع توقعاتها ومخاوفها والحالة الوجدانية المسيطرة عليها. ومن المهم لنجاح الإيحاء أن تكون الحالة الوجدانية متوافقة مع الأفكار المراد الإيحاء بها. وكذلك للحالة العقلية دورها في تقبّل الإيحاء، فمثلما أن الخائف يميل إلى أن يصدق ما يبرر له مخاوفه، فإن الذي يأخذ بفكرة معيّنة يميل إلى أن يستمع

ويتقبّل من الأفكار ما يناسب تفكيره. وكلما تدنّى النضج العقلي للمتلقّي للإيحاء وتدنّت ثقافته، قلّتْ مقاومته للإيحاء، وزاد ميله للتأثّر بما يقال له. ونلاحظ أن الأطفال يميلون إلى تصديق ما يقوله الكبار، كما أن النساء أقل مقاومة للإيحاء من الرجال. ويتعلق تأثير الإيحاء بمكانة المؤثر Suggestionist، وذلك ما نسميه الإيحاء المعتمد على المكانة للمؤثّر Prestige suggestion. وأغلب الإيحاء إجتماعي .Social s، أي أنه يقوم على ميل الناس للانتماء، واحتذاء المجتمع، وتقليد بعضهم البعض فكرياً، وكلما كان الفرد قليل الدراية متدنّي الوعي إجتماعياً، ومتخوّفاً من استقلالية الرأي، كان أميل للاستهواء Suggestible.

والاستهواء منه السلبي .Negative s، ومنه الإيجابي .Positive s، فالذي يطاوع ميوله الاستهوائية ويشايع الغير فيما يفكّر فيه إستهوائي إيجابي، والبعض قد يفعل أو يفكّر على عكس ما يقال له، وذلك هو الاستهوائي السلبي، واستهواؤه قد نُطلق عليه إسم الاستهواء المضاد .Counter-s. وأيضاً فإن الاستهواء الذي يتمّ في الظروف العادية التي لا تعمُّل فيها ولا اصطناع، نسميه إستهواءً أوّلياً .Primary s. وقد نقصد إلى الإيحاء ونتعمد استحداثه بخلق ظروف مؤاتية له وأجواء نفسية تساعد عليه، كما في التنويم المغنطيسي وفي العلاج بالإيحاء، ويطلق على الإيحاء الأول إسم الإيحاء المغنطيسي Hypnotic .s، ويقوم على تقبّل الوسيط لما يطلبه منه المنوم، وقد يطلب إليه أن يقوم بأشياء بعد أن يصحو دون أن يتذكّر أنه قد طلب منه ذلك. وكذلك فإن في العلاج بالإيحاء «Suggestion therapy»، أو «الإيحاء العلاجي .Therapeutic s»، يهتم المعالج بتقوية ذات المريض واستنفار قوى المقاومة للمرض عنده، وقد تكون للمريض إتجاهات إيمانية فيقوّي المعالج من هذه الاتجاهات، وبعض الاضطرابات النفسية قد تشفى فعلاً شفاءً إيمانياً، ويوصف الإيحاء في هذه الحالات بأنه «إيحاء وجداني .Affective s»، أي يقوم على مخاطبة المريض وجدانياً وعاطفياً دون مخاطبة عقله منطقياً. ونلاحظ أن هذا النوع من الإيحاء يُسمَّى أيضاً باسم «الاستهواء الذاتي Autosuggestion »، أي

أن الشخص نفسه وقد قويت ذاته وارتفعت معنوياته يوهم نفسه بنفسه بالشفاء. والإيحاء الذاتي يكون بتأثير الشخص في نفسه على عكس الإيحاء الغيري «Alter-s.» الذي يكون تأثراً بأفكار الغير، وأغلب الإيحاء غيري، أو أن الإيحاء يكون ظاهرياً إيحاءً غيرياً ثم يكون الجزء الإيجابي فيه إيحاءً ذاتياً، فبعد أن يتأثر الشخص بغيره فإنه يؤثّر هو نفسه في نفسه. وفي الإيحاء المغنطيسي لا يكون الإيحاء سلوكياً، وإنما يقوم كليةً على الألفاظ، ولذا يسمونه «إيحاءً لفظياً Verbal s.». والبعض يطلق على عملية الإيحاء من خلال التنويم المغنطيسي إسم «تشكيل الأفكار Ideoplasty»، حيث ينصبّ اهتمام المنوِّم على توجيه أفكار الوسيط وتشكيلها بالطريقة التي يريدها. ومن ذلك أيضاً أنه في عمليات غسيل المخ Brain-washing يعقب ذلك عملية «إيحاء بالأفكار Thought s.»، ويكون العميل المراد تشكيل أفكاره شديد التهافت معنوياً، وناقداً لكل ما كان يعتقده من قبل، وتكون إستهوائيته ظاهرة حتى ليسهل ملء دماغه من جديد بالأفكار الجديدة المناقضة لأفكاره السابقة. ويعتمد هذا الإيحاء أو الاستهواء - وكل استهواء - على تكرار وترديد ما يُلقَى على السامع، ويُتّبع هذا التكتيك في الإعلان، وفي الحملات الانتخابية، وفي الحرب الدعائية والحرب النفسية.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- K.G. Stukat: Suggestibility.
- Schultz, J.H.: Die Seelische Krankenbehandlung.
- Schmidbauer, W.: Schamanismus und Psychotherapie.

❖ ❖ ❖

- ٢٢ -
سيكولوجية الانطباع

السلوك الانطباعي غريزي وهو تعلّم محدود. إكتشافه حديثاً ودراسته عند

مختلف الأنواع. الانطباع والغريزة المفتوحة والغريزة المغلقة. الانطباع والخوف. الانطباع عند سبولدنج وكونراد لورنز. الانطباع والفترة الحرجة...

❖ ❖ ❖

الانطباع Imprinting، سلوكٌ فطري يُضرَب به المثل على التعلّم المحدود Restrictred learning، وهو نوع التعلّم الذي مجاله حدود الغريزة، فأفراخ البط Ducklings مثلاً تخرج من البيض ولديها استعداد موروث أن تَتْبَعَ To follow أي شيء يتحرك، ولذلك فهي تتبع أمها، إلا أننا لو حجبنا عنها الأم واستبدلناها بأي شيء آخر يتحرك كأن يكون إنساناً أو كلباً، أو حتى كرة من المطاط، فإن الأفراخ ستتبع هذا الشيء في حركته، بشرط أن يأتي تعلّمها لمتابعة هذا الشيء في الوقت المناسب لهذا التعلّم، وهو الوقت الذي يتلو مباشرة قدرتها على المشي بكفاءة. وإذا استمرت متابعتها لهذا الشيء مدّة كافية، كأن تكون خمس عشرة دقيقة، فإنها تنطبع بهذا الشيء وتُؤثره على البط من بني جنسها، وقد تشحنه شحناً جنسياً من بعد عندما تنضج وتحاول أن تأتيه، ويظل ذلك معها مدى الحياة.

وهذا السلوك - أي الاتباع - غير متعلّم، وهو نوع من ردّ الفعل الغريزي الذي يعتمد على استعداد يظهر في الوقت المناسب. والفطري في هذا السلوك هو الاتّباع نفسه وليس اختيار الشيء المتّبع، ولذلك يُدرَج ضمن ما يسمى الغريزة المفتوحة Open instinct، على عكس الغريزة المغلقة Closed instinct التي لا تستجيب إلا لمثير معيّن وليس لأي مثير. وأفراخ البط لديها استعداد الاتّباع، إلا أن موضوع الاتّباع عندها يمكن أن يكون أي مثير طالما أنه يتحرك. وقد تحدّث عن الانطباع كسلوك لأول مرة (١٨٧٣) العالم الإنجليزي سبولدنج Spolding، وأعطاه الاسم (١٩٣٧) العالم كونراد لورنز Lorenz، وذكر كشرط له أن يتم قبل أن يتعلم الكائن الحي أن يستجيب بالخوف من الأشياء المتحركة، لأنه عندئذ سيهرب منها ولن يتبعها. ومن

رأي البعض أن ابتسامة الطفل الوليد في الأسبوع الثاني أو نحوه إنطباعية، أي أنها فطرية فيه ولكنه يتعلم أن يطلقها لدى رؤية وجه الأم وهو يتحرك أمام ناظريه، ومن ثم ترتبط بهذا الوجه، ثم يتعلم من بعد أن يطلقها لدى رؤية أي شيء آخر يتحرك كأن يكون دمية أو حيواناً أليفاً، طالما أن أمه تبتسم له مشجعة أثناء ذلك. وتسمى الفترة التي يستغرقها التعلّم بالانطباع «الفترة الحرجة»، وهي تختلف من كائن لآخر، فهي عند الدجاج من ١٣ إلى ١٦ ساعة بعد الفقس، وعند الكلاب تستغرق من ثلاثة إلى سبعة أسابيع، وعند الخراف العشرة أيام الأولى بعد الولادة. وفي رأي البعض أن الانطباع هو أسرع أنواع التعلّم ويلزم لكل تعلم إجتماعي تالٍ.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Sluckin, W.: Imprinting and Early Learning.
- Smith, F.V.: Attachment of the Young, Imprinting and other Developments.
- Thorpe, X.H. & Zangwill. O.L.: Current Problems in animal Behaviour.
- Thorpe & Zangwill: Learning and Instinct in Animals.
- Fabricius, E.: Crucial Periods in the Development of the Following Response in Ducklings.
- Gray, P.H.: Theory and Evidence of Imprinting in Human Infants.

❖ ❖ ❖

- ٢٣ -
سيكولوجية العواطف

العواطف مادية ومعنوية. العواطف السائدة. عواطف حب الذات واحترام الذات واعتبار الذات. النضج العاطفي...

❖ ❖ ❖

العاطفة Sentiment صفة مزاجية مكتسبة تتكون باجتماع عدد من

الانفعالات المتشابهة حول موقف أو موضوع معين، وتستثار مرتبطة بهذا الموقف أو الموضوع دون غيره. ومن شأن العواطف أنها تنظّم الانفعالات بربطها بالموضوعات. وقيل عن العواطف: إنها استعدادات عقلية مكتسبة وعادات إنفعالية تنظّم بعض نواحي النشاط الانفعالي أو المزاجي حول موضوعات معيّنة تبعاً لمؤثرات البيئة وعوامل التعلّم.

وأحياناً يقال إن العاطفة Emotion، ولكننا نؤثر ترجمة عاطفة بكلمة Sentiment، وأما Emotion فنترجمها بكلمة إنفعال. (أنظر الانفعالات في المقال التالي).

والعواطف مادية ومعنوية، فحب الأم أو الأبوين أو الأسرة أو الوطن «مادي»، بينما حب الشرف أو العدل أو كراهية الظلم «معنوي». والعواطف أيضاً فردية وجمعية، فأن أحب فتاة بعينها هو عاطفة فردية، ولكن أن أحب النساء جميعاً هو عاطفة جمعية. والتطور الطبيعي لتكوين العواطف أنها تبدأ مع الأطفال مادية وفردية، ومع النمو واكتمال النضج العاطفي Sentimental maturity تكون معنوية وجمعية، فالطفل يبدأ مثلاً يحب أمه ثم يُشرك معها أباه، وتكبر الدائرة لتشمل الإخوة والمحيطين به، ثم المدرسة، فالمدينة، ثم يكون حب الوطن، بل وحب الإنسانية جمعاء. وتسود إحدى العواطف غيرها عند البالغ وتتحكم في سلوكه، فالشخص الذي يحب العِلْم مثلاً لدرجة أن يوجهه هذا الحب في كل علاقاته بالناس وتقويمه لهم، ويسيطر على سلوكه وكل توجهاته، هو شخص لديه عاطفة سائدة Master sentiment، والعلم بالعواطف السائدة عند الآخرين ييسِّر التنبؤ بسلوكهم في المواقف المختلفة. ومن العواطف السائدة عند البعض مثلاً عاطفة حب الذات Self-sentiment، والمحب لذاته يُكبِر من يعظّمه، ويرضيه أن يمدحه الناس، ويكثر من الحديث عن نفسه، وقد يحب أن يتجمّل بالقول الطيب والهندام الأنيق، وقد يطيل النظر لنفسه في المرآة. ومن الممكن قياس النضج الوجداني أو العاطفي بكشف ما إذا كان الشخص مهتماً بنفسه فيكون ما يزال في الطفولة الوجدانية لم يبرحها، أو كان متمرداً على الناس وعاداتهم ونظمهم

فهو ما يزال في المراهقة، فإن كانت إهتماماته منصرفة إلى الجماعة ومصالحها والوطن ومشاغله والقضايا الإنسانية فهو في مرحلة تمام النضج الوجداني. والمحب لذاته عاطفته السائدة هي حب الذات، وهي غير عاطفة إحترام الذات Self-respect sentiment، لأن الذي يحترم نفسه لا يرضَى لها الصَّغار. وتفرض عاطفة اعتبار الذات Self-regarding sentiment إعتبارات معينة على الفرد لا يتجاوزها، وإنْ فَعَلَ استشعر الاستياء من نفسه، ويشعر بالرضا عن نفسه إذا حقّق لها ما يتفق وفكرته عنها. ومن رأي مكدوجال أن عاطفة إعتبار الذات هي المنظّم الأساسي للسلوك، وهي القائد الأعلى للنزعات، والتي تتوقف عليها قوة الشخصية، ووحدة إتجاهاتها، وتناسق أفعالها، وتوازن تصرفاتها.

❖ ❖ ❖

مراجع

- McDougal: Outline of Psychology.
- McDougal: Social Psychology.

❖ ❖ ❖

- ٢٤ -
سيكولوجية الانفعالات

الوجدان والشعور. الانفعالات الأولية والثانوية. المزاج العام والانفعالات المشتقة. العادة الانفعالية والانفعالية العامة. النضج الانفعالي ودراسات الانفعالات. التبلد الانفعالي ونظرية الانفعالات...

❖ ❖ ❖

الانفعال Emotion من الفعل Emote وMovere بمعنى يحرّك، ومن ثم كان الاسم الانفعال أي المسبب للحركة والفعل، وهو كل «سلوك» أو «إستجابة» ذات صبغة وجدانية. وتُطلق كلمة وجدان Affect على الجانب الشعوري الذاتي أو الاستبطاني لحياتنا الانفعالية، حتى لتستخدم الكلمتين «إنفعالي» و«وجداني» كثيراً كمترادفين، فنَصِفُ الانفعال بأنه خبرة وجدانية Affective، ونَصِفُ الوجدان بأنه خبرة إنفعالية Emotional، وهي صعوبة نصادفها كلما كنا بصدد

تعريف أية خبرة إستبطانية، فنحن نستطيع أن نصف ما يصاحب السرور والكدر من أحوال جسمية أو مظاهر سلوكية، ولكننا إذا أردنا تعريف السرور أو الكدر كخبرتين ذاتيتين فلا نملك إلا أن نصف أحدهما باعتباره عكس الآخر. ويُطلق إسم «الوجدان» على أبسط أنواع الانفعال وهو «الشعور Feeling» وكون ذاتياً، أو هو الجانب الانفعالي لكل إدراك حسّي، وهو أيضاً الإحساس بالرضا أو بالكدر. ومن العلماء من يذهب في تعريف الانفعال مركّزاً على الجانب العضوي النزوعي. ويؤكّد فرويد على الجانب الوجداني، ويذهب إلى أنه من صميم الانفعال أن نستشعره - أي نستشعر الانفعال - ومعنى استشعارنا له أن نستدخله الشعور، يشير فرويد بذلك إلى قدرة الانفعال باعتباره شحنة وجدانية، على الاستقلال عن الموضوع المصطبغ به، وقد يُدفَع الموضوع إلى اللاشعور، وأما الانفعال فإنه وإن تابعه لفترة إلى اللاشعور، فإنه ينطلق من بعد في صورة شحنات وجدانية تلتصق بموضوعات أخرى بديلة. ويذهب مكدوجال McDougal (١٨٧١ - ١٩٣٨) إلى أن لكل غريزة جانباً إدراكياً يثير الغريزة، وجانباً وجدانياً يكون به الانفعال، وجانباً نزوعياً يهدف إلى تحقيق الغرض من الغريزة. ويسمِّي مكدوجال الجوانب الوجدانية للغرائز «الانفعالات الأولية Primary emotions»، ففي غريزة الهرب مثلاً تكون رؤية الخطر الداهم جانباً إدراكياً، والشعور بالخوف هو الجانب الانفعالي أو الوجداني، وهو إنفعال أوّلي، واتجاهنا للهرب هو الجانب النزوعي. وحيث أن الانفعالات متعلقة بالغرائز الفطرية فهي فطرية أو أولية، ولكنها تترقّى وتتهذّب وتتعدّل وتنضج مع النمو، فتخفّ حدّتها ولا تستثار إلا لمنبّه كاف، فلا ينفعل الراشد بما كان ينفعل به وهو طفل، وكذلك يتحوّل الجانب النزوعي إلى الناحية الاجتماعية الأخلاقية، فيتخذ الغضب مثلاً شكل النقد الموضوعي، ويترقّى العدوان فيصبح مثلاً منافسة رياضية. وقد تتجمع الميول الانفعالية حول موضوع وتصبح عاطفة Sentiment، وقد يمتزج إنفعالان أوليان أو أكثر فينشأ عنهما إنفعال ثانوي Secondary

emotion، أو إنفعال مزيج Blended emotion، وهو مزيج من أكثر من انفعال، كالرهبة - فهي مزيج من الإعجاب والخوف. وهناك نوع ثالث من الانفعالات هو الانفعال المشتق Derived emotion، ويتركب من إحساسات وجدانية لا ترتبط بالغرائز، بل تحتدم في النفس كلما كان هناك دافع قوي مثل الفرح أو الحزن أو الأمل أو اليأس. وتسمى شدّة الانفعال أو حدّته سورة الانفعال Passion، كسورة الغضب مثلاً. وأما الحالة المزاجية Mood فهي حالة إنفعالية أخف من السورة وأطول أمداً، وأحياناً تكون بسبب القمع، أي عندما لا يأخذ الانفعال حقّه في التعبير أو التنفيس، وأحياناً تكون مرحلة من مراحل سورة الانفعال وهي في طريقها إلى الزوال، فعندما تخفّ حدّة الغضب مثلاً تتخلف لدى الغاضب حالة مزاجية يكون فيها مزاجه نكداً فتسهل استثارته. وقد تترتب هذه الحالة المزاجية على الاضطرابات الفسيولوجية، مثل عسر الهضم، واضطرابات الغدد، وما ينشأ عن ذلك من استثارات للمراكز العصبية المصدّرة للانفعالات. ويختلف المزاج العام Temperament عن الحالة المزاجية من حيث ديمومته وانطباع الشخص إنفعالياً به، وهو القابلية العامة للفرد لأن ينفعل بأسلوب يخصّه هو وحده دون سواه، ويرجع للفطرة، وقابلية الجهاز العصبي للاستثارة، وحالة الغدد الصماء، وكيمياء الجسم، وتؤثر خبرات الطفولة في توجهاته. وحدة المزاج Temper تختص بالناحية السلوكية التي ينصرف فيها المزاج. وعندما يتكرر السلوك الانفعالي بتكرر المواقف الانفعالية تتولد العادة الانفعالية Emotional habit، وشأنها كالعادات تُكتَسب بالتعلم، وقد تكون عادات إنفعالية سيئة أو صحية. وقد يطلق على العادة الانفعالية إسم العاطفة Sentiment، إلا أن العاطفة ذاتية أكثر، في حين أن العادة تتعلق بموضوع وتُكتَسب بالخبرة. وقد تثير العاطفة الواحدة عدّة إنفعالات، فعاطفة الأمومة قد تثير انفعال الحنو حيناً، وقد تثير انفعال الغضب أحياناً إذا تهدّد شيء المولود فتهب الأم دفاعاً عنه، في حين أن الانفعال تلقائي أو غريزي. والانفعالية العامة Emotionality

هي العامل المركزي العام وراء كل نشاط إنفعالي، ولها في التكوين المزاجي العام للشخصية المكانة نفسها التي يحتلها الذكاء العام في النشاط العقلي، أي أنها عامل مشترك بين كل الانفعالات ويصطبغ بها كل النشاط الانفعالي.

والانفعالات لكي تُستثار لا بد لها من مثير أو منبّه، ولا بد لها من منفعل ترتبط الانفعالات بتكوينه النفسي والعصبي والجسمي، ومزاجه وانفعاليته أو درجة توتره، وخبراته واستعداداته الفطرية واتجاهاته الوجدانية، وثقافته والبيئة التي يعيش فيها، والقيمة أو المعنى الذي يضفيه على المنبه، وحالته الصحية ونشاط جهازه العصبي عموماً وبعض منه خصوصاً، كبعض أجزاء الفصّ الجبهي للحاء المخ، والدماغ الحشوي، والمهاد أو الثلاموس، والمهيد أو الهايبوثلاموس، والتكوين الشبكي بالدماغ، والجهاز العصبي المستقل، ونشاط الغدد الصماء، وكيمياء الدماغ عموماً، ووجود أو عدم وجود بؤرات مثيرة ذات عتبات منخفضة.

وتكون دراسة الانفعالات إما برصد السلوك الانفعالي الظاهر، الذي يشمل التغيّرات في أوضاع الجسم وحركاته، والإيماءات والنظرات، والصوت وتعبيرات الوجه، أو قياس التغيّرات الفسيولوجية الداخلية كالتغيّرات في كيمياء الدم، ونبض القلب، وضغط الدم، والتنفس، والتمثيل الغذائي، وكهربية الجلد ودرجة حرارته، والتوتر العضلي، والنشاط المَعِدي المعوي. وقد يسهل أحياناً على المنفعل أن يتحدث عما يعتريه من تغيّرات من حيث أنه يكون الأقدر على ملاحظة حالته الانفعالية ومشاعره الذاتية، إلا أنه قد تبين أن الناس يتفاوتون في القدرة على التعبير عن تجاربهم الذاتية، وأن بعضهم قد يغالي في الوصف، ويقتّر آخرون أو يحاولون صرف النظر عن انفعالاتهم، وقد يحدث أن يمثّل البعض في أدائه الانفعالي ليعطي المشاهدين إنطباعاً مغلوطاً عنها، وحتى الحيوانات والطيور يمكن أن تمثّل وتموّه الانفعالات، ومن ثم فقد لا نعوّل على المظاهر الخارجية عند دراسة الانفعالات، كعدم تعويلنا على الوصف الشفهي للخبرة الانفعالية. وتتجه

الدراسات في معظمها حالياً إلى الناحية الفسيولوجية، غير أن علم النفس يؤكّد أن الانفعالات ليست مجرد عمليات فسيولوجية، حيث أن هذه العمليات تتأثر بمكونات الشخصية، وبالثقافة، وبالتعلّم والمواقف الاجتماعية. وتختلف القيمة الانفعالية للمواقف الاجتماعية باختلاف الثقافات، فلربما يكون تقبيل الغير للزوجة غير مثير إنفعالياً في ثقافة، بينما هو في ثقافة أخرى أمرٌ في غاية الإثارة والغضب. والثقافة هي التي تحدّد المواقف الاجتماعية المثيرة للانفعالات، وما تثيره منها، وحدّتها، وطرق التعبير عنها، ومن ثم يكون الحذر عند تصنيف الانفعالات باعتبار أن مسألة التصنيف مسألة نسبية. وقد يرى البعض كواطسون Watson (١٨٧٨ - ١٩٥٨) - ممن درسوا الانفعالات عند الأطفال الأميركيين - أن الانفعالات الأساسية ثلاثة، هي: الخوف، والغضب، والحب، وقد رآها ديكارت Descartes (١٥٩٦ - ١٦٥٠) ستة كما لاحظها على أطفال فرنسا. وتتجه الدراسات المعاصرة إلى ردّ الانفعال إلى الانفعالية العامة، أو الاستعداد الانفعالي الفطري، يكون منذ الولادة بسيطاً ولا تتميز فيه أيٌّ من الانفعالات، ويمكن أن تستثار هذه الانفعالية العامة بأي منبه فجائي كالصوت العالي مثلاً. ومع التطور والنمو وفي مراحل من العمر معينة تختلف من كائن إلى آخر، وبحسب المنبّه المناسب، تتمايز الانفعالات ويرتقي التعبير عنها، ويستمر ذلك مدى الحياة وبالتدريج حتى يكتمل النضج الانفعالي Emotional maturity للكائن الحيّ، فتكون الخبرة الانفعالية هي جُماع الاستجابات الانفعالية المتعلَّمة أو نتيجة امتزاجها.

وتتفاوت الاستجابات الانفعالية في الشدّة، وفيما تستحدثه من بهجة أو كدر، وما تتضمنه من ميل نحو بعض المنبهات أو نفور منها. وتتطور الاستثارة الانفعالية الفطرية فتصبح من بعد إستثارة متعلمة، ويلعب الإشراط دوراً رئيسياً في تعلم الاستجابات الانفعالية - الانفعال الشرطي Conditioned e. وتتزايد أهمية التعلّم والمواقف الاجتماعية كلما صعدنا السلم التطوري. ويمكن للخبرة الانفعالية أن تتسع باستمرار لتشمل موضوعات أخرى للانفعال بخلاف المثيرات التي

كانت تصنع الاستثارة الولادية، فالخوف مثلاً الذي كان يمكن أن يستثار عند الوليد بالصوت العالي الفجائي، قد يشمل من بعد كل ما هو غريب على الطفل وحتى على الراشد، ويمكن أيضاً أن تمتد المخاوف - كمصادر للانفعالات Sources of emotions، فتشمل موضوعات أخرى عن طريق التعميم وعن طريق التقليد، فمن يخاف من الفأر قد تشمل مخاوفه منه كل ما يمكن أن يماثل الفأر أو يكون به وجه شبه، كالفراء، وتنتقل عدوى الخوف إلى الأولاد عن طريق الآباء.

ولربما يكون المنبه أو المثير للانفعال مدركاً حسياً، أو فكرة أو تصوراً، وربما يكون منبهاً ذاتياً كما في بعض الحالات المرضية كالاكتئاب، وهو انفعال يترتب على الإخفاق أو الإحباط، أو لدوافع لاشعورية نحتاج للكشف عنها إلى التحليل النفسي وتحليل الأحلام. وبعض الحالات الانفعالية دوافع Motives في ذاتها أحياناً، والدافع عبارة عن حالة توتر في الكائن الحيّ تستثير فيه حاجة تتطلب الإشباع، فيخف التوتر، ويستعاد التوازن الفسيولوجي والنفسي، ومن ثم يكون الشعور بالراحة أو بالرضا وهو حالة إنفعالية. كما ان السعي للطعام يعطي شعوراً بالراحة، ورؤية الطعام تعطي أيضاً شعوراً بالراحة، وكذلك فإن عدم الراحة هو حالة إنفعالية Emotional state مصاحبة للجوع.

وترتبط الانفعالات بالتكيّف، وتتجه معظم البحوث في الانفعالات على اعتبارها عوامل إضطراب تشتمل العمليات الحشوية الداخلية والسلوك الخارجي وتمتد إلى الخبرة الشعورية، ففي الخوف مثلاً تتوقف حركة المعدة وتصاب بما يشبه الشلل، وهو اضطراب لا شك فيه، إلا أن هذه العمليات نفسها هي طريقة الكائن الحي للتكيّف مع ظروفه المهدّدة، وذلك أن الدم بدلاً من أن يُضَخّ للمعدة فإنه يُضَخ للعضلات والمخ واللب والرئتين والغدد لمواجهة النشاط الذي يواجه به الكائن الحيّ الخوف، فكأن هذه العمليات الداخلية ليست مظهراً للاضطراب ولكنها تنظيمية لتسمح للكائن الحيّ بالتعامل مع الموقف المهدِّد. وما يتبع ذلك من سلوك ليس من فعل الاضطراب وليس سلوكاً مضطرباً، ولكنه

سلوك منتظم يتفق والحالة الجديدة التي عليها الكائن. وكذلك في الناحية الشعورية فالتفكير الذي يناسب الموقف الجديد هو تفكير منظم يتفق وطبيعة الموقف، إلا في حالات الانفعالات العنيفة، وعند وقوع صدمة إنفعالية Choc émotif، أو نوبة إنفعالية Crise émotive، أو Crise de nerfs، عند الانفعال الفجائي Ictal e.، فقد يطيش عندئذ السلوك ويكون التفريغ الانفعالي Emotional release شديد الوطأة طائشاً، وقد ثبت أنه في الانفعالات العنيفة تقل كفاءة الفرد وقدرته على التصرف في المواقف المختلفة. وثبت أن الكثير من الاضطرابات النفسية الجسمية أسبابها إنفعالية كالربو والقولون العصبي وقرحة المعدة والامعاء وجلطة الشريان التاجي. وكل إنسان له قوّة إنفعالية Emotional stength. ويؤدّي عدم النضج الانفعالي Emotional immaturity أو عدم الاستقرار الانفعالي Emotional instability إلى سورات أو تقلبات إنفعالية. والشخصية غير المستقرة إنفعالياً Emotionally unstalbe personality هي نمط الشخصية التي يشكو صاحبها من إضطراب إنفعالي Emotional disorder، فتأتي انفعالاته غير متناسبة مع سِنّه أو عُمره الانفعالي Emotional age، ومع المواقف الانفعالية التي تستدعي هذه الانفعالات، وقد تكون أقل إستجاباته الانفعالية مما تستلزمه هذه المواقف أو أكثر. والبعض قد يكون مصاباً بتبلد إنفعالي Emotional apathy، ويلاحظ ذلك خصوصاً على ذوي الشخصية الفُصامية وأصحاب الذكاء المتدني، فقد تستدعي المواقف إنفعالات عنيفة فيواجهها الشخص المتبلّد إنفعالياً ببرود إنفعالي وكأنها لا تعنيه. وأحياناً قد تكون للمواقف الانفعالية شدّة أو وطأة إنفعالية تصدم البعض حتى ليصابوا بما يسمى الذهول الانفعالي Emotional stupor. وبعض الأطفال تكون لهم سورات غضب فيلقون بأنفسهم على الأرض ويصرخون ويركلون، ويتكرر ذلك معهم حتى ليصبح عادة إنفعالية Emotional habit. وبعض الناس لهم سمات إنفعالية Emotional traits تجعلنا نتوقع منهم إنفعالات معيَّنة في ظروف معيّنة. والنمط الانفعالي Emotional type من أنماط

الشخصية، ويغلب عليه الجانب الانفعالي عن الجانب الإدراكي. ويتفاوت الناس في طبائعهم الانفعالية Emotional attitudes، واتجاهاتهم المزاجية، ومن ثم تتفاوت إستجاباتهم الانفعالية Emotional reponses، ومن المستحيل أن نفصل الاستجابات الانفعالية عن الشخصية وعما يجري لها في البيئة الاجتماعية.

ونظريات الانفعالات هي تلك النظريات حول مسببات الانفعالات، وهي إدراكية وفسيولوجية، ومنها نظرية جيمس - لانجي James-Lange's theory، وكان لانجي (١٨٣٤ - ١٩٠٠) فسيولوجياً دانمركياً قدّم نظرية في الانفعالات مشابهة كثيراً لنظرية (وليام جيمس ١٨٤٢ - ١٩١٠)، حتى أن النظرية صارت تنسب للاثنين معاً، مع أن النظرية هي في الأصل نظرية جيمس ووضعها سنة ١٨٩٠، ويقول جيمس إن نظريته تقوم على فكرة أن التغيرات الجسمية تتبع مباشرة إدراك الاستثارة، وأن شعورنا بالتغيرات نفسها وهي تحدث هو الانفعال. وتشبه هذه الفكرة فكرة لانجي باستثناء أن لانجي حذف خطوة الإدراك وخلص إلى أن التغيرات الحشوية الحركية (الجسمية) هي الانفعال.

وتعرضت النظرية للكثير من النقد وكان أقواها هو نقد كانون (١٨٧١ - ١٩٤٥) الذي شكّك في دور التغذية الرجعية من الأعضاء الطرفية. وتعرف نظريته باسم نظرية كانون - بارد Cannon - Bard theory أو النظرية المهادية أو الثلاموسية في الانفعال The thalamic theory of emotion (١٩٢٩)، ويذهب فيها إلى أن تكامل التعبير الانفعالي يتحكم فيه المهاد أو الثلاموس الذي يقوم بإرسال أنماط إستثارة مناسبة إلى اللحاء في الوقت نفسه الذي يقوم فيه المهيد أو الهايبوثلاموس بالتحكم في السلوك. وهو يطرح وجهة نظره هذه كجزء من نقده لنظرية جيمس - لانجي التي تفترض أن التغذية الرجعية الحسيّة هي التي تتحكم في التعبير الانفعالي. وتعرضت نظرية كانون للنقد في صورة نظريات أحدث منها وأكثر تطوراً، ومنها نظرية الاستثارة أو التيقظ Activation (or arousal) theory وتحاول تفسير الاستجابة الانفعالية، وكذلك الدافعية،

في صورة إستثارة نسبية للّحاء، وتفترض أن الومضات الحسيّة والحشوية والجسمية تتجه إلى التكوين الشبكي أسفل جذع المخ، ثم تتكامل وتتوزع إلى الهايبوثلاموس حيث تنشّط مركز اليقظة، وكذلك تتوزع إلى أنوية ثلاموسية تنشّط اللحاء،والوارد خلال هذا النظام إذا كان منخفضاً فإن الكائن يكون في حالة إسترخاء، ويشبه النشاط الكهربي للمخ النشاط الكهربي في حالة النوم، وإذا كان الوارد زائداً يتم تنبيه الكائن فيوجه نفسه نحو مصادر التنبيه. ويصبح النمط الكهربي مماثلاً لحالة اليقظة. وتقع الانفعالات وكذلك العوامل الدافعية على مدى من التيقظ يمتد من النعاس وحالة إنفعالية منخفضة إلى حالة قوية مثل الهياج.

ومن نظريات الانفعالات النظرية السلوكية Behavioristic theory. وكما يمكن أن نتوقع فإن هذه النظرية تتعامل مع الانفعالات إما باعتبار أنها غير مشروطة، بمعنى أنها فطرية وعامة للنوع، أو مشروطة أي متعلمة أو مكتسبة. ولا تهم العناصر الفسيولوجية ولا الإدراكية، وتركّز النظرية على الظواهر الموضوعية التي يمكن قياسها، والتي يؤثر السلوكيون أن يطلقوا عليها إسم السلوك الانفعالي Emotional behaviour.

وتذهب نظرية التقدير الإدراكي Cognitive-appraisal theory إلى اعتبار الانفعالات حالات ذاتية هي نتاج لمثير منبّه ومجموعة من التغيّرات الفسيولوجية المصاحبة، ثم التقدير الإدراكي أو التفسيري للموقف باعتباره موقفاً ضاراً أو مفيداً، صالحاً أو غير صالح بالنسبة للفرد. والفكرة الأساسية هنا هي فكرة التقدير الإدراكي نفسها، بدعوى أن حالة التيقظ الفسيولوجية الواحدة يمكن أن تستحدث عدداً من الانفعالات، وقد تكون متعارضة مع بعضها، ومن ثم تكون الأهمية في المرتبة الأولى لتأويل أو تفسير الفرد للموقف.

وتعتبر «نظرية بابيز في الانفعال Papez's theory of emotion» من أولى المحاولات النظرية للكشف عن الميكانيزمات اللحائية الخاصة التي تكمن خلف الانفعالات. والنظرية قال بها بابيز في الثلاثينات، وافترض فيها أن

أنظمة ثلاثة حسيّة، وهايبوثلاموسية وثلاموسية متضافرة تشترك جميعها عن طريق اللحاء في تنظيم السلوك الانفعالي. ولا تنهض النظرية على دراسة تشريحية سليمة ولكنها كانت ذا أثر في التنبيه إلى دور الهايبوثلاموس، والدور التكاملي للحاء. ولقد قام ماكلين بمراجعة نظرية بابيز، واشتهرت مراجعته باسم نظرية ماكلين في الانفعال Maclean's theory of emotion ويذهب فيها إلى أن هناك مناطق أخرى من الجهاز الطرفي وخاصة فرس البحر Hippocampus ومُركّب اللوزة، لها أدوارها أيضاً في تنظيم السلوك الانفعالي بالإضافة إلى الهايبوثلاموس، وأن الطبقات الأقدم من اللحاء لها دورها الرئيسي في تكامل المعلومات.

❖ ❖ ❖

مراجع

- Hebbo, D.O.: The Nature of Emotion. Selected Readings.
- Arnold, Magda: Emotion and Personality.
- Davitz, J.R.: The Language of Emotion.
- Gelhorn, E. & Loofbourrow, G.M.N.: Emotions and Emotional disorders.

❖ ❖ ❖

- ٢٥ -
سيكولوجية الإحساس

المحسّات وإدراكها. عتبة الإحساس. الحساسية العضوية ومستوى الإحساس. النمط الحسّاس. الحسّ الكاذب. الخلط الحسّي. الحسّ الخلُقي. الشعور الحسّي والانطباع الحسّي. تدريب الحساسية وسلب الحساسية. المذهب الحسّي والفلسفة الحسّية...

❖ ❖ ❖

الإحساس Sensation شعور أو وعي بظروف داخل أو خارج الجسم تستحدثه إستثارة مستقبِل حسّي Sensory receptor

أو النظام الحسّي Sensory system المستقبل. وهذا التعريف بمثابة المبدأ الذي يقوم عليه عدد من النظريات في الخبرة الحسية Sense experience، وهي نظريات تفرّق بين الإحساس وإدراك الإحساس Sense perception، فأما الإحساس فهو ما أسلفنا، وأما إدراكه فينبني عليه ويقوم بتأويله وتمييزه. ومن علماء النفس من ينكر وجود الإحساس منفصلاً عن إدراكه وتمييزه. وفي البداية تكون دائماً المُحسّات Sense ثم ترتقي إلى المعنويات. والمحسّات منها الأولى كالألوان (الحمراء والزرقاء إلخ) والأصوات، والحرارة والبرودة، والضغوط. والإحساس هو فرع من علم النفس الذي يدرس الخبرات الحسيّة، والذي يولي عنايته بتمحيص وتدقيق المبادئ الأساسية الفسيولوجية والنفسية لهذه الخبرات الحسية. وعندما بدأ علم النفس الحديث شغلت العلماء عمليات الإحساس وميكانيزماتها الفسيولوجية، وأسهمت البحوث المعملية لعلماء كبار أمثال ڤيبر Weber (١٧٩٥ - ١٨٧٨)، وفخنر Fechner (١٨٠١ - ١٨٨٧)، وهيلمهولتس Helmholtz (١٨٢١ - ١٨٩٤)، وڤونت Wundt (١٨٣٢ - ١٩٢٠)، في تطوير الدراسات على السلوك الإنساني. وتتجه البحوث الحالية إلى الناحية التطبيبية أكثر مما تتجه إلى النواحي النظرية. وتأتي أكثر البحوث في الإحساس من المنظور السيكولوجي في المجالات الحربية والصناعية والفضائية. وتقوم أهمية هذه البحوث سواء التنظيرية منها أو التطبيقية على حقيقتين، الأولى أن كل ما نعرفه عن العالم المحيط بنا والعالم الداخلي لنا يأتينا عن طريق أعضاء الحسّ Sense organs فينا، والثانية أن كل فعل أو نشاط نقوم به ينبني على المعلومات التي نتلقاها من خلال الحواس. وتتناول هذه البحوث مسائل مثل نوع الإحساس، هل هو حراري أو ميكانيكي أو كيميائي، ومداه، وعتبة الإحساس Sense limen، أي الحد الأدنى الذي يمكن أن تنزل إليه قدرة عضو الحسّ على الإحساس، وقدرة هذا العضو أو ذاك من أعضاء الحس على التمييز بين المثيرات المختلفة، وقدرته على التكيّف مع المثيرات بحيث يحتملها

إذا زادت، أو يستمر تمييزه لها إذا تدنّت تأثيراتها إلى أدنى حدودها، والأساس الفسيولوجي للإحساس في الأعصاب، ومراكز الإحساس في المخ. وربما كانت البحوث على الإحساسين البصري Visual والسمعي Auditory هي أكثر البحوث في مجال الإحساس، وذلك بالطبع لأنه عن طريق السمع والبصر تأتي أغلب الخبرة الحسية وتتسبب المعرفة ويكون السلوك. وهناك الكثير من المسائل التي تشغل العلماء فيما يخص السمع والبصر، ففي البصر مثلاً تبرز مسائل اللون ودرجاته، والعمى اللوني، وحدّة البصر واضطراباته، وفي السمع درجات الصوت، والأصوات المركبة، والضوضاء، وفي الشم Smell تصنيف الروائح وطبيعة المثير الشمّي، وفي التذوق Taste ما يتصل بالطعوم وانقسامها إلى مالح وحلو ومرّ وحمضي، وفي الإحساس الجلدي Skin sense أو Cutaneous إنقسامه إلى إحساس بالسخونة والبرودة، وإحساس بالضغوط وبالألم، وأماكن هذا الإحساس في الجسم، وطبيعة هذا الإحساس، والتمييز بين ما يكون إحساساً سوياً وإحساساً مضطرباً. ويتّصل بحاسة الاتزان Static sense الشعور بمواضع الجسم وحركاته، وتصحيح أنفسنا إذا وقعنا، وتأثير الحركة على البصر، وطبيعة دوار الحركة. ويتصل الإحساس بالحركة Kinesthetic s. تقديرنا للأوزان ولمواضع الأشياء، وللحركة في الظلام، وطريقة المشي والكلام، وحركات العضلات التي تأتي تلقائياً إذا أردنا تناول الأشياء أو بلوغها إلخ...

والحساسية العضوية Organic sensitivity هي شعورنا بما يجري داخلنا مما يتّصل بأعضاء مثل المعدة والكليتين والامعاء والمثانة وغير ذلك، مما يتّصل بالشعور بالجوع أو بالعطش أو بالرغبة في التبول أو التبرز أو الرغبة الجنسية وإشباعها إلخ. وتفيدنا الحساسية العضوية في التعرف إلى ما نحتاجه داخلياً، وهي بمثابة الإنذار في حالة تعرضنا داخلياً لمرض من الأمراض.

ومستوى الإحساس Sensation level هو إحساسنا بما عليه مثير ما من قوة، فمثلاً في اللون يكون مستوى الإحساس به هو مقدار ما نراه عليه من لمعة أو شدّة

ضوئية، وكذلك في الصوت فإن مستوى الإحساس به هو مقدار ارتفاعه أو انخفاضه من حيث سَمْعنا له.

وقد يوصف أحد الناس بأنه باحث عن الأحاسيس Sensation-seeking، وذلك يُعَد من أبعاد الشخصية يتمايز به الناس من حيث رغبتهم وسعيهم واستمتاعهم بالخبرات الحسية والمشاركة فيها، طالما كان المستوى الحسّي الذي عليه هذه الخبرات عالياً بحيث يشعرون بها شعوراً فيه امتلاء ولذّة، وبعض الناس هذه هي حياتهم فعلاً. ولعل ذلك سببٌ حدا بيونج Yung (١٨٧٥ - ١٩٦١) إلى أن يقول بأنماط الشخصية التي قال بها على أساس من الوظيفة، من حيث أن الوظائف أربع، هي: الشعور، والتفكير، والإحساس، والحدس، وكلنا بنا هذه الوظائف، غير أن وظيفة منها قد تعلو على بقيتها وتغلب على الشخص، بحيث تتلوّن بها تصرفاته وسلوكه وتطبعها، فنقول مثلاً إنه من النمط الحسّاس Sensitive type، بخلاف النمط المفكر Thinking type الذي يغلب عليه العقل، ويفكّر بعقله لا بحواسه لو جاز التعبير.

والحسّ Sense قد نعني به عضو الحس، فنقول حسّ السمع Hearing sense، وحسّ البصر Vision sense، وحسّ الشم smelling sense، وحس الحرارة Temperature sense، وهكذا، غير أنه قد يوجد الحس دون أن يوجد عضو مرتبط به كما في ظاهرة الحس الطرفي الكاذب Phantom limb، وتقع أحياناً لمن بُترت أعضاء من أجسامهم، حيث يشعرون بعد بتر العضو بإحساسات ينسبونها إليه وكأنه موجود، فمثلاً قد يشعر من بُترت ساقه بعد العملية بوقت، أنه يريد أن يهرش في الساق وكأنها قائمة لم يحدث لها شيء. وأيضاً قد يوجد الحسّ ولا يكون مرتبطاً بالعضو المتّصل به، وإنما بعضو آخر ليس له، وذلك كما في ظاهرة الخلط الحسّي Synesthesia، وهي حالة مرضية وليست من الصحة في شيء. ومجال دراسة هذه الظواهر الشاذة هو اضطرابات الحساسية Sensitivity disturbances.

واضطرابات الحساسية تتشوه بها الحساسية فتزيد عن حدّها، أو تنقص، أو تفسد، ومن ذلك الخُدار Anesthesia وهو

فقدان الحساسية تماماً نتيجة تخدير أو تنويم أو تلف يلحق بالعصب، والنوع النفسي منه لا يتماشى موضعه من الجسم مع تشريح الأعصاب، فيكون الخُدار مثلاً باليد وحدها من المكان الذي نضع عليه القفاز، أو يكون بالمعصم حيث نضع الساعة، ويسمى لذلك بالخدار الهستيري Hysterical a.، لأنه ليس عضوياً، أي ليست له أسباب عضوية. وفي كلال اللمس Hypoesthesia يكون فقد الحساسية جزئياً، وهو عَرَض هستيري أيضاً، أي منشؤه نفسي، وكذلك النوع المسمَّى فرط الحساسية Hyperesthesia، فيزيد إحساس المريض بمؤثرات من نوع بصري أو سمعي أو لمسي، إلخ، أو يكون شديد الحساسية للحرارة أو البرودة، وذلك شيء قد نجد له أسباباً نفسية أو عضوية.

ومن اضطرابات الحساسية كذلك ثلاثة أنواع يصاب بها المرضى بالاستجابة التحولية، وهي فقد الألم Analgesia، وفرط الألم Hyperalgesia، وتشوّش الحس Paresthesia كما في النَّمَل والخَدَر. وهناك أنواع أخرى قد تكون لها أسباب نفسية أو غير نفسية كخدر الدغدغة Gargalesthesia، فلا يكون هناك إحساس بالدغدغة لو حدثت، وعكسه فرط خدر الدغدغة Hypergargalesthesia، وفرط التذوق Hyperageusia وعكسه نقص التذوق Hypoageusia، وفرط الحركة Hyperkinesthia ونقص الحركة Hypokinesthia، وفرط حسّ الحرارة Hyperthermoesthesia، وفقدان الإحساس بها Thermoanesthia، وفرط اللمس Hyperbaresthia ونقص اللمس Hypobaresthesia، وفرط الحساسية للاهتزازات Pallesthesia، وفقدان الحساسية للاهتزازات Palmanesthesia، وفرط الحساسية للألم Hyperalgesia ونقص الحساسية له Hypoalgesia، وفرط الحساسية للصوت Hyperacusia ونقص الحساسية للصوت Hypoacusia.

وقد ننسب الحسّ إلى غير أعضاء الحس فنقول الحس أو الإحساس بالمكان Sense of place، والإحساس بالزمان Sense of time، فنربط بين الحسّ وأحد

أبعاد العالم المادي، ونقصد بالحسّ هنا الوعي، فالحسّ بالمكان هو وعي بالمكان، والحسّ بالزمان أو الوقت هو وعي بالزمان، والمقصود بالوعي هنا الإدراك، وإدراك المكان أو الزمان هو إدراك بالوجود المكاني بالنسبة إلى موضع شيء من أشياء أخرى، أو إدراك للوجود الزماني أي موقع حدث معين من أحداث أخرى وقعت قبله أو بعده أو ترافق وقوعها معه، وكأننا نعني هنا بالحس أننا نُقصر هذا المكان أو الزمان على المكان أو الزمان عندما يكونان ذاتيين. وأما المسافة الحسيّة Sense distance فهي الفترة التي تنقضي بين إحساسين. وأيضاً فقد يقترن الحسّ بشيء معنوي فنقول «الحس الخُلُقي Moral sense» ويكون كالمَلَكة بالشخص يستشعر الأمور بها بالنسبة إلى الأخلاق. والحسّ الخلقي من الأسماء التي يتسمّى بها الضمير، وهو أداة تقويم الأفعال والأقوال خُلُقياً.

والإحساس بالانتماء Sense of belonging شعورٌ قوي بالانتماء للجماعة، يدفع الفرد لاستدماج مبادئ الجماعة وقيمها، وتبنّي أهدافها والدفاع عنها.

والإحساس بالهوية Sense of identity شعور المرء بأنه شخص منفصل ومتميّز عن الآخرين. والإحساس بالذنب Sense of guilt هو إحساس بالكدر ناتج عن نقد الأنا الأعلى أو الضمير لبعض الدوافع، أو لطريقة التعبير عنها، وخاصة الدوافع الجنسية والعدوانية. وقد يكون الإحساس بالذنب شعورياً جزئياً، بمعنى أن الإحساس يكون شعورياً ولكن أسبابه تكون لاشعورية، كما قد يكون هذا الإحساس بالذنب لاشعورياً، ناتجاً عن حاجة المريض إلى العقاب، ويعمل فيه دون أن يدري، فيرتكب من الأفعال ما يعرّضه للمساءلة دائماً. والشعور الحسّي Sense feeling هو حلاوة أو كدر نستشعرهما عقب خبرة حسية. والإدراك الحسّي Sense perception هو هذا الإدراك القائم على المنبّه الحسّي، وقد أسلفنا القول فيه. والخداع الحسّي Sense illusion إدراك خاطئ لمثير خارجي، ويرجع للتفسير الخاطئ لقوانين الطبيعة، مثل ظاهرة إنكسار العصا في الماء، أو إلى الخلط النفسي، وهو من إضطرابات الإحساس والإدراك.

والـمُـعـطَـى الـحسـي Sense datum إصطلاح جديد نسبياً عن فكرة قديمة قِدَم الفلسفة، وهي فكرة الموضوع المباشر للإدراك الحسّي. ويعتقد الكثير من الفلاسفة بأن الأشياء المادية الخارجية ليست هي موضوعات الإدراك الحسي المباشر، إذ أنه في أي موقف إدراكي بوسعنا أن نشك دائماً في أن ما ندركه بالحسّ هو شيء مادي حقيقي، لأنه ربما كان نوعاً من الخلط أو الحلم، إلا أننا رغم ذلك، ومهما كان الأمر مع الواقع الخارجي، فلا يمكن إلا أن نكون على يقين من أن حواسنا تتأثر به على نحو ما. وعلى الرغم من أننا قد نشك فيما قد تكون عليه الأشياء إلا أننا لا يمكن أن نشك في الكيفية التي تبدو لنا بها ساعة إدراكها. وهذه الكيفية هي ما نُطلق عليه إسم المُعطَى الحسي، فأنا الآن أرى الكرسي، وأنسب إليه ظهراً وملمساً ووزناً، ولكن لا الظهر ولا الملمس ولا الوزن حاضر أمام حواسي، فالعناصر المستدل عليها في إدراكنا هي العناصر القابلة للشك، وأما ما هو غير ذلك، أو الذي يتبقى بعد ذلك فهو المُعطَى الحسّي.

والانطباع الحسّي Sense impression إصطلاح عند السلوكيين أرادوا به تجنّب الحديث في الإدراك، لأنهم كانوا يقصرون كل شيء على الإحساس، فأطلقوا على نوع التفكير المتخلف عن الإحساس إسم الانطباع، ونسبوه إلى الحسّ، فهو انطباع حسّي، أي عقابيل فكرية للإحساس.

والفترة الحسّاسة Sensitive period هي مدّة زمنية يكون فيها الكائن حسّاساً لموضوعات معيّنة، ويستجيب فيها إستجابات فسيولوجية ونفسية لمثيرات بعينها، مثل الدورة النزوية في الحيوان. وقد نقول الفترة الحساسة لاكتساب المهارات اللغوية، ونعني بها الفترة التي يكون الطفل فيها قادراً على تعلّم اللغة واستيعاب وظائفها، وهي تقع في السن بين نحو السنة والبلوغ.

والحساسية Sensitivity هي القابلية للاستثارة لمثير، وقد تزيد الحساسية لسبب ما، وزيادة الحساسية Sensitization تعني أن الشخص ربما يكون حساساً حساسية مفرطة لمثير دون مثير آخر، وربما تزيد الحساسية بمنطقة

من الجسم دون منطقة أخرى. والمنطقة الحسّاسة Sensitive zone هي منطقة تشتد بها الحساسية لمثيرات معينة، فمثلاً المنطقة الشهوية من الجسم هي منطقة حسّاسة جنسياً، وقد يضرب الأب إبنه على مقعدته باستمرار فيزيد بها الحساسية وقد يجعل ذلك من الولد مأبوناً. وسلب الحساسية Desensitization طريقة من طرق العلاج بأن ندرب الشخص الذي يشكو الحساسية المفرطة من نوع ما على أن يسلك إزاء المثير المعين بطريقة عادية، بحيث يقل به عدد الأفكار والخواطر المشحونة بالقلق التي يثيرها هذا المثير أو الموقف، وبذلك يتمكن الشخص من معاودة التعامل مع المثير أو دخول الموقف واستئناف نشاطه السوي. وتدريب الحساسية Sensitivity training طريقة من طرق العلاج السلوكي الجماعي طوّرها كورت ليفين Kurt Levin (١٨٩٠ - ١٩٤٧) وكارل روجرز Carl Rogers في الأربعينات، ودخلت ضمن علم النفس الصناعي، وهي خطوة مهمة من خطوات تعليم الكبار، حيث يدرّب العمال على التعبير الحرّ عن أنفسهم، وعلى أن تكون لهم ردود فعل شخصية تترتب على اجتماعهم بغيرهم، فيلتقون بغيرهم ويتسنّى لهم عن طريق هذه اللقاءات أن يتخلصوا من أية أفكار مسبقة لديهم عن الآخرين، ويكتسبون حساسية إجتماعية مطلوبة.

والمذهب الحسّي Sensualism هو القول بأن كل إدراك هو إدراك حسّي أصلاً، وأن المذهب الحسّي هو الذي له دعوة معيّنة تقول باللّذة وتجعل الاستغراق فيها اتجاهاً في الحياة وأسلوباً للعيش.

والفلسفة الحسّية Sensationalism تردّ كل العمليات العقلية ومحتوياتها إلى عناصرها، باعتبار هذه العناصر وحدات من الأحاسيس يجمع بينها الترابط، وإذن فكل الفكر مستمد من الحسّ وحده.

وللإحساس عتبة يقال لها عتبة الإحساس Sensation threshold، والإحساس العتبي Threshold sensation هو الإحساس الإدراكي المدخلي. والعتبة المطلقة Absolute threshold تعني المستوى الأدنى أو الحدّ الأقل الذي يمكن أن نرى عنده بالعين، أو نسمع بالأذن، أو نتذوق باللسان، إلخ، فإذا قلّ المثير بحيث

لا يبلغ في قوته هذا الحدّ الأدنى من الإحساس من فرط ضعفه فإننا لن نراه، ولا نسمعه، ولا نتذوقه. والناس تتباين بشأن هذا الحدّ المطلق، وأعضاء الحسّ أيضاً تتباين بشأنه وتتغاير فيما بينها، ولهذا كان هذا الحدّ إفتراضياً بالنظر إلى أنه حدّ نسبي جداً. وكانت لتجارب العتبة المطلقة في الإحساس نتائج مذهلة أظهرت لنا حقائق عن أعضاء الحسّ لم نكن نعرفها من قبل، ومن ذلك مثلاً أن العين شديدة الحساسية للمثيرات لدرجة أنها تستطيع أن تتبين في الليلة الظلماء ضوء عود الكبريت المشتعل على بعد - قيل ثلاثة أميال، وأيضاً فإن الأذن يمكنها أن تسمع دقات الساعة على بعد عشرين قدماً إذا كانت الحجرة هادئة.

والتكيّف الحسي Sensory adaptation هو أن تقل بنا الحساسية لمثير معيّن مع طول المسافة التي يظل بها تأثير هذا المثير سارياً، ونسمي ذلك التكيّف السالب، مثلما يحدث إذ نسمع ضجة القطار وهو سائر فنعتادها حتى لننام فإذا توقف القطار وتعطلت الضجة صحونا.

والحرمان الحسّي Sensory deprivation هو أن يُسلَب الشخص من إمكانياته الحسية، كأن تتعطل حواسه عن العمل أو يعيش في عزلة حسيّة باختياره أو مفروضة عليه.

ومراحل التطور الحسّي Stages of sensory development هي التي يمرّ بها الفرد إبتداءً من الفترة التي يكون فيها استخدامه لحواسه إستخداماً ذاتياً مركزياً، إلى الفترة التي يكون فيها خروجه بحواسه إلى غير ذاته. وفي الفترة الأولى يكون استخدامه للشمّ والتذوّق واللمس، وفي الفترة الثانية يكون استخدامه للسمع والبصر، يمدّ بهما أحاسيسه إلى العالم البعيد من حوله.

والدافع الحسّي Sensory drive هو رغبة شديدة أو حاجة ماسة في أن يخبر الشخص موضوعاً خبرة حسية. والتمييز الحسّي Sensory discrimination هو القدرة على التمييز بين التنبيهات المتفاوتة في الكم أو في الكيف. والمجال الحسّي Sensory field هو مجموع ما يتصل بشخص ما من مؤثرات حسيّة يمكن أن ينفعل بها ويستجيب لها في زمان

ومكان معينين. ويوصف هذا المجال بأنه مجال ثري حافل بالمحسّات، أو مجال فقير مجدب من شأنه أن يعيش الشخص فيه في حرمان حسّي.

والعادة الحسيّة Sensory habit هي سلوك مكتسب تكون لنا به القدرة التلقائية على التمييز بين المؤثرات أو المحسوسات والتجاوب معها عضوياً وبتلقائية.

والتكامل الحسّي Sensory integration هو أن تستثار أكثر من حاسة معاً بمثير واحد، ويتكرر ذلك حتى يقترن تجاوب الحاستين أو أكثر، فإذا حدث واستثيرت إحداهما فإن الأخرى تستثار أيضاً بالتقارن، وذلك ما عليه الحال في التعلم الشرطي مثلاً.

والاستجابة من النمط الحسّي Sensory-reaction type هي التي يتوجه فيها الانتباه إلى ملاحظة المؤثر، بينما مثلاً في الاستجابة من النمط الحركي يولي فيها الشخص إنتباهه للحركة التي يستجيب بها للمؤثر وليس للمؤثر نفسه أو نوعه وماهيته وما إلى ذلك.

والمؤثر الحسّي Sensory stimulus هو الذي يتوجه بتأثيره إلى حاسة من الحواس. والعملية الحسيّة Sensory process هي العملية التي يقوم عليها الإحساس. والإحساس الأولي Protopathic sensation هو إحساس فطري كالجوع والجنس، والإحساس الثانوي Secondary s. هو إحساس مكتسب كالابتهاج بالموسيقى أو السرور لاحتساء كوب شاي في يوم بارد. والإحساس الذاتي Subjective s. مصدره ذاتي وينسب إلى الحسّ الخاص به، فمثلاً الجرس في الأذن دون وجود جرس خارجي أو جرس من داخل الجسم، إلا أن الأذن تطن كالجرس وكأنها تسمع جرساً أو كأن بها جرساً. وتزايد الإحساس Sensation increment من مصطلحات الفيزياء النفسية، عبارة عن تسارع في الحساسية الذاتية تتنامى به الخبرة الحسيّة الذاتية. والإحساس الوجداني Affective s. والتفاعل الحسّي Sensory interaction هو أن تتداخل العمليات الحسية مع بعضها البعض بشكل تلقائي متزامن، فإذا أمكن تنظيم هذا التفاعل بهذه الطريقة فإننا نطلق عليه إسم التنظيم الحسّي Sensory

organization. والإحساس الأقصى Maximal sensation هو أقصى ما يصل إليه الإحساس بمثير، فلو زادت قوّة المثير عن ذلك لما زاد الإحساس بها عن هذا المستوى. والحساسية المطلقة Absolut sensitivity هي القدرة على الإحساس بمثير وهو في أقل حالاته تأثيراً، أو في أضعف حالاته.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Boring, E.G.: Sensation and Perception in the History of Experimental Psychology.
- Milner, P.M.: Physiological psychology.
- Hensel, H.: Allgemeine Sinnesphysiologie.

❖ ❖ ❖

المـوسـوعـة النـفسـيـة

2

علم النفس والطب النفسي في حياتنا اليومية

إسم الموسوعة	:	موسوعة عالم علم النفس
إسم المؤلف	:	الدكتور عبد المنعم الحفني
إعـداد	:	قسم الدراسات في دار نوبلِيس بـإشراف الأستـاذ غسّان شديد
قياس الكتاب	:	27.5 × 19.5 سم
عدد صفحات الجزء	:	328
عدد صفحات المجموعة	:	6436
إسم الكتاب	:	الموسوعة النفسية – عِلم النفس والطب النفسي في حياتنا اليومية - مجلد (2)
مكان النشر	:	بيروت – لبنان
دار النشر والتوزيع	:	دار نوبِليس
تلفاكس	:	961 1 583475
تلفون	:	961 1 581121 961 3 581121
الطبعة الأولى	:	2005

عالم عِلم النفس

2

الدكتور عبد المنعم الحفني

الموسوعة النفسيّة

عِلم النفس والطب النفسي في حياتنا اليوميّة

المجلّد الثاني

NOBILIS
MAISON D'EDITION

الموسوعة النفسية

علم النفس والطب النفسي في حياتنا اليومية

في التعليم، والتربية، والتجارة، والصناعة، والأدب، والفن، والحرب، والسلام، وفي الصحة والمرض، والعلاج النفسي، وفي البيت، والمصنع، والشارع، والزواج، والغرائز، والحب، وفي التخيل، والقيم، والمعايير، وفي الموضة، والبغاء، والقمار، والمرور، واللعب، والجنس، والنوم، والعادات، والتحيل والإنجاز، وفي النوم واليقظة والأحلام، وفي الحسد والخرافة، والسحر، والدين، وفي الجريمة والعقاب والثواب، والإعلان والدعاية والإعلام إلخ، والاختبارات والاستبيانات والمقاييس المستخدمة في ذلك...

الباب الرابع

علم النفس والطب النفسي في خدمة الحروب

- ١ -
سيكولوجية الحرب

أنواع الحروب. فلسفة الحرب. أصول الحرب دائماً نفسية. الحرب الايديولوجية والنفسية وحرب الأعصاب. غسيل المخ والحرب. الحرب الإعلامية. حرب الكُتب والسينما والمسرح. حرب الإذاعات والفضائيات والصحافة اليومية. الدعاية والحرب. الإشاعات والحروب.

❖ ❖ ❖

الحرب بالمعنى المتعارف عليه صدامٌ بين جماعات سياسية، أو بين دول ذات سيادة، وقد تكون الحرب ديبلوماسية، أو بممارسة الضغوط الاقتصادية، أو بالدعاية، أو باستخدام الجيوش. والحروب لها مقدمات نفسية غالباً، وعلى أساسها تكون المماحكات والتحرّشات الديبلوماسية والاقتصادية وغيرها، وحتى الخلافات الإيديولوجية أساسها في التحليل النهائي نفسي غالباً. ولكي تقوم الحرب عسكرياً لا بد من تنامي العداوة والعداء بين حكومتين أو أكثر، ويحاول كل فريق أن يمهّد لها داخلياً في بلده وفي البلد الآخر. والحرب في تعريف هوجو جروتيوس Grotius (١٥٨٣ - ١٦٤٥): حالة تُناقِض السلم، وتتميز بأن السلوك الذي يُجرَّم في حالة السلم لا يُجرَّم في حالة الحرب. والحرب تُستخدم مجازاً لأنماط من الصراعات أو المنافسات، فيقال مثلاً حرب الكلمات War of words، والحرب النفسية Psychological warfare، وحرب الإرادات Will war، والحرب العرقية Racial war، والحرب الباردة Cold war، والحرب السياسية أو الديبلوماسية Political diplomatic war، وحرب الطبقات Class war، وحروب البقاء Survival wars، والحرب بين الجنسين Sex war، والحرب بين الأجيال War between generations، والحرب ضد الفقر War against poverty، وضد المرض War against diseases، وضد الجريمة War against crime، والحرب ضد الحرب نفسها War against war، وفي جميع هذه الحروب قد يَسفُر العداء

ويأتيه الأفراد والجماعات شعورياً، وقد يُضمَر ويكون تنافساً أو نقداً. وقد يبرر البعض الحرب بأنها ضرورية نفسياً، لأنها تثير الهمم، وتوقظ الغفلان، وتستثير القريحة والاختراع، ويموت فيها الضعفاء ويبقى الأقوياء القادرين على استمرار الحياة واستنهاض التقدم. وكان جامبلوفيس Gamplovics، وراتسينهوفر Ratzenhofer، وتريتشكه Treitischke، وستاينمتس Steinmets، وإرنست رينان Ranan من المؤيدين لهذا الرأي، فالحرب عندهم بمثابة التطهّر النفسي Psychological purgation وهي ابتلاء Ordeal من الله، وبدون الحروب يكون التدهور المعنوي Moral degeneration. والغالبية ضد الحرب لآثارها السلبية المدمرة، ومن هؤلاء سبنسر Spencer، ووالتر باجوت Bagehot، ويعقوب نوفكوف Novkov.

وتاريخ الحرب مرّ بخمس مراحل كبرى هي: حرب الحيوانات Animal war، والحرب البدائية Primitive war، والحرب التمدينة Civilized war، والحرب الحديثة Modern war، والحرب الحالية Recent war. والحرب الأولى: هي الحرب على المستوى الحيواني في أمان كانت أجناس الحيوانات تملأ الأرض، وتدور الصراعات بينها على البقاء. ودراسة السلوك العدواني للحيوانات يفيد في دراسة السلوك العدواني للإنسان، ويتشابه مثلاً سلوك القردة وسلوك الأطفال، وقد يحتدم العراك بين هؤلاء وهؤلاء كنوع من المنافسة، ومن السلوك العدواني الجماعي مثلاً سلوك جماعة العصابة أو الشلة. والمرحلة الثانية: هي مرحلة الحرب البدائية التي كانت تقوم بالعصي والحجارة بسبب سرقة الإناث، أو الإعتداء على الحياض، أو الاستيلاء على غنيمة، وكانت لهذه الحروب ميزة أنها وحّدت بين الجماعات المتماثلة، ومايزتها بتقاليدها وعاداتها ومؤسساتها، وضامنت بين أفرادها باعتبارهم جماعة داخلية In-group، كمقابل لغيرهم، وهم الجماعة الخارجية Out-group. ولما تحقّقت الكتابة صارت المجتمعات تمدينة، ومن ثم صارت الحروب تمدينة، وأُعدت لها الجيوش المتخصّصة، وصارت لها أسباب إقتصادية أو سياسية

أو إيديولوجية أو دينية، وتميّز العصر البطولي Heroic age في هذه المرحلة بأنه عصر قلاقل كبرى. وكانت هناك ثماني حروب كبرى في تاريخ العالم قبل الحربين العالميتين الأخيرتين، واللتين تختص بهما المرحلة الحديثة. ومع أن لهذه الحروب أسبابها التوسعية أو الاقتصادية أو السياسية، إلخ، إلا أن الواضح أن السبب النفسي كان وراءها جميعاً، وهو سبب عِرقي أو أجناسي، فيه البُغض لبعض الأجناس، والإحساس بالتفوّق من بعضها، وبدافع العلو في الأرض من بعضها. ولقد أجمل كوينسي رايت Wright الحروب في العالم حتى الحرب العالمية الثانية في ٢٧٨ حرباً، منها ١٨٧ حرباً بين شعوب أوروبا، و٩١ حرباً شنّتها أوروبا على شعوب من خارجها، و١٣٥ حرباً دخلتها الشعوب لنيل استقلالها، و٧٨ حرباً أهلية لأسباب إيديولوجية، أو للمطالبة بالحكم الذاتي، أو لفرض الوحدة الوطنية، و٦٥ حرباً بدعوى حماية مدنية الرجل الأبيض، أو للتبشير، أو لأسباب دينية.

وبعد الحرب العالمية الثانية كانت هناك العشرات من الحروب المحدودة، منها حرب الاستقلال للمستعمرات، والحروب بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية، ونحن الآن بصدد حروب دينية تشنها روسيا وبريطانيا وصربيا واستراليا والهند وأمريكا وإسرائيل والصين ضد الدول الإسلامية، وحروب عرقية ضد العرب في كل مكان. وكلّفتنا الحروب الإسرائيلية العربية مليون شهيد بين عسكريين ومدنيين، وكلّفت حرب الاستقلال عن فرنسا الجزائريين مليون شهيد، والحرب الأفغانية أكثر من المليون، وكذلك الحرب العراقية الإيرانية، ثم الحرب العراقية الأميركية. وفي الحرب العالمية الثانية استشهد ١٧ مليون جندي و٣٤ مليون مدني.

وفي كل الحروب يكاد ينعقد الإجماع على أن مسألة الحرب هي مسألة نفسية، سواء في قيامها، أو في إدارتها، أو في عقابيلها. ومن الذين أكّدوا على الخلاف في الرأي كسبب لاندلاع الحرب جابرييل ألموند Almond، وكارل دويتش Deutsch، وبيرنارد بيريلسون Berelson. وممن أبرزوا عنصر التوتر والصراع في

الحروب جورج سيميل Simmel. وهاردلي كانتريل Cantril، وأوتو كلينيبرج Klineberg، وفريدريك دن Dunn، وكينيث بولدنج Boulding. وقال البعض بأن الحروب من اختصاص علم النفس السياسي Political psychology، من أمثال هارولد لاسويل Lasswell، وداقيد رايزمان Riesman، وتشارلز أوزجودOsgood، وأناتول رابوبورت Rapoport. ورابنارد ويست West. وأدلى علماء التحليل النفسي بدلوهم أيضاً في الحرب، ومن هؤلاء فرانز ألكسندر Alexander، وإيريك فروم Fromm، وروبرت ويلدر Waelder. وهؤلاء جميعاً أكّدوا على مقولات نفسية، كازدواج المشاعر، والإزاحة، وكبش الفداء، والإحباط، والتعيّن، والإسقاط، والأفكار المغلوطة عن النفس. وكانوا يسمونه في الحرب العالمية الأولى صدمة القذائف Sheel-shock، ثم أطلقوا عليها إجهاد المعركة Cambat fatigue في الحرب العالمية الثانية، ويصاب الجندي المريض به بالخوف الشديد، وسرعة ضربات القلب، والخناق، والقلق والصراعات والتعطل الجزئي للشخصية وتسلط الأفكار. والحروب لها اضطراباتها النفسية مثل عصاب القتال Combat neurosis، وهو من الأعصبة الصادمة .Traumatic ns، ومع أن الحرب لها مبرراتها الظاهرة إلا أن من بيدهم قرار إعلان الحرب أو إنهائها، لهم دوافعهم اللاشعورية أيضاً. ويؤكّد هؤلاء العلماء على دور البحث والتعليم والتربية كوسيلة لدعم التفاهم بين الشعوب.

والحرب في الاصطلاح النفسي أقرب لمصطلح الحرب النفسية Psychological warfare. والحرب النفسية هي ذلك النوع من الحروب الذي تشنّه الجماعات بالدعاية Propaganda والإشاعة Rumours، وتستخدم فيه كل وسائل الإعلام بقصد إثارة القلق والتوتر لدى العدو، بالشتائم تارة، وبالافتراءات والأكاذيب تارة أخرى، لتزعزع الإيمان بالمبادئ، والأهداف ببيان استحالة تحقيقها، وإضعاف الجبهة الداخلية، بإظهار عجز النظام عن تحقيق آماله، وتشجيع البعض على مقاومة أهداف السلطة، وتشكيك الجماهير في قياداتها

السياسية والعسكرية. والتفرقة بين فئات الشعب، والدسّ والوقيعة بين الطوائف، وبين الحكومات المتحالفة، وتفتيت الجبهة القومية، أو العالمية المعادية، وبثّ اليأس في نفوس الجنود على الجبهة وفي الميدان، وإشاعة الذعر بينهم بالمبالغة في وصف القوة واستعراضها، والتهوين من انتصارات العدو. وحرب هذه شأنها لا يمكن إلا أن تكون أبشع في نتائجها من الحرب التقليدية Classical or traditional war، لأنها تقصد إلى الإنسان نفسه، فتحطم شخصيته وتشيع فيها التحلل، ليضطرب سلوكه كالمريض النفسي سواء بسواء، فيتبلبل فكره، ويتملكه القلق والخوف، وتضعف إرادته. والحرب النفسية حرب معنوية، وحرب إرادات، وحرب تستهدف شخصية المقاتل وشخصية الأمة، وغايتها تغيير سلوك الأفراد والجماعة فيكون تداعيها وتحللها واستسلامها، ومن ثم تسهل السيطرة عليها. وخطورة الحرب النفسية أن أسلحتها أفتك من كل سلاح، فالخوف والذعر والقلق والتوتر والترقّب والتشكيك والريبة. كل ذلك من شأنه أن يُعدي الناس كالوباء. والدعاية والإشاعة اللتان تستعين بهما الحرب النفسية وسائل نشر تنقل وباء الانهزامية وتقوّض الروح المعنوية Moral spirit، وتغيّر الأفكار والاتجاهات والقيم والمعتقدات والرأي والسلوك. ومن مصطلحات هذه الحرب غسيل المخ Brainwashing، وهو من أخطر ما تلجأ إليه الحرب النفسية من سلاح، لأنه عملية تطويع للمخ، وإعادة تشكيل للفكر. وتغيير للتوجّهات والمعتقدات، وتستخدم فيها كل وسائل الدعاية والإعلام لتخريب العقول والنفوس وكُفرها بكل المبادئ والناس والقيم، ثم دفعها إلى الإيمان بنقيضها. وكانت الصين تستخدم غسيل المخ في الحرب الكورية، وتطبّقه على الأسرى بعزلهم وتجويعهم، لتضعف إراداتهم وليصيبهم الاكتئاب، فيضطرب توجههم، وتصطرع فيهم الرغبات، وتستبد بهم المخاوف وينشدون الخلاص بأي شكل ومن أي طريق، فيسهل قيادهم وإقناعهم بفساد أنظمتهم وصواب أنظمة العدو، ويردّدون ذلك ويكرّرونه إلى أن تتغير مفاهيمهم، وتمّحى المفاهيم القديمة،

وتتلبسهم الأفكار الجديدة والمعايير السلوكية المعادية، ويقبلوا أن تكون لهم أدوار جديدة وشخصيات جديدة متعاونة، فيمكن إستخدامهم كطابور خامس Fifth column إذا عادوا إلى بلادهم.

وخطورة الحرب النفسية أنها حرب مستمرة، فهي في وقت السلم حرب باردة Cold war بلا مدافع ولا سيوف، وحرب أفكار War of ideas، أو حرب إيديولوجية Ideological w. تصطرع فيها الفكرة مع الفكرة، وتقتتل من خلالها الإيديولوجيات، وهي في وقت الحرب والسلم حرب أعصاب War of nerves، وحرب دعائية أو إعلامية، وحروب إذاعات وفضائيات وصحافة، وحرب سياسية أو ديبلوماسية.

والحرب النفسية تمهد للحرب الفعلية وتواكبها وتستمر بعدها. وهي حرب قد تتحصل لها نتائج الحروب دون أن تُطلَق فيها رصاصة، لأن القصد من أي حرب هو تحقيق الاستسلام، والحرب النفسية قد تبلغ هذا الهدف فعلاً بما تستحدثه في نفوس السياسيين والعسكريين والمدنيين والأفراد والجماعات من تخريب معنوي، وتغيير للأفكار والتوجهات والسلوك، وهو ما حقّقته أميركا والمعسكر الغربي مع الاتحاد السوڤييتي إلى أن حلّ نفسه بلا حرب فعلية، وبالحرب النفسية والاقتصادية وحدهما.

والحرب النفسية قد تكون دفاعية كما قد تكون هجومية، فإذا كانت وسيلة الحرب النفسية الدعاية والإشاعة والتجسّس وإشاعة التحلل والانهزامية، فإن من يشنّها يتوقع أيضاً أن تُشَنّ عليه، ومن ثم يكون تصدّيه لها بالدعاية المضادة Counter-propaganda، ومقاومة الإشاعة والتجسّس.

والحرب النفسية إصطلاح حديث نسبياً إلا أن مضمون هذه الحروب عرفه الأقدمون، وفي التوراة قصص كثيرة فيها هذا النوع من الحرب بالمعنى لا بالمبنى، فهناك الإيعاز، والإيهام، والتمويه، والخداع، والسبّ، والشّتم، والتقبيح، والتشهير، والتفرقة، والإيقاع، والنميمة، وإذكاء الخلافات، ونشر الدعايات والإشاعات، والتجسّس، والرشوة، واستمالة النفوس الضعيفة بالجنس والمال، وإنشاء الطابور الخامس من

أفراد الجماعة المعادية لتقويض الجبهة الداخلية، بإشاعة الذعر والخوف والقلق، ولتخريب الاقتصاد، بجمع الأقوات وتخزينها، فيكون الجوع، وتعمّ الفوضى، وتعلو الأصوات، ويشيع التمرد.

ويُذكَر أن اصطلاح الحرب النفسية قال به لأول مرة محلّل عسكري بريطاني يدعى فوللر Fuller، أورده في كتاب له بعنوان «Tanks in the War»، أي «الدبابات في الحرب»، وذلك أنهم في الحرب العالمية الأولى نزعوا المدافع من الدبابات وركّبوا بدلاً منها أبواقاً، وكانوا يذيعون منها نداءات على جنود العدو للاستسلام، ويذكرون لهم أسباباً، منها أن زوجاتهم في الجبهة الداخلية قد بلغ بهن تدهور الأحوال الاقتصادية أنهن صرن يمارسن البغاء، وأن الأمراض السرية تحوّلت إلى أمراض عادية بين الأولاد، وكانوا يشتمون الجنود بأقذع أنواع السباب، ويستخدمون مختلف المعلومات عن الجبهة الداخلية ليطعّموا بها إشاعاتهم وأكاذيبهم. واستخدموا الأسرى للنداء على جنود وحداتهم، وكانوا ينادون الجنود بأسمائهم، ولعله لهذا أُطلق على الحرب النفسية من هذا النوع إسم حرب الأبواق War by horns. وكذلك كانوا يُسقطون المنشورات Pamphlets على الجبهة الداخلية يشككون الناس في صمود قواتهم وإخلاص زعمائهم، وهذا أيضاً هو سبب تسمية هذا النوع باسم حرب المنشورات.

ويبدو أنه مع التقدم الهائل في تكنولوجيا إرسال الأخبار والمعلومات تحولت الحرب النفسية إلى حرب الإذاعات Broadcasting war أو الميكروفونات War by microphones، أو الحرب بالفضائيات التليفزيونية، وبالإنترنت، والأفلام السينمائية. وبالنظر إلى التوزيع الهائل للصحف وخطورة نقل الأنباء عن طريق الوكالات الصحفية، وسهولة تضمين المعلومات في الأفلام التليفزيونية والسينمائية فإن الحرب النفسية صارت حرب إعلامية شاملة. وتقتني الجيوش الحديثة وحدات إذاعية ووحدات بث تليفزيوني خاصة بها ويشمل تنقلها ويمكن من خلالها أن توجّه الإذاعات وتُقدّم البرامج التي تخدم أغراضها النفسية في المعركة. وللمعارك

سيكولوجيتها التي تتطلب دائماً فداء المقاتل وتضحيته وصبر المدنيين وارتفاع معنوياتهم، وإيمان الجميع بالأهداف التي كانت الحرب من أجلها. ومع استمرار القتال يكون شحن الأفراد والجماعات معنوياً ورفع روحهم القتالية والاهتمام بالترفيه. وتأتي التعبئة النفسية Psychological mobilization للحرب قبل وقوع الحرب ذاتها لتكون لدى الجماعة والأفراد صلابة الإرادة وصدق العزيمة، وليكتسبوا المناعة ضد الدعاية والإشاعة بتثقيفهم الثقافة التي تحصّنهم من آثارها، وذلك عمل قسم التوجيه المعنوي Moral-guidance department في الجيش، وهو الذي يقوم بربط الجيش بالشعب والتحام الجميع لتنمية الوعي الديني والشعور بالواجب الوطني. وأما التجسّس والتخريب المعنوي داخل صفوف الأعداء فيوكل لأجهزة المخابرات، وهي التي يناط بها جمع المعلومات عن الجبهات الداخلية، الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وفحص خطب وتصريحات المسؤولين وتفريغها مما تحتويه من أخبار ووقائع وأرقام، وتحليل ذلك كله وما يتكون في الرأي العام من إتجاهات ومواقف، واستغلاله في أنواع الدعاية والإشاعة والقصص الملفقة والنكت. والنكتة والكاريكتير في الحرب النفسية سلاحان خطيران فهما يوهنان العزم ويشوشان القصد، ويخربان النفوس ويكرسان الشقاق والفرقة، وإن لمن أعظم البلاء أن يسخر الشعب من نفسه وأن يستهدف بالسخرية قياداته.

والدعاية التي تخصّ الحرب النفسية هي الدعاية التي تخدم المجهود الحربي، وتدعّم الجبهة الداخلية، وتزيد النفوس ثقة، وتوضح الأهداف، وهذه هي الدعاية الدفاعية Defensive propaganda، فأما الهجومية Agressive p. فهي التي تقصد إلى التأثير على عقول الأعداء وعواطفهم، أو التي تكون بها استمالة المحايدين وتقوية صداقة الأصدقاء. وتستخدم الدعاية تكتيك القتال، فهي تهاجم في مكان، وتنسحب منه ليكون هجومها في مكان آخر، وتستخدم كل أجهزة الإعلام لتبلغ مرامها وتحقّق مقصدها في التمويه والخداع. والدعاية قد تكون ستراتيجية Strategic p. ضد

العدو، أو تكتيكية .Tactical p ضد الجيوش المعادية، أو خاصة .Private p موجهة للجماعات المحايدة تكسبهم إلى صفها، أو بيضاء .White p في خدمة الدول وتصدر عنها صراحة وعلناً، أو سوداء .Black p تتسلل خفية ولا تظهر علناً، أو رمادية .Grey p تكون بين العلن والسرّ مجهولة المصدر والقصد.

وأما الإشاعة في الحرب النفسية فهي خبر يتناقله الناس ويصعب مقاومة تصديقه، وليس من دليل عليه سوى أن به من الوقائع ما يجعل الناس يتردّدون إزاءه ويكتفون بتناقله، وخاصة إذا كان هناك من الموضوعات ما يستوجب أن يستنيروا بخصوصها إعلامياً وتعوزهم عنها الأخبار الصحيحة. ويكثر ذلك وقت الأزمات. ومروّج الإشاعة إنسان متهافت الشخصية غالباً، شديد الاستهوائية، على قدر ضئيل من الثقافة. والإشاعات تروج لذلك خصوصاً في أوساط المثقفين والطبقات الدنيا المتدنية الوعي بالمسائل الوطنية. والإشاعة عندما يصنعها الصانع فإنه يضع في اعتباره موضوعها ويصوغها بحيث يمكن أن تروج بالطريقة التي يحسب أنها لا بد أن يكون رواجها من خلال، ومن ذلك أن الإشاعة يمكن أن يأتي تناقلها بطيئاً وهذه هي الإشاعة الحابية .Creeping r، وقد تقصد إلى إثارة الفُرقة (الإشاعة المُفرّقة .Divisive r)، أو إثارة الشغب (إشاعة الشغب .Riot r)، أو إثارة الفضول (إشاعة الفضول .Curiosity r)، أو إثارة الأعصاب (إشاعة مهيّجة .Agitating r)، وقد يكون محتواها مروعاً (إشاعة مروعة .Bogy r)، أو هدّاماً (إشاعة هدّامة .Damaging r)، أو فظيعاً (إشاعة الفظائع .Atrocity r)، أو معبّراً عن تمنيات معيّنة (إشاعة الأماني r. of wishful thinking). (أنظر سيكولوجية الإشاعة ضمن هذا الباب الرابع).

❖ ❖ ❖

مراجع

- W. Daugberty: Psychological Warfare Casebook.
- Farago et al: German Psychological Warfare.
- Grotius, Hugo: De Jure belli ac Pacis.

❖ ❖ ❖

- ٢ -
سيكولوجية التعصب

التعصب وأنواعه. التعصب في السلم والحرب. التعصب العرقي. التعصب القَبَلي. التعصب القومي. التعصب الديني. الجاهلية والتعصب. اللغة والتعصب. مشاعر النقص والتعصب. التعصب وباء نفسي إجتماعي. التعصب والشخصية. علاج التعصب...

❖ ❖ ❖

التعصّب Prejudice يعني التحيّز والتحامل، من العُصبة بمعنى أهل الرجل وعشيرته، والاصطلاح في العربية ينصرف إلى معنى أكبر من المعنى الذي تنصرف إليه معانيه بالإفرنجية، حيث يُشتق المعنى العربي من العَصَب، وجمعه أعصاب، وهو الذي يكون به الحسّ والحركة في الجسم، والموصّل بينه وبين المخ، وشدّة العصب تعني الصحة؛ وعُصبة الرجل هي عترته التي تشدّ أزره؛ والمتعصّب Prejudiced هو شديد التحيّز والتحامل. وأما صحيح المصطلح بالإفرنجية فإنه يعني الحكم المسبق Prejudice بالإنجليزية، وPréjugé (بالفرنسية) أو هو الفكرة المسبقة Vorurteil بالألمانية، وPreconceito (بالبرتغالية) التي لا تستند إلى واقع موضوعي أو منطق سليم، وتكون لدى المرء بحكم وجودها بين من ينتمي إليهم، وتنتقل منهم إليه، فيكره أو يحب من تنسحب عليه الفكرة أو الحكم، أو ما يتصل به من أشياء أو موضوعات، دون سابق معرفة أو تجربة، ومن ثم فالتعصّب هَوَى بالنفس أو إتجاه نفسي، وهو أظهر في مجال العلاقات الاجتماعية، ويُشتَهر منه ما نُطلق عليه أحياناً اسم التعصّب القبلي Tribal يكون للقبيلة، كتعصب قريش زمن الرسول (ﷺ)، والتعصّب الأجناسي Racial prejudice، يكون لجنس ضد جنس، كالتعصّب الآري Aryan ضد السامية، والتعصّب الصليبي Crusade p. ضد الإسلام أو نطلق عليه أحياناً أخرى إسم التعصّب العِرقي Ethnic p.، كالتعصّب الأميركي - الأوروبي ضد العرب. وهذا التعصّب من مباحث علم

النفس الاجتماعي ويدرّس فيه ضمن الدراسات على الاتجاهات النفسية الاجتماعية، وهو لهذا له بُعدان، واحد إجتماعي وآخر نفساني، فأما الاجتماعي فهو أن تكون للتعصّب أسبابه الاجتماعية، كأن تكون لجماعة من الناس علاقات وخبرات بجماعة أخرى، ربما كانت تاريخية تروِي عنها الكتب، وخاصة الكتب الدينية كما في التوراة عن الشعب الفلسطيني، والشعب المصري، والشعوب من غير بني اسرائيل، حيث تتحزّب التوراة لليهود وتجعلهم شعباً أرقى من غيرهم وفوق الشعوب، فيرين في التفكير الجمعي لهم أنهم الشعب المختار، وأن غيرهم من الجوييم أو العامة، أو الأميين فقسّموا الناس إلى يهود وغير يهود، وغير اليهود هم الأميون كما يرد في القرآن في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ (الجمعة ٢)، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ (آل عمران ٧٥)، وفي التوراة لا عهد لليهود للفلسطينيين (الخروج ١٢/٣٤)، والنهي عن الزواج من غير اليهود، لا يعطونهم بناتهم، ولا يأخذون بناتهم لبنيهم (عزرا ١٢/٩). ومن دأب الأفراد والجماعات التعميم للتجربة بحيث تنصرف إلى كل جنس من ينتمي إليه الشخص أو الطرف الآخر للتجربة، فلو أني كانت لي تجربة صادمة في إيطاليا، تُبيّن لي أن الأفراد الذين التقيت بهم من الشعب الإيطالي يميلون إلى المغالطة والاحتيال، فلربما أخرُج بهذا الانطباع المعمّم: أن الشعب الإيطالي جماعة من اللصوص. وتشتهر هذه التعميمات لمختلف الشعوب، كالقول بأن الإنجليز باردون، وأن الروس أغبياء، وأن الألمان أذكياء، وأن اليابانيين شعب نشيط، والمصريين فلاحون! والتعصّب دليل تخلُّف حضاري، والرسول (ﷺ) سمّاه «جاهلية» فقال: «أفبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم»؟ - يعني بدعوى التعصّب، ووصف أبا ذرّ فقال: «إنك امرئ بك جاهلية» يعني بالجاهلية التعصّب.

وللغة دورها في تغليب التعصّب كاتجاه نفسي إجتماعي، كأن تكون من صور التعبير عن القبح أو الشر أن نقول مثلاً إنّ وجهه قد اسودّ غيظاً، أو امتلأ قلبه

بالسواد، فيُكرَه السواد، وتُعمّم الكراهية على كل ما هو أسود حتى ولو كان إنساناً، وذلك من مصاعب اللغة التي تواجه الأدباء الأفارقة، والتي ذكرها الشاعر الزنجي ليوبولد سنجور. وقد تكون للتعصّب جذوره الثقافية المميّزة للأجناس بحسب أدوارها في التاريخ، وقد برز ما يسمّى بدور الرجل الأبيض في تحضير الشعوب المستعمَرة، وقيل دائماً إن لفرنسا رسالة حضارية، وما تزال أمثال هذه المصطلحات مستخدمة حتى الآن، ولو أن ما استوجبها قد زال وانتهى بانحسار الاستعمار وزوال العبودية والقضاء على سوق النخاسة، إلا أن التعالي العنصري ما انفك نلتقي به هنا وهناك، وما يزال الاستعلاء الديني الذي تصنّف بمقتضاه الشعوب إلى كافرة ومؤمنة هو الذي يلهم الكثير من التعصّب. وقد تبين بالبحوث أنه حيثما كان التطرف الديني كان التعصّب. والتطرف Extremism عموماً صنو التعصّب، سواء كان عرقياً أو دينياً أو قومياً، وهو في مجال القوميات يمارس على نطاق واسع، ومن ذلك قول هكسلي Huxley (١٩٥٢): «إن الأمة تُعرّف بأنها مجتمع يقوم على فكرة خاطئة من جهة أصله ونشأته، وينهض على كراهية يشترك فيها الجميع لكل جيرانهم من المجتمعات أو الأمم الأخرى». وفي الإنجيل: إن المسيح رفض علاج ابنة المرأة الكنعانية أو اليونانية لأنها ليست إسرائيلية وقال لها كلمة لا أحسب إلا أنها مزوّرة لأنها تنضح بالعنصرية - قال تبريراً لرفضه: ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويُلقى إلى الكلاب!! - يعني ما سوى اليهود من الشعوب هم كلاب! (مرقس ٢٧/٧). وهذه الكراهية العامة قد تتوجه لكل ما يمت للأقوام الأخرى بصلة كاللغة أو الدين أو الفنون أو الآداب أو المنتجات الحرفية. وقد يعوز الأمة أن تظهر هويتها كوسيلة لإذكاء التضامن بين أفرادها، إلا أن ذلك يدفعهم إلى التفاخر بأصولهم على حساب قوميات وأمم أخرى. وقيل إن كل إحساس وطني أو قومي هو انتماء، وفرط الإحساس بالانتماء يتّجه بالأفراد إلى أن يكونوا عدوانيين، والعدوانية لن تتجه - كاتجاه عام في المجتمع أو الأمة - لأفرادها،

وإنما لأفراد المجتمعات والأمم المغايرة. وهذه المغايرة من الأسباب النفسية الدافعة للكراهية والمستوجبة للنفور، وإنه لأمر في طبيعة كل الكائنات أنها تخاف المغاير والغريب، وعندما يشتد ذلك بالبعض منا فقد يتحول إلى فوبيا أو رهاب نطلق عليه إسم رهاب الأغراب Exenophobia، وقد ينصرف هذا الرهاب إلى خوف مرضي من شعوب بعينها أو أجناس دون غيرها، ومن ذلك رهاب الزنوج Negrophobia. وهذا الرهاب قد يكون عاماً كالوباء العقلي فيظهر في شكل التعصّب المقيت الذي ربما يتوجه لشعب أو لطبقة أو لدين على حساب الأغيار، ومن ذلك مثلاً التعصب ضد الإسلام Anti-islamism، ورهاب الإسلام Islamphobia، وتعصُّب اليهود ضد العرب Anti-arabism. ولا بد أن يكون التعصّب كسلوك مجزياً لصاحبه، سواء كان فرداً أو جماعة، بمعنى أن يكون له مردود من المكاسب، وقد تكون المكاسب نفسية، وربما إجتماعية، وفي كثير من الأحيان تكون المكاسب مادية أو إقتصادية. ويذهب اليهود والرأسماليون إلى أن المكاسب الوحيدة الجديدة بالبحث في التعصّب هي المكاسب الاقتصادية. والتعصّب يجعل في مقدرة المتعصّب أو المتعصّبين الذين لهم السيطرة والسيادة في مجتمعاتهم أن يميّزوا أنفسهم فيها، وأن يفرزوا غيرهم بحيث يستبقونهم تابعين لهم وخاضعين لسيطرتهم وسيادتهم، وبذلك يستمر استغلالهم لهم واستخدامهم كعبيد وأرقاء جُدُد. وتقوم دولة بكاملها مثل الولايات المتّحدة على التفرقة العنصرية Racial discrimination، كي يستبقي البيض الأقليات من الزنوج والعرب وبقية الأجناس غير الأوروبية من المهاجرين، في وضع تابع لها. وقد تلحق مكاسب أخرى غير إقتصادية بالمكاسب الاقتصادية. وكما هو معروف فإن من يملك يحكم، وتصدر القوانين من قِبَل البيض لتكرس الوضع العبودي، وتذكّي التعصّب ضد الأقليات. ومن مكاسب التعصّب أن المتعصَّب يجعل المتعصِّب ضدّه إحتياطياً إجتماعياً له، ينسب إليه كل المفاسد، ويُرجع بسببه كل المصائب. وربما تكون المكاسب جنسية وتتمثل في إباحة الزواج من نساء الشعب الواقع عليه

التعصُّب، وتحريم زواج ذكوره من نساء الشعب المستعلِي.

وهناك دائماً مبرّرات للتعصّب، ولن يعدم المتعصِّب أن يجد سبباً لتعصّبه ولكنها أسباب تدرّس ضمن علم المنطق باب «الأغاليط Fallacies»، وليس لها أية مبرّرات منطقية.

وقيل إن التعصّب وباء نفسي إجتماعي Psycho-social epidemic لا يختلف عن الأوبئة العقلية Mental epidemics التي تصيب المجتمعات. ويميل علماء الطب النفسي إلى دراسة التعصّب ضمن الاضطرابات النفسية باعتباره مرضاً أو اضطراباً، ويبرّرون ذلك بأن التعصّب لا يمكن أن يكون إلا اضطراباً خطيراً كالبارانويا، طالما أن ضحاياه بالملايين، عايناهم في الحروب العنصرية في الماضي، وفي الحربين العالميتين، وما نزال نعاينهم بالآلاف في حروب الشرق الأوسط والخليج، وفي البوسنة والشيشان وأفغانستان، وبين مختلف الأجناس، بدعاوى عنصرية محضة سامية وفارسية وعربية وكردية وإسلامية ونصرانية ويهودية، إلخ.

ويتوجّه التعصّب في المجتمع الواحد من الأغلبية إلى الأقلية، واضطهاد الأقلية Minority persecution إصطلاح شائع وكثير التداول، وتفسير ذلك من الناحية النفسية الاجتماعية أن بعض المجتمعات تقوم على اعتبار تماسكها في جماعة واحدة داخلية Ingroup، وتطلق على الأقلية أو ما دونها إسم الجماعة الخارجية Outgroup، وكثيراً ما يقوم الصراع بين الجماعتين، حيث تمثّل قيم ومعايير وأنماط السلوك للجماعة الخارجية تهديداً لتماسك الجماعة الداخلية.

وقيل إن المتعصِّب له تنشئة نفسية إجتماعية خاصة، وهو ينحدر من أسرة الأب فيها مسيطر، ومن شأن ذلك أن تتراوح في الابن مشاعر حبّ وكراهية للأب وبدائله، ويستدمج الابن صورة الأب المنجزئة على نفسها، ويقسّم العالم من بعد قسمين: أحدهما محبوب والآخر مكروه، ويوجّه محبّته لجماعته الداخلية، بينما يتوجّه بكراهيته للجماعة الخارجية. ومن أسباب هذا التوجّه المنجزئ، أن الأفراد يتفاعلون إجتماعياً

بهدف إحراز التوافق الاجتماعي Social adjustment ومن ثم التوافق النفسي Psychological a.، وهذان التوافقان يدفعان إلى التوائم والتكيّف مع المجتمع ومعاييره، وقيمه وأنماط سلوكه. وتهدف التنشئة الاجتماعية إلى تحصيل هذا التوافق بالانتماء، والمتعصّب كما قلنا منتمٍ إلا أنه «متطرف في انتمائه»، أي يبدي تآلفه مع معايير مجتمعه الداخلي بمغالاة، وكذلك يغالي في كراهيته لمعايير المجتمعات الخارجية. والتعصّب كاتجاه نفسي إجتماعي يتأصّل بالتنشئة ويتنامى بالتطبيع الاجتماعي، ومن ثم فهو اعتقاد أو اتجاه مكتسب بالتعلّم، إلا أنه يُكتَسب مبكراً، وهناك بحوث على أنه يكتسب من الوالدين في نحو سن الثانية، واكتسابه يكون من بعد ذلك من المدرسة، ومن الممارسات اليومية ووسائل الإعلام بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة. وقيل إن التعصّب يكون بُعداً من أبعاد الشخصية النمطية الجامدة المتسلّطة، ومن ثم فلا وجود لغريزة تعصّب وإنما هناك استعداد للتعصّب، يوجد مع التنشئة ويتوجّه نحو جماعة أو موضوع معيّن، والدليل على ذلك أن الأولاد قبل أن يدركوا مضمون التعصّب يلعبون مع بعضهم البعض زنوجاً وبيضاً، عمالاً وفلاحين وأبناء ذوات، ثم يلاحظ الطفل تباعدَ أفراد جماعته عن أفراد الجماعات الأخرى، ووصْفَهم لهم بالنقائص والانحطاط والدونية، ونسبتَهم كل المصائب إليهم فيُعدَى بالتعصّب، ويقلّد سلوكهم عليه. ويأتي استدماج الطفل لمعايير جماعته وأنماط سلوكها في التعصّب بالتدريج. وليس من الضروري لانتقال هذه المعايير إليه أن يصاحبها الاحتكاك اليومي المباشر بأفراد الجماعة الأخرى، بل يكفي ما يسمعه أو يراه، فإذا صاحبت ذلك الخبرة اليومية، فإن التعصّب يقوى ويشتد بعمليات الشحن الانفعالي المستمرة. وقد تبين أن بعض الأفراد لا يلزم لكي يكونوا متعصبين أن يتعلموا التعصّب مباشرة من جماعتهم أو بطريقة غير مباشرة، وإنما يناسب التعصّب تكوينهم الشخصي. ويذهب بعض أهل الرأي إلى أن الشخصية المعصّبة من دأبها أن تُذعن لاتجاهات جماعتها وتتبنى هذه

الاتجاهات، ويناسبها منها خصوصاً الاتجاهات السلبية التي تنفّس فيها عن المكبوت عندها من مشاعر الكراهية والعدوانية والإحباط، وتطرح فيها عُقَدها الخاصة بالتفوق، وتمارس مع جماعتها الاضطهاد للجماعات من الأقلية والفئات المضطهدة. وإنه لأمر ذو بال أن الشخصية المتسلّطة Authoritative personality التي تنحو إلى هذا الاتجاه ربما تكون أيضاً من بين الجماعة الواقع عليها الاضطهاد، بمعنى أن الشخص المتسلط من الأقلية قد يتبنّى الاتجاهات المتسلطة نفسها عند الأغلبية ويمارس التسلط والتعصّب على أفراد جماعته. وربما يترتب هذا السلوك عند أمثال هذا الشخص من رغبة لاشعورية عنده أن يتعيّن بجماعة الأغلبية، أو ربما يولّد التعصّب الواقع عليه مشاعر كراهية وعدوانية لا يجد المنصرف لها إلا على أفراد جماعته المستضعَفة، وربما يلمس هذا الشخص حقيقة النقد الموجّه لجماعته ويتبين صدقه، فينزع إلى أن يتحلل من صفات جماعته ويتنصّل منها، ويتبين عادات وتقاليد وطرق تفكير وأنماط سلوك الجماعة الأخرى.

ويذهب علماء النفس إلى ردّ بعض أسباب التعصّب إلى «مشاعر نقص» في المتعصِّب تجعله يغالي في الانتساب لقيم ومعايير جماعته ليقوَى بها، ويجد متنفّساً لصرف مشاعر النقص عنده على أفراد الأقلية. ويتميّز المتعصِّب عادة بضيق الأفق وضحالة التفكير وسطحية المعرفة وضآلة الشأن، ويستشعر لذلك إحباطاً للشخص يفجّر فيه طاقات عدوانية قد يستسهل تصريفها إجتماعياً فيما تنصرف فيه عدوانية أفراد جماعته وهو التعصّب ضد الأقلية، فيحقّق لنفسه تصريف عدوانيته، ويستشعر أنه منتمٍ لجماعته، ولا يجد من ثم تثريباً عليه فيما يقوم به من أذى أو ضرر ضد هذه الأقلية.

ويأخذ التعصّب أشكالاً عدّة، منها أن يكون باللسان لغةً وتعبيراً، وأن يكون باعتزال من يقع عليهم التعصّب، والتعالي عليهم وتحقيرهم وحرمانهم إجتماعياً ووظيفياً، والاعتداء عليهم في أبدانهم أو أملاكهم، وقد يتوجّه إلى إبادتهم. والنكت البذيئة المحقّرة للأقلية مَثَلٌ من أمثلة التعصّب باللغة، ومن

الممكن أن لا تُلاحَظ النكت إذا لم تقترن باعتزال المتعصّب لهم. واعتزالهم قد يعني الرفض أن يساكنهم الحيّ أو البناية أو الفندق، ويحرمهم أنواع من التعليم، وقد لا ينالون النوع نفسه من الرعاية الصحية. والاعتداء أو الإبادة من السلوكيات المشهورة عن المتعصبين، ومن ذلك الاغتيالات التي توصف أحياناً بأنها اغتيالات سياسية، والغارات الأجناسية كالتي يقوم بها اليهود على أحياء العرب في فلسطين المحتلة، ومن ذلك أيضاً مختلف صنوف المعاملة المميّزة التي من شأنها أن تدفع الأقلية المضطهدة إلى الهرب بنفسها من جحيم التعصّب، كما يحدث الآن في فلسطين.

وييسر عملية وقوع التعصّب سهولة التعرّف على أفراد الجماعة المتعصَّب ضدها، كأن يحملون شارات معيّنة، أو يرتدون ملابس خاصة، أو يكون لهم سمتٌ يفرزهم، أو يتحدثون بلغة مختلفة، أو لهم لونهم، أو الحيّ الذي يسكنونه أو القرية. ومن الممكن تصنيف التعصّب من وجهة أخرى بحسب الصور النمطية المعمّمة عن المتعصَّب عليهم. وهذا الصور المعمّمة Stereotypes لها شكلان، ولو كانت صوراً حقيقية لما كان السلوك المترتب عليها تعصباً، إلا أنها صور غير حقيقية، والشكل الأول: هو صورة للجماعة الأخرى باعتبار أفرادها من الكفّار الملعونين المستوجبين للتعذيب في الدنيا والآخرة، والمستحقين للقتل باعتبارهم كفاراً، أو باعتبار أنهم نَجَس، لاختلاف طقوسهم وعاداتهم وتقاليدهم، وفي ذلك تروى الحكايات عن قذارتهم وإجرامهم وحقارتهم، والقذارة التي عليها مساكنهم وأحياؤهم، تبريراً لاعتزالهم والامتناع عن التعامل معهم. والشكل الآخر: هو أن يُقال إنهم جنسٌ أحط عقلياً ونفسياً، تبريراً لاستبعادهم عن السلطة والمناصب الفكرية. ولقد ثبت أن هناك أنماطاً من الشخصية المتعصّبة أُطلق عليها إسم الشخصية العنصرية Ethnocentric personality، تجد المتنفَّس عن أوجه النقص فيها بالمغالاة في الانتماء لجماعتها، والانقياد لقياداتها، وإظهار العداء الشديد لأعدائها، والعالم عندها إما أقوياء أو ضعفاء، وهي تكره الضعف لأنه فيها هي

نفسها، ولكنها تُسقطه على الآخرين، وتتطرف في الإساءة للضعفاء والمستضعفين والأقليات.

والتعصّب إذن كظاهرة نفسية إجتماعية قد تكون له أشكال عدّة بحسب شخصية المتعصِّب. وتختلف الاتجاهات النفسية والاجتماعية التي يقوم عليها التعصّب بحسب ما إذا كانت هذه الاتجاهات ضمن بناء الشخصية. وقد يكون التعصّب سمة من السمات المتأصلة في الشخصية، بحيث تكون له فيها طبيعة مرضية. وربما قد يتأتى نتيجة خبرة صادمة، وربما يكون غالباً نتيجة تواؤم وتلاؤم مع المعايير الاجتماعية السائدة. وقد ذهب البعض في تعريف التعصّب إلى جوانب ثلاثة تظهر فيه، هي جوانبه الفكرية من حيث أنه يمثّل فكرة، وجوانبه الوجدانية من حيث أنه انفعال، وجوانبه النزوعية من حيث أنه سلوك. وتأثير التعصّب ينصرف إلى كل ذلك، ويعزّز الصفات والأوضاع التي فيها المضطَهدون، فيستمر فقرهم، أو تستمر أحوالهم المتردّية. ومن ناحية أخرى فإن ممارسة التعصّب عليهم وتنشئة أطفالهم على هذه الممارسات، يجعل الأطفال ينزعون إلى تمنّي أن يكونوا من غير هذا الجنس أو تلك الفئة، ويعمل ذلك على تحلّل شخصياتهم وانفراط عقدها، ويذكّي تحقير النفس، ويقوّض احترام الذات، حتى أنه في أحد البحوث الأمريكية أن أطفال الزنوج كانوا يطلبون دُمَى يلعبون بها تمثّل الجنس الأبيض، ويرفضون الدمى السوداء. وهناك تعبير لذلك هو كراهية الذات Self-hatred، من حيث أن الأطفال ينشأون على كراهية وَضْعهم وأنفسهم، حتى قد يكرهون كل ما يذكّرهم بجماعاتهم، ويعافونها، وربما يأتون من السلوك ما هو معادٍ للجماعة. وهذه العدوانية التي يفجّرها الإحباط قد لا تنصرف إلى أنفسهم فقط، ولا إلى جماعتهم وحدها، وإنما قد يعاني منها المجتمع ككل، ويتصدّع بها أمنُه وتماسكه. وليس انتشار الجريمة ووقوع أعمال العنف الشديدة في الأحياء الفقيرة والعمالية ومساكن الأقليات إلا بناءً على شدّة هذه العدوانية فيهم. وإذا كان الإدراك السليم للواقع من مظاهر الصحة النفسيّة والعقليّة، فإن تشوّه

إدراك المتعصِّب وجماعته لحاجات المضطَهدين وأمانيهم، وعدم الوعي بها، وتدنّي الإحساس بمشاعرهم، لهو دليل على اضطراب نفسي وعقلي يدفع إلى التعصّب في الجماعة والأفراد المتعصّبين.

وعلاج التعصّب باعتباره سلوكاً متعلّماً يحتاج للكثير من الوقت والجهد. وهو كاتجاه Attitude لا بد لتغييره من وسائل تغيير الاتجاهات، بالإقناع والدعاية من خلال وسائل الإعلام والتثقيف. وطالما أن هناك عنصراً فكرياً في التعصب فإن الدعاية المضادة Anti-propaganda له قد تحقّق بعض النجاح في علاجه، إلا أن بعض المجتمعات تكون أسرى التعصّب، بحيث قد يضيع أثر الإعلام فيها، بما يغلب عليها من ممارسات يومية تجعل هناك ازدواجية متناقضة Double bind، فيكون الإعلام في وادٍ والتطبيق في وادٍ آخر، أو تجعل من الإعلام حرثاً في الماء، ولذلك قيل إن الإعلام لا بد أن يؤكّد على الجوانب الإيجابية عند الأقلية، وأوجه الشبه بينها وبين هذه الجوانب عند الأغلبية، بدلاً من علاج السلبيات والدعوة إلى نقضها. وللتعليم دور إيجابي من حيث أن تعليم الأقلية يقرّب المسافة الاجتماعية بين الجماعتين. وأيضاً للوعظ الديني دوره إن لم يكن من شأن هذا الوعظ إذكاء العداء بين الجماعات الدينية، كما يحدث بين الشيعة والسنة، أو بين اليهود والمسيحيين، أو بينهما والمسلمين، فكل جماعة تكفّر الأخرى ويعيش أفرادها في تعصّب مقيت. وإذا أمكن عقد اللقاءات بين الجماعات المختلفة في شكل ندوات فكرية ولقاءات كشفية ومباريات رياضية فإن التقريب بينها قد ثبت إمكانه، كما ثبت إمكان تغيير الأفكار التي يقوم عليها التعصّب بإيجاد أعمال ومشاريع مشتركة بين الجماعات السابقة، يكون بها احتكاكهم اليومي واطّلاع بعضهم على حقيقة أفكار الآخر ومشاعره وإمكاناته. وتبيّن فائدة اتّباع بعض أنواع العلاجات والقياسات الاجتماعية السوسيومترية في حالات صراع الجماعات، ومن بينها أن نطلب من كل جماعة أن تتخيّل نفسها في دور الجماعة

الأخرى، وأن تحاول أن ترى الأمور من وجهة نظرها. وقد يفيد العلاج النفسي والتحليل النفسي في الحالات المتطرفة، إلا أن المتطرّف لا يعترف بمرضه ولا يطلب العلاج، ومن ثم يتوجّب الانصراف إلى التعليم العام وخاصة في الطفولة، لتنشئة المواطن تنشئة صالحة صحيّة من جميع الوجوه، وخلق ضمير جماعي يقاوم التعصّب ويتصدّى له، وهو أمر قد ثبت إمكانه بهذه الطرق. وتدل إحصائية التعصّب في بلاد كالولايات المتّحدة إشتهرت به على تدنّي ممارساته إلى أكثر من النصف خلال ربع قرن. ففي سنة ١٩٤٢ مثلاً لم يؤيّد التفرقة بين الزنوج والبيض ٣٠٪ من السكان في الشمال، وفي سنة ١٩٥٦ لم يؤيدها ٥٠٪، وفي سنة ١٩٦٣ إرتفعت النسبة إلى ٨٠٪، وفي الجنوب لم يؤيدها سوى ٢٪ سنة ٤٢، ثم ١٤٪ سنة ٥٦، وارتفعت النسبة إلى ٣٠ سنة ١٩٦٣.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Adorno et al: The Authoritarian Personality.
- Allport: The Nature of Prejudice.
- K. Clark: The Dark Ghetto.
- Saenger G.: The Social Psychology of Prejudice.
- B. Olson: Faith and Prejudice.
- Dollard et al: Frustration and Aggression.

❖ ❖ ❖

- ٣ -
سيكولوجية الجماعة

أنواع الجماعات وسلوكياتها ووعيها، والجماعة المرجعية. الأنا الأعلى للجماعة. القوة المرجعية للجماعة. جماعة القرناء والجناح فيها، وثقافة المراهقين من أعضائها. حدود الجماعة وتماسكها وتضامنها. مناخ الجماعة ومعنوياتها. التعين بالجماعة. الجماعة المغلقة والحراك الاجتماعي...

❖ ❖ ❖

قد يجتمع عدد من الناس ويكون بينهم تفاعل من نوع ما، ويتوخون باجتماعاتهم هدفاً، وتتحدد لهم من خلال تفاعلهم أدوار إجتماعية، وتكون لسلوكهم ضوابط من المعايير والقيم الخاصة، فنقول إنّ هؤلاء الناس يؤلفون جماعة إجتماعية a social group، وهي الوسط الاجتماعي الذي يقوم بالتنشئة الاجتماعية لأفراده وتطبيعهم إجتماعياً، ويكتسبون منه اتجاهاتهم مع استمرار انتمائهم له، وتكيفهم مع مقتضيات ظروفه وأحواله، فيتعدل سلوكهم ويتقوم، ويتعلمون إجتماعياً فتنمو مهاراتهم. والجماعة هي التي تشبع حاجاتهم، ويستشعرون فيها الأمن والأمان، وتتحقق لهم من خلالها المكانة الاجتماعية، ومن ثم يكون اعتزازهم بها وولاؤهم لها.

والجماعات أنواع، بحسب تفاعلاتها الاجتماعية وتأثيراتها على سلوك أفرادها وأدوارهم الاجتماعية، وتبعاً للمقومات التي تصنعها. وتفيد دراسة الجماعات في التعرف على ماهياتها وبنائها وتماسكها وأهدافها، ومن ثم نستطيع بناءً على هذه الدراسة توجيهها الوجهة المطلوبة. ويهتم علم النفس الاجتماعي بهذه الدراسة، بدءاً من الجماعة الصغيرة التي قوامها شخصان، وانتهاءً بالجماعات الكبيرة وأخصها الأمم. والجماعة - كتنظيم إجتماعي - موجودة في عوالم الحيوان والطيور والحشرات، كما أنها عند الإنسان. وتصنف الجماعات بحسب الدليل الذي ينهض عليه التصنيف، ويكون الاهتمام بها باعتبارات تكون الجماعة g. formation من حيث حجمها، وتفاعلاتها الاجتماعية، وتشكيلها لأدوار الأفراد فيها، وأهدافها، وإنجازاتها، وتماسكها، واستمراريتها، وتركيباتها الطبقية، أو الأجناسية، أو الثقافية، أو الدينية، وأعمار الأفراد فيها. والأسرة جماعة أولية primary group، بل هي أولى الجماعات، والتفاعلات بين أفرادها مباشرة وشخصية وتسمى لذلك جماعة متواجهة face-to-face group، بينما المدرسة جماعية ثانوية secondary group، ومن ناحية أخرى فإنّ الأسرة جماعة غير رسمية informal group، بينما المدرسة جماعة رسمية formal group،

والتفرقة بين الجماعتين من هذه الزاوية هي تفرقة من حيث النظام. فإذا شئنا التفرقة بين الجماعات من حيث المنفعة الاجتماعية، فإننا نجد أنّ الأسرة والمدرسة جماعتان إجتماعيتان، بينما العصابة gang جماعة لا إجتماعية -anti social group أي ضد المجتمع. والجماعة الانتقالية transitional g. هي التي تتألف بشكل مؤقت لغرض ما. وجماعة النحن we-g. هي التي يشعر الفرد من أعضائها بتوحد مع الجماعة في مقابل جماعة الهم they-g.، وهم أية جماعة بخلاف جماعة الفرد. والجماعة الرأسية vertical g. هي التي تتوسط جماعتين أو طبقتين وتجذب أفراداً من هذه وتلك على السواء. والجماعة الاجتماعية social g. هي التي لا وحدة لها أو كلية من نوع ما.

والجماعة قد يكون اجتماعها بالاختيار، ويُطلق عليها إسم الجماعة الاختيارية voluntary group، أو بالإجبار وتسمى الجماعة الجبرية involuntary group. وقد تكون جماعة مغلقة closed group، لا تقبل آخرين فيها، كشأن المجتمع اليهودي فإنه جماعة مغلقة، وعكسها الجماعة المفتوحة open group. والجماعة الداخلية in-group، نقيضها الجماعة الخارجية out-group وتسمى أيضاً الجماعة المستمرة continuous g. لأنها تقبل فيها أعضاءً جدداً دائماً. كما قد تكون الجماعة طارئة contingent group، أو مؤقتة temporary group ، أو دائمة permanent group. والجماعة الصغيرة small group تقابلها الجماعة الكبيرة big group؛ وجماعة الأغلبيةmajority group نقيضها جماعة الأقلية minority group؛ والجماعة منها المتجانسة homogenous group ، والمتغايرة ؛ وقد تكون الجماعة مفروضة imposed group، كما قد تكون بالانتخاب voted group. وإطلاقية الجماعة g. absolutism هي اعتقاد أفرادها أنهم وحدهم على حق وغيرهم على باطل. والجماعة التي لا هوية لها blanket g. هي التي يجتمع أفرادها على لا شيء، وإسم blanket يعني الغطاء أو الدثار، فهي جماعة مغطاة، يعني غير معروفة الهوية، وهي جماعة كل أحد، وكل شيء.

وسلوك الجماعة group behavior هو

السلوك الجمعي للجماعة كما يتمثل في سلوك أفرادها، أو هو سلوكها ككل متجاوزاً سلوك الأفراد. وعقل الجماعة group mind هو أفكارها الجمعية، أو إيديولوجيتها التي تصدر عنها رأياً واعتقاداً. ووعي الجماعة group consciousness هو الوعي العام الذي يكون لها، وهو ما تعيه من خبرات تؤثر على سلوك أفرادها، ومجموع الأفكار التي تميزها وتكوّن لها عقلاً جماعياً. والأنا الأعلى للجماعة group superego، أو الأنا الأعلى الجمعي، هو ضمير الأمة أو الجماعة، وهو مُثُلها العليا نتيجة تمثل الجماعة للقيم والمعايير الجمعية، من خلال الأسرة، والجماعة المرجعية، وجماعة الأنداد (أنظر فيما بعد).

والجماعة المرجعية reference group هي الجماعة التي يرجع إليها الفرد في تقويم سلوكه الاجتماعي، وهو يتأثر بما تأخذ به الجماعة نفسها من إتجاهات وأهداف ومعايير وأنماط سلوك، وينتسب لها، أو يأمل أن يتحقق له هذا الانتساب ويعول عليه في تصرفاته. وقد يتشكك البعض في حقيقة وجود أمثال هذه الجماعة، بالنظر إلى أنّ الأفراد في الكثير من الأحيان ينتمون إلى جماعات لا إلى جماعة واحدة، إلاّ أنّ الانتماء إلى أكثر من جماعة هو انتماء متفاوت أو متردد أو غير مخلص. وكانت البحوث في مجال الانتماء الجماعي هي التي أظهرت أنّ من الممكن أن نكون أعضاء في جماعة، وتكون انتماءاتنا الفكرية والوجدانية والخلقية مع جماعة أخرى. ومن مآثر الجماعة المرجعية أننا قد صارت لدينا المعرفة بأنّ البعض يمكن أن ينتسبوا لأكثر من جماعة، وأن يكون لهم بالتبعية أكثر من مثال أخلاقي للاهتداء به، وأكثر من تصور للوضع الاجتماعي الذي يمكن أن يسعوا إليه، إلاّ أنه لا بد في كل الأحوال أن يتغلب نمط على نمط، ومعيار على معيار g. norm، مهما تعددت المعايير المتباينة والأنماط المختلفة للجماعات التي يمكن أن يندرج تحتها الفرد أو يحب أن يندرج إسمه ضمن أعضائها.

واصطلاح الجماعة المرجعية قال به لأول مرة هيربرت هيمان Hyman سنة ١٩٤٢، في كتابه «سيكولوجية المكانة

Psychology of Status» أثناء بحثه عن الأطر المرجعية frames of reference التي يصوغ الناس أنفسهم عليها ويصدرون عنها، وعن الأشخاص المرجعيين الذين يتخذون منهم مثلاً وقدوة، ويقتدون بهم ويتمثلون سلوكهم. ولئن كان الاصطلاح جديداً إلاّ أنّ الفكرة نفسها ليست جديدة في بحوث علم النفس الاجتماعي، فلقد قال بها - أو بشيء منها - علماء أجلاء من أمثال نيوكومب Newcomb، وهارتلي Hartley، وشريف Sherif، وستوفر Stouffer، وسومنر Sumner، وكولي Cooley، إلاّ أنّ هيمان كان موفقاً غاية التوفيق حيث قال بهذا الاصطلاح الذي قيض له الشهرة حتى صار من الاصطلاحات الشعبية في مجال علم النفس الاجتماعي.

ويتميز في بحوث الجماعة المرجعية أكثر من تصنيف، فقيل مثلاً إنّ الفرد عندما يقارن سلوكه بغيره، ليعرف إن كان يفعل ما يفعله الناس فيرضى عن نفسه، فإنه يرجع إلى ما يسمى الجماعة المرجعية المقارنة comparative reference group، وإذا كان رجوعه إلى الجماعة ليأخذ عنها المعايير والقيم فإنّ الجماعة التي يأخذ عنها تسمى الجماعة المرجعية المعيارية normative reference group. وقد تكون عضوية الفرد لجماعة تجتمع فيها هاتان الخاصيتان، من حيث أنه يقارن سلوكه بسلوكها، ويصدر في معاييره عن معاييرها. ويبدو أنّ أغلب البحوث توجهت إلى الجماعة المرجعية وليس إلى الأشخاص المرجعيين reference individuals، بالرغم من تأكيد بعض العلماء على أهمية الدور النموذج role-model الذي يقيس الأفراد أدوارهم إليه، وعلى التأثير الشخصي للزعامات وتوجيهها للرأي العام، وهو ما حدا بالبعض إلى التنبيه بشدة إلى أنّ الشخص المرجعي هو أكثر من تتمثل فيه معايير الجماعة، وقيمها، واتجاهاتها، وأهدافها، وأنّ الأفراد العاديين - وهم يتمثلون الشخص المرجعي - إنما ينشدون تجسيداً مادياً لقيم الجماعة ومعاييرها في سلوك شخص وتفكيره ومشاعره، بحيث يتيسر لهم محاكاته ومتابعته عليها.

ويتمايز في الجماعة المرجعية

المعيارية نوعان، أحدهما جماعة مرجعية إيجابية positive r. g. ، أي أنّ تأثيرها على أعضائها بالإيجاب، والآخر جماعة مرجعية سلبية negative r. g.، بمعنى أنّ الفرد يشكل سلوكه على عكس ما تذهب إليه. وكثيراً ما نصادف أشخاصاً يغالون في التناقض مع جماعات بعينها حتى لينضموا إلى الجماعات المناوئة لها أو التي تناصبها العداء وتعارضها كل المعارضة.

وقيل باصطلاح القوة المرجعية referent power، أي القوة التي يمكن أن تكون لجماعة مرجعية على أفراد ليسوا من أعضائها، ولكنها بهذه القوة أو النفوذ الذي لها تشدهم إلى مبادئها ومعاييرها بأكثر مما تفعل الجماعة المرجعية التي هم منها. وقد تسلك الجماعة المرجعية أحياناً بعنف مع أعضائها، وتمارس إزاءهم قوة تغصبهم على أن تكون معاييرهم وأفرادهم هي معاييرها وأفكارها. والإحاطة بكل ذلك تنيرنا بخصوص ديناميات الجماعة وعملياتها، ومصادر التبعية فيها ولدى أعضائها، وحقيقة إنتماءاتهم، وما تلجأ إليه الجماعة من وسائل التطبيع الاجتماعي أو التنشئة الاجتماعية. ولعله لهذا السبب يقول البعض بما يسمى الجماعة المرجعية المأمولة aspired reference group، أي التي يأمل الفرد أن تكون جماعته برغم أنه غير عضو فيها، إلاّ أنه يصدر عنها في سلوكه، وتحكمه معاييرها واتجاهاتها. ولعله لهذا أيضاً قيل بما يُسمى التنشئة التوقعية anticipative socialization، وهو أن تستهوي قيم جماعة بعض الأفراد ممن لا ينتمون إليها، فتكون لهم بذلك الأفكار عن اتجاهاتها ولكن لا يكون لهم سلوكها، إلاّ أنّ التزامهم بأفكارها قد ينتهي بهم غالباً إلى أن يكونوا أعضاء بهذه الجماعة ويمارسوا معاييرها.

وتبين نظرية الجماعة المرجعية أنّ الأفراد الذي لهم أكثر من جماعة مرجعية إنما يصدرون عن مقدرة إجتماعية تخيلية imaginative sociability، أي أنهم قادرون على تصور أنفسهم في أدوار عديدة، وعلى أن يتخيلوا متطلبات هذه الأدوار، وأن يروا أنها تناسبهم. ومن ثم فإنّ الشخص الذي تكثر الجماعات

المرجعية التي يرجع إليها لا يتناقض مع نفسه، ويشعر بالعكس بثراء شخصي يعطيه القدرة على النهوض بدعاوى كل جماعة وإن تنافرت. ونحن عبر سنوات العمر سندخل جماعات، ونتجاوز أخرى، وستمضي بنا التجارب إلى الانتماء إلى جماعات سنذكرها من بعد ضمن ما نذكر من خبرات الماضي، وذلك شيء ضروري ولا بد منه في الحراك الاجتماعي، حيث ينمو الأفراد دائماً إلى التحرك إجتماعياً إلى أعلى، وإلى تغيير أوضاعهم باستمرار إلى الأحسن، والجماعة المرجعية الفعلية الآن تصبح في خبر كان من بعد، في حين أنّ الجماعة المرجعية المأمولة قد تصبح جماعة مرجعية فعلية .. actual r. g. والمعول عليه في اختيار الجماعة المرجعية دائماً هو الدافع إلى الاختيار، ولا بد أنّ الأشخاص يدفعهم إلى اختيار جماعاتهم أفضلية هذه الجماعات على غيرها، أو أنها الجماعات التي بانتمائهم لها يجدون أنهم أقدر على فهم البيئة والتعامل معها بما تقدمه من معايير وقيم وتفسيرات وأفكار. ولربما يكون الدافع إلى الانتساب إلى هذه الجماعات أنّ هؤلاء الأشخاص ينظرون إلى أنفسهم نظرات لا يتواءم معها إلاّ أن يكونوا أعضاء ضمن هذه الجماعات، أو قد يكون الدافع أنّ الجماعة المرجعية هي حماية للشخص ولذاته من اعتسافات الجماعات الأخرى وأفرادها. والبعض قد ينتمي إلى جماعة بتأثير من مبدأ اللذة pleasure principle، باعتبارها الجماعة التي توفر لهم إشباع حاجاتهم، أو بتأثير من مبدأ الواقع reality p. عندما يقارنون بين ما توفره لهم هذه الجماعة وما قد يوفره غيرها، فيختارون بموضوعية شديدة وواقعية بعيدة عن الهوى ما يناسبهم من الجماعات. وقيل بمبدأ ثالث هو مبدأ المشابهة similarity principle، يحكم المفاضلات بين الجماعات، فنختار منها ما تتشابه معاييره مع ما نتمثله لأنفسنا من معايير، أو مع ما يتناسب مع قدراتنا على الأخذ بهذه المعايير، وذلك مبدأ آخر يحكم الاختيار يطلقون عليه إسم مبدأ التناسب relevance principle.

والفرد الذي يرجع إلى الجماعة في

معاييره وقيمه وسلوكه قد يكون على وعي بما يفعل، وقد لا يكون لديه هذا الوعي، وربما أيضاً قد يكون وعيه محدوداً وإدراكه لمعايير الجماعة مبتسراً، أو قد يظن أنّ تلك هي معايير الجماعة مع أنها ليست كذلك، فيكون انتماؤه عن سوء فهم، ومن ثم يكون الارتداد الذي كثيراً ما نسمع عنه، ويأتيه أفراد يدعون أنهم كانوا في الجماعة في غفلة من الوعي، أو غيبة منه، وأنه قد صارت لهم يقظة من بعد.

وجماعة القرناء peer group هي جماعة مرجعية، وقد يطلق عليها أيضاً جماعة الأنداد، أو جماعة النظراء - والقرين والنظير والند بمعنى واحد، وعادة ما يتحلق الأفراد من العمر نفسه، ولهم ميول متشابهة، وينحدرون من العمر نفسه، ولهم ميول متشابهة، وينحدرون من طبقات اجتماعية واحدة - يتحلقون في جماعات لها أهدافها الواحدة - وتقوم بتمثيل أفرادها. وفي حالة تكوين هذه الجماعة من الأطفال فإنّ دورها يكون أهم، ويكاد ينافس دور الأسرة والمدرسة في تنشئة الطفل وتطبيعه إجتماعياً وتشكيل سلوكه. ويخضع الطفل في حياته الباكرة لتأثير الأسرة وتفاعلاتها، ولكنه عندما يذهب إلى المدرسة يبدأ تأثره بالمدرسين وبجماعات الأطفال من عمره، ويكون استقطاب الأطفال في مجموعات بمثابة الشلة أو الصحبة أو الرفقة، ويكوّنون معاً قواعدهم السلوكية، وتكون لهم مصطلحاتهم وثقافاتهم الفرعية، ويدين الأطفال فيها بالولاء للجماعة، ويصبح انتماؤهم لبعضهم أهم أحياناً من انتمائهم لأسرهم. والناس عموماً سواء كانوا راشدين أو أطفالاً يخضعون لتأثير الجماعات من القرناء التي ينتمون إليها بحسب ميولهم وشخصياتهم. ويبدو أنّ هناك أنماطاً ثلاثة بهذا الخصوص: فنمط توجهه التقاليد ويخضع في سلوكه للمعايير الاجتماعية؛ ونمط إنضباطه داخلي والمعايير التي تتحكم في سلوكه شخصية؛ ونمط إستهوائي يجد نفسه في قيم الآخرين وأن يوجهوه إلى ما ينبغي أن يكون عليه سلوكه. ونحن في بداية حياتنا قد تطبعنا التنشئة الأولى في الأسرة، وقد نكبر ونحن نميل إلى الاعتماد على الغير، وأن يفكروا لنا ويسنوا القواعد ويوجهونا،

أو ننشأ على الاستقلالية والاعتماد على النفس بحسب ما يأخذنا به الأبوان، وبحسب علاقاتنا بهما. والطفل الذي ينشأ على الانصياع قد يعاني من الخوف من العزلة وأن ينبذه الآخرون. وبعض الأطفال قد يغالي في طلب الرفاق حتى ليبدي كامل الانصياع والطاعة لجماعتهم. وتمد هذه الجماعة الأطفال بالمعلومات التي لا يتوفر تعلمها في المدرسة ولا يزود الأبوان أطفالهما بها. ويظهر تأثير الجماعة إبتداءً من سن الحادية عشرة، حيث تكون هذه السن تقريباً هي سن التحول المتدرج بعيداً عن اتجاهات الآباء في الكثير من المسائل الخاصة بالجنس، والولاء الاجتماعي، والانتماء للأسرة أو المدرسة، والميول والاهتمامات. وتأثير الجماعة على البنات أقل من تأثيرها على الصبيان. ويمارس العنف كثيراً في جماعات الصبيان، بينما تغلب النميمة والشائعات في جماعات البنات. والقبول الاجتماعي الذي يمكن أن يحظى به الطفل في جماعته أو أي جماعة، قد يكون له أكبر الأثر في توجهات الطفل في الدراسة والحياة عموماً. والطفل قد يتعلم من الجماعة التمرد والانحراف، وقد ينشأ فيها جانحاً، ويكثر الجناح delinquency في جماعات الأطفال التي ينحدر أفرادها من طبقات كادحة أو محرومة إجتماعياً. ويبدو أنّ أهم سمة يمكن أن تكون لجماعة القرناء هي معارضتها لبعض القيم الاجتماعية عند الراشدين، وهي المعارضة التي توجه إلى مجتمع الراشدين كنوع من الاحتجاج على أوضاع الطبقات التي ينحدر منها أطفال الجماعة. ويعتبر سلوك الجناح عند الكثير من أطفال هذه الجماعات نوعاً من التعويض لهم عن الفرص المحرومين منها إجتماعياً. وبالنظر إلى التشابه الذي لجماعة القرناء بالمراهقين فإنّ البعض يجب أن يطلق على نوع الثقافة الخاصة التي تنتشر بينهم ويعلمونها لبعضهم إسم ثقافة المراهقين adolescent culture، ومن ذلك ما نقرأ عنه من آراء واتجاهات وميول واهتمامات خاصة بالهيبيز hippies، وما يطلق عليه أحياناً إسم أدب العبث أو اللامعقول absurd literature. وبالنظر إلى التأثير

الهائل الذي يرصده الملاحظ لجماعة القرناء على سلوك، أفرادها فإنّ المشتغلين بعلم النفس العلاجي يتجهون إلى اصطناع هذه الجماعات من بين المتماثلين في الاضطرابات النفسية، بحيث يتطارحون في اجتماعاتهم مشاكلهم وخبراتهم وشكاواهم بتوجيه وإشراف المعالج النفسي، وهي طريقة في العلاج يُطلق عليها إجمالاً إسم العلاج النفسي الجماعي group psycho-therapy، أو العلاج الجماعي g. therapy.

وحدود الجماعة group boundary قد تكون مكانية، وقد تكون حدوداً مغلقة أو مفتوحة تصنع منها جماعة مغلقة أو جماعة مفتوحة. والانغلاق والانفتاح يكون بالنسبة لتقبل الجماعة لأعضاء جدد أو معايير وقيم وافدة. وتماسك الجماعة group cohesion هو قدرتها على أن يلتحم أفرادها معاً فلا ينحلون إلى جماعات متشرذمة. وصلابة الجماعة group rigidity هي المدى الذي يمكن أن يبلغه تماسكها ويكون به صمودها أمام المؤثرات الخارجية وعوامل الانحلال والتفسخ. وتضامن الجماعة group solidarity تكون به وحدتها ويتحقق تماسكها. وجو الجماعة group atmosphere أو المناخ الجمعي group climate هو الحالة العامة التي ترين عليها وتسود بين أفرادها، والتي تميز العلاقات التي تحكم أفرادها وتؤثر على اتخاذهم القرار. وقرار الجماعة group decision هو ما يقرره الأفراد كمجموعة، أو يستقر عليه رأيهم، أو ينصرف إليه تفكيرهم. والفروق بين الجماعات group differences كدراسة الفوارق بين الجماعة المستبدة، والجماعة الديمقراطية، والجماعة الفوضوية. والجماعة الطبيعية natural group d، يكون تكوينها تلقائياً ويتحقق من داخل الجماعة دون ضغوط من خارجها، ونقيضها الجماعة المصطنعة artificial group، ومن الأخيرة مثلاً الجماعة التجريبية experimental group، والجماعة الضابطة control group، ويطلق عليهما أيضاً أنهما جماعة مختارة selected group. والجماعة المتعاونة co-acting group وهي جماعة متكافئة shoulder-to-shoulder group، غير أنّ

المتكافئة جماعة مواجهة، بينما المتعاونة قد لا تكون كذلك. وجماعة الأعضاء membership group هي مجموعة من الأفراد أعضاء في ناد أو جمعية أو حزب، إلخ، لهم شروط خاصة ينبغي أن تتوفر لهم كي يكونوا محل قبول من الجماعة. وقبول الجماعة group acceptance يعني أنّ الجماعة توافق على عضوية فرد جديد ينضم إليها وتوكِل إليه دوراً جماعياً وبذلك يشغل فيها مكانة status. والتعين بالجماعة group identification هو أن يتمثل الفرد معايير الجماعة وقيمها، وتكون له أنماطها السلوكية وأهدافها واتجاهاتها. ومعنوية الجماعة group morale هي روحها المعنوية esprit de corps، وما تبديه من صلابة وتماسك إجتماعيين، وما تكون عليه من تضامن وهي مثابرة الجماعة واستمرارها على أهدافها، واحتفاظها بوحدتها في وجه المؤثرات المعادية والظروف غير المؤاتية. وتكامل الجماعة group integration هو اندماجها عاطفياً وفكرياً. وحركة الجماعة group locomotion هو سعيها الدائب نحو تحقيق هدف أو اقترابها من بلوغ قرار، أو هو تكرار تفاعل أفرادها لحل مشكلة عامة، أو تحقيق هدف مشترك يدعو إلى التعاون بينهم. وهذا التعاون أو التضافر في الجهود هو الذي يمايز أدوار الأفراد والعلاقات الاجتماعية بينهم.

ويتكون بناء الجماعة group structure من المراكز المتميزة فيها، والترتيب الذي تكون عليه هذه المراكز من حيث الوضع الاجتماعي والنفوذ. ويهتم علم النفس الاجتماعي ببناء الجماعة وتنظيمه، من حيث أنّ الهدف من أي تنظيم هو أن يؤدي إلى أقصى ما يمكن من الكفاءة؛ وبذلك تتحدد الوظائف وتبين المراكز وتتضح مسؤولياتها نحو غيرها وطرق الاتصال بينها في شبكة الاتصال الاجتماعي. ويقوم بناء الجماعة أيضاً نتيجة اختلاف أفرادها في دوافعهم وتكويناتهم الشخصية، فبينما ينهمك البعض في السعي إلى مراكز القيادة فقد يفضل آخرون أن يكونوا تابعين، ولذلك فإنّ الدراسات السوسيومترية لبناء الجماعة تفيد في التعرف على النجوم stars في الجماعة - أي أكثر أفرادها

شعبية، والمرفوضين فيها rejected، والمعزولين isolated، والجماعات الفرعية sub-groups داخلها، والجماعات الهامشية marginal groups - أي التي تعيش على هامش ثقافة الجماعة، والجماعات الأجناسية ethnic groups - أي المختلفة من حيث الأصل أو السلالة. وتفيد هذه الدراسات أيضاً في التعرف على بناء الاتصال الاجتماعي للجماعة، من خلال تحديد شبكة الاتصال أو نظامه بين المراكز المختلفة للجماعة، فنعرف من ثم «الزمن» الذي يمكن أن تستغرقه الجماعة في أداء عمل ما أو حل مشكلة. ويؤثر نظام الاتصال بين الجماعة في سلوكها الأدائي، ورضا أعضائها عن عملهم، وظهور القيادات بينهم، ودوام الجماعة كجماعة. وللجماعة «قوة إجتماعية»، ودراسة بناء هذه القوة يعني التعرف على السلطات النسبية للأدوار الاجتماعية فيها، ومدى تأثير كل فرد في الآخرين، وغالباً ما يكون أقوى الأفراد تأثيراً هم أيضاً النماذج التي يقلدها الآخرون - سلوكياً - باعتبارهم ممثلين لمعايير الجماعة، وكذلك يكون سلوك الأدنى إجتماعياً تجاه الأعلى، ودفاعياً أيضاً - بحيث يترضون الأعلى ويستميلونهم دائماً، ويُقبلون على صحبتهم ومتابعتهم والاستماع إليهم والاقتداء بهم. ويميل الأفراد إلى أن ينصبوا عليهم في مراكز القيادة أشخاصاً بسمات متفردة أو متميزة. وتسمى إمكانية انتقال الأفراد من مركز إلى مركز آخر باسم الحراك الاجتماعي social mobility، وبناء الحراك الاجتماعي من العوامل المؤثرة في بناء الجماعة، من حيث أنّ بعض المراكز الاجتماعية قد تشد إليها الأفراد بما تتضمنه من عناصر القوة الاجتماعية، فإذا كان الانتقال من المراكز الدنيا إلى المراكز العليا متاحاً إجتماعياً، فإنّ ذلك قد يرفع الروح المعنوية للجماعة، لأنه يعني إمكانية تغيير الأدوار الاجتماعية والطبقة التي ينتمي إليها الفرد. وفي الجماعات المفتوحة يكون الحراك الاجتماعي ميسراً، بينما يشق كثيراً في الجماعات المغلقة. والانغلاق الاجتماعي هو أن يتوقف الحراك الاجتماعي الرأسي أي من الأدنى إلى الأعلى. ويزداد تماسك

الجماعة كلما اتصف الحراك الاجتماعي بالمرونة والسيولة. وهذا التماسك ممكن فقط كلما زادت مكانة الأفراد في الجماعة وشعروا بأنّ حاجاتهم يمكن إشباعها، وكلما كان تعاونهم ممكناً فيزيد تفاعلهم. وكلما زادت متانة البناء الاجتماعي كلما تحقق تماسك الجماعة، والتماسك هو قوة الجذب في الجماعة التي تشد الأفراد إليها. ويقاس تماسك الجماعة بسؤال أفرادها إلى أي حد يحبون بقية الأفراد أو يتمنون البقاء أعضاء في الجماعة؟ وكلما زاد حديث الأفراد عن أنفسهم بصيغة «نحن»، وقلت لديهم صيغة «أنا»، كان ذلك انعكاساً لتماسكهم، وكذلك كلما زاد الأصدقاء بين الجماعة عكس ذلك الرضا عن الجماعة والتمسك بها، وقوة العلاقات الاجتماعية فيها. والجماعات الديمقراطية democratic gs.، وكذلك المنظمة organized gs. تكون أكثر انعكاساً وأقل عرضة للتفسخ من الجماعات المستبدة authoritative gs. والفوضوية anarchistic gs.. وترتبط الحالة الانفعالية لأفراد الجماعة بالحالة الانفعالية للجماعة، وعندما تقل مشاركة الأعضاء في اتخاذ القرارات فإنّ ذلك أدعى إلى إثارة السخط بينهم. وفي الجماعات التي لا يرضى عنها الأعضاء يزيد تغيبهم ويقل بالتالي تماسكهم. وتزيد الأحداث من خارج الجماعة تماسكها، ويزداد هذا التماسك بما تدخله من خبرات سارة، وما يكون لها من خصائص محببة، وبتأثير من سهولة الاتصال بين الأعضاء والمراكز المختلفة، وعندما تكون أهداف الجماعة واضحة. ومن شأن هذه الأهداف أنها تحرك التفاعل الاجتماعي. ولكل جماعة أهداف وربما هدف واحد، وأهداف الجماعة group goals تستثير طاقات أفرادها عندما تتوافق ولا تتعارض، وقد تكون الأهداف في وعي الجماعة المباشر، وربما هي دوافع جماعية لا يعونها بهذا الاعتبار، وإدراك لأهدافها يؤثر في تفاعل الجماعة، وبقدر ما تتفق الأهداف مع حاجات الأعضاء بقدر ما يكون تمسكهم بها وسعيهم لتحقيقها. ويعمل الفرد للجماعة بدافع من المنافسة مع الجماعات الأخرى أكثر مما يعمل

بمفرده، وربما تترتب على التنافس بين الجماعات نتائج أفضل، وقد تكون النتائج أقل. وعندما يكون العمل الجماعي فيه مكسب للفرد أو مشبعاً لحاجاته، فإنه يندفع إلى القيام به، وفي العمل التعاوني لا يهم من يقوم بالعمل بقدر ما يهم إنهاء أو إنجاز العمل نفسه، أما إذا كان العمل فيه ذاتية أكثر فإنّ كل فرد يهمه أن يقوم بعمله بنفسه.

وأداء الجماعة group performance أو إنجازها مبحث من المباحث الجديدة فرضته التطورات الصناعية والتكنولوجية الهائلة. وتدور معظم الدراسات الميدانية حول أسئلة بعينها، مثل الكيفية التي يمكن بها زيادة إنتاجية جماعات العمال، وتأثير وجود العامل أو الموظف في التجمعات العمالية الكبيرة، ومتى تكون للجماعات فاعلية تتجاوز حاصل جمع جهد الأفراد الداخلين فيها. وتتوجه البحوث في أداء الجماعة إلى دراسة الفوارق بين الجماعات في سرعة الأداء ونوعيته وكميته وفاعلية وحدات الإنتاج فيها. ويتركز إهتمام بعض الدراسات في سلوكيات الأفراد وإنتاجاتهم، أو تشابه هذه السلوكيات وتلك الإنتاجات مقارنة بسلوكياتهم وإنتاجياتهم عندما يعملون منفردين وليسوا كجماعة. ولقد تبين أنّ الجماعة عندما تجمع على إنجاز عمل من الأعمال فإنّ أفرادها يتولد لديهم الدافع لأن تحقق الجماعة هذا الهدف، فإذا قوطع مجهود الجماعة نشأ التوتر، غير انّ هذا التوتر لا ينشأ إذا كان توقف الجماعة صادراً بقرار منها، فإذا قررت الجماعة الاستمرار في العمل يخف التوتر. ويستشعر الفرد واجباً نحو الجماعة إذا كانت متعاونة - الجماعة المتعاونة co-operative g.، ويكون دافعه أقوى لإكمال العمل إذا كان هناك توزيع له يتفق مع قدرات كل فرد، وإذا نسقت القيادة بين مختلف المجهودات، وخلقت جواً من التفاؤل يكون فيه التفاهم أكبر بين الأفراد وتدور فيه المناقشات بحيث يكون لكل رأيه الحر، مع غلبة روح الود. وتزيد الإنتاجية للفرد في الجماعة المتعاونة عنها في الجماعة المتنافسة ..competitive g. والتنافس في الجماعة يخلق التصادم بين أفرادها ويشيع جواً معادياً، على عكس التعاون الذي يزيد من الدافع لتحقيق

هدف الجماعة، فإذا قل هذا الدافع فمعنى ذلك أنّ الإنتاج يقل، وأنّ الأفراد لا يشعرون بالرضا عن اتحادهم، ولا عن القرارات التي يتخذونها، ولا القيادات التي تتولى تنفيذها، وحينئذ قد يشتد الصراع بينهم.

والجماعة الاجتماعية social g. تتجاوز مجموع أفرادها، وللجماعة عقل وسلوك وروح ومعنويات ليست حاصل جمع أفرادها، بدليل أنّ ذلك كله يختلف عندما تكون الجماعة أفراداً بذواتهم وليسوا جماعة. ويقال في الاصطلاح إنّ الجماعة كل دينامي a dynamic whole، بمعنى أنها مجموع الأفراد بالإضافة إلى تفاعلاتهم وما تستحدثه التفاعلات من تغييرات في علاقات القوة بين الأعضاء. وديناميات الجماعة group dynamics من الموضوعات الهامة التي تعالجها مباحث علم النفس الاجتماعي، وعلم النفس الصناعي، والعلاج النفسي، وعلم النفس التربوي. والاسم من وضع عالم النفس الكبير كورت ليفين Lewin (١٩٣٦). ومن مظاهر دينامية الجماعة التفاعل الاجتماعي بين الأفراد، والتكامل الاجتماعي الذي أساسه التعاون والتضافر والتكامل، والتغير الاجتماعي. وتحاول نظريات ديناميات الجماعة تفسير التغييرات الاجتماعية أو المقاومة التي تلقاها، والتصدي للتأثيرات والضغوط الاجتماعية بالتحليل، وتفسير القهر الاجتماعي، والقوة والتماسك، والجاذبية والنفور، والتوازن والاستقلالية والاعتمادية، إلى غير ذلك مما له صلة بالجماعة ودينامياتها.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- K. Lewin: A Dynamic Theory of Personality.
- C. Homans: The Human Group.
- White and Lippit: Autocracy and Democracy.
- A. Hase: Handbook of Small Group Research.
- H. Hyman: Readings in Reference Group Theory and Research.
- Hare, A. P.: Handbook of Small Group Research.
- Cartwright, D. and Zander, A.: Group Dynamics.

❖ ❖ ❖

- ٤ -
سيكولوجية القيادة

صفات القائد أو الزعيم والنظريات في الزعامة. أنواع القيادات، ومتطلبات الزعامة فيها، ونوعيات الأداء. نظرية الرجل العظيم والأبطال المحوريين. رجل الدولة ورجل المشكلة. جماعة القيادة. سلطة الصفوة والقيادات المنتخبة والمعينة...

❖ ❖ ❖

القائد أو الزعيم leader فرد في الجماعة يؤثر في سلوكها، وله دوره المركزي فيها، باعتباره أقدر من يمثلها ويحرك فيها فاعليتها، ويبلور أهدافها، ويوجهها الوجهة التي بها تؤكد الجماعة ذاتيتها وتحافظ على كينونتها وتماسكها. ويستلزم وجود القائد أن يوجد له من يتابعه على رأيه ويشايعه في توجهاته، والتبعية followship هي المقابل للقيادة leadership، والأتباع followers بخلاف المرؤوسين. وتقوم الرئاسة headship على التعيين من السلطة، في حين أنّ الأصل في القيادة أنها بالاختيار أو الانتخاب الحر، وتقوم على مبدأ المشاركة في اتخاذ القرارات بين القائد وأتباعه، وعلى اقتناع الجميع بما يقررونه ورضاهم عنه، وعن فهم وبصيرة بأبعاده ومراميه، بينما يتخذ الرئيس قراراته بشكل فردي، وهي قرارات فوقية - أي صادرة منه أو من سلطة أعلى منه، وليس شرطاً لها أن يفهم المرؤوسون فلسفتها أو أهدافها.

والنظريات في القيادة كثيرة. وتتركز معظم البحوث في القائد ومواصفاته. وكانت الدراسات المتقدمة تولي جلّ عنايتها لشخصية القائد باعتباره المحرك الأول للجماعة. وما تزال البحوث الحالية توالي تجاربها على ما يمكن أن يتصف به القائد من صفات جسمية وعقلية وانفعالية واجتماعية، بالنسبة للمواقف التي يمكن أن تواجه الجماعة وتفرض عليها مهاماً تتطلب حلولاً تناسبها، فالقائد الذي يمكن أن تسعى إليه جماعة محاربة ينبغي أن يكون

بمواصفات معينة تجعله أقدر من غيره على القيام بأعباء الحرب ومسؤوليتها المادية والنفسية. والقائد في مجالات الفكر يتوجب أن يكون على مستوى عقلي ومعرفي بحيث قد يطبع هذا المجال أو ذاك بطابعه ويكون فيه الرائد لجماعته إن كان قصّاصاً، أو مصوراً، أو شاعراً، أو عالماً، أو منظراً. ولكن كان الذكاء شرطاً للقائد إلاّ أنّ ذكاءه لا ينبغي أن يكون بحيث يصنع هوة فكرية لا تجتاز بينه وبين الأتباع، فإذا كان قريباً منهم فكرياً وعقلياً ونفسياً فإنه يكون الأقدر على التواصل معهم والتحدث إليهم ومخاطبتهم باللغة التي يفهمونها. وهو في كل الأحوال الأكثر فهماً للأمور، وتقديراً وإدراكاً لمتطلبات المواقف والتنبؤ بالمستقبل. والقائد عموماً له سماته الانفعالية والعقلية والنفسية والاجتماعية التي تلفت إليه الأنظار وتجعله مدار حديث الاتباع. فمن الناحية الانفعالية مثلاً قد تكون القيادة عسكرية، فيستلزم أن يكون القائد على درجة عالية من النضج الانفعالي وقوة الإرادة وضبط النفس والثقة فيها. ومن الناحية الاجتماعية فإنه في القيادة السياسية مثلاً يكون القائد أكثر الجميع بذلاً من نفسه، وخاصة إذا كان القائد زعيماً لأمته كغاندي، فكان ينام ويستيقظ على قضية بلاده، لا يعرف لنفسه قضية غيرها، وبلاده كانت عنده هي الزوج والولد والأهل، ومركز تفكيره ومشاعره كلها. والقائد هو دائماً الأقدر على تمثل قيم جماعته والتمسك بها، ومراعاة مشاعر أعضاء جماعته وجمعهم حوله متحدين، ورفع معنوياتهم وكسب ثقتهم وإذكاء ثقتهم في أنفسهم، ببساطته وتواضعه وحكمته وانبساطيته وجو المرح surgency والتفاؤل من حوله، والتزامه بعادات شخصية يؤثر عنه ويكون بها قدوة يحتذى. ويبدو أنّ المهمة task هي التي تختار القائد وليس القائد هو الذي يختار المهمة، فإذا توافرت في القائد مقتضيات المهمة كان لها، ففي جماعة النقاش مثلاً يقتضي الأمر أن يكون قائدها على درجة عالية من سعة الأفق والمرونة، وفي جماعة البحوث يبدو أنّ أفضل ما ينبغي أن يتحلى به قائدها أن يكون حلالاً للمشاكل. ويشترط بعض

العلماء شروطاً للقيادة أعم من ذلك، كأن يكون القائد على مستوى عالٍ من قوة الأنا، ومن تكامل الشخصية أو قوة الأنا الأعلى، متحرراً من كل ألوان القلق والتوترات العصبية، ميالاً إلى تأكيد ذاته وقادراً على المبادأة الاجتماعية.

وترتبط بنظرية الشخصية في القيادة نظرية الرجل العظيم great-man theory، وتقوم على افتراض أنّ التاريخ من صنع الأفراد، وأنّ «الفرد وليس الفكرة هو الذي يدفع حركة التاريخ»، وأنّ من الناس من تكون لهم مواصفات شخصية غير عادية تجعلهم الأقدر على تحمل التبعات غير العادية في مراحل إستثنائية من تواريخ جماعاتهم، ويطلق عليهم لذلك «المحوريون axle men»، أي الذي بهم يتحول المسار التاريخي. ولأنّ هؤلاء الناس أبطال قوميون فإنّ بعض العلماء يسمي النظرية باسم نظرية البطل القومي national-hero theory، ولعل سعد زغلول وجمال عبد الناصر من هؤلاء، ويوصف البطل القومي بأنه رجل سياسة تتمثل فيه «إرادة الأمة»، وتتأكد به شخصيتها وتوجهها الذي فيه تحقيق مصالحها العليا. ولربما يتمثل جهد الرجل العظيم أو البطل القومي فيما يبني من مؤسسات تنتظم بها أمور الجماعة، وقد نطلق عليه إسم رجل الدولة statesman، أو قد نقول إنه رجل المؤسسات institutional statesman ، أو الباني للنظام system builder، وهي مصطلحات جديدة جرت على الألسنة مع قيام علوم للإدارة والسياسة والحكم، تعالج القيادة باعتبارها وظيفة إجتماعية أو عسكرية يمكن تعلمها والتدريب عليها، والفرق بين القائد الموهوب gifted leader والقائد المحنك experienced l. هو فرق في التعليم والدراية، إلاّ أنّ الشخصية شرط في الحالتين، فالقيادة لها مؤهلات خاصة ومواصفات في الشخصية تؤهل صاحبها لتلقي العلم القيادي وممارسته وإتقانه. وليس أكثر من الحاجة إلى علم النفس بالنسبة للقائد، وهو العلم الأساسي في تصميم برامج تدريب القيادات بطريقة القيام بالأدوار role playing وتمثلها، والاضطلاع بدقائقها، وما تستلزمه من حيث التخطيط للأهداف، وبلورة فلسفاتها العامة التي

تقوم عليها، والسياسات التنفيذية لتحقيقها. والقيام بالدور يفترض أن المتدرب في موقف، و«كأنه» يواجه مهمة، وتتميز القيادة بأنّ ما يدفع إليها وجود مواقف مشكلة. والقيادة ركناها القائد والأتباع، وتنهض على ركيزتين هما الموقف the situation والمهمة task التي يفترضها الموقف. وبعض النظريات في القيادة تولي المواقف والمهام عناية أكبر. وللموقف ما يستتبعه من قيم واتجاهات تكون مدار النشاط الموكول بالمهمة، ومن ثم تضيف طبيعة المواقف والمهام إلى الدوافع الكثيرة والمتشابكة التي ترتبط بوظيفة القيادة، والتي تجعل لها دوراً متميزاً يتفاعل به القائد مع أتباعه فيتعين بهم، ويحس أحاسيسهم، ويتطبع بمعاييرهم، ويشاركهم هذه المواقف إلاّ أنّ مشاركته لهم عن وعي أكثر بمشاكلهم، ورغبة أكثر لأن يكون «رجل المشكلة the problem man»، وأن يأخذ بزمام جماعته إلى حلها. والقائد شديد الطموح وبه مثابرة عجيبة. والسلوك القيادي leading behavior سلوك متميز، والبعض يشترط للقائد جاذبية فطرية charisma فيه، وهذه هي القيادة الكاريزمية charismatic l.، باعتبار القائد شخصية موهوبة لها المقدرة على جمع شمل الأتباع، وأن يحلقهم حوله من أجل جماعته. والقائد لكل الأسباب السابقة لا يمكن إلاّ أن يكون إنساناً متميزاً حقاً، وأن تتخذه جماعته رمزاً لها وتنشد فيه صورة للأب father image، ولعله لهذا كثيراً ما يطلق على القائد إسم الأب والوالد، وكان السادات يحاول أن يصطنع لنفسه هذا الدور، وأن يكون النموذج الذي يتعين به الجميع.

ولأنّ المواقف تتغير فإنّ مهام القيادة ووظائفها تتخالف، والقائد الذي يصلح لمهمة قد لا يصلح لأخرى. وقد تكون للجماعة أكثر من قيادة، ويقوم مبدأ فصل السلطات على تعدد القيادات، وجماعية القيادة، والقيادة الموزعة distributed leadership، ومبدأ القيادة كوظيفة إجتماعية leadership as group function، بافتراض أنّ التفاعل الاجتماعي عملية مشاركة بين أعضاء الجماعة، فإذا كان القائد هو أهم الأعضاء فليس معنى ذلك أنّ بقية

الأعضاء لا أهمية لهم. ويذهب البعض لهذا السبب إلى القول بنظرية تكامل وتفاعل كل متغيرات القيادة، وهي القائد والأتباع والجماعة والمواقف والمهام، فالعلاقة بين القائد والأتباع بمقتضى ما سبق علاقة تبادل وتواصل ومشاركة، فلا وجود للقائد بدون الأتباع، كما أنّ الأتباع لا بد لهم من قيادة. ويتشارك الاثنان في المسؤوليات والواجبات والمكافآت وتتوزع بينهم، والسلطة لذلك لا مركزية، ومصادرها ديموقراطية، وتوصف أحياناً القيادة فيها بأنها قيادة إشتراكية أو إجتماعية .social l، وأحياناً توصف بأنها قيادة ديموقراطية .democratic l، والأولى تقوم على توزيع المسؤوليات وإشراك المرؤوسين في اتخاذ القرارات وتحديد الأهداف، والتقليل من دور السلطة المركزية، وتحويل العمل من عمل متمركز حول الفرد إلى عمل متمركز حول الجماعة. وعكس هذا النوع من القيادة هو القيادة المستبدة authoritative or autocratic leadership التي مناطها القسر لا الإقناع، والإملاء وليس الحوار، والسلطة الفردية وليس السلطة الجماعية، وإطلاق سلطة القائد وليس تحديدها أو دسترتها. والقيادة المستبدة أحياناً لازمة في الجيوش وقت الحروب، وفي الدول التي تمر بأزمات قومية يتهددها الانفصال والانحلال والتفسخ والاستعمار. وكثير من المؤسسات الصناعية القيادة فيها أوتوقراطية، وكذلك الكثير من العائلات وعصابات الجانحين. وربما كان شيوع هذا النوع هو سبب اهتمام المصلحين بأمره وعلماء النفس الاجتماعي بخاصة.

وترتبط القيادة الصحيحة genuine leadership بالديموقراطية إرتباطاً جذرياً، والركن الركين للقيادة أو الزعامة هو قيامها على اختيار القائد أو الزعيم إختياراً حراً، إلاّ أنّ الأوضاع العالمية وتوترات الأزمات والتهديد بالحروب وضخامة حجم الجماعات يجعل من العسير الأخذ بالديموقراطية دائماً، وحتى في أعتى الجماعات أخذاً بالديموقراطية فإنها تميل مع التطبيق إلى أن تحصر القيادة في نخبة أو صفوة، وهناك من الشواهد في الدول

الكبرى وخاصة في الولايات المتحدة ما يجعل الكثير من علمائها يجنحون إلى القول بأنّ القيادة فيها للصفوة، وأنها قيادة أوليجاركية oligarchic leadership، وحتى القادة أنفسهم الداعون إلى الديمقراطية فإنهم بمجرد أن يمارسوا السلطة يحتمون بها وينقلبون من دعاة الديمقراطية بالأمس إلى طغاة اليوم. وسلطة الصفوة elite power هي السلطة السائدة في العالم المتقدم. ويبدو أنّ ذلك من عيوب السلطة عموماً. والدارس لتاريخ القيادات المثالية والديمقراطية يدهش لتحولها هذا التحول إلى الأوليجاركية، وربما يساعدها على ذلك نكوص الجماهير عن المشاركة في القيادة وميلهم إلى تسليم السلطة للقوى وان لا يتحملوا المسؤولية. ناهيك عن انّ الديمقراطية يشق فيها أن يرصد كل رأي لأفراد الجماعة، فضلاً عن أنّ القيادات تفرزها مستويات خاصة إجتماعياً وثقافياً تمايزها كصفوة عن العامة. ويباعد المركز الاجتماعي بين القائد والأتباع، فيتوقف عن الإحساس بنبض جماعته، وبعد أن بدأ باعتباره ضمير الجماعة، فإنه ينتهي رئيساً للجماعة تستغرقه إمتيازات الرئاسة، ويجهد أن يدافع عن منصبه وإن لم يعد مثل جماعته. والكثير من القيادات الاجتماعية تتحول إلى الأسلوب البورجوازي بعد أن تتولى القيادة وتصبح قيادة متسلطة وفردية.

وتؤثّر القيادة واختيارها في أداء الجماعة، ويرتبط الأداء بنوعية القيادة، وأفضل أداء هو ما يكون في ظل «القيادة المختارة the chosen l.»، أي التي يختارها الأتباع بحسب المواصفات التي تجعل من القائد الأقدر على الاضطلاع بمهام القيادة. والقيادة المنتخبة هي القيادة التي يختار فيها الأتباع قوادهم بالانتخاب. وليس من شك أنّ القيادة الفوضوية يسوء فيها الأداء، إلاّ أنه ليس أسوأ من الأداء في ظل القيادة المعينة، فليس غريباً أن يسوء الحكم في بلادنا ويفسد لقيامه على التعيين في المناصب القيادية في الدولة.

❖ ❖ ❖

مراجع:
- Sherif, M.: Intergroup Relations and Leadership.
- Mills, C.: The Power Elite.
- Gibb, C.: The Principles and Traits of Leadership.
- Bass, B.: Leadership, Psychology and Organizational Behavior.
- Tannenbaum and Massark: The Personality of the Follower.
- Borgatta, E.: Great Man Theory of Leadership.
- Browne, C.: The Study of Leadership.
- Cattel, R.: Four Formulae for Selecting Leaders on the Basis of Personality.
- Petrullo, L.: Leadership and Interpersonal Behavior.

❖ ❖ ❖

– ٥ –

سيكولوجية الإشاعة

أنواع الإشاعات. مصنع الإشاعة ومروجها. الإشاعة المضادة وحرب الإشاعات. زرع الإشاعة وافتحاشها. عيادات الإشاعة. أنصاف المثقفين والإشاعة...

❖ ❖ ❖

الإشاعة rumour – كأي سلوك تعبيري إنساني – لها جانبها الاجتماعي وجانبها النفسي، سواء كانت مجرد تقولات يتناقلها الناس بشكل عادي، أو كانت تخرسات عنيفة تؤلب المجتمعات والفئات والطبقات، وقد يقتصر تناقلها على بضعة أفراد، وقد تسري بين المئات، وقد تتناول موضوعات لا تنفك تعاود الظهور على فترات، وقد يكون انتشارها لبعض الوقت ثم تخمد بعده، وقد يكون الموضوع الذي تتعرض له من الأهمية بالنسبة للمجتمع بحيث تدخل الإشاعة في نسيج الثقافة وتبقى للأبد كأسطورة. والكثير من الأساطير حول معجزات الأفراد وما شابهها كان في أصله إشاعات، ثم جمدت على شكلها واستحالت جزءاً من التراث الشعبي الشفوي، ولذلك فقد يطلق على الأسطورة من زاوية دراستها كإشاعة إسم الإشاعة الجامدة solidified r. والإشاعة عموماً بما أنها كذلك لا بد أن تكون لها أهمية عند من يتناقلونها، وتقوم أهميتها على أهمية الموضوع أو القضية التي تتناولها، ولا تروج الإشاعة إلاّ لأنها تجلو غامضاً، أو تفسر أمراً قد غمض

على الناس المعنيين بها وحاروا في تفسيره. والأهمية importance والغموض ambiguity، هما الشرطان اللذان لا بد من توافرهما لتقوم الإشاعة، وإلا كان ما يتداوله الناس خبراً عادياً، وأما الإشاعة فالمعادلة التي تعكسها مؤداها أنه بمقدار «أهمية» موضوعها عند بعض الناس، ومقدار «غموض» هذا الموضوع، يكون رواج الإشاعة وانتشارها، فالمواطن العربي المسلم مثلاً لن يهتم بإشاعة حول أسعار لحم الخنزير لأنه لا يأكل هذا اللحم، وبالمثل فإنه لو توافرت لديه كل المعلومات المؤكدة عن موضوع معين فلن يصغي لإشاعة حول هذا الموضوع لعدم غموضه بالنسبة له. ولعله لهذا السبب وطبقاً للمعادلة أو القانون السابق الذي قال به العالمان جوردون أولبورت Allport وليو بوستمان Postman (١٩٤٧) فإنّ الإشاعة تروج بشدة وقت الأزمات وفي زمن الحروب، لانّ الأحداث فيها على درجة كبيرة من الأهمية، فضلاً عما تحاط به من سرية، وما يكون عليه الناس من ترقب وقلق وخوف. وجراثيم الإشاعة r. germs تبقى حية دائماً في الكيان الاجتماعي، أي أنّ المجتمع في حالة تهيؤ مستمر لسريان الإشاعة فيه، وإنما تتحرك الإشاعة فيه وقت السلم حركة بطيئة، وعلى صورة غير سامة، وأما في الأزمات ووقت الحرب فإنّ الإشاعة تتفجر ويتداعى لها الكيان الاجتماعي بالحمى. وتوصف الإشاعة وقت الأزمات بأنها إشاعة سامة venomus r.، أو إشاعة هدامة damaging r.. وتخرج الإشاعة والكيان العضوي للمجتمع أقل ما يمكن قدرة على احتمال تأثيراتها الضارة. فالحروب والكوارث والأوبئة والأزمات مدمرة بذاتها، ويتضاعف تدميرها عندما تنضاف مضاعفات الإشاعة إليها. وهناك صلة وثيقة بين الإشاعة وحركات الشغب riots، وما من حركة شغب قامت إلاّ وسبقتها إشاعات مقدمة للشغب pre-riot rs.. وتستثير العنف وتصاحبه وتغذيه. وتلعب الصحافة والإذاعة المسموعة والمرئية دوراً خطيراً في الترويج للإشاعة وفي استنباتها planting a r.، وكان هتلر يعتمد على الإذاعة خصوصاً في نشر الإشاعة والرد عليها. وبعض الصحف وخصوصاً الحزبية تختلق

عناوين مثيرة لا تبررها الموضوعات التي تتناولها. وبعض العناوين هو إشاعة تصوغها رئاسة التحرير بالطريقة التي تيسر سريانها. وكلما كانت الإشاعة موجزة ومقتضبة قلَّت فرص تحريفها أثناء تداولها، ومن شأن العناوين الموجزة أن يتناقلها الناس بسرعة. وتكشف العناوين عن تحيز الجريدة. ويصدق الشيء نفسه على الأخبار من حيث عملية عرضها إنتقائياً. وتثبت الدراسة على الأخبار الصحفية أو الإذاعية أنّ الجمهور يتناقل الخبر أو القصة الإخبارية من الزاوية نفسها التي تعرضها بها الجريدة أو الإذاعة، ويزيدها إبرازاً بتأويلاته. وتمهر الصحافة المنحازة في إيراد ما تشاء من زاوية رؤياها في أول المقال أو الخبر، وتترك الرأي الآخر لتعرضه في النهاية وبشكل سريع، بحيث لا يعلق بذهن القارئ أو ذاكرة المستمع. وعموماً فإنّ الصحافة لا يمكن فيها أن يعرض الرأي محايداً، وما يقال له التسوية leveling، أو الحذف omission، أو اللوي distortion للأخبار، عملية عادية في الكتابة الصحفية.

وهناك دائماً فرق بين الخبر والإشاعة، فالخبر news في صورته المثالية يتميز بمسايرته للمعايير الصادقة، وأما الإشاعة فمن دأبها أنها تفتقد هذه المسايرة. والإشاعة دائماً قضية ليس من السهل تكذيبها أو تصديقها، وبعض الناس ليست لديهم المناعة r. immunity ضد الإشاعة، ويتميزون بالقابلية للتصديق بدون تحميص unthinking acceptance لكل ما يكتب في الجريدة أو يقال في الراديو، والبعض يتشكك دائماً في كل ما يكتب في الجرائد، ولا يصدقون كل ما يقال عن طريق الإذاعة، والكثير مما ينشر هنا وهناك يتعامل مع الناس على أنه مجرد دعاية propaganda. والتنبه للإشاعة r. consciousness مثل التنبه للدعاية، يجعل القراء والمستمعين أقل تصديقاً لما يكتب أو يقال، غير أنّ الملاحظ في الدول النامية بالذات، ونتيجة لانتشار الأمية، وضحالة الثقافة، أنّ الناس لا يكونون متنبهين للإشاعة، حتى أنّ الصحافة قد تسبق الخبر بعنونته «يشاع أن»، وهو عنوان تحذيري كما نرى، إلاّ أنّ الناس أيضاً يتقبلون ما يشاع،

وبعبارة أخرى فإنّ الإشاعة المعَنْونة labeled r. تشبه في فاعليتها الإشاعة غير المعنونة، وأنّ عنونة الخبر بأنه إشاعة لا يقلل من فرص تصديقه، وأنّ محاربة الإشاعة بعنونتها على أنها إشاعة - لا تجدي، ومن ثم كان الأولى بمحاربة الإشاعة دحضها بالمنطق والوقائع وليس مجرد عنونتها. ويبدو أنّ الإشاعة عبر التاريخ كانت الشغل الشاغل للحكومات والمجتمعات لهذا السبب. ويروى أنّ جيوش التتار كانت تعتمد في انتصاراتها على الإشاعات تسبقها عن طريق التجار إلى البلاد التي يريدون غزوها. وكان الرومان يحذرون الإشاعات ويقيمون لها ما نسميه حتى الآن حراس الإشاعات r. warden للتنصُّت عليها وجمعها والإبلاغ عنها، وهم أنفسهم البصاصون voyeurs الذين تحكي عنهم المراجع العربية، ومراسلو الإشاعات r. reporters بلغة أهل العلم حديثاً، ويناط بهم مخالطة الأهالي وإيصال الإشاعات إلى ما يسمى لجان الإشاعات r. boards التي مهمتها التصدي لها. ومن رأي البعض أنّ قصة حرق العرب لمكتبة الإسكندرية إشاعة تاريخية، وأنّ حرق نيرون لروما (سنة ٦٤م) وعزفه على قيثارته وهو يلتهي بمشاهدة إحتراقها إشاعة أخرى إلتصقت باسم نيرون Neron (٣٧-٦٨م). ومن ميكانيزمات الإشاعة أنّ قصتها تختزل وتتكثف حتى ليمكن أن تستحيل مجرد عنوان في جريدة أو مثلاً يضرب، له دلالته المجازية. وإذا كان المسيحيون الأوائل قد أطلقوا هذه الإشاعة على نيرون كما أطلقوا إشاعة حرق العرب لمكتبة الإسكندرية، فإنّ نيرون نفسه أطلق إشاعة مضادة anti-r.، بأن نسب الحريق للمسيحيين، كما نسب العرب الحريق للرومان. والإشاعة هي أيضاً التي أوردت سقراط Socrates (٤٧٠-٣٩٩ ق.م.) موارد التهلكة، فلولا أنّ أعداءه أشاعوا عنه إفساده للشباب ما حكم عليه القضاة بالموت بتجرع السم. وفي كل إشاعة لا بد من قدر من الواقع إلاّ أنّ الذي يصوغ الإشاعة تنصب مهارته في أن يجعلها كل الواقع. وفي الحروب النفسية psychological warfares، أو ما يسمى حرب الدعاية، أو الحرب العصبية، أو حرب الإذاعات، أو حرب

الكلمة، أو الحرب الإيديولوجية، يعتمد صناع الإشاعة على جمع القصص التي تقوم على بعض الحقائق أو الوقائع، ويصوغون منها إشاعات تتخصص في صياغتها لجان يطلق عليها مصنع الإشاعة r. factory. وتقوم صياغة الإشاعة على دعاوى القائمين عليها بأنها بيانات إعلامية، وتلك مغالطة تغفل الجانب الإسقاطي في الإشاعة، من حيث أنها تعبر عن الأحوال العقلية والانفعالية لقائليها. والمشكلة أنّ البعض ممن ليس لديهم وعي إشاعي قد يقبل الإشاعة على ما قصد إليه قائلها، باعتبارها نقلاً للواقع، ومن ثم كانت أهمية الدفاع ضد الإشاعة ومقاومتها، وهو أمر تتفرغ له عيادات يقال لها عيادات الإشاعة r. clinics، مهمتها تحليل الإشاعات وتصنيفها، ونشر الأخبار الصحيحة عنها من مصادرها الموثوقة، ودراسة دوافع وأسباب افتحاشها r. mongering ، أي تداولها المبتذل. وتشبع الإشاعة عدداً من الدوافع النفسية، فهي أولاً متنفس عن التوترات الانفعالية بإفراغها لفظياً، وهي ثانياً تبرير لما نشعر به إنفعالياً. فتعطينا سبباً له، فإشاعة نطلقها مثلاً عن الإنجليز وبرودهم قد تكون بعد تحليلها تعبيراً عما نشعر به من كراهية وعداء للإنجليز نتيجة استعمارهم لنا، وقد تفسر لنا أمام أنفسنا وأمام الغير أسباب هذه الكراهية والعداء، فكأنّ الإشاعة إلى جانب التفريغ الانفعالي emotional release تضفي معقولية على الموقف، فضلاً عن أنّ الكثير من الإشاعات يقوم على ميكانيزم الإسقاط projection، فمثلاً تروج عند العرب النكت التي موضوعها أهل الصعيد من مصر، وهي من ضروب الإشاعات التي تستخدم الإسقاط الذي يقال له الإسقاط المتمم complementary projection، بأن أتلمس في تنكيت المصريين أنفسهم على أهل الصعيد سبباً لكراهيتي لأهل مصر كلها الذين منهم أهل الصعيد، وذلك بخلاف الإسقاط المباشر direct projection الذي أنسب فيه ما بنفسي إلى غيري، فإن كنت أكره اليهود فإني أشيع مثلاً عن اليهود كراهيتهم للعرب. والإشاعات التي على شكل نكت أو التي تتذرع بالفكاهة لا تستهدف الإثارة ولكنها تستهدف

الضحك، إلاّ أنها مع ذلك تعبر عن الكراهية، والكراهية التي تعبر عنها النكت على أهل الصعيد أو على أي شعب أو فئة هي كراهية أجناسية racial hatred. وربما تكون هذه النكت سياسية وبها الكثير من النقد، وتعبر عن العداء أو تنفس عن مشاعر إنفعالية مقموعة. وتصنف الكثير من النكت السياسية باعتبارها «نكت اتجاه attitude jokes»، أي تعبر عن اتجاه قائليها، فبدلاً من أن يقول شخص أنه يكره عبد الناصر فإنه قد يروي نكتة عنه، ومع ذلك فقد يروي آخرون النكتة عنه دون أن يكون لديهم على المستوى الشعوري أو حتى اللاشعوري الكراهية نفسها لعبد الناصر. والكثير من النكت التي مناطها تحقير حزب أو جماعة أو شعب قد تثبت وتستمر كإشاعة بسبب قيمتها التنفيسية.

ودراسة الإشاعة قد يقتضي زرع الإشاعة planting r. عن عمد، ومتابعة سريانها عبر سلسلة انتقالها، وتحليل عملية الانتقال، والسياقات العقلية لكل عميل للإشاعة agent r. وتختلف الإشاعة التي نزرعها في التربة الاجتماعية المحيطة عن الإشاعة المعملية lab r. التي تقتصر على دراسة ظروف انتشار الإشاعة داخل المعمل النفسي psychological lab. وتسري الإشاعة اجتماعياً بسرعة وخاصة في أوقات التوقعات العصيبة. وبعض الإشاعات نسميها لذلك إشاعات جامحة impetuous rs.، ويزيد اندفاعها كلما زادت التوقعات واقترب الناس أكثر من بؤرة الجذب في التقولات، فمثلاً إشاعات حلول السلام final-peace rs. تروج أكثر مع قرب انتهاء الحرب. ولقد شهدت الساحتان العراقية والإيرانية طوفاناً من الإشاعات من هذا النوع عندما ألقى الخوميني بيانه المشهور عن رغبة إيران في وقف الحرب. ويطلق على الإشاعات التي يلهبها الاقتراب من الهدف إسم الإشاعات التوقعية anticipatory rs.، وعلى عكس ذلك في تجارب المعمل النفسي، فنحن نصطنع تسلسل إنتقال الإشاعة ونضحي بالتلقائية التي للموقف الإشاعي الطبيعي، وبدلاً من أن تكون هناك دوافع عميقة لانتشار الإشاعة فإنّ الإشاعة المعملية laboratory r. تعتمد على

استعداد الشخص للتعاون مع المجرب، وليس من الممكن سبر مشاعر العداء والكراهية والخوف إلاّ في أضيق الحدود، ويتعذر التماس تأثير العلاقة الشخصية المميزة لانتشار الإشاعة والتي تكون بين الراوي والسامع، كما أنّ التحريف الذي يطرأ على الإشاعة في انتقالها طبيعياً يحذره الرواة في المعمل، فضلاً عن محدودية نوع الإشاعة التي يمكن التجريب عليها معلمياً. وتُثبت الدراسات المختلفة أنّ الأشخاص الذين يروجون للإشاعة يزيد تحفظهم إذا استشعروا أنهم تحت الملاحظة.

٢. وتتسم روايات مروجي الإشاعة spreaders بالإيجاز conciseness الشديد إذا واجهوا بإشاعاتهم جمهوراً كبيراً، بعكس ما قد يلجأون إليه من الإفاضة إذا كانت رواياتهم لأفراد. والإيجاز من الصفات التي تكتسبها الإشاعة في تناقلها، وكلما زاد تناقلها كلما مالت إلى أن تصبح أكثر قصراً وإحكاماً وسهولة في الفهم والإلقاء، وكلما قلَّ عدد ألفاظها وتفاصيلها، حتى أنه تبين أنّ ٧٠٪ من التفاصيل تسقط خلال تداولها لخمس او ست مرات من شخص إلى شخص وإن لم يكن هناك فاصل زمني بين كل رواية، كما أنّ هذا السقوط أكبر ما يمكن في التناقلات الأولى. ويسمي علماء النفس هذا الميكانيزم الذي مضمونه الحذف باسم التسوية leveling أي تسطيح الرواية، ولا يعني الحذف للتفاصيل أنه حذف يتم عشوائياً، فبعض التفاصيل يكون أكثر تعرضاً للحذف من غيره، ومن ذلك أسماء الأعلام والألقاب والأماكن، وخاصة إذا لم تكن معروفة وليست لها أية دلالة أو أهمية في نظر الراوي ولا تساعده على متابعة المعنى. وأما إذا كانت هناك اهتمامات بالأسماء فإنها تحفظ عبر سلسلة الانتقالات. ونلاحظ في التسوية أنّ العبارات القصيرة يغلب استعادتها بأمانة، وخاصة إذا لم يكن هناك إلاّ أقل التفاصيل التي يمكن أن تستوعبها الذاكرة حرفياً وتقل إزاءها الفرصة أمام عملية الانتقاء والتحريف. وعندما لا تكون للشخص دوافع قوية للتحريف، وليس له من هدف من نقل الإشاعة سوى مجرد الرغبة في الثرثرة، فإنّ خموله النفسي يجعله يبتعد عن التحريف، ومن ثم ينقل

الرواية عن صورة قريبة من التي سمعها. وكذلك عندما تصبح الإشاعة من الاقتضاب حتى لتشبه الشعارات mottoes، فلا يقتضي الأمر بذل جهد في حفظها على صورتها الحرفية التي سمعها بها.

والميكانيزم الثاني الذي يعمل عمله في تحريف الإشاعة عند تناقلها هو ميكانيزم الإبراز sharpening، ويعني أنّ الراوي في فهمه للإشاعة يفهمها على صورة معينة، ويدرك منها معنى معيناً وبتفاصيل معينة، ومن ثم فإنه عندما يرويها يحب أن يوضح هذا المعنى وينبه إلى تلك التفاصيل، فتكون روايته لذلك بشكل معين. والإبراز هو الوجه المكمل للتسوية، فما يتم تسويته أو حذفه إنما يحدث لكي نبرز عليه أشياء أخرى. ومن الممكن أن يأتي الإبراز على شكل تكرار للأسماء والأماكن، أو بردّ الواقعة في الزمن الحاضر، أو بالتأكيد على عناصر الحركة في الشائعة، أو بالتهويل في الأحجام للفت النظر إليها. وتستأثر بالانتباه الرموز المألوفة كالجامع، أو المدرسة، أو الجيش، أو الشرطة.

والإغلاق closure من صور الإبراز، حيث نميل عند نقل الرواية إلى أن نكمل ما ننساه أو نخطئ فيه. ويخدم الإغلاق الميكانيزم الثالث من ميكانيزمات تحريف الإشاعة وهو المسمى التمثل assimilation، فما نسمعه من إشاعات نفهمه في إطار ثقافتنا وما تعارفنا عليه إجتماعياً، ونميل عند تذكره أو روايته من جديد إلى أن نحرف فيه تبعاً لتمثلنا له، بحيث نجعله أكثر معقولية بالنسبة لها، وبحيث تبدو روايته أكثر تماسكاً، وقد نضيف على التفاصيل، وقد يكون من تمثلنا لها أن نختزل التفاصيل ونكثفها، ويساعدنا على ذلك أن تكون هناك متشابهات نضمها معاً ونسقط ما دون ذلك. وقد يكون استيعابنا وتمثلنا للإشاعة بقدر ما نعرف من وظائف لما فيها من أشياء، فسيارة إسعاف مثلاً في الإشاعة قد تجعلنا نضيف أنه كان بها عدد من المصابين، وأحياناً ما تكون الإضافة لوجود ترابطات لغوية تستدعي بعضها البعض.

وهناك أنماط ثقافية جامدة وشائعة تعمل عملها في التحريف، فالإشاعة التي

تتناول مثلاً حادثة إغتصاب إذا رددها الرجال فقد يجعلون السبب في الاغتصاب غواية المرأة، وإذا رددها النساء فقد ينسبن الاغتصاب لعنف الرجل وبهيميته، وإذا كانت هذه الإشاعة في الأوساط الراقية فإنّ المغتصب يجعلونه عاملاً أو فلاحاً، وعلى العكس فإنّ الطبقات الكادحة قد تنسب الاغتصاب لصاحب العمل أو الرجل الموسر.

وتميل الإشاعة دائماً إلى التلاؤم مع الاهتمامات المهنية، أو الطبقية، أو الأجناسية، والأحكام القبلية عند الشخص الراوي لها، إلاّ أنه رغم التحريف فيها بالتسوية والإبراز والتمثل، فإنّ الموضوع الرئيسي لها يظل أقل عناصرها تعرضاً للتغيير، فإشاعة الاغتصاب تظل كما هي عن الاغتصاب، حتى مع تغيير أو استبدال بطل الإشاعة protagonist. وتثبت أغلب الدراسات على الإشاعة أنه من النادر البناء على الموضوع الرئيسي بإضافة أشياء مختلفة، فالإشاعة تميل مع تكرار ترديدها إلى أن تكون أصغر فأصغر لا أكبر فأكبر.. وإذا كانت هناك إضافات مختلفة فذلك من تأثير السعي لأن يكون لقصة الإشاعة معنى، وهو ما ذكرنا أنه من تأثير ميكانيزم الإغلاق.

وأحياناً يصدر التحريف بالاختلاف من جراء إساءة فهم ألفاظ الإشاعة، فما لا ندركه من كلمات قد نحرفه بقدر ما تسعفنا معلوماتنا اللغوية التي تقرب في مبناها أو معناها من الألفاظ التي ننساها أو نعجز عن تذكرها أو إدراكها. وتختلف رواية الأطفال للإشاعة عن رواية الكبار بحسب سن الطفل. وتتزايد الإضافات أو الاختلافات بصورة مطردة مع زيادة العمر. ويعتمد الأطفال الصغار في تناقلهم للإشاعة على إعادة الرواية، وفي سن الثانية عشرة وليس قبل ذلك يلجأون إلى التأليفات التأويلية. ويقل عند الأطفال تأثير الانحيازات الطبقية أو المهنية أو الأجناسية على التحريف.

وهذا التمثل أو المواءمة بين الإشاعة والثقافة يجعل من الإشاعة عملاً يتسم بالذاتية، فالراوي أو الناقل يشرب الإشاعة من ذاتيته بتأويلاته الباطنية، وتمثله لها عبر ثقافته وانحيازاته، وأخيراً

يسقطها إلى الخارج عملاً من ابتكاره، كالفنان الذي يجري فرشاته على الموضوع تسويةً وحذفاً وإبرازاً. والإشاعة من هذه الوجهة «عمل فني»، إلاّ أنه «عمل ساذج»، فإنّ ما نسمعه أو نراه تجري عليه الذاكرة عملية إقتصادية تُبسِّطه بها، وتجعل له دلالة ترضينا عقلياً، ومعنى يساير تأويلاتنا للطبيعة والسلوك البشري. وما نسميه مبالغة في الإشاعة إنما نقصد به الإبراز. والاختلاق في الإشاعة يطورها شكلاً ولكنه لا يتناول الجوهر فيها، بل إنه ليخدم هذا الجوهر ويزيده وضوحاً.

وتصنف الإشاعات إما بحسب موضوعاتها، أو سرعتها في التداول، أو الدوافع وراء سريانها، أو الآثار الاجتماعية المترتبة عليها. وهناك مثلاً الإشاعة الحابية creeping r.، تتنامى ببطء وتتسع دائرة انتشارها في سرية، ومنها إشاعات كاسندرا Cassandra rs.، وكانت لكساندرا في الأسطورة القدرة على التنبؤ بالشر قبل وقوعه، إلاّ أنه كان مقدوراً عليها ألا يصدقها قومها. وتعني إشاعات كاسندرا إنها إشاعات منذرة بالشر وتحذيرية، وتقع فعلاً.

وهناك الإشاعة المندفعة impetuous r.؛ والإشاعة الملتهبة inflammatory r. لأنّ من صفاتها أنها سريعة الانتشار كانتشار النار في الهشيم؛ وإشاعات العنف atrocity rs. ومحتواها الشغب؛ والإشاعات المروعة أو الغولية bogy rs. ومدارها الكوارث والفيضانات والنكبات؛ والإشاعات الوبيلة deleterious rs. لها نتائج وبيلة أو وخيمة؛ والإشاعات المفرقة dividing rs. تتابع ستراتيجية فرّق تسد divide and conquer؛ والإشاعات الغاطسة diving rs. تطفو لبعض الوقت ثم تغطس، أي تختفي لتعاود الطفو أو الظهور عندما تستحضر ظروف مشابهة.

والغالب أنّ الإشاعة خليط من الدوافع والانفعالات والأسباب حتى ليشق على المحلل أن يصنفها تصنيفاً دقيقاً ما لم يلمّ بدوافع الراوي للإشاعة. وترتبط كل إشاعة بالشخص الذي يتناقلها. وأشخاص الإشاعة أو جمهورها هو الذي يتقبلها ويكون متهيئاً لاستقبالها وتداولها، وبعض الناس لديهم مناعة immunity against rs. ضد الإشاعة، والبعض لديه

استعداد لتقبل الإشاعة بدون تحميص، والبعض قد يكون لديه هذا الاستعداد لنوع دون نوع آخر، وكل إشاعة لها جمهورها، وحتى عندما يتوفر الشرطان اللازمان لانتشار الإشاعة وهي «الأهمية والغموض» فليس كل شخص مؤهلاً لكي يصبح حلقة ضمن سلسلة الإشاعة، إلاّ إذا كان بشكل عام من النمط الاستهوائي suggestible type الذي تستميله الإشاعة ويصادق عليها بدون قصد، وهو نمط أنصاف المثقفين quasi-cultured type الذين تحكمهم إتجاهات جامدة وأحكام قبلية نمطية.

والإشاعة كالدعاية تنشطها وتدعمّها الاتجاهات الموجودة في المجتمع وعند السامعين والناقلين، بالإضافة إلى أنّ أمثال هؤلاء الأشخاص الذين يعانون من قصور الوعي الإشاعي وقلة الثقافة تكون فرديتهم ضحلة، ويرتبطون ببعضهم في جماعات متجانسة كعمال المصنع، أو طلبة المدرسة، أو سكان المدينة الصغيرة، أو أعضاء النادي، ومن ثم يعمل تجانسهم على أن تسري الإشاعة بسرعة بينهم.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- G. Allport and L. Postman: The Psychology of Rumour.
- Coplow, T.: Rumours in War.
- Peterson and Gist: Rumour and Public Opinion.
- Prasad, Jamuna: The Psychology of Rumour.
- Schachter, S. and Burdick, H.: Rumour Transmission and Distortion

❖ ❖ ❖

الباب الخامس

علم النفس
في خدمة التجارة
والدعاية والإعلان والإعلام

– ١ –
سيكولوجية الحاجات

أنواع الحاجات ومدارج تراتبها والسلوك الذي تدفع إليه. الحاجات النفسية والحاجات العصابية. المبدأ في الحاجات. ضغوط الحاجة. شحن الحاجة. إشباع الحاجة...

❖ ❖ ❖

الحاجة في مجال علم النفس إفتقاد لشيء تكون به استقامة الحياة عضوياً أو نفسياً، ومن ثم كان تمايز الحاجات، فبعضها عضوي، وبعضها بيولوجي، أو فسيولوجي، وبعضها مادي، وجميعها يلزم لحياة الإنسان، ليستمر في البقاء، وتسمى لذلك حاجات أولية primary needs، أو أساسية basic needs، وبعضها نفسي psychological needs يلزم الإنسان ليعيش حياة أفضل، والحياة الأفضل تحتاج لقيم الحق والجمال والخير والعدل والإيمان، وهي قيم عليا، والحاجة إليها لا بد أن تعلو كل الحاجات، ومن أجل ذلك يطلق عليها البعض إسم الحاجات العليا metaneeds، وهناك حاجات تتوسط المرتبتين السابقتين وتلزمنا كالحاجات الأولية تماماً وإن لم تكن منها، «فأن نعيش في مكان وزمان» حاجة أساسية وإن لم تكن أولية، وهي حاجة نفسية في الوقت نفسه لأنها ليست عضوية أو فسيولوجية، ولا مما يقال له الحاجات المتوسطة intermediate needs، وكأننا بذلك نقيّم الحاجات في مدرج تراتبي need hierarchy، وفي كل مدرج قد يعيد الفرد تراتب حاجاته بحسب أهميتها له في مراحل عمره أو مواقف حياته المتباينة القيمة والأهمية. على أنّ الحاجات جميعها لا تنفصل عن بعضها، وتتفاعل مع بعضها في تأثيراتها، وتتعدل بشكل دينامي يصنع منها حاجة كاملة integrate need أو وحدة حاجات need unit.

والمبدأ في الحاجات هو أن توجد الحاجة أولاً، كالحاجة إلى طعام، ويعني ذلك أنّ هناك نقصاً غذائياً في الدم، فيعمل هذا النقص إلى استثارة دافع الجوع فيقوم الكائن الحي بنشاط، يحفزه

إليه وجود مادة الطعام فيتناوله، فتشبع الحاجة وتخف حدة الدافع، ونطلق على هذه السلسلة المتتابعة إسم «نموذج الحاجة فالدافع فالحافز need-drive-incentive model.

وللحاجة ضغط n.-press يجعل السلوك ينحو في اتجاه خاص تكون به محاولة إشباع الحاجة والتخفيف من ضغوطها، ونموذج السلوك هذا نُطلق عليه إسم «نمط سلوك الحاجة الضاغطة press-need-pattern bahavior». و«طراز الحاجات n. pattern» هو التنظيم الكلي لحاجات الشخص.

وشحن الحاجة need cathexis هو ارتباط الحاجة أو ربطها بشخص أو موضوع لتحقيقها، فكلما كان للحاجة ضغط أو إلحاح فكرنا فوراً في هذا الشخص أو ذاك الموضوع الذي ارتبطت به لإشباعها، وسلكنا إليه لتحقيق هذا الإشباع. والاصطلاح مستعار من التحليل النفسي، وبدلاً من أن يكون الشحن بالطاقة النفسية فإنه يكون بربط الحاجة إلى الموضوع بدلاً من الطاقة.

والحاجة إلى الحب والمحبة need for affection، بمعنى أن نحب وأن نكون محبوبين، من أهم الحاجات النفسية التي بدونها تكون عزلتنا فنضطرب وجدانياً وسلوكياً. والحاجة إلى الأمن safety need هي الحاجة لأن نشعر أنّ البيئة الاجتماعية بيئة صديقة وذلك شيء لازم للنمو النفسي والصحة النفسية، فالطفل مثلاً يحتاج لرعاية أسرته ليعيش، والفرد يحتاج للاستقرار في أسرته، فإذا استشعر الأمن عمَّم هذا الشعور على البيئة الاجتماعية، فيجدها مُشبعة لحاجاته، ويرى في الآخرين الخير. والأمن الداخلي ضروري كالأمن الخارجي، بتجنب الأخطار والألم. والحرمان من الأمن النفسي في الطفولة يُصاب من جرائه الشخصي بالاضطرابات النفسية من بعد. والحاجة الجنسية sexual need هي نشاط الغدد الجنسية فيكون الاشتهاء الجنسي ثم الإشباع. وهناك ما يشبه الدورة الجنسية يكون فيها إلحاح أو ضغوط الحاجة الجنسية شديداً، فيكون النشاط الجنسي للكائن الحي زائداً. والحاجة إلى الانتماء need for affiliation بأن نشعر بأننا ننتمي

إلى أسرة أو جماعة من الأصدقاء، أو جماعة مهنية، أو وطن. وتتمثل هذه الحاجة في الاعتزاز بالجماعة، واعتزاز الجماعة بالفرد، والروابط التي تربط بين الاثنين. وعدم الانتماء يشعر الفرد بأنه معزول ووحيد، ويعرضه لحالات من الاكتئاب.

والحاجة إلى المكانة (need for prestige)، بأن نسعى لكي تكون لنا مكانة في الأسرة أو الجماعة، وللمكانة ميزات، وتحصيل المكانة يعني تحصيل هذه الميزات، والناس يقارنون بين بعضهم البعض، والمقارنة تجعلهم يتمنون هذه المكانة أو تلك لما لها من المميزات. وتختلف المكانة بحسب الثقافة، فقد تتدعم المكانة بالعلم في بلد، بينما تتعزز بالمال في بلد آخر، وهكذا. وتتضمن هذه الحاجة حاجات أخرى مشتقة derived ns.، كالحاجة إلى النجاح need for success، و«الحاجة إلى التقدير need for recognition»، و«الحاجة إلى أن نُحِب (بكسر الحاء) need for loving، وأن نُحَب (بفتح الحاء) and being loved»، فأن نحصل على مكانة معينة يعني أننا ناجحون، وأنّ الناس تقدر لنا خصائص شخصياتنا فيحبوننا ونحبهم، ثم إنّ الحاجة إلى المكانة قد تدفع إليها الحاجة إلى الحب. وشبيه بها الحاجة إلى القوة need for power، وتحصيل المكانة قوة، إلاّ أنّ الحاجة إلى القوة ربما تكون تعويضاً عن عقدة نقص. والقوة قد تكون بحيازة المال أو تحصيل العلم، ومهما كان ما يعطي القوة فإنّ هدفها النهائي هو السيطرة على الآخرين. والحاجة إلى التحصيل need for achievement من الحاجات المهمة في التعلم، ويتميز بها أبناء الطبقات العليا والشعوب المتقدمة، ومن الممكن تقوية هذه الحاجة برفع مستويات الطموح لدى الأطفال والضغط عليهم لينشأوا نشأة استقلالية. و«الحاجة إلى تحقيق الذات need for self-actualization» أو تأكيد الذات، بأن يكون الشخص نفسه، وأن يحقق لنفسه أهدافها، وأن يشبع حاجاتها، وأن يدعم حريته ويسيطر على الأشياء، وتكون له معتقداته واتجاهاته. والحاجة المشعور بها conscious n. هي

التي نعيها في أنفسنا ونشعر أنها في حاجة للإشباع. وإشباع الحاجة need gratification كالجائع فإنه يأكل حتى يشبع، وخفض الحاجة need reduction هو خفض حدتها فالذي يأكل وإن لم يشبع فإنّ ضغط الحاجة أو إلحاحها يقل.

والحاجة الباطنة .internal n هي التي تنشأ عن تغيرات داخل الكائن الحي مستقلة نسبياً عن التنبيه الخارجي. والحاجة الخارجية .external n هي التي لا يشبعها إلاّ موضوع خارجي من البيئة. والحاجة الظاهرة .manifest n هي التي يفصح عنها السلوك صراحة، ونقيضها الحاجة الكامنة أو المخفية .latent n.

والحاجات النرجسية narcissistic هي التي تصدر عن حب ذات شديد عند المرء لنفسه. وحالة الاحتياج n. state هي الحالة المتولدة نفسياً وبدنياً في الشخص نتيجة لنقص حاجة من الحاجات. وتوتر الحاجة n. tension هو ما يستحدثه نقص ما عند الكائن يترتب عليه إلحاح الحاجة فيكون قلق صاحبها واكتئابه ونسيانه وسوء توجهه. وخفض الحاجة .n. reduction هو الإشباع الجزئي للحاجة ليقل إلحاحها وما تسببه من توتر.

والحاجات العصابية neurotic needs من إصطلاحات كارين هورني Horney (١٨٨٥-١٩٥٢) والتحليل النفسي، وهي ردود فعل تكون بالعصابي نتيجة شعور أساسي بالقلق الذي يكون معه من الطفولة، فيتعلم أن يستجيب له بطرق غير صحية، قد تتثبت وتصبح أنماطاً سلوكية وسمات من سمات الشخصية وتكون بمثابة الأعراض العصابية، وذلك لأنّ الحاجات التي تدفع إليها هي «حاجات مرَضية» .pathological ns». وتذكر هورني من هذه الحاجات العصابية: الحاجة إلى القوة، والحاجة إلى المكانة الاجتماعية، والحاجة إلى المحبة، والحاجة لاستقلال الآخرين، وجميعها حاجات سوية في الظروف العادية، ولكنها إذا زادت كانت من العلامات الأكيدة للإصابة بالعصاب النفسي.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Maslow: Motivation and Personality.
- Murrau: Explorations in Personality.
- Hull, C. G.: Principles of Behavior.
- Lewin, K.: A Dynamic Theory of Personality.
- McDougall, W.: The Energies of Men.

❖ ❖ ❖

- ٢ -

سيكولوجية الإعلان
Advertising Psychology

الإعلان تتحكم فيه قوانين الإدراك. طرق التأثير بالإعلان. مكانه وكلماته ومساحته وألوانه وإخراجه وصوره. التجديد في الإعلان. سيكولوجية الجمهور واستخدام وسائل الإيحاء والإقناع. إعلانات الغرائز وإعلانات العقول...

❖ ❖ ❖

الإعلان Advertising وسيلة من وسائل التأثير على السلوك، ويستهدف المعلن advertiser جمهوراً خاصاً يقصد إليه بإعلانه، فيطبعه بتأثيرات عنه لا تتطلب استجابة مباشرة، فاستجابة الإعلان إستجابة مرجأة delayed response يكون بها تفضيل الجمهور لموضوع الإعلان. والإعلان في ضوء علم النفس من المواقف الإدراكية العامة، وقوانين الإدراك التي تتحكم في التأثيرات النفسية للإعلان هي: قانون التكرار repetition law: من حيث أنّ تكرار إدراك الموضوعات يجعلها أيسر على التذكر والاستدعاء، وأفعل من ثم في تأثيرها على السلوك. ويزيد من تأثير التكرار أن يكون تكراراً مركزاً. وكلما كانت الموضوعات المكررة أقصر كانت فرصة تدعيم تأثيرها أكبر. ولا ينبغي للتكرار أن يبلغ حد الإملال، فالتكرار الممل يصرف الانتباه عن الموضوع، ويجعله يبدو كما لو كان موضوعاً يطارد القارئ أو المستمع ويلح عليه، بدلاً من أن يشده إليه؛ وقانون الأولوية priority law: من حيث أنّ كل خبرة يدخلها الفرد لأول مرة، يكون لها انطباع ليس من السهل نسيانه أو محوه؛ وقانون الحداثة recency law: فما يرد

حديثاً في الإدراك من صور ومعان، أو ما يطرأ على التفكير منها، يكون استدعاؤه أسهل؛ وقانون الشدة :strength law فكلما كانت المثيرات أشد في قوتها كانت أفعل في تأثيرها ومن ثم تكون أيسر في استدعائها؛ وقانون ثبات الملابسات law of constancy of circumstances: من حيث أنّ التواجد في المجال السلوكي نفسه الذي كان فيه اكتساب الخبرة يساعد على استدعاء هذه الخبرة نفسها.

ويتفنن المعلن في تصميم أو تقديم إعلانه بحيث يلفت إليه أكبر عدد من المشاهدين أو السامعين أو القراء، ويراعي لذلك أن يكون لإعلانه قوة تأثير تظل أكبر فترة ممكنة معهم وتوجه سلوكهم عند الشراء، ويلجأ لذلك طرق نفسية عديدة مؤثرة وفعالة، كأن يزيد من «مساحة الإعلان»، أو «الزمن» الذي يستغرقه عرضه أو قراءته، ويجعله بألوان مريحة للعين ومحببة للنفس، «وبكلمات واضحة وسهلة» يتيسر تذكرها واستيعاب معانيها وفهم رسالتها. والمعلن يُبرز دائماً في إعلانه عناصر الإعلان التي ينبغي أن يلتفت إليها الجمهور، «وإخراج الإعلان» فن رفيع تتكامل به أجزاء الإعلان وتتناسق. ويخصص المعلن لإعلانه «المكان» الذي يضمن له إقبال الجمهور عليه، كأن يكون في «الصفحة الأولى» من الجريدة، أو عقب «نشرة الأخبار» في التليفزيون أو الإذاعة، أو ضمن «مسلسل إذاعي» مشهور، أو «برنامج جماهيري» يحظى بأكبر عدد من المستمعين أو المشاهدين. والإعلان الجيد هو الذي تحشد له كل الإمكانيات البصرية في الذاكرة. «وصور الإعلان» من الأهمية بمكان سواء بشخصياتها التي تبرز فيها، أو الخلفية التي تكون عليها هذه الشخصيات، أو بما يربط الشخصيات بكلمات الإعلان، «والصوت» الذي يقوم بتمثيلها، «والموسيقى» المصاحبة لكل ذلك. ويجدد المعلن دائماً في إعلاناته عن السلعة الواحدة لتكون مشوقة، فلا يمل المستمع أو القارئ ولا ينصرف عنها، والتجديد منه «تغيير حجم الإعلان»، أو «مساحته»، أو «ألوانه»، أو «عباراته»، إلاّ أنه من اللازم دائماً أن يكون هناك عنصر ثابت يكون ألصق بالإعلان، عن هذه السلعة أو تلك، ويكون

لها بمثابة «اللحن المميز» أو «الشعار» أو «العلامة». وكما أنّ للإعلان سيكولوجية فكذلك للجمهور سيكولوجية public psychology، والمعلن يراعي أن يناسب بين السيكولوجيتين، وأن يحشد من العناصر فيه ما يقنع الناس وما يؤثر على تفضيلهم لسلعته. والجمهور المستهدف من الإعلان منه الآباء والأمهات، ومنه الأبناء، ومنه الشيوخ والأطفال، والفقراء والأغنياء، والمثقفون والعمال، ولكلٍ ذوقه وميوله وسلعته التي يحتاج إليها ويريد أن يسمع عنها أو يشاهد الآخرين يؤيدونه على استعمالها. ومن البديهيات النفسية أن المعلن يختار «إسماً» لسلعته، «علامة تجارية» لها، و«شعاراً»، يراعي فيها كل ما سبق، ويربط بينها والتجاوب المنتظر، ويجعل كقاعدة له للاختيار، أن يكون الاسم، أو العلامة، أو الشعار مرضياً لحاجة نفسية عند الجمهور، ومحركاً لدافع من دوافعه إلى إشباعها، فإذا ارتبطت السلعة بصورة فإنّ مشاهدتها أو سماع الموسيقى المصاحبة يحرك الحاجة ودوافع إشباعها، فيكون السعي المفترض للحصول على السلعة وشرائها.

ويستخدم المعلن لإغراء الجمهور على الشراء أو الاقتناء وسائل الإيحاء والإقناع، ويترضى الميول المؤاتية، ويتجنب الميول المعاكسة، ويستميل الناس إلى السلعة مستخدماً كل الحيل النفسية، وقد يلجأ إلى أن ينسب سلعته إلى إطار مرجعي reference frame ، أو يربط بينها وبين شخصيات مرجعية reference personalities، ليكتسب ثقة الجمهور، وقد يقدم عينات من السلعة للتدريب المجاني، فيكون كأنّ السلعة وجودتها يتحدثان عن نفسيهما. والإعلان دائماً متفائل، وجوّه النفسي فيه المرح ويبعث على الثقة في السلعة. ويستغل المعلن الانفعالات التي يمكن أن تستثيرها الأغاني والموسيقى وإيقاع الكلمات وابتسامة شخصيات الصورة. وقد يستغل الخوف فينفر الناس مما يترتب على عزوفهم عن سلعته أو خدمته. وأقوى الإعلانات ما كان يخاطب الغرائز ويدغدغها. وإعلانات الغرائز instincts advertisements أفعل في النفس من إعلانات العقل mind advertisements. وأقوى الغرائز هي غريزة الجنس sex

instinct، ويستغل المعلن التصور والإيهام، ويحاول أن يجعل الناس يعيشون في أحلام يقظة waking dreams، ويفتنهم بالصوت النسائي وجمال القوام الأنثوي، وسحر المترف من السلع، أو يقدم صوراً لرجال يتسمون بالأناقة وحسن اللباس، فيجعل المشاهد يتمنى تقليدهم، والناس تحب المحاكاة، ويشترون لأنّ غيرهم يشتري، والمعلن يعرف ذلك، ويعرف أنّ طلب الجنس والبحث عن الطعام من أهم دوافع السلوك، وقديماً قالوا إنّ الذي يسيطر على الإنسان شهوتان: شهوة الفرج، وشهوة البطن. وتروج لذلك السلع التي إعلاناتها تستغل هاتين الحاجتين الأساسيتين في الإنسان. والحاجات النفسية كثيرة، والمعلن دائم الاستغلال لها، كالحاجة إلى حب الاستطلاع curiosity need فالإنسان غالباً ما يحركه الفضول، والحاجة إلى الأمن safety need، وأن نشعر بالراحة النفسية والطمأنينة، وأن يكون لدينا كل ما يوفر لنا هناءة العيش ودوام الصحة والعافية، والحاجة إلى الوالدية parenthood need، فالناس تحب أن يكون لأبنائهم كل ما يرغبون فيه، ويهتمون لذلك ما يخص أولادهم من طعام أو شراب أو لباس من السلع المعلن عنها، والحاجة إلى التملك possessive need تدفع الناس إلى أن يقتنوا، وتحفزهم للشراء، وبالناس طموح إلى الارتقاء، وأن يتدرجوا إجتماعياً وينتقلوا إلى شرائح أعلى بين مراتب مجتمعاتهم، والشراء والاقتناء دليل عندهم على أنهم قد حققوا أمانيهم ورغباتهم.

(أنظر أيضاً سيكولوجية المستهلك، وسيكولوجية الدعاية، وسيكولوجية التسويق).

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Adams, H.: Advertising and its Mental Laws.
- Scott, W.: Psychology of Advertising.
- Koponen, A.: Personality Characteristics of Purchasers.
- Twedt, D. W.: Consumer Psychology.

❖ ❖ ❖

- ٣ -
سيكولوجية الدعاية والإعلام

الفرق بين الدعوة والدعاية. تاريخ إسم البروباجندا. شروط الدعاية وأنواع الدعاية. الفرق بين الدعاية والإعلام والتعليم...

❖ ❖ ❖

الدعاية propaganda دعوة لرأي أو فكرة يقوم بها فرد أو جماعة في محاولة منظمة لتأثير في الرأي العام، أو تكوين رأي عام تجاه مسألة أو قضية، أو حتى سلعة من السلع، بقصد تغيير اتجاه أو أفكار أو أنماط السلوك عند بعض الأفراد أو الجماعات، باستخدام أي من وسائل الاتصال بالجماهير. و«نظرية الدعاية» جزء من «النظرية العامة للاتصالات the general communication theory»، وموضوع الدعاية هو «الرأي العام public opinion»، والقائمون على الرأي العام opinion manipulators يعمل الكثيرون منهم في الخفاء ويطلق عليهم «the hidden persuaders» لخطورة ما يقومون به، وقد نطلق على كل المشتغلين في وظائف تشكيل الرأي العام اسم «الإعلاميين»، ووظيفتهم «إعلامية»، أي إخبارية غالباً. وعلم الدعاية، و«الدعاية المضادة counterpropaganda» من مؤلفاته الأولى كتاب «البلاغة Rhetoric» أو «Poetics» لأرسطو منذ نحو ٢٥٥٠ سنة، وكتاب كوتيليا Kautilya «مبادئ السياسة Principles of Politics»، وكتاب صن تزو :Sun Tzu «فن الحرب The Art of War» منذ نحو ٢٠٠٠ سنة، وكتاب كونفوشيوس :Confucius «المنتخبات Analects»، وتلزم الدعاية في عمليات الإعلان عن السلع المختلفة، ولها أجهزتها المدنية والصناعية والاستخبارية، وبعض الدول تنشئ وزارات للدعاية، وللأحزاب السياسية مطالباتها الدعائية، وكل هؤلاء يلجأون إلى ما يسمى بالحملات الدعائية p. campaigns.

والداعية propagandist الذي يقوم بالدعاية يهمه بلوغ هذا الهدف السابق من دعايته، حتى ولو أخفى بعض

الحقائق، أو اختلق في بعض الوقائع، أو ضخّم بعضها، أو قلل من شأن بعضها الآخر. ويفرق البعض لذلك بين الدعاية والدعوة call، والأخيرة نوع من الإعلام والتعليم والتثقيف، ويقوم بها عادة الدين والوعظ والفكر، بقصد التأثير أيضاً في العقول والعواطف والاتجاهات والسلوك، لنشر مبادئ جديدة تعتمد على الحقيقة. ولعله من ثراء اللغة العربية لدينا أن تفرق بين النوعين، بأن تجعل لواحدة إسم الدعاية، بينما تجعل للأخرى إسم الدعوة، في حين أنّ الاسمين يتضمنهما إسم «البروباجندا» الإفرنجي، وهو إسم حديث نسبياً، وكان اشتقاقه من قِبَل الكنيسة الكاثوليكية التي تعتمد على نشر المسيحية بالدعوة إليها، فأنشأت لذلك «مكتب الدعوة الديني Congregation de Propaganda Fide، سنة ١٦٢٢، ثم استُخدم إسم بروباجندا ليعني أيضاً الدعوة في السياسة والاقتصاد والمجال العسكري، وإن تميز ذلك في العربية باسم الدعاية. وقد لجأ «لينين» إلى إسم البروباجندا ليعني به «الدعوة» وليس «الدعاية» في كتابه السياسي «الإثارة والدعاية Agitation and Propaganda» سنة ١٩٢٩، حيث يقصد إلى أن يفرق بين الدعاية التي غاياتها غوغائية وتضليلية، والدعوة التي منهجها الصدق والواقع، ويسمي الأولى دعوة أو دعاية تهييجية أو مثيرة، غايتها الإثارة، بينما الأخرى دعوة صحيحة. وعلى العموم فإنّ الدعوة والدعاية محاولتان للتأثير في اتجاهات الجمهور وآرائه وسلوكه ليكون على النمط الذي يريده الداعية، وهو يستخدم الإيحاء ويلجأ إليه، أو إلى الدعاية غير المباشرة ليتحصل على هذه النتيجة. ويذهب علماء النفس إلى بيان السيكولوجية التي تقوم عليها الدعاية: بأنها إما تخاطب في الإنسان أناه ego، أو تخاطب ذاته self، وأنها تترضاه بأن تكون منطقية ومعقولة، وكأن الداعية propagandist فيها يهمه مصلحة المدعو، وإما أنها تخاطب فيه الهو the id، فتلجأ إلى الألفاظ، وتستخدم الصور التي تشبع عنده حاجاته الغريزية، وإما تخاطب الأنا الأعلى superego، فتستخدم المأثورات الدينية والأخلاقية إستخداماً يميل بالجمهور إلى رأي أو فكرة الداعية.

والداعية المثقف sophisticated propagandist من باب أولي إنسان على قدر عال من الثقافة والوعي، متخصص في ميدانه، ودارس لعلم النفس، وللعلاقات العامة، وطرق الاتصال بالجماهير وبالشخصيات المرجعية والمؤثرة في المجتمع. وهو غالباً شخصية كاريزمية charismatic أي محبوبة، يعرف كيف يستميل الناس إليه ويقنعهم بفكرته أو رأيه، ويخاطبهم من الجهة التي يغلب أن يتأثروا من خلالها. ويستخدم في ذلك الإيحاء suggestion، والاستهواء suggestibility، والإقناع persuasion. والناس مهما اختلفوا إلاّ أنّ بهم دائماً هذا الميل إلى التعين بغيرهم وتقليدهم، والداعية يستغل ذلك، ويعرف سيكولوجية الجماعة، وسيكولوجية الوعي الجماعي أو العقل الجماعي، ويعرف أنّ الجماعة يمكن أن تتوحد حتى في لاشعورها unconscious، ويدرك تأثير «الشخصيات المرجعية reference personalities»، وكذلك «الأطر المرجعية reference frames» على السلوك والتفكير والعواطف والاتجاهات. ويتوجه الداعية في دعايته إلى الدوافع motives التي قد تجعل الناس يغيرون سلوكهم، ويجعل موضوعات دعايته حاجاتهم النفسية psychological needs، كأن يتصل ما يعرضه بالأمن الاجتماعي social security للجماعة والأفراد، أو بأمنهم الاقتصادي، أو بما يشبع فيهم حاجاتهم إلى الترقي، وأن تكون لهم مكانة إجتماعية مرموقة، أو أن يعيشوا في رفاهية، فإذا نجح في استثارة هذه الحاجات والدوافع فإنه يدعوهم إلى ما يدعوهم إليه مستخدماً التضخيم والتهويل، فيستهويهم بالصورة والصوت والموسيقى المصاحبة والشعارات، مؤكداً على ما يتصل بحياتهم ومستقبلهم وأولادهم، مترضياً لعواطفهم، ومستثيراً لمشاعرهم وحماسهم. وقد ينتهز مواقف معينة ليثبت دعايته، كالأزمات والضوائق، ويكون الناس فيها في قمة توتراتهم، ويستبد بهم القلق، وتعمى بصيرتهم، وعندئذ يكون استهواؤهم أيسر. وقد يلجأ إلى العمليات العقلية، كالتبرير

rationalization، ويستغل الصراعات الاجتماعية. والدعاية نفسها تقوم في جو من التنافس والصراع، ويعمل كل داعية على أن يؤكد دعوته وينقض الدعوات الأخرى المخالفة. والداعية يعتمد على دراسته لسيكولوجية الجماعة التي يوجه إليها دعايته، ويدرس استجاباتهم، ويعدل من دعايته باستمرار ومن عادات وسائل الاتصال بالجماهير media habits، لتتوافق نتائج دراساته الاجتماعية والجماعية، وتنسجم مع اتجاهات جمهوره وقيمه ومعاييره، ويهمه أن تستمر الجماعات المستقبلة لدعايته في تأييدها له، ومشايعته على رأيه أو فكرته، وأن يوسع دائرة دعايته باستمرار بين المحايدين والمعارضين. وهو يستغل الأوقات المناسبة للدعاية، ويختار بعناية وسيلتها medium، سواء كانت صحيفة أو إذاعة أو سينما، إلخ، وكلها لها شخصياتها وتطبع الداعية بطابعها، ولها مداخلها النفسية والفكرية عند الجمهور. والداعية يختار اللحظة السيكولوجية the psychological moment، أي التي يحدس أنها أنسب اللحظات لدعايته، ويستغل المواقف الغامضة التي تعوز الجماهير فيها الأخبار، وقد يستخدم التخويف intimidation كما في الدعاية العسكرية، فيقصد بدعايته إلى التجمعات العسكرية، ومواقع الجيش، أو يستخدم الإقناع كما في الدعاية السياسية political p.، فيستعين بالتحليل السياسي، أو يستخدم الأضاليل fallacies كما كانت جماعة السفسطائيين تفعل في اليونان القديمة، فقد كانوا قديماً يستخدمون الدعاية أيضاً في الحرب النفسية psychological warfare. وفي حديث للنبي صلى الله عليه وسلم قال: «نصرت بالرعب»، وبث الرعب في نفوس الأعداء من صميم الدعاية في الحرب النفسية. والأغاليط نتائج استدلال خاطئة أو فاسدة لا تسوغها الوقائع ولا تبررها المقدمات.

والدعاية قد تكون سافرة overt p. وصريحة الغرض، ويقال لها الدعاية البيضاء white p.، أو تكون مقنّعة masked p. ومستترة، ومن شأنها في كل الأحوال: التهويل والمبالغة والسخرية والتهكم،

وتلجأ إلى الكاريكاتور والصور الهزلية، والنكتة، والشعارات البراقة الخادعة التي لا تعني شيئاً عند التحليل أو تعني كل شيء، أو قد نلجأ إلى رموز صورية فتسمي الشيوعيين «الحمر»، وتطلق على الإيرانيين «العجم» أو «الفرس»، وتنادي الصينيين بـ«الصفر»، وهذه هي «الدعاية السوداء black p.» وهي شر أنواع الدعايات إطلاقاً، وحملاتها تسمي الحملات بالرموز «symbol campaigns» ولا بد للداعية أن يضع في اعتباره «الدعاية المضادة» التي يمكن أن تدفع إليها دعايته. وتقوم الدعاية المضادة على تحليل محتوى الدعاية وأساليب الداعية، وترد على أكاذيبه وتبين مفاسد المنزلقات التي يدعو الجماهير إليها، وتوضح أضاليله، وتنشر بين الناس الصحيح من الأخبار الذي يدحض أخباره.

ويهم كل داعية أن يسيطر على وسائل الدعاية الفعالة والمؤثرة، ولعل أكثرها أثراً الوسائل المسموعة كالإذاعة والكاسيت، والمرئية كالتليفزيون والفيديو والسينما والديسكات، والمقروءة كالصحيفة والمجلة والكتاب والرواية والقصيدة والإعلانات.

والدعاية والإعلام والتعليم قد يتشابهوا من حيث أنهم جميعاً يعتمدون على التأثير في السلوك والاتجاهات والقيم والمعايير، إلاّ أنّ الدعاية تعتمد على الكذب أحياناً، وعلى التهويل والمبالغة غالباً، بينما الإعلام يقوم على الأخبار والمعلومات الصحيحة، ويتوخى القصد في تقديمها، ويقوم على نظريتين: نظرية الإعلام information theory، ونظرية الاتصالات communications theory، والأولى أساسها توصيل المعلومات وانتقاؤها - الإعلام الانتقائي selective i.، وبناء المعلومات - الإعلام التركيبي structural i.، وهدف الإعلام تصحيح وثبات المعلومات واتفاقها. ونظرية الاتصالات جزء من نظرية الإعلام، والإعلام بمقتضاها جوانبه آلية وإنسانية ومؤسسية. وأما التعليم فإنّ ما يعطيه للفرد لا يضلله، ولا يعطل مداركه كالدعاية، وليس ما يعطيه أفكاراً جاهزة مثلها، وإنما هو يفتح الإدراك، ويوسع

الأفق، ويحض الفرد على أن تكون له شخصيته، وأن يفكر لنفسه، وهو حيازة معرفة جديدة باستمرار، وتمرس بالنقد، وتعديل دائم للسلوك نسبياً، لما تتطلبه المهام، وما نستخلصه من الخبرة. ويخدم التعليم صاحبه فعلاً، كما يخدم الإعلام المجتمع، بينما الدعاية لخدمة آخرين يفيدون منها إذا استطاعت أن تحدث تأثيراتها في الأفراد والجماعات، ولعله لهذا السبب، وللخطورة البالغة التي عليها الدعاية، فإنّ الحكومات يهمها دائماً أن تخضع وسائل الإعلام والنشر والدعاية والإعلان لسيطرتها، وحتى في أعتى الديموقراطيات فإنها تسن من التشريعات ما يمكنها من مراقبة هذه الوسائل، والحد من التأثيرات الدعائية التي تضر بالمجتمع وتقوض تماسك الجماعة، ولعله لهذا السبب أيضاً كان الشغل الشاغل لأية حكومة تأتي عقب انقلاب، أن تسيطر على أجهزة الدعاية لتضمن خلو الساحة الدعائية لنفسها.

❖ ❖ ❖

مراجع:

B. Whitton: Propaganda and the Cold War. -

D. Leaner: Propaganda in War and Crisis. -

Ellul, J.: Propaganda: The Formation of Men's Attitude. -

Doop, L.: Public Opinion and Propaganda. -

Lerner, D.: Propaganda in War and Crisis. -

Whitton, J. B. and Larson, A.: Propaganda Towards Disarmament in the War of Words. -

❖ ❖ ❖

- ٤ -
سيكولوجية الرأي العام

تعريف الرأي العام وعمليات قياسه. بنوك المعلومات. تكوين الرأي العام ونظرياته. الرأي العام والعقل الجماعي والإرادة العامة...

❖ ❖ ❖

يهتم علم النفس الاجتماعي بالرأي العام public opinion لما له من تأثير على سلوك الأفراد من داخل الجماعة. ورغم أنّ الرأي العام إصطلاح إلاّ أنّ المعنى الذي ينصرف إليه غير محدد، ولذلك كان تعريفه مختلفاً بشأنه. وقيل إنّ استخدامه يرجعه إلى ظروف الثورة الفرنسية في عهد الملك لويس السادس عشر، وكان له وزير مالية يدعى جاك نيكر Jacques Necker، قال عبارته الشهيرة: «إنّ جمهور المستثمرين يحكم سلوكهم في سوق المال الرأي العام»، ومن ثم قال البعض في محاولة تعريفه: إنه جماع الآراء الشخصية للناس في موضع معين له أهمية عندهم، ومن شأن اجتماع الناس عليه أن يؤثر في سلوك الأفراد والجماعة، وفي السياسة التي تتخذها الحكومة حيال هذا الموضوع، ولعله لهذا السبب كانت أهمية دراسته بالنسبة لعالم النفس من حيث تأثيره على سلوك الأفراد، ولعالم الاجتماع من حيث تعبيره عن معتقدات أو أفكار أو اتجاهات الجماعات، ولعالم السياسة لأنه يوجه سياسة الحكومات. ولعله لهذا السبب أيضاً كانت الاختلافات في تعريف الرأي العام من حيث تخصص المشتغل بالتعريف، فقيل مثلاً في تعريفه: إنّ الرأي العام هو استجابات الناس لما يقدم إليهم من أسئلة أو استيضاحات حول مسائل عامة، وهو تعريف - كما نرى - يبين أنّ صاحبه من المشتغلين بعملية قياس الرأي العام measurement of p.o.، وهم فئة يهمهم أن يتحروا عن حقيقة ائتلاف الناس حول رأي واحد في قضية من القضايا، ومن هم هؤلاء الناس، وما هي جنسياتهم ومعتقداتهم وانتماءاتهم الطبقية وثقافاتهم ومواطنهم، ولهذا السبب تختار العينة التي سيجرى عليها الاختبار بحيث تشمل كل الاعتبارات السابقة من كل الفئات والأماكن في إطار من الموضوعية والحياد التام - طريقة استطلاع العينة sample survey method - إما عشوائياً، أو باختيار العينة، بحيث تعين حصة لتمثل كل فئة أو طبقة أو مجموعة، وتعرف هذه الطريقة باعتبارها استخباراً أو استفتاءً للرأي باسم طريقة الاستفتاء الاستطلاعية للرأي العام public opinion

polling method. ويُذكر أنّ تطبيقها بدأ سنة ١٩٣٦، وأشرف عليه ثلاثة من مشاهير المشتغلين بقياس الرأي العام، ويذكرهم التاريخ دائماً، وهم جورج جالوب Gallup، صاحب معهد جالوب المشهور بقياساته على الرأي العام، وإلمو روبر Roper، وأرشيبالد كروسلي Crossley. ومنذ سنة ١٩٦٥ إنتشرت الطريقة في العالم كله حتى ما يكاد يوجد بلد متحضر يهم حكوماته أن تتعرض إلى الرأي العام فيه إلاّ وبه معهد أو مركز لقياسه، وما يجتمع في هذه المعاهد أو المراكز من معلومات يصب في بنوك للمعلومات data banks للاستعانة بها من أية جهة كانت. وأفادت الدراسات الكمية للرأي العام مجموعة من التعميمات حوله، منها مثلاً أنّ العديد من الناس لا يهمهم أن يعرفوا شيئاً عن الشخصيات والقضايا السياسية حتى ولو كانت من الشخصيات والقضايا التي تتصدى لها وسائل الإعلام بالتعريف والتنويه، وعلى العكس يهتم الرأي العام جداً باللاعبين الرياضيين، ونتائج المباريات العالمية، والقصص حول الممثلين والممثلات، وبمعنى آخر فإنّ المسائل العامة لا تهم في الواقع إلاّ عدداً محدداً من الناس، وهو أمر نبه المشتغلين بالرأي العام إلى التمييز بين عامة الناس general public، والجمهور الواعي attentive public، والجمهور الداري informed public، وجعل من الممكن إجراء استفتاء إستطلاعي على نطاق كل هؤلاء، فصار لدينا أيضاً إستفتاء للنخبة polling of elites، وصنَّف تبعاً لذلك الرأي العام إلى عدد من الآراء تختلف مواصفاتها، ومن ثم مسمياتها بحسب ما تمثله. فرأي الصفوة the o. of the elites يمثل ما تذهب إليه القيادات المفكرة the thinking leadership، ورأي المثقفين the o. of the cultured هو ما يكون لعامة المثقفين the general cultured، ورأي العامة أو سواد الشعب the o. of the general public هو جماع آراء الناس العاديين، والرأي الشخصي individual o. هو اعتقاد يذهب إليه صاحبه ويعلنه، والرأي الخاص private o. هو ما يتحصل له من أفكار حول موضوع ولكنه لا يجهر بها ويحتفظ بها لنفسه، ورأي الأغلبية the majority p.o. يقابله

رأي الأقلية minority p.o.، والرأي الثابت يكون في القضايا العامة التقليدية ويتسم لذلك بالديمومة، وعكسه الرأي المؤقت temporary o. الذي يكون للجماعة في قضية مؤقتة تظهر في وقت ما ثم تنتهي، والرأي العام اليومي daily p.o. في القضايا اليومية، والرأي العام الكلي the total p.o. جماع مختلف الآراء في قضايا ثقافية تقليدية، والرأي العام المنساق subdued p.o. هو الذي يتابع الآخرين على ما يذهبون إليه وخاصة ما تقضي به وسائل الإعلام، والرأي العام المضلل misguided p.o. هو الذي يحيد عن الجادة والنفع العام بتأثير الدعاية والشائعات، والرأي العام الصريح open p.o. هو الظاهر، وعكسه الرأي العام المستتر latent p.o. أو الكامن غير المعلن نتيجة الخوف، وقد يكون الرأي العام الكامن في دور التكوين ولم يفسر بعد.

ومن التعميمات التي أفدناها من قياس الرأي العام: أنّ الناس لا يهتمون إلاّ بالقضايا التي تمس حياتهم ومعيشتهم، وما يشغل بالهم من المسائل اليومية المثيرة لقلقهم، وأنهم ينصرفون عن الكتابات والإذاعات التي لا تتناولها، وأنه من الخطأ لذلك أن نحسب أنّ حملات التوعية يمكن أن تؤتى ثمارها بتكثيفها دون نظر إلى موضوعات هذه الحملات.

وثبت أيضاً أنّ نتائج الاستفتاء ترتبط بالوضع الاجتماعي للمستفتى، وأحواله الاقتصادية، ومستوى تعليمه، وانتماءاته الحضرية، والريفية، والسلالية، والدينية، واهتماماته الثقافية والسياسية، وما يمارسه من أنشطة، وعمره وجنسه. وهناك اهتمام بالمسائل العامة من قبل المستويات التعليمية العالية، والطبقات الاقتصادية والاجتماعية الأرقى، وأهل الحضر، والرجال، ومتوسطي العمر، عنه عند الناس من المستويات التعليمية والاقتصادية والاجتماعية الأدنى، وأهل الريف، والنساء، وكبار السن. وتبين أيضاً أنّ تكوين الرأي يخضع للشخصية، فالشخصية التسلطية authoritative personality إنتماءاتها حزبية تسلطية، وآراؤها فيها المحافظة والجمود والتبعية، والشخصية العنصرية ethnic personality تشايع النعرات الوطنية وتميل

إلى القرارات العنيفة، والشخصية الاستهوائية suggestible personality منقادة وتؤثر فيها الشائعات، والشخصية المنبسطة extravert p. تساير القضايا العامة وتأخذ برأي الأغلبية وتنفتح على كل الآراء، والشخصية المنطوية introvert p. تعزف عن الاشتراك في القضايا العامة، وكثيراً ما لا يكون لصاحبها رأي في شيء.

ويميل الناس عموماً إلى التوافق مع واقع الحال، وملاءمة آرائهم مع مجريات الأمور، ويعزفون عن الهزات القوية في الرأي التي تحيد بهم فجأة عما كانوا يرونه دون مبرر، فإذا وجدت المبررات واندفاع تيار الرأي العام إلى ناحية معينة مال الناس إلى ذلك، وساروا مع التيار الغالب.

وقياس الرأي العام يستهدف دراسة اتجاهات الناس في المسائل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ويفيد في تخطيط مختلف البرامج لصالح الحكومات والشعوب والمنتخبين والمستهلكين والتعرف إلى أنسب طرق مخاطبة الجماهير وإقناعها أو إغرائها، واستكشاف المعايير والقيم الاجتماعية والأنماط السلوكية للناس وتنشيط التفاعل الاجتماعي.

وليس من اليسير تكوين رأي عام عالمي universal p. o. مع وجود هذا الاختلاف في المصالح القومية والعادات والأخلاق والمفاهيم، غير أنّ الرأي العام شديد الحساسية للأحداث المهمة، وهو لذلك كثير التحول.

والرأي العام يظل ساكناً إلى أن تظهر فجأة إحدى القضايا، ويدور حولها اللغط، وتأخذ بأطرافها جماعات تفجر من حولها صراعات، فيستثار قلق الناس، وعندئذ يتبلور الرأي العام بصددها تبلوراً من شأنه التقليل من حجم القضية، أو كما نقول تحجيمها، وخفض الصراعات فيها، والتهوين من القلق المترتب عليها، ومن ثم فإنّ بعض القضايا قد يتكون بصددها رأي عام لا يفصح عن نفسه بسبب الخوف، أو يكون هذا الرأي العام في دور التكوين ويتبلور مع إلحاح القضية وسفورها على نطاق واسع. وليس من السهل تضليل الناس في القضايا العامة إذا كانت المعلومات فيها

متاحة، وإذا كان الناس على مستوى من الدراية والوعي والتعلم بحيث يصعب انسياقهم وراء الشائعات. والرأي العام يضعف في المجتمعات المرفهة التي يتلهى فيها الناس بمستحدثات الحضارة عن شؤونهم العامة، وهو ضعيف كذلك في المجتمعات التي تحكمها أنظمة إستبدادية وأحزاب وحيدة، وحيثما يفتقد الرأي الآخر وتغيب المعارضة، وإذا استهدف الشعب من وسائل إعلام دخيلة أو مغرضة، وإذا انشغل أفراده بلقمة العيش عن التفكير في قضاياهم العامة.

وعندما تكون هناك قضية لها إلحاح على الجماهير فإنهم يبدأون أولاً في تحسس أبعادها، ويناقشونها جماعات، ويتناولها أهل الرأي في وسائل الإعلام، ويقدمون لها الحلول المقترحة، ويدور الصراع حول أصلحها وأنسبها، ثم تتبلور الآراء جميعاً حول ما يقارب بينها ويصالحها على بعضها البعض، وهو الرأي الذي يمكن حينئذ أن نسميه «رأياً عاماً»، يتوسط بين مختلف الآراء المتعارضة، ويأخذ منها جميعاً ما يتفق مع ما تقضي به الظروف، والتفكير السليم، والمعرفة العلمية، وما يمكن تطبيقه. ولا شك أنّ الرأي العام يتأثر كل التأثر بالأحوال الحضارية والثقافية والاقتصادية للمجتمع، والأخبار والمعلومات التي تروج بين أفراده وتساعد على رواجها تقاليده وعاداته الفكرية والسلوكية والدينية والعائلية. وهو يتأثر بقيادات المجتمع، وتوجيهات الصفوة فيه وأهل الرأي والمشورة، ولذلك فإنّ النظريات في تكوين الرأي العام إما نظريات تقول بأنّ للصفوة أكبر دخل في تشكيل الرأي العام elitist theories، وإما نظريات تقول بأنّ القيادات هي التي يمكن أن توجه الرأي العام، وإما نظريات تقول بأنّ للرأي العام مؤسسات اجتماعية تتولى توجيهه وتشكيله mass-manipulation theories، أو «نظريات» تقوم على دعوى أنّ الرأي العام تشكله مؤسساته الدستورية في الدول الديموقراطية constitutional-democratic theories، أو أنها نظريات تقول بأنّ الرأي العام يتكون عقلياً على أساس من الخطوط الفكرية المحددة التي تجعل لرأي الأقلية مكاناً ضمن الرأي العام،

وتشترط لقيام هذا الرأي العقلاني أن يكون المجتمع على مستوى حضاري وفكري معين، بإحساس جماعي، باعتباره وحدة سياسية منظمة. ويذهب أصحاب هذه النظريات الأخيرة إلى التأكيد على أنّ الرأي العام هو شكل من التنظيم يتجاوز به عن أن يكون مجرد جماع رأي في المجتمع. والرأي العام على هذا ليس هو الإرادة العامة volonté générale التي قال بها روسو Jean-Jacques Rousseau (١٧١٢-١٧٧٨)، وليس إرادة جماهير البروليتاريا the proletariat أو الطبقة الكادحة كما يقول لينين Lenin (١٨٧٠-١٩٢٤)، وإنما هو تنظيم لإرادات الأفراد وآرائهم واتجاهاتهم بحيث يصنع منها جميعاً قوة دافعة لها زخم وحيوية، ويصفه الشاعر الألماني Wieland (١٧٩٩) بأنه: «الرأي الجامع الذي يتسلل إلى كل الرؤوس ويتملكها دون أن تدري»، وهو ما حدا بالبعض إلى أن يعطى اسماً آخر للرأي العام كأن يقول «العقل الجماعي group mind»، وهو اصطلاح يجعل للرأي العام حضوراً نفسياً يفرض إرادته على الأفراد ويدفع سلوكهم. غير أنّ آخرين فسّروا تعريف الرأي العام الأسبق تفسيراً مختلفاً فقالوا: إنّ الرأي العام ينظم كل الآراء في تفاعلاتها ويبلورها في اتجاه يخدم مصالح الجميع (Cooley, C.: Social Organization: A Study of the Larger Mind). ودراسة الرأي العام باعتباره تنظيماً للآراء هي دراسة للعلاقات الاجتماعية التي هي من أخص دراسات علم النفس الاجتماعي وهي تدرس طبيعة هذه العلاقات المكونة للرأي العام وكيفية قيامها واستمرارها وتماسكها ووحدتها وانحلالها. وتتوجه هذه الدراسة خصوصاً إلى البحث في العلاقة بين القيادات والأتباع، أو بين الشخصيات المؤثرة إجتماعياً socially influential personalities وجماهير الناس. وتخصص بعض العلماء في دراسة وسائل السياسيين ورجال الدولة في خلق إرادة عامة a general will بين الجماهير، وتبين أنه لا يوجد رأي عام واحد ولكن هناك تصانيف من الرأي العام بحسب ما أوردناه سابقاً، وأنّ كل جماعة لها قوامها الاقتصادي وكيانها الاجتماعي يمكن أن تكون لها قياداتها

التي تصوغ وتشكل الرأي العام عندها وتدفع توجهات أفرادها، وليس من الضروري أن يفهم القائد في كل الموضوعات، ولكن لكل فرع من المعرفة قيادته المؤثرة في قضايا هذا الفرع، ودراسة علاقات هذه القيادات بأفراد الجماعة هي كشف عن دينامية الجماعة group dynamics، وعن المؤثرات التي تسهم في تكوين الرأي العام بها، إلاّ أنّ وسائل هذه الدراسة ما تزال قاصرة بسبب الطبيعة المتغيرة لميادين الدراسة، ومع ذلك فما توفر منها من معلومات يستخدمه القائمون على أجهزة الإعلام والدعاية والنشر والإعلان خير استخدام حتى عدنا نسمع عن طرق لبلورة crystallization الرأي العام، بمعنى تشكيله، أو بمعنى تغيير اتجاهات الأفراد بحيث نصنع منها اتجاهاً عاماً له وزنه وتأثيره (Bernays, E.: Crystallizing Public Opinion). ويفيد الشعوب في البلاد الديموقراطية أن تأخذ بتعريف الرأي العام بأنه «شكل من التنظيم»، لأنّ الناس بذلك تستطيع أن تتشارك في الرأي وتنظم وجهات نظرها من خلال الندوات والمناقشات والمشاورات، فتصنع من ذلك إجماعاً على اتجاهات معينة هي ما نسميه «إتجاهات الرأي العام». والرأي العام في دور التكوين قبل أن تتضح خطوطه ويعلن عن نفسه بوضوح، يقال له «الرأي العام الكامن latent p.o.»، والحكومات تحسب له ألف حساب في سياستها وقبل أن تقدم على أية خطوة، ومن ثم كان هناك دور دائماً للرأي العام في السياسة. ورغم أنّ اصطلاح الرأي العام لم يستخدم هذا الاستخدام الواسع إلاّ ابتداء من القرن الثامن عشر، إلاّ أنّ المؤرخين يجدون في الكتابات الفلسفية القديمة وفي القرون الوسطى ما يشبه معناه ودلالته (Bauer, W.: Die offentliche Meinung in der Weltgeschichte)، وخاصة في كتابات أفلاطون Plato (٤٢٨-٣٤٨ ق.م.) وأرسطو Aristotle (٣٨٤-٣٢٢ ق.م.) التي تدور حول العلاقات بين الجماهير والحكومات. ونصح ميكافيللي Machiavelli (١٤٦٩-١٥٢٧): أن يحفل الأمراء باتجاهات الرأي العام، وذهب روسو Rousseau إلى القول بأنّ: كل

القوانين ينبغي أن تقوم على أساس هذه الاتجاهات، وأن تكون حرية إبداء الرأي للعامة والخاصة على السواء مكفولة، لأنّ ذلك هو الضمان الوحيد ضد الاستبداد. وقال بنتام Bentham (١٧٤٨-١٨٣٢): إنّ أي مشروع لا يمكن أن يغفل الرأي العام من حسابه. وفي القرن الثامن عشر كان الرأي العام سلاح الطبقات المتوسطة ضد الإقطاع، وقال عنه مفكر مثل شتال Stahl (١٨٠٢-١٨٦١): إنّ الرأي العام إرادة الطبقة الوسطى، وإنه بمؤازرة من الصحافة ستكون للرأي العام الغلبة في كل شيء. وذكر القانوني بلانتشلي Bluntschli (١٨٠٨-١٨٨١) أنّ الرأي العام هو رأي الطبقة المتوسطة. وقال برايس Bryce (١٨٣٩-١٩٢٢) إنه يعتقد أنّ النظام الأمريكي يحكمه الرأي العام الذي تعبر عنه الصحافة والأحزاب السياسية وتظهره الانتخابات. ورأي توكفيل Tockueville (١٨٠٥-١٨٥٩) في الرأي العام أنه يؤثر على توجهات الناس ويهدد حرية الرأي. وهناك العشرات من الكتب والدراسات تظهر سنوياً وتنبه إلى تأثير الرأي العام في تشكيل السياسة الداخلية والخارجية من خلال الاستفتاءات الاستطلاعية وما يسمى جماعات الضغط pressure groups والأحزاب السياسية. وهناك أيضاً العشرات من الكتب والبحوث تدور حول تأثير الحكومات في تشكيل الرأي العام وتوجيهه بالنشر والدعاية والإعلان والرقابة على الأخبار والأفلام والكتب. وربما كان دور الحكومات الاستبدادية أكبر في توجيه الرأي العام من دور الحكومات الديموقراطية. وهناك دراسات في سلوك الناخبين والكيفية التي يتم بها التأثير عليهم من الجماعات التي لها مصلحة في ذلك، ومن الحكومة وأجهزتها الدعائية خصوصاً. وتسهم هذه الدراسات في الكشف عن ديناميات الأنظمة السياسية وخاصة النظام الديموقراطي الذي يقوم أساساً على الانتخاب. وتتجه بعض هذه الدراسات إلى البحث في وسائل الاتصال بالجماهير، وهي التي يكون بها التأثير على الرأي العام، والهدف من دراستها الإجابات عن هذا السؤال الذي يطرحه لاسويل Lasswell (١٩٣٦): من يقول، وما

الذي يقوله، ولمن يقوله، ومتى وأين يقوله، وبأي وسيلة يقوله، ولأي غرض who says what, to whom, how, when and where he says it, through what channel, and with what effect?، ومن ثم اتجه الباحثون في ذلك إلى تناول المتحدثين (من يقول)، والمستمعين (لمن يقول)، والوقت (متى يقول)، والمكان (أين يقول) ودور وسائل الإعلام (الوسيلة)، وما يقال من حيث الطريقة لا المحتوى (الكيفية)، وتأثيره على تكوين الرأي العام. وتبينت عدة حقائق من هذه البحوث، فمثلاً في مجال المشتغلين بالدعاية propagandists، تبين أنهم فئة تتميز بالشخصية المنبسطة شديدة الانبساط، والمتفتحة شديدة التفتح، والتي تميل إلى الاستحواز والسلطة، ولها القدرة البالغة على التنظيم والإدارة، وتحب الدخول في المنافسات. وتبين أيضاً أنّ وسائل الإعلام تهتم جداً بأن يكون لها دور في تكوين الرأي العام وإن كان دورها غير مباشر، ويتم لها ذلك بالتركيز على قضايا معينة أو تفاصيل بعينها دون غيرها. ومن المأثور عند الصحفيين أنّ الخبر المهم هو نفسه الذي تتداوله الصحف ويحظى بالنشر في الصفحة الأولى، ومن ثم فإنّ دور الصحافة كان دائماً تعزيز الأخبار، بمعنى أنّ ما سبق نشره وأثار الاهتمام هو دائماً ما يُعاد نشره والتأكيد عليه. وتساعد وسائل الإعلام على استحداث وحدة فكرية بين الناس، ومن ثم كان دورها في التفاعل الاجتماعي هو الدور الذي يعمل على تماسك الجماهير. وفي كل مجتمع وشعب هناك دائماً صحيفة أولى لها مستوى خاص prestige paper، يهمها أن تنشر للشخصيات المؤثرة في المجتمع، وأن تطلع أهل الرأي في البلد على ما يفكر فيه زملاؤهم، وتكون بمثابة ندوة تناقش من خلالها الآراء ويتم تبادلها. وفي استطلاع للرأي تبين أنّ ٦٠٪ من المشتغلين بالصحافة الأميركية لا يقرأون سوى جريدة النيويورك تايمز، بينما يكتفي بها ٤٦٪ من رجال الإدارة العليا في الحكومة و٣٠٪ من رؤساء الجامعات وعمداء الكليات و٢٨٪ من مديري البنوك، ولنا أن نتصور مقدار تأثير النشر في هذه الجريدة على صناعة

القرار في أمريكا وعلى اتجاهات الرأي العام بالتبعية. وهذه المكانة التي للنيويورك تايمز قد تكون لصحف مثل الأهرام، والبرافدا، والتايمز اللندنية.

وكانت هناك أيضاً دراسات على الجماهير المستمعة أو القارئة، أو المشاهدة، والجماهير دائماً تشدها الأخبار المتاحة، أو لا تهتم إلاّ بما يتعلق بأشخاصها، وعندما تعوزها الأخبار التي تنشدها فإنها تعزف عن وسائل الإعلام وتلجأ إلى أبسط وأقدم طريقة في تداول الأخبار وهي الطريقة الشفاهية بالفم oral means، والقاعدة أنّ الناس يحكمهم في الإقبال على مصادر الأخبار اعتيادهم على الحصول على الأخبار من مصادر معينة، بشرط أن تحفل هذه المصادر بما يهم الناس فعلاً.

والرأي العام كاتجاه يصعب تغييره لو كانت الاتجاهات المبني عليها إتجاهات متأصلة قوية الجذور، ويشق على أعتى المتخصصين في الدعاية أن يغيروا اتجاهات الرأي العام إذا كانت هذه الاتجاهات قائمة على الخبرة للجماعة في هذا المجال، ولصالحهم، ولا تصادم معتقداتهم الدينية، والمثال على ذلك فشل الدعاية ضد الإسلام التي تقوم بها الحكومات الحالية، والفشل الذريع لحملة ما يسمونه «تنظيم النسل»، لعلم الناس أنّ الحملة موعز بها من حلف الأطلنطي والولايات المتحدة لتقليل عدد المسلمين. والذي يمكن تغييره من اتجاهات الرأي العام هي الاتجاهات الطارئة، لأنّ الرأي العام المبني عليها وقتي، ومن اليسير لذلك تعديل الاتجاهات وتغيير الرأي العام. وهذا التعديل والتغيير في الرأي العام يختص به المشتغلون بالدعاية وبالحرب النفسية psychological warfare، ويحاول هؤلاء أن يكتشفوا القضايا المؤاتية لهم، والتي في غير صالح خصومهم، والتي تكون حولها إتجاهات كامنة، أي في دور التكوين، فيركزون عليها ويعززونها وينشطونها بالنشر في وسائل الإعلام، وتسريب الأخبار حولها والإشاعات المدعمة لها. ويستهدف المتخصص specialist في الحرب النفسية أفراد الشعب الذين لا رأي لهم ولم يكوّنوا رأياً بعد، ويوجه دعايته أساساً للإنسان «بين بين»

marginal man، الذي يقترب من وجهة نظره ولكنه ليس في صفه بعد، ويحاول أن يقربه إليه أكثر ويعزز تباعده عن أفراد مجتمعه والخروج عليهم. وللمختصين في الإعلان والدعاية التجارية طريقتهم المتميزة التي تعتمد على الاختيار بين وسائل الإعلام لانتقاء الأصلح لنوع الدعاية التي ينشدونها، والمفاضلة باستمرار بين نتائج هذا الاختيار. ولعل وسائل الإعلام هي خير ما يمكن أن تتوسل به الحكومات في الدول النامية لتشكيل رأي عام، وتكوين اتجاهات لدى الجماهير تدفع عمليات التنمية الاجتماعية، وتغير أنماط حياة الناس، وتؤهلهم نفسياً لهذه التغييرات، وتقوي من تماسكهم حيال القضايا العامة.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Lenin: Agitation and Propaganda.
- Albig, W: Modern Public Opinion.
- Childs, H.: Public Opinion: Nature, Formation and Role.
- Free, L. A.: The Role of Public Opinion in International Relations.
- Klapper, J. T.: The Effects of Mass Communication.
- Smith, Bruce, Laswell, Harold and Casey, R.: Propaganda, Communication and Public Opinion.

❖ ❖ ❖

- ٥ -
سيكولوجية التسويق

التسويق وآلياته النفسية، والحاجات الدافعة إليه، ومباحث الدافعية والسوق...

❖ ❖ ❖

يختص التسويق marketing بتصريف المنتجات بمختلف أصنافها وأنواعها، والدراسة في ذلك يُطلق عليها إسم تحليل السوق market analysis، ومبحث التسويق marketing research، ومبحث المستهلك

consumer research لأنها دراسة تتعلق بهذا كله، ولذلك تتصل سيكولوجية التسويق بسيكولوجية المستهلك، وسيكولوجية الإعلان، وسيكولوجية السلعة نفسها لارتباطها بعمليات السوق. وتسيطر على التسويق قوانين إقتصادية لعل أهمّها هو قانون العرض والطلب supply and demand law، ولكن الذي يعرض إنسان له سلوكياته ودوافعه المادية والنفسية وحاجاته، وكذلك الطالب للسلعة، واتخاذ القرار إذن في البيع والشراء أمر يتصل بالدوافع النفسية والميول، وتحقيق القرار وتنفيذه إجراء سلوكي من مجالات علم النفس.

ولم يكن إتصال علم النفس باقتصاديات التسويق إلاّ بعد أن أصبح الإنتاج بالكثرة التي أغرق بها السوق بالسلع المتنافسة من حيث الأسعار والمميزات التي لكل منها، فصار ينبغي دراسة سلوك المستهلك والتعرف إلى حاجاته، وشخصية السلعة، وسماتها التي يمكن أن تؤثر في الجمهور فيكون الإقبال على شرائها. وللحاجات النفسية دورها الكبير من حيث هي دوافع للشراء.

والمشتغل بالتسويق، بالإضافة إلى وعيه بقانون السوق، إلاّ أنه يتوجب عليه الإلمام بالدراسات النفسية السلوكية، وهو يعرف أنه سواء كان منتجاً، أو بائعاً، أو معلناً عن السلعة، فإنه يجب أن يضع في أي من حساباته سيكولوجية الجمهور، وما يريده الناس، والطريقة التي يمكن بها إقناعهم بشراء سلعة معينة، والعوامل التي تتحكم في تفضيل سلعة من النوع نفسه، والطبقات الاجتماعية والحاجات الدافعة عند كل منها، والخدمات التي تحتاجها، ومراتب الناس الاقتصادية، والفروق النفسية التي يمكن أن تصنع الشخصية وتوجهها.

والحاجات النفسية للجمهور من المبادئ الأساسية التي يجب مراعاتها، كالحاجة إلى الراحة، والحاجة إلى الترف، والحاجة إلى الأمن، والحاجة إلى الصحة. وتجد السلعة التي تشبع هذه الحاجات رواجاً كبيراً عن غيرها. ولا شك أنّ «الحاجة الجنسية، والحاجة إلى الطعام» من أكثر الحاجات إلحاحاً لدى الناس، وتتطلب الإشباع باستمرار. و«الحاجة إلى الظهور» دافع قوي للإقبال

على السلع الاستهلاكية الترفية. ويراعي الإعلان عن السلعة وإنتاجها وتغليفها وعرضها، كل هذه الحاجات.

وللسوق مباحث تهتم بدراسة الدوافع، منها مبحث الدوافع motivation research، وهو مبحث خاص بالدوافع الباطنة والظاهرة، أو الشعورية واللاشعورية، التي تتحكم في العرض والطلب والبيع والشراء. وتتميز السوق الاستهلاكية بوفرة المنتج المعروض من السلعة نفسها، حتى أنّ المفاضلة بينها صار لا بد فيه من خبراء في التسويق لهم القدرة على التوجيه إلى خصائص كل منتج، والتنبيه إليها بالإعلان، وتوجيه الإنتاج إلى ما يريد المستهلك وما تحتاجه السوق الاستهلاكية فعلاً. وهؤلاء الخبراء أنفسهم الذين يختصون بإيجاد الحاجة إلى الشراء وعمل الدعاية التي من شأنها أن يتجه الإنفاق العام إلى سلع دون سلع.

ويختص مبحث السوق market research بدراسة حاجات المستهلكين، والمنافسة بين المنتجات، والطرق النفسية للتأثير على المبيعات. ولا شك أنّ الإيحاء والإقناع والإغراء من أساسيات هذه الطرق، وأنه بعد طرح السلعة للعرض الذي يراعي هذه الأساسيات فلا بد أن تكون للسلعة فعلاً من المزايا ما يجعلها مقنعة في ذاتها للمستهلك. ويضع المنتج (بكسر التاء) في حسابه جمهور المستهلكين لسلعته، ويقوم برصد آرائهم والتعرف على أفكارهم، ويتبع في ذلك طرق قياس الرأي العام. والدعاية للسلعة والإعلان عنها من بحوث سيكولوجية الإعلان. ولعل مجال الإعلان من أهم عناصر التسويق، بالاضافة إلى دراسات الإنتاج، ومباحث السوق ومباحث الدوافع للاستهلاك. والإعلان advertising فيه توجيه وإرشاد، ويعتمد على الإقناع والتأثير من أجل الحث على شراء السلعة وترويج وجهة نظر المنتج وتفسيرها. ويقوم التسويق marketing على الجهد الجماعي لفريق من المتخصصين في كل المجالات المتصلة بالتسويق، من إنتاج، وعرض، وبيع، وإعلان. والمشتغلون بالتسويق يعملون معاً في إطار ستراتيجية إبتكارية تحدد

الأهداف، وتقترح الأفكار، وترسم الخط التسويقي الأساسي، والحملات الإعلانية، والأشكال المختلفة التي ستكون عليها السلعة، وتغليفها، واسمها، وعلامتها التجارية، والإعلانات التي تضم ذلك كله وتعين على تسويقها. والمنتج (بكسر التاء) يهمه التصريف للسلعة قبل أن تتكدس، وهو نفسه الذي يطلب من عالم النفس أن يحدد له مزاج الجمهور، ومتطلباته في السلعة، وما يمكن أن تكون عليه، والشكل الذي به تؤثر على حركة الشراء والبيع، والاسم التجاري والعلامة التجارية. والمنتج (بكسر التاء) هو المعلن عن السلعة.

ومن أهم وسائل التسويق للسلعة أن تكون مشبعة، أو واعدة بإشباع حاجة من الحاجات الأساسية basic needs أو النفسية، وأن يراعى في إنتاجها ميول الجمهور، وأن يكون لها الشكل والألوان والحجم الجذاب، وأن تكون على درجة من الجودة في التصميم والإنتاج حتى لتفرض نفسها وتزيح غيرها من المنافسة، بالقبول الذي يكون لها عند الجمهور، وأن يكون للإعلان عنها مصداقية تزيد من ثقة الجمهور في السلعة. وهذه الثقة مطلب نفسي يلح على كل جانب من جوانب التسويق، حتى إنه ليمكن أن يشكل الهدف الأول للمشتغل به. ومن الأسس الهامة في التسويق أنّ تثبت السلعة في ذاكرة الجمهور، بحيث تستدعي صورتها الحاجة التي تشبعها الصورة وتدفع إلى أن يطلبها. وتثبيت «صورة السلعة»، يتوجب معه أن يكون إنتاجها له صفة «الاستمرار»، وأن يتكرر الإعلان عنها فترتبط الحاجة إليها بالاسم التجاري للسلعة وشعاراتها. ويستخدم المنتج (بكسر التاء) عنصر الانفعالات ليخلق جواً نفسياً psychological atmosphere خاصاً حول السلعة، يستشعر فيه المستهلك أنه أفضل حالاً باقتنائها. وهذا الجو النفسي هو الذي يدفع إلى أن يعتمد الأفراد على السلعة كلما أعوزهم هذا الجو النفسي. وهذا الإقناع بجودة السلعة هو الذي يساعد على الإيحاء باقتنائها.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Schwartz, G.: Science in Marketing.
- Crane E.: Marketing Communications.
- Katona, G.: Psychological Analysis of Economic Behavior.
- Stigler, G.: The Theory of Price.
- Haire, Mason: Projective Techniques in Marketing Research.

❖ ❖ ❖

- ٦ -
سيكولوجية المستهلك

بحوث المستهلكين وبحوث السوق والإعلان. طرق جذب المستهلك، وشروط الإعلان الجيد، سيكولوجية الشراء والبيع. شخصية السلعة وتأثيرها على المستهلك...

❖ ❖ ❖

هذا ميدان جديد نسبياً من ميادين علم النفس يخدم النواحي التطبيقية في التجارة والاقتصاد، ويجد الإقبال عليه وأوجه الإنفاق التي يتطلبها من مختلف الجهات المعنية.

وتتوجه الدراسات النفسية إلى الدوافع motives التي تحفز المشتري والبائع إلى الشراء أو البيع، وديناميية المواقف المختلفة بينهما، وسيكولوجية كل منهما، وطرق التأثير والإقناع التي يمارسانها، وطرق الإعلان الفعالة عن السلعة، والتأثيرات النفسية للتغليف وللعرض، وديناميات السوق، وما يمكن أن تستحدثه الأزمات والإشاعات في نفسية البائع والمشتري، وعناصر العرض والطلب، وما يشد منهما في السلعة من عوامل نفسية مما يرفع الطلب أو يخفضه. وهي دراسات حديثة يؤرخ لها ببداية القرن العشرين، وتغطي مجالاً كبيراً من مجالات علم النفس، وتستخدم الكثير من طرقه وقياساته النفسية، وتطبق كشوفه في التعلم وتكوين العادات، وتربطها بسلوك المستهلكين، وتستخدم سيكولوجية الدوافع، والتقنيات الإحصائية المطبقة في مجال الدراسات على الدوافع، وخبرات عالم النفس

المعملية والميدانية، واستخداماته للقاءات والاستطلاعات، ومناهجه السلوكية. وتتصل سيكولوجية المستهلكين بفرع آخر من البحوث يطلق عليه إسم مبحث المستهلك consumer research أو مبحث السوق market research، وهو مجال جديد أيضاً من المجالات التطبيقية لعلم النفس، ويختص لردود الفعل النفسية للإعلانات عند المستهلك، واستجاباته حول تغليف السلعة، والحاجات التي تشبعها عنده، وقيمة إسمها التجاري. ويدرس من ذلك خصائص شخصية المستهلك، وارتباط السلعة لهذه الخصائص، ودوافعه النفسية خلف سلوك الشراء، والاختبارات النفسية التي يمكن أن تصلح لمثل هذه الدراسة وتصميمها. ومن الطبيعي أن تفرد للإعلان بحوث، «ومبحث» الإعلان advertising research من الأبواب الجديدة في التطبيقات النفسية، وكانوا قديماً يضعون قائمة من الحاجات الأساسية للمعلن، كالحاجة إلى الطعام، أو الجنس، أو الحاجة إلى الاعتراف والتقدير، أو الحاجة إلى بلوغ المكانة الاجتماعية المحترمة، ثم يطلبون منه أن يختار أن يكون إعلانه في إطارها، بحيث يشبع في المعلن هذه الحاجة ويدفعه إلى شراء السلعة التي توفر هذا الإشباع، إلاّ أنهم حالياً يكتفون بعمل الاستطلاعات للإحاطة بكل العوامل الجاذبة للسلعة، ثم يصمم الإعلان في حدودها، فإذا تبين مثلاً أنّ جمهور المستهلك يشده إلى سلعة، كأن تكون مكنسة كهربائية، أنها سريعة وسهلة التناول والاستعمال، فإنّ الإعلان يتضمن ذلك ويؤكد هذه الناحية. والمعول عليه أنّ الإعلانات التجارية تراعي دائماً النواحي الإيجابية في السلعة، وأحياناً قد تلجأ إلى أن يكون الإعلان بحيث يحيط المستهلكين بما يمكن أن يكون حالهم عليه لو أنهم لم يستعملوا هذه السلعة. وهذه الناحية السلبية في الإعلان لها محاذيرها، وقد يترتب عليها أن يكون ما يعرضه الإعلان نواح تتنافى مع الجماليات التي ينبغي أن يتحلى بها الإعلان التجاري دائماً، والأولى دائماً في حالة بيان هذه النواحي السلبية أو القبيحة أن تصاحبها نواح إيجابية تعالج هذه النواحي السلبية وتقول

للمستهلك إنّ هذه السلعة قد تلافت أوجه النقص أو القصور هذه بالمواصفات التالية.

ويلجأ المعلنون إلى وسائل أخرى تؤكد مضمون الإعلان، بخلق جو خاص في الإعلان، بالصورة والألوان والخلفية واللغة والموسيقى المصاحبة. وتبين لعلماء النفس أنّ «الألوان» مثلاً لا تصلح جميعاً لأي جو نفسي، فلقد سئل بعض الناس حول ما يثيرهم في ثمانية ألوان، فذكروا أنّ اللون «الأحمر» مهيج، بينما اللون «الأخضر» مهدئ، وهكذا في كل الألوان، ومن ثم لم يعد المثل الجاري على ألسنة المعلنين أنّ كل شيء جائز طالما أنّ الإعلان لونه أحمر، ولكنهم أخذوا ببحوث علماء النفس، فإذا أرادوا مثلاً الإعلان عن السجائر بالنعناع، فإنهم يجعلون خلفية الإعلان مزارع خضراء، فيؤكدون بذلك على فكرة الطعم المنعش البارد للنعناع.

و«قراءة الإعلان» مهمة، وذلك أنه قد تبين بالبحث أنّ القارئ يكون أسرع في أن يخطف الإعلان بصره إذا كانت كلمات الإعلان باللون الأسود أو الأخضر، أو الأزرق على خلفية بيضاء، ويقبل اللون الأسود كذلك أن يكون على خلفية صفراء. وتبين أيضاً أنّ الخلفية المألوفة غير المستغربة خير من الخلفية غير العادية، وأنه إذا ارتبط الإعلان بوجه معين أو شخصية تظهر فيه فالأولى الاحتفاظ بهذا الوجه أو الشخصية دائماً، ومن ثم كان تدقيق شركات الإعلان في نمط الشخصية المصاحبة للإعلان، فإذا كانت السلعة من النوع الذي يكمل أناقة المستهلك، إختارت الشركة شخصية تتميز بهذه الأناقة.

ومن الأهمية بمكان إختيار «لغة الإعلان» لوقعها النفسي على السامع أو القارئ. وينبغي أن تناسب اللغة الخدمة التي تقدمها السلعة. وليس من المستحب إغراق المستهلك بلغة تقنية، فكيفية أنّ السلعة هذه لسد الحاجات تلك. ويجب أن تكون العبارات التي للإعلان ذات جرْس وإيقاع، وأن تكون موجزة أشبه بالحكمة، وأن يختار «إسم السلعة» ليتوافق في نطقه مع نوع الخدمة، وليسهل نطقه وتذكره، فمثلاً لو كان الإعلان عن عطر فإنّ الأنسب أن يسمى «أريج»، وإذا كان عن

صابون فلا بأس باسم «عجيب». واختيار الاسم يتمثل فيه ذوق الشركة المنتجة، وتتفنن بعض الشركات في شد المستهلك إليها، فمثلاً شركة تبيع ألبان الأطفال ترسم على العلبة صورة أم تُرضع طفلها، وتحت الصورة تكتب: «إليك أيتها الأم الرؤوم، وبالصحة والعافية لطفلك». وبعض الشركات قد تستخدم كاسم لها، الخدمة نفسها التي تقدمها، مثل شركة الثلاجات فريجيدير، فاسم فريجيدير يعني ثلاجة. وكثيراً ما تلجأ هذه الشركات إلى علماء النفس ليحددوا لها «شخصية» السلعة، أي الصورة التي عليها عند المستهلكين، وانطباعاتهم النفسية التي تشكل الفكرة عن السلعة التي تجعلهم يقبلون عليها أو ينفرون منها. ومن الوسائل التي يستخدمها علماء النفس لقياس هذه الصورة الشخصية للسلعة، قائمة بأوصاف يختار المستهلك منها أنسبها للسلعة، أو أليقهم بالشركة المنتجة لها. فمثلاً وُصفت السيارة المرسيدس بأنها «الوقور»، وقيل عن شركة بليموث إنها شركة تتميز بالجمال والذوق.

ويراعي علماء النفس في الإعلان لكي يشدوا المستهلك أن يكون مفهوماً ومثيراً للانتباه ومؤثراً على الجمهور، وأجروا لذلك دراسات نفسية على تأثير الاختلافات في «حجم الإعلان والمساحة» التي يمكن أن يشغلها من الصحيفة مثلاً، «وتكرار عرضه» وتأثير ذلك على الذاكرة، وتبين أنّ تكبير الإعلان يضاعف من جمهور قرائه له أو مشاهديه، ومن ثم يضاعف من شراء السلعة، وتضيف المساحة الزائدة من إمكانية زيادة العبارات الحافزة على اقتناء السلعة، وأحياناً يكون نشر الإعلان على صفحة كاملة - بدون إضافات المساحات الإضافية بيضاء - فعالاً جداً. وأحياناً يفيد الإعلان أن ينشر على أكثر من صفحة في الجريدة نفسها، وذلك أدعى أن يتذكره القارئ عن الإعلان على صفحة واحدة، وتزيد فرصة الإعلان المنشور على الصفحة الأولى عن الإعلان المنشور بالداخل بمقدار يتراوح من ٣٤٪ إلى ٦٤٪، وأما الإعلانات المنشورة داخلياً فلا تفاضل بين صفحة وصفحة، إلاّ أنه من المستحسن أن ينشر مثلاً عن

الكتب الجديدة في باب الأدب. وتبين أنّ الإعلان على نصف صفحة خير من الإعلان على صفحة واحدة، وأنّ الإعلان بالأبيض والأسود يستوي في التأثير مع الإعلان بلونين مع فارق التكلفة، وأما الإعلان بأربعة ألوان فإنه يزيد القراء له بنسبة تصل إلى ٥٤٪. وكذلك فإنّ القارئ يُقبل أكثر على الإعلان الذي يحتوي على صورة لأناس يستخدمون السلعة، عن الإعلان الذي به صورة السلعة فقط. وهناك طريقتان لمعرفة تأثير الإعلان على المستهلك، الأولى أن نستوضح إنعكاسه على الجمهور وانتباهه واهتمامه، والثانية أن نتبين ما إذا كان الإقبال على شراء السلعة يزيد فعلاً بالإعلان عنها. وقد تختار لذلك هيئة محكمين من المستهلكين، ويسألون بالهاتف أو شخصياً عن أفضل الإعلانات عن هذه السلعة أو تلك consumer jury technique أو يكون هناك استطلاع قراءة readership survey، فيُطلب من القارئ أن يختار من بين أسماء الشركات الآتية أياً منها قرأ عنها إعلاناً في الصحف أو المجلات، وما هو هذا الإعلان، أو أن يعرض الإعلان على القارئ بدون أن تصاحبه عبارات، ويطلب منه أن يتذكر إسم السلعة والشركة وعبارات الإعلان. وقد يختبر الإعلان قبل نشره بطريقة عرضه عرضاً خاصاً (controlled exposure technique) على هيئة متخصصة، أو عن طريق نشرة توزع ويطلب من القراء إبداء ملاحظاتهم عليه، واستجاباتهم النفسية له. غير أنّ أهم الاختبارات لتأثيرات الإعلان على الجمهور هي بلا شك إختبارات إقباله على شراء السلعة، ولقد تبين أنّ الإعلان عموماً يزيد الشراء بمقدار ١٣٪.

وتتخصص بعض الدراسات في مسح الاتجاهات النفسية للمستهلكين من ناحية سلعة معينة. ويستفاد باستطلاعات المستهلكين consumer surveys في إنتاج سلع جديدة تفي بحاجاتهم وترضي اتجاهاتهم، سواء من جهة السلعة نفسها، أو تغليفها، أو اختيار إسمها التجاري، أو العلامة التجارية. وبعض الاستطلاعات نعرف منها إستخدامات الجمهور للسلعة والفوائد التي يجنيها منها ولم تكن معروفة للمنتجين. وإجراءات

الاستطلاعات هي إجراءات استطلاعات الرأي العام نفسه. ومن المهم إختيار الطريقة المناسبة للاستطلاع، هل هي عشوائية، أو طبقية، أو معينة مساحياً، وتحديد حجم العينة، وتصميم الأسئلة لتناسب الغرض منها، سواء كان ذلك عن طريق الهاتف، أو البريد، أو الزيارات في البيوت، وتدريب القائمين بهذه الزيارات. وقد تكون لهذه الطريقة الأخيرة محاذيرها، لأنّ الناس في البيوت قد يجاملون المستطلع إذا كان من معارفهم، وقد يتأثرون باتجاهاته النفسية وتعليقاته، وطريقة نطقه للسؤال، وتعبيرات وجهه أثناء ذلك. وتبين أنّ بعض الناس بهم عزوف عن الإجابة الكاملة، ويؤثرون الإجابة بنعم أو لا دون استطراد، والبعض قد يوافق على طول الخط، أو يعاند ويرفض على طول الخط.

وللشكل الذي عليه الاستطلاع تأثيره أيضاً على الجمهور، ففي استطلاع عن بعض أدوات الطهي كانت الاستجابات بالإيجاب إذا كانت الأسئلة مصحوبة بصور للسلعة، بينما كانت الاستجابات سلبية إذا كانت الأسئلة مقصورة على الكتابة. وكذلك فإنه في استطلاع لأفضل البرامج في التليفزيون، كانت الإجابات كاملة إذا ساعد المستطلع الجمهور بأن يذكر ضمن ورقة الاستطلاع أسماء كل البرامج التي يقدمها التليفزيون، بينما كانت الإجابات ناقصة ومبتورة عندما ترك الناس يتذكرون لأنفسهم أسماء البرامج.

وهناك طرق عديدة لتحري آراء المستهلكين، منها إنشاء «جماعات المستهلكين» للرجوع إليهم فرادى عن طريق الهاتف أو بالمقابلة الشخصية. وهناك طريقة تعديد الأسباب بسؤالهم عن أسباب إقبالهم على السلعة. وقد يسألون عن بعض ملابسات شرائهم للسلعة مما يشكل طرفة أو ملحة، وقد يجرى لهم لقاءات استعماق لدوافع استخدامهم للسلعة، واختبارات تداعي وتكملة الجمل، كما يمكن أن يرصد سلوك المستهلكين أثناء تقليبهم السلعة ومشاهدتهم لها، واهتمامهم بجزئية منها أو سؤالهم عن شيء بخصوصها بواسطة كاميرا خفية.

وهناك بحوث نفسية حول خصائص

شخصية مستهلك السلع المختلفة، فبالإضافة إلى المعارف التقليدية التي يمكن أن نحيط بها عن عمره، وجنسه، ومستواه التعليمي، ووظيفته، ومستواه الاقتصادي، هناك سمات للشخصية يمكن استشفافها من سلوك المدخن مثلاً بسؤاله أسئلة غير مباشرة، وقد تبين أنّ المدخنين عموماً يتميزون بشخصية عدوانية، وأنّ بهم حاجات ضاغطة للظهور، وللتحصيل، وتحقيق النجاح، وبلوغ المكانة الاجتماعية، والاعتراف بهم في الهيئة الاجتماعية، بينما تبين أنّ العازفين عن التدخين يتميزون بالهدوء، والموافقة على ما يُقال لهم أو يطلب منهم، وتوخي النظام. وفي اختبار على طلبة الجامعة لمعرفة إرتباط الشخصية بالاتجاهات الاستهلاكية تبين أنّ الطلبة الذين يتناولون عقاقير مهدئة أو مسكنة يشكون من الاضطرابات الانفعالية وبهم عصبية ظاهرة، وأنّ من يبالغون في تتبع «الموضة» من أصحاب الشخصية المنبسطة، وأميل إلى المعاشرة، وبهم حاجة ظاهرة إلى أن يحبوا ويكونوا محبوبين، وأن يكون لحضورهم وشكلهم تأثيرات على المحيطين بهم.

وأما مبحث الدوافع motivation research فهو من المباحث المتصلة بعلم المستهلكين، ويختلف عن كل المباحث السابقة التي تدخل في مجال هذا العلم. وهو ينصرف إلى دراسة الدوافع التي تدفع إلى الشراء، في حين أنّ «مبحث الإعلان» مثلاً يقتصر على دراسة أعمار المستهلكين ومستواهم ودخولهم وكمية ما يشترون، ولذلك فإنّ مبحث الإعلان مبحث كمي، في حين أنّ «مبحث الدوافع» مبحث كيفي. ويلتقي الباحث بالمستهلك ليعرف منه بواعث سلوكه الشرائي الذي يتجاوز الحاجة للسلعة إلى أسباب باطنة ربما تجعله يميل إلى القهوة مثلاً دون الشاي، وربما كان ذلك لحاجات نفسية أبعد من الحاجات المادية، فالقهوة قد تكون منبهة أو منشطة، ولكن هذا المستهلك لا يحتسيها لهذا السبب الظاهر، وإنما ربما لأنّ شرب القهوة يكون مع آخرين فيتيسر فتح الكلام معهم والتحدث في شتى الموضوعات، وربما يكون هذا المستهلك من النوع الذي يتأثر

بالجلسة، أو يميل إلى الاعترافات، أو يحب السيطرة على الناس، أو يميل إلى أن يصدر في سلوكه عن حاجة ملحة لأن يكون محبوباً، وربما تكون به حاجة للاستطلاع، ولعله لهذا السبب أيضاً تروج قراءة الفنجان والإقبال على احتساء القهوة بالنظر إلى كل هذه الاعتبارات النفسية السابقة. وقد يلجأ الباحث إلى الاستخبار questionnaire، بأن يسأل المستهلك أسئلة غير مباشرة حول السلعة يستشف منها شخصيته، فمثلاً يميل الناس الذين بهم حاجة إلى السيطرة والذين بهم دوافع جنسية قوية إلى شراء السيارات التي تتميز بالسرعة الكبيرة، لأنّ قيادتهم لهذا النوع ترضي نزعتهم المسيطرة، فيجدون السعادة كل السعادة وهم يقودون هذه السيارات ويكادون يطيرون بها. وكذلك فإنّ السيارة رمز للمرأة والسيطرة عليها رمز للسيطرة على الدوافع الجنسية، ومرور السيارة بسرعة رمز للعملية الجنسية. غير أنّ القائم بالاستخبار قد يغلو في تحليل المستهلك ويشطح به الخيال فيربط بين إقباله على سلعة معينة وخصائص نفسية يخترعها اختراعاً له. وبعض المستهلكين لهم دراية بالتحليل، وعندما يتبينون نوع الأسئلة فإنهم يميلون إلى تفسير سلوكهم تفسيراً تحليلياً بحيث قد يقدمون دوافع له غريبة حقاً. وتذكر مراجع «سيكولوجية المستهلك» طرائف عن ذلك، فمثلاً ذهب أحد المستهلكين تفسيراً لإقباله على شراء علب الشوربة، أنه ربما يحن إلى العودة إلى رحم أمه، وربما ذلك منه ميول نكوصية، وطبعاً فإنّ الشبه بين الرحم والشوربة هو أنّ الرحم كما هو معروف به السوائل الرحمية التي يكون فيها الجنين في أمان وراحة.

ويذهب بعض العلماء إلى إطلاق إسم «سيكولوجية التسويق marketing psychology» على كل ما سبق، كما يسمون مبحث الإعلان «سيكولوجية الإعلان advertising psychology» وما تزال البحوث تتوالى حتى ليمكن أن نقول أنّ الاتجاه إلى إقامة «علم نفس للتسويق marketing psychology» هو اتجاه يفرض نفسه، بالنظر إلى ضخامة البحوث في هذا الميدان وخاصة في مجال الإعلان، وباعتبار أنّ عالم اليوم والغد هو مجتمع

الوفرة affluent society، حيث الإنتاج بالجملة، والشركات يزداد تنافسها محلياً وعلى النطق الدولي. ولم تكن هناك حاجة قديماً إلى الإعلان عن السلع، فإنتاجها كان محدوداً جداً، وعلى نطاق ضيق، وكانت المجتمعات آنذاك مجتمعات ندرة rarity societies، والطلب على السلع محدوداً بالنظر إلى تهافت الدخول، فلما بدأ التنافس الإنتاجي بدأ معه التنافس على جذب المستهلك، وكان المعيار القديم للطلب هو «الحاجة إلى السلعة»، وأما المعيار الحديث للطلب فلقد صار «جاذبية السلعة»، ومن ثم يقول أصحاب تسمية «سيكولوجية التسويق» أنّ الهدف من هذا المبحث ليس الكشف عن ديناميات السوق، بقدر ما هو إلقاء الضوء على عملياته اللامعقولة، واستخدام تطبيقات علم النفس لا لخدمة التجارة، ولكن لخدمة الحد من استغلال جمهور المستهلكين من قبل الشركات التجارية والصناعية.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Katona, G.: Psychological Analysis of Economic Behavior. -

Scott, W.: Psychology of Advertising. -

Juster, F.: Anticipations and Purchases: An Analysis of Consumer Behavior. -

❖ ❖ ❖

الباب السادس

علم النفس
والطب النفسي والصحة النفسية

1

– ١ –

سيكولوجية الصحة النفسية

الصحة النفسية والتوافق الشخصي. الصحة النفسية مسؤولية إجتماعية. الصحة النفسية والصحة العقلية. الطب النفسي الاجتماعي. تعريفات الصحة النفسية...

❖ ❖ ❖

مجال الصحة النفسية mental health هو التوافق الشخصي، بمعنى أن تأتي التنشئة الاجتماعية بحيث تنمو شخصية الفرد متوازنة تتحقق بها احتياجاته ومطالب المجتمع، وتتكيف مع مقتضيات البيئة. والصحة النفسية دعوة لكي لا تكون علاقة الفرد بنفسه علاقة سوية، بينما علاقته بالعالم من حوله مضطربة، وكذلك لا يمكن أن يتحقق للفرد الفهم للعالم ومطالبه، وأن تكون علاقته به سوية، وهو نفسه يشكو إضطراباً نفسياً أو عقلياً.

واصطلاح الصحة النفسية من المصطلحات النفسية الحديثة نسبياً والتي ارتبطت بالطب النفسي psychiatry، ومثلها مثل الطب النفسي كان الأصل في استخدامها ينصرف إلى الصحة العقلية كما كان الأصل في الطب النفسي أنه الطب العقلي. وقد ورد اصطلاح «الصحة العقلية mental hygiene» لأول مرة سنة ١٩٠٨ في كتاب «عقل قد وجد نفسه A Mind That Found Itself» لمؤلفه كليفورد بيرز Beers، وكان هو نفسه يشكو إضطراباً عقلياً ظل بسببه يعالج في المستشفيات العقلية، وقد عانى من سوء أحوالها، فلما شفي كتب سيرته الذاتية، ودعا إلى نظرة جديدة متفتحة للمريض العقلي وعلاجه، وذكر فيما ذكر أنّ «الوقاية» من المرض العقلي ينبغي أن تسبق «علاجه»، وأنّ هذه الوقاية تقتضي وعياً صحياً بما ينبغي أن يكون عليه الزواج حتى لا تنقل الأمراض العقلية بين الناس بالوراثة، وما يجب أن تأتي عليه تنشئة الصغار حتى لا يصابوا بالأمراض العقلية. ونبه بيرز إلى أنّ الصحة العقلية مسؤولية إجتماعية، وأنّ اضطراب العقول

هو النتيجة الحتمية لسوء فهم الفرد لنفسه، وسوء فهم المجتمع له، وأنّ إصلاح العقول مطلب عام يوجب العناية بالفرد منذ الطفولة، وأنه لكي تنصلح العقول وتسلم من المرض لا بد أن تنصلح العلاقات الاجتماعية جميعها. وقد قرأ عالم النفس الكبير وليام جيمس William James (١٨٤٢-١٩١٠) كتاب بيرز وتأثر به بشدة، وكانت له هو نفسه تجربة مماثلة حيث كان قد تشكك في جدوى دراسة علم النفس بدون توظيف هذه الدراسة إجتماعياً، بحيث يكون علم النفس أيديولوجية ينطبع بها سلوك الناس في حياتهم وعلاقاتهم اليومية، وتقوم على كشوفه ومقاصده العلاقات بين الدول والجماعات والأفراد. وتأثر الطبيب النفسي أدولف ماير بالكتاب أيضاً، وبسبب جيمس وماير ذاع استخدام إصطلاح «الصحة العقلية» في أميركا كعنوان للدعوة للعناية بالمرضى العقليين النفسيين وتحسين طرق علاجهم، والعناية بضعاف العقول، وتوضيح الدور الذي يلعبه الاضطراب العقلي والنفسي في تربية الطفل، وفي علاقات العمل والوظيفة والتجارة وانحرافات السلوك.

وانتقل الاصطلاح إلى اللغة الألمانية، إلاّ أنه تغير إلى «الصحة النفسية Psychische Hygiene، أو Psychohygiene» باعتبار هذه الدعوة تتجاوز العلاج والعناية بالعقول إلى علاج النفوس والعناية بها. والاضطراب النفسي أشمل من الاضطراب العقلي، والدعوة للإصلاح تتوجه إلى نفوس الناس، وصحة الفرد النفسية، وكذلك صحة المجتمع النفسية. وتقوم الدعوة إلى الصحة النفسية على توجيه العناية بالأفراد في المجتمع ليأتي نمو الشخصية نمواً متكاملاً ومتوافقاً ويأتي كتاب «Psychische Hygiene» لمؤلفيه «بريزنا»، «وسترانسكي» Brezina and Stransky سنة ١٩٣١، كأول كتاب يرد فيه اصطلاح «الصحة النفسية» صراحة بدلاً من «الصحة العقلية»، وتستخدم فيه الدعوة إلى الصحة النفسية مقولات التحليل النفسي عند فرويد، وينبه فيه إلى أنواع الاضطرابات التي أطلق عليها إسم الاضطرابات النفسية الجسمية

psychosomatics، وهي اضطرابات جسمية إلاّ أنّ علاجها جسمياً فقط لا يجدي في شفائها، ولن يفهم في علاجها الطبيب العادي، وإنما يحتاج المريض بها إلى علاج نفسي بالإضافة إلى العلاج بالأدوية. ولقد أطلق مينج Meng مثلاً سنة ١٩٣٩ على أنواع الذهان من هذا النوع إسم الذهان العضوي organic psychosis يعني أنه مرض عقلي عضوي وليس عقلياً فقط، أو عضوياً فقط، وتطلب الأمر من ثم للحديث عن هذه الاضطرابات إستخدام لغة خاصة وصفت بأنها لغة psychosomatic أي لغة نفسية عضوية.

ولدعوة الصحة النفسية الآن مجالات علمية باسمها، وهيئات دولية تشترك فيها معظم دول العالم، وتعقد المؤتمرات باسمها. والصحة النفسية دعوة عريضة تأخذ بنصيب من كل العلوم، ويختلف تعريفها بحسب زاوية رؤية العالم المتصدي لتعريفها، والعلم الذي يشتغل به. وأصحاب الدعوة إلى الصحة النفسية يذكرون أنّ رسالتهم هي مساعدة الأفراد على أن تكون لهم البصيرة والشخصية للتصدي لمشاكلهم اليومية والقدرة على حلها. ورغم أنّ فرويد ليس من دعاة الصحة النفسية إلاّ أنّ رسالة التحليل النفسي هي الرسالة نفسها، وكان فرويد يقول إنه حيثما يكون الهو id فحتماً لا بد أن يوجد الأنا ego، ومعنى ذلك أنّ الوعي بالدوافع اللاشعورية يقوي الأنا ويجعله أقدر على السيطرة على السلوك وتوجيهه الوجهة الصحية البناءة. ويركز المهتمون بالصحة النفسية من المشتغلين بعلم النفس الاجتماعي على العلاقات التفاعلية، وفي ذلك يقول سوليفان Sullivan (١٨٩٢-١٩٤٩): «إنّ الصحة النفسية هي الحالة التي يكون عليها الفرد عقلياً ونفسياً نتيجة تحسينه لكفاءته كإنسان، وإشباعه لحاجاته، وتحقيقه لبعض النجاحات في الحياة». وينبه إيريك فروم Erich Fromm (١٩٥٠) إلى البعد الاجتماعي الذي يصنع الصحة النفسية، من حيث أنها توافق الفرد مع بيئته النفسية، وعنده أنّ الفرد المتمتع بالصحة النفسية هو المنتج الذي لا يستشعر الغربة النفسية في موطنه،

والذي يحب الناس وينسب نفسه إلى العالم كله، ويستخدم عقله ليفهم الواقع بموضوعية، ويعي أنّ له فردية وأصالة، وأنه والناس سواء، وأننا جميعاً إخوة كبشر، وتجمعنا أهداف واحدة وهي أن نعيش في سلام مع أنفسنا والعالم من حولنا، وأن نجعل من هذا العالم شيئاً جديراً أن نعيش فيه، كما نجعل من أنفسنا آدميين جديرين أن يعيشوا في هذا العالم، وتكون لهم السيطرة على مقدراته وتوجيهها إلى الخير دائماً. والشخص الذي يتمتع بالصحة النفسية لا يمكن أن يقبل أن يعيش تحت نير الاستبداد، والاستبداد لا يمكن إلاّ أن يصنع من الأفراد الذين يعيشون في ظله مرضى نفسانيين. والذي يتمتع بالصحة النفسية لا يرضخ إلاّ لصوت العقل والضمير، وفعله للخير، واتباعه للحق، وطلبه للجمال، وسعيه للحرية، كل ذلك ينبع من نفسه. وهو يقدر الحياة ويعرف أنها أسمى ما يمكن أن يوهب للإنسان من النعم والخيرات، وأنّ حياته هي نعمة متجددة دوماً، وأنّ كل يوم يمر عليه هو بمثابة الميلاد الجديد، ويستقبله لذلك بالرضا والتفاؤل والأمل. ومن رأي فروم أنّ كل ما سبق من قيم لا بد أن يشتمل عليه أي برنامج للصحة النفسية. ومن رأي ماري جاهودا Marie Jahoda (١٩٥٨) في كتابها «Current Concepts of Positive Mental Health»: أنّ التعريف الذي يذهب إلى أنّ الصحة النفسية هي الخلو من المرض النفسي أو العقلي هو تعريف سالب قاصر، بينما التعريف الموجب الشامل هو الذي يؤكد على استقلالية الفرد ووعيه بذاته، وبالتفاعلات في مجتمعه والعالم، وأن يكون سيد قراراته ومواقفه». ويبرز في حركة الصحة النفسية منظرون، وممارسون، وباحثون، والمنظر ideologist يهتم بتنشئة الفرد صحياً وتوعيته بمقتضيات الصحة النفسية، والممارس practitioner يتوجه إهتمامه إلى العلاج النفسي وأن تتوفر المصحات النفسية لهذا العلاج، والباحث researcher يهمه تطوير مفهوم الصحة النفسية وإجراء الدراسات والقيام بالتجارب التي هدفها دفع عملية التطور. والدعوة للصحة النفسية صارت

كالدعوات الإصلاحية الكبرى، كالدعوة إلى التقدم، أو الدعوة إلى الكمال، أو الدعوة إلى الخلاص، أو أنها دعوة دينية بمصطلحات عملية تستخدم مفاهيم وكشوف الطب وعلم النفس الاجتماعي والطب النفسي. وعلى دعوة الصحة النفسية قام علم جديد هو الطب النفسي الاجتماعي social psychiatry، وتطور مفهوم العلاج النفسي من علاج نفسي فردي إلى علاج نفسي جماعي، ونشأت طرق جديدة في العلاج النفسي كطريقة الدراما النفسية psychodrama، والتي يشارك في فكرتها وأدائها المرضى وأهاليهم، والممرضون والأطباء، باعتبار المجتمع العلاجي مجتمعاً يمثل المجتمع ككل. ومن رأي البعض أنّ الدعوة للصحة النفسية هي قيمة أو إيديولوجية جديدة إصلاحية، أو بالأحرى قيمة كبرى أو سيدة القيم master-value جميعها.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Ginsburg, Sol: The Mental-Health Movement. Its Theoretical Assumptions.

Ridenour, Nina: The Mental-Health Movement. Encyclopedia of Mental Health.

Davis, Kingsley: Mental-Hygiene and the Class Structure.

Clausen, John: Sociology and - the Field of Mental Health.

❖ ❖ ❖

- ٢ -
سيكولوجية النضج

النضج هو كمال النمو، وهو عملية تنامي إرتقائي. النضج المبكر. النضج والعمر الزمني.

❖ ❖ ❖

قد يعني النضج أو النضوج maturation في اللغة الاستواء وبلوغ حد

الكمال من النمو؛ تقول أنضج الرأي أي أحكمه صاحبه، ونضجت الفاكهة أي استوت وطابت. والنضج في علم النفس: عملية إرتقائية تصاحب النمو الذي يكون على أطوار يمر بها كل كائن حي، فتتغير بها أبنيته الجسمية ووظائفها، ويشمل التغير الكائن الحي كله من كافة نواحي الفسيولوجية والعصبية والإدراكية والنفسية والجنسية.

ومعنى قولنا إنّ النضج عملية تنامي إرتقائي a developmental growth process أنّ التغييرات التي يستحدثها النمو growth ترتبط إرتباطاً منتظماً بالمراحل الزمنية التي يعبرها الكائن الحي، إبتداءً من تخلفه، وانتهاءً بوفاته أو فنائه، وأنها تغييرات تناسب هذه المراحل، وبها تتغير أنماط سلوكه، فيسلك بالطريقة التي يتكيف بها مع هذه التغييرات، والتي بها يتوافق معها ومع بيئته، وعندئذ نقول إنّ هذا الكائن قد نضج للمرحلة، فالطفل مثلاً لا يتعلم المشي إلاّ إذا صار لديه الاستعداد البنيوي للمشي، ولا يستطيع أن يتعلم الكلام إلاّ إذا نضج جهاز الكلام عنده وأصبح مستعداً لأن يتدرب على الكلام ويمارسه، فكأنّ التعلم يلحق النضج، ومن مظاهر النضج أنّ التعلم يجدي معه، وتكون له نتيجة إيجابية. ومثلما يعني النضج تحسناً وتقدماً في كل مرحلة من العمر عن المرحلة السابقة فإنه قد يعني أيضاً النكوص regression والتنكس، وفرضية النضج والتنكس maturation de generation hypothesis هي القول بأنّ النمو يستمر في التحسن بعد الولادة حتى الشباب ثم يبدأ التنكس؛ وفرضية النضوج m. hypothesis : هي القول بأنّ كيفيات السلوك يحددها نضوج الأعضاء والجهاز العصبي وكذلك الوراثة، ولا تتكشف الوراثة إلاّ بعد أن تكون أجهزة الجسم قد نضجت؛ ومبدأ النضج المرتقب principle of anticipatory m.: هو القول بأنّ الوظائف المختلفة للأعضاء متوقعة قبل أن تنضج لها هذه الأعضاء، وقد يستحدثها التنبيه في غير أوانها stimulus induced m.؛ وتقدير النضج m. rating: هو الحكم بالدرجة التي فيها يكون سلوك الشخص تحت أو فوق المعيار بالنسبة لعمره أو لأترابه، وفي الإنسان

يكون الارتقاء من الطفولة إلى الصبا، إلى الفتوة، إلى الشباب، إلى الرجولة، وكلها مراحل فيها التقدم، إلاّ أنّ خاتمة هذه المراحل هي الشيخوخة، وفيها يبلغ الإنسان حد النضج limit m. الذي يناسبها إذا تهيأت أبنيته الجسمية ووظائفها وحالته النفسية والعقلية لهذه المرحلة ومتطلباتها، فإذا لم يستحدث هذا التهيؤ والاستعداد في أي مرحلة من العمر، فإنّ ذلك من شأنه أن يؤخر النضج. وأحياناً قد يبكر النضج، بمعنى أن يكون العمر الزمني للفرد أقل مما عليه حالته الجسمية والنفسية والعقلية. والنضج المبكر maturitas praecox : حالة من الحالات غير المألوفة، والتي قد نلحظ فيها الفرق بين النمو الجسمي والعمر الزمني، ومن دأب الناضج نضوجاً مبكراً أن يسلك كالكبار وينمو إلى التفكير، وغالباً ما تكون له اهتمامات تجريدية، وقد يتجه إتجاهات دينية. وهناك حالات من النضج المبكر حاضت فيها البنات في السادسة، وحملن أيضاً في هذه السن. ورغم أنّ النضج الجنسي sexual m. يتأخر في النوع الإنساني حتى الثامنة عشرة تقريباً، إلاّ أنّ البلوغ الجنسي sexual puberty يكون في نحو الثانية عشرة، مع ذلك فإنّ الشاب أو الشابة لا يتهيأ للنضج الاجتماعي إلاّ في نحو الواحدة والعشرين، وفي بعض المجتمعات لا يكون النضج الاجتماعي social m. إلاّ في الرابعة والعشرين، وفي بعضها يؤخر هذا السن إلى الثامنة والعشرين، وهي السن التي ينضج فيها الشاب أو الشابة جنسياً، ويتحول إهتمامه من الجنس كنشاط لذيذ، إلى الجنس كنشاط هدفه تناسلي - النضج التناسلي genital m. - ويقصد به الإنجاب، ويكون عن طريق الزواج وتكوين الأسرة، وذلك أمر يقتضي الشاب أو الشابة أن يستقل بأمر نفسه عن أبويه، وتكون له مهنته التي يتكسب منها ويعول بها أسرته. وأحياناً قد تتعسف سن النضج الاجتماعي إعتسافاً كما في سن الثامنة عشرة التي حددتها الحكومات كسن مؤهلة للانتخاب وللزواج. والنضج المهني vocational m.: هو التهايؤ والتلاؤم لشغل وظيفة أو حرفة والقيام بها في توافق. والنضج العقلي

intellectual m.، والنضج الانفعالي emotional m.، والنضج النفسي psychological m.: هو أن تكون السمات النفسية للفرد، وانفعالاته، ومستوى ذكائه، متناسبة جميعها مع عمره الزمني.

والنضج بخلاف النمو، حيث النمو هو تغير باتجاه النضج، بينما النضج هو اكتمال النمو، وعلى ذلك فالنمو العقلي، أو الفسيولوجي، أو الهيكلي بخلاف النضج العقلي، أو الفسيولوجي أو الهيكلي. وكذلك يختلف النضج عن الارتقاء development حيث الارتقاء عملية تغييرات مستمرة حيث النضج. وقد يقال إنّ النمو هو الارتقاء، إلاّ أنّ النمو كمي، والارتقاء كيفي، والنضج كمي وكيفي معاً.

وارتباط النضج بالتعلم يؤكد أنّ التدريب على المهارات قبل السن المناسب لا يفيد الطفل. وهناك من الشواهد ما يثبت أنّ التعلم في حينه هو التعلم المجدي، ويأتي في السن الذي ينضج فيها الطفل بدنياً ونفسياً وعقلياً، للدرجة التي يكون فيها مستعداً لتطبيق ما تعلمه وتجويده. ومع النضوج للتعلم تقل مدة التمرين اللازمة لإتيان السلوك، ولا يؤدي التمرين المبكر قبل اكتمال الاستعداد له إلى أي تحسن في التعلم، كما أنّ التمرين الذي يمارس في حينه يقبل عليه الطفل ويأتيه عن طواعية، في حين أنه يعزف عن أي تمرين في غير وقته، وإذا أجبر عليه فإنه قد يتسبب عنده في صراعات نفسية مبكرة ويستحدث الإحباط والشعور المبكر بالفشل. وهناك تجربة مشهورة لجيزل Arnold Gesell (١٨٨٠-١٩٦١) عن التوائم المتحدة، حيث قد بكر في تعليم إحدى البنات صعود السلم في عمر ٤٦ أسبوعاً ولمدة ستة أسابيع، وبعد أسبوع آخر بدأ في تعليم أختها التوأم لمدة أسبوعين، فاستطاعت أن تلحق بأختها في هذه المدة البسيطة وتفوقت عليها، وذلك لسبب واحد: هو أنّ تمرينها جاء في الوقت المناسب عندما استعدت له، وكانت له أنضج من أختها.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Gesell and Thompson: Infant-Behavior.

Buhler, C.: From Birth to Maturity.-

Harris, D. B.: The Concept of-Development.

Pressey, S. L. and Kuhlen, R. G.: -Psychological Development through the Span.

❖ ❖ ❖

- ٣ -
سيكولوجية الغريزة

نظرية الغرائز واتجاهات دارون ومكدوجال وفرويد في الغريزة. الغريزة والحوافز والحاجات والرغبات والميول الفطرية...

❖ ❖ ❖

الغريزة instinct في اللغة تعني طبيعة، والاسم الإفرنجي من اللاتينية instinctus، من الفعل، يعني يثير.

والسلوك الغريزي instinctive behavior هو إذن سلوك طبيعي، بمعنى أنه «مفطور innate»، أي يولد به الكائن الحي ولا يكتسبه بالتعلم، مثل هجرة الطيور أو بنائها لأعشاشها، فإنها رغم تعقد هذا السلوك تأتيه من «تلقاء نفسها»، وهو «عام» في أفراد جنسها، و«ثابت» من حيث ظهوره ودقة ترتيبه، ويؤدي لها «غاية حيوية» في استمرار نوعها.

والغريزة فرض علمي scientific hypothesis، فليس هناك عملياً ما يمكن أن نشير إليه باعتباره غريزة، فمثلاً غريزة الضمير conscience i. هي فرض علمي يطلق على مؤسسة «الضمير» في الإنسان. والغرائز أنواع، منها غريزة القطيع herd i.: وهو الميل الطبيعي عند الناس أن يجتمعوا إلى بعضهم البعض ويقلدوا بعضهم البعض، ويتابعوا بعضهم البعض دون تحميص، ويقال للشخص الذي تسيطر عليه غرائزه إنه i. Ridden؛ كما يقال للغريزة التي لا تعمل إلاّ بعد انقضاء وقت إنها غريزة مؤجلة delayed i.؛ والغريزة الجزئية partial i. هي عنصر من عناصر الغريزة، ويقال لها أيضاً

غريزة مكونة component، ويُطلق إسم الغريزة على الاستعداد العصبي النفسي الذي يجعل الكائن الحي ينتبه إلى مؤثرات من نوع خاص، ويدركها إدراكاً حسياً، ويشعر بانفعال خاص عند إدراكها، فيسلك نحوها سلوكاً خاصاً، أو على الأقل ينزع لأن يسلك نحوها هذا المسلك. ولعل مكدوجال McDougall (١٨٧١ - ١٩٣٨) هو خير الداعين لنظرية الغرائز theory of instincts، يحاول بها أن يفسر سلوك الأفراد والجماعات، ولقد تأثر بمذهب داروين Charles Darwin (١٨٠٩ - ١٨٨٢) في الغريزة باعتبارها عاملاً وراثياً، وأضاف إليه المظاهر الثلاثة التي للشعور، والتي قال بها كنط Kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤)، فالفعل الغريزي فيه الشعور، ومن ثم ففيه أيضاً الإدراك، والوجدان أو الانفعال، والنزوع أو الرغبة والاندفاع، وعند مكدوجال هذه المظاهر هي عمليات معرفية cognitive، ووجدانية affective، ونزوعية conative، فنحن ندرك الشيء أولاً، فنشتهيه ثانياً، فننزع لامتلاكه ثالثاً. ومن السهل ملاحظة السلوك الغريزي في الحيوانات الدنيئة والحشرات وما هو أرقى منها كالطيور، وذلك لأنه يوجد عندها في صورته الفطرية، وأما الإنسان فسلوكه الغريزي كثيراً ما يتعرض للتعديل modification بسبب ما يتمتع به من ذكاء، ولقدرته على التعلم وما يتراكم عنده من خبرات. ويشمل التعديل الناحية الإدراكية، فبعد أن كانت الدوافع الغريزية تستثار بمثيرات طبيعية فطرية فإنّ من الممكن إستثارتها في مواقف غير المواقف الطبيعية. ويشمل أيضاً الناحية النزوعية، فالطفل قد يقاتل في الصغر، ولكنه عندما يكبر ويتعلم، قد يجد طرقاً أخرى تنصرف فيها غريزة المقاتلة combating i.، أو غريزة السيطرة والتحكم ..i mastery وأما الناحية الانفعالية من الغريزة فلا يطرأ عليها التعديل، فانفعال الغضب واحد في كل الحالات من حيث النوع وإن تغير في درجته. ويفيد التعديل في الناحيتين الإدراكية والنزوعية كسب مثيرات جديدة من نوعها، وكسب أنماط جديدة من السلوك. وثبوت الانفعال في السلوك الغريزي الواحد جعل له أهمية خاصة

لدرجة أن أطلق البعض على الغريزة إسم الانفعال المصاحب لها، فيقال مثلاً غريزة الغضب، أو غريزة الخوف.

ولعل فرويد هو ثاني من يمكن أن نهتم بأقواله في الغريزة بالنظر إلى ما للتحليل النفسي من أهمية في مجال تفسير السلوك. وفرويد يعتبر الغريزة دافعاً طبيعياً، أو قوة دافعة داخلية. ويستخدم فرويد كثيراً فكرة الصراع conflict، وخصوصاً الصراع بين الغريزة والمتحصلات النفسية والعقلية المكتسبة بالخبرة. ويفترض فرويد نوعين من الغرائز في الإنسان، وذلك خلافاً لمكدوجال الذي يجعلها نحو العشرين: هما غريزة الموت .death i، أو غريزة الهو .id i، أو غريزة التدمير .destruction i، ويقابلها غريزة الحياة .life i، أو غريزة الإيروس .Eros i، أو غريزة الأنا أو البقاء .ego i، والطاقة التي تعمل بها الغريزة الأولى هي الطاقة التدميرية destrudo، بينما الطاقة التي تعمل بها الثانية هي الطاقة الحياتية libido، وكل منهما يمكن أن تتفرع عنها غرائز أخرى مشتقة .derivative i. ومن رأي فرويد أنّ أهداف السلوك الظاهر أو المكشوف لا تكفي دائماً لفضح الأساس الغريزي له، بتأثير القمع والكبت اللذين يتناولان طرق التعبير بتأثير من الزواجر والموانع الاجتماعية. وما من سبيل لاستكشاف هذا الأساس الغريزي إلاّ بالتحليل النفسي psycho-analysis، عن طريق تحليل تداعيات الأفكار والذكريات، وتحليل الأحلام، لكشف المخبوء وديناميات السلوك الحقيقية. ويستمد فرويد مفهومه للغريزة من ملاحظاته الكلينيكية للمرضى، إلاّ أنّ هذا المفهوم لم يقم بالتجريب عليه كأي من مفاهيم علم النفس الحديث، وكانت عليه اعتراضات كالاعتراضات التي قامت ضد مفهوم الغريزة الوراثي عند مكدوجال. ولسوف نرى أنّ التيار الرافض للغريزة كان تياراً قوياً إستحق أن يطلق عليه إسم الثورة المضادة للغريزة anti-instinct revolt. ويكتب فرويد أحياناً عن الغريزة وكأنها قوة عمياء، وطاقة تضاهي بالطاقة في الفيزياء، ودينامياتها تقوم على قوانين شبه آلية، وهو أحياناً يكتب عنها كما لو كانت قوة عاقلة، لها مقاصد ونوايا ودهاء واستراتيجيات يمكن أن تلجأ إليها. ولقد

صرف فرويد الكثير من وقته وتفكيره من بعد في تطوير نظرياته عن كيفية تحول الضغوط الغريزية من خلال الخبرات إلى أنماط من السلوك والتفكير متعارضة. وجعل أتباعه من أمثال كارين هورني Karen Horney (١٨٨٥-١٩٥٣) للمجتمع والثقافة دوراً أكبر في عملية التحول هذه ، ولم يذكروا ما للغريزة من قوة بيولوجية مؤثرة على السلوك، ولكنهم ذكروا أنّ الواقع يثبت أنّ للمجتمع دوراً أكبر في تفجير الصراعات السيكولوجية عند الأفراد وإصابتهم بالعصاب والذهان.

والمشكلة في تفسير السلوك من خلال التحليل النفسي، أنّ دوافع السلوك قد تفسر بالغريزة بطرق غير مباشرة، فمثلاً طالب العلم الذي يواليه على الدوام، قد نبلغ في تحليل هذا السلوك عنده إلى حد رده إلى غريزة حب الاستطلاع curiosity i.، أو حتى غريزة الاستئثار والتملك possessive i.، أو ربما بدافع من الجوع والرغبة في توفير الطعام، وربما كتعبير عن المقاتلة التي تأخذ شكل المنافسة، أو بدافع جنسي كأن يكون ليروق في نظر محبوبته. وتفلح نظرية الغرائز في تفسير الكثير من مظاهر السلوك غير المنطقي واللاعقلي في السلوك البشري، بالنظر إلى أنّ الغرائز من حيث هي ميول موروثة فإنها تعمل بطريقة غير شعورية، بمعنى أنها تعمل دون أن يشعر صاحبها بعملها ولا بأسبابه، بالإضافة إلى أنّ السلوك الغريزي يتميز بالقوة بالنظر إلى ما يصاحبه من انفعالات قوية. ومع ذلك فإنّ المعارضين لنظرية الغرائز قد أحلوا محل الغريزة أسماء مغايرة مع استبقاء مفهوم الغريزة نفسه، من حيث هي استعداد أو ميل فطري. ولقد قال البعض بالحاجات needs التي تصدر عنها الدوافع، وقسموها إلى حاجات فسيولوجية، وحاجات إجتماعية، وحاجات نفسية تساعد على تكامل الذات، وقالوا في تعريف الحاجات: إنها تراكيب لتوجيه قوى معينة في المخ تنظم الإدراك والفهم والعقل والنزوع والفعل بطرق معينة، لتحويل أو تغيير المواقف غير المشبعة في اتجاهات معينة، وتتميز كل حاجة بشعور خاص أو إنفعال معين خاص بها. وقال آخرون بما يسمى

الحوافز drives وهي موروثة، وسابقة على كل خبرة واكتساب، وعامة، ومسؤولة عن تحقيق التوازن الفسيولوجي والاحتكاك البسيط بين الكائن الحي وبيئته. وبغض النظر عن هذه المسميات، سواء كانت ميولاً فطرية propensities، أو حاجات needs، أو حوافز drives، أو رغبات desires، أو وحدات عمل نفسي ergs، فإنها فطرية موروثة، وتخص النوع الواحد، وتصاحب بنشاط إنفعالي يحرر السلوك ويوجهه وجهة معينة. ويبدو من ذلك أنّ نظرية الغرائز لم تمت، وإن كان البعض يغير أحياناً مسمى الغرائز دون المضمون.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- McDougal: Introduction to Social Psychology.
- N. Tinbergen: The Study of Instincts.
- Wiln, E. C.: The Theories of Insticts.
- Thorpe, W. H.: Learning and Instinct in Animals.
- Schiller, C. H.: Instinctive Behavior.

❖ ❖ ❖

- ٤ -
سيكولوجية المعوّق

الإعاقة ليست مرضاً. الإعاقة الذاتية والخارجية. إختلاف النظرة للمعوق. إختلاف تعليم المعوق واختباراته بحسب الإعاقة. المقارنة بين الكفيف والبصير في التوافق. أنواع الصمم. قياس شخصية المعوق بوسائل التقويم المقننة. وعلاج حالات الإعاقة. مدارس المعوقين...

❖ ❖ ❖

المعوق the handicapped هو الذي يشكو عاهة أو إصابة تجعله أقل قدرة عن العمل، أو ربما عاجزاً عن الأداء بالمرة. والإعاقة أصلاً بدنية، ولكنها يمكن أن تكون عقلية كذلك، ويوصف بها المتخلفون عقلياً أو الذين يعانون من نقص أو قصور عقلي - المعوقون عقلياً mentally h.. والأعمى والأصم والمفلوج معاقون بدنياً physically h.، وليست الإعاقة مرضاً، ولا المعوق مريضاً، وإنما

هو إنسان إصابته البدنية تمنعه من أن يكون على الكفاءة البدنية نفسها التي عليها السوي. وبعض الناس قد تذهب بهم الظنون أنهم معوقون لأنهم يعانون من تشوه جسدي يحول بينهم وأن يتعاملوا بفاعلية مع الآخرين. كأن يعاني أحدهم مثلاً من المسمنة المفرطة، أو يكون قصيراً شديد القصر، أو مصاباً بحب الشباب لدرجة تغير من شكل وجهه وتخفي معالمه. وهناك نوع من الإعاقات تحول بين المرء وأن تكون له حياته العائلية السوية family-life handicap، وإعاقات تمنع من تفاعل المعوق بمجتمعه collective-life handicap. وتتحصل الإعاقة عموماً إما لأسباب من داخل المعوق نفسه، كأن تكون الإعاقة خلقية، أي أنه ولد بها أو جاءته من طريق الوراثة، وربما تتأتى الإعاقة نتيجة ظروف من خارجه تأثر بها جسمه وخلفت به العاهة مثلما في الإعاقة الإدراكية perceptual h.، وهي نوع من سوء الوظائف العقلية يعوق العمليات الإدراكية. والإعاقة من ناحية أخرى ربما تستحدثها ظروف المعوق الاقتصادية، كالعوز المادي والفقر والجوع والإهمال الصحي، فقد يترتب على ذلك أن يضار عضو من الجسم وتتوقف وظيفته أو تقل كفاءتها.

والنظرة للمعوق تختلف من مجتمع لآخر، بل وفي المجتمع الواحد من طبقة لأخرى، وللثقافة والمفاهيم السائدة عن المعوق دور في تشكيل النظرة للمعوق. والمعوق قد يتأثر مستواه العقلي نتيجة قصور تفاعله الاجتماعي وتحصيله العلمي، وقد تتطلب منه الإعاقة أن يساعده آخرون ولا يجد من أحواله المؤاتية ما يؤهله لتجاوز آثار إعاقته. والإعاقة قد تكون حركية motor h. ، أو حسية sensory h.، أو كلامية verbal h.، أو بصرية visual h.، ولذلك فقد يلزم إدخال المعوق نوعاً خاصاً من المدارس بحسب نوع إعاقته. فالأصم deaf مثلاً له مدارسه الخاصة وبرامجه التعليمية التي تختلف عن مدارس وبرامج الأعمى blind. وفي كل الأحوال فإنه من اللازم البدء فوراً في إلحاق الطفل المعوق من سن باكرة بالمدرسة التي تتطلبها إعاقته، وكلما كان ذلك في وقت مبكر كان أفضل له وأنفع. والاختبارات التي يمكن أن يخضع لها

المعوق لدراسة شخصيته تختلف كذلك بحسب الإعاقة. ولا تطبع الإعاقة شخصية المعوق بطابعها، وينفي علماء النفس أن تكون للأعمى شخصية معينة لكل العميان، ولا للأصم، إلاّ أنّ دراسة الأعمى لا بد أن تتم من خلال اختبارات تقيس مدى الخسارة التي تلحق قدراته، والتي تنحرف بها اتجاهاته وأفكاره، وتتغير من جرائها سماته، كاختبار TAT اللفظي للعميان، واختبار تفهم الموضوع السمعي الذي يتضمن الإنصات لعدد من الأصوات البشرية والآلية والتجاوب معها، أو كاختبار إكمال الجملة، واستبيانات الشخصية. وقد أظهرت هذه الاختبارات أنّ الكفيف أقل توافقاً من البصير، كما أظهرت إختبارات الرورشاخ على الأطفال المصابين بالشلل أنّ الضرر يلحق بقدرة الطفل التخيلية وبمستوى طموحاته. وتصمم لذلك برامج تعليم الطفل المعوق، وإعادة تأهيله، من أي سن، طبقاً لنوع الإعاقة، وليكون له نوع السلوك المتوافق مع إعاقته وشخصيته. ويحاول الأخصائي النفسي في لقاءاته بالمعوق أن يرفع من معنوياته، ويشد أزره، ويشجعه لكي يستحدث نوعاً من التغيير في نظرته لإصابته، أو ليساعده على توجيه نمو شخصيته إيجابياً، وتقوية إعتماده على نفسه، وأن يكون له الاتجاه الذهني والنفسي والإيجابي من الحياة عموماً.

والصمم deafness، أو الطرش anacusis، هو فقدان القدرة على السمع، وهو بمثابة العجز الكلي عن السمع، على عكس الصمم الجزئي partial deafness، أو الوقر hypacusis، أو ثقل السمع dysacusis. والصمم كالعمى، على درجات، ويمكن أن يكون سببه جينياً، أو قد يترتب على إصابة جهاز السمع بأذى، أو لآفة تصيب اللحاء أو المخ، أو لعوامل أخرى تشريحية وفسيولوجية. والصمم الوظيفي functional deafness، أو النفسي psychic d. – نفسي المنشأ psychogenic، أو الهستيري hysterical : هو الذي يكون وقراً ليست له أسباب عضوية، ويلحق بوظيفة السمع دون جهاز السمع نفسه، ويترتب على الضغوط النفسية والمواقف المؤلمة التي يهرب منها الشخص بالصمم، ويحتمي منها الأنا بهذه

الأعراض التحولية، وهي ضغوط ومواقف لها طبيعة صوتية، ومن ثم يكون التداعي لها بالصمم الذي يفقد صاحبها القدرة على السماع.

وأخطر أنواع الصمم هو الصمم الخلقي congenital d. الذي يولد به الشخص. ومن الصعب اكتشاف الصمم في الأطفال الصغار حتى الشهر السادس من الولادة، إلاّ أنه ابتداءً من هذا الشهر يمكن للطفل أن يحرك عينيه ورأسه إلى مصدر صوت مجاور له، أو يتجاوب مع المناغاة تجاوباً ملحوظاً كلما سمع أمه تغني له أو تحادثه. والطفل الأصم أو الذي يعاني خللاً ما في جهاز السمع، لا يحرك عينيه ولا رأسه إذا استحدث صوت إلى جواره، ويبدو واضحاً أنه لا يتعلم مما يقال له، ولا يتجاوب مع الأصوات من حوله. وطبيعي أن يفقد الطفل الأصم الكثير من التعلم بسبب هذا الخلل في سمعه. والأصم صمماً كاملاً ينعزل صوتياً عن العالم، ويحرم الكثير من الخبرات التي ينعم بنتائجها الطفل السوي سمعياً.

وقياس شخصية الأصم سواء كان طفلاً أو راشداً من الصعوبة بمكان بسبب مشقة التواصل به تواصلاً مفهوماً، ويبدو من غير العلمي لذلك استخدام أنواع أخرى بخلاف الاختبارات الإسقاطية projective tests لتقويم شخصية الأصم. ومن الممكن الاعتماد على تقويم مدرسي الفصل لصفات الطفل الأصم، وما يشكو منه أو يتمتع به من سمات قد تحسب له أو عليه. ويفيد جداً إستخدام مقياس فاينلاند للنضج الاجتماعي، واختبار الرورشاخ، واختبار إحباط الصورة لرونزفايج، واختبار رسم الشخص، ويبدو أنّ وسائل التقويم المقننة هي أنسب الوسائل لقياس شخصية الأصم أو المعوقين عموماً. ويكاد يكون هناك إجماع على أنّ كل حالة صمم لها مواصفاتها الشخصية التي قد يظهرها الاختبار. غير أنّ القياس قد يتوخى خصوصاً الإحاطة بالمدى الذي يكون عليه تقبل الأصم لعاهته، وتأثيرها في شخصيته وتكوينها، واتجاهاته وميوله، وأسلوبه في التوفيق بين الإعاقة والعالم من حوله، وطاقته على تحمل الإحباط، أو احتمال ما تجره عليه العاهة من مواقف محرجة، أو تماسكه نفسياً، والقوة التي

يكون عليها أناه، ومستوى القلق الذي يعاني منه، والتوترات التي تخترمه، وما آل إليه منها بالوراثة، وما كان منها بسبب عاهته، والصورة التي قد رسمها لنفسه نتيجة العاهة التي لحقت سمعه، والصورة التي يتصور أنها له عند الناس، وتكيفه مع ذلك كله، وتوافقه الحالي أو المرتجى، وانفعالاته وسلوكه مع والديه وإخوته وزملائه وأطبائه، ومع الجنس الآخر. وتقيس الاختبارات كل ذلك. ويبدو أنّ الأصم يعاني كطفل من عزلة قد تفرضها عليه ظروفه، ولم يفرضها على نفسه، وقد تنأى به عمن حوله وتمنعه من الدخول في خبرات جديدة تثري شخصيته وتزيد معلوماته، ولذلك مردود مضاعف على تكوينه النفسي. ويؤكد علماء النفس أنّ موقف الطفل الأصم تحدده معاملة أبويه ومدرسيه له، فإن كانوا من النوع المتسامح والمعاون الذي لا يظهر الضيق بعاهة الطفل، والذي يشركه باستمرار معه في الحديث، ويحاول أن يتجاوز به محنته، ويشجعه على النطق وتقليده فيه، ويصححه له، ويدفعه إلى مواقف إيجابية تزيد من خبراته ومعلوماته ومفرداته اللغوية، فإنّ الطفل يتجاوب بالتعلم بسرعة وتثرى شخصيته كأي من أقرانه. وإن كانوا من النمط البرم الساخط الذي لا طاقة له على العطاء، فإنه، أي هذا الطفل، سيشتد سخطه على حالته، ويثور على وضعه، ويتوجه بطاقته إلى العدوان، ويكره أبويه والمدرسين وزملاءه، وتسهل استثارته، ويبرر فشله بالعاهة المصاب بها.

ولا يخفى أنّ اللغة هي الأداة الأولى لتحصيل الثقافة، وهي وعاء حضاري يجمع فيه كل أسباب التقدم والترقي. والمحروم من اللغة محروم من أهم إنجازات الثقافة، ومن وسيلتها للانتماء للمجتمع، والتواصل بأفراده، وتفهم قيمه وأعرافه معاييره ومصالحه. وقيل إنّ الأصم يُصاب بضرر نفسي واجتماعي أكبر من الذي يُصاب به الأعمى من العمى. والصمم يترتب عليه عجز أو تخلف عن التحصيل العلمي، ومن ثم قد يبدو الأصم كما لو كان يعاني تخلفاً أو نقصاً عقلياً، مع أنه ربما كان شديد الذكاء أو على مستوى عقلي لا بأس به،

وربما يكون أقدر من غيره على التعلم لو أتيحت له الفرصة. وإذكاء طموح الأصم وتشجيعه يساعد على علاجه بالكلام speech therapy، بتعليمه قراءة الشفاه، واللغة الإشارية، ونطق الألفاظ والحروف. والمعول عليه حالياً تعليم الطفل الأصم النطق مبكراً كلما كان ذلك أسرع له للتعلم والتكيف مع طريقة التعبير التي وسيلتها النطق الذي يؤديه دون أن يتمكن من سماعه. وتدريب الطفل على ذلك هو تدريب فردي وإن كان قد يشارك أحياناً في القراءات الجهرية أو في التمثيل أو غيره من المواقف التي تساعد على أن يسلك لغوياً سلوكاً يتعلمه في الفصل، فكلما زادت هذه المواقف زادت بذلك حصيلته اللغوية. وقيل إنّ تدريبه على الأفعال أو الأعمال وما تعنيه لغوياً يكون قبل تدريبه على الإحاطة بالأسماء ومدلولاتها ونطقها. ومن المستحسن أن يكون تقليده للمدرس من خلال التدريب أمام مرآة ليلحظ نفسه ويعدل من سلوكه مقلداً لمدرسه. وينبغي اختيار العبارات البسيطة ليقلدها نطقاً، ويفهم سياقاتها، وكذلك تكون الكلمات سهلة ولها مقابل محسوس من الواقع.

ومن حالات الإعاقة العقلية الطفل الأحمق moron، والأبله imbecile، والمعتوه idiot، وكذلك المنغولي mongol، والقميء cretin، والأطفال الذين يعانون من صغر أو كبر الجمجمة، وكل هؤلاء يشكون من نقص في قدراتهم العقلية وفي ذكائهم، وربما كان ذلك فطرياً فيهم، أو كان مكتسباً نتيجة تلف في المخ يؤدي إلى بطء التجاوب والفهم والتعلم، وعدم الكفاءة للتكيف إجتماعياً. والملاحظ عموماً أنّ الطفل المعوق عقلياً يكون ضئيل الحجم، ولا يستطيع إدراك العلاقة بين الأشياء، ويظهر عليه تشتت الانتباه، وتكاد تنعدم عنده القدرة على التذكر، وتتدنى لديه عمليات التداعي والتفكير، ويضعف التصور والتخيل، وتبدو انفعالاته كالصراخ أو البكاء، ومن السهل أن يخاف، وعاداته الاجتماعية متخلفة، ويظهر عليه الشعور بعدم الأمان، ويميل إلى الانطواء، ويشق عليه النوم، ويعزف عن الطعام، وقد يمص إبهامه، ويمشي أثناء النوم، ويتهته في

الكلام، ويبول على نفسه.

والأطفال المعوقون القادرون على تعلم القراءة يفيدهم التدريب على قراءة الأعداد والحروف، للإفادة من ذلك في قراءة العناوين وأسماء الشوارع وأرقام التليفون، ويستطيع الطفل الأحمق أو المورون ذلك، وهو الذي يتراوح ذكاؤه بين السبعين والخمسين تقريباً، ويبلغ مستواه العقلي في أقصى حالاته المستوى العقلي للطفل العادي بين السابعة والعاشرة. ومن الصعب أن يتعلم الأبله القراءة والكتابة والحساب، إلاّ أنّ من الممكن تدريبه على العناية بنظافة نفسه والقيام بحاجاته اليومية البسيطة. وتفضل الطريقة الكلية في تعليم القراءة والكتابة للطفل المعوق عقلياً، وتتولى مدارس التربية الفكرية اختيار هذا الطفل بناءً على اختبار نفسي وفحص طبي، بشرط أن لا يكون ما يعاني منه يزيد على الضعف العقلي، فلا يكون مصاباً مثلاً بالشلل أو الصرع أو الصمم، ويتضمن تعليمه بعض الأنشطة العملية بطريقة المشروع مثلاً، وإشعار الطفل بلذة أداء العمل، وتشجيعه عليه، وتكرار الخبرات المختلفة وتشويقه على الدخول فيها، مع مراعاة عيوب الطفل الجسمية أثناء التدريبات المختلفة، وخاصة الرياضية، وإتاحة الفرصة له كاملة للتعبير عن نفسه بالألوان بدلاً من الكلام، والتنفيس عن انفعالاته بالموسيقى البسيطة والرقص الإيقاعي، والغناء إن أمكن، مع التدريب على الإصغاء وتمييز النغمات، والنطق الصحيح. ومن الممكن استخدام التمثيل التلقائي، وبناء المكعبات، واللعب بالرمل، وتشكيل الورق الملون ولصقه في الكراسة.

وتقدر نسبة عدد المعوقين في بلادنا بحوالي عشرة في الألف. وكانت بداية الاهتمام العلمي بالمعوق عقلياً بعلماء عالميين من أمثال جان ماري إيتار Itard، وسيجان Séguin، وأندرو ريد، وماريه منتسوري ssoriMaria Monte، وديكروللي Decroly. وأنشأ سيجان مدرسته لتعليم المعوقين عقلياً سنة ١٨٣٧ في باريس، وكانت أو ل مدرسة من هذا النوع في هولنده سنة ١٨٣٥، أنشأها فوكا كينجما، وأنشأ أندرو ريد مدرسته بلندن سنة ١٨٤٠، وتتابعت المدارس من هذا

النوع، وتراوحت مناهجها بين التدريب الحسي والعضلي، والتعليم عن طريق الخبرة والعمل، ثم التخصص في التعليم بحسب حاجة المعوق نفسه لاستحداث نوع من التوافق بينه وبين المجتمع.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Tredgold, R. F.: Mental Retardation.
- Zublin, W.: Das Schwierige Kind.
- Force, D. G.: Exceptional Children.
- Di Carlo: The Deaf.
- Clarke, A. M. and Clark, A. D. B.: Mental Deficiency.
- Anastasi, A.: Differential Psychology.
- Itard, Jean-Marc Gaspard: The Wild Boy of Averyron.
- Wallin, J. E. W.: The Education of Handicapped Children.
- Creuickshank, W. M. and Hohnson, G. O.: Education of Exceptional Children.
- Haring, N. G. and Schiefflbusch, R. L.: Methods in Special Education.

❖ ❖ ❖

- ٥ -
سيكولوجية النسيان

الدراسات على النسيان. التفاوت في الحفظ مع ذلك فمعدل النسيان عند الجميع ثابت. قوانين النسيان وأنواع الذاكرة وأنواع النسيان...

❖ ❖ ❖

يُدرس النسيان forgetting عن طريق قياس التذكر لما نتعلم أو نخبر، والتذكر remembering هو المقابل للنسيان، والنسيان هو آفة التعلم. وكان إيبنجهاوس Ebbinghaus (١٨٨٥) من أوائل من تصدوا لقياس النسيان أو التذكر بمجموعة من التجارب على نفسه، كان يختبر فيها حفظه لعدد من القوائم من المقاطع الصماء nonsense syllables، أي غير ذات معنى nonwords، ويرصد النتائج بشكل رسم بياني ظهر على هيئة المنحنى أطلق عليه إسم منحنى النسيان forgetting curve، وهو أيضاً منحنى الحفظ أو التذكر retention

curve، لأنه يمثل في الواقع العمليتين معاً. ومن نتائجه التي سجلها أنّ نسيان هذه المقاطع بعد حفظها له نمط معين حيث يتم النسيان سريعاً بعد الحفظ ثم يتباطأ من بعد. والتجارب على النسيان والتذكر تتم غالباً عن طريق «قوائم الكلمات» سواء التي لها معنى أو غير ذات المعنى، وغالباً ما تجرى على طلبة الجامعات لارتباط الدراسات على النسيان بدراسات التعلم، باعتبار النسيان من معوقات التعلم. وليست هناك دراسات كثيرة على نسيان المهارات الحركية، وتكاد الدراسات تكون معدومة على نسيان المفاهيم والأفكار والمبادئ. وتقوم الدراسات على النسيان أو على التذكر باعتبارهما وجهي عملة واحدة، على ثلاثة مستويات هي الاسترجاع recalling، والتعرف recognition، وإعادة التعلم relearning. ويتطلب الاسترجاع أن يتذكر الشخص ما سبق أن تعلمه، أو سمعه، أو شاهده، أو خبره، بأية طريقة من الطرق. والاسترجاع يختبر بسهولة في المختبر النفسي. والتعرف عبارة عن تمييز الأشياء التي سبق لنا رؤيتها أو تعلمها من تلك التي لم يسبق لنا رؤيتها أو تعلمها. وإعادة التعلم مقياس لاختبار الحفظ، ويطلب فيه من الفرد مثلاً أن يحفظ شيئاً جديداً، ثم بعد فترة، قد تقصر حتى لتكون ثوان، أو تطول وقد تبلغ السنوات القليلة، يطلب منه أن يعيد حفظ هذه المادة، والنقص في الوقت اللازم للحفظ الثاني، أو في عدد الأخطاء، أو في عدد محاولات الحفظ، هو دليل على استمرار الحفظ أو على وقوع النسيان.

والناس يتفاوتون في القدرة على الحفظ من حيث عدد المحاولات اللازمة لكي يتم، ولكنه قد ثبت أنّ بطء التعلم مثل سريع التعلم في النسيان، فطالما أنّ التعلم قد تم فمعدل النسيان يكون واحداً غالباً مع ثبات كل المتغيرات الأخرى، إلاّ أنه من ناحية أخرى، وعملياً كما هو ممارس في الحياة، فالناس يتفاوتون في النسيان لأسباب أخرى، ومن ذلك تفاوتهم الثقافي والاجتماعي، ونضجهم العقلي والوجداني، واهتماماتهم واتجاهاتهم، واستعدادهم للتلقي والحفظ، ودوافعهم التي قد تعجل بالحفظ وتقويه، أو تعطله، أو تجري

النسيان. ولهذا السبب قد ننسى وجوهاً دون وجوه، أو أماكن أو أرقاماً، وما قد نذكره قد تكون له مستدعيات وارتباطات تساعدنا على استرجاعه أو التعرف عليه، وهذه المستدعيات والارتباطات هي التي تسهل الاسترجاع أو التعرف. فمن جهة لا بد في الموقف الذي يلزم فيه الاسترجاع أن تكون هناك هذه المستدعيات، وهي بمثابة المؤشرات الاسترجاعية التي تساعد على التذكر، وليس النسيان طبقاً لذلك سوى فشل عن الاسترجاع نتيجة هذا العوز في المستدعيات أو المؤشرات الاسترجاعية. فالطفل الذي يسأله أبوه عمن زارهم بالأمس ويتبين أنه نسي، ربما يذكره أبوه أكثر بأن يقول له إنه الذي استحضر له لعبة القطار. وعندئذ يتذكر الطفل فوراً. ومن جهة ثانية فإنّ كثرة الرجوع إلى الذكريات يقوّي الارتباطات بين المثيرات واستجاباتها بتأثير الاستخدام (قانون الاستخدام) use law، بينما النسيان يستحدثه أن لا نستخدم المادة المتعلمة (قانون عدم الاستخدام) law of disuse.

وربما كان هناك ما يبرر التفرقة بين ما يسمى افتراضاً بالذاكرة قصيرة المدى Short-Term Memory (STM)، والذاكرة بعيدة المدى long-term memory، والأولى قد لوحظ أنها الذاكرة التي نستعين بها للحفظ الفوري للمادة التي نستخدمها يومياً. وهي التي تسعفنا بالعاجل مما نرى ونسمع، واختزانها للمعلومات يكون بدون اختزالها أو برمجتها. وهي ذاكرة نشطة وطاقتها بسيطة جداً، فما يمكن أن تختزنه لا يتجاوز السبعة بنود items، وقد يقل أو يزيد عن ذلك ببند أو بندين، والبند قد يكون حرفاً أو كلمة أو رقماً أو عدداً فلا فرق، والمهم أنه وحدة تذكر طالت أو قصرت، وتختزن كما هي بشكلها وصوتها. ولذلك كانت تسمية هذه الذاكرة أيضاً بأسماء الذاكرة المباشرة immediate memory، والذاكرة العاملة working memory، والذاكرة الأولية primary memory. وقيل إنّ تسميتها بالذاكرة قصير المدى لأنّ التذكر لا يكون فيها لأكثر من ١٥ ثانية تقريباً، ثم يأتي النسيان إن لم يكن التذكير باستمرار، وعندئذ تبرمج المعلومة وتدخل الذاكرة

بعيدة المدى، للجوء إليها في الحاضر والمستقبل معاً. ومن الذاكرة قصيرة المدى جزء إفتراضي أيضاً عبارة عن مخزن للمعلومات الحسية sensory information store (SIS)، فبعد أن يزول المثير البصري يتبقى له في الذاكرة قصيرة المدى أثر يختزن بهذا المخزن ولا يدوم فيه لأكثر من الثانيتين، ومن ثم فإنه مخزن متناهي الصغر داخل الذاكرة قصيرة المدى ذات السعة الصغيرة أصلاً، ولعله لهذا السبب يسمى هذا المخزن باسم الذاكرة الأيقونية iconic memory. وأما الذاكرة بعيدة المدى فهي كما يوحي إسمها مخزن «الماضي» كله، وربما التراث الإنساني النوعي (الذاكرة الوراثية genetic memory)، وفيها يختزن هذا الكم الهائل من المفردات اللغوية (الذاكرة اللغوية (lexical memory) من اللغة الواحدة، وربما من عدة لغات ولهجات، والأرقام والأعداد والعمليات الحسابية، والقواعد والمعاني والأفكار والمبادئ والمفاهيم (الذاكرة الدلالية semantic memory)، وأحداث الماضي والناس فيه، وأساليب الاختزان فيها لذلك مختلفة ومعقدة عن أساليب الذاكرة قصيرة المدى، وهي ذاكرة مرجعية reference memory، لأننا نرجع إليها باستمرار. وهي أيضاً ذاكرة دائمة permanent memory، لأنها ليست وقتية وليست للحاضر ولكنها لكل وقت. وتسمى كذلك ذاكرة ثانوية secondary memory، لأنّ عملياتها ليست أولية كالذاكرة قصيرة المدى.

والنسيان عندما يحدث يكون تلقائياً في الذاكرة قصيرة المدى بحكم طبيعتها، وله ميكانيزماته الخاصة وأسبابه في الذاكرة بعيدة المدى. ولعل من ألحظ الظواهر عن الذاكرة أنّ الزمن من شأنه أن يعفى على الذكريات، ولو أنّ هناك ما يصمد منها له، ولذلك أسبابه أو الدوافع إليه كما سنرى من بعد. والنظرية التي تقول بتأثير الزمن على التذكر تذهب إلى أنّ أنسجة المخ تتأثر مع العمر، ومن ثم تسقط أجزاء من الذكريات مع ما يتلف من هذه الأنسجة، ولأنها تقول بالعفاء كسبب للنسيان، فإنها تسمى بنظرية العفاء decay theory. وإذا كان هذا هو ما يحدث فعلاً فما الشأن

فيما يتبقى من ذكريات أو آثار؟ وتحاول نظرية أخرى أن تجيب على هذا السؤال، وهي نظرية تغير الأثر change-trace theory، فما يتبقى يعتريه أيضاً التغيير والتعديل. وللذاكرة في ذلك حيل وأساليب، ولها مبادئ تتحكم في ذلك، فما ينقص من المعلومات تميل الذاكرة لاستكماله أو إغلاقه closure، بتلفيق ما ينقصه، ونلاحظ ظاهرة التلفيق confabulation بشدة فيما نعرف من خرف الشيخوخة، بسبب انتكاس المخ ووظائفه مع التقدم في العمر. وما يتبقى تصل الذاكرة بين بعضه البعض، وتسوي بين أجزاء وأجزاء leveling، وقد تبرز أجزاء على أجزاء assimilating، بهدف أن يأتي الناتج في النهاية فيه انسجام symmetry، وله شكل طيب good figure، أو صورة مفهومة لها معنى للشخص المتذكر. ولعله لهذا يظهر أننا ننسى بعض ما نتعلم، ويأتي ما نتذكره وقد تشوه في الحقيقة، أو اعتراه التعديل الشديد حتى ليمكن أن يكون مختلفاً تماماً عن الأصل، ويكفي لإثبات ذلك أن نسرد قصة أو نخترع إشاعة ونطلب ممن يسمعها أن ينقلها إلى آخر، والآخر ينقلها إلى آخر وهكذا، ونرصد الناتج في كل حالة، ولسوف نجد أنّ التغيير الحادث هائل، ولسوف نلحظ التفاوت الكبير في الروايات كلها، بحسب قدرة كل واحد على استيعاب القصة وفهمها، وتأويل أحداثها بما يتناسب مع ثقافته، ونضجه، واستعداداته، واتجاهاته، وميوله، واهتماماته، ومعتقداته، ودوافعه، ولعل ذلك ما حدا ببعض العلماء إلى أن يقول بتفسير آخر أطلقوا عليه إسم التداخل أو نظرية التداخل interference theory، فهناك الكثير من الأمور تتداخل في التذكر وتعوقه وتعطله وتسبب النسيان، وما نتعلمه حالياً قد يكون من القوة بحيث يتأثر به التذكر، فيمحو ما اخترناه في السابق مما يتعارض مع ما نتعلمه حالياً، وهو ما نسميه التداخل الرجعي retroactive interference، وقد يكون ما تعلمناه في السابق من القوة بحيث يكون له حضور حالي فيحول دون الحفظ الجديد أو يعوقه، وذلك ما نطلق عليه إسم التداخل اللاحق proactive interference. وهذا الحضور الذي للقديم

أو للجديد نجده عند الآباء مثلاً بخلافه عند الأبناء الأطفال، فلا ينسى الأطفال التفاصيل ويذكرون بها الآباء، بسبب صغر سن الأطفال، وبالتالي إنخفاض درجة التداخل اللاحق عندهم، فإذا لاحظنا أنهم بدأوا ينسون، علمنا عندئذ أنهم بدأوا يكبرون. وفي تجربة على خمس مجموعات من الأشخاص تعلموا قائمة من المقاطع الصماء، واستراحت مجموعة منهم قبل أن يطلب من أفرادها إسترجاع ما تعلموه، وأما المجموعات الأربع الأخرى فقد طلب من أفرادها أن يتعلموا عدداً آخر من القوائم. والتعلم الجديد الاعتراضي يؤثر سلبياً على القدرة على استرجاع القائمة الأولى، بعكس الحال مع المجموعة التي لم تجرب التعلم الاعتراضي، فإنها بسهولة إستطاعت إسترجاعها. وفي تجارب أخرى عكس الأولى، طلب من مجموعة من الأفراد أن يحفظوا ست عشرة قائمة من المقاطع الصماء، قبل أن يطلب منهم إسترجاع مفردات القائمة الأخيرة، فلم يفلحوا إلاّ في استرجاع ٢٠٪ فقط منها.

والنسيان قد نطلبه قصداً (النسيان القصدي) intentional forgetting، كأن أريد أن أنسى خبرة مؤلمة أو مهينة أو مهددة، ومن ثم أمارس عليها ما يسمى القمع suppression، وقد يطلب مني آخرون أن أنسى أمراً أقتنع بنسيانه أو إسقاطه من ذاكرتي، ومثل هذا النسيان نصفه أيضاً بأنه نسيان مباشر direct forgetting، لأنه شعوري ونعمد إليه بوعي منا، إلاّ أنّ هناك أيضاً من النسيان ما يتم فينا لاشعورياً unconscious forgetting، وربما كان ذلك بتأثير ميكانيزم الكف الرجعي retroactive inhibition، بأن يكون لنا الاستعداد السلبي لتذكر الاستجابات المؤلمة، وهو استعداد يتكون فينا عن غير وعي ويعمل عمله لاشعورياً، ومن شأنه أن يضعف الرابطة التي تتكون بين مختلف المؤثرات وما يكون لها من إستجابات نحاول أن نتحاشى أن نأتيها، بحيث أنه عندما تظهر هذه المؤثرات أو المواقف من جديد في حياتنا فإننا قد نجهد ألا نستجيب لها كما فعلنا في السابق، وكما يتوقع منا الغير أو نتوقعه من أنفسنا، بل تكون إستجاباتنا على النقيض.

والنسيان عن دوافع motivated

forgetting من المجالات التي تخص علماء التحليل النفسي، وله آلية يطلق عليها فرويد إسم آلية النسيان forgetting mechanism، وقد نبه إليه فرويد ورده إلى عامل الكبت repression الذي يدفع بالذكريات المؤلمة إلى اللاشعور بعيداً عن دائرة الشعور فيكون نسيانها، إلا أنّ هذه الذكريات رغم ذلك تظل لها عملها في أفكارنا وسلوكنا وأحلامنا وإن كان عملها لاشعورياً، ونحن قد نعيه بواسطة العلاج النفسي، وعن طريق التداعي الحر وتفسير الأحلام، فإذا عادت لنا الذكريات واضحة لا يعود لها التأثير المؤلم الذي كان لها في حينها. والنسيان الذي يؤدي إليه الكبت قد يكون بالغاً حتى ليتعدى معرفة الفرد بذكرى معينة إلى هويته نفسها، بحيث لا يعود يذكر من ماضيه شيئاً، وينسى اسمه وقد ينتحل لذلك إسماً وهوية جديدين. وهذا النسيان النفسي المنشأ يطلقون عليه إسم الأمنيزيا أو فقدان الذاكرة نفسي المنشأ psychogenic amnesia، تمييزاً له عن النسيان أو الأمنيزيا أو فقدان الذاكرة العضوي organic amnesia، والثاني قد تستحدثه الإصابات في الدماغ فيتأثر بها المخ، أو يكون عرضاً لأمراض أو اضطرابات عضوية كما في التسمم الكحولي أو تصلب شرايين المخ، ويطلق عليه أحياناً إسم النسيان العضوي organic forgetfulness، ويتحصل من عجز الخلايا العصبية بالمخ عن رصد الخبرات وتسجيل المعلومات نتيجة ما يلحقها من تلف، ومن ثم تقع الأحداث في محيط المريض ويراها ويسمعها وكأنه لم ير ولم يسمع شيئاً. وأما في فقدان الذاكرة النفسي المنشأ فإنّ المخ يكون سليماً، إلاّ أنّ الخبرات التي يمر بها الشخص يكون لها وقعها الشديد عليه. ويستشعر أناه his ego منها التهديد، ويحس إزاءها بالقلق الشديد، فيلجأ إلى نسيان أمرها هروباً منها، كوسيلة دفاعية طلباً للأمن والأمان. ويفرق فرويد بين النسيان الباثولوجي أو المرضي pathological forgetting الذي نلحظه في حياتنا اليومية، ويتمثل في نسياننا لمواعيد مع الناس الذين لا نحبهم أو نتحاشاهم. أو في هفوة اللسان lapsus linguae، وسقطة الذاكرة lapsus

memoriae، وزلة القلم lapsus calami، والنسيان الذي هو فقد للذاكرة amnesia، ومن ثم يؤثر البعض أن يصفه بأنه نسيان مطلق absolute forgetfulness. والفرق بين النسيان في فقد الذاكرة العضوي وفقد الذاكرة نفسي المنشأ يكون في نوع النسيان، ففي الشلل العام مثلاً، وفي عته الشيخوخة، يكون النسيان جزئياً ويكون للتفاصيل، وفي الانتكاس المخي يكون للأحداث الماضية والحديثة، وفي الهذيان تتبقع الذاكرة ويتشتت التذكر، وفي إصابات الدماغ قد يعقبها نسيان نفسي المنشأ، خاصة إذا كان المصاب يخاف معاودة الخبرة المؤلمة أو المهددة، كما عند الجنود بعد المعارك والإصابة فيها. وأما في فقدان الذاكرة نفسي المنشأ، فإنّ النسيان يكون لموضوعات دون موضوعات، والمصاب به تكون له شخصية متميزة، فهو إستهوائي suggestible سهل التأثير عليه، وغير ناضج، وعندما يستعيد ذاكرته فإنّ ذلك قد يحدث فجأة، وقد يكون تذكره عندئذ تاماً. والبعض أحياناً يستعين بفقد الذاكرة نفسي المنشأ ليدعي أنه قد نسي ولا يذكر، هرباً من المسؤولية غالباً. وقد تبين من دراسة حالات التداعي بفقدان الذاكرة نفسي المنشأ في الجيش الأمريكي أنّ نحو ٤٣٪ من المتقدمين للعيادات النفسية بدعوى هذا الاضطراب هم من المدعين. وفقدان الذاكرة نفسي المنشأ له غالباً نمطان، فهو إما فقدان ذاكرة رجعي retrograde amnesia ، أو فقدان ذاكرة لاحق anterograde amnesia، والأول النسيان فيه للحوادث الماضية على الحادثة التي عجلت بظهور الاضطراب، فقد تسقط قنبلة بالقرب من جندي مستجد وتطيح به، ويضطرب للحادث فينسى كل ما وقع في الدقائق السابقة على سقوط القنبلة. وقد يحاول أحد الناس الانتحار شنقاً أو بالغاز، ونتيجة للاختناق يصاب بصدمة تنسيه ما حدث لأنه لا يريد أن يذكره، أو لأنّ تذكره يرعبه. وقد يعاني شخص من صدمة عاطفية تعصف به نفسياً، فينسى؛ أو قد يعاني من صراع عاطفي ممزق فيلجأ لفقدان الذاكرة. وفي فقدان الذاكرة اللاحق يشمل النسيان الحاضر والمستقبل دون الماضي، ويأتي النسيان

بالتدريج، فالملاكم مثلاً الذي يتلقى ضربة على رأسه قد يتأثر لها جهازه النفسي حتى لينسى نفسه وهو يلاكم، ويظل يلاكم رغم أنّ المباراة قد انتهت. وقد تصاب الطائرة فيهول ذلك على الطيار ويذهب تفكيره بدداً حتى لينسى نفسه ولا يتذكر أنّ عليه أن يقفز ويفتح الباراشوت. وهناك حالة لسيدة كانت تشكو فقدان الذاكرة اللاحق فكانت كلما همَّت بقراءة كتاب لا تبارح الصفحة الأولى أبداً لأنها ما تنتهي من قراءتها حتى تنساها فتضطر أن تبدأ من جديد. وهناك نوع آخر من فقدان الذاكرة يسمى فقدان الذاكرة المحصور circumscribed amnesia، ويقتصر على فترة زمنية معينة كما في حالة إصابة الدماغ، فلا يذكر المريض بعد الشفاء ما حدث له وقت الصدمة والفترة التالية عليها، وربما يمتد ذلك إلى فترة قصيرة قبل الصدمة. وقد يرجع النسيان المحصور إلى الكبت ويتناول حوادث معينة، ويعرف لذلك باسم النسيان أو فقدان الذاكرة الانتقالي selective amnesia، مثلما يحدث في بعض حالات الهستيريا، ولأنه يستمر لفترة من حياة الفرد فقد يسمى فقدان ذاكرة لفترة epochal a.؛ أو لأنه يشمل حوادث مهمة معينة فقد يسمى فقدان ذاكرة حدثي episodic a.؛ أو لأنه يتضمن نسياناً محدوداً لذكريات أو تجربة معينة فقد يسمى فقدان ذاكرة لموضوع ما catathymic a.؛ أو لأنه قد يطول أمده ويستمر فقد يسمى فقدان ذاكرة مستمر continuous a.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Aristotle: On Memory and Reminiscence.
- Plato: Das Dialogues.
- Ebbinghaus: Über das Gedachtnis.
- W. James: The Principles of Psychology.
- Rapport, D.: Emotions and Memory.

❖ ❖ ❖

الباب السابع

علم النفس والتحليل النفسي
والطب النفسي

- ١ -
الجهاز العصبي

الجهاز العصبي المركزي والطرفي. الخلية العصبية ومميزاتها. الاستجابة على المنبهات بالسيال العصبي. المخ والحبل الشوكي. النظام الهرمي. مهاد المخ. المهيد. العقد القاعدية واللوزة. فرس البحر. جذع المخ. القنطرة. المخيخ. الجهاز العصبي المستقل والحشوي والنامي واللاإرادي...

❖ ❖ ❖

ترتبط دراسة السلوك بدراسة الجهاز العصبي nervous system المتحكم في كل الأنشطة البدنية والعقلية والنفسية، والذي يقوم بالتنسيق بين أعضاء الحس المختلفة والغدد وعضلات الجسم. ولعل أول ما يسترعي الانتباه في هذا الجهاز هو تكوين الخلية العصبية فيه وتميزها عن بقية خلايا الجسم، بما لها من زوائد تسمى الشجيرات dendrites تمتد منها لييفات عصبية neurofibrillae يمكن تنبيهها في أي نقطة منها. ويوجد بالإنسان نحو من ستين نوعاً من الخلايا العصبية، تختلف في وظائفها ومن ثم تتباين أحجامها وأشكالها وعدد شجيراتها. ولكل خلية سيتوبلازم cytoplasm به حبيبات يمكن أن يلحقها الأذى فيضطرب تكاملها بتأثير عوامل مثل التعب أو التعرض للانسمام. وتحاط الخلايا العصبية بخلايا غرائية تختلف في الشكل والحجم ويرتبط نشاطها بالعمليات العقلية والنفسية والبدنية، ومن مهامها تهيئة الخلايا العصبية للقيام بدورها. والخلية العصبية يحيط بها سوائل تخللية تختلف درجة تركيزها الأيوني عن السوائل داخل كل خلية. وعدم التوازن بين نوعي السوائل هو الذي يخلق الجهد الكهربي، ويقال للخلية في حالة السكون إنها في حالة استقطاب. وتتغير هذه الحالة بالتأثير من داخل الخلية أو خارجها، فتتغير بالتبعية قابليتها للاستثارة، وتنتقل التغيرات الكهروكيميائية إلى الخلايا المجاورة حاملة المعلومات إلى الجهاز العصبي، ويسمى الاضطراب الناشئ بالسيال

العصبي nerve impulse، ولا ينتقل هذا السيال في كل الأعصاب بالمعدل نفسه، وتعني الاستجابة العالية لبعض المنبهات معدلاً أكبر من انتشار السيال العصبي. وتعمل التأثيرات القلوية في السوائل التخللية على زيادة قابليتها للاستثارة، بينما يكف التأثير الحامضي من نشاطها، وكذلك يتأثر هذا النشاط بإمدادات الأوكسيجين إلى الخلية، فإذا امتنع الأوكسيجين توقفت القابلية للاستثارة، وتزيد هذه القابلية بتأثير العقاقير كالكافيين مثلاً، عن طريق خفض عتبة الاستثارة، وكذلك فإنّ الستركنين يزيد هذه القابلية عن طريق كف تأثير المواد الكافة لناقلات الاستثارة. ويتكون بالخلية العصبية عند تنبيهها مركب الأستيل كولين، وكذلك التنورابنجرين، وكلاهما من ناقلي الاستثارة ويعارضان بعضهما فيكف كل منهما تأثير الآخر، ويعني تنبيه الخلية بدء الومضات العصبية.

ويتكون الجهاز العصبي nervous system (N.S.) من الجهاز العصبي المركزي central n.s. (CN.S.)، والجهاز العصبي الطرفي، وكذلك يتكون الجهاز العصبي المركزي من المخ، والحبل الشوكي، بينما يتكون الجهاز العصبي الطرفي peripheral n.s. من الأعصاب الطرفية، وتشمل أعصاب المخ، والأعصاب الشوكية؛ ومنه أيضاً الجهاز العصبي الذاتي automatic n.s. أو المستقل.

والمخ brain واللحاء الشوكي cerebral cortex يتكونان من أغشية، وتوقف، وصول الدم إلى المخ لمدة تزيد على الخمس ثوان يُفقد الإنسان الوعي، فإذا زادت المدة عن عشرين ثانية يحدث التلف للخلايا. ومقدم المخ cerebrum عبارة عن نصفين أيمن وأيسر، وكل نصف مسؤول عن جانب من الجسم، إلاّ أنّ أحدهما يتسيَّد على الآخر. وينقسم لحاء المخ cortex أو سطحه إلى مناطق لها تنظيماتها، فالمنطقة منه التي في الفص الأمامي قبل الشق المركزي مباشرة تتصل بالتنبيه الحركي للعضلات وتسمى لذلك المنطقة الحركية، ولها ألياف عصبية يتكون منها نظام هرمي يسمى المسار الهرمي pyramidal tract، والمسار الذي يمتد من كل نصف يتقاطع

مع بعضه أسفل المخ وعند أقصى الحبل الشوكي spiral cord، وينتج عن ذلك أنّ تنبيه المنطقة الحركية للنصف الأيسر يؤثر على الجانب الأيمن من الجسم، وتنبيه المنطقة الحركية للنصف الأيسر يؤثر على الجانب الأيسر من الجسم، وسيطرة النظام الهرمي على الحركة في الجسم تشاركه فيها ألياف عصبية لا تنشأ من الخلايا الهرمية وتتبع ما يسمى النظام فوق الهرمي. ومن وظائف اللحاء إستقبال الاحساسات في الفص الجداري من المخ والذي يقع مباشرة خلف الشق المركزي حيث توجد منطقة الإحساس، وتتعلق بالألياف العصبية التي توصلها بأحاسيس اللمس والحرارة أساساً، وبالتنبيهات من العضلات الخاصة بوضع الجسم وتوازنه. وللإبصار والسمع مناطق من المخ تختصان بهما، وتوجد منطقة السمع في الفص الصدغي تحت المنطقة الحسية، بينما توجد منطقة الإبصار في الفص القفوي في نهاية مؤخرة كل من نصفي المخ. ويطلق على هذه المناطق الحسية الجسمية إسم مناطق الإحساس الأولي، وإصابة هذه المناطق بأي تلف يعوق وظائفها إلى حد كبير. وتوجد على تخومها مناطق حسية ثانوية تنتشر إليها تنبيهات المناطق الحسية، ويؤدي تلفها إلى خفض قدرة المخ على تحليل ما يصله من عناصر الخبرات الحسية. وللفص الصدغي من المخ، وكذلك التلفيف الزاوي أهمية خاصة بالنسبة للوظائف العقلية التي ينهض بها اللحاء، وعند حدوث تلف بهما لا يستطيع الشخص المصاب أن يفهم مما يقرأه أو يسمعه من كلمات أفكاراً مترابطة، وتنبيههما يمكن أن يستحدث عنده أفكاراً وهلاوس شديدة التعقيد، وتأتيه من ذلك ذكريات. وقد ثبت من الاختبارات النفسية أنّ الفص الأمامي أو المقدمي من المخ له السيطرة على الكثير من الوظائف الخاضعة للجهاز العصبي المركزي عن طريق نقل التنبيهات إلى المهاد، وإصابة هذا الفص يؤدي إلى تلف الكثير من العمليات العقلية، كتشتت الأفكار، وعدم التركيز، والعجز عن التجريد، وتغير القدرة على التعلم والتذكر، فتتغير الأنشطة والسلوك والانفعالات. وتؤدي الجراحات النفسية

psychosurgeries التي قد تجري بالمنطقة الأمامية قبل الجبهية من المخ إلى شفاء كثير من المرضى باضطرابات نفسية وعقلية كأنواع الخوافات والهوس، غير أنّ هذه الجراحات قد تكون لها عواقب على تكوين الشخصية، كأن يفقد المريض بعدها القدرة على المبادأة ويعجز عن التركيز وتقل ضوابطه الأخلاقية وتكثر تقلباته المزاجية.

ومهاد المخ thalamus هو الامتداد من الأجزاء الظهرية من المخ المتوسط، ويتكون من أنوية منفصلة تشكل أجزاء من النظام السمعي، وتنقل المعلومات البصرية والإشارات من الجلد والعضلات. وعمل المهاد هو تقوية هذه الواردات وربطها وتصنيفها والتنسيق بينها أو كف بعضها في المرحلة قبل اللحائية.

والمنطقة أسفل المهاد تسمى المهيد hypothalamus، وهي منطقة صغيرة إلاّ أنها مهمة جداً، لاختصاصها بضبط الوظائف اللاإرادية، كتنظيم الضغط، وتوازن الماء، ودرجة حرارة الجسم، ويشمل تأثيرها الجهاز العصبي المركزي كله والغدة النخامية، وتضم بها مناطق تتصل بحركة النوم واليقظة والجوانب السلوكية الانفعالية المتعلقة بالألم واللذة والثواب والعقاب.

ومن المناطق تحت اللحاء المخي ما يسمى بالعقد القاعدية basal ganglia، وتسيطر على منطقة الحركة في اللحاء من خلال النظام الهرمي الذي هي جزء منه. واضطراب وظائفها قد يثير لذلك المنطقة الحركية كما في الشلل الرعاش وأنواع الخوريا أو الرقاص. ومن أجزائها اللوزة amygdala وهي أنوية في كل فص من الفصوص الصدغية من المخ، وتختص بربط التنبيهات الشمية بغيرها من التنبيهات الواردة من أجزاء المخ المختلفة، وتنبيه الجزء المناسب منها قد يؤدي إلى زيادة أو نقص ضربات القلب أو حركة المعدة والأمعاء أو الإخراج والتبول أو الشهوة الجنسية أو التنفس أو عملية الولادة، ومن ذلك يبدو أنّ اللوزة من اختصاصها ضبط النمط الكلي للسلوك في المواقف المختلفة.

ومن الأنماط المعدلة للحاء المخ ما يسمى فرس البحر hippocampus،

واتصاله بكل أجزاء الجهاز الطرفي تقريباً. ويحدث تنبيه حركات رجعية أو توترية لاإرادية وإنفعالات غضب، ويؤثر في الانتباه والوعي وفي التعلم، وهو مصدر من مصادر المهيد الرئيسية من حيث أنه يربط بين مختلف الإشارات الحسية الواردة إليه بالشكل الذي يؤدي بالمهيد إلى إصدار الاستجابة المناسبة.

ويطلق على الجزء الخلفي من المخ جذع المخ brain stem، ويشمل المخ البيني والمخ المتوسط والمخ الخلفي. ويتكون المخ البني من العقد القاعدية والمهاد والمهيد. والمخ المتوسط إمتداد للجزء العلوي من القنطرة، ويختص الجزء الأدنى منه بنقل الإشارات السمعية، والأوسط يسمى التكوين الشبكي، ويحتوي الأعلى على ألياف عصبية من النظام الهرمي الحركي. ويقع المخ الخلفي تحت المخ الأوسط حيث القنطرة pons، وهي تسمى كذلك لأنها الجسر الذي يصل المخ المتوسط بالمخ الخلفي، ويماثل تنظيمها تنظيم النخاع المستطيل وهو بداية أعلى الحبل الشوكي، حيث يندمج جذع المخ به. وأما المخيخ cerebellum فيقع تحت النتوء الخلفي للمخ الأمامي، ويرتبط بجذع المخ من الخلف ومن أعلى، وهو أكبر جزء من المخ الخلفي، وينقسم إلى نصفين كبيرين، ويعمل كمنسق للاستجابات المنعكسة واستجابات الجهاز العصبي الذاتي، والتلف الذي يلحقه يؤثر على الحركات المعقدة ويعوقها.

ويمتد الحبل الشوكي spinal cord من تحت جذع المخ، ويبلغ طوله ٤٥ سم، وينتهي عند الفقرة القطنية، ويتصل به واحد وثلاثون زوجاً من الأعصاب الشوكية، وتنقل جذوره العصبية الأمامية التنبيهات العصبية المحركة، بينما تنقل الجذور الخلفية التنبيهات العصبية الحسية.

وتتوزع الأعصاب الطرفية في كل الجسم وتشكل الجهاز العصبي الطرفي، وتتكون من ألياف عصبية تحمل التنبيهات من أعضاء الجسم إلى الجهاز العصبي المركزي - وهي الألياف الصاعدة afferent، وتسمى أيضاً الألياف الحسية؛ وبعضها يحمل التنبيهات من الجهاز العصبي المركزي إلى مختلف

أعضاء الجسم وتسمى الألياف الهابطة efferent.

ويوجد بالإنسان ٤٣ زوجاً من الأعصاب تؤدي إلى الجهاز العصبي المركزي، منها ١٢ زوجاً تتصل بالمخ وتسمى الأعصاب المخية الشوكية cerebrospinal nerves، والباقي هو ٣١ زوجاً تتصل بالحبل الشوكي. ويعطى كل عصب مخي رقماً بحسب نقطة اتصاله بالمخ، ولكل عصب إسم بحسب وظيفته، فالعصب المخي الأول وهو العصب الشمّي هو الذي يتصل بالمخ الأمامي، وفي حين أنّ الأحد عشر عصباً الأخرى تتصل بمناطق مختلفة من جذع المخ، والعصب المخي الثاني هو عصب الإبصار وينشأ من شبكية العين، ويمتد من كلا العينين ويلتقيان عند المخ المتوسط، والعصب المخي الثالث هو المحرك لمعظم عضلات العين، والرابع هو أصغر الأعصاب المخية ويمتد من المخ المتوسط إلى عضلة تساعد على حركة العين، والخامس هو أكبر الأعصاب المخية وله ثلاثة رؤوس، وهو حساس لفروة الرأس والوجه والأسنان، ومحرك لعضلات المضغ، وهكذا. وتختلف الأعصاب المخية عن الأعصاب الشوكية، فبعضها حركي والبعض حسي، في حين أنّ الأعصاب الشوكية كلها حسية حركية. وبينما تؤدي الألياف العصبية الحسية الحشوية أو الجسمية من الأعضاء المختلفة إلى الجهاز العصبي المركزي، وتؤدي الألياف الحركية الجسمية التي تسيطر على الحركات الإرادية مباشرة من الجهاز العصبي المركزي إلى الأعضاء التي تنبهها، فإنّ الألياف العصبية الحركية الحشوية التي تسيطر على الاستجابات اللاإرادية لا تؤدي مباشرة إلى الأعضاء التي تنبهها وإنما تؤدي أولاً من الجهاز العصبي المركزي إلى العقد العصبية خارج الجهاز العصبي المركزي، فالألياف بعد العقدية التي تؤدي إلى الأعضاء الحشوية عن طريق الأعصاب الشوكية. وتشكل الألياف قبل العقدية والألياف بعد العقدية مع العقد العصبية ذاتها ما يسمى بالجهاز العصبي الذاتي أو المستقل، وهو مستقل autonomous لأنّ عقده تقع خارج الجهاز العصبي المركزي، ويسمى أيضاً الجهاز الحشوي visceral

system، والجهاز العصبي النامي vegetative nervous s.، والجهاز العصبي اللاإرادي involuntary n. s.، لأنّ الأعضاء من الجسم التي تعمل تحت سيطرته هي الأحشاء، ومعظمها لا يخضع في عمله للإرادة، وبالإضافة إلى سيطرته على الوظائف الحشوية فإنّ هذا الجهاز يساعد في السيطرة على ضغط الدم الشرياني، وإفرازات المعدة، وحركة الأمعاء، ودرجة حرارة الجسم، وإخراج البول والعرق وغير ذلك، وينقسم إلى المجموعتين السمبثاوية sympathetic، والباراسمبثاوية parasympathetic، وبينما تعمل الألياف العصبية السمبثاوية مثلاً على زيادة سرعة ضربات القلب، فإنّ الألياف الباراسمبثاوية تضادها في الوظيفة وتعمل على إبطاء ضربات القلب، ومع ذلك فإنّ التنبيه السمبثاوي قد يكون أحياناً إستثارياً، وقد يكون كافاً، كما أنّ الباراسمبثاوي قد يكون إستثارياً، وأحياناً يكون كافاً، إلاّ أنّ معظم الأعضاء تكون في الأساس تحت سيطرة أيهما بحيث لا يظهر فيها تعارض تأثيرهما.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Field, J. and Magown, H. W. and Hall, V. E.: Handbook of Psychology. -

Pribram, K. H.: Brain and Behavior. (Vols 1 - 4). -

Crosby, E. C. and Humphry, T. and Lauer, E. W.: Correlative Anatomy of the Nervous System. -

❖ ❖ ❖

- ٢ -
العصاب النفسي

الفرق بين العصاب والذهان. تصنيف كريبلين. معنى العصاب. أنواع من الأعصبة. الشخصية العصابية. علاج العصاب...

❖ ❖ ❖

إختلف العلماء قديماً حول إسم العصاب neurosis، والاسم كما أطلقه وليام كالين Cullen (١٧٨٠) يعني الأعراض التي تشكل إضطراباً عقلياً، قيل

مصـــدره عـلــة عضـويــة بـالأعصــاب أو بالجهاز العصبي المركزي، إلاّ أنّ عالماً آخر هو فوختر سليبين (١٨٤٥) أطلق علـى الأعـراض إسـم الـذهـان psychosis باعتبار أنها أعراض ذهنية مرضية، في حين أنّ المرض المسبب لها هو مرض الأعصــاب أو الـعصــاب. وعـنـدمـا قـام كـريـبلـيـن Kreapelin (١٨٥٦-١٩٢٦) بتصنيفه المشهور للاضطرابات العقلية ميَّز بين ما هو عقلي منها وما هو نفسي، وجعل الذهان إضطراباً عقلياً، والعصاب إضطراباً نفسياً، وميزه باسم العصاب النفسي psychoneurosis، ليؤكد على أنه مرض ليس له أصل عضوي، وأنّ منشأه نفسي خالص، ثم لم تعد ثمة حاجة حالية لنؤكد هذه الصفة في العصاب النفسي، ويكتفى الآن باسم العصاب.

والعصاب كما هو مختلَف بشأنه في الاسم فإنه مختلَف بشأنه أيضاً في تعليله، فهناك نظريات تجعل من أسبابه عوامل وراثية أو تكوينية، وهناك نظريات أخرى تتسبب العصاب كاضطراب نفسي إلى خبرات المريض، وخاصة هذه الخبرات التي تكون له في سنوات عمره الباكرة وقت أن كانت شخصيته في دور التكوين، فتشكلها باتجاهات وميول خاصة، ويستجيب لهذه الخبرات بسلوكيات يراها المحيطون به غريبة، وتتأكد معه كلما تقدم في العمر، وتظهر جلية من بعد بسبب مواقف معينة وصعوبات في حياته الحاضرة، أو أنها تظهر فيه على شكل الأعراض العصابية، يتجاوب بها مع ما يأتي من خبرات مستقبلة تحاكي صعوبتها صعوبة المواقف الحاضرة.

وهناك نظرية ثالثة لا تتناول العصاب في منشئه أو تعليله بقدر ما تتناوله توصيفاً، باعتباره إستجابة سوء توافق، ومظهراً لصراعات داخلية، أو صراعات بين الشخص والبيئة. وأخيراً هناك نظريات ترى في العصاب حالة نفسية غير سوية، يتهيأ بها الشخص بأعراض تشبع فيه رغبات ملحة لاشعورية، إلاّ أنها أعراض شاذة أو رمزية، أو أنها رغم شذوذها فهي دفاعه ضد ظهور أو إشباع هذه الرغبات.

ولقد قيل إنّ الفصل بين الذهان والعصاب إعتساف لأنه لا فرق بينهما في المنشأ أو الأعراض، سوى أنّ العصاب

ذهان خفيف، بينما الذهان عصاب شديد، ويسود الاتجاه إلى التمييز بينهما بالنظر إلى أنّ العصاب نفسي دائماً، وكان لذلك يوصف بأنه العصاب النفسي، والعوامل الحاسمة فيه عوامل نفسية، بينما الذهان يغلب عليه الطابع العضوي، فلئن كانت العوامل النفسية تعلل الكثير من محتوياته وأعراضه، إلاّ أنها لا تكفي لتعليل حدوثه هو نفسه كمرض عقلي يرجع غالباً لخلل عضوي أو وظيفي في الدماغ، كما أنّ هناك بالإضافة إلى ما سبق عوامل وراثية أو بنيوية تعتبر من العوامل الرئيسية في الإصابة بالمرض، وتجعل المريض به مستعداً لأن يتداعى بالمرض.

وهناك اختلافات كثيرة بين المريض بالعصاب والمريض بالذهان، وشخصية الأول تكون أكثر تماسكاً، ذلك لأنّ العصاب لا يستحدث إنفراطاً أو تفككاً في الشخصية كالانفراط أو التفكك الذي يستحدثه الذهان. والقدرة على اختبار الواقع عند العصابي neurotic سليمة، ولذلك فهو لا يهلوس ولا يهذي كالمذهون psychotic، وليس عالمه ذاتياً مثله، ولغته مفهومة بخلاف لغة المذهون، على أنّ أهم ما يميزه هو قدرته على استيعاب مرضه، وأن يستبصر حالته ويعرف مشكلته، ويعي أنه يحتاج للعلاج، على عكس المذهون تماماً.

والتصنيف الشائع للعصاب يقسمه إلى حالات من القلق، واستجابات إنفصالية، وأخرى تحويلية، ورابعة رهابية، ثم يضيف إلى كل ذلك تقسيماً خامساً يندرج تحت اضطرابات الشخصية.

فأما حالات القلق anxiety states فأهم ما يميزها بخلاف أعراض العصاب الأخرى، أنّ المريض بها تأتيه نوبات حادة من القلق، يبدي فيها توجساً وتطيراً وانقباضاً وتخوفاً من لا شيء، ويحاول أن يبرر ذلك فينسبه لأشياء من هنا ومن هناك ولكنه ليس من شيء واحد بالذات. وهو في النوبة يرتعش ويعرق، ويدق قلبه بشدة، ويزيد نبضه، ويضطرب تنفسه وهضمه، وتزيد عنده الحموضة المعدية، ويصاب بالصداع، وقد يعتقد لهذا السبب أنه مريض عضوي، وقد يمرض فعلاً بمرض عضوي كضغط الدم المرتفع وقرحة المعدة أو القولون.

والاستجابات الانفصالية dissociative reactions أعراضها شعورية وعقلية، كأن تزدوج شخصية المريض (إزدواج الشخصية multiple personality)، أو يتوه عن نفسه ويشرد جائلاً دون سبب (الهجاج) fugue ، أو يتجول أثناء النوم (التجوال الليلي) somnambulism.

والاستجابات التحويلية convertive reactions تتناول النواحي الجسمية، فتكون الأعراض كأنّ المريض مصاب بمرض عضوي فعلاً، فقد لا يشعر بذراعه وكأنما أصيب بالشلل، إلاّ أنّ الشلل العصابي أو الهستيري يتناول جزءاً فقط من المنطقة التشريحية التي يعصبها العصب المفروض أنّ الشلل تناوله، وهناك فرق آخر وهو أنّ المريض بالاستجابة التحولية قد يشكو مثلاً خدراً في اليد لبعض الوقت، فإذا أوحى له أحد من المحيطين به بأن يكون الخدر في مكان آخر، فإنّ الخدر ينتقل من اليد إلى الساق مثلاً بتأثير هذه الإيحاء. وأيضاً فإنّ المريض بهذا النوع من الاستجابة العصابية لا يبدو عليه الاهتمام بالعجز الذي يستحدثه عنده العصاب، ويطلق على هذه الظاهرة إسم اللامبالاة الهستيرية la belle indifference.

والاستجابات الرهابية phobic reactions تتميز بمخاوف مرضية شديدة من موضوعات لا تستوجب الخوف البتة، وتبدأ نتيجة خبرة مؤلمة أثارت الخوف الشديد، ويغلب أن يكون ذلك في الطفولة، وتكبت الخبرة وينساها الشخص، إلاّ أنّ آثارها تمتد إلى الخوف من موضوعات شبيهة في مراحل العمر اللاحقة. ومن الأمثلة لذلك الخوف من الأماكن الضيقة claustrophobia، وهو من مخلفات تجربة سابقة، كما في هذه الحالة لشاب كان يعاني من هذا الخوف، وتبين أنه وهو صغير جرى وراءه كلب إلى حارة مسدودة، ولما لم يجد طريقة للهرب إستند إلى الحائط والكلب ينبح، وهو يصرخ مدة طويلة، إلى أن سمعه بعض الناس وهبوا لإنقاذه، إلاّ أنّ التجربة كانت مؤلمة بحث تركت أثرها فيه، فلما تذكر الحادثة وخرجت المادة المكبوتة من اللاشعور إلى الشعور بالعلاج النفسي تدنت المخاوف إلى أن اضمحلت تماماً.

وأما الشخصية العصابية psychoneurotic personality فهي التي تعاني من اضطرابات عصابية لم ترق إلى حد الأعراض المرضية، وبدلاً من أن نتحدث عن أعراض فإننا نتحدث هنا عن خلق عصابي neurotic character، وصاحب الخلق العصابي يسهل إستهواؤه والإيحاء له، ويميل إلى المبالغة. وينفعل فيبالغ في الانفعالات، ويصنع من الحبة قبة، ويميل إلى الاستعراض، وإلى أن يمسرح شكاواه ويعرضها بتمثيل، ليلفت النظر إليه، أو يستدر عطف الناس عليه، وطريقته التي يتوسل بها طريقة تناسب الأطفال ويتندر بها الكبار. وصاحب الشخصية العصابية من هذا النوع قد نصف شخصيته بأنها هستيرية hysterical، ومثله إذا تحول الخلق العصابي الهستيري عنده إلى أعراض هستيرية نقول إنه مصاب بعصاب الهستيريا، واستجاباته إما منفصلة أو تحويلية. ولربما يظهر الخلق العصابي بمظهر آخر فيكون صاحب الشخصية العصابية شديد التدقيق في الصغيرة والكبيرة، حرفياً متزمتاً ومتصلباً، شديد الحذر والوسوسة، وعندئذ نقول إنّ شخصيته عصابية موسوسة obsessive، فإذا تداعى بالمرض وتحول خلقه العصابي إلى أعراض مرضية كان مرضه هو عصاب الوسواس obsession، فتتسلط عليه فكرة تلازمه، أو فعل يتكرر معه حتى وإن لم يكن هناك ما يستدعيه أو يستلزمه.

وعلاج العصاب منه علاج إجتماعي بتغيير وسط المريض أو وظيفته، وبإعطائه إجازة والنصح له بالسفر، ومنه العلاج الفسيولوجي بالراحة والنوم والتغذية كما في عصاب المعركة combat n. عند الجنود المتعبين في ساحات القتال، ومنه العلاج بالعقاقير بإعطاء المهدئات والمنشطات النفسية، غير أنّ المريض قد يعتادها ويزيد الجرعة منها باستمرار بلا نتيجة. وأهم أنواع العلاج هو العلاج النفسي، عن طريق التحليل النفسي، لمساعدة المريض على تذكر المكبوت من خبراته المؤلمة فيزول أثرها. وقد يستعين المحلل النفسي بالتنويم hypnosis لتسهيل استدعاء

الذكريات. وقد يتشارك المريض وغيره من المرضى مثله في جلسات علاج جماعي group therapy أو تمثيليات psychodrama موضوعاتها نفسية، ويقوم المرضى بتمثيل مشاكلهم وخبراتهم المؤلمة فيها، ويتطارحون الحل، ويتبادلون التعاطف، ويرون أنفسهم في بعضهم البعض، ويسهل تفريغ إنفعالاتهم. ويفيد هذا العلاج كثيراً إلاّ أنّ النتيجة هي دائماً النتيجة القديمة: إنّ ثلث المرضى المتقدمين للعلاج يشفون تماماً، وثلث ثان تتحسن أحوالهم بالعلاج، والثلث الباقي لا يشفون ولا يتقدمون.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Ackernecht, E. H.: A Short History of Psychiatry.

Munroe, R. L.: Schools of Psychoanalytic Thought.

Campbell, R. J.: Psychiatric Dictionary.

Wolpe, J.: Experimental Neurosis as Learned Behavior.

❖ ❖ ❖

- ٣ -
الذهان

أعراض الذهان. الذهان هو الجنون. الفرق بين الذهان والعصاب. نظريات الذهان وعلاجه، الذهان العضوي والوظيفي. مدرسة الأطباء ومدرسة علماء النفس. الفصام والبارانويا. مدرسة التحليل النفسي. شخصيات مشهورة مصابة بالذهان. الذهان عند الأطفال...

❖ ❖ ❖

إصطلاح الذهان psychosis غير شائع، والمألوف هو الجنون madness، والقانونيون عندما يقصدون إلى الذهان يطلقون عليه إسم الجنون. وعندما يقال إنّ مريضاً باضطراب نفسي عقلي قد أدخل المستشفى النفسي للعلاج فإنّ الغالب أنّ مرضه هو الذهان. والذهان هو فرع الاضطرابات النفسية العقلية الخطيرة، بينما العصاب neurosis هو فرع الاضطرابات الخفيفة نسبياً. وفي

الذهان يشمل الاضطراب التفكير والوجدان والسلوك، فينفصل التفكير والوجدان عن الواقع، ويشذ السلوك كثيراً، وتكون هناك هذاءات delusions، أي أفكار غريبة تخطر على عقل المريض ولا تملك إزاءها إلاّ أن تقول إنه مجنون، وهلوسات hallucinations، أي أخيلة، فيتوهم أنه يرى أو يسمع أشياء لا وجود لها في الواقع. وتضطرب لغة المذهون نتيجة التداعي الفكري عنده، وغلبة اللاشعور على الشعور، حتى ليعيش في عالمه الخاص كأنه الأحلام، ويتصدع الوجدان فتتراوح المذهون psychotic الحالات الانفعالية التي لا صلة لها بالواقع ولا بما يقول. ولا يدري أنه مجنون، وذلك عكس ما يكون عند العصابي neurotic، فالعصابي يدري بمشكلته ويعرف أنه يتصرف بغرابة، فقد يدخل مصعداً مثلاً ويكون مريضاً بعصاب الخوف من الأماكن الضيقة فينتابه عرق غزير ويصفر وجهه ويستبد به القلق والتوتر، إلاّ أنّ شخصيته تكون متماسكة، وكأنّ العصاب يصيب جزءاً من الشخصية، في حين أنّ الذهان يصيب الشخصية كلها ويعصف بكل مكوناتها.

والذهان ليس منه التخلف العقلي mental retardation ، حيث الأخير قصور في الذكاء يجعل متخلف العقل دون التوافق مع الواقع، وليست له أهلية التعامل معه، ولذلك قد لا يُحاسَب قانوناً إذا أخطأ، وخطؤه ليس عن عمد، وهو لا يتصرف بعنف، وأما المذهون فقد يأتي تصرفات عنيفة تصادمه بالقانون، وقد يقبض عليه ويحاكم، ويسترشد بعالم نفسي في محاكمته لتحديد مسؤوليته الجنائية، إلاّ أنه ليس مسؤولاً جنائياً عما يصدر عنه، والتوصية التي يصدرها عالم النفس الجنائي بصدده هي إيداعه إحدى المصحات العقلية.

وللذهان ثلاث نظريات يفسر بها، تذهب الأولى إلى رده إلى أسباب عضوية وراثية أو تكوينية، أو قد يرجع إلى تلف يصيب المخ وينتج عنه الشذوذ الذهاني الذي يكون عليه سلوك المذهون؛ وتذهب الثانية إلى إرجاع الذهان إلى المؤثرات الضاغطة من الخبرات التي يدخلها الشخص، وخاصة خلال سنوات حياته الأولى، والتي تنحرف بتفكيره ووجدانه

إنحرافاً يستمر معه ويستجيب به لمختلف المواقف، وينطبع به سلوكه؛ والنظرية الثالثة تجمع بين النظريتين السابقتين وتقول بالأسباب العضوية أو الوراثية التكوينية، وكذلك بالأسباب النفسية أو الاجتماعية النفسية، وتوصف لذلك بأنها نظرية متكاملة، أو نظرية تقوم على تعددية الأسباب، وتكامل بين كل الأسباب، عضوية واجتماعية ونفسية. غير أنه في بعض حالات الذهان تكون الأسباب العضوية واضحة، كأن يترتب الذهان على ورم بالمخ، أو على التسمم مثلاً، وعندئذ نصف هذا النوع من الذهان بأنه ذهان عضوي organic psychosis. وفي حالات أخرى، وهي الحالات التي نعثر عليها بكثرة لا تكون الأسباب العضوية قائمة، مثلما في الفصام، وهو اضطراب من الشيوع حتى أننا لنلتقي بالكثيرين من المفصومين في حياتنا الخاصة والعامة. ولم تعرف أسباب الفصام العضوية حتى الآن معرفة يقينية، ولذلك لا نقول إنه ذهان عضوي وإنما نطلق على هذا النوع إسم الذهان الوظيفي functional psychosis، أي الذي تسوء فيه الوظيفة ولا نجد لهذا السوء فيها ما يبرره عضوياً، فالعقل مثلاً يتشوش ويتعطل توجهه، ويثرثر المريض بكلام غير مترابط، وانفعالاته لا يتحكم فيها، وليس لها أي معنى أو داع، ولا يتبين أنّ هناك تلفاً في تركيب المخ يتسبب عنه كل ما سبق، فنقول عندئذ إنّ الاضطراب يتناول الوظيفة ويقتصر عليها، ولعله لهذا السبب يفضل ألا نطلق عليه إسم «الذهان» في هذه الحالة، حيث أنّ الاسم يرتبط بتلف عضوي أكيد كأي من الأمراض العضوية التي تكون لها أسماء مشابهة، والأولى أن نقول إنها استجابة ذهانية psychotic reaction، فعندما يتعلق الأمر بسوء وظيفة يكون من الأنسب أن نطلق على ذلك إسم إستجابة.

وتتبع هذه النظريات مدارس في العلاج، فالعلماء الذين تخرجوا من كليات الطب وكانت تخصصاتهم في الأعصاب، يعتبرون كل أنواع الذهان أمراضاً عضوية لها أسبابها العضوية، كأي من الأمراض التي تلحق بالجهاز العصبي المركزي، وتوصف بأنها أمراض أو اضطرابات عقلية mental disorders،

العضو المصاب فيها هو العقل أو بالأحرى المخ. والعلماء المتخصصون في علم النفس، والذين لهم ثقافات إنسانية، يعدون أغلب الذهانات إضطرابات وظيفية تتسبب فيها أساساً الميول النفسية والوجدانية وتراكيب الشخصية، ولذلك فإنّ هذه الميول ترتبط غالباً بأنماط جسمية وصفات وراثية، فمثلاً يربط كريتشمر Kretschmer (١٨٨٩-١٩٦٤) بين نمط الجسم النحيف والقابلية للإصابة بالفصام، ونمط الجسم البدين والميل للإصابة بذهان الهوس الاكتئاب. وهناك ما يثبت أنّ هذه الأنماط والصفات وراثية، وخاصة ما يتصل من بحوث بالتوائم، فحينما يكون أحد التوائم مذهوناً يكون الآخر مذهوناً أيضاً. ولما كانت للبيئة أيضاً تأثيراتها على سمات الشخصية وتشكيلها وميولها فإنه من الصعب أن نميز بين ما يخص الوراثة وبين ما يخص البيئة من هذه التأثيرات.

وهناك من العلماء من لا يبحث فيما يمكن أن يكون للوراثة أو للبيئة من آثار على الشخصية والصحة النفسية، ولكنه يتوجه ببحوثه إتجاهات أخرى فيركز على طبيعة العمليات النفسية والعقلية والوجدانية للمذهونين، ولا يهتم إلاّ بتبين ما يميز الاستجابات الذهانية عن سواها، وماهية الهلوسات الذهانية عن الهلوسات غير الذهانية، والفارق بين الذهان والعصاب. وهذا الجانب من الدراسات يطلقون عليه إسم الظاهراتية phenomenology، أي أنه العلم الذي يهتم بأحوال المذهون الظاهرة، أو بظواهر المرض عنده. ولما كانت الظاهراتية فلسفة أكثر منها مدرسة علمية فإنّ هذا الاتجاه قد تأتّى أصلاً من الدراسات الوجودية والظاهراتية على الإنسان، ويرتبط بفلسفات مارتن هايدجر، ولودفيج بنزفانجر، وميدارد بوس، وآخرين ويستعين بتحليل أحوال المرضى باعتبارها «أسلوب حياة» أو «نمط من الوجود في العالم».

وهناك نظريات يقول بها علماء يذهبون إلى تقويم الأعراض والاتجاهات الذهانية في ضوء تكيف الشخص مع الضغوط النفسية والبيئية، ومن هؤلاء علماء التحليل النفسي، ومن ثم كان

اتصاف هذه النظريات بالدينامية. وتكشف الأعراض الذهانية بمقتضى هذه النظريات عن فشل أصحابها في التكيف، واقتناعهم بنشاط نفسي محدود لقاء أن يضمنوا أنهم يعيشون في أمان نفسي وإن كلفهم ذلك أن يعتزلوا الناس، وأن يتوقف تفاعلهم مع مجتمعاتهم، وبالتالي إطراد ترقّيهم ونموهم من كل النواحي، فمثلاً قد تعطي الهذاءات الشخص المذهون، وخاصة في مرض الفصام، إنطباعاً نفسياً بأنه سليم ومعافى، وأنّ المرض والاضطراب في العالم من حوله، وهو يشعر بتوحده وهويته المتميزة في مقابل اللاهوية للعالم والتفسخ الذي يراه فيه، تصوراً وتوهماً لا عن حقيقة. ويعطيه هذا الانطباع الهذائي للعالم ولنفسه إحساساً بالأمان يجعله في سلام مع أعراضه الهذائية، ولا سلام مع العالم من حوله حيث تباعد تصرفاته الغريبة بينه وبين الناس، وتسجنه عنهم داخل أوهامه وأخاليطه. ومن شأن هذه النظريات الدينامية أن تبرز الأنا الضعيف المتهافت في التداعي بالمرض، وبسببه ينكص المريض إلى أنماط من السلوك الطفولي وتنجزئ وتتوزع، وتنقسم عليه شخصيته.

وبعض النظريات تتوجه في تفسير الذهان وجهة تفاعلية وتركز على علاقات المذهون بأهله صغيراً، وخاصة بالشخصيات المحورية في حياته، وأهمها علاقته بأمه، وعلاقته بأسرته، أو علاقاته التي عموماً مجال الأسرة، وتعتبرها الأصل في تكوين الأنماط الذهانية عنده وتنميتها فيه.

وبعض النظريات ترد الذهان إلى أسباب من القيم والاتجاهات الثقافية السائدة والمعتقدات الدينية، ولربما يمكن أن نطلق عليها إسم النظريات الاجتماعية والثقافية في تفسير الذهان. والكثير من أنواع الذهان يمكن أن نرجع الإصابة بها إلى وجود عوامل ثقافية معينة في بيئة المريض، وفي بلادنا العربية مثلاً هناك الكثير من الهذاءات التي تعكس انشغالاً حاداً بالجنس، وهناك الكثير من الهذاءات التي تعكس أيضاً انشغالاً بالدين. وتشغل اليهود عموماً توجهات بالعظمة والاضطهاد. ويذهب أغلب العلماء إلى القول بأنّ أمماً بأسرها

وشعوباً برمتها تسلك في حياتها سلوكاً هذائياً، وهناك الكثير من الثقافات المشهورة والشعوب الكبيرة التي تعاني من هذا السلوك الهذائي كالثقافة الآرية والشعوب الجرمانية، والثقافة اليابانية، والصربية. وكان استعلاء النازيين للاضطهاد ومشاركة الشعب الألماني لهم في ممارساتهم ذهاناً جماهيرياً. وليست الممارسات البربرية للشعب اليهودي في إسرائيل إلاّ أعراضاً لذهان جمعي قد استولى على الأحزاب والجماعات الدينية وسيطر على جموع الناس.

وتشمل الذهانات الوظيفية functional psychoses الفصام، وذهان الهوس الاكتئاب، والبارانويا، والذهان الانتكاسي، وبعض الأنواع الأخرى من المتلازمات الذهانية التي يشق تصنيفها. وأما الذهانات العضوية فتشمل الذهانات التي لها علاقة بأمراض تصيب الجهاز العصبي المركزي كالزهري والشلل العام، وذهانات الشيخوخة وما قبلها، وذهان تصلب شرايين المخ، وذهانات الأورام المخية، والذهانات المصاحبة للاضطرابات الصرعية، والذهانات التي تترافق وحالات الإدمان الكحولي، وذهانات التسمم، والذهانات التي لها علاقة بالنهك والأمراض المعدية والخوريا وإصابات الرأس، إلخ.

ويفصح الذهان عن نفسه طبقاً لنوعه، فالفصام schizophrenia مثلاً منه نوع بسيط simple s.، وآخر هيبفريني hebephrenic s.، وثالث كتاتوني catatonic s.، ورابع بارني paranoid s.. والمريض بالفصام ينفر من الناس وينسحب على نفسه، ويضطرب تفكيره ويغترب، وينجزئ سلوكه ويسخف، وكأنه سلوك طفل، ويضحك بلا سبب، ويتخشب متوتراً، ثم ينفجر في حركة دؤوب وكلام يثرثر به، ولا يثق في أحد، ويسيء فهم الناس وتفسير سلوكهم ودوافعهم. وهذه الأعراض قد تكون للمريض، وقد يكون له بعضها دون البعض، وقد تكون له بالإضافة إليها أعراض أخرى، وقد تأتي الأعراض فجأة أو بالتدريج. وفي الفصام لا تسوء الذاكرة والقدرات الفكرية الرئيسية مثلما في أنواع الذهان الأخرى، غير أنّ الهذاءات والهلوسات تكون في الفصام أظهر.

والمريض بذهان الهوس الاكتئاب manic-depressive p. تتراوحه النوبات، بينما يكون عادياً بينها. والسمة الأساسية للذهان الانتكاسي involutional p. هي الاكتئاب يأتي المريض في السن المعروفة بسن اليأس، وقد نطلق على هذا الذهان لهذا السبب إسم الإياس climacterium، وأعراضه القلق والأرق والحركة الدؤوب والأفكار الهذائية ومشاعر الذنب. وأما البارانويا paranoia فهي ذهان شديد التعقيد، وهذاءاته فيها العظمة، أو يستشعر المريض أنه ملاحق ومضطهد. وعموماً فإنّ الأعراض بالذهان العضوي organic p. تتوقف على نوعه، وما إذا كان حاداً أو مزمناً، وفي الأنواع الحادة acute تكون الهلاوس والهذاءات طارئة، بينما تتميز الأنواع المزمنة chronic باضطرابات الذاكرة والحكم والتوجه والاستيعاب والوجدان. ويختلف سلوك المريض بالذهان بحسب شخصيته وطريقته في التجاوب مع الضغوط التي يعاني منها داخلياً أو خارجياً.

ولم يكن الذهان معروفاً باسمه هذا إلى منتصف القرن التاسع عشر، وقبل ذلك أطلق عليه من يدعى وليام كالين Cullen إسم العصاب (١٧٨٠)، ثم ميزوا بين العصاب والذهان فجعلوا العصاب للمرض نفسه، بينما الذهان هي الحالة العقلية والنفسية التي يكون عليها المريض. ومعنى أنه «مذهون» أنّ ذهنه خالطه التشوش واضطربت وظائفه. وكان كريبلين Kraepelin (١٨٢٠) هو أول من صنف أنواع الذهان، وأعطى إسم «العتاه الباكر» للفصام بالنظر إلى أنّ هذه الحالة كما لاحظها كانت تأتي الشبان في باكورة الشباب وفيها تصبح أحوالهم كأحوال المعتوهين. ولم يميز كريبلين بين الذهان العضوي والذهان الوظيفي وإن كان تصنيفه للذهان هو التصنيف القائم حتى الآن.

ولفرويد والفرويديين بحوث في الذهان، وتفسيرات كانت تقدماً علمياً في مجاله، ومنها تفسير فرويد لحالة شريبر Schreber case، وهي من الحالات التي عالجها بالتحليل النفسي وتبين له من خلالها دور الإسقاط projection كحيلة من الحيل النفسية التي يلجأ إليها المريض عندما يحاول أن يخرج ما

بنفسه دون أن يجد اعتراضاً على ذلك من جانب جهازه النفسي، فيلجأ إلى إسقاط رغباته وميوله على غيره وينسب إلى هذا الغير ما بنفسه، وتلك حيلة نجدها كثيراً عند المرضى بالفصام البارني. وكان تفسير فرويد أساس ما عرف باسم سيكولوجية الأنا ego psychology التي تتناول هذا الجزء من نظرية التحليل النفسي الذي مداره الأنا ودوره في تطوير الشخصية، وما يتصل من هذا الدور بوظائف كالذاكرة والحكم واللغة وإصدار القرارات إلخ. مما له توجه إلى الواقع. وأيضاً كانت هناك تفسيرات أخرى، منها تفسير مبير الشامل، وتفسير سوليفان الذي يرجع الذهان إلى الاضطرابات التفاعلية في حياة المذهون.

والمذهون psychotic هو الشخص الذي يعاني من الذهان، وهو غير مسؤول جنائياً، وكانوا قديماً يحجزونه خلف الجدران ويقيدون حركته لخطورته، وربما كان من الممكن أن يستمر الحال كما هو لولا العلاجات الطبية، كالعلاج بالصدمة الكهربية، ولولا العلاج بالعقاقير النفسية التي من شأنها المطامنة من القلق والاكتئاب والهوس، وتهدئة المريض حتى ليسهل السيطرة عليه والتعامل معه وعلاجه علاجاً نفسياً.

ويختلف العصاب بحسب النظرية التي يتبعها القائل بالاختلاف، فأصحاب النظريات العضوية يقولون إنّ الاختلاف بين الاثنين هائل حتى أنه ليس بينهما ما يجمعهما، وكأنما بين الاثنين هوة ليس من سبيل إلى اجتيازها. والذهان إضطراب عقلي أكثر منه نفسي، بينما العصاب إضطراب نفسي أكثر منه عقلي. والذهان أشد وطأة من العصاب وهو يصيب العقل بالاضطراب، بينما العصاب لا يصاب العقل منه بسوء، وإنما السوء يتناول السلوك، وأصحاب النظريات الدينامية يذهبون في تفسير الاختلاف بين الاثنين إلى الاختلاف في الأخذ بالحيل النفسية الدفاعية ، فالمذهون حيله الدفاعية أكثر، حتى أنّ شخصيته لتنبو بها عن الواقع نبواً هائلاً، وكان فرويد يقول إنّ المذهون تستغرقه ذاته عن التفكير في الواقع من حوله، حتى أنه في العلاج النفسي للمذهون ليس

من سبيل إلى التواصل معه، وذلك ما لا نجده في العصابي.

ومن الممكن إستحداث أعراض الذهان دون الذهان نفسه بواسطة عقاقير الهلوسة hallucinogens مثلاً، حيث تكون لها تأثيرات ضارة على وظائف الحكم يمكن أن تلحق به أذى دائماً. والذهان بشكل عام يعيق التعلم، ويفسد المهارات، ويحول دون التدريب، ويسوء به الإنتاج، وقد تكون له أوخم العواقب على نمو الجسم، بالنظر إلى أنّ المذهون يهمل في التغذية والوسائل الصحية الأخرى. ويؤدي سوء التوافق المستمر إلى المزيد من الانسحاب واتباع الحيل الدفاعية التي يزداد بها التردي صحياً، غير أنه في بعض الحالات قد يكون المذهون عبقرياً، أو له إنتاج فكري أو فني عظيم. والعلاقة بين الذهان وأمثال هذه الحالات لم تعرف بعد. وكان الروائي إدجار ألان بو Edgar Allan Poe (١٨٠٩-١٨٤٩) والكاتب المسرحي أوجست ستندبرج Stindberg (١٨٧٨-١٩٢٩)، والفيلسوف نيتشه Nietzche (١٨٤٤-١٩٠٠)، والرسام فان جوخ Van Gogh (١٨٥٣-١٨٩٠)، والقصاص يوسف إدريس، والفيلسوف عبد الرحمن بدوي، مذهونين، وعانى من تصرفاتهم الناس من حولهم، إلاّ أنّ الذهان لم يمنعهم أن يكتبوا أو يرسموا روائعهم التي أعجبنا بها كثيراً، وإن كنا نستشعر إزاءها أنها من نتاج مرضي. وكان «بو» ونيتشه يشكوان من حالات الاكتئاب الهوس، بينما كان ستندبرج، وفان جوخ، ويوسف إدريس، وعبد الرحمن بدوي، يعانون من الفصام. وقيل إنّ العبقرية والعمليات الذهانية كلاهما من شأنه تحرير الدوافع التي ما كان من الممكن أن تتحرر بدونها، إلاّ أنه في حالة العبقري فإنّ هذا التحرير للدوافع والطاقات الداخلية يكون إبداعياً، بينما هو في حالة المذهون لا يمارس مهارة معينة تحرير إلى فراغ، فتطيش به حركته، ويضيع تفكيره، وتتوه عنه انفعالاته. وإذا كان كل من العبقري والمذهون يعاني من الصراعات التي قد تتشابه، إلاّ أنهما يختلفان في طريقتهما في التعامل معها، وفي قدرتهما على مسايرة هذه الصراعات.

والذهان نادر عند الأطفال إلاّ أنّ شواهد الفصام الهيبيفريني أو الكتاتوني

قد تظهر خلال المراهقة وفي العشرينات. وغالباً ما تبدأ التطورات البارنية في الثلاثينات وما بعدها. وأما الذهان الانتكاسي فالسن المناسب له هو الشيخوخة التي توصف بأنها سن اليأس. وأما ذهان ما قبل الشيخوخة وذهان الشيخوخة فهما في السن التي يوحي بها إسماهما.

ويبدو أنّ الإصابة بالذهان في الذكور أكبر منها في الإناث، أو أنّ ذلك ما يظهر في مجتمعاتنا على الأقل، بالنظر إلى أنّ الضغوط الاجتماعية على الذكور أكبر، وتكاليف الحياة بالنسبة لهم أبهظ، وكلما ارتقى تعليم الإناث وزاد إقبالهن على العمل ومشاركتهن في أعباء التربية وتكاليف المعيشة زادت إحتمالات الإصابة بالذهان بينهن.

وفي المجتمعات المحافظة تجد الأنثى المتعلمة عنتاً في التكيف مع متطلبات العرف والتقاليد والدين والثقافة عموماً، ولذلك فقد يزيد عدد المريضات بالذهان في هذه المجتمعات عنها في المجتمعات الأخرى الأكثر تسامحاً وتحرراً. وعموماً فإنّ الأنوثة نفسها لها ضغوطها التي تختص النساء بمجموعة من الذهانات لا تصيب الذكور، كذهان النفاس puerperal p.، وذهان الإرضاع lactation p.، وذهان الحمل pregnancy p.، وذهان ربة البيت housewife s p.، وذهان المربيات maid s p.، والذهان الحيضي mentrual، فضلاً عن أنّ ذهان الإياس أو الذهان الانتكاسي تكون شواهده بالإناث، ولم يعرف أنّ للرجال سناً لليأس، بالنظر إلى أنّ الأنثى في هذه السن ينقطع حيضها وذلك ما لا يكون بالرجال.

وليس أكثر من «الهموم» مسبباً للإصابة بالذهان، والهموم يتقاسمها الرجال والنساء، والفقراء والأغنياء، والصغار والكبار، إلاّ أنّ البعض قد يزيد به الهم عن غيرهم. وأيضاً فإنّ الهموم تتفارق، وتختلف ضغوطها بحسب الشخصية والعمر الزمني ومستوى التعليم، فتزيد احتمالات الإصابة بالذهان كلما زاد الوعي بالمشكلة والإحساس بضغطها.

وعلاج الذهان يختلف أيضاً باختلاف نوعه من حيث أنّ بعضه

عضوي وبعضه وظيفي، فأما الذهان العضوي فعلاجه طبي بالعقاقير، أو الجراحة النفسية، أو الصدمة الكهربية، وأما الذهان الوظيفي فعلاجه نفسي يخص عالم النفس وحده، ومن ذلك العلاج النفسي المكثف، والعلاج الجماعي، والعلاج العائلي. ومن العلاج النفسي أيضاً السيطرة على محيط المريض والتحكم في المواقف التي يمكن أن يدخلها. وقد تترابط كل هذه العلاجات معاً وتقتضيها الحالة. ويهدف العلاج النفسي إلى استحداث تغيير أساسي في الشخصية، وفي المحيط الذي يعيش فيه المريض والذي تسببت ضغوطه في تداعي المريض بالذهان، وفي مفهوم الأسرة أو الزملاء عن المرض النفسي أو العقلي، وتكييف أفراد العائلة على ظروف المريض بحيث يمكن أن يكون هناك المزيد من التقبل له بينهم، والفهم لمشاكله وأسباب اضطراباته.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Lorr, M. and Klett, C. J. and Mcnair, D. M.: Syndromes of Psychosis.

Eysenck, H. J.: Behavior Therapy and Neurosis.

Epstein, S. and Coleman, M.: Drive Theories of Schizophrenia.

❖ ❖ ❖

– ٤ –
المستشفيات والعيادات النفسية

تاريخ المستشفى النفسي والعيادة النفسية، ومجالاتهما. عيادات التوجيه المهني. العيادات النفسية العسكرية. فريق العمل بالعيادة النفسية...

❖ ❖ ❖

المستشفى النفسي mental hospital والعيادة النفسية mental clinic، كلاهما لعلاج المرضى النفسيين، غير أنّ

المستشفى مؤسسة كبرى ولها تاريخ ممتد من اليونان والعرب حتى وقتنا الحاضر، منذ أبو قراط Hippocrates (٤٦٠ ق.م.)، وجالينوس Galen (١٣١-٢٠١م.)، وتوما الأكويني Acquinas (١٢٧٤)، وورث العرب علم اليونان والرومان، وأسسوا أول مستشفى للعلاج النفسي أو العقلي، بناه الوليد بن عبد الملك سنة ٨٨ هـ. في دمشق، وأطلق عليه إسم المارستان، والاسم معرّب عن الفارسية، وكان أبو قراط قد أطلق على المستشفى النفسي إسم asulon وحُرِّف إلى asylum، وأما مارستان فتعني بيت المرضى المجذوبين، ونذكر أنّ أحمد بن طولون كان أول من بنى مارستان في مصر، بناه سنة ٥٢٩ هـ.، وتتابع بناء المارستان، فكان هناك مارستان كافور الإخشيدي سنة ٣٤٦ هـ.، والمارستان الكبير المنصوري، بناه المنصور قلاوون الألفي سنة ٦٨٢ هـ. ونذكر أنّ أول مستشفى نفسي في أوروبا كان في أسبانيا بفالينسيا، قيل بناه العرب، وأعاد الأسبان افتتاحه سنة ١٤١٠م. وقيل إن مستشفى بيت لحم في بريطانيا بني سنة ١٤٠٠. واشتهر من أطباء النفس وعلاجاتهم يوهان شبرنجر، وهاينريش كرايمر، وباراسيلسس بألمانيا، وبودان، وفينسنت دي بول، وفيليب بينييل، واسكيرول في فرنسا، وكولين وكونولي في إنجلترا، وفي أمريكا كان جرايزنجر، وبنيامين Rush، وكانت أول مستشفى نفسي في أمريكا الجنوبية في مكسيكو سنة ١٥٦٦ حاكوا فيها الأسبان الذين حاكوا بدورهم العرب. وأما العيادات النفسية فحديثة نسبياً. وتصمم المستشفيات النفسية تصميمات مختلفة عن تصميمات المستشفيات، ولها عماراتها المستقلة من النواحي الجمالية والهندسية، ومن أشهر مهندسي هذا الفرع من هندسة المستشفيات كيركبرايد Kirkbride (١٨٠٩-١٨٨٣)، ومنها مستشفيات نهارية، وأخرى ليلية. وأما العيادات النفسية فحديثة نسبياً، وتعمل كمؤسسات للإرشاد والتوجيه النفسي والخدمة الاجتماعية. وكان إنشاء أول عيادة من هذا النوع بأمريكا سنة ١٨٩٦ لعلاج الأطفال المتأخرين عقلياً أو خلقياً، أو الذين يعانون نقصاً جسمياً

يؤدي إلى إبطاء أو إيقاف نموهم وتقدمهم، وقد أنشأها بجامعة بنسلفانيا لايتنر ويتمر، وبدأ ينشر سنة ١٩٠٧ البحوث والنتائج التي يخلص إليها في هذا المجال في مجلة «العيادة النفسية» التي كانت أول مجلة في هذا التخصص. وكانت عيادة لندن النفسية لتوجيه الأطفال التي أنشئت سنة ١٩٢٩ نموذجاً للعيادات النفسية التي يمكن أن تعالج هذا النوع من المشاكل النفسية للأطفال، وتقبل بها حالات دون غيرها بحسب تخصصها. وعيادات إرشاد الأطفال child-guidance clinics من ذلك، تبحث في المشكلات اليومية للأطفال، كالعناد، والسلبية، والخجل، والعزلة، والميل لأحلام اليقظة، ومص الأصابع، وقضم الأظافر، وفرط التنشط، والميل للتخريب والعنف، والعصبية، والخوف المرضي من أمور بعينها، والقلق الشديد، والتبول اللاإرادي، والمشي والكلام أثناء النوم، وعيوب النطق والتلعثم، والكذب المرضي، والسرقة، والتأخر الدراسي، والهروب من المدرسة، وغير ذلك من الاضطرابات النفسية أو السلوكية.

وتبحث العيادات النفسية التربوية psycho-educational cs. مشاكل التحصيل المدرسي للطفل، وسلوكه في المدرسة عموماً، وتوجيه الأطفال تعليمياً، ببحث ميولهم، والكشف عن قدراتهم العقلية، وإرشادهم لنوع التعليم المناسب لهم بحسب مستوياتهم التحصيلية. وقد تعرض على المختصين في هذا النوع من العيادات مشاكل الطفل التي مدارها إضطرابات العلاقات في أسرته وانصراف الأبوين عن التعاون مع المدرسة، والحالات التي يرجع التخلف الدراسي للطفل فيها إلى نقص ذكائه، أو ضعف قدراته العقلية، أو عجزه عن التكيف مع زملائه في الفصل بسبب نطقه المعيب، أو بسبب عاهة جسمية عنده. وقد تختص العيادة النفسية في أنواع من الاضطرابات دون أنواع أخرى كعيادات علاج عيوب القراءة، أو التأخر في مواد بعينها كالحساب مثلاً، أو عيادات علاج الانحراف والمنحرفين التي تعرض حالاتها على محاكم الأحداث فتحولها هذه المحاكم إليها - العيادة السلوكية behavior c.، من مثل حالات

التشرد، والهروب من البيت، والانتحار، والانخراط في العمل الإجرامي مع العصابات، وارتكاب السرقة، أو إشعال الحرائق، أو إتلاف الممتلكات، أو الاعتداء على الغير، أو الاغتصاب وهتك العرض والاعتداءات الجنسية. وتبحث العيادة النفسية في دوافع الحالة وأسباب الانحراف، سواء كانت من الحدث نفسه أو كانت إجتماعية عائلية. ومن الاضطرابات التي تعرض على العيادة النفسية الملحقة بالمصحات أو المستشفيات النفسية ما يكون له جذور نفسية أو عقلية، وقد يتطور مع إهمال الحالة إلى درجة يتوجب معها إلحاق المريض بالمصحة. وتتفاوت هذه الاضطرابات بين القلق والعصبية والنهك وغير ذلك من الأعراض التي قد تكون عند الأسوياء أيضاً، وبين الهياج والعنف الشديد والتصرف بشذوذ، وبما يهدد المخالطين أو يخشى معه من سوء التصرف مالياً وأدبياً واجتماعياً، ومن ذلك حالات الهستيريا، وإدمان المخدرات أو الكحول، وغشيان المواخير، والمشاعية الجنسية، واللواطة، والسلوك السيكوباتي عموماً.

وعيادات التوجيه المهني vocational guidance cs. من العيادات النفسية المختصة بالإرشاد والتوجيه في مجال التخصص المهني، وتبحث الحالات المرتبطة بالمشاكل المهنية وأمراض العمل، ونواحي التفوق في مختلف الأعمال، والميول والقدرات والإمكانات التي يمكن أن تكون لدى الفرد، والتي بمعرفتها فيه وتنبيهه إليها يمكن توجيهه إلى نوع العمل الذي يناسبه، فيتحقق له بذلك التوافق في مجال العمل. ويقتضي ذلك أن يكون لدى الأخصائيين في العيادة معرفة تحليلية كاملة بنوع العمل أو المهنة، وما يتطلبه من مهارات وإجراءات، وما يستلزمه من معرفة وقدرات، وما قد ينجم عنه من إصابات أو أمراض.

وتلحق بالمستشفيات النفسية عيادات خارجية للكشف على المرضى لأول مرة، ولمواصلة العلاج للبعض - عيادات المرضى الخارجيين outpatient cs.. والعلاج بهذه العيادات كثيراً ما يكون علاجاً نفسياً فردياً. وهناك عيادات

طوارئ emergency cs. ، ومراكز صحية نفسية إقليمية community mental health centers. وتبحث العيادة النفسية الملحقة بالمستشفيات العسكرية الحالات المتعلقة بالجنود والضباط، من حيث صلاحيتهم لأنواع معينة من الأعمال العسكرية دون إهمال أخرى، بقياس قدراتهم وفحص استعداداتهم وإمكانات إحتمالهم، وما يمكن أن يتعرضوا له من تدني الروح المعنوية واضطرابات نفسية نتيجة التعرض للإرهاق أو الضغوط الكثيرة والمختلفة في ميادين القتال، مع استبعاد العناصر غير الصالحة واكتشاف أمرها مبكراً بما يفيد تقليل الوقت والجهد في إعداد المتدربين ويعني حسن الاختيار من بينهم للوحدات المناسبة.

وهناك أنواع أخرى من العيادات تتخصص في حالات البغاء، أو الأطفال اللقطاء، أو التبني، أو المشاكل بين الأزواج، أو المشاكل العائلية بين أفراد الأسرة الواحدة، وغير ذلك مما أصبح من التخصصات التي لهذه العيادات، بالإضافة إلى أنها مراكز للتوجيه والتثقيف العلمي فيما يتعلق بالصحة النفسية، بما تقدمه من بحوث وإحصاءات وتحليلات ومساعدات، وبما تساهم به من إعداد لكوادر المتدربين والأخصائيين، ووضع وتنظيم البرامج التربوية، بغرض تحسين أساليبها وطرق التدريس والتعامل مع الأطفال والمعوقين والمتخلفين عقلياً، وقد يكون لهذه العيادات فضل تعديل واستحداث الاختبارات النفسية والتخصيلية وتجريبها وتقنينها.

والعمل بالعيادة النفسية أشمل من العمل بالمستشفى النفسي، ولذلك كان العلاج بالعيادة النفسية غالباً بالأجر، على عكس المستشفيات النفسية فإنها عامة وبالمجان، والمرضى بها ربما يبلغون الألف، وهو ما لا يتوفر في العيادة النفسية. وفريق العمل بالعيادة النفسية، مثله مثل المستشفى النفسي، لا بد إذن أن يضم عدداً من الأخصائيين النفسيين في مختلف المجالات، وكلما كان استقلال العيادة النفسية بمجال من مجالات العلاج والتوجيه والإرشاد الصحي النفسي كلما كان تفرد فريق العيادة

بمعرفة تخصصية في هذا المجال. والأخصائي الكلينيكي النفسي clinical psychologist قد يكون من أي من الجنسين باعتبار أنّ بعض الحالات يفيد عرضها على أخصائية، وبعضها يستلزم أخصائياً. وعموماً فإنّ المعرفة السيكولوجية اللازمة لأخصائي العيادة النفسية تنصرف إلى علم النفس بمختلف فروعه كعلم النفس الطبي psychiatry، والكلينيكي clinical psychology والفرق بين الاثنين أنّ علم النفس الطبي هو تخصص طبي، وأما علم النفس الكلينيكي فمجاله المعرفة والممارسة السيكولوجية لمساعدة المريض الذي يشكو اضطراباً نفسياً أو سلوكياً، على استعادة توافقه النفسي والاجتماعي. ويلزم لأخصائي العيادة النفسية من المعرفة السيكولوجية بخلاف ذلك: الدراية بعلم النفس الشواذ، وعلم النفس التربوي، وعلم نفس النمو، بالإضافة إلى الطب النفسي، وطرق العلاج النفسي كالعلاج بالتحليل النفسي، أو العلاج السلوكي، وسيكولوجية توجيه الأطفال، والتوجيه المهني، والخدمة الاجتماعية، والصحة النفسية، والتوجيه التعليمي، وباثولوجيا الكلام وعلاج النطق، وقياس الذكاء والاستعدادات، واختبارات الشخصية. وعند تحويل الحالة للعيادة النفسية تتم لقاءات بين الأخصائيين والشخص المعني، وتكتب عنه تقارير طبية ونفسية واجتماعية، ويرصد تاريخ الحالة. وتبحث الحالات من كل الأخصائيين، وتستعرض التقارير، ويتم الاتفاق على التشخيص ورسم خطة العلاج.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Wolman, B. B.: Handbook of Clinical Psychology.
- Sundberg, N. D. and Tyler, L. E.: Clinical Psychology.
- Lubin, B. and Levitt, E.: The Clinical Psychologist.

❖ ❖ ❖

- ٥ -
سيكولوجية الذات

الذات التجريبية، والذات الجسمية، والذات المدركة (بكسر الراء) والذات المدركة (بفتح الراء)، والذات المادية، والذات الاجتماعية. سيكولوجية الأنا بدلاً من سيكولوجية الذات عند فرويد. الوعي بالذات، وتحقيق الذات، وتنمية الذات، وتقدير الذات، وتقوية الذات، والعلاج بتحقيق الذات. الذات الظاهرية.

❖ ❖ ❖

الذات self قد ترادف النفس psyche كما في قولنا الشي ذاته، أي نفسه، والشيء في ذاته أي في حقيقته، بصرف النظر عما قد نتخيله أو نتوهمه من صور لهذا الشيء، أو ما قد يعتريه من تغيرات في الأعراض والأحوال. والذات بالنسبة للأشياء هي الحقيقة وراء كل الظواهر، وبالنسبة للشخصية هي كل الشخصية، وهي تدرك (بكسر الراء) وتفكر وتنفعل وتدخل الخبرات، وهي من ثم قوام الشخصية، ولكنها ليست الأنا ego، لأنّ الأنا هو هذا الجزء من الشخصية الذي يتعامل مع الواقع، ونحن عندما ننسب، لا ننسب للأنا، ولكننا ننسب للذات، فنقول مثلاً إنكار الذات self-denial؛ وتأكيد الذات self-assertion، وعقاب الذات self-punishment، وتحقير الذات self-abasement؛ والمحافظة على الذات self-preservation؛ وحب الذات self-love؛ وإرضاء الذات self-gratification؛ وخداع الذات self-deception؛ ونقد الذات self-criticism؛ وتقدير الذات self- assessment، إلخ، أو نقول الذات التجريبية empirical self ونقصد بها كل خصوصية الشخص: جسده، وسماته، وقدراته، ومادياته، وأسرته، وأصدقاءه، وأعداءه، ومهنته، وهواياته، إلخ. وتتمايز الذات التجريبية في مرحلة مبكرة عن الأنا، فعندما يلمس الطفل الأشياء يتحصل له الإدراك التدريجي بتمايز «ما ليس ذاته» عن «ذاته» كلما وجد أنّ «ما ليس ذاته» يقاومه ويتسبب له في الألم، وكان قبل هذه

المرحلة تختلط عليه حدود «ذاته» وجسمه، فبدأ يكتشف جسمه عن طريق حواسه، وبدأ أيضاً يعي أنّ جسمه يمكن أن يتمايز عنه، وأن يكون مصدر ألم له، وموضوع إدراك منه. والذات في كل ذلك هي التي تدرِك - الذات المدرِكة perceiving self، وهي أحياناً تكون موضوع إدراك من نفسها - الذات المدرَكة perceived self. وأما الأنا فهو هذه الجزئية من النفس التي تكون بها مواجهة الشخص للعالم الخارجي وللناس. والأنا يؤكد به الشخص ذاته حيال كل ما هو ليس بذاته من أغيار. والذات لأنها كلية ربما نصنفها بحسب توجهاتها، فالذات الروحية spiritual s. عند وليام جيمس William James (١٨٤٢-١٩١٠) مثلاً، هي هذا الجانب منها الذي له تطلعات ونزعات وميول؛ والذات المادية material s. هي جانب الذات الذي يتمثل فيما يملكه الشخص من عينيات وماديات؛ والذات الجسمية corporeal s. هي خصائص الفرد التي تكوّن سمات جسمه؛ والذات الاجتماعية social s. هي الصورة المتحصلة له عن الأغيار. ولعل هذه «الكلية» للذات والتي ليست للأنا، هي التي جعلت عالماً من علماء التحليل النفسي يخالف إتجاهات المدرسة التحليلية ويقول بأنّ الذات هي نقطة الوسط في الشخصية أو هي المركز. وهذا العالم هو يونج Jung(5781-1691)، وهو أحد ثلاثة كانت بهم البدايات الأولى للمدرسة التحليلية. ويونج يقول إنّ الذات تجمع حولها جميع نظم الشخصية، وتمد الشخصية بالوحدة والتوازن والثبات. وأما فرويد فقد أسقط من اعتباره الذات بالكلية وأكد على الأنا، وهو عنده الجهاز الإداري للشخصية، لأنه يسيطر على منافذ السلوك، ويختار من البيئة ما يستجيب له، ويقرر الغرائز التي سوف يسمح لها بالإشباع، وكيفية هذا الإشباع، ورغم أنه جزء من الهو id غير المنظم فإنه يصبح منظماً، ويمثل كل ما هو سوي ومنطقي، على عكس الهو. والأنا يدرك ويفكر ويميز، وهو شعوري غالباً، ويتضمن جزءاً لاشعورياً. وهو الذي يكبت ويراقب الأحلام، ويتمايز بعضه فيكون الأنا الأعلى super-ego، يتمثل النواهي والزواجر الاجتماعية، ويصنع الضمير

الشخصي والاجتماعي. ولكل ما سبق فقد جعل فرويد علاج الاعتلال النفسي بتقوية الأنـا، وبـدون مسـاعـدة الأنـا لـن يـجـدي العلاج النفسي، ومن ثم كانت سيكولوجية الأنـا ego psychology، فـي مـقـابـل سيكولوجية الذات self psychology، والأخيرة تؤكد على الجانب الذاتي للإدراك والشعور، وعلى ذاتية الخبرة، وارتباط الأفكار والمدركات بالذات. وفي سيكولوجية الذات يعمل الفرد إستجابة لحاجاته الحقيقية، ويحاول أن يتوجه بعمله بحيث يكون ما يفعله خاصاً به وينتمي إليه، بينما في سيكولوجية الأنا يكون تجاوب الفرد مع الواقع ومتطلباته، ويسيطر مبدأ الواقع reality principle على الأنا ويحكم تصرفاته. والذات لكي يكون العمل عملها لا بد أن تكافح وتجاهد، في حين أنّ الأنا توفيقي. والذات هي الجوهر المميز للفرد، ومن ثم فهي محتوى الوعي، ولا وجود لها خارجه، وذلك ما نقصد إليه باصطلاح الوعي بالذات self consciousness، وهـو الـوعـي بـالـهـويـة، وبأني أنا نفسي، ووعيي بذاتي هو وعيي بدوافعي، وبما عليه سلوكي، وبما أقصد منه، وبما أتجه إليه، وأما الأنا فإنما هو بناء معرفي في خدمة الذات. وعندما تتعرض الذات للخطر فإنّ وسائل دفاع الأنا تستنفر للدفاع عن الذات والذود عنها والمحافظة عليها. وكل سلوك يتوجه في مقصوده النهائي إلى تحقيق الذات self realization، وإلى تنمية الذات self development، أي تـنـمـيـة الشـخـص لطاقاته وقدراته، وفهم وتقبل ذاته self acceptance. وفي سيكولوجية الذات فإنّ كل سلوك يكون داخل الإطار المرجعي للشخص القائم بالسلوك، والإطار المرجعي له هو مجاله الظاهري؛ والذات الظاهرية phenomenal self جزء متمايز من المجال الظاهري، وهو الجزء الذي يخبره الفرد كسمة مميزة لنفسه (Snygg and Combs: Individual Behavior)، ومن ثم فإنّ الهدف الرئيسي لكل سلوك هو استمرار وتقوية الذات الظاهرية التي هي الإطار المرجعي الوحيد للفرد، أو هي حقيقته الوحيدة. ويبدو أنّ مفهوم الذات self concept الذي أدخله الظواهريون وأخصهم ريمي (Rimy, V.: The Self concept as a Factor in Counselling and

Personality Organization)، قد صارت له أهمية كبيرة في الكثير من الميادين النفسية، وخاصة في التوجيه والإرشاد النفسي، وفي «العلاج المركز حول العميل» أو «العلاج غير الموجه»، فلكي يتغير السلوك ينبغي التوجه إلى مفهوم الذات عند الفرد المراد تغيير سلوكه فنغيره أولاً، وهي قضية تتصل بحاجة الفرد إلى الاعتبار الاجتماعي. ونتيجة خبرات الذات بإشباع أو إحباط حاجاتها إلى الاعتبار الاجتماعي يكون اعتبار الفرد لذاته self regard، وينمي في نفسه إتجاهاً نحو تقدير الذات self appraisal. والهدف النهائي خلف كل العمليات السابقة هو تحقيق الذات، فغاية كل شخص سواء عن وعي أو عن غير وعي هي أن يحقق ذاته، وكل منا به دافع للخلق والإبداع، وأعظم ما يمكن أن يخلقه كل إنسان في حياته كلها هو ذاته، وهي نموذج الإبداع، ومن الذات التي نبدأ في تشكيلها منذ الطفولة تكون في كل منا عادة الإبداع، سواء للأعمال الفنية، أو الاختراعات، أو الأنظمة الاجتماعية، إلخ، فإذا تحققت للشخصية ذاتها، والذات هي مركز ومناط الشخصية، فإنّ عليها أن تعمل على استبقاء الذات، واستبقاء الذات self maintenance يستوجب فهم الذات self understanding، ومن ثم يكون تفتحنا على الخبرات التي تثري الشخصية وتتبنى بها الذات وتتقوى وترتقي، وتقوية الذات self confirmation مطلب تال، فما أن يرغب الفرد في تحقيق ذاته والحفاظ عليها حتى يرغب في تقويتها ثم في ارتقائها self development، وتقويتها وارتقاؤها مطلب ليس باليسير، وإنما يحتاج للتصميم self determination، والمبادأة، وأن يتمثل ذاته self idealization، وأن يكوّن لنفسه نسق ذات self system، وأن يجد ذاته الحقيقية his true self، وأن يبذل كل ما بوسعه من الجهد والكفاح واحتمال الآلام ليبرز ذاته self salience، فتتميز عن ذوات الأغيار، وليست الحياة مجرد أن نحصل على شيء ونحافظ عليه، ولكننا نريد باستمرار أن نتجاوز الوضع الثابت والواقع الراهن، والإنسان ليس إنساناً آلياً، وهو دائماً يهفو أن يعمل في حرية، والحرية هي الضمان الوحيد لأن يحقق ذاته ويقويها، والعلاج

بتحقيق الذات وتقويتها يقوم على فكرة إحاطة الشخص المريض نفسياً بجو إجتماعي يتمكن فيه أن يعبر عن نفسه ومشاعره ودوافعه بحرية، وأن يتقبل نفسه ومشاعره ودوافعه، وفي بيئة كهذه تتمكن الذات من أن تنمو تلقائياً نحو مزيد من الصحة والقوة، وتكون أكثر كفاية وقدرة على تكوين علاقات إجتماعية أفضل. وفي المصطلح التحليلي النفسي ما يسمى تقمص الذات self identification، وهو: الإعجاب بآخر لقوة شبهه بالذات، وأن يعمل ليكون على شاكلته؛ والتطلع الذاتي النرجسي narcisstic self-peeping هو استراق النظر إلى الذات voyeurism على أساس نرجسي من حب الذات؛ والمعرفة بالذات self knowledge إصطلاح كانط، نقلاً عن اليونان، حيث كان شعار معبد دلفي «إعرف نفسك» know thyself.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Rogers: Client-centered Therapy.
- Rogers: Counceling and Psychotherapy.

❖ ❖ ❖

- ٦ -
سيكولوجية الشخصية
Psychology of Personality

الشخصية والشخص والأقوال فيهما. لكل شخصية محدداتها، وللطفل شخصيته كالراشد تماماً. متى ينفرط عقد الشخصية فتنحل أو تنقسم؟ ومتى تستأصل الشخصية؟ مراحل نمو الشخصية. الشخصية عند أصحاب التحليل النفسي. أنماط الشخصية وسماتها. علم الشخصية. تقويم الشخصية بالاختبارات والاستبيانات وتحليل كتابات الشخص وسيرة حياته. الاضطرابات التي تصيب الشخصية وطرق علاج ذلك. الشخصية المعتلة نفسياً أو إجتماعياً والمنحرفة جنسياً.

❖ ❖ ❖

مفهوم الشخصية personality concept من المفاهيم الشائعة، وقيل فيه إنه مركل افتراضي والتعريف به يتعدد،

ويورد أولبورت Allport سنة ١٩٢٧ نحواً من خمسين تعريفاً، لها توجهاتها الفلسفية والاجتماعية والسيكولوجية. والأصل في اصطلاح الشخصية personality أنه من persona اللاتينية، بمعنى القناع أو الدور الذي يضطلع به الممثل، ويساعده القناع على أن يكون له مظهره هذا الدور، ومن لغة أهل المسرح أنهم يسمون الأدوار شخوصاً، ومن ذلك الشخصيات الدرامية dramatis personae أي أبطال المسرحية، والعرب يعرفون الشخص person بأنه الذي يظهر ويبدو للعيان محط الأنظار.

والشخص في الاصطلاح كائن له مواصفاته التي قد تعطينا الانطباع بهويته، ويغلب ذلك على الإنسان. ومن التجاوزات في العامية أن يقال إنّ للأشياء أو الحيوانات شخصياتها، ومن ذلك أيضاً أنّ العامة تستخدم الشخصية في سياقات مثل قولهم في وصف أحد الناس إنه قوي الشخصية أو ضعيفها، أو إنّ له شخصية مسيطرة authoritative p.، فيصفون الشخص بصفة أو صفات تدل عليه وتكون سمته أو سماته المميزة p. traits، والمقصود بصفة كهذه، بيان فاعلية الشخص وتأثيره على الناس من حوله باعتباره شخصية مؤثرة influential p.، أو تأثره بهم، وما يمكن أن يخلفه في الآخرين من إنطباعات عنه.

والشخصية بلغة علم النفس قد تكون مجموع تأثيراتها في الآخرين، وقد تكون مجموع إستجاباتها لمختلف المؤثرات والمواقف، وهي أسلوب الفرد في التعامل مع البيئة والمجتمع، أو أسلوبه الذي يوفق بين مطالبه ومطالب المجتمع، أو عاداته الثابتة التي تقاوم التغيير، أو هي التنظيم الشخصي الذي يجتمع فيه عقله وجسمه ومزاجه ومهاراته وخلقه واتجاهاته، والذي يحدد توافقه مع البيئة ويتميز به دون غيره من الناس، أو هي ما يمكن أن يجتمع للدارس عنها من معلومات وتفاصيل ونتائج، سواء من ملاحظة ما يقوله أو يفعله صاحبها، أو توصيفه لنفسه، أو ما تأتي به نتائج الاختبارات والاستبيانات والتحليلات النفسية عن شخصيته. ومن أمثال هذه التعاريف قد نخلص إلى أنّ الشخصية ليست سوى مكون إفتراضي كما أسلفنا.

له بناؤه المتكامل، وديناميانه، ووحدته، وانتظامه، ونموه.

ولكل شخصية محددات determinants، أي عوامل تصنعها، وهي عوامل ومحددات بيولوجية واجتماعية. والكثير من الصفات أو السمات التي يمكن أن تصنع الشخصية تتحصل لها وراثياً من حيث الجسم واستعداداته الفسيولوجية والغدية والعصبية. وللوراثة ميكانيزمات تعمل عملها في تصنيع الشخصية من لحظة تلقيح البويضة. ونحن لا نرث الصفات الجسمية فقط، بل والصفات المزاجية والقدرات العقلية والمهارات وبعض الانحرافات السلوكية. والشخصية من وجهة النظر البيولوجية هي معطى بيولوجي إلى حد كبير. وللبيئة أيضاً تأثيرها في اكتساب السلوك وتعديله وتوجيه الاستعدادات الموروثة وجهات إجتماعية. والبيئة منها البيئة الرحمية التي ينمو فيها الشخص جنيناً، والبيئة المادية أي ظروف المجتمع الذي ننشأ ونعيش فيه، سواء الاقتصادية أو التضاريسية أو المناخية، والبيئة الاجتماعية، بالعلاقات المتشابكة بين أفراد المجتمع الواحد، والتي يكون تمثل الأطفال لها، وتعينهم بشخوصها، وامتصاصهم لعاداتها ولغاتها وقيمها وقوانينها وكل ما يمكن أن يصنع ثقافتها. وقد يعتبر البعض الثقافة العام الأساسي في تكوين الشخصية، وقد يغالي هذا البعض حتى ليذهب إلى أنه بدون الثقافة لا يكون لدينا أفراد وإنما كائنات عضوية. والتطبيع الاجتماعي هو حقاً الذي يغير آحاد الناس من كائنات حية بيولوجية إلى كائنات حية إجتماعية تعيش في بيئة تتأثر بها وتؤثر فيها. والشخصية لا تنمو إلاّ في محيط ثقافي، وعن طريق اكتساب النظم والعادات والتقاليد في المجتمع. والشخصية الإنسانية human p. – بحسب الاتجاه الثقافي – هي تنظيم الفرد لأفكاره ونشاطاته واتجاهاته في العمل. في ضوء المعايير الاجتماعية والإطار الثقافي الذي يعيش فيه. والناس في تعرضهم للمعايير الثقافية المتماثلة داخل الثقافة الواحدة تتشابه أساليبهم في الاستجابة، ويكون بهم قدر مشترك من السمات الأساسية التي تصنع ما يسمى بالشخصية القومية national p.

والثقافة هي التي تحدد أهداف التربية ووسائلها بالنسبة للأطفال، وتجعل هناك نمطاً أساسياً للشخصية basic p. pattern، أو ما يسمى الشخصية الأساسية basic p.، تساهم في تشكيله وصياغته مؤسسات الأسرة، والمدرسة، والرفاق، والجامع، وأجهزة الإعلام، وغير ذلك من دين وعرف ومثل وقيم، ومن ثم ينشأ الطفل العربي مثلاً بشخصية أساسية بخلاف الطفل الأميركي، بما يتلقى كل منهما من تدريبات ونظم وتعليم وعادات. وعندما يكبران فإنّ كلاً منهما تكون له شخصيته القومية المختلفة. وتعكس الأسرة كبيئة ثقافية ثقافة المجتمع، وتختلف شخصية الطفل باعتبار ترتيبه بين أفراد أسرته، والعلاقات بين أبويه، والجو الأسري العام، وعلاقته خصوصاً بأمه. والطفل يتعين بالشخصيات المؤثرة في محيطه، ويتعلم من أفراد عائلته حقيقة الدور الاجتماعي social role وأبعاده السيكولوجية، وما يتوقعه منه الغير، ومطالب الدور. وهو يدخل في مواقف عدة تكون له فيها أدوار مختلفة. وستظل المواقف تتغير دائماً طالما هو إنسان يعيش في مجتمع وبيئة حضارية، وستكون له أدوار دائمة. والبعض قد يختار لنفسه المواقف، وقد تفرض عليه أو تعرض له، والبعض أيضاً قد يختار أدواره، وقد يرضى بما يناط به من أدوار، وقد يعاني من تضارب المواقف وصراع الأدوار، ومن ذلك يتشكل السلوك ويكون ضبطه وتوجيهه، وتنمو السمات بتكرار التعرض للمواقف المشابهة والتي تجلب معها احتمالات الاستجابات المتشابهة التي تتثبت وتصبح عادات سلوكية أو سمات. ومثلما يغالي البعض فينسب الشخصية أساساً للثقافة، فقد يغالي أيضاً وينسب الشخصية للمواقف، وقد يؤكد أنه لا وجود لثبات داخلي للشخصية لأنّ كل موقف تدخله له ملابساته التي تستنفر في الشخصية مكونات بخلاف المكونات التي قد تستنفرها مواقف أخرى. وقد يغالي البعض فينسب للطبيعة البيوكيميائية الداخلية، والغدد خصوصاً، أنها الأصل في تكوين الشخصية. ويدعو بعض العلماء إلى تغليب العامل الغدي، وينسب للغدد أنها المنظم للشخصية،

والحقيقة أنّ محددات الشخصية في الإنسان هي محددات بيولوجية واجتماعية. والوراثة والبيئة تتعاوران التأثير على الشخصية، وقد تستحدث الجينات حاملة الصفات الوراثية ما تستحدثه المحددات الاجتماعية من آثار الشخصية، وقد تكون شخصية أحد الناس متسلطة أو عدوانية فيكون ذلك لصفات موروثة عصبية أو عقلية أو مزاجية، أو يكون بسبب إحباطات في البيئة، والنتيجة المنطقية أننا جميعاً نكون بحيث تغلب على بعضنا العوامل الوراثية في تكوين الشخصية أكثر من العوامل البيئية، أو قد تغلب على البعض العوامل البيئية على العوامل الوراثية أو البيولوجية.

والشخصية كما تكون «للبالغ» فإنها تكون أيضاً «للطفل»، ونحن نولد ولنا مظاهر الشخصية، حيث يختلف الأطفال عن بعضهم البعض في نشاطهم الحركي وبكائهم، وشهيتهم للرضاعة، وحجمهم، وأوزانهم، وأنواع المثيرات التي تثيرهم، وأمزجتهم، وتيقظهم أو تبلدهم. ويساهم «النضج» في نمو الشخصية، ويكشف عن حقيقة ما لدينا من قدرات ومهارات ومواهب ومميزات مزاجية، ونكتسب بالتعلم سمات واتجاهات، وتكون لنا «أهداف»، وتتخالف أساليبنا في التكيف مع «ظروفنا الاجتماعية»، وتخلق الظروف التي نواجهها في حياتنا إستعدادات تؤثر على مجرى نمو شخصياتنا.

ومنذ الشهر «الرابع» تظهر للطفل أساليبه المتميزة في السلوك. والحرمان من الأم يتسبب للطفل في السنة «الأولى» في اضطرابات نفسية لها مردودها على نمو شخصيته، وقد تظهر عليه علامات عدم النضج الانفعالي وأعراض المرض النفسي. وفي الوسع التنبؤ بما ستكون عليه شخصية كل طفل لو علمنا الأسلوب الذي عومل به من ذويه. ويكتشف الطفل جسمه بالتدريج، ويبدأ في التعرف على ذاته الجسمية. وتتطور لدى الطفل ذاته مع نمو شخصيته، والذات the self هي لب الشخصية. والطفل يبدأ في إدراك وجود العالم الخارجي والآخرين قبل أن يدرك ذاته، ثم يتعرف على ذاته بأن يدرك أنّ له خصوصيات وممتلكات، وله إسم يتردد على سمعه باستمرار ويعرف به أنه هو لم

يتغير. وهوية الذات self-identification من المدركات التي تتحصل للطفل في سنواته الباكرة. وفي سن «الثانية والثالثة» يبدأ في القيام بنشاطات يحب أن يأتيها بنفسه وأن يتمها، ويظهر به الميل إلى الاستقلال في النشاط، ويسميه البعض الميل إلى الاستقلال الذاتي self-independence، غير أنه قبل سن دخول المدرسة، أي ما بين الرابعة والسادسة، يكون قد عرف أشياء كثيرة، ودخل في العديد من الخبرات، وبدأ يفقد هويته ويختلط عنده الوهم بالحقيقة، ويسيطر عليه اللعب الإيهامي fictional play. وفي هذه السن تتسع ذاته وتمتد self-expansion لتشمل الأشياء من حوله، ويبدأ من جديد يتعرف على ذاته بأبعادها الجديدة الممتدة، ويقوى عنده الشعور بالهوية في السن من «السادسة» حتى «الثانية عشرة»، ويبدأ يتعرف على الرفاق companions ويتمثلهم فتتوه عنه هويته من جديد. وفي هذه السن يكون واقعياً أكثر، ومحباً للاستطلاع، وتتكون لديه الذات العاقلة rational self، وتكون وظيفتها تنظيم نشاطاته وعلاقاته وتجنيبه المشاكل. وفي مرحلة المراهقة، في نحو «الثانية عشرة» يعاود إكتشافه لذاته، بعد أن كان قد فقدها تقريباً في ولاءاته لأسرته والمدرسة والنظام، وقواعد الرفاق، والأدوار الاجتماعية المتتالية التي علموه القيام بها. وفي هذه السن يعامل مرة كطفل كما كان، ومرة كمراهق له مطالب مختلفة وشخصية مغايرة، فيضطرب لذلك سلوكه وانفعالاته ويميل للتمرد. وتتوقف صورة المراهق adolescent عن ذاته على تقبل الآخرين لشخصيته أو رفضهم لها، وتلح عليه الحاجات الجنسية فيضطرب لها وجدانياً، وقد يجد حلاً لمشكلاته في أحلام اليقظة، وفي الاستمناء masturbation، وقد يكون عملياً فيدفعه ذلك إلى أن يطيل التفكير في حاضره ويربطه بمستقبله، ويفكر في مهنة يختارها ودراسة ينكب عليها، أو قد يجد العزاء لما يستشعر من إنفعالات، ولما يواجه من مآزق فكرية، بأن ينخرط في التدين فيفقد ذاته - مع التطرف - في الذات الإلهية. وهو إذ يدخل في خبرات جديدة تماماً، ومن نوع مختلف عن

خبرات الطفولة، يتعدل سلوكه بالتعديل المستمر لصورته عن ذاته ومستويات طموحاته. وقد يحكمه مبدأ الواقع reality principle فيفكر كشاب أن تكون له أهداف يخطط لها ويعمل على تحقيقها، ويزيد وعيه بنفسه وبما حوله وتتكون له الذات العارفة knowing-self بتراكم خبراته الشعورية عن نفسه والآخرين، واستخلاصه للقيم، واكتشافه للمعاني الأخلاقية والمثل.

ومرحلة الشباب تحتاج لنضج الشخصية p. maturation بالنظر إلى كثرة المشاكل التي يمكن أن تواجه الشاب. وكانت الدراسات في نمو الشخصية p. development تنصرف في أغلبها إلى المراحل الأولى التكوينية في الطفولة الباكرة والمتأخرة والمراهقة، على اعتبار أنّ معظم تراكيب الشخصية تظهر وتتشكل خلالها، إلاّ أنه قد زاد الاهتمام مؤخراً بالمراحل بعد المراهقة. ونمو الشخصية عملية دائبة لا تتوقف، ولا يعني النمو أنه للأفضل، ولكنه يعني استمرار التطور والتغير والتعديل. وقد يتعارض ذلك مع ما نلحظه من ثبات نسبي للسلوك.

وللشخصية بناء organization، وهو يمثل ثباتاً نسبياً مع الزمن. وبناء الشخصية فكرة إفتراضية كفكرة الشخصية وفكرة الذات. وقد توصف الشخصية بأنها ضعيفة أو قوية البناء، ومن ذلك اصطلاح إنفراط عقد الشخصية disorganization of p.، وانحلالها disintegration of p.، والشخصية المنقسمة split p.، والشخصية المزدوجة multiple p.، وكلها مفاهيم تشير إلى ما يمكن أن يلحق بناء الشخصية وتكاملها self-integrity من اضطراب أو سوء انتظام، فإذا عولج هذا الاضطراب فإنه يعالج بإعادة الانتظام إلى البناء p. reorganization. وتكوّن الشخصية p. formation يعني تناميها، بأن تكتمل تراكيبها، وعكس ذلك استئصال الشخصية amputation of p.، بمعنى الحد من وظائفها p. functions، أو تحريف هذه الوظائف، أو تعطيل نمو أبنيتها واستكمالها لهذه الأبنية. وتعني وحدة الشخصية unity of p. أنها شخصية غير منقسمة على نفسها، وأنّ أبنيتها تمارس وظائفها في انسجام.

وأبنية الشخصية تختلف تبعاً لمنظور الشخصية وبحسب نظريات الشخصية، وهناك مثلاً البناء الثلاثي للشخصية الذي قال به فرويد، والذي أساسه الهو id، والأنا ego، والأنا الأعلى super-ego، وكل وظائفه وخصائصه ودينامياته ومبادئه وميكانيزماته. والهو هو النظام الأصلي ويوجد من لحظة الميلاد ويظل معنا طوال الحياة، وهو الجزء من الشخصية الذي يشتمل على كل ما هو موروث وغريزي، والعمليات العقلية المكبوتة، والرغبات التي حيل بينها وأن تتحقق. والهو يعمل بمقتضى مبدأ اللذة pleasure principle، ولتحقيق اللذة وتجنب الألم، ويستخدم لذلك ما يسمى بالفعل المنعكس والعمليات الأولية، والفعل المنعكس reflex رد فعل طبيعي يؤدي إلى خفض التوتر مباشرة، والعمليات الأولية elementary processes تحاول خفض التوتر بطريقة غير مباشرة بتكوين صور للموضوع من شأنها إزالة هذه التوتر، كما في الأحلام.

والأنا يتخارج من الهو، ويتبع مبدأ الواقع، وعملياته ثانوية وليست أولية، بمعنى أنه لا يشبع الرغبات بصور ولكن بموضوعات من الواقع يفرغ فيها التوتر. والأنا هو الجزء المنظم من الهو.

والأنا الأعلى هو المركب الثالث الذي يتكون في نهاية عملية النمو، ومعنى أنّ الشخصية صار لها أنا أعلى أنها أصبحت ناضجة. والأنا الأعلى هو التجسيد الداخلي للقيم، وهو مثالي، وهدفه الكمال وليس اللذة.

وهذه الوحدات الثلاث للجهاز النفسي في الشخصية لا تعمل منفصلة ولكنها متداخلة. ونظرية التحليل النفسي psycho-analysis theory في الشخصية هي نظرية دافعية تذهب إلى وجود حوافز غريزية صادرة عن حاجات جسمية، كالجوع والعطش والنوم والجنس، وإشباعها أمر حيوي، وحوافز أساسها غريزة الحياة أو إيروس eros، وغريزة الموت أو ثاناتوس thanatos، والأولى هدفها الحفاظ على الحياة والتكاثر الجنسي، والقوة الحيوية الدافعة لها هي الليبيدو libido.

وفكرة بناء الشخصية ونموها عند فرويد أشبه بالبناء حقيقة حيث يسير

البناء من أسفل إلى أعلى، وشكل البناء وقوته يرتبطان بأساسه، وتغيير شكل البناء يعني هدمه من أساسه. وأساس تكوين الشخصية هو سنوات الطفولة الباكرة، وبقدر ما يكون الأساس متيناً تأتي الشخصية قوية التماسك ومستقرة، والتعديل الذي يمكن استحداثه في البناء لا ينبغي أبداً أن يتجاوز حدود الأساس أو شكل البناء، وإن حدث تجاوز من هذا القبيل إنهار البناء.

ومراحل نمو الشخصية عند فرويد أربع، هي المرحلة الفموية oral، ثم الشرجية anal، فالقضيبية phallic، فالتناسلية genital، والأولى ترتبط في تكوين الشخصية بالمنطقة الفموية التي مناطها الرضاعة والمص والعض، ونتائجها لذيذة وتصبح منطقة شبقية erogenous zone، ومن ثم يصبح الفم من الآن فصاعداً مصدراً للذة. والمنطقة الشرجية زمن استثارتها السنة «الثانية» من العمر عندما يبدأ تدريب الطفل على الإخراج، والتخلص من فضلات الأمعاء هو تخلص من شيء مؤلم ويحدث شعوراً بالراحة، ولكن المطلوب من الطفل أن ينظم عملية الإخراج، وعملية تدريبه يتوقف عليها نمو الكثير من السمات عنده، فقد يتعلم أن يقبض على فضلات الإخراج ويعمم هذه الاستجابة فيكون عنيداً وشحيحاً، وقد تتبين له أهمية عملية الإخراج مما يصاحبها من إهتمام عائلي فيكون مسرفاً وكريماً، واستثارة حساسية هذه المنطقة يجعلها المنطقة الشبقية الثانية. وتعتبر الفترة من سن «الثالثة» حتى «الخامسة» من أخصب فترات نمو الشخصية، ذلك أنّ الطفل يكتشف فيها أعضاءه الجنسية، ويستشعر اللذة من العبث بها، ويميل إلى الوالد من الجنس المقابل، فالصبي يميل أكثر إلى أمه ولكنه يتعين بأبيه، والبنت تميل لأبيها وتتعين بأمها، ويبدأ الصبي يخاف الأب وأن يخصيه فعلاً بحسب تهديداته له كلما ضبطه يعبث بأعضائه الجنسية، وتبدأ عقدة أوديب Oedipus complex وعقدة الخصاء castration c. عملهما، وتكون ازدواجية ambivalence المشاعر تجاه الوالدين، ومعاناة الصراع نتيجة لذلك. ويتوقف نمو الشخصية واتجاهاتها الجنسية على عملية حل هذا الصراع.

والمرحلة الأخيرة في نمو الشخصية هي المرحلة التناسلية، حين ينضج الطفل جنسياً ويدخل المراهقة، ويتوجه نشاطه الجنسي إلى موضوع من غير جنسه، ويبدأ يمارس الحب. وفي هذه المرحلة التي ينضج فيها الشاب يكون تفكيره في الاستقرار فيميل إلى أن يتعلم مهنة، وأن يستقل بنفسه، وتكون له زوجة وأطفال، ويتميز نشاطه الجنسي في هذه المرحلة بأنه نشاط تناسلي، أي الغرض منه التناسل وليس الإشباع النرجسي. وهذه المراحل الأربع وإن كانت متدرجة إلاّ أنّ آخر مرحلة وهي التناسلية تظل بها بقايا من المراحل الثلاث السابقة، ويعتمد التنظيم النهائي للشخصية على مقدار مكونات هذه المراحل في الشخصية، وهو ما نسميه عمليات التثبت fixation processes.

والشعور conscious له أيضاً عند فرويد أبنية، ويعني الشعور الوعي بمجريات الأمور والأشياء من حولنا وما قبل الشعور preconscious منطقة هامشية تكون فيها الذكريات التي تستدعى عند اللزوم وتختزن ما لا يتوجه إنتباهنا إليه مباشرة. واللاشعور unconscious هو منطقة المكبوت repressed وموقعها أعماق النفس، وتفرض عليها رقابة، ولا يسمح للمكبوت بالمرور إلى الشعور لوجود رقيب censor ينبغي التمويه عليه، ولا يتم المرور إلاّ رمزياً أو في شكل الأحلام.

ويُعتبر فرويد بحق الأب لنظرية الشخصية، وأبنيته نقلها عنه تلاميذه وعدلوا فيها وأضافوا إليها، ومنهم من انفصل عنه واختلف معه، ومن هؤلاء يونج Jung (١٨٧٥-١٩٦١)، وأبنية يونج هي الأنا ego، واللاشعور الشخصي personal unconscious وعقده، واللاشعور الجمعي collective u. وأنماطه الأولية، والقناع persona والأنيما anima، والأنيموس animus وأخيراً الظل shadow. وبالإضافة إلى ذلك توجد الاتجاهات الانطوائية introversion والانبساطية extraversion، ووظائف التفكير والوجدان والإحساس والحدس، وأخيراً الذات التي هي الشخصية المكتملة. ومن تلاميذ فرويد كذلك ألفرد أدلر Adler (١٨٧٠-١٩٣٧)، ونظريته في الشخصية تقوم

على اعتبار الإنسان كائناً اجتماعياً يؤثر الغير على نفسه، ويكوّن لنفسه أسلوبه الخاص في الحياة وتغلب فيه الناحية الاجتماعية. ويقول أدلر بالذات الخلاقة creative self ويعقد لها السيادة في بناء الشخصية، والإنسان عنده أكثر من كونه حيواناً لديه استعدادات غريزية موروثة، وأكثر من كونه نتاج البيئة، فهو مفسر الحياة ومعطيها قيمتها، وهو الذي يعيشها ثرية خصبة حافلة بالمعاني، يسعى فيها للتفوق والقوة striving for superiority، أن تكون له ذاته التي تخلق له شخصية ليست كأي شخصية، ولها أسلوبها الفريد. وأما المحدثون من أتباع نظرية التحليل النفسي في الشخصية فقد أدخلوا الكثير من التعديلات على الأنا ووظائفه، وابتعدت نظرياتهم عن وظائف الأنا الدفاعية من كبت ونكوص وإسقاط وتعيين، إلى وظائفه التركيبية والتكاملية، مركزين على عملياته السوية التوافقية العاقلة أكثر من التركيز على تكوناتها المرضية، وافترضوا أنّ الأنا لا يتخارج من الهو ولكنه يكون مثله موروثاً، ومن أمثال أفكار كهذه عن أبنية الشخصية ووظائفها ظهرت سيكولوجية الأنا ego psychology، حيث يمثل الأنا فيها نظاماً عقلياً مسؤولاً عن الإنجازات العقلية والاجتماعية، وله دوافعه ومصادر طاقاته وأهدافه. ومن ثم فإنّ النظريات الحديثة للتحليل النفسي والتي مدارها الشخصية يقل فيها الدور البيولوجي ويزيد الدور الاجتماعي في تشكيل الشخصية ودفع نموها، ويتجه البحث فيها على دور المتغيرات السيكولوجية والاجتماعية، أي على اكتساب سمات للشخصية عن طريق الخبرة والظروف الاجتماعية.

والسمة trait مفهوم من مفاهيم بناء الشخصية، ومن معانيها أنّ الشخصية تصبح لها بالسمة نزعة للاستجابة بطريقة معينة، وأولبورت (١٨٩٧-١٩٦٧) هو عمدة السماتيين، أي القائلين بالسمة، كما أنّ كاتل Cattel (١٩٤٥) هو المخطط للبناء السماتي للشخصية. وتتكون السمات من تكرار المواقف المتشابهة، والتي تتكرر بها استجابات الفرد المتشابهة أيضاً، فتتكون بذلك ما يشبه العادات السلوكية. والسمة عادة سلوكية ينقلها الفرد معه من موقف

لموقف، ومعنى ذلك؛ أنه بسبب السمات فالاحتمال أن يأتي السلوك بشكل معين. والسمات منها الرئيسي الذي يكون كالعاطفة السائدة فيطبع الشخصية بطابعه، وذلك ما نعنيه بقولنا عن شخصية إنها سادية أو ماسوشية أو مسيطرة. ومن السمات ما هو مركزي، وعادة ما توجه الشخصية عدة سمات، هي ما نحاول أن نصف به الشخصية عندما نكتب مثلاً خطاب توصية أو تزكية لصالح أحد الناس. وغير ذلك هناك سمات أقل أهمية وهي لذلك ثانوية، بمعنى أنها أقل ثباتاً وعمومية. ولا ينبغي أن يفهم أنّ السمات، وهي الوحدات التي يشتمل عليها بناء الشخصية في ضوء نظرية السمات، تعمل منفصلة عن بعضها ولكنها تعمل مجتمعة وفي توافق، وكل سلوك هو أثر مركب للسمات في الشخصية.

وأسلوب النمط type إمتداد لأسلوب السمات في وصف أبنية الشخصية، ويصنف الفرد باعتبار انتمائه إلى أحد الأنماط، بما يكون فيه من صفات أو سمات تصنع هذا النمط، فمثلاً النمط المنطوي يدخل فيه أن تكون للشخصية سمات إيثار العزلة على الاجتماع، والتأمل على الحركة البدنية. ولغة الأنماط هي أقدم وصف الشخصية، وكان أبو قراط Hippocrates في القرن السادس قبل الميلاد يقول إنّ بناء الشخصية يتوقف على الخلط humor أو السائل الذي يسري في الجسم، وأنه لذلك هناك أربعة أنماط هي الصفراوي choleric، والسوداوي melancholic، والدموي sanguine، والبلغمي phlegmatic. وفرويد كما أسلفنا يجعل الأنماط أربعة أيضاً هي نمط الشخصية الفموي، ونمط الشخصية الشرجي، ثم النمط القضيبي، وأخيراً النمط التناسلي. ويونج يجعل الأنماط إثنين هما المنطوي ونقيضه المنبسط. وقياس سمات الشخصية وتحديد الأنماط التي تشكل بناء الشخصية هو ما يسمى قياس الشخصية p. measurement. وهو عملية ضرورية لتقويم نظريات الشخصية، وبدون قيام علم للتقويم فلن يكون هناك علم للشخصية personology، أو علم نفس الشخصية personality psychology.

وعالم نفس الشخصية يهمه إلى جانب دراسة السمات الشخصية أن يقومها أيضاً ككل، أي بكل أبعادها. وكانت نزعة علماء نفس الشخصية تتجه ناحية البحث في أبنية الشخصية التي تدفع الفرد إلى السلوك بطرق مختلفة بصرف النظر عن الموقف، ولكن الاتجاه الحديث يفهم سلوك الفرد بالإشارة إلى متغيرين ولكنهما متفاعلان، وهما الفرد والموقف، أو الفرد في الموقف، فإذا كنا نعرف الشخص بما فيه الكفاية، وفي مواقف متعددة، فإنّ من الممكن القيام باستدلالات عن طريقته في الاستجابة عادة، وذلك على افتراض أنّ هذه الطريقة ستكون أقل أو أكثر نمطية، بالإضافة إلى أنه من الممكن تكوين مفهوم عن أنواع المواقف التي يمكن أن يستجيب لها الفرد بهذه الطريقة أو تلك. إذن فتقويم أية استجابة سلوكية لا يتوقف على سمات الشخصية أو نمطها ولكن على نوع الاستجابة كذلك، وعلى الموقف الذي تحدث فيه الاستجابة أو السلوك. ومن أساليب التقويم الحصول على تاريخ حياة الشخص المقوم، سواء من زملائه، أو أسرته، أو أصحابه، أو مباشرة من الشخص نفسه. ويعيب هذه الطريقة أنها إستبطانية introspective تعتمد على التذكر، والناس غالباً ينسون التفاصيل، أو يبالغون، أو يمتدحون، أو يذمون. وأحياناً تكون هناك تقارير موضوعية كشهادة الميلاد، والتاريخ المدرسي، والمرضي، وتقارير الشرطة، إلخ. وأهم من ذلك الاعتماد على كتابات الشخص أو خطاباته الشخصية، وهي بمثابة وثائق شخصية تسمح برؤية الشخص داخل حياته الطبيعية الشاملة، والقيام باستدلالات عن دوافعه وطرق تكيفه ووجهة نظره في الأمور. والمقابلة interview كذلك يمكن استخدامها لغرض التقويم والحصول على بيانات تاريخ الحياة. وهناك أيضاً الاستبيانات questionnaires التي يختار فيها المفحوص بين عدد من الاختبارات، أو يجيب على كل فقرة بنعم أو لا أو لا أعرف، ومن ذلك سميت إختبارات محددة structured tests، لأنها تحدد الاستجابات البديلة، والمثال على ذلك استبيان مينيسوتا المتعدد الأوجه

Minnesota Multiphasic Personality Inventory (MMP) وقد صمم لقياس عدد من السمات. والاختبارات الإسقاطية projective tests إختبارات غير محددة unstructures، وقد صممت على أساس تقديم مواقف لمثير غامض يقوم المفحوص بتفسيره. ويرتبط الإسقاط بالميكانيزم الدفاعي الذي يحمل الاسم نفسه، والذي ينسب فيه المفحوص الدافع للسلوك إلى آخر وليس لنفسه، ولأنّ مهمة الإسقاط تسمح بمدى واسع من الاستجابة فالاختبار يسمى لذلك إختباراً غير محدود، ولعل أشهر إختبارات الإسقاط هو اختبار رورشاخ Rorschach test ويتكون من عشر بطاقات تُعتبر المثير، ويفحص الشخص كل بطاقة ليقول ماذا تبدو له أو ماذا تشبه، وتسجل الإجابات ويتم تفسيرها في ضوء طريقة الشخص أو أسلوبه لأداء الاختبار، من أمثال تعبيراته الانفعالية أو توصيفاته الخيالية. واختبار تفهم الموضوع Thematic Appreciation Test (TAT) مثل آخر للاختبارات الإسقاطية، ويحتوي على مجموعة من عشرين رسم أو صورة غامضة معظمها من المجلات العادية، ويصور معظمها رجالاً ونساءً في مواقف وعلاقات متعددة، ويطلب من المفحوص أن يحكي عن بعض الصور أو كلها، وعما يفكر فيه أصحابها، أو يشعرون به، والأحداث التي أدت إلى هذا الموقف والنتيجة، والمفروض أنّ القصص تعكس عملية تقمص المفحوص للشخصيات المصورة، ومن ثم تكشف عن صراعاته ودوافعه ومصادر التهديد عنده، إلخ.

وهذه المقاييس وغيرها تستخدم كثيراً في حالات العلاج النفسي. وهناك اضطرابات نفسية يطلق عليها إسم إضطرابات الشخصية p. disorders، نتيجة اضطراب في نمو الشخصية يلحق ضرراً بالغاً ببناء الشخصية فيأتي سلوك الشخص منحرفاً أو سيئ التوافق، وقد يكون الضرر سماتياً أي يلحق السمات، وهو ما يسمى إضطرابات سمات الشخصية personality trait disturbances، ومن ذلك أن تكون الشخصية غير مستقرة إنفعالياً emotionally unstable personality، فلا يسيطر صاحبها على انفعالاته وتطيش

أحكامه ويضل سلوكه؛ أو تكون الشخصية عدوانية سلبية في عدوانيتها passive aggressive، فيعتمد صاحبها على الغير ويركن إليهم في سلبية، وتظهر عدوانيته بأن يكون عنيداً أو متباطئاً، لا يفهم بسرعة، ويتحرك بعد فوات الأوان، وتنتابه أحياناً فورات غضب ليس فيها أذى لغيره. والشخصية القهرية compulsive p. يعاني صاحبها من تشدد وتزمت وحنبلية تجعله يكرر فعل الأشياء، على عكس صاحب الشخصية الوسواسية obsessive p. الذي تعاوده الأفكار المتشككة دوماً. والشخصية غير الناضجة immature p. صاحبها أهوج لا يحتمل الفشل ولا الإحباط ولا الضغوط، ويتصرف في رعونة وطفولة. والشخصية الهستيرية hysterical p. صاحبها له تصرفات تلفت انتباه الناس، ويسلك بشكل زاعق، ويميل إلى مسرحة ما يقول، ويحب أن يقوله ويفعله أمام الغير. وربما يتأتى الاضطراب في الشخصية نتيجة ضرر يشمل نمط الشخصية أي تنظيمها كله، ولذلك فإنه من الصعب علاج هذا النوع من اضطرابات الشخصية، ومن ذلك الشخصية القاصرة inadequate p. التي يشكو صاحبها خوراً، وتهافتاً نفسياً، وقلة حياء، وضحالة في الأحكام، وسوء تصرف؛ والشخصية الفصامية schizoid p. وأعراضها السلوكية أن يميل صاحبها لاعتزال الناس، وأن يكتم مشاعره ولا يصرح بما يفكر فيه؛ والشخصية النوابية cyclothymic p. التي يتصف سلوك صاحبها بأنه مرة مقبل، ومرة مدبر، أو مرة يصدر عن حماس، ومرة لا يكون به العزم، وينقصه النشاط، وتنتابه حالة اكتئاب؛ والشخصية البارنية paranoid p. التي يبدي صاحبها التخوف والتشكك من الناس بدون سبب، ويميل إلى تكذيبهم، ويتصرف معهم بصلف وكبرياء؛ والشخصية التي يشكو صاحبها من هوس خفيف hypomanic p.، فيكون به اندفاع، ويتصرف بحماس ليس له ما يبرره، فهو الهوس بهذا الشيء أو ذاك، ويتكلف له ويغرب في السلوك؛ والشخصية الملانخولية melancholic p.، والملانخوليا melancholia هي السوداء أو الاكتئاب، وصاحبها يميل إلى الاكتئاب لأنه يخشى النتائج، ويخاف أن يؤذي

غيره، أو ينتج عن سلوكه ضرر، أو أن يصادم مشاعر الغير.

وقد يتناول إضطراب الشخصية توجهات الشخص الاجتماعية، وذلك ما يطلق عليه إسم إضطرابات الشخصية المعتلة إجتماعياً sociopathic p. disturbance، ومن ذلك الشخصية المعادية للمجتمع antisocial p. التي توقع صاحبها في مشاكل إجتماعية لا يتعلم منها أبداً، وتتكرر معه باستمرار، ويعاقب عليها فلا يجدي العقاب، ويظهر على صاحبها أنه لا ولاءات عنده ولا انتماءات، وهو أناني، ومحب لنفسه وغير ناضج إنفعالياً، وغير مسؤول، ومع ذلك فهو يدرك سلوكه ويعقلنه باستمرار. والشخصية اللاإجتماعية dysocial p. ينشأ صاحبها في وسط لاأخلاقي، ومن ثم فهو يحترف كل ما يصادمه بالقيم الاجتماعية في تبجج وبإصرار، وقد تكون له ولاءات إلاّ أنها لطبقة الخارجين على القانون من أمثاله. والنوع الثالث من هذه الاضطرابات هو المنحرف جنسياً sexual invert مثال اللوطي homosexual، والمستعري exhibitionist، والفيتيشي fetishist، والمتشبه جنسياً transvestite، والسادي sadist، إلخ.

ونظرية الأخلاط humoral theory من أقدم النظريات في أنماط الشخصية typology p.، وتُنسب لأبوقراط (٤٦٠ ق.م)، ومن دعواها أنّ سوائل الجسم أو أخلاطه أربعة هي: الدم، والسوداء، والصفراء، والبلغم. وقد تأتلف بنسب متساوية فيكون اعتدال المزاج واستواء صحة الجسم، وقد تختلف فيزيد أحدها فيغلب على المزاج طبع هذا السائل أو الخلط الزائد. والمزاج طبع هذا السائل أو الخلط الزائد. والمزاج الدموي - كما قلنا من قبل - يناسب الخلط الدموي، والسوداوي يناسب السوداء ((black bile، والصفراوي يناسب الصفراء، والبلغمي أو اللمفاوي يناسب البلغم phlegm. وما يذكره أبو قراط يقول بمثله تقريباً أمباذوقليس Empedocles (٤٥٠ ق.م.)، وعنده أنّ كل كائن في الطبيعة - ومن ذلك البدن الإنساني - قوامه عناصر أربعة هي: الهواء air، والتراب earth، والنار fire، والماء water، ويناسبها على الترتيب المزاج الهوائي airy temperament ويقابل

المزاج الدموي عند أبو قراط، وهو المزاج المتفائل الذي يطفر بالنشاط والحبور ويفعم بالسعادة والرضا والانبساط، فيكون لذلك متناسق التكوين من حيث ملامح الوجه والعظام والعضلات، ويغلب على انفعالاته وتسهل استثارتها في غير عمق وليس لها دوام: والمزاج الترابي earthy t. ويقابل المزاج السوداوي عند أبو قراط، ويتميز بالانطواء على النفس وضعف الصحة ونحول الجسم وكبت الانفعالات، إلاّ أنها تكون قوية وعميقة إذا استثيرت؛ والمزاج الناري fiery t. ويناسب المزاج الصفراوي عند أبو قراط، ويميل إلى المشاكسة والشغب وحب القتال، ونمط الجسم عنده قوي وعضلي، وانفعالاته عميقة وتغلب فيها الغيرة والحسد والحقد، ومن ثم تكون غالباً نكدة وتطبعها الجدية؛ والمزاج المائي watery t. ويناسب المزاج البلغمي أو اللمفاوي عند أبو قراط، وصاحب هذا المزاج بليد كسول، وبدين محب للأكل، وغير مكترث لشيء، وله وجه سمين مستدير وجلد غليظ، وانفعالاته سطحية وبطيئة، واستثارتها ضعيفة، ويغلب على حياته المرح والسرور.

وقيض لنظرية الأخلاط أن تروج لقرون إلى أن اكتشف هارفي Harvey (١٥٧٨-١٦٥٧) الدورة الدموية، وجاءت كشوف الكيمياء الحيوية لتحل الهرمونات hormones محل الأخلاط، أو أن يصبح إطلاق اسم الأخلاط مقصوراً على إفرازات الغدد الصماء التي تصبها في مجرى الدم وتؤثر في المزاج العام وانفعالية الأفراد، ومن ثم توجه سلوكهم. ولربما يصير تصنيف الشخصية بحسب ضعف إفرازات هذه الغدد أو زيادتها أو سوء وظيفتها، وبعض الناس لديهم سوء وظيفة للغدة الأدرينالية أو الدرقية أو النخامية مثلاً، وقد يكون هناك فرط إفراز hyper، أو نقص إفراز hypo، وهناك علاقة بين شكل الجسم وأداء هذه الغدد لوظائفها، وبين هذا الأداء والأحوال المزاجية لصاحبها. وقد تنسب هذه الزيادة أو النقص في الإفرازات إلى عمل الجهازين السمبثاوي والباراسمبثاوي وكلاهما يناقض الآخر، والبعض يغلب عليه الجهاز السمبثاوي sympathetic فتقل إفرازاته ويكون كبت الانفعالات أو قمعها، والبعض قد يغلب عليه الجهاز

الباراسمبثاوي parasympathetic فيكون فرط الإفرازات وإطلاق الانفعالات وإشباع الرغبات واستحداث حالات السرور والرضا والراحة.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Hall and Lindzey: Theories of Personality.
- Dollard and Miller: Personality and Psychotherapy.
- Vernon, P. E.: Personality Assessment.
- Welpman, J. M. and Heine, R. W.: Concepts of Personality.

❖ ❖ ❖

– ٧ –
سيكولوجية القلق

القلق النفسي، والقلق العضوي، والقلق العصابي. إستجابة القلق، والقلق الرهابي، وقلق الانفصال. والقلق الأولي، وقلق الأنا، وقلق الهو. القلق الاضطهادي، والقلق الاكتئابي، والقلق الهستيري، والقلق الجنسي. القلق الوجودي، والاستعداد للقلق، وعلاج القلق...

❖ ❖ ❖

القلق anxiety في اللغة هو الاضطراب والانزعاج، وفي اللاتينية anxietas هو حالة من الوهن والخور والخوف والترقب. والقلق بوجه عام ظاهرة طبيعية تأتينا كلما أعوزنا الأمن، أو استشعرنا التهديد والمخاطر، أو كان هناك من الشر ما نترقبه أو نتوقعه. والقلق نفسي المنشأ psychogenic بخلاف ذلك فهو قلق هائم free-floating anxiety، لا يرتبط بشيء معين، وليس له مصدر خارجي، ولذلك يتميز في القلق نوعان، الداخلي المنشأ endogenous a.، والخارجي المنشأ exogenous a. أو المستثار provoked a.، أي الذي يستثيره سبب من خارج الشخص الذي يشكو القلق. فإذا كان مثير القلق شيئاً أو شخصاً قد يتسبب في إلحاق الضرر وليس الأذى، فإنّ القلق يقال إنه قلق

بسيط، والقلق الخارجي مرتبط بأسبابه ووقتي، بينما القلق النفسي دائم ولا يرتهن بسبب، وإن كان يتخذ هذا الشيء أو ذاك سبباً، ويتعلق به حتى ليبدو كما لو كان هو المصدر له، وهو في الحقيقة قلق أصيل true a.، وأساسي basic a. يدخل في تركيب المريض به، ويولد به كاستعداد وراثي ينتقل عبر الأجيال عن طريق الجينات، بدليل أنّ التداعي بهذا القلق يزيد عند ذوي القرابة الوثيقة إذا كان أحدهم مريضاً به، عنه عند غيرهم ممن لا تربطهم صلة قرابة بواحد من المرضى. وهناك احتمال قوي بوجود نمط وراثي لواحد من الجينات السائدة من شانه أن ينقل الاستعداد للإصابة بالقلق من أحد الأبوين ولا يستدعي أن ينتقل بالوراثة من كلا الأبوين. وهناك من القلق ما يكون سببه عضوياً - القلق العضوي organic a. - كحالات القلق المصاحبة لسقوط الصمام الميترالي، والقلق الذي ينشأ نتيجة اضطراب بيولوجي ويزول بزوال هذا الاضطراب بعقاقير تعيد إلى الجسم توازنه الأيضي، مثل العقاقير الكابحة للأمينات الأحادية المؤكسدة، ومضادات الاكتئاب. وقد تفيد المهدئات في القلق النفسي، غير أنها ليست العلاج له كشأن أي العقاقير، ولا علاج لهذا القلق إلاّ بما يدخل ضمن اختصاص المعالجين النفسيين وهو العلاج النفسي psychotherapy، وأحياناً العلاج السلوكي behavior therapy. ويفرق فرويد بين نوعين من القلق، الأول القلق الموضوعي objective a.، أي الذي مصدره موضوع من خارج المريض بالقلق object a.، ويتوقف فهمه على فهم أسبابه ومن ثم يكون التصدي له بالعلاج بعلاج الأسباب، ومن ذلك القلق الاجتماعي socialized a.، وهو خوف من العقاب بسبب سلوك لا يقره المجتمع. والقلق الثاني هو القلق العصابي neurotic a.، وهو قلق عام أو هائم كما أسلفنا، يكون ترقباً مبهماً لشر مستطير قد يحذر المريض به من هذا الشيء أو ذاك، فقد يرهب الثعابين أو الفئران، أو تأتيه أعراض القلق لمجرد تواجده في أماكن مفتوحة أو أماكن مغلقة أو مرتفعة. والقلق العصابي من هذا النوع يكثر بين النساء خصوصاً، وعند المراهقين والرجال

الـذيـن يشـكـون إضـطـرابـات جـنـسـيـة. ويذهب فـرويد إلـى تفسيره بأنـه نـتـيجة إنحراف في تفريغ الطـاقـة النفسية في المجـال الـنفسي وصـرفـهـا إلـى مـجـالات جسمية، فتكون من ثم حالات التعب التي يشكو منها المريض بالقلق النفسي، أو أن يشكو تصبب العرق بدون أن يبذل جهداً أو يكون هناك ارتفاع في حرارة الجو، أو يدق قلبه بشدة ويغثى ويسهل، وكلها أعـراض بـديلة يستنفد فـيـهـا الطـاقـة الـنـفـسـيـة الـتـي اسـتـثـيـرت ولـم تـجـد المنصرف الطبيعي لـهـا فـي تحقيق الرغبات وإشباع الغرائز. ويطلق فرويد لهذا السبب على نوع القلق العصابي إسم القلق الغريزي instinctual a.، وهو القلق الذي تدفع إليه غرائز الحرص والحذر، مصدره الأساسي أن نكبت الرغبات التي أساسها الغرائز أو نعاني مواقف نعاقب فيها على إشباع إحداها، فنتوقع ذلك من بعد نتيجة التأثير الصادم للخبرات المـاضـيـة، ونعيش في حذر من العقاب، ويطلق فرويد على أمثال هذه المواقف إسم مواقف الخطر danger-situations، وخطورتها على الأنا هي التي تدفعه إلى الاستجابة لها بالقلق. واستجابة القلق anxiety-reaction هـي مـا سـبـق مـن الأعـراض الـجـسـمـيـة، وهـي ذلك الاضطراب النفسي - كالتشوش الذهني، وسـوء الـتـوجـه، والـنـسـيـان، والـعـي فـي الـكـلام، أو الـعـنـة - قـد تـأتـي المـصـاب بالقلق، كظاهرة عجز يمكن أن تلحق هذا العضو من جسمه أو ذاك وترتبط به. وعصـاب الـقـلـق a. neurosis مـن أبـرز أعراض القلق المنتشر، ويتميز بأنه من غـيـر سـبب ظـاهـر، وهـو مـرض الـعـصـر ويصيب الـرجـال والـنـسـاء، فأما الـرجـال فلأنهم يفرضون على أنفسهم العفاف ويـمـتـنـعـون عـن الـزواج، أو لأنـهـم مـروا بتجارب جنسية محبطة لهم كالفشل في الحب أو في الزواج، أو لأنهم يمارسون الجماع الناقص، أو لأنهم أصيبوا بالعنة لسبب أو لآخـر، ومـن ذلك الـتـقـدم فـي السن، وأما النساء، فعند المراهقات قد يصبـن بـهـذا الـعـصـاب لـتـوقـع الـحـيض وظهور الخواص الجنسية الثانوية؛ وعند الـعـانـسـات الـلاتـي يـعـانـيـن الـحـرمـان الـجـنـسـي؛ وعـنـد الـمـتـزوجـات إذا كـان أزواجـهـن يـجـامـعـوهـن جـمـاعـاً نـاقـصـاً؛

ويأتي هذا العصاب الكثيرات من الأرامل والمطلقات، والنساء في سن اليأس. واستجابة القلق قد نعني بها القلق النفسي المنشأ - psychogenic الذي أساسه التجارب والخبرات النفسية الصادمة، والتي يكون فيها القلق إستجابة معممة لا تتعلق بشيء معين بقدر ما تكون سلوكاً مضطرباً عاماً يأتيه الشخص المصاب - ويشتهر لذلك باسم اضطراب القلق المعمم generalized anxiety disorder. ويصنف علماء النفس عادة إستجابة القلق بحسب المواقف المرتبطة بها، أو الأفكار التي تدفع إليها، ويُرتِّبونها في مدرج يطلقون عليه إسم مدرج القلق anxiety hierarchy. وفي العلاج السلوكي يكون فك الارتباط بين استجابة القلق والموقف بحسب ما يأتي من هذه المواقف أولاً. فالفكرة التي يكون لها التأثير الأكبر تكون لها الأولوية في العلاج، ثم تليها الفكرة الأقل في التأثير وهكذا. وهناك اضطرابات قلق في الطفولة والمراهقة anxiety disorders of childhood and adolescence يميزها القلق ذو الطابع العام، ومن شأن ذلك أن يسلك الطفل أو المراهق السلوك التجنبي، أي الذي يتجنب به أن يدخل المواقف الصادمة له، كما في القلق الرهابي phobic anxiety المرتبط بالفوبيا أو الرهاب، كأن نخشى مثلاً أن نتواجد داخل المصاعد، أو نخاف المشي في الشوارع والساحات، فتأتينا النوبة في شكل هلع نفسي تصحبه الأعراض الجسمية للقلق، أو كما في الاضطراب الذي يُطلق عليه إسم إضطراب القلق الزائد overanxious disorder، ويكون أيضاً في الطفولة خصوصاً، وذلك أننا في الطفولة يكون الأنا غير ناضج، ومن ثم يكون دخولنا خبرات نحن غير مؤهلين لها، ولا تناسب عمرنا، مما يجعل الأنا يستجيب باستجابة القلق، ويعممها على أية مواقف مماثلة نحذرها ونخشى مغبتها، وذلك ما نراه عند البعض كلما تواجدوا في مواقف الاختبارات. وفي الطفولة أيضاً قد نعاني اضطرابات قلق الانفصال separation-anxiety disorder، وهو يأتي الكثيرين ممن لديهم الاستعدادات بالتداعي بالقلق كلما كان انفصالهم عن أحبائهم أو الشخصيات

التي لها أكبر التأثير في حياتهم، أو حتى انفصالهم عن البيئة التي عاشوا فيها. وتتوفر الخبرة بالانفصال من الطفولة، وخاصة عندما يعاني الطفل من الانفصال عن أمه، وينمو به هذا القلق حتى لتأتيه الأفكار بأنّ أبويه ربما يصيبهما مكروه وهما بعيدان عنه ويقلق على مصيرهما، أو قد تأتيه المخاوف أنه سيضل لو انتزع من أمه، أو أنّ أحداً سيختطفه أو يقتله. ومن شأن الذي يستشعر هذا القلق أن ينتحي بنفسه بعيداً، ويرين عليه الاكتئاب وينسحب على نفسه. ومن مظاهر ذلك أن يرفض الطفل التوجه إلى المدرسة، أو يتمارض ليظل إلى جوار أمه. ويتمثل قلق الانفصال separation a. بشكل طبيعي في بكاء الطفل وما قد يبديه من اهتياج نتيجة ابتعاده عن أمه. والطفل يتمثل الأم في أول حياته إمتداداً له، وانفصاله عنها بين الحين والآخر يجعله يدرك أنهما موضوعان مختلفان، ويؤهله هذا الانفصال للاستقلال عنها، إلاّ في الحالات التي يتثبت فيها القلق. وتثبت القلق anxiety fixation من إصطلاحات مدرسة التحليل النفسي، ويعني أنّ من القلق ما يمكن أن يتثبت من الطفولة ويلاحق صاحبه على مراحل العمر المختلفة وحتى الموت. ولا يكون هذا التثبيت عادة إلاّ مع الاستعداد للقلق anxiety preparedness، وهو هذه الرهافة للأحداث، والتوتر العصبي، والحساسية الزائدة التي يتميز بها البعض عصبياً وتأتيهم وراثياً. وقيل إنّ الاستعداد للقلق يكون القلق البدائي primal anxiety، أي أننا عندما نولد نعاني أول ما نعاني الانفصال عن الرحم، بالولادة وما يصاحبها ونلقى إلقاءً في عالم، مع الوجود به تكون هجمة الأحاسيس والاستثارات، ويستقبلها أغلبنا كالصدمة. ويتحدث بعض العلماء عن صدمة الميلاد birth trauma ويقصدون بها هذه الهجمة السابقة والتي يفاجئنا بها الميلاد، والتي بها نعرف - لأول مرة وللأبد - القلق الذي يكون أساساً لكل قلق لاحق، يتولد عنه وينبني عليه. والقلق البدائي بخلاف القلق الأوّلي primary anxiety، حيث هذا القلق الأخير قد يصاب به البعض عندما تكون الخبرة

صادمة وأكبر من أن يحتملها الأنا، فينهار أمامها ويتحلل بها تماسكه. ويوصف القلق حينئذ بأنه أولي لأنه يتعلق بما يجري للأنا، على عكس نوع آخر من القلق يطلق عليه فرويد إسم القلق الإشاري signal anxiety أو التحذيري، الذي يأتينا فيكون بمثابة المنبه أو المحذر للأنا حتى يستعد للحدث الصادم الوافد. ومن شأن هذا القلق المحذر، أن يتقوى به الأنا، أو أنه يصنع للأنا مناعة ضد الأحداث الصادمة من نوع ما.

وقد تلفت النظر مظاهر القلق عند الأطفال الرضع، وذلك ما يجعل البعض يتحدثون عن القلق الفموي oral anxiety، أو القلق من المرحلة الفموية، وهو اصطلاح آخر لقلق الانفصال الذي يترتب على المعاناة من الابتعاد عن الأم والحرمان من الثدي. وبعض الأمهات إما يرضعن أطفالهن بطريقة لا يستشعر الطفل معها بحنان الأم، ولا يحس أنه والثدي موضوع واحد، وإما يكن أمهات نابذات rejective mothers، يرفضن أطفالهن، ويرهبن الإرضاع كتوهّم لأن يبتلع الطفل الثدي، أو بمعنى مجازي أن تتوه ذات الأم في واقعها كمرضعة، وتنسى نفسها في هذه الوظيفة. ويسجل علماء النفس حساسية شديدة للأطفال لتقبل الأبوين لهما، حتى بالنسبة للطفل الوليد، عن طريق الإحساس الجلدي، وما يستقبله الطفل من أصوات أو صور منفرة أو مشجعة. والشح أو الفقر في الأحاسيس له مخاطره، كما أنّ لفرط هذه الأحاسيس محاذيره عندما لا تكون أحاسيس إيجابية، أو تكون محبطة. واستجابة الطفل لهجمة الأحاسيس بعد الميلاد، أو في المواقف الحياتية التالية، تولد فيه نوعاً من القلق يسميه فرويد القلق الآلي automatic anxiety، لأنه قلق طفولي يأتي تلقائياً، وأوتوماتي، ومصدره إما موضوع خارجي، أو من داخل الشخص نتيجة حساسية ورهافة في الطبع، إلاّ أنّ أغلبه مصدره ضعف الأنا وتهافته، وعدم نضجه من الطفولة، فإذا هاجمته دوافع داخلية من الهو فإنّ الأنا يستجيب بالقلق الطفولي أو التلقائي السابق، ويصف فرويد نوعه الذي مصدره الهو أو رغباته، بأنه قلق الهو id-anxiety، ويصفه أيضاً بأنه قلق الأنا ego-

anxiety، باعتبار أنه قلق داخلي المصدر، يستجيب به الأنا لما يعاني منه من رغبات أو دوافع غريزية. وقلق الأنا يختلف عن القلق العادي أو البسيط كما سبق، وذلك لأنّ القلق العادي يكون بفعل الخوف، أو أنّ الغالب فيه استجابة الخوف، والخوف لا يتحصل إلاّ لوجود موضوع خارجي يهدد الأنا على الحقيقة، بينما تكون مخاوف الأنا فيما يسمى القلق النفسي النشأة: مخاوف متوهمة من موضوعات خارجية، وهي متوهمة لأنّ القلق أصلاً داخلي وهائم ومعمم، ويمكن أن يتلبس أي موضوع فيبدو مرتبطاً به.

وقد تكون إستجابة القلق من الاستجابات المصاحبة لاضطرابات أخرى، ففي اضطرابات الاكتئاب قد يظهر القلق بشكل أكثر تعقيداً، إذ يترافق والخوف على الموضوعات الطبية الأثيرة من المريض، أو الخوف على الأنا من الانهيار والتداعي والتحلل، ويطلق العلماء على ذلك إسم القلق الاكتئابي depressive a.. وهناك أيضاً القلق الهذائي paranoid a. الذي منشؤه تحسُّب الشر من الآخرين، والاعتقاد خطأ بأنهم مصدر خطر، ويسمى أيضاً القلق الاضطهادي persecutory a. والقلق الهستيري hysterical a. غالباً ما يكون من أعصبة الطفولة، والعرض الرئيسي فيه الخوف الذي يتعلق فيه القلق العام بموضوع معين يمثل رغبة مكبوتة أو محرمة، ويعم الخوف بمثابة التحذير للأنا لينتبه للموقف فيتجنبه، أو أنّ الخوف الداخلي يسقط على شيء خارجي فيصبح مصدراً للخوف، ومن ثم مصدراً للقلق كلما واجهناه. ومن مظاهر هذا القلق أنه قد يكون فجائياً وقد نتوقعه، وما لا نحذره نطلق عيه إسم القلق التلقائي spontaneous a.، وما نتوقعه نسميه القلق المتوقع anticipatory a.. وتكون الرغبات الجنسية من دواعي استدعاء القلق عند الكثرة، وتفجر الاستثارات الجنسية أعراضه، وتكون بداية لنوبة من نوباته. وقد يكون الخوف من بلوغ الهزة الجنسية مدعاة للقلق الجنسي sexual a.، وقد يتحصل ذلك من وقوع نوبة قلق مع ترافق الهزة، فتكون النتيجة خشية بعض النساء والرجال من التجربة، فيكون تماسكهم أحياناً وامتناعهم أحياناً، وقد يصابون

مـن ذلك بـالـعـنـة. وقـد تـبـيـن أنّ إدمـان الخمر المخدرات قد تستحدثه محاولة الـبـعض السيـطـرة عـلـى أعـراض الـقـلـق عـنـدهـم، أو الـتـحـكـم في الـمـخـاوف الـتـي تدفع إليها. ومثلما يكون القلق إستعداداً موروثاً أو نولد به، فإنّ ما نتعلم أن نخافه يكون إشراطياً، فوقوع نوبة القلق خلال قيـامـنـا بـأمر من الأمور يجعلنـا نـكـتـسـب بالتبعية الاستجابة لهذا الأمر بالقلق، فإذا حدث مثلاً وكنا نركب المترو وانتابنا القلق، فلسوف تأتينا استجاباته الجسمية كلما وجدنا أنفسنا في نفق لا ارتباط بينه وبين النفق الأول، وذلك من تأثير ما يقال لـه الـتـعـلـم الشـرطـي. وقـد يـكـون تـعـلـم استجابة القلق بميكانيزم تعميم المنبه، فالمريضة التي تزور جارتها وتشاهد قطة عـنـدهـا تـلاعـبـهـا، فـقـد تـأتـيـهـا الـنـوبـة فـتـتـجـنـب مـن بـعض كـل الـقـطـط ثـم كـل الحيوانات ذات الفراء. أو قد يكون تعلم اسـتـجـابـة الـقـلـق عـن طـريـق الـتـعـلـم بالمكافأة، ومن أبرز هذا التعلم أنّ إعطاء التعويضات المالية عن العجز لمريض بـهـذه الأعـراض قـد يـؤدي إلـى تـدعـيـم الـمـرض. وقـد يـدعـم الـمـرض أن تـخـف النوبة لو أنّ المريض هرب من الموقف الـمـحـرج لـه، أو تـجـنـب الـمـوقـف الـذي يـخـشـاه، فتعمل هذه الراحة المتحصلة على تدعيم السلوك الهروبي، أو السلوك الاجـتـنـابـي، كـلـمـا تـوقـعـنـا الـقـلـق. ومـن المألوف أن يلتمس البعض الخلاص من القلق أو التخفف منه بأساليب، منها أن يـلـتـزم قـراءة الـقـرآن، أو يـحـمـل إحـدى الرقى، أو يردد التعاويذ. وبعض الأطفال يحملون معهم لعباً تشعرهم بالأمان، ومن المصطلحات الشائعة إصطلاح «بطانية الأمان» security blanket، فبعض الأطفال يشـعـرون الأمـان مـن الـقـلـق بـتـمـسـكـهـم ببطانياتهم، حتى ليحملونها معهم أينما بـاتـوا، وكـلـهـا مـن آثـار الـتـعـلـم الـشـرطـي، فـكـمـا نـتـعـلـم الـربـط بـيـن مـواقـف مـعـيـنـة والـخـوف، فـكـذلـك يـمـكـن أن نـربـط بـيـن أشياء معينة والشعور بالراحة والخلاص، والـكـثـيـر مـن الـمـرضـى بـالـقـلـق تـكـون لـهـم بـطـانـيـات أمـنـهـم الـتـي يـصـحـبـونـهـا بـاسـتـمـرار، لـلـتـخـفـف مـن الـقـلـق، أو لـمـنـع النوبة، أو لمواجهة الخبرة بطريقة ما.

ويقوم العلاج النفسي للقلق النفسي المنشأ على تبصير المريض بحالته بعد

الاستماع إليه، وربط أعراضه بأسبابها من حياته الخاصة، سواء كانت هذه الأسباب ضغوطاً خارجية حالية أو من ماضيه، وتقوية الأنا لتحمل هذه المواقف. وكذلك يقوم العلاج السلوكي على نزع الخوف وترقب السوء من المريض بالقلق المرتبط بمواقف معينة، بتعويده على هذه المواقف مجازاً وحقيقة، وإعادة تعليمه حتى لا يكون به هذا الخوف منها. غير أنّ الخلاص من القلق بالكلية مستحيل، وإنما يتم التخفف منه، وقد نتخلص من نوباته، ولكنه يظل مع ذلك قلقاً هائماً وإن كان بسيطاً، وقد تتعاورنا حالة القلق والخلاص منه، وتتفاوت نوباته زمنياً.

ويبدو أنّ القلق لم يتطرق إليه بالبحث قبل فرويد Freud (١٨٥٦ - ١٩٣٥) سوى الوجوديين existentialists، وأخصهم الفيلسوف كيركجارد، ومعظم كتاباتهم يبرز فيها الطابع التحليلي النفسي. والقلق الوجودي existential anxiety هو قلق عام يصاحب اكتشاف المرء لذاته، وشعوره بأنه حر، وتلزمه المسؤولية في الاختيار، وكلما يختار يعيش القلق. ولعله لهذا السبب يطلقون على هذا العصر الذي نعيشه إسم زمن القلق age of anxiety.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Sartre: L'Etre et le Néant.
- Rank, Otto: The Trauma of Birth.
- Kiergaard: The Concept of Dead.
- Freud: The Problem of Anxiety.
- May, R.: The Meaning of Anxiety.
- Eysenck, H. J.: The Dynamics of Anxiety and Hysteria.

❖ ❖ ❖

- ٨ -
سيكولوجية الإسقاط

الإسقاط والتهرب من التبعة وتبرير الخطأ. الهذاءات والإسقاط. العلاج النفسي الإسقاطي علاج مساعد...

❖ ❖ ❖

الإسقاط projection عملية دفاعية نمارسها كثيراً في حياتنا اليومية، وننقل بها اللوم للآخرين بدلاً من أن نوجهه لأنفسنا، وننسب بها فشلنا وتقصيرنا لغيرنا، ونسقط من خلالها مشاعرنا الدونية، أو دوافعنا المحظورة إجتماعياً أو أخلاقياً، أو غير المرغوبة من الأنا الأعلى أو الضمير أو قوى الضبط الأخلاقي، على موضوعات من العالم الخارجي أو أشخاص غير أنفسنا. ويتم ذلك بالعديد من الطرق، فالطفل الصغير يتخلص من المساءلة بأن يقول عن الطفل الآخر إنه الذي بدأه بالضرب، والرجل الذي يتورط أخلاقياً مع فتاة يتحلل من المسؤولية بأن يتهمها بأنها أغوته، والذي يغش يستشعر راحة داخلية عندما يقول إنّ كل الناس تفعل ذلك، وإنه لا أحد بمنجاة من الخطأ أو الخطيئة، والمتعصب لدينه أو لوطنه أو لطبقته الاجتماعية أو لحزبه قد يقول نحن لا نكرههم بل هم الذين يكرهوننا، ونحن لم نبدأهم بالعداء بل هم الذين يناصبوننا العداء، ومن ثم فإنّ الإسقاط وسيلة من وسائل التهرب من التبعة، وإلقاء وزر الأمور السيئة على الآخرين، وتبرير للسلوك الخاطئ. وقد نشعر ونحن نمارس الإسقاط ببعض الراحة، ونتخفف من ضغط الإحساس بالمسؤولية، وقد يزايلنا عذاب الضمير، ونتخلص من مشاعر الذنب، إلاّ أنّ ذلك يكون على حساب تزوير الحقيقة، والمغالطة في النطق، وتشويه الواقع. وربما كان يفيدنا أن نلجأ إلى الإسقاط في حياتنا العادية، فالقليل منه قد يفيد وتستقيم به حياتنا نوعاً ما، عندما نستشعر عجزاً عن أن نكون واقعيين، أو أن نغير واقعاً، وذلك قصور إنساني فينا يظهر بشكل أو بآخر ومع آحاد الناس كبيرهم وصغيرهم، إلاّ أنّ الإسقاط عندما يكون نمط السلوك المفضل أو الدائم لدى الفرد، فإنّ من شأن ذلك أن يفسد علاقته بالآخرين، ويشوه الواقع المنظور، ويسيء إلى الفرد نفسه وإلى من يتعامل معهم، فيشككه فيهم، ويملأه بالحقد عليهم، والكراهية لهم. وقد يشعر بعض الناس الذين تواجههم مشاكل لا يستطيعون لها حلاً، أنهم يعيشون في عالم معاد لهم يتهددهم من كل جانب، ومن كل الناس.

وقد لا يقوون على أن يردوا السبب في ذلك لأنفسهم، فينسبون مشاكلهم لغيرهم، ويسقطونها عليهم، ويتصورون أنهم يكيدون لهم ويدبرون ضدهم المؤامرات، وقد يغالون أكثر من ذلك فيتوهمون أنهم يطاردونهم ويقتفون أثرهم، أو يتبصصون عليهم من النوافذ، أو يرسلون في أثرهم الجواسيس. ولو استشعروا أنه تأتيهم أفكار لا يرضون عنها، ويحاولون أن يتنصلوا منها، وأن يتخلصوا من إسارها، فيعجزون، فتلح عليهم، فقد ينسبون هذه الأفكار إلى غيرهم ويدعون عليهم أنهم يسحرون لهم، وأنّ سحرهم يصلهم ويغويهم ويملأهم بالأفكار «القذرة مثلهم»، وتلك أعراض يقال لها الهذاءات delusions، وهي من الظواهر المرضية للفصام من النوع البارني أو الهذائي، ومن نتائج عملية الإسقاط.

والعلاج الإسقاطي p. therapy أحد طرق العلاج النفسي التي يستعين فيها المعالج النفسي بالطرق والاختبارات الإسقاطية p. technique and tests، لسبر أغوار الشخصية، وتكوين صورة كلية عنها. ويعكس العلاج الإسقاطي مفاهيم التحليل النفسي. ويمهر المعالج الإسقاطي في تفسير ما تظهره نتائج الطرق والاختبارات الإسقاطية التي منها بقع الحبر ink blots، والصور الغامضة ambiguous pictures، والجمل الناقصة incomplete sentences، والرسم الإسقاطي p. drawing، واللعب الإسقاطي p. play، والسيكودراما psychodrama، وكلها أساليب الغرض منها تعويض المفحوص لمواقف تستثير فيه كوامنه، وتكشف عن ديناميات شخصيته، وعن دوافعه وصراعاته وانفعالاته ونزعاته المكبوتة أو المكفوفة، ورغباته التي لم تتحقق والتي تتطلب الإشباع. وتقوم فكرة العلاج الإسقاطي على أنّ المفحوص الذي يشكو اضطراباً نفسياً سيستجيب للمنبهات الإسقاطية، بأن يسقط عليها ما يجيش داخله فيه من أفكار ومشاعر ورغبات، فينسج حول البقع مثلاً حكايات ويتخيل لها موضوعات، أو يستكمل جملة ناقصة ويستطرد حتى ليكون ما يكمله قصة، أو قد يرسم ما يراد منه رسمه، أو يتخيل

في الدمى المقدمة له أشخاصاً يعكس وجودهم وجود أشخاص حقيقيين في حياته من عائلته أو معارفه، ويكشف عن اتجاهاته نحوهم فيما يصدر عنه من تعبيرات لفظية أو انفعالية وغير ذلك من السلوك الظاهر، أو يتخيل نفسه في مشهد مع شخص وهمي أو حقيقي يمثل من يعرفهم المفحوص في الحياة، كالزوج أو الزوجة أو الأب، ممن يتعامل معهم فيما يهمه ويضطرب له ويعيشه بكل انفعالاته. ويرصد المعالج النفسي ذلك كله وسلوك المفحوص وتردده، والزمن الذي استغرقه في الاستجابة، وما يتكرر من استجاباته، وما كان مثيراً أكثر من غيره، ويعكف على دراسة ذلك كله، ويغير في الاختبارات ويستعيد المشاهد ليتأكد مما لاحظه، ويحاول تفسيره بما له من دراية وعلم في ضوء المدرسة السيكولوجية التي يتبعها، والغرض من الاختبارات الإسقاطية التي يجريها. وهو إذ ينتقي الأسلوب والاختبار الإسقاطي للحالة التي يعالجها، إنما يختار الأنسب لها، وعندما ينتقي من الاستجابات عليه أن يختار ما يرى أنه أكثر تعبيراً عن حالة عميله. وهو يقرأ الاستجابات على المفحوص ويطلب منه التعليق عليها والتداعي لها بطريقة التداعي الحر free association في التحليل النفسي. وبديهي أنّ هذه الطريقة في العلاج لا تصلح مع الحالات المرضية الشديدة، ولا تصلح وحدها للعلاج، وإنما هي طريقة مساعدة، ولا بد فيها أن يكون المريض واثقاً من المعالج، وراغباً في العلاج، ومؤملاً في نتيجته، بحيث يساعد المعالج النفسي عليه.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Rabin, A.: Projective Techniques in Personality Assessment.
- Frank, L. K.: Projective Methods for the Study of Personality.
- Rorschach, H.: Psychodiagnostics.

❖ ❖ ❖

- ٩ -
سيكولوجية الإحباط

الإحباط ومسبباته. جماعة ييل وفروض الإحباط العدوان، والإحباط النكوص، والإحباط التثبيت. إحتمال الإحباط. الإحباط قد يعوق الأنا أو الأنا الأعلى. العدوان المترتب على الإحباط واتجاهاته...

❖ ❖ ❖

الإحباط frustration حالة نفسية تترتب على إعاقة السلوك نحو هدف أو إشباع حاجة أو دافع، وربما يكون العائق خارجياً من بيئة معادية، أو ظروفاً إجتماعية غير مؤاتية، وربما يكون داخلياً نتيجة قصور في الشخصية، أو صراعات نفسية، أو مشاعر ذنب تقعد بالمرء عن تحقيق ما كان يريد تحقيقه. وقد يستجيب المرء للإحباط بالعدوان، أو بالنكوص، أو بالتثبيت، وقد يستمر على المحاولة ويثابر عليها ويغالي فيها، أو تقل دافعيته بمجرد الفشل في المحاولة الأولى، فيكف عن المحاولة، أو يقل عدد محاولاته. ويقوم فرض جماعة ييل Yale group (التابعين لجامعة ييل في كونيتيكيت بالولايات المتحدة)، المسمى فرض الإحباط - العدوان frustration-aggression hypothesis على دعوى أنّ الإحباط قد يؤدي إلى العدوان الصريح أو الضمني، وأنّ وجود العدوان في موقف من المواقف يعني أنّ هناك إحباطاً يدفع إليه ويستحثه. وأما فرض الإحباط - النكوص frustration-regression hypothesis فيقوم على زعم أنّ الإحباط قد يستجيب له الفرد بسلوك أقل نضجاً لا يتناسب مع المتوقع منه في مثل عمره، كأن يتصرف الرشيد كالمراهقين أو كالأطفال وهو المقصود بالنكوص. وهناك أيضاً فرض الإحباط - التثبيت frustration-fixation hypothesis وهو أن يدفع الموقف المحبط الفرد إلى أن يكرر السلوك المخفق نفسه، وكأنما قد تثبت معه هذا السلوك لمثل هذا الموقف، أو كأنما قد ارتبط الاثنان مع تكرار الموقف واستمرار المشكلة، ولا يحيد المفحوص عن هذا التثبيت ويتخلص منه إلاّ بالترشيد أو التوجيه guidance.

واحتمال الإحباط frustration tolerance هو الاصطبار على التوتر والقلق اللذين يترتبان على العجز عن إشباع

مطلب أو دوافع، أو بسبب تأجيل هذا الإشباع لأجل قد يطول. واحتمال الإحباط ضرورة من ضرورات التطور النفسي، وبه يقوى الأنا وتتماسك الشخصية ولا ينفرط عقدها، وضعف هذا الاحتمال أو العجز عن مدافعة إلحاح الحاجة للإشباع الفوري يعني أنّ الشخصية تشكو ضعفاً نسبياً في البناء.

واختبار الإحباط المصور لروزنتسفايج Rozenzweig picture-frustration test إختبار إسقاطي، منه نوع للأطفال من ٤ إلى ١٣ سنة، ونوع للراشدين من ١٤ سنة فأكثر، ويحتوي على مجموعة من الرسوم الكاريكاتورية، كل منها لشخصين في موقف محبط، وأحد الشخصين هو العائق والمسبب للإحباط، والثاني هو الضحية والذي يعاق مسعاه ويستشعر لذلك الإحباط، والأول يقول شيئاً، والمفروض أن يكتب المفحوص ما يخطر على باله كرد أو استجابة على ما يقوله الأول. والموقف المحبط إما من النوع المعوق للأنا ego-blocking، ويحال فيه مباشرة بين المرء وما يصبو إليه، بعائق شخصي أو لا شخصي، وإما من النوع المعوق للأنا الأعلى superego-blocking، كأن يكون سباباً موجهاً للثاني، أو اتهاماً يكيله له الأول. وتقوم دراسة الإحباط المصور على فرض أنّ المفحوص يتعين بضحية الإحباط في كل صورة، ويُسقط ميوله الاستجابية فيما يقدم من ردود فعل مكتوبة أو شفوية. وعند تقويم الاختبار تصنف كل إستجابة طبقاً لنوعها واتجاه العدوان. وتشمل أنماط الاستجابة نمط غلبة العائق obstacle-dominance، أي أنّ ما يسترعي الانتباه في الاستجابة هو توجهها لحماية الفرد الضحية، ونمط إلحاح الحاجة need-persistence، بمعنى أنّ الاستجابة للموقف المحبط يغلب فيها أنّ الضحية لا يستسلم للموقف، ويحاول أن يتقدم بحل للمشكلة المسببة للإحباط. ويتجه العدوان في الإحباط إما إلى البيئة extrapunitive aggression، وإما إلى ذات الشخص intropunitive aggression، وإما يكون العدوان طائشاً لا وجهة له، ويحاول به صاحبه أن يصرف فيه طاقته العدوانية دون التورط في الموقف المحبط.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Dollard and Miller et al: - Frustration and Aggression.

❖ ❖ ❖

الباب الثامن

الاختبارات النفسية
في خدمة الحياة المدنية والصحة النفسية
والتربية والتعليم والإعلام

- ١ -

إختبار بنتر وكاننجهام للمرحلة الابتدائية

Pinter-Cunningham Primary Test

يستخدم هذا الاختبار منذ سنة ١٩٢٣، ويعد من أفضل الاختبارات الجماعية لأطفال المرحلة الابتدائية، ولا تزيد الاختبارات اللاحقة عليه من نوعه على ما يشتمل عليه من موضوعات، وله ثلاث صور أ و ب و ج، وكل صورة تشتمل على سبعة إختبارات فرعية، الأول: إختبار الملاحظة العامة common test observation، بأن يطلب من المفحوص أن يؤشر على الأشياء اللازمة تحت عنوان عام، كأن تكون ما نحتاجه إذا كان خروجنا والدنيا تمطر. والثاني: إختبار إدراك الفروق الجمالية aesthetic differences test بأن يعرض على المفحوص مثلاً ثلاث صور لمنزل ويطلب منه أن يحدد أيها الأجمل. والثالث: إختبار تحديد الأشياء المترابطة associated objects test بأن تعرض على المفحوص مجموعة من الصور، بينها صورتان لشيئين مترابطين، كأن يكونا دجاجة وبيضة، فيميز الصورتين بما بين الشيئين من الترابط.

ومن الاختبارات الفرعية تمييز الأحجام discrimination of size test بتحديد أطوال الملابس أو أحجامها اللازمة لشخص في صورة، بأن تكون استجابة المفحوص بأنّ هذا الحذاء أو ذلك الجورب كبير أو واسع جداً، أو صغير أو ضيق جداً، أو مناسب. واختبار أجزاء الصورة picture parts test ويشتمل على مجموعات من الصور متزايدة في الصعوبة لأطفال وحيوانات ولعب مختلفة، وغير ذلك مما يمكن أن يوجد متحققاً كأشياء مستقلة متعينة ضمن أشياء أخرى، وعلى المفحوص أن يبحث بينها عن تلك الأشياء الموجودة في الصور، أو التي يمكن أن تلحق بها. واختبار إكمال الصورة picture completion test بأن تقدم الأشياء المكملة لها ضمن أشياء أخرى، ويطلب من المفحوص إستخراجها. واختبار الرسم بالنقط dot drawing test بتقديم مربعات منقطة،

ويطلب من المفحوص أن يصل بين النقط ليصنع رسوماً كالرسوم التي في المربع النموذج.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Encyclopedia of Psychology. Search Press.

❖ ❖ ❖

- ٢ -

إختبار بندر جشطلت

Bender Gestalt Test

إختبار شخصية يلقي الضوء على بناء الشخصية وديناميات‍ها، واختبار كلينيكي صممته بندر سنة ١٩٣٨ ليكشف أساساً عن التلف العضوي بالمخ الذي يمكن أن يترتب عليه تشوه في الإدراك، حيث قد تبين أنّ أكثر الأعراض شيوعاً في اضطرابات المخ العضوية تقع في المجال الإدراكي البصري الحركي وفي الذاكرة، ومن ثم فقد كان إسم هذا الاختبار «إختبار بندر جشطلت البصري الحركي» Bender Motor Visual Gestalt Test.

ويتكون الاختبار من تسع بطاقات عليها أشكال هندسية أو أنماط أو جشطلت من النوع نفسه الذي سبق أن استخدمه فيرتهايمر من مؤسسي مدرسة الجشطلت في تجاربه على الإدراك البصري.

وتفسر بندر Lauretta Bender (١٩٣٥) نتائج الاختبار وفق مفاهيم الجشطلت. وقد ظل الاختبار يطبق على الأطفال والراشدين إلى أن قننه وصححه كمياً على عينة من الراشدين باسكال وسوتيل، على أساس نوعية الأخطاء التي تميز الأسوياء من غير الأسوياء. وتعطى البطاقات تباعاً للمفحوص فيحاول أولاً أن يقلد رسماً، ثم يحاول من بعد أن يرسمه من الذاكرة.

ويُستخدم الاختبار علاوة على ما سبق كاختبار يقيس نضج الأطفال، حيث قد تبين أنّ الطفل المتوسط حتى سن الرابعة لا يستطيع أن يقلد في الرسم إلاّ شكلاً بسيطاً واحداً، بينما يستطيع طفل السابعة أن يقلد رسمين بدقة، في حين

يتمكن طفل العاشرة أن يرسم الأشكال كلها بإتقان إلاّ شكلاً واحداً، وعلى العكس فإنّ الطفل المصاب بالفصام لن يرتقي في رسمه مع تقدمه في العمر وسيظل على حاله يرسم دوائر مرتجلة. ويدل العجز عن التمييز بين الأشكال على اضطراب في التنظيم الإدراكي، كما يدل العجز على نقل الزوايا والنقط والمنحنيات بدقة على اضطراب في التنسيق البصري الحركي، وفي بعض الحالات قد يكون مؤشراً على عدم اتزان إنفعالي. وقد يطلب من البعض إضفاء معنى على الأشكال، وقد يقال مثلاً إنّ صف النقط هو سرب من الطيور، والتفكير العيني من هذا القبيل قد يكون تفكيراً مريضاً يوحي بأنّ صاحبه يعاني من مرض عضوي بالمخ أو من الفصام. وقد يعكس الطفل الأشكال بحيث يكون اليسار يميناً واليمين يساراً، ومن دأب صغار الأطفال، والأطفال الذين يعانون من صعوبات في القراءة، والذين يفضلون استخدام اليد اليسرى على اليمنى، أن يفعلوا ذلك ولو فعل الراشدون مثلهم رغم عدم أميتهم، لكان ذلك مؤشراً على اضطراب أعمق.

والبعض قد يدأب على تكرار النمط نفسه دون تغيير، وهو مؤشر محتمل على تلف بالمخ. وقد يميل البعض إلى المغالاة في تبسيط الرسوم، وهو ميل طفولي يوجد عند الذين يعانون نقصاً عقلياً أو تلفاً عضوياً في المخ. ولعله من سمات السيكوباتيين أن يتعجلوا في رسومهم، ولا يجهدوا أنفسهم، وتكون رسومهم المنقولة ضخمة، والخطوط فيها لا تلتقي. وتذهب «بندر» إلى أنّ ميلهم إلى ترك فراغات يدل على عجز فيهم عن إتمام أي عمل، والرغبة عندهم على أن يتركوا لأنفسهم فرجة أو فسحة تكون مخرجاً لهم في أية مواقف، بسبب شعورهم الدائم بالقلق والشكوك التي تساورهم باستمرار.

ولقد تعرض اختبار بندر جشطلت للكثير من الدراسة والبحث، وكانت هناك اختلافات كثيرة في تفسير الرسوم قبل وبعد الإصابات في المخ والتجارب الصادمة. وأظهر الاختبار جدواه في التشخيص السيكاتيري، وما يزال يحافظ على قيمته كأفضل اختبار للمهارات البصرية الحركية.

❖ ❖ ❖

مراجع:
Tolor and Schulberg: An Evaluation - of the Bender Gestalt Test.

❖ ❖ ❖

- ٣ -
إختبار التداعي اللفظي
Word Association Test

إختبار إسقاطي يسبق كل الاختبارات والوسائل الإسقاطية الحالية تاريخياً بما لا يقل عن نصف قرن، ويستخدمه التحليليون كثيراً، وأذاعوا استخدامه، ويستخدم من قبل السيكايتريين لتشخيص الاضطرابات الانفعالية، ومن قبل علماء النفس لدراسة عمليات التفكير ومعوقاتها، ومن قبل علماء الاجتماع في دراساتهم على الاتجاهات والتعصب، ومن قبل المهتمين بالتسويق السلعي لكشف التوجهات النفسية للعملاء من جهة أسماء الشركات المنتجة أو أسماء السلع.

وقد وضع هذا الاختبار جالتون Galton لأول مرة سنة ١٨٧٩ في دراساته على الفروق بين الأفراد، ثم استخدمه كريبلين Kreapelin سنة ١٨٩٢ في دراسته على الشواذ، ووصفه بدقة، واستعان به فونت Wundt (١٨٣٢-١٩٢٠) في بحوثه النفسية المختبرية، وروج له المحللون النفسيون.

وكان أول أبرز اختبار تداعي للألفاظ هو اختبار أو قائمة يونج Jung Free Association Test، وتضم مائة كلمة إختارها بعناية لتمثل في رأيه مركبات أو عقداً إنفعالية، فإذا تليت على المفحوص تباعاً فإنه يستجيب لها بكل ما تستثيره فيه هذه الكلمات من أفكار أو وجدانيات تتعلق بها من قريب أو بعيد، وهو من خلال استجاباته يسقط دخائله ويكشف عن ديناميانه اللاشعورية.

ويتكون اختبار تداعي كنت روزانوف Kent Rosanoff Free Association Test سنة ١٩١٠ من مائة كلمة أيضاً، إلاّ أنها عن أسماء أو أوصاف ليست لها مدلولات إنفعالية مثل «جبل ومنضدة، وفاكهة، وبارد، وحلو، إلخ». والمفروض أنه في حالة ما إذا كان المفحوص يشكو

اضطراباً إنفعالياً، أن تمس الكلمات المنبهة مناطق مؤلمة، وتستثير وجدانات وأفكاراً تسعى إلى التعبير عن نفسها شعورياً، وهي ليست في الحقيقة عفوية لأنها ذات دلالة.

ويتألف إختبار تداعي رابورت وجيل وشافر Rapport-Gill-Schafer Association Test من ستين كلمة قد اختيرت على طريقة كلمات يونج، على أساس أنها كلمات ترتبط بصراعات نفسية جنسية. وللاختبار هدف مزدوج هو المساعدة على اكتشاف التلف في عمليات التفكير، والإشارة إلى مناطق الصراع الداخلي ذات الدلالة. وتحلل النتائج بالنسبة إلى أنّ هذه الاستجابات قد تكون إستجابات عادية مألوفة ومطروقة، أو استجابات غير عادية وخاصة بالنسبة لصاحبها، وبالنسبة لزمن الرجع وسرعة أو بطء ردود الفعل، وما قد يواكب التداعيات من اضطرابات قد يعبر عنها في شكل تعطيل للتداعي أو تخلف عنه أو كف لعملية التداعي. وقد يتسم التداعي بالسرعة والثراء في الألفاظ والتعبيرات والتفرد في المضمون. وقد تكون بالتداعيات ميوعة وتفكك. وقد تكون تداعيات مبتسرة غير مسترسلة وليست ذات دلالة، فيكتفي المفحوص بترديد الكلمة المنبه، أو يفسرها تعريفاً من غير دلالات سيكولوجية. وهذا التعطيل أو التأخير أو الكف للتداعيات نمارسه في الحياة اليومية عندما لا نجد ما نقوله في المواقف المحرجة، أو عندما ننسى كل ما حفظناه في حالات الخوف في الامتحانات، وتلكم مظاهر للعجز عن استدعاء الاستجابات الملائمة.

ونلاحظ أنّ الاختبارات أو قوائم الكلمات التي نوهنا عنها، يترك أمر الاستجابة عليها للمفحوص، وذلك بسبب التسمية الأولى لاختبارات التداعي اللفظية، بأنها اختبارات تداعي حر free association tests، على عكس اختبارات التداعي المقيد controlled a. ts. التي تقوم على الاختيار الجبري forced choice، مثلما عند ثرستون Thurston Homographic Free Association Test سنة ١٩٥٢، فمثلاً كلمة revolution يترك المفحوص ليختار الاستجابة عليها أن تكون turning-round أو upheaval، والمعنيان يحتملهما اللفظ، واختبار

ثرستون الذي يرد فيه ذلك المثل، هو اختبار للاتجاهات الاجتماعية. وأيضاً فإنه في اختبار تداعي جودإنف Goodenough Free Association Test سنة ١٨٤٣ تترك للمفحوص حرية الاستجابة على كلمة قوس bow مثلاً بين أنها سهم arrow أو دبوس شعر، وبحسب هذا الاختيار تكون توجهاته نحو الأنوثة أو الذكورة، ومثل ذلك في اختبار فولي وماكميلان Foley MacMillan سنة ١٩٤٣، واختبار مونستربيرج Munsterberg سنة ١٩٠٧ (أنظر أيضاً الاختبارات الإسقاطية وسيكولوجية الإسقاط).

❖ ❖ ❖

مراجع

- Jung, C. G.: Studies in Word Association.
- E. A. Esper: A History of Psychology.
- Foley, J. P.: The Use of the Free Association Technique in the Investigation of the Stimulus Value of Trade Names.
- Foley and Z. L. MacMillan: Free Association as Related to Differences in Professional Training.

❖ ❖ ❖

- ٤ -
إختبار تفهم الموضوع
Thematic Apperception Test
(TAT)

إختبار إسقاطي projective test، في مقدمة الاختبارات الإسقاطية التي تستخدم لدراسة الشخصية، والكشف عن الاضطرابات النفسية والصراعات وأنواع السلوك العصابي أو الذهاني أو السيكوباتي. والاختبار من تصميم موراي ومورجان Murray-Morgan، توفرا على إعداده بالعيادة النفسية لجامعة هارفرد ونشراه سنة ١٩٣٥، ومن ذلك التاريخ وهو يستخدم بشكل واسع في العيادات النفسية في أوروبا وأمريكا. وتقوم فكرة الاختبار على تقديم صور غامضة تباعاً للفرد المراد فحصه، ويطلب منه تأليف قصة من خياله حول أشخاص وأحداث وأماكن الصورة، على زعم أنّ موضوع الصورة بمثابة موقف غامض، وأنّ الناس قد اعتادوا على تفسير أمثال هذه المواقف الغامضة على حسب خبراتهم، وبحسب مرادات نفوسهم ورغباتهم

وطموحاتهم، وأنهم قد جروا، حتى عندما يبدعون القصص والروايات، على أن يبنوها على تجاربهم الشخصية، وما يعتمل في نفوسهم ويراودهم من خواطر، ومن ثم فإنّ تقديم هذه الصور الغامضة سيستحث فيهم الخيال، ويؤلب مشاعرهم، ويوقظ صراعاتهم، فتخرج منهم على شكل إسقاطات ينسبونها لأشخاص الصور وأحداثها.

وصور الاختبار تشتملها بطاقات عددها عشرون بطاقة (وفي المراجعة كان عدد الصور ثلاثين)، تقدم للمفحوص تباعاً على جلستين، وهي صور باللونين الأبيض والأسود، إلاّ بطاقة واحدة خالية تماماً، حيث يكون تأليف القصة إزاءها من وحي المفحوص تماماً، ومتروكاً له أمر أحداثها وأشخاصها. ويكون تقديم الصور للمفحوص وفق ترتيب معين تشير إليه الأرقام المسجلة على ظهرها، وإلى جانب الرقم على الصورة يوجد حرف يشير إلى نوع الشخص الذي تقدم إليه، وما إذا كان ذكراً أم أنثى، حدثاً أو راشداً. واستبدال الصور في هذه الأحوال لا يعني إنقاص عددها، إذ هي في كل الأحوال تسع عشرة صورة، بالإضافة إلى البطاقة البيضاء، ويطلب من المفحوص أن يبدأ في روايته عن الصورة بالأحداث التي يرى أنها تسبق حدث الصورة، ثم يعرج على حدث الصورة، ثم يختم روايته بالنهاية التي يراها لها. ومن رأي موراي أنّ القصة تكون مناسبة عندما تبلغ كلماتها بالنسبة للراشد ٣٠٠ كلمة، وبالنسبة للطفل في نحو العاشرة ١٥٠ كلمة، ويرصد زمن الرجع والزمن الكلي للاستجابة للصورة، وأخطاء المفحوص، مثل أخطاء النطق وفلتات اللسان. وعادة ما يذكر المفحوص قصصه شفوياً. وفي الاختبارات الجمعية تعرض الصور إسقاطاً على شاشة، ويكتب المفحوصون إستجاباتهم، وترصد الاستجابة الشفوية بالتسجيل الصوتي. ومن المفيد أحياناً أن يختار المفحوص بنفسه الصور التي يفضلها أكثر من غيرها، والتي يفضلها أقل، وأن يذكر أسباب تفضيله أو عدم تفضيله.

والتأويل interpretation هو أهم ما في خطوات هذا الاختيار، وتتعدد طرق التأويل فيها بحسب خبرة الأخصائي

النفسي القائم به، والمدرسة التي يتبعها، والغرض من الاختبار. ويوصي موراي بالتحليل الدقيق لكل عبارة ولكمة في القصة، في ضوء من إحتياجات المفحوص والضغوط الواقعة عليه، ويعني ذلك أنّ هذا الاختبار ليس سوى حلقة من سلسلة من الاختبارات والمقابلات والاستبيانات حول المفحوص تكمل بعضها بعضاً. ويهتم موراي بالشخصية الرئيسية في القصة. ومن تعريفات موراي لبطل القصة أنه الشخصية التي يتعين بها المفحوص، فيظهر إزاءها اهتماماً أكثر من غيرها، ويتعاطف معها، ويعكس مشاعرها ودوافعها، وتكون له وجهة نظرها، ولذا كان من المستحب أن تتضمن كل صورة شخصية واحدة، وتتنوع من حيث الجنس والسن لتناسب المفحوص جنساً وسناً. وقد يحدث أن يتعين المفحوص بشخص من الجنس الآخر. ويتوصل الأخصائي النفسي من خلال دراسته للتفاعل بين المفحوص والبطل، وتقييم المفحوص لحاجات البطل والضغوط عليه، والكيفية التي يجعله بها يسلك إزاء هذه الضغوط، ومقاومته لها أو انهياره، والظروف التي يخلقها لنجاح البطل، والظروف التي تجعله يذهب به إلى الفشل، والعقاب الذي يُنزله به لو اعتدى، ومشاعر الذنب التي يمكن أن يتصورها له، ويسمي موراي هذه التفاعلات في القصة أفكاراً أو تيمات أو موضوعات themes (ومن ثم كان إسم الاختبار (thematic)، تشتبك وتكوّن الحبكة أو البناء الدينامي للحدث.

ولقد اشتقت من اختبار تفهم الموضوع إختبارات أخرى على منواله، تقيس الاتجاهات نحو مختلف الموضوعات، مثل المشكلات العمالية والأقليات، وتوجهت بعض الاختبارات عليه إلى قياس حاجات أو دوافع مفردة، كالجنس والعدوان، ومن ذلك اختبار ماكليلاند McClelland لقياس الحاجة للتحصيل سنة ١٩٥٣ والذي استخدم فيه أربع صور، منها صورتان من اختبار تفهم الموضوع. وأعدت نسخة من التات (يعني اختبار تفهم الموضوع) للاستخدام مع الزنوج، باعتبار أنه قد تبين أنّ الزنوج لا يستجيبون بكفاءة لصور التات التي أشخاصها من البيض، ومن ثم

استخدمت في البطاقات صور لزنوج بدلاً من صور البيض، إلاّ أنّ عدم اعتياد الزنوج على أن تكون الصور لأشخاص منهم كان يوحي لهم بأنّ موضوع الصور أجناسي racial في المقام الأول، ويدور حول التفرقة العنصرية racial discrimination. ورغم أنه قد قيل إنّ التات صالح للتطبيق على الأطفال في سن الرابعة فما فوق حتى العاشرة، إلاّ أنه قد أعدت منه نسخ للأطفال، أبرزها إختبار الصورة - القصة لسيموندز Symonds Picture-Story Test للمراهقين، واختبار التفهم للأطفال Children's Apperception Test (CAT لبيلاك .G Bellak and S. S. Bellak)، واختبار ميتشجان للصور Michigan Picture Test.

وفي اختباري سيموندز وبلاك استبدلت صور التات برسوم لمواقف تهم المراهقين والمراهقات. ويَستخدم إختبار الأطفال كات CAT صور الحيوانات بدلاً من الناس، بدعوى أنّ الأطفال لديهم الميل لأن يروا أنفسهم في الحيوانات أكثر من الناس، ولذلك فقد وضعت الحيوانات في هذا الاختبار في مواقف بشرية نمطية، تستثير خيال الأطفال فيما يتصل بمشكلات كالتغذية وغير ذلك من الأنشطة الفموية، والتنافس بين الأشقاء، والعلاقات بين الطفل والوالدين، والعدوان، وضبط الإخراج، وغير ذلك من الخبرات التي تخص الأطفال. غير أنه قد ثبت من خلال عدد من الدراسات، أنّ الأطفال من الخامسة فما فوق يستجيبون لصور البشر، على عكس ما يذهب إليه مؤلفو هذا الاختبار، ليس أقل بل ربما بأزيد مما يستجيبون لصور الحيوانات، ولذلك أعد بيلاك وهارفيتش Hurvich إختباراً معدلاً من الكات أطلقا عليه إسم CAT-H، جعلا فيه الصور لأطفال من البشر، ومن ثم كانت الإشارة إليه بالرمز H إختصاراً لكلمة Human يعني بشراً، فهو اختبار لتفهم صور لحكايات عن الأطفال من البشر.

وأما اختبار ميتشجان للصور فقد جاء تصميمه من خلال التجارب على الاستجابات الانفعالية للأطفال، في السن بين الثامنة والرابعة عشرة، والتي كان يجريها قسم الصحة النفسية التابع لجامعة ميتشجان. ويتكون الاختبار من

ست عشرة صورة، على طريقة صور التات TAT ، إختيرت لتمثل الصراعات العائلية ومشاعر نقص الكفاءة، والصعوبات الجنسية، وغير ذلك من المشاكل الوجدانية. وهناك اختبارات أخرى عديدة، بعضها المنبه فيه سمعي وليس بصرياً، وتصلح لذلك لاختبار العميان أو الذين يشكون عيوباً بصرية. ويشتمل أحد هذه الاختبارات على عشرة مواقف سمعية على أشرطة تسجيل، تتضمن العديد من الأصوات، منها ما يخص الآلات الكاتبة، والرياح، والانفجارات، وصدام القطارات، والحوار بين أشخاص. وبعد الاستماع لكل موقف يطلب من المفحوص أن يؤلف قصة حوله تشتمل على ما سمع من أصوات، وينبغي أن تدور القصة كما في التات على ما حدث وأدى إلى هذه الأصوات وما ترتب عليها من نتائج.

ومن هذه الاختبارات أيضاً صور بلاكي Blacky Pictures، من إعداد بلوم C. S. Blum، وتدور حول مشاكل التطور النفسي الجنسي، ويتكون الاختبار من عشر بطاقات مرسومة بطريقة الكارتون، بطلها كلب إسمه بلاكي، يمكن أن يكون ذكراً أو أنثى حسب تصور المفحوص له، وبقية الشخصيات هي: أمه، وأبوه، وشقيقه الذي يمكن أيضاً أن يكون ذكراً أو أنثى. وقد أُعد الاختبار أصلاً للكبار، ويوصف بأنه صالح أيضاً للتطبيق على الأطفال بطريقة إختبار التات، بأن يحكي المفحوص قصة عن كل رسم. غير أنّ المشرف على الاختبار عند تقديم الرسم للمفحوص يقول بضع كلمات تمهيدية، تحدد الموقف في الصورة، وذلك إجراء غير معمول به في الاختبارات الإسقاطية عادة، وبعد أن ينتهي المفحوص من سرد روايته يقوم بتوجيه بعض الأسئلة المقننة له.

وثمة اختبار آخر بأسلوب تأليف القصص نفسه حول الصور، وهو اختبار القصة المصورة Make-A-Picture Story أو MAPS، من إعداد شنايدمان E. S. Shneidman (١٩٤٧). وهو كاختبار التات يقيس القدرة على التخيل والإبداع. ويطلب فيه من المفحوص أن يؤلف هو نفسه الموقف الدرامي، بأن يختار الشخصيات التي تتناسب مع مشاهد

مصورة على بطاقات، كأن يكون المشهد لحجرة جلوس، أو لحمام، أو حتى مشهد حلمي أو مسرحي، أو كأن يكون فتحة كهف من الكهوف، وعلى المفحوص أن ينسج قصة حول المشهد. ويتكون الاختبار من اثنين وعشرين مشهداً مصوراً، بالإضافة إلى بطاقة فارغة ليس فيها أي مشهد، وعلى المفحوص أن يتصور لها مشهداً من عنده، والأشخاص التي تناسبه، والقصة التي يمكن أن تدور فيه. وهناك أيضاً سبعة وستون نموذجاً من الكرتون لآدميين، منها تسعة عشر نموذجاً لذكور راشدين، وأحد عشر نموذجاً لإناث راشدات، ونموذجان يمثلان شخصين لا نتبين حقيقة جنسهما، ونماذج لاثني عشر طفلاً، ونماذج لأفراد يمثلون الأقليات، كأن يكونوا شرقيين أو زنوجاً، إلخ، وستة نماذج لشخصيات خرافية أو خيالية، كبابا نويل مثلاً، ونموذجان لحيوانين، كأن يكونا كلباً وثعباناً، وخمسة نماذج مسلوتة silhouettes، بالإضافة إلى نماذج أخرى لأشخاص وجوههم غير محددة الملامح، وقد ارتدت معظم النماذج ملابس كاملة، والقلة ملابسهم جزئية، أو أنهم عراة. وعند تقويم الاختبار يبرز المشرف عليه مشهداً من المشاهد، ويطلب من المفحوص أن يختار أو أكثر من بين هذا الحشد السابق ويضعها بإزاء المشهد، ويحكي قصة عن تلك الشخصية أو الشخصيات، وحقيقتها، وما تفعله في هذا المكان، وما تفكر فيه، وما تشعر به، والنهاية التي يمكن أن ينتهي إليها ذلك كله.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- McCledland et al: The Achievement Motive.
- Murray, H. A.: Thematic Apperception Test. Cambridge.
- Murray: Thematic Apperception Test Manual.
- Bellak, L.: Thematic Apperception Test Blank.

❖ ❖ ❖

- ٥ -

إختبار الذكاء غير المتحيز ثقافياً لكاتل

Culture-Free Intelligence Test (IPAT-C-F-I)

إختبار ذكاء من نوع إختبارات الورقة والقلم pencil and paper type tests، لا يختص ببيئة ثقافية دون بيئة ثقافية أخرى، وليس لبنوده علاقة بالمقومات الثقافية لمجتمع ما، ومن رأي «كاتل Cattle» - وهو الذي أشرف على وضعه أنّ الاختبار صالح لذلك للتطبيق على أفراد أي مجتمع، بدعوى أنّ الذكاء في أساسه قدرة على إدراك العلاقات المجردة. ولربما تتهيأ الفرصة لهذا السبب، وبهذا الاختبار، لمقارنة ذكاء الأفراد من مختلف البيئات الثقافية ببعضهم البعض، وإن كان هذا المطلب عسير التحقيق فعلاً. وينسب الاختبار لمعهد قياس الشخصية إلينوي Illinois (١٨٦٧) حيث كان يعمل فريق كاتل، وذلك سبب تسميته IPAT إختصاراً لاسم المعهد. ويتكون الاختبار من ثلاثة مستويات من مجموعات من مختلف الأشكال التي تتدرج في الصعوبة، ويطلب من المفحوص أن يستكمل الناقص من كل مجموعة، أو يستخرج الشاذ الذي لا ينتمي لها. والمستوى الأول يصلح لاختبار الأطفال من سن ٤ إلى ٨، وللمتخلفين عقلياً من الراشدين. والمستوى الثاني يصلح للأطفال من سن ٨ إلى ١٢ وللراشد المتوسط. والمستوى الثالث يصلح للأطفال من ١٢ سنة حتى الراشد المتفوق. ولكل مستوى صورتان متكافئتان. واختبارات المستوى الأول يمكن تطبيقها فردياً على الأقل بالنسبة لبعضها. واختبارات المستويين الآخرين يمكن إعطاؤها إما فردياً أو جماعياً. ويشتمل المستوى الأول على ثمانية إختبارات، أربعة منها فقط يقول الكتيب الخاص بالاختبار إنها متحررة من التحيز الثقافي، والأربعة الأخرى تتطلب فهماً للألفاظ ومعلومات ثقافية نوعية. أما اختبارات المستويين الثاني والثالث فمتشابهة، إلاّ فيما يخص تدرج الصعوبة. ومن منشورات المعهد نفسه مقياس إبات للقلق Ipat Anxiety Scale

وضعه كاتل أيضاً بالاشتراك مع شاير Sheier سنة ١٩٥٧، وهو عبارة عن استبيان يتضمن أربعين مادة موضوعها القلق. وأيضاً أصدر المعهد والمؤلفات نفسها كاتل وشاير «بطارية إبات للقياس التحليلي الموضوعي للقلق Ipat Co-A Anxiety Battery، على أساس مبادئ التحليلية العاملية.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Cattell, R. B. and Cattell, A. K. S.: - IPAT Culture Free Intelligence Test.

Cattell, R. B. and Sheier, I. H.:- Handbook for the A-O- Anxiety Battery.

❖ ❖ ❖

- ٥ -

إختبار رسم الرجل

Draw-a-Man Test

(DAM)

وضعته فلورنس جودإنف Goodenough سنة ١٩٢٦، ويطلب الاختبار من المفحوص «رسم صورة رجل، وأن يرسمه بأفضل ما يستطيع». وظل الاختبار مستخدماً بدون تغيير حتى سنة ١٩٦٣، ثم أجري له تعديل ونشر تحت إسم إختبار الرسم لجودإنف وهاريس Goodenough-Harris Drawing Test، وفي هذه النسخة المعدلة - كما في الاختبار الأصلي - كان التأكيد على دقة المفحوص في الملاحظة، وتطور القدرة على تكوين المفاهيم العقلية والإدراكات الصحيحة، وليس على المهارة الفنية، ويظهر ذلك في إدراج تفاصيل أجزاء الجسم والملابس، والنسب بينها، والمظهر العام. وتتضمن مكونات الرسم ٧٣ بنداً، تمثل تدرجاً في صعوبة الاختبار وتعكس التمايز في الأعمار. ويحصل المفحوص على درجة البند إذا استكمل محكات الدرجة عليه. وكان تقنين الاختبار الأصلي على عينة من مائة طفل من الذكور والإناث، من كل مرحلة عمرية، إبتداءً من الحضانة حتى نهاية الإعدادية، واختبرت العينة باعتبار تمثيلها للريف والحضر ومختلف المهن.

والجديد في التعديل أن يطلب من

المفحوص رسم إمرأة بالإضافة إلى رسم الرجل، وكذلك رسم نفسه، وتتكون بنود إختبار رسم المرأة Woman Scale من ٧١ بنداً، مشابهة للبنود في اختبار رسم الرجل Man Scale. وأما الاختبار المطلوب فيه أن يرسم نفسه Self Scale، فقد تكرر استخدامه كاختبار إسقاطي للشخصية، وإن كانت نتائجه غير مشجعة. والتعديل الجديد مقنن على عينة أكبر، تشمل ٣٠٠ من الذكور والإناث لمختلف المراحل، من سن الخامسة حتى الخامسة عشرة وتمثل سكان الولايات المتحدة، من حيث مهنة الآباء والمناطق الجغرافية. والاختبار بالإضافة إلى استخداماته الكلينيكية، كبديل لاختبار ستانفورد بينيه وغيره من اختبارات الذكاء اللفظية، فإنه قد استخدم في عدد من الدراسات على عينات من حضارات وأعراق مختلفة، وذلك لأنّ رسم الرجل أو المرأة ليس فيه تعامل مع معلومات جغرافية، ولا يختلف في الحضارات المختلفة، باعتبار أنّ الرجل والمرأة هما كذلك في أية حضارة، إلاّ أنّ الاختبار مع ذلك أثبت خطل هذا الرأي، وأنّ الأداء عليه يعتمد على الفروق الحضارية والخلفيات الاجتماعية والاقتصادية للمفحوص. وقد حاول ماكوفر K. Machover أن يتلافى هذا النقص وصمم اختباراً باسم «إختبار رسم شخص Draw-A-Person Test» سنة ١٩٤٨ ويتضمن قائمة من الأسئلة للمفحوص بعد أداء الرسم المطلوب، بعضها للأطفال، وبعضها للكبار، عن الشخص المطلوب رسمه، عن عمره، ودراسته، وما إذا كان متزوجاً، وصورته عن جسمه e.body imag

❖ ❖ ❖

مراجع:

Goodenough, F. L.: Measurement of – Intelligence by Drawings.

❖ ❖ ❖

– ٧ –

إختبار رورشاخ لبقع الحبر

Rorschach Inkblot Test

إختبار إسقاطي إبتكره هيرمان رورشاخ (١٨٨٤–١٩٢٢)، وضمنه كتابه

Psychodiagnostics: A Diagnostic Test Based on Perception (١٩٢١)، بعد تجارب إستغرقت عشر سنوات، بدأها سنة ١٩١١ في محاولة لاستخدام بقع الحبر في دراسة الخيال. ولم يكن رورشاخ أول من لجأ إلى بقع الحبر كمادة إختبار نفسي، إذ كان قد سبقه غيره إليها. وأسلوب الرورشاخ، باعتباره أسلوباً إسقاطياً، ليس اختباراً بالمعنى المستخدم في اختبارات الذكاء أو الاستعدادات، وتعد مشكلة الثبات ومشكلة الصدق من المشكلات الأساسية في تطبيقه، والأحرى أنه مواد يستخدمها الكلينيكي لاستثارة إسقاطات المفحوص، ولأنه ليس اختباراً بالمعنى الاصطلاحي، فمن الصعب الحكم على استجابات المفحوص بالصواب أو بالخطأ، وإنما تكون هذه الاستجابات إنعكاساً لديناميات شخصيته المعرفية والانفعالية، ولقوة الأنا عنده في مواجهة الواقع، ولصراعاته وميكانيزماته الدفاعية.

ويتكون الاختبار من عشر بطاقات، مطبوع عليها بقع حبر متماثلة الجوانب، خمس منها اللون المستخدم فيها هو الأسود بظلاله الرمادية، وبطاقتان بهما لمسات إضافية من اللون الأحمر، والبطاقات الثلاث المتبقية تتضمن ظلالاً باستيلية مختلفة. وتقدم البطاقات تباعاً للمفحوص، ويقوم الفاحص بتسجيل إجاباته، وزمنها، والوضع الذي نظر منه المفحوص للبطاقة، وملاحظاته عليها، وتعبيراته الانفعالية، ومظاهر سلوكه العرضي أثناء الإجابة. ويهم الفاحص بعد ذلك أن يتحرى الجوانب من البقعة التي استثارت المفحوص، وهل كانت إستجاباته للبطاقة ككل، أو لجزء منها، أو لتفاصيل عليها، ومدى تأثير الأشكال والألوان والظلال والحركة على الاستجابة، والتفسيرات التي يقدمها، وشيوع المضمون الذي تشتمل عليه هذه التفسيرات في كل أو بعض الاستجابات، وما يمكن أن يحتويه من توجهات جنسية أو عدوانية، أو ما يتعلق منه بنواحي القلق ومشاعر الذنب. وهذه الجوانب التي كانت تهم رورشاخ، والتي يعتد عليها أسلوبه في التقويم، وما زالت مستخدمة، رغم ما أدخله الإسقاطيون من بعده من تطوير،

سواء على التقديرات أو التفسيرات، ومن هؤلاء بيهن Behn، ودراي فوخس Drey Fuchs، وزوليجر Zulliger، وهارور Harrower، وكلوبفير، وغيرهم كثيرون، وقد أنشأ هذا الأخير معهد رورشاخ، ثم جمعية الأساليب الإسقاطية، وهي التي تتولى إصدار مجلى الأساليب الإسقاطية.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Klopfer, B. et al: Developments in the – Rorschach Technique. Vols 1 & 2.

❖ ❖ ❖

– ٨ –

إختبار زوندي

Szondi Test

❖ ❖ ❖

إختبار إسقاطي، تُعرض فيه مجموعات من الصور لمرضى بأنماط مختلفة من الاضطرابات العقلية، ليختار المفحوص من بينها ما يجد له في نفسه صدى طيب، وما يصدمه وينفره بشدة.

ويتكون الاختبار من ثمان وأربعين بطاقة موزعة على ست مجموعات، وكل مجموعة تقدم صوراً لوجود مرضى سيكايتريين باللواط، والسادية، والصرع، والهستيريا، والكتاتونيا، والبارانويا، والاكتئاب، والهوس. وتعرض المجموعات تباعاً على المفحوص على جلسات، وتعطى له تعليمات بأن يختار من المجموعة أحب صورتين لديه، ثم ينتقي الصورتين اللتين يكرههما أكثر من غيرهما. وتستغرق الجلسات الست ستة أيام. والاختبار سهل التطبيق، ولا يتطلب أية استجابات لفظية ومن ثم يمكن استخدامه مع الأميين والمتعثرين في القراءة، أو الذين يعانون من عجز قرائي، أو الذين يحسون الارتباك في مواقف الاختبارات المعقدة.

والاختبار يقوم على أساس من النظريات التكوينية في الشخصية، وصممه سيكايتري مجري يدعى ليبوت زوندي، وطبقاً لما يذهب إليه من رأي يطلق عليه إسم تحليل المصائر fate analysis فإنّ حياة الأفراد تسير وفق خطة تحكمها الجينات المتنحية الكامنة. وتصدر ألصق الدوافع بنا من منطقة لم

تكتشف بعد يسميها زوندي اللاشعور العائلي familial unconscious، ويشتمل على هذه الميول الجينية فينا، ومن خلال هذا اللاشعور الذي يقابل زوندي بينه وبين الشعور فرويد الفردي، واللاشعور الجمعي عند يونج، يوجه أسلافنا إختياراتنا في الحياة عبر المكبوت عندهم، والذي ينتقل إلينا في الجينات المتنحية الكامنة، فلئن كانت الجينات السائدة تفعل فعلها صريحاً، وتنقل الموروث في الطول ولون البشرة والعينين والشعر والكثير من الصفات المزاجية، فإنّ الجينات المتنحية لها تأثيرها كذلك، وإن كان متخفياً ولكنه يفسر عن نفسه، مثلاً عندما يتزوج رجل وامرأة لهما الجينات المتنحية نفسها، فعندئذ تظهر الصفات التي كانت كامنة، وهذا المكبوت العائلي هو الذي يتحكم لاشعورياً في مصائرنا، وفي الحب والزواج والمهنة، وحتى في نوع الوفاة. ويطلق زوندي على هذه الظاهرة إسم الانتحاء التكويني genotropism، ويزعم أنّ هناك انتحاءً لبيدياً، أو شهوياً يختص باختيارات الحب والزواج، وانتحاء مهنياً عمله اختيارات الدراسة والمهنة، وانتحاء للموت يظهر أثره في الانتحار، والميل للحوادث، والسلوك الذي من شأنه استحداث الدمار والقتل. ويضرب زوندي المثل بهذا الإجبار الذي يلزم الناس عند الحب والزواج، حيث كثيراً ما يقع الانجذاب بين الاثنين من أول نظرة، ورغم وجود فروق إجتماعية مثلاً أو غيرها، وهو انجذاب لا يمكن أن يكون سطحياً، ويتم على أعمق المستويات النفسية، ويصفه زوندي بأنه انتحاء تكويني، لأنّ الدافع إليه هو الجينات المتنحية المتشابهة والمتجاذبة.

وعلى أساس من هذه النظرية التي لا يدعمها الدليل، وتظل موضوع الكثير من الجدل، يقول زوندي إنّ المفحوص في اختياراته لبعض الصور ونبذه للبعض، لا يصدر في سلوكه سطحياً عما يحب أو لا يحب، ولكنه يستجيب لدوافع أعمق مصدرها خاصة ذاته، وتتحكم في اختياراته عوامل وراثية متنحية كامنة، ومن ثم يكشف عن شخصيته الحقيقية.

ومن الممكن تطبيق الاختبار دون أن نسلم مع زوندي بنظريته. وعند رصد

نتائج الاختبار يفرد الفاحص صفحة للاختيارات الموجبة، وأخرى للاختيارات السالبة. ويرتبط تفسير الاختيارات بنظام الحاجات عند زوندي، ومن رأيه أنّ فئات الصور الثماني تتحدد الاختيارات عليها من خلال موجهات دافعة drive-vectors أربعة، ويشتمل كل موجه على فئتين أساسيتين، فمثلاً يتضمن الموجه ج S-vector الدافع الجنسي، ويعبر عنه في اختيار صورة المريض بالجنسية المثلية، أو المريض بالسادية مثلاً. وتفضيل صورة المريض بالجنسية المثلية مؤشر للحاجة إلى الرقة والحنان والأنثوية والأمومة والسلبية، وقد يعبر عنه في اختيار مهن معينة كالحلاقة والرقص والتجميل. وتفضيل صورة المريض بالسادية يعبر عن وجود دافع جنسي ذكوري، وميل للعدوانية، ويظهر في اختيار مهن معينة كالجزارة، وتدريب الحيوانات، والملاكمة، وغيرها. والموجهات الثلاثة الباقية هي الموجه ن T. vector، ويتكون من العاملين - الصرع والهستيريا، والموجه ذ Sch-vector، ويتكون من العاملين - الكتاتونيا والبارانويا، والموجه ث C-vector، ويتكون من العاملين الاكتئاب والهوس. ويفترض أن يسيطر التفاعل بين هذه الموجهات الأساسية الأربعة على الشخصية برمتها ويوجه سلوكها. ويعني اختيار المفحوص لكل صور الفئة أنه يتعين مع هذه الفئة، ويعني رفضه لكل صور الفئة أنه ينكر ما تمثله من مشاعر، أو أنها مشاعر لا يجد فيها نفسه. ويشير تساوي الاختيارات إلى تناقض إنفعالي، ويشير غياب التفضيل أو عدمه في فئة من الفئات إلى عدم وجود توتر في دائرة هذه الفئة، بينما يشير اختياره لأربع صور مثلاً من الفئة أنّ دائرة هذه الفئة مشحونة ومتوترة.

ولقد تعرض اختبار زوندي للكثير من النقد العملي والنظري، ويبدو كما لو كان قد أقيم على نظريات مرفوضة من زمن بعيد في الغريزة ودلالات ملامح الوجه، ولا تتفق الأنماط الكلينيكية الثمانية في اختبار زوندي مع أنماط الاختبارات الإسقاطية التي يعتد بها، مثل اختبار رورشاخ، واختبار تفهم الموضوع، كما أنّ محاولات التثبت تجريبياً من أنّ فروض الاختبار قد باءت كلها بنتائج

سلبية. وعند استخدام الاختبار كاختبار كلينيكي فإنّ قيمته محدودة جداً، وذلك لأنّ صور الاختبار ربما تكون مألوفة في بلدان أوروبا إلاّ أنها بالقطع ليست كذلك في بلاد غيرها، ثم إنّ التعويل على هذا العدد القليل منها كمحدد لشخصية أمر لا يدعو إلى الاعتماد كلية على الاختبار.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Szondi: Experimental Diagnostics of - Drives.

Heinelt, G.: Bildwahlverfahren. In - Heiss, R.: Handbuch der Psychologie vol. 6.

❖ ❖ ❖

– ٩ –

إختبار السفينة

Ship Test

❖ ❖ ❖

عبارة عن لوحة خشبية، بها أماكن لعشر قطع تأخذ معاً شكل سفينة في البحر، وعلى المفحوص أن يثبّت القطع في أماكنها. والاختبار ضمن الاختبارات الأدائية performance tests التي صممها نوكس Knox، والتي كان يقيس من خلالها المستويات العقلية للمهاجرين، الذين يتحدثون بلغات غير الإنكليزية لدى وصولهم إلى الشاطئ الأميركي، عابرين المحيط في سفن بخارية.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Encyclopedia of Psychology. Search - Press. Vol. 3.

❖ ❖ ❖

– ١٠ –

إختبار شيكاغو غير اللفظي

Chicago Nonverbal Examination

❖ ❖ ❖

إختبار أدائي جماعي صدر سنة ١٩٣٧ عن جامعة شيكاغو، ومنه نسخة معدلة سنة ١٩٤٧ ويقيس ذكاء الأطفال في السن من السادسة حتى مستوى

الرشد، ولا يستغنى به عن مقياس ستانفورد بينيه، ولكنه يعتبر مكملاً له، حيث أنه يقيس الجوانب غير اللفظية للذكاء التي لا تمثل جيداً على هذا المقياس الأخير. والاختبار يصلح خصوصاً للأطفال الذين يعانون صعوبات في القراءة، أو عدم القدرة على الكلام واستخدام اللغة، ويتضمن عشرة إختبارات فرعية هي: إختبار رموز الأرقام؛ بأن يطلب من المفحوص تكرار ما يلقى على مسامعه من سلاسل رقمية، بإيقاع زمني مقنن بين كل رقم وآخر؛ واختبار المغاير: بتحديده بين متشابهات؛ واختبار إدراك البعد الثالث بصرياً: والغرض منه قياس القدرة على إدراك الأشكال ثلاثية الأبعاد، كأن يطلب من المفحوص عدّ المكعبات التي تصنع شكلاً هرمياً؛ واختبار التصميمات الهندسية الورقية: بتحديد الأشكال الهندسية التي يمكن أن تستخدم في تصميم شكل هندسي كامل؛ واختبار الإدراك البصري للتفاصيل: بمطابقة عدد من التصميمات ذات التفاصيل الكثيرة؛ واختبار ترتيب الصور: بحيث يأتي ترتيبها ليصنع منها شكلاً متكاملاً؛ واختبار التتالي المنطقي: ويشبه الاختبار السابق باستثناء أنّ الترتيب يقصد به تمثيل سلسلة من الأحداث يفترض منطقياً أنها متتالية؛ واختبار السخافات: بتحديد الزائد أو الناقص في الصور المقدمة؛ واختبار المطابقة بين الصور: بتحديد الجزء ضمن أجزاء من صور، والذي يكمل شكلاً مقدماً؛ واختبار رموز الأرقام: ويشبه الاختبار الأول، سوى أنه أكثر صعوبة.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Hinde, R.: Non-Verbal Examination. -

❖ ❖ ❖

- ١١ -

إختبار كولومبيا للنضج العقلي

Columbia Mental Maturity Scale (CMMS)

❖ ❖ ❖

إختبار غير لفظي صُمِّم للأطفال المعوقين المصابين بالشلل التوافقي عن

جامعة كولومبيا، والغرض منه استيضاح القدرة على التعلم بمعناه الواسع، وليس التعلم الدراسي. ومن الضروري أن يتم هذا الاختبار في فترات مبكرة، وأن يتابع بانتظام حتى سن المدرسة. وتعد الاختبارات الأدائية غير اللفظية مناسبة لهؤلاء الأطفال. ويصلح اختبار كولومبيا للأطفال من سن ٣ إلى ١٢ ويتضمن مائة بند، كل منها يحتوي على مجموعة من الرسوم قد تكون ثلاثة رسوم، أو أربعة، أو خمسة، مطبوعة على بطاقات ٦ x ١٩ بوصة، والمطلوب من الطفل أن يتعرف إلى الرسم الذي لا ينتمي لمجموعته، ويظهر تعرفه بالإشارة، أو بأن يومئ برأسه، بما يعني منه اكتشاف الارتباط أو عدم الارتباط بين الرسوم، ويتفق ذلك مع مفهوم سبيرمان Charles Spearman (١٨٦٣-١٩٤٥) للذكاء من أنه تعلم العلاقات. ولكي يزيد الاهتمام عند الطفل ويكون للاختبار جاذبيته، تختار البطاقات والرسوم متنوعة الألوان، وللاختبار صدق مرتفع بمحك ارتباطه بستانفورد بينيه (وهو اختبار للذكاء صادر عن جامعة ستانفورد يراجع اختبار سيمون بينيه للذكاء بإشراف تيرمان سنة ١٩١٦ ثم بمراجعة ميريل سنة ١٩٣٧، ورُوجع مرة ثالثة سنة ١٩٥٩).

❖ ❖ ❖

مراجع:

Harris, D. B.: The Concept of- Development.

❖ ❖ ❖

- ١٢ -

إختبار متاهات بورتيوس

Porteus Labyrinth (Maze) Test

❖ ❖ ❖

إختبار من نوع إختبار المتاهات Labyrinth أو maze test، وكثيراً ما يسمى Porteus Maze فقط، وضعه S. Porteus ضمن إختبارات Arthur Point Scale of Performance Tests سنة ١٩٣٣، وتمت مراجعته سنة ١٩٤٣، وهو اختبار ذكائي

أدائي، تدرج في الصعوبة، ويبدأ بما يناسب الأطفال في الثالثة من العمر العقلي، ينتهي بما يناسب من هم في سن الرابعة عشرة. والمتاهات متتالية، ولا يوجد اختبار متاهة يقيس سن الثالثة عشرة؛ وبالنسبة للأطفال الصغار تلقى عليهم التعليمات للاختبار بلغة دارجة بسيطة جداً، ويطلب من المفحوص أن يجري بقلمه على ممرات المتاهة، إبتداءً من المدخل، وانتهاءً بالمخرج، على أن لا يلمس قلمه جوانب الممرات، ولا ان يدخل في مكان لا يستطيع الخروج منه، فإذا حدث وأخطأ يجرب محاولة جديدة بمتاهة جديدة، ليس فيها خط من خطوط المتاهة التي استخدمت. ويعطى المفحوص محاولتان إذا كان يشكو تخلفاً عقلياً، وأربع محاولات في حالة المستويات العقلية الأعلى، وتحسب له المحاولة الناجحة فقط. وتقيس هذه المتاهات قدرة الفرد على الاستبصار والتخطيط، وعلى التعلم، وتتفوق في ذلك على الاختبارات اللفظية، وتصلح للأسوياء والجانحين والمنحرفين وضعاف العقول، وليس فيها حد زمني، ولا يستعجل المفحوص، وتصلح كاختبارات مفردة، كما تصلح كاختبار ضمن مقياس أعم مثل مقياس آرثر الأدائي.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Porteus, S.: The Porteus Maze Test and Intelligence.

Porteus, S.: The Validity of the Porteus Maze.

❖ ❖ ❖

- ١٣ -
إختبار المصفوفات المتدرجة
Progressive Matrices Test

❖ ❖ ❖

إختبار غير لفظي وضعه رافين Raven لقياس الذكاء العام بمفهوم سبيرمان Spearman (١٨٦٣-١٩٤٥)، للذكاء ويتطلب لذلك إدراك العلاقات بين الأشكال المجردة، ويعتبره أهل الاختصاص أفضل الاختبارات المتاحة

لقياس الذكاء العام، ويتضمن ستين بنداً تصلح لمستويات عمرية تبدأ من سن الخامسة حتى مستوى الراشدين، ولا تتعلق البنود بخصائص حضارية معينة، الأمر الذي يُدخل الاختبار ضمن الاختبارات غير المتحيزة حضارياً، أي التي يمكن تطبيقها في أكثر من مجتمع وثقافة. والبنود عبارة عن أشكال هندسية مختلفة بينها جزء ناقص، ويطلب من المفحوص التعرف على الجزء الناقص من بين عدد آخر من الأشكال المشابهة للإجابة الصحيحة. وتنقسم البنود أو المصفوفات إلى خمس مجموعات، كل مجموعة تحتوي على ١٢ مصفوفة تتزايد في الصعوبة باستمرار، والمجموعات الأولى تتطلب من المفحوص دقة في التمييز، بينما تتطلب منه المجموعات الباقية إدراك التشابه والتغير في النسق بالنسبة للمواضع أو العلاقات. والاختبار يمكن إعطاؤه فردياً أو جماعياً، وليس له حد زمني، ويتطلب بشكل عام قدرة تحليلية، وقدرة على الاستبصار من خلال المسح البصري. وللاختبار صورة ملونة حديثة مصفوفاتها ملونة تسهل الفهم للأطفال، خصوصاً بين سن الخامسة والحادية عشرة، وحتى الأطفال المتخلفين عقلياً. وكان تطبيق الاختبار على عينات مختلفة من مجتمعات متباينة مدعاة لمقارنات حضارية متعددة. وفسرت عوامل الاختبار على أنها عامل الذكاء العام، إلاّ أنّ عوامل أخرى قد تبين أنها تؤثر أيضاً في الأداء، منها عامل إدراك العلاقات المكانية، ودقة الإدراك، والاستدلال الاستقرائي.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Raven, J. C.: Guide to the Standard - Progressive Matrices.

❖ ❖ ❖

- ١٤ -
إختبار مكعبات ويجلي
Wiggly-block Test

❖ ❖ ❖

إختبار أعده أوكونر O'Connor لتقويم إدراك المكان، وهو عبارة عن مكعب مستطيل نحو عشرين سنتيمتراً،

ومقسم إلى تسعة مكعبات، كل منها مشكل بطريقة بحيث تكون حوافه مسننة وملتوية، وعلى المفحوص أن يعيد جمع المكعب الكبير بإدخال المكعبات الصغيرة في أماكنها وبأسرع ما يمكنه.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Encyclopedia of Psychology. Search - Press.

❖ ❖ ❖

- ١٥ -
إختبار مكعبات نوكس
Knox Cube Test

❖ ❖ ❖

إختبار أداء وضعه نوكس، وأُدمج ضمن مقاييس أخرى مثل مقياس الأداء لبنتنر وباترسون Pintner-Paterson Scale، ومقياس الأداء لآرثر Arthur Performance Scale، وهو عبارة عن أربعة مكعبات مثبتة على قاعدة، ويمسك الممتحن بقلم، والمفحوص بقلم آخر، ويدق الممتحن على المكعبات بنظام معين، ويطلب من المفحوص أن يقلده الطريقة نفسها، ثم تتدرج الدقات في الصعوبة، بزيادة عدد الدقات، واختلاف نظام الدقة. ويعطى هذا الاختبار مرتين، وتحسب الدرجة بحساب متوسط الدرجتين للمرتين.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Dictionary of Behavioral Science. -

❖ ❖ ❖

- ١٦ -
إختبار نبراسكا لاستعداد التعلّم
Nebraska Test of Learning Aptitude

❖ ❖ ❖

إختبار غير لفظي وضعه هكسلي سنة ١٩٥٥ برعاية جامعة نبراسكا، لقياس ذكاء الأطفال الذين يعانون الصمم الكامل، ويستخدم لهذا السبب لغة الإشارات والبيان العملي في التعليمات. وكان وصفه بأنه اختبار لاستعدادات التعلم، لأنّ بنوده تمثل

القدرات التي يمكن أن يستخدمها الطفل الأصم في المدرسة. والعمر العقلي يسمى على الاختبار العمر التعليمي (L.A.) learning age، فمثلاً إذا كان طفل عمره التعليمي خمس سنوات، فمعنى ذلك أنه قادر على أداء ما يمكن أن يؤديه طفل أصم متوسط الذكاء في الخامسة من عمره.

والاختبار يتكون من أحد عشر اختباراً فرعياً، الثمانية الأولى منها للأطفال من الثانية حتى العاشرة، والستة الأخيرة للأطفال من إحدى عشرة سنة حتى السابعة عشرة، ومعنى ذلك أنّ هناك ثلاثة إختبارات متوسطة تناسب كل الأعمار. وهذه الاختبارات كالتالي: نظم الخرز bead stringing: ويطلب فيه من الطفل أن ينظم عدداً من الخرز الملون من مختلف الأشكال على هيئة خاصة؛ وتذكّر الأشياء الملونة memory for colored objects: بعرض نماذج ملونة على الطفل المفحوص، ثم يطلب منه تذكر ألوانها بالتعرف إلى هذه الألوان على شريط يحتويها أمامه؛ واختبار التعرف على الصور pictorial identification: بعرض مجموعات من الصور عليه، ثم تعرض عليه صور منفصلة ليتعرف منها على ما عرض عليه من المجموعات؛ واختبار الترابط بين الصور pictorial associations: بعرض مجموعات من الصور، كل منها صورتان ومكان لصورة خالية، ثم تعرض عليه صور منفصلة ليختار منها صورة ترتبط بالصورتين؛ واختبار ثني الورق paper folding: بعرض قطع من الورق وطريقة ثنيها عليه، ثم يطلب منه أن يقوم بالشيء نفسه؛ واختبار مدى الانتباه البصري visual attention span: بعرض عدد من الصور عليه، ثم تعرض عليه صورة أخرى، ويطلب منه التعرف عليها بين صنف الصور الذي عرض عليه أولاً؛ واختبار نماذج المكعبات block patterns: بعرض مكعبات صغيرة عليه، ونماذج لتصميمات لها، ثم يطلب منه عمل نماذج مماثلة لمكعبات أخرى؛ واختبار إكمال الرسوم completion of drawings: بعرض مجموعة من الرسوم، بكل رسم منها جزء ناقص، ويطلب منه إكمال الجزء الناقص، واختبار ذاكرة الأرقام memory

of digits: بعرض مجموعة من الأرقام متسلسلة، يتعرف فيها على الأرقام السابقة بعد إخفائها، وترتيبها نفسه؛ واختبارات المكعبات المحيرة: puzzle blocks بعرض نماذج ليبني مثلها من مكعبات صغيرة؛ واختبار المتشابهات المصورة: pictorial analogies بعرض مجموعة من الصور المتشابهة في كتيب، ثم مجموعات من الصور ليختار منها الصورة المتشابهة مع الصورتين المتشابهتين من مجموعة الكتاب.

❖ ❖ ❖

- ١٧ -

إختبارات الاستعدادات الفارقة

Differential Aptitude Test (DAT)

❖ ❖ ❖

نشرها بينيت Bennet، وسيشور Seashore، وويزمان Wesman سنة ١٩٤٧ كوسيلة إختبار في مجالات الإرشاد التعليمي والمهني للطلاب في المرحلة الدراسية الإعدادية والثانوية، كما أنها تصلح للتطبيق على الراشدين. وقد أعد المؤلفون كل اختبار في صورتين متكافئتين B-A، ثم أعدوا بعد ذلك الصورتين L-M، ثم الصورتين S-T. واختيرت الاختبارات على أساس انخفاض الارتباط بينها فيما عدا اختبار السرعة الكتابية. وقد تم تقنينها على عينات كبيرة ممثلة تمثيلاً جيداً للمجتمع الأمريكي، ومعاملات ثباتها مرتفعة، والارتباطات بين درجاتها وبين درجات الاختبار للمواد الدراسية في المدارس التي أخذت العينات منها مرتفعة، ورغم أنها مصممة لقياس قدرات متمايزة، إلاّ أنّ هناك من الدلائل ما يشير إلى وجود عامل مشترك يقف خلف كل أشكال الأداء عليها.

وعدد الاختبارات ثمانية، جميعها من إختبارات القوة power test، فيما عدا اختبار السرعة والصحة الكتابية. وترصد الدرجات على الاختبارات في صفحة نفسية توزع فيها المئينيات توزيعاً إعتدالياً. وتعد اختبارات «الدات» هذه من

أحسن اختبارات القدرات تقنيناً وصدقاً وثباتاً، ويستغرق تطبيقها أكثر من الأربع ساعات. وعدد هذه الاختبارات سبعة، هي: إختبار الاستدلال اللفظي: verbal reasoning ويتكون من بنود متشابهات مزدوجة، ويقيس القدرة على فهم الكلمات والتجريد أو التعميم، والدرجة عليه لا دلالتها في توجيه الطلاب للدراسة الجامعية؛ واختبار القدرة العددية numerical ability: وله شكل العمليات الحسابية، ويتطلب فهماً للعلاقات بين الأعداد، ودلالته تنبؤية عن التحصيل الدراسي في المواد الرياضية، وفي الإنجاز المهني المتعلق بالإحصاء والمحاسبة وغيرهما؛ واختبار الاستدلال المجرد: abstract reasoning ويتكون من سلاسل من الأشكال المتعلقة ببعضها، والمطلوب من المفحوص إكتشاف الشكل المكمل للسلسلة. والمقصود بالاختبار أن يكون مقياساً غير لفظي للقدرة على الاستدلال، وهي قدرة أساسية في الدراسات والمهن التي تتطلب إدراكاً للعلاقات بين الأشياء مقابل إدراكها بين الألفاظ والأعداد. ويكمل الاختبار مع الاختبارين السابقين قياس جوانب الذكاء العام؛ واختبار العلاقات المكانية space relation: ويقدم فيه تخطيط لشكل على ورق مقوى، وعلى المفحوص أن يختار من بين خمسة أشكال مجسمة ذلك الذي يمكن تشكيل الورق المقوى المخطط على منواله. والاختبار يقيس القدرة على التعامل مع الأشياء المتعينة عن طريق التصور البصري، وهي قدرة مهمة في أعمال الرسامين والمهندسين وغيرهم؛ واختبار الاستدلال الميكانيكي: mechanical reasoning وتقدم فيه أشكال وأدوات ميكانيكية، يختار المفحوص من بين شكلين، الشكل الصحيح، ودلالته تنبؤية عن النجاح في الدراسات والمهن التي لها طبيعة ميكانيكية، كالتجارة والصناعة وغيرهما؛ واختبار السرعة والدقة الكتابية: clerical speed and accuracy وهو اختبار السرعة الوحيد في المجموعة، ويقيس سرعة الاستجابة في الأعمال الإدراكية البسيطة، ويتضمن أعداداً وحروفاً، ويتطلب سرعة الانتقال من صفحة لأخرى والتذكر لمدد صغيرة، وله دلالاته في التوجيه لدراسة

السكرتارية وامتهان المهن المشابهة؛ واختبار الاستخدام اللغوي: language usage test، وهو اختبار في الهجاء spelling، ويتكون من قائمة من الكلمات بعضها به أخطاء إملائية، وعلى المفحوص أن يبينها؛ واختبار الاستخدام اللغوي، وهو اختبار في الجمل sentences، وتقدم فيه جملة مقسمة إلى أجزاء، وعلى المفحوص أن يبين الجزء منها الذي يتضمن أخطاء لغوية تركيبية ونحوية. والاختباران السابقان مكملان لبعضهما، ويقيسان مهارات ضرورية في الدراسة وفي عدد من المهن. والطالب الذي يحصل على درجة مرتفعة في الاستدلال اللفظي ودرجة منخفضة في الاستخدام اللغوي، يحتاج إلى دروس علاجية في هذه المهارات.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Bennet, G. K., Seashore, H. G. and – Wesman, A. G.: Differential Aptitude Tests.

❖ ❖ ❖

– ١٨ –
الاختبارات الإسقاطية
Projective Tests

❖ ❖ ❖

هي اختبارات شخصية، يكشف من خلالها المفحوص عن سماته المميزة ومشاعره واتجاهاته وأنماط سلوكه، عن طريق إستجاباته على مادة الاختبار غير محددة البناء unstructured، كأن تكون صوراً غامضة أو بقع حبر.

والأحرى أن نطلق على هذه الاختبارات إسم «الطرق أو الأساليب الإسقاطية projective techniques or methods» وذلك أنها تفتقد مقومات الاختبار من حيث التقنين والثبات والصدق والمعايير. واصطلاح «الأساليب أو الطرق الإسقاطية» إستخدمه لأول مرة L. K. Frank سنة ١٩٣٩ إلاّ أنّ هذه الأساليب كانت من الوجهة التطبيقية معروفة من قبل ذلك بسنوات وتمارس على نطاق واسع، وكان هيرمان رورشاخ Herman Rorschach يجري تجاربه

مستعيناً ببقع الحبر ink-blots كأداة من أدوات القياس النفسي منذ سنة ١٩١١، وكان ألفريد بينيه Alfred Binet يستخدمها من قبل ذلك في دراسة الخيال والإبداع. والطريقة بشكل عام تقوم على العملية اللاشعورية للإسقاط التي يعزو بها الفرد أفكاره واستجاباته الخاصة لغيره من الناس، ويسقط تفسيراته وتأويلاته على ما يرى ويسمع. وتهيئ مادة الاختبار الموقف الذي يستثير المفحوص ويستنفر فيه هذه الاستجابات، فيسقط الجوانب الداخلية من شخصيته من خلال تأويلاته وتخيلاته، وبهذا الشكل يكشف عن غير وعي منه عن الخصائص تحت السطح التي لا تفصح عن نفسها صراحة بواسطة هذا النوع من الاختبارات الاستخبارية للشخصية. ولعل أبرز ما يظهر من صفات هذه الاختبارات أو الطرق الإسقاطية أنه يقدم فيها منبه غير محدد الهوية ولا البنية، ويحتمل أن تكون الاستجابات عليه متنوعة وبلا حدود، فيستثير المفحوص لأن يدرك الموقف ويتصوره من وجهة نظره هو، كما أنّ هذا المنبه المعروض عليه مبهم وغامض، ولم يكتمل له بناء أو تعرف له هوية. والتعليمات التي تعطى للمفحوص موجزة وعامة كي تسمح له بأن يتخيل في هذا المنبه ما يشاء، وأن يعبر عما يلم به من أفكار أو يكتنفه من مشاعر في حرية، بالإضافة إلى أنه من الممكن حجب الغاية من الاختبار عن المفحوص، وأن يذكر له أنه اختبار للخيال أو للقدرة على تأليف القصص، أو أن يقدم له الاختبار دون أن يذكر عنه أي شيء، ولا يقدم له أي تفسير. ولعل من مزايا هذه الطرق الإسقاطية أنّ المفحوص من غير المحتمل أن يزيف إستجاباته عليها، لأنها تتضمن معلومات عن أشياء من الواقع، أو تتطلب أن يجيب على أسئلة معينة، ولا يدري كيف يمكن أن يقوم الفاحص إستجاباته ولا ماذا سيستخلص منها، إلاّ أنّ مادة الاختبار مع ذلك مادة قد جهد معدو هذه الاختبارات أنفسهم في تصميمها، ولها قيمتها وتقديرها، وقد أعدت بحيث تجعل من اللقاء بين الفاحص والمفحوص حولها فرصة وطريقة لتوثيق العلاقة بينهما.

ولقد كان إعداد معظم هذه الطرق

أو أدوات القياس الإسقاطية من خلال الحاجة إليها لأغراض العلاج النفسي، ومن ثم كان اعتبارها طرقاً أو إختبارات كلينيكية، وبعض هذه الاختبارات أعد ليكون ختبارات للخيال أو للإبداع، والبعض الآخر قد كان إعداده لتطبيقه في مجال العلاج بالفن أو العلاج باللعب. وعموماً فإنّ هذه الطرق أو الاختبارات الإسقاطية تظهر تأثراً شديداً بنظرية التحليل النفسي، بتأكيدها على القوى اللاشعورية، وبعلم نفس الجشطلت الذي ينصب تناوله للشخصية من وجهة نظر شاملة كلية. وكنتيجة لهذه التأثيرات من هذين المصدرين السابقين فإنّ الفاحص يحاول أن يترسم لنفسه صورة لديناميات وبناء شخصية المفحوص بشكل عام، بما في ذلك استجاباته الوجدانية، وعلاقاته الاجتماعية، والشواهد على سوء توافقه، ودوافعه وميوله واتجاهاته ومستواه الفكري.

وهناك العديد من الاختبارات الإسقاطية مع أنّ الكثير منها لم يتم تقويمه تماماً، ويمكن أن تصنف من عدة وجوه، من حيث نمط المنبه مثلاً، وطريقة تقديم الاختبار، وأسلوب تأويل الاستجابات. ولعل أفضل التصانيف هو تصنيف ليندزي Lyndzey الخماسي على أساس نمط الاستجابة، فأولاً: هناك طرق أو أساليب التداعي associative techniques، وفيها يستجيب المفحوص للمنبه بإعطاء أول كلمة أو صورة أو فكرة تطرأ على باله، ومن أمثلتها: «إختبارات تداعي الكلمات Word Association Tests و«اختبار رورشاخ لبقع الحبر Rorschach Inkblot test؛ وهناك ثانياً: الأساليب أو الإجراءات البنائية أو التكوينية construction procedures، وتتطلب من المفحوص أو يؤلف أو ينسج قصة أو ما شابه ذلك، ومن أمثلتها «إختبار تفهم الموضوع Thematic Apperception Tests أو (TAT)، «وعمل قصة مصورة Make a Picture Story؛ وهناك ثالثاً: أساليب أو أعمال التكملة completion tasks، كأن يطلب من المفحوص تكملة جملة أو قصة، ومن أمثلتها «تكملة الجملة Sentence Completion، «ودراسة الإحباط المصور لروزينزفايج Rosenzweig Picture Frustration Study،

بالإضافة إلى اختبارات تكملة القصة وتكملة الحوار؛ وهناك رابعاً: أساليب الاختيار أو الترتيب choice or ordering devices، وتتطلب من المفحوص إعادة ترتيب الصور أو تسجيل التفضيلات وما شابه ذلك، ومن أمثلتها «إختبار زوندي Szondi Test، «واختبار ترتيب الصور لتومكنز وهورن Tomkins-Horn Picture Arrangement Test؛ والتصنيف الخامس: هو الأساليب أو الطرق التعبيرية expressive methods، ويكون بها تقويم أسلوب المفحوص ونتاجه النهائي، ومن أمثلتها «إختبار رسم الشكل Figure Drawing Test، «واختبار رسم المنزل والشجرة والشخص House - Tree - Person Test، «واللعب الإسقاطي Projective Play، «والدراما النفسية Psychodrama.

«واختبار الرورشاخ» - كأي من الاختبارات الإسقاطية - طريقة أو أسلوب إسقاطي وليس اختباراً بالمعنى المستخدم في اختبارات الذكاء أو الاستعدادات وغيرهما، ويستخدم على نطاق واسع في بحوث الشخصية والحضارة والتطبيق الكلينيكي، باعتباره أداة تشخيصية، ولتقويم فعالية العلاج النفسي الإسقاطي. والمهم في هذا الاختبار ليس ما يجيب به المفحوص، ولكن الطريقة التي يستجيب بها للبقعة. وتكتسب كل استجابة معناها لا بمفردها وإنما بالنسبة لمجموع الاستجابات.

ويشكل «إختبار تفهم الموضوع» أداة مفيدة في الدراسة الشمولية للشخصية، وفي تفسير إضطرابات السلوك والعصاب والذهان والاضطرابات النفسية البدنية. وتتعدد طرق تفسيره بحسب منظور الفاحص نفسه. وهناك الكثير من الاختبارات من نوع «التات»، منها «إختبار الصورة القصة لسيموندز Symonds Picture-Story Test، ويستخدم رسوماً تمثل مراهقين ومراهقات، «واختبار التفهم للأطفال Children Apperception Test (CAT) لبيللاك وبيللاك Bellak and Bellak، «وصور بلاكي Blacky Pictures لبلوم G. C. Blum، ورسومه الكاريكاتورية وتدور حول كلب إسمه بلاكي وعائلته. ومن أهداف «إختبار القصة المصورة Make a Test

Picture-Story لشنايدمان Schneidman دراسة الجوانب السيكولوجية للإنتاج التخيلي. وأما أساليب التكملة، فمادة الاختبار فيها لفظية غالباً، وبعضها مصور إلاّ أنّ الاستجابات تكون كتابية أو شفوية. وطريقة تكملة الجمل أسلوب إسقاطي شبه محدد البنية ويقترب من تداعي الكلمات، وكان إيبنجهاوس Ebbinghaus (١٨٥٠-١٩٠٦) من أوائل من استخدم هذا الأسلوب سنة ١٨٩٧ باعتباره اختباراً للقدرة العقلية والتفكير، وفيما يبدو فإنّ باين Payne كان أول من استخدمه كاختبار للشخصية Payne Sentence Completion Blank (١٩٢٨)، ونشرت رود Rodd إختبارها للكشف عن مشاكل الشباب واتجاهاتهم وصراعاتهم وتوافقهم (١٩٤٦)، ثم نشر شتاين Stein إختباره لاستخدامه في العيادة النفسية لمتطوعي الحرب (١٩٤٧)، ويبدو أنّ هذا العام نفسه (١٩٤٧) شهد أكثر من إختبار من هذا النوع، ومن ذلك إختبار تكملة الجمل لساخس Sachs، واختبار روتر وويلرمان Rotter and Welerman. وفي اختبارات تكملة القصص والحوار يعطى المفحوص وصفاً لموقف أو اكثر، أو قصة ناقصة، ويطلب منه أن يبني عليها قصة من عنده، وتكون الاستجابات شفهية عند الأطفال، وفي حالة الحوار يعطى المفحوص البداية ليكمل الحوار عليها. ويجمع إختبار الإحباط المصور بين اللفظ والصورة، وتشتمل الصورة على شخصيتين كاريكاتوريتين تواجه إحداهما موقفاً محبطاً، بينما تذكر الثانية شيئاً يستثير الإحباط، أو يلفت النظر إليها، ويذكر المفحوص ما يمكن أن تعلق به الشخصية الأولى على ما تقوله الثانية. وأما اختبار زوندي - وهو من اختبارات الاختيار أو الترتيب - فيتكون من مجموعات من الصور لأفراد من فئات كلينيكية مختلفة، ليختار المفحوص من بينهما الصور الأقرب لنفسه، والأكثر تنفيراً، ويرتبها على هذا الأساس من المفاضلة.

وكان تحليل الإنتاج الفني من أولى محاولات إعتبار الرسم وسيلة إسقاطية، ومن هذه المحاولات تحليل بيركهارت سنة ١٨٥٥ لإنتاج فناني عصر النهضة، ودراسة نولان لويس سنة ١٩٢٨ لرسوم

المرضى بالعيادة النفسية. ونبّه فرويد إلى أنّ الرسم، بالإضافة إلى الأحلام، يكشفان عن ديناميات الشخصية. وفي «اختبار رسم المنزل والشجرة والشخص (House-Tree-Person Test) يطلب من المفحوص أن يقوم بالرسم في كراسة لها أبعاد مقننة، وتوجه له أسئلة بعد ذلك حول ما رسم. ولا يختلف إختبار رسم الشخص عن ذلك سوى أنه يطلب من المفحوص رسم شخص آخر من غير جنس الشخص الأول وتوجه إليه أسئلة حول الرسمين. ومن هذه الاختبارات كذلك - إختبار ليفي Levy «رسم حيوان وقصة عنه»، واختبار وارتيج «تكملة الرسم Wartegg Drawing Completion Form، واختبار هاروار Harrower «رسم أبغض المفاهيم» إلخ.

وكانت نشأة أساليب اللعب والدراما النفسية في مجال علاج الأطفال، ثم طُورت لاستخدامها في تشخيص حالات الأطفال والراشدين. ويفترض أنّ استخدام الدمى - التي تمثل الأطفال والكبار من الجنسين، ومن مختلف الأعمار - ونماذج الأثاث والحمامات وأدوات المطبخ، وغير ذلك مما يلزم إستخدامها في اللعب مع الأطفال، يكشف عن إتجاهاتهم نحو العائلة ونحو أشقائهم، وعن مخاوفهم وعدوانيتهم وما إلى ذلك. ويسجل الفاحص ما يختاره الطفل من هذه البنود السابقة، وما يفعله بها، وما يصدر عنه من تغييرات لفظية وانفعالية، وغير ذلك من السلوك الظاهر. ويكون تطبيق هذا الاختبار مع الأطفال في شكل لعب حر بالدمى التي يقدمها الأخصائي للطفل. وأما في حالة الكبار فالغالب أن يطلب منهم القيام بعمل محدد، وقد يطلب ذلك أيضاً في حالة الأطفال، وكثيراً ما يكون العمل له الطابع الدرامي، كأن يكون ترتيب أشكال، أو أشخاص مصغرة miniatures، على نموذج مسرحي مصغر أيضاً. وكان «اختبار العالم (World Test) محاولة لتقنين إختبارات الدمى الإسقاطية، ومن ذلك محاولة لونفيلد Lonfeld، وبهلر Charlotte Buhler وزملائها - بولجار وفيشر وآخرين، وفي هذا الاختبار يُعطى المفحوص الكثير من النماذج من ١٥٠ نموذجاً إلى ٣٠٠ نموذج، تشمل المنازل،

والـنـاس، والـحـيـوانـات، والـكـبـاري، والأشجار، والسيارات، والأسوار، وغيرها من الأشياء الشائعة التي يمكن أن توجد خارج البيوت. ويطلب من المفحوص أن يشيد منها ما يشاء مستخدماً ظهر طاولة أو صـنـدوقـاً، أو حـتـى الأرض، كسـطـح يصفّ عليه أدواته.

أما الدراما النفسية فتتضمن أداء مسرحياً لعدد من الأدوار تحت إشراف مخـرج هـو نـفـسـه الـفـاحـص أو الـمـعـالـج النفسي. ومشاركة الجمهور مشاركة فعالة من مكملات هذا العرض. ويلاحظ سلوك المفحوص في عدد من المواقف المختارة بعـنـايـة. وقـد يـطـلـب مـن الـمـفـحـوص أن يتخيل أنه على مسرح مع شخص متوهم، وأنّ عليه أن يؤلف لنفسه علاقة مع هذا الشخص، وأن يحدد هويته، ومكان وزمان ونـوع هـذه الـعـلاقـة، ويـتـرك لـه الـحـريـة الكاملة في اختيار الحركة والحوار. ومثل هذه المواقف يقصد بها أن تكشف معنى العلاقة الاجتماعية بالنسبة للمفحوص، وطـريـقـتـه فـي الـتـواصـل مـع غـيـره مـن الأشـخـاص. وفـي بـعـض الـمـواقـف قـد يشـتـرك فـي الـعـرض مـمـثـلـون حـقـيـقـيـون يـطـلـق عـلـى الـواحـد مـنـهـم إسـم الأنـا المساعد auxiliary ego، ويقومون بأدوار مـحـددة مـع الـمـفـحـوص. وقـد تـتـضـمـن الـمشـاهـد الـمـمـثـلـة أشـيـاء حـقـيـقـيـة أو مـتـخـيـلـة، وقـد يـكـون الـتـمـثـيـل مـن الـنـوع الصامت الذي تستخدم فيه الإيماءات والإشارات والأوضاع الجسمية المختلفة، وقد تغير الأدوار بسرعة، أو تعكس الأدوار فـيـتـبـادلـهـا الـمـفـحـوص مـع شـخـص آخـر خلال المشهد الواحد، وقد يقدم المخرج للعرض خلال المواقف المختلفة العديد مـن الـمـوضـوعـات، عـن الـحـب، والـمـوت، والأسرة، والمشاكل الاقتصادية، والأمن، والمكانة الاجتماعية. ومن الوجهة العملية فإنّ استخدام الدراما النفسية يحول دون الـتـوسـع فـيـه مـا تـتـطـلـبـه مـن وقـت وأفـراد وتسهيلات مادية، رغم أنّ ما يقدم منها في كثير من الأحيان هو مشاهد موجزة، كـمـا أنـه يـنـقـصـهـا الـتـقـنـيـن فـي الـتـطـبـيـق والتسجيل والتفسير خصوصاً، ويصعب إثـبـات صـدقـهـا. وقـيـل إنّ هـذا الأسـلـوب الإسقاطي لا يحتاج إلى إثبات لصدقه، طـالـمـا أنـه يـسـتـخـدم عـيـنـات مـن الـسـلـوك الـواقـعـي، إلاّ أنّ كل الاخـتـبـارات تـفـعـل

الشيء نفسه، ومع ذلك فلا بد فيها من إثبات الصدق. ومن الصعب معرفة إلى أي حد يرتبط سلوك المفحوص على مسرح الدراما النفسية بسلوكه في غيره من المواقف.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Frank, L. K.: Projective Methods for the Study of Personality.
- Lindxey, G.: On the Classification of Projective Techniques.
- Anastasi, A.: Psychological Testing.

❖ ❖ ❖

- ١٩ -
إختبار أوتيس ولينون للقدرات العقلية
Otis-Lennon Mental Ability Test

❖ ❖ ❖

من أحدث الاختبارات للمرحلة الابتدائية، حيث قد صدرت صورته الأخيرة سنة ١٩٦٩. وتقدم بنود الاختبار شفوياً بينما الإجابة تكون في كراسة مصورة، كأن يطلب من المفحوص شفوياً، أن يضع علامة على الشكل الذي لا يتفق مع بنية الأشكال التي أمامه. وتستغرق الإجابة ١٥ ثانية، والاختبار كله يستغرق ما بين خمس وعشرين وثلاثين دقيقة. وتوجد منه اختبارات مستقلة لكل سنة دراسية صممت لقياس تكوين المفاهيم اللفظية، والاستدلال الكمي، والمعلومات العامة، والقدرة على متابعة التعليمات.

ولأوتيس غير هذا الاختبار نموذجان آخران، أحدهما Otis Quick Scoring Mental Ability Test لقياس الذكاء لثلاثة مستويات - المستوى أ لأطفال السنوات من الأولى إبتدائي حتى الرابعة، والمستوى ب للتلاميذ بعد ذلك حتى نهاية الثانوية، والمستوى د للطلبة الكبار في مراحل التعليم الجامعي. والنموذج الآخر Otis Self administering Test of Intelligence، هو اختبار لفظي لقياس

الذكاء لمستويين - أطفال الابتدائي، والتلاميذ في الثانوي، ويمكن إستخدام هذا النموذج كاختبار فردي أو جماعي.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Dictionary of Behavioral Science. - Wolman.

❖ ❖ ❖

- ٢٠ -

الاختبارات التحصيلية

Achievement Tests

❖ ❖ ❖

تقيس الاختبارات التحصيلية ما تقيسه إختبارات المتعلمين التي تجرى على فترات. والمقصود بالاختبارات التحصيلية هذا النوع الذي يُعد ويُقنن موضوعياً كما في الاختبارات السيكولوجية، وتحلل بنودها وتعد معاييرها ويتم التأكد من صدقها وثباتها. وصدق هذه الاختبارات من نوع صدق المحتوى من حيث تغطيتها للمناهج الدراسية وما تم تدريسه منها فعلاً، ومراعاتها لمستويات الطلبة وأعمارهم. وتحسب معايير العمر التعليمي educational age على هذه الاختبارات عن طريق حساب الدرجة الوسيطة لكل التلاميذ من عمر معين الذين تنطبق عليهم، بصرف النظر عن الفرق الدراسية التي ينتمون لها. وقد تحسب أيضاً النسبة التعليمية educational quotient (E.Q) بقسمة العمر التعليمي على العمر الزمني chronological age. وقد تحسب النسبة التحصيلية achievement quotient (A.Q.) بقسمة العمر التحصيلي achievement age على العمر العقلي mental age.

والاختبارات التحصيلية بالإضافة إلى أنها مؤشرات ترقى في المستوى التعليمي، فإنها دليل على مستوى معين من الذكاء والقدرات المؤهلة للتحصيل، ولكنها ليست إختبارات ذكاء، ولا تُعد من اختبارات القدرات. وقد تستعمل كلمة accomplishment يعني الإنجاز بدلاً من كلمة التحصيل لبيان ما تم تحصيله فعلاً.

ومن مزايا اختبارات التحصيل أنها مقياس للتمكن من المواد الدراسية المتعلمة، ومن ذلك إختبارات قوة التحصيل power test لقياس مستوى التحصيل في مختلف المواد، واختبارات الاختيار بين متعدد multiple choice test، وتقدم للمفحوص أسئلة وعدة إجابات ليختار من بينها الجواب الصحيح، وتعتمد على التحصيل الجيد، وتسمى أحياناً إختبارات إختيار الجواب selective answer tests، وعلى نتائجها يمكن أن تعد برامج علاجية لملافاة أوجه الضعف التحصيلي، أو الكشف عن أسبابه في المعوقات الدراسية أو المنزلية أو البدنية أو النفسية أو العقلية. وهي مؤشر لجدوى العملية التعليمية، ومنبه لمراجعة أساليب التدريس وتقديم المناهج.

واختبارات التحصيل منها بطاريات batteries تتكون من عدد من الاختبارات الفرعية، تقيس التحصيل في المواد الدراسية المختلفة، ومن ذلك إختبارات المعلومات information tests؛ ومنها صور تعليمية متكافئة لتناسب مختلف المستويات العمرية. ويتجه تصميم هذا النوع إلى أن يكون إختبارات تفيد مما درسه الطالب في التطبيقات على مواقف ومشكلات تتطلب حلولاً تتعلق بهذه المواد الدراسية. وقد قيل إنّ من عيوب الاختبارات التحصيلية أنها تطبع العملية التعليمية بطابعها، وتجعل الهدف الأول هو استيعاب المعلومات الدراسية، واختبار هذه الاختبارات نفسها أنها تتناول تحقيق مختلف الأمور الحياتية. وهي اختبارات يصمم بعضها في البلاد المتقدمة في مجالات الأساليب التربوية وأهدافها، ولمعرفة ما ينبغي تدريسه، والاختبار عليه، بحيث تكون تقويماً للتفكير النقدي للطالب، ولقدرته على استيعاب المشاكل وحلها، واتخاذ القرارات في المواقف المختلفة، والارتقاء في العادات والاتجاهات والتذوق الفني والأدبي. وهناك اختبارات تقيس التمكن mastery tests وتحدد ما إذا كان المفحوص قد بلغ مستوى الحذق والبراعة أو لا. وفي اختبار قائمة الجرد inventory test يقاس التحصيل بحصر نواحي القوة والضعف فيه.

ومن اختبارات التحصيل ما يكون

تخصصاً في مجالات دراسية، كالمجال العملي أو الأدبي أو الاجتماعي، ويقيس المعلومات العلمية أو الرياضية أو اللغوية، أو المعلومات في التاريخ والاقتصاد والجغرافيا، إلخ، ويُطلق على هذه الاختبارات إسم إختبارات التحصيل التعليمي educational achievement tests، وتتناسب واستخدامها كاختبارات لنهاية برنامج أو منهج دراسي.

واختبارات الاستعداد readiness tests، أو الاختبارات التشخيصية diagnostic tests، هي أساساً إختبارات قدرات، طالما أنّ هدفها التنبؤ بإمكان إستفادة الفرد من دراسة منهج معين أو التدريب على عمل معين، إلاّ أنّ استخدامها في مجال تعليمي يجعلها تتبع الاختبارات التحصيلية، بالإضافة إلى أنّ الكثير من الاختبارات باعتبارها إختبارات للاستعداد، مصممة أساساً لذلك، وخاصة في مجال مهارات القراءة والمهارات الرياضية. ويكثر إستخدام هذه الاختبارات عند الالتحاق بالسنة الأولى الابتدائية، وهي تشبه لهذه المرحلة إختبارات الذكاء للمرحلة الابتدائية. وتؤكد هذه الاختبارات قياس القدرات المهمة لتعلم القراءة، ومتطلبات التفكير العددي، والتحكم الحسي الحركي اللازم لتعليم الكتابة. ومن بين الوظائف التي تقيسها التمييز البصري والسمعي، والتحكم الحركي، والاستيعاب اللفظي، والمفردات والمفاهيم الكمية، والمعلومات العامة.

ويميز في مجال القياس للمهارات الرياضية ومهارات القراء، بين الاختبارات التشخيصية والاختبارات المسحية survey tests، وتكشف هذه الاختبارات الأخيرة عن المستوى العام لتحصيل الفرد في القراءة والحساب، وأما الاختبارات التشخيصية فهي لتحليل أداء الفرد، والكشف عن أسباب الصعوبات التي تعوق تحصيله. والاختبارات التشخيصية للقراءة، منها الجمعي، ومنها الفردي، والجمعي منها الغرض منه يزيد قليلاً عن أن يجعلها إختبارات مسحية، والفردي منها يُستخدم في الدراسات المتعمقة لتشخيص صعوبات التحصيل للحالات الفردية - كصعوبات القراءة، وقد

تستخدم في الكشف عنها أجهزة خاصة كالتاكيستوسكوب tachistoscope للتحكم في فترة عرض المادة القرائية المطبوعة، والأوفثالموجراف ophthalmograph لتصوير حركات العين أثناء القراءة. وتعطى الدرجات في هذه الاختبارات على سرعة القراءة الصامتة والجهرية، والمفردات، وفهم الجمل، وفهم الفقرة. وفي اختبار القراءة الموجهة directed reading يطلب من المفحوص إستخراج الإجابات على أسئلة معينة عن فقرة من الفقرات، واختيار الكلمة التي يمكن أن تندرج تحتها معلومات عن سؤال معين. ويتطلب تشخيص وعلاج العجز القرائي الحاد دراسة مستفيضة لتاريخ الحالة، ومعلومات عن نمو الفرد الحسي والحركي، وتاريخه الطبي والصحي، وفحص دقيق للصعوبات الوجدانية المحتملة عنده. وفي بعض الحالات قد يكون التخلف الشديد في القراءة عرضاً لسوء توافق أساسي في الشخصية. ومع أنّ الاختبارات المسحية والتشخيصية الجماعية قد تفيد في اكتشاف الأفراد الذين يحتاجون لمزيد من الرعاية، فإنّ تشخيص وعلاج العجز عن القراءة كثيراً ما يشكل عبئاً على الكلينيكي. ويصدق ذلك أيضاً على حالات العجز الحسابي الشديد.

ويستخدم الكثير من إختبارات التحصيل للاختيار وأغراض التصنيف في الصناعة والحكومة والقوات المسلحة، وعندما تستخدم لأغراض الصناعة تسمى عادة إختبارات حرفية trade tests، والكثير من إختبارات التحصيل المهنية vocational achievement tests قد صممت لخدمة غايات معينة وليست للتوزيع العام، ومن أمثلة ذلك إختبارات الخدمة المدنية.

وتستخدم إختبارات التحصيل المهنية العديد من وسائل الاختبار، وقد يكون مضمون الاختبارات لفظياً، ومن ذلك اختبار الورقة والقلم paper and pencil test، والكتابة ضرورية فيه، وقد تكون صورة إختبار التحصيل هي اختبار الصح والغلط true-false test فيحجج المفحوص ما إذا كانت الإجابة على السؤال صحيحة فيضع علامة صح ü، أو

خطأ فيضع علامة x، وربما تستخدم فيه المواد المصورة أو الرسوم البيانية. وقد تقدم الأسئلة شفوية أو مكتوبة. وقد يحتاج الأمر أن تحل الاختبارات اليدوية أو الأدائية محل اختبارات الورقة والقلم. ويأخذ الكثير من إختبارات التحصيل المهنية شكل عينة من العمل الذي تقوم به الوظيفة، إلاّ أنها تكون عينة مقننة. ويتطلب الأمر أحياناً أن يؤدى الاختبار على وجه السرعة، ويستلزم لذلك أن يؤدي المفحوص إختباراً مصغراً miniature test، لا حاجة فيه لآلات كاملة كالآلات التي سيعمل عليها العامل أو الموظف من بعد نجاحه في الاختبار، ولا يستغرق الاختبار سوى وقت بسيط، ولا يشكل عبئاً على المفحوص والمشرفين، إلاّ أنه من جهة أخرى فإنّ التبسيط في العمل بطريقة الاختبار المصغر قد يستدعي من المفحوص ردود فعل لا تشبه ردود الفعل على العمليات الأخرى التي تدخل في العمل فعلياً خارج ظروف الاختبار. وتعطى الدرجة في اختبارات عينة العمل على ما يتكون منه الاختبار من عمليات، أو على الإنتاج نفسه، أو على الاثنين معاً بحسب نوع العمل نفسه.

ومن أشهر إختبارات التحصيل المهنية الاختبارات على الأعمال الكتابية، وخاصة إختبار الآلة الكاتبة، ومسك الدفاتر، والاختزال. وتتضمن بعض هذه الاختبارات أجزاء تتناول الاستخدام اللغوي والمعلومات الإدارية العامة.

وثمة طريقة أخرى للتقويم التحصيلي المهني بقياس الخبرة شفوياً عن طريق ما يسمى الاختبارات الحرفية الشفوية oral trade tests، وتتضمن أسئلة موجزة في المعرفة الحرفية المتخصصة، وتختار بنود المعلومات سهلة على من تكون له خبرة فعلية في هذا المجال، وصعبة على من لا خبرة له فيه.

وتطبق الاختبارات المقننة standardized على نطاق واسع في اختيار الأفراد المهنيين، وخاصة عند اختيار الطلاب للالتحاق بالكليات والمعاهد ومراكز التدريب المهنية، مثل كليات الطب، وطب الأسنان، والتمريض، والقانون، والتجارة، والهندسة، والكليات الدينية، وغير ذلك من المجالات المهنية. ومع أنّ هذه الاختبارات تؤكد

على القدرات الخاصة والتنبؤ بالأداء في هذا التخصص أو ذاك، إلاّ أنها تقوم على قياس الجانب التحصيلي المهني.

وهناك مجال آخر تُستخدم فيه إختبارات التحصيل المقننة، وهو مجال التدريب المهني، وإجازة المفحوص فيه مهنياً، وإعطائه شهادة بأنه قد اجتاز اختباراته، وهي اختبارات تحصيلية في مضمونها. ومن الأمثلة على ذلك إختبارات التخصص في الجراحة والتوليد، إلخ. ومنذ سنة ١٩٣٠ بدأت التطبيقات على اختبارات الاختيار لطلبة الطب، وتتكون من إختبارات بعضها لغوي، وبعضها كمي، وبعضها علمي، والبعض يدور حول فهم المجتمع الحديث. وتتضمن الاختبارات اللغوية المفردات، والاستيعاب القرائي في مجالات العلوم والدراسات الاجتماعية والإنسانيات. وتقاس القدرة الكمية باختبارات عن مسائل رياضية تستخدم فيها الأعداد والرموز، وتتطلب اللجوء إلى الاستدلال، والرجوع للمعلومات العامة. وتستخدم في اختبارات فهم المجتمع الحديث طريقة الاختيار من متعدد، وتتضمن بنوداً اقتصادية وسياسية. وأما الجزء الخاص من هذه الاختبارات المتعلق بالمادة العلمية فالإجابة على أسئلته من مقررات الفيزياء والكيمياء وعلم الحياة، من المرحلة الثانوية قبل الجامعية.

وتقيس إختبارات القبول لطب الأسنان القدرة الميكانيكية والمهارة اليدوية، ومنها إختبارات صُمِّمت للتنبؤ بالتحصيل النظري الجامعي. وأما اختبارات كليات الهندسة فتقيس الاستيعاب الميكانيكي، والتجميع، والإدراك البصري المكاني، ومنها اختبارات تحصيل في الرياضيات والعلوم واللغة. وأثبتت إختبارات التحصيل الرياضية أنها الاختبارات الوحيدة التنبؤية في مجال الأداء الهندسي المدرسي.

وكانت هناك بحوث كثيرة في استخدام الاختبارات التحصيلية لقياس الاستعداد لمهنة التدريس للمراحل التعليمية المختلفة. وثبت أنّ أفضل الاختبارات لبيان الصلاحية للالتحاق بكليات المعلمين هي اختبار التحصيل

الأكاديمية، واختبارات الذكاء العام.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Anastasi, A.: Psychological Testing. -

❖ ❖ ❖

- ٢١ -

إختبارات التذوق الأدبي
Literary Appreciation Tests

❖ ❖ ❖

يشتمل الاستعداد الأدبي literary aptitude على عدد من المهارات، مثله في ذلك مثل الاستعداد الموسيقي أو الاستعداد الفني المتمثل في الرسم والتصوير بالزيت، إلخ. وتقيس إختبارات الاستعداد الأدبي المعرفة باللغة وبفنون الأدب، ومن ذلك إختبارات النحو والهجاء والمفردات وغير ذلك من حرفيات الكتابة، واختبارات المقاييس الفنية للشعر والنثر وغيرهما، واختبارات التذوق الأدبي، من حيث إصدار الأحكام الأدبية الجمالية، وتفضيل إنتاج أدبي على إنتاج آخر. ولا شكّ أنّ اختبارات التحصيل منها اختبارات قياس التمكن من اللغة، باعتبار ما تم تدريسه منها فيما سبق من موضوعات الاختبارات السالفة. وكذلك فإنّ من اختبارات الذكاء والقدرة اللفظية ما يخص هذه المجالات، وإن كان ذلك على هيئة أعم وأشمل بدون تخصص كاختبارات التحصيل. ومن الاختبارات للقدرة على الإنشاء الأدبي أن يطلب من المفحوص أن يكتب في موضوع من الموضوعات كتابة أدبية يتوجه فيها الاهتمام إلى مستوى التعبير، ويشمل ذلك أن تأتي لغة المفحوص خالية من الأخطاء النحوية والإملائية، وأن تتميز كتابته بالوضوح والتنظيم. ومن هذه الاختبارات كذلك اختبار الألفاظ والأصالة في التعبير. والحكم على النواحي الجمالية في العمل الأدبي مجال الاختبار فيه هو التذوق الأدبي، وما لم تكن للكتابة الأدبية قيمة جمالية فلا أقل من أن تكون لها قيمة تواصلية، وقياس القيمة التواصلية للأدب هو النوع السائد في الاختبارات اللغوية في المدارس التي تقيس التقدم في

التعليم اللغوي، وليس بقصد اكتشاف المواهب الأدبية. واختبارات التذوق الأدبي تقيس الذكاء أو الحس الأدبي للكلمات والتراكيب والصور البيانية، مثلما تقيس الاختبارات الفنية الأخرى الحس الفني للأصوات وتناغمها وتراكبها، وللخطوط وانسجامها، والألوان وتجاذبها، والتكوينات التي تشمل على ذلك كله في حدود العرف الأدبي أو الفني عند الأدباء أو الفنانين في زمان ومكان معينين. وبديهي أن يكون من أهداف إختبارات التذوق الأدبي أن تقيس فهم المفحوص للنص الأدبي، إلاّ أنّ الفهم وحده لا يكفي في هذا المجال، فهناك بالإضافة إلى ذلك جماليات وسيلة التعبير، سواء كانت شعراً أو نثراً، إلخ. ويبدو أنّ أولى محاولات صياغة اختبارات للتذوق الفني كانت في مجال الشعر. ومثلما أنّ إصدار الحكم الأدبي على نص من النصوص هو أرقى وأهم عمليات التقويم الأدبي، وقياس الاستعداد أو القدرة الأدبية، فإنّ إصدار الأحكام في مجال الشعر هو أرقى ما يمكن أن يبلغه التذوق الأدبي، ولذلك فقد توجهت أولى محاولات إختبار القدرة على إصدار الأحكام الأدبية، أو قياس مستوى التذوق الأدبي، إلى مجال الشعر، وهو المجال الأظهر والأكثر تمييزاً لمستويات القدرة الأدبية. ومن ذلك «مقياس القدرة على تقدير الشعر لأبوت وترابو Abbot and Trabue: A Measure of Ability to Judge Poetry، وكان صدوره سنة ١٩٢١، وهو من الاختبارات الرائدة التي على منوالها صيغت الاختبارات اللاحقة، ويشتمل على مقتطفات شعرية أصلية، ومقطوعات مقلدة يفقدها التقليد بعض خصائصها. ولكل فقرة شعرية أصلية ثلاث فقرات مقلدة في ثلاثة مجالات، الأولى: الناحية الوجدانية من حيث تزييف العواطف؛ والثانية: ناحية الصياغة النظمية فتأتي الفقرة المقلدة عادية الصياغة؛ والثالثة: ناحية الإيقاع الشعري، فتضطرب الحركة، وقد تبطئ أو تسرع، وعلى المفحوص أن يختار من مجموعة كل بند من بنود الاختبار أفضل الفقرات من حيث خلوها من كل العيوب السابقة.

وهذه الطريقة - كما سبق إليها هذا الاختبار - هي التي سارت عليها أغلب

الاختبارات من بعد، مثل «إختبار ريج في تقدير الشعر Rigg Poetry Judgment Test» الذي نشر سنة ١٩٤٢ أي بعد نشر اختبار أبوت وترابو بإحدى وعشرين سنة. ويجعل ريج المفاضلة في البند الواحد بين فقرتين شعريتين فقط، مع زيادة عدد البنود، إلاّ أنه يجعل الفقرات قصيرة لا تزيد عن الأبيات الأربعة، مما يصرف الأحكام إلى التفاصيل الثانوية فيها، والنواحي الميكانيكية، دون الجماليات التي لا تتأبى على الإيجاز في سطور.

«واختبار كارول في تذوق النثر Carroll Prose Appreciation Test» مثل آخر أشبه بالاختبار السابق، إلاّ أنه في النثر وليس في الشعر، والمقتطفات التي يطرحها يستعيرها من ثلاثة مصادر، حيث تكون إحدى المقطوعات مأخوذة من عمل أدبي من الأعمال الكبيرة الكلاسيكية، والمقطوعة الثانية من كتاب عادي، والثالثة من مجلة مبتذلة، ثم قطعة رابعة ركيكة وتؤلف خصيصاً للاختبار. وتتميز القطع الأربع أنّ موضوعاتها متشابهة وأطوالها واحدة، وعلى المفحوص أن يرتبها بحسب أفضليتها عنده.

ويبدو أنّ عيوب هذه الاختبارات أنّ الفقرات فيها تكون قصيرة ولا سبيل لجعلها أطول بسبب الوقت، ومن ثم ينصرف الحكم عليها إلى ما فيها من أسلوبية.

❖ ❖ ❖

- ٢٢ -
إختبارات التذوق الفني
Artistic Appreciation Tests

❖ ❖ ❖

الغرض من هذه الاختبارات هو قياس القدرة الفنية، والتعرف على المواهب الإبداعية، والكشف عن الاستعدادات الفنية في مجال الرسم والتصوير والتكوين، وفي مجال العمارة والتشكيل الفني وغير ذلك. والاختبارات من هذا النوع معروفة من زمن، وتستخدم فيها عينات من إنتاج مختلف الفنانين للمقارنة بينها. وبديهي أن تكون المقارنة بين أعمال الفنانين ممن تلقوا دراسات

واحدة، ويتناولون موضوعات واحدة، ويخضعون جميعاً لمواقف مضبوطة متشابهة، وذلك شيء عسير، إلاّ إذا كان المقارنة فيما يمكن أن يصدروه من أحكام جمالية على أعمال فنية واحدة تعرض عليهم، وفي ظروف مواقف إختبار إصدارهم لهذه الأحكام. ويعتبر «اختبار مكادوري الفني McAdory Art Test» من أولى محاولات قياس التذوق الفني، والاختبار صدر سنة ١٩٢٩ ولم تعد له إلاّ قيمة تاريخية، وذلك لأنّ مادته تجاوزتها الأحداث، وهي مادة روعي في انتقائها آنذاك أن تناسب عصرها، وأخذت من المجلات المعروفة وقتئذ، بالإضافة إلى أشياء أخرى اختيرت من الكتب الفنية ومخزون المتاحف، وتشتمل على أصناف من الأثاث، وأدوات البيت، والمنسوجات، والملابس، والسيارات، والصور الزيتية، وغير ذلك، بحيث يكون من كل صنف من الأصناف السابقة أربعة نماذج مختلفة، إما في الشكل، أو في ترتيب الخطوط، أو توزيع الظل والضوء والألوان، وعلى المفحوص أن يرتب النماذج الأربعة من كل صنف بحسب تفصيله لها.

«واختبار الحكم الفني لميير Meier Art Judgment Test» هو تعديل لاختبار سابق في المجال نفسه لميير وسيشور Seashore، وهو من أكثر الاختبارات المستخدمة في مجال التذوق الفني، وكان أول إصدار له سنة ١٩٢٩ ثم أجريت عليه تعديلات، وحذفت منه أجزاء، ونشر سنة ١٩٤٠. وهو يختلف في نواح عدة عن اختبار مكادوري، فمادة الاختبار مختارة من بين أعمال معروفة لفنانين مشهورين عرفوا طريقهم إلى الخلود، وتتكون من مائة زوج من الصور، كل زوج يتألف من صورة طبق الأصل للعمل الفني الأصلي، بينما الصورة الثانية أجريت عليها تعديلات في السيمترية والتوازن والوحدة والإيقاع. والصور جميعها أبيض وأسود. ويركز الاختبار على قدرة المفحوص على إدراك التنظيم الجمالي aesthetic organization، وإصدار الأحكام الجمالية، وتلك قدرة يعتبرها ميير أهم عناصر الموهبة الفنية. وميير لم يرد لاختباره أن يكون مقياساً لدقة الإدراك، ولذلك يجعل من أصول الاختبار أن يطلع المفحوص على كافة تفاصيل الاختلاف بين الصورتين

الأصلية والمعدلة.

ولقد ظل مير يجري وزملاؤه دراساته على طبيعة الموهبة الفنية داخل جامعة أيوا Iowa لمدة تربو على العشرين سنة، وكان أغلب من فحصهم من الأطفال، وشملت إختباراته الكبار وعدداً كبيراً من الفنانين المحترفين، وخرج من كل ذلك بنتيجة هامة، ألا وهي أنّ الاستعداد الفني يتضمن فيما يتضمنه ست سمات متداخلة ومترابطة هي: المهارة اليدوية manual skill، والمثابرة على العمل عن طواعية وطيب خاطر، والذكاء الجمالي aesthetic intelligence، وسهولة الإدراك perceptual facility، والخيال الإبداعي creative imagination، والحكم الجمالي aesthetic judgment. ويتوجه إختبار مير أساساً إلى قياس هذه السمة الأخيرة. وكانت خطته في الأصل موجهة لأن يعد اختبار يقيس الجمال الإبداعي والإدراك الجمالي، إلاّ أنه عدل فيها وطور الاختبار ليكون هدفه هو هذا الهدف الجديد. ولم يكن إستخلاصه للسمات الست السابقة نتيجة تحليل عاملي كالذي تقوم عليه إختبارات الذكاء ولكنه نتيجة لدراسة موضوعية لسير الفنانين وتواريخ حياتهم وإنتاجهم الفني. وراعى مير لصدق الاختبار أن تكون بنوده من بين الأعمال الفنية المشهورة والمشهود لها وأن تكون التعديلات عليها بحيث تنتهك المبادئ الفنية المعترف بها. وعندما جمع منها الشيء الكثير دفع بها إلى خمسة وعشرين خبيراً في الفن، ولم يحتفظ من كل ما جمع من البنود إلاّ بما اتفق عليه الخبراء إتفاقاً واضحاً. وأخيراً إختار من بين البنود الأخيرة ما فضله واختاره منها من ستين إلى تسعين في المائة من المفحوصين باعتبارها صوراً للوحات الأصلية.

وتختلف الدرجات المعطاة على الاختبار باختلاف سن المفحوصين ومستواهم التعليمي والثقافي، ويحاسب طلبة الكليات الفنية مثلاً بخلاف طلبة الكليات غير الفنية، ورغم ما يبدو من إنخفاض الارتباط بين هذا الاختبار واختبارات الذكاء التقليدية مثل ستانفورد بينيه، أو مجموعة الاختبارات اللفظية، فإننا لا ينبغي أن نفهم أنّ الذكاء المجرد، أو الاستعداد المدرسي، غير مرتبط

بالنجاح النهائي في المهن الفنية. وهناك ما يثبت أنّ علو المستوى الفني مرتبط بالتحصيل المدرسي، وكان متوسط نسبة الذكاء للفنانين الناجحين كما انتهت إليه اختبارات جامعة أيوا، هو ١١٩ كما كانت نسبة الذكاء لعدد من الأطفال الموهوبين فنياً ممن أجرت عليهم الجامعة اختباراتها متراوحة بين ١١١ و١٦٦.

وبينما نجد أنّ مادة الاختبار عند مكادوري من بين الإنتاج الفني المعاصر، ومواد الاختبار عند ميير لا زمن لها باعتبار أنها أعمال خالدة، فإنّ بنود الاختبار عند جريفز أشكال مجردة. «واختبار الحكم على الأشكال لجريفز Graves Design Judgment Test» هو الاختبار الثالث من مجموعة إختبارات الاستعداد الفني، وهو يختلف إختلافاً جوهرياً عن الاختبارين السابقين، وذلك لأنه لا يجعل اللوحات أو الرسوم مادة له، وإنما يختار أشكالاً فنية. ويتألف الاختبار من ١٥٠ بنداً، ويتكون كل بند من شكلين أو ثلاثة يمكن أن يقارَنوا ببعض، وأحد هذين الشكلين قد صمم طبقاً للأصول الفنية، من حيث مراعاة الوحدة، والتنوع، والتوازن، والهيمنة، والاستمرارية، والسيمترية، والتناسب، والإيقاع. والشكل أو الشكلان الآخران ينتهكان واحداً أو أكثر من هذه الأصول. وقد اختيرت البنود بعد أن قدم عدد كبير منها إلى مدرسي وطلبة فنون، وطلبة من غير الدارسين للفن، فكانت ما اتفقوا على أنه أفضل البنود مراعاة للأصول الفنية. وصممت الأشكال بالألوان الأبيض والأسود والرمادي، وبعضها أشكال من خطوط، والبعض يتألف من دوائر ومربعات ومثلثات، إلخ.

ولأنّ أغلب إختبارات القدرة الفنية الابتكارية هي عينات أشغال فعلية، فإنها تتأثر بلا شك لدرجة كبيرة بالتدريبات عليها التي تأخذ شكلاً تعليمياً، ومن ثم فقد ينظر إليها باعتبارها إختبارات تحصيلية. وبعض هذه الاختبارات يصمم للتنبؤ عن حقيقة الأداء الفني مستقبلاً. ومن أشهرها: «إختبارات لورنز للقدرات الأساسية للفن المرئي Lewerenz Tests in Fundamental Abilities of Visual Art؛ «واختبار القدرة الفنية لنوبر Knauber Art Ability Test؛ و«استبيان هورن للاستعداد الفني Horn

Art Aptitude inventory و«اختبار إلبنوي للقدرة الفنية Illinois Art Ability Test»، و«اختبار لورنز مصمم للأطفال الكبار»، و«اختبار هورن للأطفال والراشدين». ويشتمل الاختباران الأولان على عدد من الاختبارات الفرعية تغطي التذوق الفني والمعلومات الفنية، بالإضافة إلى مهارات الرسم والقدرة على الابتكار، وهما من الاختبارات الباكرة التي لم تراجع. وأما «اختبار هورن» فتمت مراجعته إلى حد ما، ويركز على قياس القدرات الفنية الإبداعية، وله سقف عال، ويميز بين الطلبة الراغبين في الالتحاق بالمدارس الفنية، ويشتمل على ثلاثة أجزاء، الأول إختبار الرسوم المتعجلة scribbles، ويطلب فيه من المفحوص أن يخطط على وجه السرعة لشكل كتاب أو شوكة مثلاً في خلال ثانيتين للرسم الواحد. ويقيس هذا الجزء تذوق التناسب والمهارة في التكوين وترتيب الأشياء في الصفحة، والجزء الثاني عبارة عن اختبار للرسوم العابثة doodles، بأن يطلب من المفحوص أن يصنع تكوينات من مثلثات أو مستطيلات مثلاً، والثالث إختبار في التخيل imagery، يعطى فيه المفحوص بعض الخطوط وعليه أن يبني عليها تكوينات من عنده.

وبشكل عام فإنّ «اختبارات الاستعدادات الفنية» تحتاج إلى التثبت من صدقها، ومن وجود إرتباطات بين نتائجها، قبل تلقي المفحوص لأي تدريب فني، وبعد تلقي هذا التدريب، وهناك ما يثبت تأثير التدريب الفني على نتائج الاختبارات. وتقيس أغلب هذه الاختبارات العوامل الداخلة في الاستعداد الفني بناء على فروض عن هذه العوامل لم تتحصل نتيجة تحليل عاملي. وهناك من الشواهد ما يدعم القول بأنّ هذه الاختبارات متميزة حضارياً، بمعنى أنّ نتائجها تتأثر بالثقافة الفنية في المجتمع، ولذلك فهي لا تصلح للتطبيق في بعض المجتمعات، وقد يرجع ذلك إلى ما يقال من وجود إختلافات ثقافية أو حضارية في التذوق الفني وفي المعايير الفنية.

❖ ❖ ❖

مراجع:
- Anastasi, A.: Psychological Testing.

❖ ❖ ❖

- ٢٣ -
إختبارات الذكاء
Intelligence Tests

❖ ❖ ❖

إختبارات مقننة standardized tests، بمعنى أنّ تعليمات إستخدامها محددة، ومعاييرها مقدرة، ولها معطيات صدق وثبات، وتقيس مجموعة من الأعمال والأنشطة المختلفة، لفظية وأدائية وحسابية واجتماعية، تمثل عينة جيدة لمجال واسع من القدرة العقلية، باعتبار أنّ مفهوم الذكاء يعني أنه قدرة عامة غير متجانسة التكوين، وتغطي مجالاً من النشاط العقلي. ولا يتعارض أن يكون للذكاء هذا المفهوم المركب، وأن نحصل على درجة واحدة شاملة لكل جوانب هذه القدرة العامة هي ما نسميه نسبة الذكاء intelligence quotient (IQ)، وهي نسبة العمر العقلي إلى العمر الزمني، معبراً عنها كنسبة مئوية - هكذا: العمر العقلي على العمر الزمني مضروباً في مائة، وفي وقت حصولنا على نسبة الذكاء، نحصل من إختبارات أخرى على درجات خاصة بقدرات محددة. وتعطي بعض اختبارات الذكاء نسبة ذكاء عام كما هو الحال مع مقياس ستانفورد بينيه (أنظر لاحقاً)، أو نسبتي ذكاء لفظي وأدائي، بالإضافة إلى نسبة الذكاء العام، كما هو الحال مع مقياس ويكسلر بلفيو للراشدين (أنظر مقاييس الذكاء لويكسلر)، واختبارات الذكاء منها: إختبارات الذكاء الفردية individual i. Ts. مثل مقاييس ستانفورد بينيه Stanford Binet، وويكسلر Wechsler Scales ، أي تقيس ذكاء أفراد وليس جماعات، واختبارات الذكاء الجماعية group i. Ts.. والأصل في اختبارات الذكاء أنها فردية، وتتيح للفاحص أو الأخصائي المشرف على الاختبار أن يلاحظ المفحوص ويرصد سلوكه وانفعالاته. ولا شك أنّ موقف الاختبار هو أفضل مجالات

الملاحظة الكلينيكية للمفحوص، وهو موقف يتيح الفرصة لإقامة علاقة مناسبة بينهما، نتوقع من خلالها زيادة تعاون المفحوص واستجاباته لموقف الاختبار.

ومن ناحية أخرى يتعين عند استخدام إختبارات الذكاء الفردية individual i. T. الحرص الشديد في تفسير الدرجة عليها، إذ أنه لا ينبغي فيها استخدام المعايير المنسبة لمجتمع ما لتطبيقها على مجتمع آخر، حيث أنّ هناك دائماً فروقاً بين المجتمعات، بل إنّ هذه الفروق موجودة داخل المجتمع الواحد، بين الريف والحضر، وبين الطبقات الاجتماعية مثلاً. وتؤدي الفروق الحضارية إلى اختلاف معايير المجتمعات، فأسلوب العمل والخصائص الحضارية وأهداف التعليم ونمط التفكير السائد، كل ذلك يؤثر في تحديد أداء الأفراد على اختبارات الذكاء، ومن ذلك أنّ أطفال المدارس في بعض المجتمعات يتعلمون منذ السنوات الأولى للدراسة تناول الأمور العقلية، ويكافأ الطفل على إجابته على أسئلة الراشدين، ويشترك في حل المتاهات والكلمات المتقاطعة مع زملائه، وتؤدي هذه الخبرات إلى تدريبه على تناول المسائل التي تتضمنها إختبارات الذكاء الفردية، كما تدربه على التفكير النقدي التنافسي.

وبالنظر إلى أنّ اختبارات الذكاء تقيس ذكاء الأفراد في المراحل العمرية المختلفة، فإنّ من شأن تقنين بنودها على عينات عمرية مختلفة من المجتمع أن تكون نسبة الذكاء للفرد الواحد مستقرة في المستويات العمرية المختلفة، ويساعدنا إستقرارها من ناحية التنبؤ بأداء الفرد، وتساهم في استخدام درجات الاختبارات في التخطيط التعليمي والمهني، كما تجيب على كثير من الأسئلة حول معدل نمو الذكاء وثباته من عدمه، وما إذا كان الذكاء محدداً بالوراثة أو غير محدد. وتشير النتائج المستخلصة من إختبارات الذكاء الفردية على أنّ نمو الذكاء بالمعدل نفسه لا يحدث على المستوى الفردي، بالنظر إلى أنّ هناك الكثير من العوامل البيئية والاجتماعية والعائلية والصحية والتعليمية التي يمكن أن تيسر نمو ذكاء الأفراد وارتقاءه ، أو تعوقه وتكف هذا النمو.

واختبارات الذكاء الجماعية، تقيس ذكاء الجماعات وليس الأفراد، ولعل «اختبار ألفا .Army Alpha I. T»، «واختبار بيتا لقياس ذكاء المجندين .Army Beta I T.»، هما أولى الاختبارات الرائدة في قياس الذكاء على المستوى الجماعي، ويتميزان عن إختبارات الذكاء الفردية بتوفير استهلاك الوقت، واختبار أعداد ضخمة في المواقف العاجلة، وتطور إلى اختبار التصنيف العام للجيش Army General Classification Test (AGCT)، الذي تم وضعه خلال الحرب العالمية الأولى، ثم عدل خلال الحرب العالمية الثانية بالاسم نفسه، وصمم للاختبارات الجماعية الشفهية، ويقيس القدرات العقلية اللازمة لمهمات عسكرية بعينها، بغرض توجيه المجندين إلى ما يمكن أن يفلحوا فيه من المهمات. وتلغي الاختبارات الجماعية بشكل عام صورة إختبار الواحد لواحد، أو المفحوص الذي لا بد له من فاحص يشرف عليه ويدير الاختبار. ولا تتطلب إختبارات الذكاء الجماعية مهارة خاصة من الفاحص في إدارة الاختبار أو تصحيحه، بالنظر إلى أنّ هذه الاختبارات تعتمد على أسلوب البدائل المتعددة للإجابة على أسئلة موضوعية، غالباً ما تكون فيها إجابة واحدة هي الصحيحة. ومن مميزات الاختبارات الجماعية أنّ تقنينها يقوم على أعداد أكبر من الأعداد التي يعتمد عليها تقنين الاختبارات الفردية، إلاّ أنّ هذه الاختبارات لا تراعي من ناحية أخرى ظروف المفحوصين الصحية أو المزاجية،ولا توفر مجالاً للملاحظة الكلينيكية كما سبق أن نوهنا في إختبارات الذكاء الفردية. وإذا كانت هذه الخصائص تفرق بين اختبار الذكاء الفردي واختبار الذكاء الجماعي، فإنّ هذين النوعين من اختبارات الذكاء لا يختلفان في الخصائص العامة، ومن حيث الفكرة منها، وأسسها النظرية، باعتبار الذكاء قدرة عقلية متنوعة يمكن قياسها من خلال الأداءات العقلية.

واختبارات الذكاء الجماعية تطبق لكل المراحل العمرية. ورغم أنّ سني المهد لا تصلح معها هذه الاختبارات، بالنظر إلى أنها أحرى بأن تكون إختبارات فردية يستلزم فيها وجود فاحص

examiner يشرف على الطفل الرضيع المفحوص testee ويرعاه، ويرصد سلوكه، فإنّ بعض دور الحضانة كثيراً ما تطبق على بعض الأطفال إختبارات أدائية بسيطة جداً، وربما اختبارات ذكاء شفوية. ولعل أفضل «إختبارات الذكاء للأطفال في سني المهد .Infant I. Ts» هي «قوائم جيزيل الارتقائية Gesell Development Scales»، التي تشمل المجالات السلوكية الحركية والتوافقية واللغوية عند الطفل، وعلاقاته الشخصية الاجتماعية، وهي ليست إختباراً مقنناً بالمعنى التقليدي، ويكون تقدير المستوى الارتقائي للطفل عليها بتعبيرات الشهور، بمقارنة التقديرات عليها بتقديرات معيارية للارتقاء، في الأسابيع الرابع والرابع والعشرين والسادس والثلاثين. وهناك أيضاً «مقياس كاتل لذكاء الأطفال (Cattell Infant Scale)» من شهرين إلى ثلاثين شهراً، و«مقاييس بيلي للأطفال (Bayley Infant Scales)» من شهرين إلى سنتين ونصف. ويعيب اختبارات سني المهد أنّ الطفل يفتقد الدافع الذي يوجد عادة لدى المفحوص في أي من الاختبارات الفردية أو الجماعية، فهو لا يفهم ماذا يراد به أو يطلب منه، وبعض الأطفال قد يشق تطبيق الملاحظة عليهم في مناخ العيادة أو المختبر غير العادي، كما أنّ الأطفال في المهد لا طاقة لهم على ظروف أية اختبارات.

«واختبارات الذكاء للأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة .Preschool I. Ts» إختبارات فردية، بالنظر إلى أنّ الكثير منها شفهي، أي يستلزم فاحصاً يختبر الطفل شفهياً، ومن الممكن أن تؤدى أيضاً جماعياً عن طريق ملاحظة الأطفال خلال ألعاب معينة. والنموذج لهذا النوع من الاختبارات: «مقياس ميريل بالمر Merril-(Palmer Scale)، وأغلبه أدائي، وبعض بنوده شفهية، كأن يعطى الطفل قلماً ويسأل عن إسمه (إسم القلم) وعن استخدامه، أو تحرك أمامه سيارة أو قطار ويسأل عنها أو عنه، أو يسأل من يبكي أو من يكون هذا الطفل، إلخ. وقد يُطلب إليه أن يرمي كرة، أو يجلس القرفصاء، أو يقف على قدم واحدة، إلخ؛ «ومقياس مينيسوتا لأطفال ما قبل المدرسة (Minnesota Preschool Scale)

نموذج آخر، ومن إختباراته الشفهية أن يُسأل الطفل عن الأسماء للأجزاء من جسمه التي يشار إليها؛ ومن اختباراته الأدائية أن يطلب إليه أن يقلد رسم دائرة أو مثلث، إلخ. ومشاكل هذا النوع من الاختبارات هي مشاكل إختبارات سني المهد نفسها، من حيث صعوبة التصحيح، وتوجيه الاختبار، وإدارته، والاحتفاظ باهتمام الطفل وانتباهه لمدة طويلة. وبعض الأطفال تكون استجاباتهم سلبية معاندة، فيرفضون الاشتراك في الألعاب، أو الإجابة، نتيجة خجل شديد أو إضطرابات إنفعالية.

و«اختبارات الذكاء المدرسية Scholatic or Academic I. T.» تشمل الاختبارات للأطفال في المراحل الدراسية الابتدائية والإعدادية والثانوية. والاختبارات من هذا النوع كثيرة لما لها من جاذبية بالنسبة للأطفال، وللجو العام المدرسي الذي ييسر تطبيقها. ويوفر أغلب هذه الاختبارات أكثر من صورة لها، وتنسب الاختبارات للسنوات الدراسية التي تقيسها، فيقال مثلاً إختبار السنتين الأولى والثانية إبتدائي، ويُفهم منه أنه يغطي المرحلة العمرية التي تشمل سن السادسة وسن السابعة. ومن اختبارات المرحلة الابتدائية «إختبار بنتنر كاننجهام Pintner Cunningham (Test)» وله صورتان، لفظية verbal، تتطلب القراءة أو استخدام اللغة، وغير لفظية non-verbal، لا تتطلب القراءة وإنما تقتضي تمييز الأشياء المتشابهة أو الأحجام، إلخ. ومن الاختبارات أيضاً «اختبار شيكاغو غير اللفظي Chicago (Non-Verbal Test»)، ويصلح خصوصاً للأطفال الذين يعانون من العجز عن استخدام اللغة، ويعتمد على إدراك المتشابهات والاختلافات، والتفاصيل في الأشياء، ومطابقة الصور، إلخ. ومنها كذلك «إختبار لورج ثورندايك للذكاء» (أنظر لاحقاً)، وله صورتان لفظية وغير لفظية.

وتتضمن الاختبارات السالف ذكرها بنوداً تصلح لاختبار ذكاء المرحلتين الإعدادية والثانوية. والواقع أنّ الاختبارات تتداخل فيها المراحل العمرية، فلا وجود للفواصل الحاسمة بينها، فاختبارات مثل لورج ثورندايك،

وأوتيس، وكاليفورنيا، وسكات SCAT، كلها يمكن أن تطبق في هاتين المرحلتين. واختبارات كاليفورنيا مثل: «إختبارات كاليفورنيا للنضوج العقلي California Tests of Mental Maturity، لثورب Thorpe، وكلارك Clark، واختبارات كاليفورنيا للتحصيل C. Achievement Ts. وأما اختبارات سكات، فإنّ سكات إختصار: School and College Ability، أي إختبارات القدرات للمدارس والكليات، وهي سلسلة بطاريات إختبار للقدرات للاستخدام في المدارس والكليات لتقيس إستطاعة التلاميذ أن يدرسوا بنجاح في مستوى التعليم العالي فيما بعد. وبكل بطارية أربعة إختبارات فرعية، وهي تكملة الجمل، والمفردات، ومهارة الحساب، والاستدلال الكمي. غير أنّ هناك إختبارات يمكن أن يقتصر تطبيقها على المرحلة الثانوية، أو تغطي المرحلة العمرية من ٨ سنوات إلى ١٩ سنة. ومن ذلك «إختبار تيرمان ماكنيمار للقدرة العقلية (Terman-Mcnemar Test of Mental Ability). ويقيس الاستيعاب اللفظي على وجه الخصوص. وبالنسبة للمرحلة الجامعية وللراشدين الممتازين، فإنّ أهم إختبارات الذكاء هي «إختبار الاستعداد المدرسي Scolastic Aptitude Test (SAT)، من إعداد إدارة الالتحاق بالجامعات الأمريكية، وتعد منه صور جديدة سنوياً لتطبيقها في كل مرة؛ «واختبار التأهيل الجامعي للخدمة الانتقائية Selective Service College Qualification Test (SSCOT) ويستخدم لفرز طلبة الكليات المتميزين الذين يمكن تأجيل تجنيدهم لتكون لهم فرصة إستكمال دراساتهم الجامعية، والاختبار السيكولوجي للطلاب الجامعيين المستجدين من إعداد المجلس الأمريكي للتعليم - «إختبار ذكاء مجلس التربية الأميركي American Council on Education (ACE)، ويستخدم أصلاً لمستوى الجامعي، إلاّ أنّ له صورة للاستخدام على المستوى الثاني، وحلت محله حديثاً: «إختبارات القدرات للمدارس والكليات المتعاونة (SCAT) Cooperative School and College Ability Tests، وتذهب إلى تأكيد الاتجاه المعاصر في نظرية الاختبار: وهو قياس

القدرات المطورة developed abilities، أي أنّ درجات الاختبار تعكس طبيعة ومقدار الدراسة التي تلقاها الفرد، بدلاً من الزعم بأنها تقيس القدرة الكامنة للذكاء مستقلة عن الخبرات السابقة، وهو ما لا يمكن التخلص منه فعلاً من أي من اختبارات الذكاء، وإن لم يعترف بذلك مؤلفوها صراحة.

وفي مجال القبول للدراسات العليا يشيع إستخدام أربعة إختبارات جماعية، هي مزيج من إختبارات الذكاء واختبارات التحصيل. و«اختبارات سجل الدراسات العليا (GRE) Graduate Record Examination» من الاختبارات المعروفة. والاختبار الثاني هو «إختبار ميللر للمتشابهات Miller Analogies Test»، ويرتبط إرتباطاً مرتفعاً بالاختبار الأول، ويتميز بسقف عال، ويتكون من متشابهات معقدة تستمد مادتها من كثير من الدراسات الأكاديمية. والاختبار الثالث هو «إختبار التمكن من المفاهيم Concept Mastery Test»، وكان إعداده من خلال دراسات تيرمان الطولية الواسعة على الموهوبين، وله صورتان، إحداهما تقيس الذكاء في مرحلة النضج الباكرة - إختبار تيرمان مكنمار للقدرات العقلية Terman-McNemar Test of Mental Ability»، والأخرى إختبار متابعة لمرحلة العمر اللاحقة في الأربعينات. ويكثر إستخدام الصورة الأولى حالياً بالنظر إلى أنها أسهل من الصورة الثانية. ويتكون اختبار التمكن من المفاهيم من متشابهات ومترادفات وأضداد، ويستمد مضمونه من المفاهيم الشائعة في كثير من المجالات الدراسية، بما في ذلك المفاهيم البيولوجية والرياضية والتاريخية والأدبية والموسيقية وغيرها. والاختبار الأخير هو CAVD، إختصاراً من التكميل completion، والحساب arithmetic، والمفردات vocabulary، والتوجيهات directions، باعتبار الحروف الأولى لهذه البنود بالإنجليزية من إعداد ثورندايك Thorndike وآخرين، ومضمونه لفظي غالباً، وحتى الجزء الحسابي منه فإنه يتطلب مستوى عالياً من الاستيعاب القرائي. ورغم أنه يعطي المدى العمري من سن الثالثة حتى الراشد المتفوق إلاّ

أنّ استخدامه يشيع أكثر في المستويات العليا من طلبة الجامعة والدراسات العليا، نظراً لارتفاع سقفه، ولأنه اختبار قوة بشكل كامل، ومن ثم يصلح لفرز الطلبة الذين يتضح عجزهم على إختبارات السرعة speed test (يقاس فيها الذكاء بإنجاز عدد من المهام تؤدى في وقت محدد)، بالنظر إلى التزامهم الدقة والحذر الشديدين عند الإجابة، ولأنهم يتميزون بالبطء الشديد في القراءة.

ومن جهة أخرى، وبخلاف كل الاختبارات السابقة للمجال التعليمي، كانت هناك إختبارات ذكاء جماعية موجزة، لتطبيقها في فرز واختيار الموظفين والعمال في مجال الخدمة والمجال الصناعي والحرفي. واختبارات التصفية Screening Tests كما هو إسمها - يقصد بها تصفية المتقدمين للعمل واختيار أصلحهم. والكثير من هذه الاختبارات صورة موجزة من إختبارات أكبر سابقة، أو أنها أعدت خصيصاً، ومن ثم كانت لها إجراءات مختلفة لتناسب الغرض منها. ومن الصعب تصنيف الوظائف بحسب ما تقتضيه من نسبة ذكاء، ولربما يصدق على بعض الوظائف أنها لا تستلزم قدراً كبيراً من الذكاء، أو أنها روتينية، وخاصة تلك الوظائف التي تعتمد على المهارات الميكانيكية، وعندئذ يكون من الأنسب إختيار الأفراد لها باختبارات إستعدادات وليس باختبارات ذكاء.

ومن الاختبارات الجماعية المبكرة التي استخدمت في مجال إختيار الأفراد للوظائف: «الاختبارات العقلية سريعة التصحيح لأوتيس»، و«اختبارات الموظفين (Personnel Tests)، و«اختبارات التوجيهات الشفوية (Verbal Directions Test)، وكلها إختبارات أريد بها قياس المستويات العقلية للمتقدمين لوظائف، مثل السكرتارية، وأعمال الأرشيف، والحسابات، والعمل على خطوط التجميع، والوظائف الإشرافية كوظيفة رئيس عمال، أو رئيس المكتبة، إلخ. ومعظم الاختبارات من هذا النوع تحتاج لسرعة قد يفتقدها طالب الوظيفة كبير السن، ولذا فقد قيل إنها إختبارات متحيزة ضدهم. والاختبار الشفهي

الأخير يعتمد على السماع، وذلك أمر يتعذر أكثر مع كبار السن. واختبارات الذكاء الجمعية عموماً كثيراً ما يوجه لها النقد أنها «متحيزة ضد كبار السن (Discrimination against the aged)، وخاصة أنها قد تقتضي الإجابة عليها بمعلومات تعتمد على الدراسات السابقة من المراحل الدراسية التي تركوها من زمن بعيد، ولا يوجد بعد الاختبار الذي يتخلص تماماً من أثر الدراسة أو الثقافة كما سبق أن أسلفنا.

والنوع الثالث الذي تصنف إليه إختبارات الذكاء هو اختبارات الأداء Performance Tests، وهي اختبارات فيها يقل دور اللغة إلى أقل ما يمكن، وتتطلب إستجابات حركية أكثر منها لفظية، وليس منها إختبارات العد في الحساب، ولا «إختبارات الإشارة للصور (picture-pointing test)، و«الاختبارات غير اللغوية (Non-lingual Tests)، وتظهر الحاجة لها مع صغار الأطفال سواء كانوا فرادى أو مجتمعين، ومع الأميين والمتخلفين عقلياً، والأجانب من ثقافة مختلفة، الذين لا يحسنون اللغة المدون بها الاختبار، والمعوقين من أمثال الصم والمكفوفين، والذين يعانون صعوبات في الكلام نتيجة عيوب خلقية، أو لأنهم يستشعرون الخجل الشديد في موقف الاختبار، أو ربما لأنهم يعانون من إضطرابات إنفعالية تحول بينهم والتواصل مع الآخرين لغوياً، أو بسبب صعوبات في القراءة. ومن هذه الاختبارات: «إختبار مكعبات نوكس (Knox Cube Test)؛ و«اختبار تصميم مكعبات كوهكس (Kohs Block-design Test)، ويطلب فيه من المفحوص أن يحاكي تصميماً باستخدام المكعبات الملونة.

والمقابلة التي تكشف عنها إختبارات الذكاء بين الذكاء اللفظي verbal i. كما تقيسه إختبارات الذكاء اللفظية أو اللغوية، التي تعتمد على قراءة مواد الاختبار المكتوبة والإجابة عليها لغوياً أو لفظياً، والذكاء الأدائي performance i.، أو غير اللفظي non-verbal i. الذي تكشف عنه اختبارات الذكاء الأدائية أو غير اللفظية، توازيها مقابلة أخرى بين الذكاء التحليلي أو الخام الذي لم يصقله المران ولا التعليم،

وبين الذكاء المتعلم أو المبلور crystallized intelligence الذي يصنعه التعليم وتصقله الخبرة. والذكاء الخام fluid i. هو إمكانية عقلية لتعلم المفاهيم الجديدة وحل المشكلات. والاختبارات التي تقيس الذكاء الخام هي تلك التي ينخفض فيها إلى أقصى حد المضمون الحضاري والمدرسي، وتوصف لذلك بأنها «إختبارات خالية من أية تأثيرات حضارية (cross-cultural tests)، أو «إختبارات متحررة من أثر الحضارة (culture-free tests)، فمثلاً يتضمن «إختبار بيتا (B(Beta test بنوداً مصورة لسكين وكمان ومطواة وطابع بريد، وهي أدوات حضارية، فمع أنّ الاختبار غير لفظي إلاّ أنه حضاري أو مشبع بالعامل الحضاري. وكذلك يتضمن «إختبار شيكاغو غير اللفظي (Chicago Non-Verbal Test) صوراً لأدوات مثل التليفون والراديو وعازف البيان وأعمدة البرق ولعبة كرة السلة. ولكي يكون الاختبار متحرراً من أمثال هذه الأشياء الحضارية يستلزم أن تكون الصور أو الأدوات التي يستخدمها مشاعة بين كل الحضارات، ويبدو أنّ ذلك مطلب عسير، طالما أنّ أي اختبار لا بد أن يكون موضوعه سلوكياً، ومن ثم لا بد أن يعكس المؤثرات على هذا السلوك، وهي مؤثرات من البيئة، أي حضارية. ويتضمن «إختبار الذكاء المتحرر من أثر الحضارة IPAT لكاتل أربعة إختبارات فرعية تستخدم كبطارية منفصلة، وتوصف بأنها غير متحيزة حضارياً، وتشتمل على صور لأشكال هندسية بدلاً من الأدوات. ولعل «إختبار المصفوفات المتدرجة» Progressive Matrices Test من أفضل الاختبارات غير اللفظية وغير المتحيزة حضارياً، بمعنى أن بنود الاختبار لا تتعلق بخصائص حضارية معينة، بما يسمح أن تطبق بصورتها نفسها دون تعديل في أي مجتمع.

و«اختبار الذكاء الأدائي» performance intelligence test هو الاختبار الذي يقوم على بعض الأداءات الحركية التي تكشف عن القدرة العقلية، بالإضافة إلى أنها اختبارات للمهارات اليدوية أو سرعة الاستجابة الحركية، مثل «إختبار كوهس لرسومات المكعبات

(Kohs Block-design Test). والفرق بين «اختبارات الذكاء الأدائية»، واختبارات الذكاء العملية practical i. Ts. ، أنّ الأخيرة يستلزم لها الذكاء العملي practical i.، عكس الذكاء المجرد abstract i.، وهي - أي الاختبارات الأدائية للذكاء - تعرض لمشكلات تختبر المبادأة وسرعة الاستجابة، ولا تتطلب مهارة حركية، مثل «إختبارات متاهات بورتيوس (Porteus Maze Test)» التي يقول عنها بورتيوس إنها قد صُممت في الأساس كمقياس للقدرة التخطيطية وبعد النظر، وأنها تتفوق في قياس جوانب الذكاء الأكثر أهمية في الاكتفاء الاجتماعي العملي practical social sufficiency. وأما «الاختبارات غير اللغوية (non-lingual tests)» فهي التي لا تلجأ للغة إطلاقاً، سواء في تعليماتها أو مضمون الاختبار، على عكس «الاختبارات غير اللفظية (non-verbal tests)»، فإنها قد تشتمل على تعليمات مكتوبة، أو أنّ المشرف على الاختبار يقوم بشرح التعليمات شفوياً. وقد يُستعان في الاختبارات غير اللغوية بالبانتوميم أو الحركات الإيمائية، أو يرسم النموذج للاختبار على سبورة. و«اختبار بيتا للجيش (Army Beta Test)» هو أول إختبار لغوي، وبنوده عبارة عن متاهات وتكملة صور وسخافات مصورة. ومن نماذج الاختبارات غير اللغوية «إختبار بنتنر Pintner Test غير اللغوي»، وهو اختبار أدائي خالص لا يستعان فيه باللغة، وصُمِّم أصلاً للصم، ولذلك كانت لغة شرح التعليمات هي اللغة الإشارية أو البانتوميم pantomime. وقد تصلح الاختبارات الشفوية مع المكفوفين، وهي فئة أخرى من المعوقين لا تصلح لأفرادها الاختبارات المكتوبة، إلاّ أنّ فقدان المكفوف لبصره، ومن ثم للخبرة المرئية ببعض جوانب البيئة، يمثل عجزاً في تعامله مع بعض المواد اللفظية التي تصف أو تقارن أو تحدد مظاهر البيئة، ولذلك تصمم بنود إختبارات المكفوفين غير أدائية وشفوية، إلاّ أنّ اللغة فيها تستخدم بحذر شديد، وقد يستعاض عن الاختبار الشفوي باختبار مكتوب بطريقة «برايل»، وقد لا تكون هذه الطريقة معروفة لكل المكفوفين، أو قد لا يمهرون عليها جميعاً، ومن ثم فاللجوء إليها ليس

كثيراً. ومن هذه الاختبارات ما هو مصمم على مقياس ستانفورد بينيه لسنة ١٩١٦. وكذلك أعدت مقاييس ويكسلر لتناسب المكفوفين، ولتكون إختبارات غير أدائية وتعتمد على اللغة.

ومن فئات المعوقين الذين تطبق عليهم الاختبارات الأدائية وليس الاختبارات اللفظية، هذه الفئة من الشائهين الذين لا يسمعون ولا يبصرون، وقد يكون بهم عجز حركي أيضاً. ومن الصعب مع هؤلاء إجراء أية اختبارات ذكاء من أي نوع. ومنهم كذلك فئة المرضى بتلف أو إصابة معينة في المخ. ويقع على الأخصائي النفسي عبء قياس الاحتياجات الارتقائية للطفل المعوق، وقدرته على التعلم، واكتشاف معوقات هذه القدرة. ويبدو ضرورياً إختبار هذه الفئة من فترة مبكرة من حياتهم، للتمكين من عدد من العمليات التعليمية أن تأخذ مكانها عندهم. ويعتبر إختبار القدرات اللغوية هاماً، ويتضمن إمكانية إستقبال الاتصال من العالم الخارجي. وتعتبر الاختبارات الأدائية وغير اللفظية مناسبة لمرضى الشلل المخي، وقد يكتفى فيها بأن يومئ المفحوص برأسه موافقاً أو رافضاً. ويُعد «اختبار المصفوفات المتدرجة» (أنظر إختبار المصفوفات لاحقاً) من أفضل الاختبارات لهم.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Anastasi, A.: Psychological Testing. –

Littell, W. M.: The Wechsler–Intelligence Scale for Children.

Terman, L. and Merrill, M. H.: A–Standford-Binet Scale.

❖ ❖ ❖

– ٢٤ –

إختبارات القدرات الإبداعية
Creativity Tests

هي اختبارات الغرض منها الكشف عن المواهب الإبداعية. وتشتهر في هذا الصدد إختبارات جامعة جنوبي كاليفورنيا للإنتاج المشتت لجيلفورد Guilford's Southern California Tests of

Divergent Production، التي أثمرتها دراساته وبحوثه العاملية على الإبداع وقدراته، وأجراها على الطلبة والعسكريين، وقال بصددها بنظرية في بناء العقل تقوم على تحليل الأبعاد الأساسية لأية قدرة عقلية، مؤكداً أنّ الذكاء بخلاف الإبداع، وأنّ التفكير في الذكاء هو تفكير مجمع convergent thinking، يركز على مسألة واحدة ويجمع بين أطرافها في كل واحد، بينما هو في الإبداع تفكير مشتت divergent thinking، يفرع الموضوع الواحد ويحلله، ويجد له العديد من الحلول، وأنّ هناك عوامل أو قدرات ثلاث ترتبط بشدة بالإبداع أو التفكير المشتت، ويعتبر هذا التفكير الأساس فيها، وهي الطلاقة، والمرونة، والأصالة.

والطلاقة التي يقصد إليها جيلفورد هي الطلاقة اللفظية word fluency، وتقاس بأن يطلب من المفحوص خلال زمن محدد أن يكتب أكثر ما يمكنه من كلمات تتضمن حرفاً معيناً، أو لها بادئة أو قافية واحدة. والطلاقة إما طلاقة فكرية، أو ترابطية، أو تعبيرية، وفي الطلاقة الفكرية ideational fluency، أو الانطلاق الذهني، يطلب من المفحوص أن يذكر أكبر عدد من الكلمات المتماثلة في المعنى لكلمة معينة مثل «جامد (hard)، أو «رائع (excellent). والكلمات لهذا الاختيار تختار لأنّ كلاً منها له معان أو إستخدامات مختلفة. وفي اختبار آخر قد يطلب من المفحوص إيجاد صفة تكمل التشبيه مثل «إنه .. كالسمكة». وفي اختبار الطلاقة التعبيرية expressional fluency قد تعطى للمفحوص أربعة حروف مثل ه خ ك ج ليصنع عدداً من الجمل المفيدة، بحيث تبدأ كل كلمة فيها بحرف من الحروف السابقة، كأن تكون مثلاً «هرم خوفو كبير جداً»، إلخ.

والمرونة flexibility هي العامل أو القدرة الثانية من القدرات الإبداعية الأساسية عند جيلفورد، وهي قدرة على تغيير زاوية الرؤية باستمرار للأمور والمواقف واكتشاف أوجه الأشكال في أي منها. ويميز جيلفورد بين المرونة التكيفية والمرونة التلقائية، ويقيس الحساسية للمشكلات sensitivity to problems باختبارات حول نظم معينة

كنظام البريد، أو نظام الزواج، ويطلب من المفحوص أن يرى ما فيها من مشاكل seeing problem، وأن يقدم مقترحاته لتحسين هذه النظم أو المؤسسات. وقد يعطى المفحوص الأسماء لأشياء، ليرى فيها المشاكل المتعلقة بها من حيث استخدامها أو شكلها أو كفاءتها، وقد يسأل فيما يمكن أن تستخدم فيه بشكل غير عادي لم يؤلف عنها. ومن اختبارات المرونة ما يسميه جيلفورد: إختبارات الصور المخبوءة hidden pictures، والأشكال المطمورة hidden figures، ومسائل أعواد الثقاب match problems، والمشكلة في النوع الأول هو أن يعثر المفحوص على الوجوه المخبوءة التي تصنع خطوطها أجزاء من أشكال أكبر في الصورة، وفي النوع الثاني على المفحوص أن يتعرف على شكل هندسي بسيط مطمور في شكل هندسي أكثر تعقيداً. وتتطلب مسائل أعواد الثقاب من المفحوص أن يزيل بعض الأعواد من الأشكال الداخلة فيها بحيث تكون الأشكال المتبقية عدداً من المربعات والمثلثات.

والأصالة originality قدرة على إنتاج أفكار جديدة أو إستجابات غير مألوفة، ويمكن قياسها باختبار من نوع إختبارات التداعي اللفظي، بأن يُطلب من المفحوص الرد على الكلمة المنبه بأول كلمة تخطر على باله، وتقدر الدرجة بنسبة الجدة في الكلمة الاستجابة. ولقد ثبت أنّ جمهور العلماء والمهندسين والفنانين والموسيقيين والكتاب يستجيبون بكلمات غير شائعة، أو غير مألوفة للعامة من الناس، على عكس جمهرة البائعين والمدرسين والكتبة والسياسيين، فإنّ مصطلحاتهم تكون من النوع العادي الذائع. وهناك اختبار آخر يُقال له إختبار العواقب consequences test، بأن يطلب من المفحوص أن يذكر أكبر عدد من العواقب التي يمكن أن تترتب على وقوع حدث من الأحداث، كأن يكون هذا الحدث أن لا يصبح الناس في حاجة إلى النوم، أو أن لا يريدونه، أو أن تتعطل كل التليفونات مرة واحدة.

وهناك أنواع أخرى من الاختبارات صيغت بغرض قياس الإبداعية، كأن

يعطى المفحوص قصة من سطور معدودة وليس لها نهاية، ويطلب منه وضع نهاية حزينة أو أخلاقية أو لطيفة لها، كأن تكون القصة مثلاً لكلب مؤذي دأب على أن يعقر الناس فجأة وبدون مقدمات (Getzels and Jackson)، أو أن تقدم إلى المفحوص أنماط مجردة لأشكال هندسية، ويطلب إليه أن يذكر الأشياء المحتملة التي يمكن أن تدخل في تركيبها (Wallach and Kogan)، أو ذكر كلمة رابعة تترابط مع ثلاث كلمات أخرى (التداعيات البعيدة عند Mednick) وتضم «اختبارات تورانس للتفكير الإبداعي Torrance (Tests of Creative Thinking) عدداً من الاختبارات اللفظية والمصورة. وتشتمل بطارية الاختبارات المعنونة «التفكير بابتكارية بالكلمات (Thinking Creatively with Words) على بعض المطالب من أمثال تقديم صورة ملغزة، ويكتب المفحوص الأسئلة التي قد يسألها عما غمض عليه منها، ويكتب أيضاً قائمة بالأسباب التي أدت إلى الحدث الذي تصوره، والعواقب في رأيه التي يمكن أن تترتب عليه. وقد يطلب منه أن يقترح ما يراه لتحسين كفاءة وشكل لعبة من الألعاب، وأن يعدد الاستخدامات غير العادية لشيء مألوف، وأن يسأل أسئلة غير عادية عنه. وثمة بطارية أخرى هي «التفكير بابتكارية بالصور (Thinking Creatively with Pictures)، ويطلب فيها من المفحوص أن يرسم صورة مثيرة للاهتمام تشتمل على شكل ملون بألوان زاعقة، وأن يكمل بعض الخطوط ليصنع صورة غير عادية، وأن يكون أكبر عدد من الرسوم من بضعة أزواج من الخطوط المتوازية أو الدوائر.

وكان إعداد إختبارات تورانس كجزء من برنامج دراسي تركز على تجارب على القدرات الإبداعية التي يمكن أن تمارس داخل الفصول. وصُممت إختبارات أخرى لاستخدامها مع المهندسين، مثل «إختبار AC للقدرة الإبداعية (AC Test of Creative Ability)، «واختبار القدرات الإبداعية الداخلة في تصميم الآلات لأوينز (Owenes Creativity Test for Machine Design)، «واختبار القدرات الإبداعية البورديو (Pordue Creativity Test).

ومما لا شك فيه أنه ستكون هناك الكثير من هذه الاختبارات مستقبلاً وقد تكتشف عوامل أخرى بخلاف الطلاقة والمرونة والأصالة أو الجدة ineguity. ولقد أشار جيلفورد وآخرون إلى أنّ أهمية إختبارات الاستدلال والتقويم في مجال قياس الإنجاز العلمي المبدع كمقابل للتفكير الحر المشتت، أي الذي يتشتت فيه التفكير ويتوزع. ومن هذه الاختبارات: «إختبار إتجاه السفينة Ship test Destination، واختبار الاستدلال المنطقي Logical Reasoning Test، «واختبار الأسئلة وثيقة الصلة بالموضوع Pertinent Questions Test، «وتقويم التفكير المبدع لواتسون وجلازر Watson-Glaser (Critical Thinking Appraisal) وعلاوة على ذلك فالمعول عليه الآن أنه قد تلزم للفنون قدرات أو عوامل خاصة بصرية وسمعية وحركية.

وأدى تطبيق إختبارات القدرات الإبداعية وحل المشاكل إلى اكتشافات مثيرة، وتبين من عدد من الدراسات المهمة أنّ القدرة على حل المشاكل كثيراً ما ترتبط بسمة التمرد والخروج على العرف (ناكامورا ١٩٥٨)، وأنّ طلبة الجامعة الذين يحصلون على درجات عالية في اختبارات القدرات الإبداعية يميلون إلى المهن التقليدية، ويعجبون بسمات الشخصية التي تختلف عما يظنون أنّ مدرسيهم يفضلونها (جيترلز وجاكسون ١٩٦٢)، وأنّ الطلبة الذين يحصلون على أعلى الدرجات في اختبارات القدرات الإبداعية يحصلون على درجات أقل في اختبارات الذكاء، وكثيراً ما يفشلون في حل المشاكل التي تتطلب نوع التفكير الجامد المنهجي المجمع convergent. ودلت دراسات أخرى على أنّ الأطفال الأكثر إبداعاً يميلون إلى أن يكونوا أقل قلقاً، وأسهل من حيث التعامل، واجتماعيين أكثر، ويعتمدون على أنفسهم أكثر من غيرهم، وأكثر إدراكاً للدوافع اللاشعورية، وهم في الغالب ينحدرون من عائلات تغامر بالمخاطرة، وتجيز الاهتمامات والأفكار المشتتة. ولعل من مزايا الدراسات الحالية في القدرات الإبداعية أنّ الاهتمام قد امتد إلى مجال القدرات الإبداعية العلمية، ولم يعد قاصراً على

البحوث والاختبارات في القدرات الإبداعية الفنية.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Goldman, R. J.: The Minnesota Tests - of Creative Thinking.

Guilford, J. P.: The Nature of Human - Intelligence.

❖ ❖ ❖

- ٢٥ -
إختبارات القدرات العقلية الأولية
Primary Mental Ability Tests (PMA)

❖ ❖ ❖

هي ثلاث بطاريات من الاختبارات لقياس الذكاء لمراحل عمرية ثلاث من ٥ إلى ٧، ومن ٧ إلى ١١، ومن ١١ إلى ١٧ سنة. والاختبارات قام بتصميمها ثرستون Louis Thurstone ونشرت لأول مرة سنة ١٩٤٨، ثم اختزل المجلس الأمريكي للتعليم عدد الاختبارات ونشرها معدلة سنة ١٩٤٩ باسم: «إختبارات شيكاغو للقدرات العقلية (The Chicago PMA Tests)، حيث PMA إختصار primary mental abilities، ورُئي من بعد إختصارها أكثر من ذلك، ونشرت الجمعية الأمريكية للبحث العلمي SRA التعديل باسم SRA-PMA Tests. وكان ثرستون قد وضع هذه الاختبارات على أساس نظريته متعددة القدرات للذكاء، قال إنها خمس قدرات، وهي: القدرة اللغوية verbal ability، ورمزها V؛ وقدرة الإدراك المكاني spatial ability ورمزها S؛ والقدرة على الاستدلال reasoning ability، ورمزها R؛ والقدرة على الطلاقة اللغوية word fluency ability، ورمزها WF؛ والقدرة العددية number ability، ورمزها N. وطبقاً لنظريته فإنّ البطاريات الثلاث تستخلص من إختباراتها درجات مستقلة تمثل في كل مرة خمس قدرات أولية، ويحسب لكل قدرة عمر عقلي خاص، كما تحسب نسبة ذكاء على الدرجة الخاصة بكل اختبار. ويعيب البطاريات أنّ

الارتباطات بين الاختبارات الفرعية منخفضة إلى حد ما، وتتراوح بين ٥٠ و٦٥ ويؤدي الفرق في الدرجات إلى الشك في إمكان الاستفادة بها.

وقد أعد الدكتور أحمد زكي صالح «إختبارات القدرات العقلية الأولية عن ثرستون» لتلائم البيئة المصرية، وتقيس الصورة أربع قدرات لها أهميتها في النجاح الدراسي، وهي القدرة اللغوية، وتقاس باختبار معاني الكلمات، والقدرة على الإدراك المكاني، وهي قدرة هامة في الدراسات والمهن الهندسية، والقدرة على الاستدلال، وتقاس بسلاسل الحروف، حيث يطلب من المفحوص إكمال السلسلة بحرف واحد، والقدرة العددية وتقاس بمسائل جمع. وزُوِّد الاختبار ببيان تخطيط نفسي للقدرات يمكن باستخدامه إستخراج المقابلات المئينية لكل قدرة، كما يمكن استخراج درجة الذكاء من الدرجة الكلية. وتطبق الاختبارات لقياس القدرات للمراحل العمرية من ١٣ إلى ١٧ سنة.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Vernon, P. E.: The Measurement of Abilities. -

Spearman, C.: The Abilities of Man. -

Thurstone, L. L. and Thurstone, T. G.: Factorial Studies of Intelligence. -

❖ ❖ ❖

- ٢٦ -

إختبارات القدرات الموسيقية

Musical Aptitude Tests

❖ ❖ ❖

من أبرز وأولى هذه الاختبارات «مقاييس سيشور للموهبة الموسيقية (Seashore Measures of Musical Talent)، وقد أعدها المؤلف كارل سيشور لقياس الاستعداد الموسيقي عند الطلبة بين السنة الرابعة الابتدائية ومستوى الراشدين بالجامعة. وتقوم الاختبارات على عرض أزواج من الأنغام أو المتتابعات اللحنية على إسطوانات أو شرائط في ست مجاميع مختلفة، وعلى المفحوص أن يبدي رأيه فيها من نواحي

تمييز الأصوات، وشدتها، وإيقاعها، وأطوالها، ونوعية الصوت، والتذكر للألحان. وفي اختبار تمييز الأصوات pitch test مثلاً يستمع المفحوص لصوتين على التوالي، ويُطلب منه بيان ما إذا كان أحدهما أحدّ من الآخر أو أغلظ. وفي اختبار الإيقاع rhythm test يقارن المفحوص بين جملتين إيقاعيتين، ويقرر ما إذا كانتا متشابهتين أو مختلفتين. وهناك بنود أخرى متزايدة الصعوبة تشتمل عليها كل مجموعة. وترصد الدرجات على كل اختبار على حدة على بروفيل، ولا تجمع في درجة كلية. وتقتصر هذه الاختبارات على قياس القدرات الموسيقية الأساسية التي يخلص إليها سيشور، ويذهب إلى أنها تميز الأشخاص الموهوبين عن غيرهم من غير الموهوبين، وتصلح من ثم لتوجيه الأفراد لدراسة الموسيقى، أو توصي بصرفهم عنها، غير أنّ النتائج على هذه الاختبارات لم تتوافق مع نتائج الاختبارات التحصيلية الموسيقية للطلبة بالمعاهد الموسيقية، الأمر الذي يجزم بأنّ هذه الاختبارات ليست لها قدرة تنبؤية. ومن ناحية أخرى فقد صدقت الاختبارات من حيث تمييزها للأشخاص الذين يصلحون لمن يحتاج الأداء فيها للقدرات التي تقيسها كموظفي البرق مثلاً ويعرف عنهم أنهم يدقون بآلاتهم كالتوقيع.

وتشبه «إختبارات كوالواسر وديكيما الموسيقية Kwalwasser-Dykema Music Tests»، إختبارات سيشور من حيث القدرات الست التي تقيسها، إلاّ أنها تتميز عنها بأنّ اختباراتها موجزة، وإن كانت من الناحية العددية تزيد عنها، حيث أنها تشتمل على عشرة اختبارات. وأيضاً فإنها تخصص بعضاً من إختباراتها لقياس التذوق الموسيقي، وقراءة المدونة الموسيقية. ويتوجه إعداد هذه الاختبارات لطلبة المرحلتين الإعدادية والثانوية، ويكثر إستخدامها في المدارس بسبب سهولة تطبيقها. واستغراقها لوقت لا يزيد عن الساعة، وكثرة المعلومات المتحصلة منها عن المفحوصين. غير أنها من ناحية أخرى يعوزها الثبات، والكثير من بنودها من السهولة بحيث لا تصلح كبنود تمييزية.

وتبرز «إختبارات وينج المقننة للذكاء الموسيقي Wing Standardized Tests of Musical Intelligence باعتبارها الاختبارات الوحيدة التي تقيس القدرة الموسيقية كقدرة عامة، أو كذكاء موسيقي Musical Intelligence كلي غير متشعب إلى قدرات متفرقة ومستقلة عن بعضها، وهي بذلك تتلافى عيوب إختبارات سيشور. بالإضافة إلى أنّ الاختبارات تتضمن معزوفات موسيقية على البيانو وليست جملاً موسيقية أو ألحاناً مفردة، والبنود عليها أكثر تعقيداً مما هي عند سيشور، وبعضها يطالب المفحوص بإصدار أحكام وتقديرات جمالية على ما يسمع أكثر منها كمقياس خالص للقدرات، ولذلك فإنها كاختبارات لا تصلح للأطفال الصغار وتوجه أساساً للأطفال كبار السن والراشدين، وتهدف إلى فرز المواهب الموسيقية لتوجيه أصحابها الوجهة الدراسية السليمة، التي بها يزيد إقبالهم على الدراسة الموسيقية والإفادة منها في صقل مواهبهم. وعدد هذه الاختبارات سبعة، أُعدت بناء على ما أوصى مدرسو الموسيقى أنفسهم بأن يكون الاختبار فيه، وهي فروع الإيقاع والأصوات في تمايزها، والهارموني، والشدة، وتحليل الكوردات، وأساليب التعبير الموسيقي.

ويقيس «إختبار دريك الموسيقي (Drake Musical Test) وظيفتين موسيقيتين أساسيتين، فمن ناحية يطلب من المفحوص أن يستمع إلى لحن من مقطعين يعزف له بأكثر من طريقة، وعليه أن يقارن بين الصور اللحنية المختلفة من الذاكرة، وأن يبين الاختلاف بينها في المفتاح والزمن والأنغام. والاختبار الثاني هو اختبار في الإيقاع، الغرض منه قياس قدرة المفحوص على ملاحقة تغاير الإيقاعات من بندول الإيقاعات. وأثبتت هذه الاختبارات صلاحياتها للتنبؤ بالنجاح أو الفشل في دراسة الموسيقى.

وتهدف «إختبارات القدرات الموسيقية للأطفال لبنتلي (Bentley's Children Aptitude Test) إلى قياس أربع قدرات موسيقية عند الأطفال هي: تمييز الأصوات، وتذكر النغمات، وتحليل التألفات، وتذكر الإيقاعات. ومع أنّ إعداد هذه الاختبارات يتوجه أساساً للأطفال من سن ٧ إلى ١٢، إلاّ أنها قد أثبتت صلاحيتها

كذلك للتطبيق على المستويات العمرية الأعلى، مع ملاحظة معايير هذه الأعمار عند تفسير الدرجات.

وتختلف «إختبارات التحصيل الموسيقي لأليفيريس Aliferis Music Achievement Tests عن سابقاتها، باعتبارها إختبارات قد صُمِّمت لقياس الاستعداد الموسيقي عند الطلبة الذين يرغبون في الالتحاق بالمعاهد الموسيقية، ولذلك فمستواها أعلى، والوظائف التي تقيسها هي الوظائف السابقة نفسها، وهي التمييز السمعي البصري للعناصر الميلودية والهارمونية والإيقاعية.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Fransworht, P. R.: Musical Taste. –

Seashore, C. E.: Psychology of – Music.

Stumph, C.: Tonpsychologie, 2 Vols. –

Wing, H. D.: A revision of the Wing – Musical Aptitude Test. J. res. Music Educ. 1961, 19, 3947.

❖ ❖ ❖

- ٢٧ -

إختبارات لورج ثورندايك للذكاء

Lorge-Thorndike Intelligence Tests

❖ ❖ ❖

إختبارات ذكاء جماعية للأطفال تغطي مرحلة عمرية واسعة، إبتداء من الحضانة، من سن ثلاث سنوات، حتى سن الثالثة عشرة، بالإضافة إلى اشتمالها على صورتين لفظية verbal وغير لفظية non-verbal، والصورة اللفظية تتضمن خمسة إختبارات فرعية لتكميل الجمل، والتصنيف اللفظي، والاستدلال الرياضي، والمفردات. وتتضمن الصورة غير اللفظية ثلاثة إختبارات، هي التعرف على صور الأشياء بتسميتها، والتصنيف باستبعاد الأشياء غير المندرجة ضمن فئات، والترابط بتحديد الشيئين ضمن مجموعة، بينهما علاقة معينة.

والاختبارات اللفظية وغير اللفظية مؤقتة، ولها محكات صدق في عدد من

الدراسات، ومعايير ونسب ذكاء انحرافية تحددت من خلال عينة تقنين واسعة.

❖ ❖ ❖

- ٢٨ -
الاختبارات النفسية
Psychological Tests

❖ ❖ ❖

الاختبار النفسي إجراء منظم لملاحظة الأداء العقلي أو السلوكي ووصفه بمقياس رقمي أو نظام تصنيفي. ومعنى أنه إجراء منظم أنه مقنن، أي أنّ إجراءاته وصياغة بنوده وطريقة تقديمه موحدة في كل المواقف. ويتم التقنين على عينات ممثلة للمجتمع، بهدف الحصول على معايير تحدد معنى الدرجة على الاختبار.

وتصنف الاختبارات بأكثر من أسلوب، فمن جهة هناك «الاختبارات الفردية (individual tests) في مقابل «الاختبارات الجماعية (group tests)، والأولى تقدم للأفراد، بينما الثانية تقدم للجماعات مثل تلاميذ المدارس أو الجنود في الجيش. وتمكن الاختبارات الفردية الفاحص من مراقبة أداء المفحوص على الاختبار ورصد حركاته وعاداته واتجاهاته وانفعالاته. وتتناسب هذه الاختبارات مع استخدام أجهزة الكمبيوتر مثلاً أو غير ذلك من الأدوات اللازمة في القياس السايكومتري لتحقيق الدقة في القياس، والحصول بأقل جهد على بيانات تتبعية عن المفحوص، أو بيانات تشخيصية لأدائه. وتقيس الاختبارات المهارات المختلفة، وأنواع الأداء السلوكي، والأنشطة العقلية المتنوعة، وغير ذلك مما يصلح أيضاً للاختبارات الفردية، إلاّ أنّ الأسلوب الفردي في الاختبار يستهلك الوقت والجهد والنفقات، فضلاً عن أنّ حصيلته محدودة في عدد الأفراد. وقد استلزمت الظروف العصرية الاتجاه للاختبار جماعياً بالنظر إلى ضخامة الأعداد المراد إختبارها نفسياً، وكان لا بد من تطوير الاختبارات الجماعية لتناسب هذا الكم الهائل. والنموذج المبكر للاختبارات الجماعية هو «اختبار ألفا اللفظي للجيش الأميركي (Army Alpha

Test)، و«اختبار بيتا غير اللفظي Army). Beta Test) ويقل دور الفاحص في الاختبارات الجماعية عنه في الاختبارات الفردية إعتماداً على قدرة المفحوصين على فهم تعليمات الاختبار، وبالنظر إلى موضوعية الاختبارات لقيامها على طريقة البدائل المتعددة للإجابة، ولوجود مفاتيح للتصحيح يسهل على غير المتخصص إستخدامها تحت إشراف المتخصص. وبالرغم من هذه المزايا التي توفرها الاختبارات الجماعية فإنها لا توفر مراعاة ظروف المفحوص من ناحية المرض والتعب والتوتر، إلخ، كما أنها تفترض فهم المفحوصين للتعليمات، وهو ما لا يتحقق أحياناً ومن ثم قد تفقد هذه الاختبارات مصداقيتها.

وهناك أيضاً «الاختبارات اللفظية (verbal tests) في مقابل «الاختبارات غير اللفظية أو غير اللغوية non-lingual or non-verbal tests والأصل في الاختبارات أنها لفظية وتستعين باللغة في صياغة بنودها وتوضيح تعليماتها، ومن ذلك «إختبار المعلومات information test، و«اختبار الفهم (comprehension test)، و«اختبار اللغة (language test)، و«اختبار المفردات (vocabulary test)، و«اختبار الحساب (arithmetic test)، و«اختبار المتشابهات (analogies test)، على عكس الاختبارات غير اللفظية التي يكتفى فيها بالصورة، أو الأشكال الهندسية، أو النقط، أو المكعبات، وكانت الحاجة إليها للصغار خصوصاً، وللأميين من الراشدين، وللوافدين الذين لا يعرفون لغة البلاد، ولبعض المرضى بالاضطرابات العقلية، وللمعوقين من الصم والبكم، وكل هؤلاء كان لا بد من إيجاد إختبارات تقيس ذكاءهم أو قدراتهم، ويستغنى فيها عن اللغة، ويكتفى فيها ببيان طريقة الاختبار عملياً، أو قد يستعان فيها باللغة الإشارية بالنسبة للصم والبكم، ومن ذلك «إختبار السخافات (Absurdities Test)، و«متاهة هيلي (Healy puzzle)، و«اختبار المانيكان (Manikin Test)، و«اختبار الباخرة (Ship Test). والاختبارات اللفظية قد تكون شفهية oral tests، وقد تكون تحريرية written tests. وقد توصف الاختبارات غير اللفظية بأنها عملية

practical tests، أو أدائية performance tests، إلاّ أنّ هذه الاختبارات الأخيرة ليس الغرض منها إختبار القدرة العملية أو الأدائية، ولذلك كانت الأدوات والأجهزة هي وسيلتها في الاختبار، كما في اختبار التصويب aiming test لقياس التناسق الحركي بين العين واليد. غير أنّ وصف هذه الاختبارات بأنها أدائية ربما كان وصفاً غير دقيق، لأنّ كل الاختبارات مهما كانت لا بد فيها من نوع من الأداء بأي شكل من الأشكال. ومن الاختبارات الأدائية «إختبار تصميم المكعبات Block-Design Test و«اختبار تجميع الأشياء Object-assembly. و«إختبارات أقصى الأداء maximum performance tests، هي اختبارات في القدرات، ويطالب فيها المفحوص ببذل أقصى الجهد وهو يقوم بأعمال مقننة تعكس قدراته، كما تعكس إستعداداته، بأن تختبر هذه الاستعدادات من حيث إمكانية إكتسابه لقدرات جديدة والقيام بأعمال لم يسبق له أن مارسها أو تدرب عليها. و«اختبارات السرعة speed tests»، وكذلك «إختبارات الدقة accuracy tests من هذا النوع. وعكس ذلك «اختبارات الأداء النمطي typical performance tests»، أو الأداء العادي التلقائي الذي يصدر عن الفرد تلقائياً في المواقف المختلفة العادية، أو المواقف المقننة، ويكون فيها رصد سلوكه من قبل ملاحظ يسجل عليه ما يظهر في السلوك من إهتمامات، وعادات سلوكية، واتجاهات وسمات مزاجية سلوكية. ومثل هذه الطريقة نستخدمها في «اختبارات الشخصية personality tests، بقصد تقييم الشخصية وتصنيفها من خلال مواقفها السلوكية، وعادة ما يطلق على اختبارات الشخصية إسم إستخبارات questionnaires، ويقتصر إستخدام الاختبارات tests على «اختبارات القدرات aptitude tests» والاستخبار أو الاستبيان عبارة عن سلسلة من الأسئلة موضوعاتها سيكولوجية أو إجتماعية أو تربوية، إلخ، تستخدم لأغراض تشخيصية أو تحديد سمات الشخصية وميولها وآراءها، وهناك نوعان من الاستخبارات: إستخبارات الميول والرأي opinion qs.، واستخبارات القدرات أو الشخصية personality qs.، وقد يقابل أحياناً بين

القدرة والشخصية، وإن كانت القدرة جزءاً من الشخصية. ومن إختبارات الشخصية «قائمة إيزنك للشخصية Eysenck Personality Questionnaire»، ومن أمثلة بنود هذا الاختبار: «هل تستطيع التعبير عن أفكارك بسرعة»، وتكون الإجابة على السؤال إما بنعم أو بلا. والكثير من بنود إختبارات الشخصية تكون الإجابة عليها بنعم أو بلا، أو بعلامة صواب، أو بعلامة خطأ. و«الاختبارات الإسقاطية projective tests من إختبارات الشخصية، غير أنّ اختبار الشخصية الغرض منه سبر سمات الشخصية، بينما الغرض من الاختبارات الإسقاطية التعامل مع الشخصية ككل متكامل، بوصفها مجموعة من السمات. ويتركز التفكير في صياغة الاختبار الإسقاطي على الصورة المركبة للشخصية، وليس على الأبعاد المتمايزة منها أو السمات المستقلة. و«اختبار رورشاخ لبقع الحبر Rorschach Inkblot Test إختبار إسقاطي تقدم فيه بطاقات الحبر للمفحوص تباعاً، ليذكر ما يراه خياله فيها مما يمكن أن تمثله له، ويسجل الفاحص الإجابة للمفحوص، وزمن الإجابة، ومظاهر سلوكه خلال الإجابة. وبعض الاختبارات الإسقاطية إختبارات لفظية يستعاض فيها عن الصور بالمنبهات اللفظية، وهي عبارة عن كلمات مفردة، أو عبارات ناقصة، يطلب من المفحوص أن يذكر ما تثيره فيه من كلمات أخرى تتداعى تلقائياً، أو يكمل العبارة الناقصة بأول ما يتداعى إلى ذهنه من معان وألفاظ، وذلك مضمون ما يُسمى «إختبار التداعي association test»، وقد يقال له تزايداً «إختبار التداعي الحر free-association test»، لأنّ هذا التداعي ليس حراً في الواقع، إذ أنّ المفحوص لا يختار إستجاباته بل يكون مدفوعاً إليها بعوامل لاشعورية نتيجة تجارب من الماضي. وفي «اختبارات التداعي المقيد controlled-association test» يختار المفحوص بين بدائل تقدم إليه.

وإذا كان قياس السمات هو محور إختبارات الشخصية فإنّ هناك جانباً آخر لا يقل أهمية، وهو جانب الاتجاهات والاهتمامات والتفضيلات والاختبارات

التي تتناول هذا الجانب باعتباره الجانب المكمل لسمات الشخصية، تؤدي إلى التعرف على العوامل التي يمكن أن تضمن حسن استثمار الفرد لاستعداداته وقدراته. وتمارس الاتجاهات عموماً باعتبارها حالات عقلية عصبية لها تأثيرات توجيهية وديناميةعلى استجابات الأفراد نحو كل ما يتعلق بها من موضوعات ومواقف. ولعل أبرز الاختبارات عليها هي «اختبارات أو مقاييس ثيرستون Thurstone scale»، وليكرت Likert scale، وبوجاردس Bogardus scale»، كما أنّ أبرز إختبارات الاهتمامات والتفضيلات هي اختبارات كودر Kuder، وسترونج Strong، ولي ثورب Lee Thorpe، ويعيب هذه الاختبارات أنها مقاييس بحثية أكثر منها مقاييس تصلح للأغراض الكلينيكية. ويمثل الاستخدام الكلينيكي للاختبارات المحك الحقيقي للتحدي الذي تقوم عليه فلسفة القياس النفسي، وتكشف عن بعض أشكال العجز اللغوي، وعيوب الحديث، والصعوبات العضوية التي تعمل على خفض مستوى الأداء، وإغراب الاستجابات، وتدهور الوظائف العقلية. ولقد تبين من مسح قام به البعض عن أكثر الاختبارات إستخداماً من الناحية الكلينيكية: أنّ «اختبار أو مقياس ويكسلر للراشدين Wechsler Adult Intelligence Scale» يأتي في المرتبة الأولى، ويليه «إختبار رورشاخ لبقع الحبر Rorschach Inkblot Test»، و«اختبار بندر جشطلت Bender Gestalt Test»، ثم «اختبار تفهم الموضوع Thematic Appreciation Test»، و«اختبار ماكوفر لرسم الرجل Machover Draw-a-Person Test»، و«اختبار مينيسوتا المتعدد الأوجه للشخصية Minnesota Multiphasic Inventory of Personality»، و«اختبار ويكسلر لذكاء الأطفال Wechsler Intelligenc eScale for Childrens»، و«اختبار ستانفورد بينيه Stanford Binet Achievement Test»، و«اختبار البيت والشجرة والرجل House-Tree-Person Test»، و«اختبار روتر لتكملة الجمل الناقصة Rotter Incomplete Sentence Blank»، و«اختبار فاينلاند للنضج الاجتماعي Vineland Social Maturity Scale»، و«اختبار ذاكرة

رمـوز الأرقـام»، و«اخـتـبـار الـمـفـردات المصور».

وربمـا كـان «اختـبـار الـورقـة والقـلـم paper and pencil test مـن أكـثـر الاختبارات النفسية إستخداماً في مجال إخـتـبـارات الـشـخـصـيـة، واخـتـبـارات الـقـدرات فـي مـجـال الأسـويـاء دون المـرضـى. وتـتـطـلـب بـنـود هـذا الاخـتـبـار الإجابة عليها كتابة، وقراءة التعليمات بتمعن، ولذلك فهي لا تصلح للأطفال الصغار والأميين والمعوقين، قراءة وكتابة، والمذهونين، والأجانب من غير أهل لغة الاختبار، وإن كانت بعض بنود هذا الاختبار غير لفظية وتتضمن الرسوم والأشكال الهندسية التي يكتفي بالتأشير على الرسم أو الشكل الصحيح منها.

ولقد كانت هناك دائماً محاولات لصياغة إختبارات نفسية تخص الأطفال كما تخص الراشدين، وتمتحن الأميين والمتخلفين عقلياً والمعوقين. وكان أول إختبار عقلي سنة ١٩٠٥ لبينيه Binet، وضعه أصلاً لاكتشاف المتخلفين عقلياً من بين الأطفال، ثم طور الاختبار ليناسب الأسوياء ويمايز في الذكاء كقدرة عامة، ثم أجريت عليه تعديلات ليقيس ذكاء الراشدين، ثم وجهت جهود العلماء إلى التعديل المشهور باسم «اختبار ذكاء ستانفورد بينيه Stanford Binet Intelligence Test) سنة ١٩٣٧ أشتاتاً من النقد، كان بسببها أن صمم ويكسلر Wechsler إختباراته التي نشرها لأول مرة سنة ١٩٣٩، وأجرى عليها التعديلات التي كان من نتائجها إخراج «مقياس ويكسلر لذكاء الراشدين Wechsler Adult Intelligence Scale»، و«اختبار ويكسلر لذكاء الأطفال Wechsler Intelligence Scale for Children»، وأخيراً «إختبار ويكسلر لذكاء الأطفال في المرحلة قبل الالتحاق بالمدرسة Wechsler Preschool and Primary Scale of Intelligence». وتتوجه بعض اختبارات الذكاء للمعوقين، بمعنى أن يطلب من المفحوص أن يجيب على السؤال أدائياً أو حركياً. ويتجه القياس السيكولوجي لقدرات المعوقين إلى بيان تأثير الإعاقة على التفكير أو النطق أو التوافق أو النمو الارتقائي، ومن ذلك إختبارات الصم مثل «إختبارات بنتنر

وبـاتـرسـون Pintner-Patterson Scales، واختبارات المكفوفين، كما في اختبارات ستانفورد بينيه، واختبارات المتخلفين كما عند فاينلند. وليست كل الاختبارات العقلية إختبارات ذكاء فبعضها إختبارات قدرات كالقدرات الأساسية السبع التي ذكرها ثرستون، وهي: الفهم اللفظي، والطلاقة اللغوية، والقدرة العددية، والقدرة المكانية، وذاكرة التداعي، والسرعة الإدراكية، والاستدلال العام. وهناك الكثير من بطاريات الاختبارات التي تقيس هذه القدرات، منها «بطارية القدرات العقلية الأولية PMA-Primary Mental Abilities»، و«بطارية إختبار الاستعداد العام GATB-General Aptitude Test Battery»، وبعض هذه البطاريات يقيس القدرات العقلية المتميزة مثل «بطارية جيلفورد Guilford الإبداعية. وبطارية الاختبارات battery of test» مجموعة مقاييس، أو سلسلة اختبارات جمعية، تجرى في جلسة واحدة، ومصممة لتقييم القدرات لتحديد كفاءة المفحوص أو المساعدة في إرشاده.

ويحتاج إعداد وتصميم الاختبار إلى وصف السلوك المراد قياسه وتحليله، ووصف نوع البنود التي يمكن أن تقيسه ووضعها بحيث تكون مناسبة للغرض منها ومتدرجة في الصعوبة، وتحديد نوع الإطار المرجعي الذي تفسر عليه درجة الاختبار، وحساب القدرة التمييزية للاختبار من خلال المفحوصين الذين يجتازونه، والأخذ في الاعتبار أن يتناسب مستوى صعوبة البنود مع متوسط القدرة وانحرافها المعياري لكل مجتمع، وأن يدور مستوى الصعوبة حول نسبة الـ ٥٠٪ وهو المستوى الذي يوفر أعلى نسبة تمييزية لأي اختبار، ثم يجرى على الاختبار تجارب التقنين، وحساب الثبات والصدق فيه. ويمتد مفهوم التقنين للاختبار ليشمل مواقف تطبيق الاختبار ومتغيراتها وتأثيراتها على الدرجة. وبعض هذه المتغيرات فيزيقية والبعض سيكولوجية. ومن المتغيرات الفيزيقية مستوى الراحة لمكان الاختبار، والإضاءة والضوضاء فيه، وشكل الاختبار نفسه وإخراجه، واعتياد المفحوصين على هذا النوع منه، وتجاربهم السابقة. ومن

المتغيرات السيكولوجية سلوك المشرفين على الاختبار مع المفحوصين، والجو العام النفسي، والطريقة التي دار بها الاختبار، وخبرة المفحوصين وقلقهم أو توتراتهم، واتجاهاتهم نحو الاختبار، وما يمكن أن يعنيه الاختبار بالنسبة لهم، واعتيادهم على الاستجابة لأي اختبار بالنفي أو بالإثبات، أو بالموافقة أو بعدم الموافقة، أو بإيثار الاختبار الذي تصحبه كلمة غالباً أو كثيراً، أو بتغليب إختبار البديل الأول بين عدة بدائل، أو البديل الأخير، والميل عند البعض لتزييف نتائج الاختبار بالإجابة على بنوده بما يعرفون أنه يغلب نجاحهم أو تفوقهم، أو يعطي عنهم إنطباعاً جيداً، أو يغطي نقائص عندهم مما يخفض صدق الاختبار. وقد تصمم لذلك بعض الاختبارات للحد من هذا التزييف، بإجبار المفحوص على الاختيار بين بدائل وعدم تركه حراً يجيب كما يرى.

وفي كل اختبار تجرى التجارب لتحويل الأداء عليه إلى تقديرات كمية تعالج بوسائل إحصائية، لتلخيص ما نحصل عليه من بيانات عن الاختبار، وتصنيفها ليتيسر تفسيرها من بعد. ومن الوسائل الإحصائية التخليصية التوزيع التكراري frequency distribution، ويستخدم كإطار مرجعي يوفر معنى للدرجات الخام، وييسر استخدام الدرجات أو مقابلاتها التي يطلق عليها إسم المئينيات percentiles، أو الرتب المئينية percentile ranks في المقارنات المختلفة. وتفسير درجات الأفراد بالرجوع إلى مواقع درجاتهم على هذا التوزيع، ومواقعهم النسبية معبراً عنها في شكل رتب أو درجات مئينية percentile scores. والمتوسطات من الطرق الإحصائية المستخدمة كذلك لتقدير الدرجات على الاختبار، ومنها المتوسط الحسابي arithmetic mean، والوسيط medial، والمنوال mode، والمتوسط الحسابي أهمها ويعطينا القيمة المتوسطة للدرجات، ويوفر لنا كذلك تقديراً للنزعة المركزية للتوزيع. أما تشتت الدرجات من حول المتوسط أو إنحرافها عن المتوسط فأفضل مقياس له هو الانحراف المعياري standard deviation، وتحسب الدرجة المعيارية

عليه standard score باعتبارها وحدة انحرافية منتظمة عن المتوسط. ويوصف التوزيع المعياري لأي مجموعة من الدرجات بأنه ذو متوسط قيمته صفر وانحرافه المعياري واحد. وقد تستخدم بعض أساليب التحويلات الخطية linear لتعديل الدرجات المعيارية بالنظر إلى أنّ بعض الدرجات المعيارية قد يتضمن كسوراً عشرية، ولأنّ نصف الدرجات المعيارية يكون سالباً، وهي درجات جميع الأفراد ممن تقل درجاتهم الخام عن متوسط العينة. والهدف من اللجوء إلى التحويلات الخطية هو مضاعفة مدى الدرجات المعيارية والتخلص بذلك من الدرجات السالبة وكسور الدرجة. ويستخدم غالباً في نسب الذكاء أسلوب التعبير بالدرجات المعيارية المعدلة derived standard scores، فمثلاً في اختبارات ستانفورد بينيه للذكاء تبلغ هذه النسبة درجة معيارية معدلة متوسطها ١٠٠ وانحرافها المعياري ١٦، وفي اختبارات ويكسلر بلفيو تبلغ نسبة الذكاء درجة معيارية معدلة متوسطها ١٠٠ وانحرافها المعياري ١٥.

ويستخدم المنحنى المعياري normal curve لتوضيح الدرجة المعيارية ومزاياها وأساليب تسوية الدرجات المعيارية، وهو يشبه في شكله الجرس، وأعلى نقطة فيه تمثل الوسط، وعندما نختبر عدداً كبيراً من الأفراد فإنّ توزيع العينة يقترب من شكل المنحنى كلما زاد حجمها. وتقوم أهمية هذا المنحنى المعياري الذي يطلق عليه أيضاً إسم منحنى الخطأ curve of error، أو المنحنى الجرسي bell-shaped curve، على افتراض إعتدالية توزيع الدرجات، وهو افتراض يدعمه التوزيع الاعتدالي للمجتمع، حيث يلاحظ إجتماع الأغلبية حول الوسط، وتقل بالتدريج إلى أقصى الطرفين. وفي ضوء خصائص التوزيع الاعتدالي وإمكان تحويل الدرجات المختلفة إلى وحدات أو درجات معيارية يمكن تفسير درجة الفرد على الاختبار ودلالاتها العملية في مجالات البحث.

ويشكل مفهوم صدق الاختبار أهم المفاهيم الأساسية في الاختبارات النفسية، وصدق الاختبار هو درجة الصحة التي يقاس بها أو ما يراد قياسه

من خصائص نفسية - صدق المضمون content validity، أو الصدق المنطقي logical validity، وقدرته على التنبؤ predictive validity، وارتباطه بمحك خارجي - الصدق التلازمي concurrent validity - في شكل معامل هو مؤشر الصدق. والصدق العاملي factorial validity شكل متطور لمفهوم الصدق يستخدم فيه التحليل العاملي للحصول على تقدير كمي لصدق الاختبار في شكل معامل إحصائي هو تشبع الاختبار على العامل الذي يقيسه. ويستخدم تعبير الصدق الظاهري face validity للإشارة إلى ما يبدو أنّ الاختبار يقيسه. ويعني صدق التكوين construct validity أنّ لدينا ارتباطات نظرية بين ما يقيسه الاختبار والمتغيرات الأخرى، وأنّ نتائج الاختبار تثبت صحة هذه الارتباطات أو الافتراضات. ويؤدي فحص الاتساق الداخلي للاختبار إلى الحصول على تقدير لصدقه التكويني.

ويمثل مفهوم الثبات reliability مع مفهوم الصدق أهم أسس القياس النفسي، وأهم ما يمكن أن يتوفر في الاختبار النفسي. والاختبار الصادق يعني أنّ الدرجة عليه تعبر عن القدرة أو السمة أو الأداء الحقيقي المراد قياسه. وما دامت الدرجة صادقة فإنها تكون ثابتة، أي متسقة ومستقرة في تقديرها لما يراد قياسه. ويحسب الثبات بطريقة إعادة الاختبار في الظروف نفسها، أو أن يجرى الاختبار على صورة متكافئة له تشبه بنودها بنوده، وحساب معامل الارتباط بين النتائج في المرتين؛ أو يحسب الثبات بتجزئة الاختبار أجزاء متكافئة أو تنصيفه. وتؤثر في ثبات الاختبار قابليته للتطبيق، وموضوعية بنوده، والارتباط بينها، ومستوى واطراد صعوبتها، وموضوعية التصحيح، واحتمالات التخمين في الإجابة على الاختبار، وطوله، ومحدودية الوقت، وعدم تجانس المفحوصين ودوافعهم، وموقف الاختبار وما يتضمنه من مشتتات أو مزعجات، وينبغي ضبط كل ذلك لنضمن الحصول على معاملات ثبات مرتفعة لأي اختبار نفسي.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Anastasi, A.: Psychological - Testing.

Cronbach, L. J.: Essentials of - Psychological Testing.

Lyman, H. B.: Test Scores and - What They Mean.

Rapaport, D. et al.: Diagnostic - Psychological Testing.

Historical : Watson, R. I.- Review of Objective Personality Testing: The Search for Objectivity.

Thorndike, R. L.: Personal- Selection Test and Measurement Methods.

Bass, B. M. and Berg, I. A.:- Objective Approaches to Personality Assessment.

❖ ❖ ❖

- ٢٩ -

إستبيان بيرنرويتر للشخصية
Bernreuter Personality Inventory

❖ ❖ ❖

تشتق بنوده من بنود إستبيانات للشخصية ستبقى لثيرستون Thurstone، وليرد Laird، وأولبورت Allport، ويبلغ عدد هذه البنود ٢٥ بنداً، تضمنتها ستة مقاييس للعصابية neuroticism، والاكتفاء الذاتي self-sufficiency، والانطواء - الانبساط introversion-extraversion، والسيطرة - الخنوع dominance- submission، والاجتماعية sociability، والثقة بالنفس self-confidence، يجاب عليها بأحد البدائل الثلاثة (نعم، لا، ؟). وقام بتعريب هذا الاختبار إلى العربية الدكتور عثمان نجاتي، وأعد له كراسة تعليمات وصحيفة تقرير ومفاتيح للتصحيح ومعايير محلية لطلاب المدارس الثانوية والجامعة والراشدين من الجنسين.

❖ ❖ ❖

- ٣٠ -

إستبيان بل للتوافق

Bell Adjustment Inventory

❖ ❖ ❖

له صورتان، الأولى للطلاب من الإعدادي حتى الجامعة، والثانية للراشدين، وضعهما هيو بل وضمنهما أسئلة لتقدير التوافق العائلي للمفحوص، من حيث رضاه عن حياته الأسرية وصحته وتوافقه الاجتماعي والوجداني، وما يستشعره من أوجه الخجل أو الانطواء، والخضوع، والاكتئاب، والعصبية، والاستجابة بالاضطرابات، ويجاب على الأسئلة بأحد البدائل الثلاثة (نعم، لا، ؟).

❖ ❖ ❖

- ٣١ -

إستبيان الشخصية لإيزينك

Eysenck Personality Inventory (EPI)

❖ ❖ ❖

يتكون هذا الاستبيان من صورتين متكافئتين، يعتمد تصميمها على مفهومي الانبساط والعصابية اللذين يكونان محور نظرية إيزينك في الشخصية، واللذين استخلصهما من بحوثه الكثيرة العاملية والتجريبية. وتتكون الصورتان من ٥٧ بنداً منها ٤٨ بنداً مناصفة تقيس الانبساط والعصابية، وتسعة بنود لقياس الكذب على طريقة المقياس L من مقاييس «إستبيان مينيسوتا المتعدد الأوجه للشخصية (Minnesota Multiphasic Personality Inventory)، وتقيس ميل الفحوص لتزييف الإجابات على البنود نحو الأفضل. ومن أمثلة بنود العصابية السؤال: «هل تضايقك مشاعر الذنب كثيراً؟». ومن أمثلة بنود الانبساط السؤال: «هل أنت ممتلئ حيوية؟». ومن أمثلة مقياس الكذب السؤال: «هل تؤجل

عمل اليوم إلى الغد؟». ويعتمد إيزينك لتقدير صدق الاختبار على تقديرات محكمين يقومون بتصنيف المفحوصين إلى فئتي الانبساطيين الانطوائيين extraverts-introverts أو العصابيين neurotics، وحساب الارتباط بين تقديراتهم، وأداء هؤلاء المفحوصين على الاستبيان.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Eysenck, H. J. and Eysenk, S. - B.: Manual of the Eysenck Personality Inventory.

❖ ❖ ❖

- ٣٢ -
إستبيان مينيسوتا المتعدد الاوجه للشخصية

Minnesota Multiphasic Personality Inventory

(M.M.P.I.)

❖ ❖ ❖

هذا الاستبيان أو الاختبار من أوسع إختبارات الشخصية إنتشاراً، ونشرت حوله وبسببه فيوض من الدراسات، واشتق منه العديد من الاختبارات. وينسب الاستبيان لجامعة مينيسوتا حيث كان يعمل هاثاوي Hathaway، وماكنلي McKinley، المؤلفان له، وقد استغرق وضعه منهما تجارب عليه إستمرت عشر سنوات من سنة ١٩٣٠ حتى سنة ١٩٤٠، ولم يتيسر نشره إلاّ سنة ١٩٤٢ فعمت شهرته الآفاق وطبق في كل مكان. ورغم أنه ألف أصلاً للتعرف إلى سمات الشخصية ذات العلاقة بالتداعيات المرضية النفسية، إلاّ أنّ استخدامه تجاوز السايكاتريين إلى الأخصائيين النفسيين، واختبار الأسوياء إلى جانب المرضى النفسيين. ويجري الاختبار به في الأساس على الأشخاص إبتداء من سن السادسة عشرة فما فوق، إلاّ أنه قد أثبت أيضاً جدارة في اختبار المراهقين دون السادسة عشرة.

واستبيان مينيسوتا له صورتان فردية وجمعية: والفردية هي الأصل

وتشتمل على ٥٥٠ بنداً، والبند عبارة عن جملة تقريرية من مثل «أشعر في معظم الأحيان بضعف عام»، والمطلوب من المفحوص أن يجيب بأحد بدائل ثلاثة هي: نعم، أو لا، أو لا أدري، المعبر عنها بعلامة الاستفهام؟. ويطبع كل بند على بطاقة. والصورة الجمعية على هيئة كتيب يشتمل على بنود الاختبار، بينما تكون الإجابة على كراسة مرفقة. وتصنف البنود بحيث تعكس إجاباتها عدداً من الموضوعات تبلغ الستة والعشرين موضوعاً، منها على سبيل المثال ما يتعلق بالحالة الصحية والحالة الوجدانية والأعراض المرضية النفسية والجسمية، ومظاهر السلوك العصابي والذهاني، والاتجاهات نحو الجنس والزواج والأسرة والدين والسياسة والعمل والمجتمع، ومظاهر السلوك الذكوري والأنثوي، وحالات الاكتئاب والانقباض والهلوسة والخوف المرضي، وغير ذلك. وتفضل الصورة الفردية الصورة الجمعية عند التطبيق لأغراض التشخيص الفردي بالنسبة للمستشفيات النفسية وكبار السن، وفي أغراض التوجيه مع الأشخاص من المستوى التعليمي أو الفكري المنخفض. وجاء تصميم الاستبيان بحيث تصنع كل مجموعة من العبارات مقياساً إكلينيكياً مستقلاً بلغ عددها تسعة مقاييس هي: «مقياس توهم المرض Hyponchondriasis Scale (HS) للكشف عن حالات القلق الزائد على الصحة والاهتمام المفرط بوظائف الجسم. والدرجة العالية على المقياس دليل على الإصابة بمرض عضوي حقيقي، إلاّ أنّ زيادة الدرجة فوق ٦٥ هي مؤشر يكشف عن إضطراب نفسي، وعبارات هذا المقياس من مثل: أصاب أحياناً بنوبات من الغثيان والقيء. وتعكس سمة توهم المرض قدراً من عدم النضج في مواجهة المشاكل، كما تعكس الفشل في الاستجابة بشكل مناسب للمواقف الاجتماعية. «ومقياس الاكتئاب Depression Scale (DS)»، ويرصد الأعراض الكلينيكية للاكتئاب، والدرجة العالية على هذا المقياس تكشف عن تدني الروح المعنوية، والاتجاه لليأس، والشعور الشديد بالإحباط، وسوداوية النظرة إلى الأمور. وعبارات هذا

المقياس من مثل: أشعر أحياناً بأني لا يرجى مني نفع البتة، أو: من المؤكد أني قليل الثقة بنفسي. «ومقياس الهستيريا Hysteria Scale (HY)»، ويقيس درجة تشابه سلوك المفحوص وسلوك المرضى بالهستيريا، والأشخاص الذين يحققون درجة عالية على المقياس معرضون لنوبات مفاجئة من الضعف والإغماء، أو حتى ما يشبه نوبات الصرع، وشكواهم عامة أو أكثر تخصيصاً، كأن يشكو الاضطرابات المعوية أو القلبية. والعبارات على المقياس من مثل: نومي مضطرب وقلق، أو يداي كثيراً ما تصيبهما رجفة كلما هممت بعمل. «ومقياس الانحراف السايكوباتي Psychopatic Deviation Scale (PD)»، ويقيس درجة تشابه سلوك المفحوص بسلوك السايكوباتيين أو المعتلين نفسياً، الذين يشكون من نقص الاستجابة الانفعالية العميقة، والإفادة من الخبرات التي يدخلونها، والاحتفال بالمعايير الاجتماعية، وبالرغم من ذلك يمكن أن تكون لهم صفات أخرى تجعلهم محبوبين، بحيث لا يكتشف أمرهم المحيطون بهم فيسهل التغرير بهم وخداعهم، ومن الجائز أن يصادمهم سلوكهم ببيئاتهم ويعرض سمعتهم للخطر. والعبارات على هذا المقياس من مثل: لا أحد يفهمني، أو أحس كما لو كنت أريد الهرب بنفسي والابتعاد عن عائلتي، أو هناك الكثير مما أعمله وأشعر إزاءه بالندم من بعد. «ومقياس الذكورة والأنوثة Masculinity-femininity Scale» يقيس اهتمامات الجنسين وتوجهات الفرد نحو أيهما، وتشير الدرجة العالية على المقياس إلى انحراف في نمط الاهتمامات في اتجاه الجنس الآخر، وعباراته من مثل: كثيراً ما أتمنى لو كنت بنتاً. «ومقياس الهذاء Paranoia Scale (Pa)»، يقيس الشكوك المرضية والشعور بالاضطهاد والحساسية المفرطة، وعباراته من مثل: يقول الناس عني أشياء وضيعة ومهينة، أو: أشعر منهم بالاضطهاد، أو أن: أحدهم يسيطر على أفكاري. «ومقياس الوهن النفسي أو السيكاثيتنيا Psychasthenia Scale ، ويقيس مدى التشابه في السلوك بين المفحوص والمرضى النفسيين الذين

يعانون المخاوف المرضية أو الذين لهم سلوك قهري، وقد يكون سلوكاً قهرياً صريحاً، كما في الإفراط في غسل اليدين، أو ضمنياً كما في الهروب من الأفكار المتسلطة، ويوصف الأشخاص الذين يحصلون على درجات عالية على المقياس بأنهم يعانون من القلق والحساسية ويشكون العاطفية والفردية، على عكس الذين يحصلون على درجات منخفضة، فقد وصفوا بالثقة في النفس والاتزان، وعبارات هذا المقياس من مثل: لم أعد أفهم بالدرجة التي كنت بها أفهم من قبل، أو: أجد صعوبة في التركيز. «ومقياس الفصام Schizophrenia Scale (Sc)»، ويقيس مدى التشابه بين استجابات المفحوص وسلوك المرضى بالفصام الذين يتصفون بالتفكير والسلوك شديد الإغراب، ويكشف المقياس أنّ الذي يحصل على ٧٥ درجة يشبه الفصاميين في سلوكهم، وعباراته من مثل: أشعر أني مختل، أو: أشعر بحساسية من بعض الموضوعات حتى ليشق علي أن أخوض فيها. و«مقياس الهوس الخفيف Hypomania Scale (Ma)»، ويقيس الخصائص المميزة للمرضى بالهوس الخفيف، وعباراته من مثل: قد يكون من السهل أن أخيف الناس مني وأفعل ذلك أحياناً من باب التسرية.

وقد استحدث استبيان مينيسوتا ظهور عدد كبير من مقاييس الشخصية تشتق منه حتى لقد تجاوز هذا العدد المائتين، وتوفر على تأليفها أخصائيون من غير الذين اشتركوا في عملية تصميم الاستبيان، ومنها مثلاً «مقياس الانطواء الاجتماعي Introversion Scale (Si)» الذي أضيف إلى المقاييس التسعة السابقة فصارت به عشر مقاييس، وإن لم يكن هذا المقياس الجديد مقياساً كلينيكياً، وذلك لأنه يقيس النزعة إلى الانطواء والعزوف عن الاتصال بالآخرين، وعباراته من مثل: يشق علي التحدث مع الناس الذين أتعرف بهم حديثاً، أو: سأكون سعيداً لو عشت وحيداً في بيت منعزل. وأيضاً «مقياس السيطرة Dominance Scale (Do)» لاختبار وجود الميول المسيطرة. «ومقياس آلام أسف الظهر Low Back-pain Scale (LPQ) لتحري الأسباب النفسية وراء آلام الظهر

التي ليست لها أسباب عضوية. و«مقياس التعصب Prejudice Scale (Pr)» لقياس العوامل النفسية المواكبة للتعصب ضد الأقليات. «ومقياس المسؤولية Responsibility Scale (Re) لقياس الإحساس بالمسؤولية الأدبية والاجتماعية. و«مقياس المكانة الاجتماعية والاقتصادية Socio-economic Status Scale (St) ويقيس العوامل النفسية المرتبطة بالانتماءات الطبقية - اجتماعياً واقتصادياً.

وصنفت بالإضافة إلى ذلك أربعة مقاييس للصدق على الاستبيان، والمقصود بالصدق هو صدق المفحوص في تعبيره عن نفسه، والدقة التي يلزم بها نفسه في الإجابة على عبارات المقياس، والدرجة على سؤالها question score هي الدرجة على علامة الاستفهام؟. و«مقياس الكذب Lie Score (L)»، ويكشف مدى تعمد المفحوص الكذب على اختبارات الاستبيان، وتزييفه للدرجة التي يحصل عليها باختياره للإجابات التي تضفي عليه أفضل صورة إجتماعية. و«مقياس الصدق Validity Score (F)» وهو مقياس للمراجعة لكل الإجابات على الاختبار. و«مقياس التصحيح Correction Score (K)»، وتشير الدرجة المرتفعة عليه إلى استجابة دفاعية لتحريف الدرجة ليبدو المفحوص في صورة أفضل، بينما تشير الدرجة المنخفضة عليه إلى إفراطه في نقد ذاته حتى ليبدو في صورة أقل.

ولا تستخدم الدرجات على الاختبارات المنفصلة في استبيان مينيسوتا وإنما للدرجة الكلية التي تكشف عنها الصفحة النفسية للاستبيان. وأعد بعض الباحثين أكثر من أطلس للاستبيان للاستخدام الكلينيكي تعرض فيه أنماطاً من الصفحات النفسية المختلفة. والاتجاه الآن للاستغناء عن التصنيفات القديمة للاضطرابات النفسية كتصنيف كريبلين Kraepelin (١٨٥٦-١٩٢٦)، واستبدالها بالصفحات النفسي profiles. ويتضمن أطلس هاثاواي Hathaway، وميل :Meehl «للاستعمال الكلينيكي لاستبيان مينيسوتا المتعدد الأوجه للشخصية Atlas for the Clinical Use of the MMPI، صفحات نفسية موثقة،

وتواريخ حياة مختصرة، لعدد ٩٦٨ مريضاً، رتبت بحسب تشابه الأنماط، وتعتمد تفسيرات الصحائف النفسية على هذا التاريخ المعروض. ويوجه النقد للاستبيان على أساس أنّ التصنيفات السايكاترية القديمة ما تزال مستخدمة فيه وإن تغيرت العناوين المدرجة تحتها، وأنه لم يقنن التقنين الكافي من حيث أنّ اختباره كان على عينة تمثل مدينة مينابوليس من مدن أمريكا ولا تمثيل السكان ككل، فضلاً عن أنّ استخدامه في غير الولايات المتحدة محل شك كبير.

❖ ❖ ❖

- ٣٣ -
إستبيانات جيلفورد العاملية
Guilfprd's Factorial Inventories

❖ ❖ ❖

هي ثلاثة استبيانات أو مقاييس للشخصية تشتمل على ٥١١ سؤالاً يجاب عليها بـ «نعم» أو «لا» أو «لا أدري» التي تمثلها علامة إستفهام. والاستبيان عبارة عن قائمة لمجموعة من الأسئلة مطلوب الإجابة عليها بنعم، أو لا، أو بعلامة استفهام تعني لا أدري. والهدف من الاستبيانات الثلاثة عند جيلفورد إستخراج درجات للعوامل المستقلة أو السمات الأولية للشخصية، وعددها في هذه الاستبيانات ثلاث وعشرون سمة مزاجية ينفرد كل استبيان بعدد منها، وقد يطلق على الاستبيان إسم يتكون من الحروف الأولى لهذه السمات، فمثلاً الاستبيان الأول هو استبيان العوامل Inventory of Factors STDCR (S, T, D, C, R)، حيث S تمثل العامل الاجتماعي من social، من المتقابلين الاجتماعيين: الانطواء ضد الانبساط social introversion-extraversion؛ و T تمثل التفكير thinking الانطوائي ضد الانبساطي introversion-extraversion thinking؛ و D تمثل عامل الاكتئاب depression، وعدم السعادة، والتشاؤم depression, unhappiness, pessimism؛ و C من cycloid، وتمثل التقلب الوجداني cycloid disposition وعدم الثبات

الانفعالي emotional instability؛ و R تمثل الابتهاج والانبساط rupture، والميل لأن نترك أنفسنا للحظ Lucky disposition, rythymia, carefreeness, happy-go.

والاستبيان الثاني هو «استبيان العوامل G, A, M, I, N لجيلفورد ومارتن Guilford-Martin Inventory of Factors – (GAMIN)، والعوامل التي يقيسها هي: العامل G أي النشاط العام general activity؛ والعامل A أي السيطرة ضد الخضوع ascendance vs submission؛ والعامل M أي الذكورة أو المبادأة والإيجابية ضد الأنوثة أو السلبية masculinity vs femininity؛ والعامل I أي الثقة كمقابل لمشاعر النقص confidence vs inferiority feelings؛ والعامل N أي العصبية ضد رباطة الجأش والهدوء composure and calmness vs nerveousness.

والاستبيان الثالث هو «استبيان الأفراد لجيلفورد ومارتن (Guilford-Martin Personnel Inventory)، ويقيس الموضوعية ضد الذاتية أو فرط الحساسية objectivity vs subjectivity or hypersensitivity، والظُرف ضد العدوانية المعممة والميال للقتال agreeableness vs generalized hostility and belligerence، والتعاون أو التسامح ضد الميل لتلمس الأخطاء cooperativeness or tolerance vs fault-finding disposition.

ويتكون الاستبيان الأول من ١٧٥ سؤالاً، والثاني من ١٧٦ سؤالاً، والثالث من ١٥٠ سؤالاً.

❖ ❖ ❖

– ٣٤ –
إستخبار عوامل الشخصية الستة عشر
Sixteen Personality Factor Questionnaire

❖ ❖ ❖

وضعه كاتل Cattell وآخرون منذ سنة ١٩٤٩ واستمر العمل فيه على امتداد سنوات، بهدف قياس أبعاد وسمات الشخصية التي تقف خلف أشكال السلوك

الظاهر من الأنماط العاملية لتقديرات الشخصية وبياناتها على الاستخبارات. وقد اختار كاتل لاستخباره أفضل البنود على اختباراته وسجلاته وتقديراته للأفراد والتي يمكن أن تقيس هذه السمات، والتي يوجزها في ستة عشر عاملاً في التحليلات العاملية المختلفة التي أجراها. وتغطي بنوده المرحلة العمرية من ١٦ حتى ٨٠ سنة فأكثر، ويمكن الحصول على درجة لكل عامل. والعوامل التي استخرجها هي: الانطلاق affectothymia مقابل الانغلاق؛ والذكاء العام general intelligence مقابل الغباء أو الضعف العقلي؛ والثبات الانفعالي emotional stability مقابل المراوحة وتقلب المزاج؛ والسيطرة والتسيد dominance مقابل الخضوع والاتباع؛ والانشراح surgency مقابل الانقباض؛ وقوة الأنا الأعلى super-ego strength مقابل ضعف المعايير الأخلاقية؛ والمغامرة adventurousness مقابل الدعة والخور وثبوط الهمة؛ ورهافة الحس protected emotional sensitivity ضد الجلافة وجمود الحس؛ والتشكك والارتياب pretension ضد التقبل؛ والذاتية autia ضد الانفتاح على الناس؛ والحكمة العملية sophistication ضد السذاجة والبساطة؛ والاستهداف للذنب guilt-proneness ضد الثقة بالنفس؛ والتطرف radicalism ضد المحافظة؛ والاكتفاء الذاتي self-sufficiency ضد الافتقار الذاتي؛ وقوة إعتبار الذات strength of self-sentiment ضد عنف إعتبار الذات؛ وقوة الفطرة واندفاعها lithergic tension ضد عنفها وتداعيها.

والعبارات في الاستخبار من مثل «في اتصالاتي الاجتماعية بالآخرين: أعبر عن انفعالاتي بسرعة كبيرة، أو بين بين، أو أحتفظ بعواطفي لنفسي». ويؤشر المفحوص على الإجابة التي يفضلها. وللاستخبار صور أخرى للمراحل العمرية الأدنى، هي: «إستخبار الشخصية للمدرسة الثانوية High-School Personality Questionnaire (HSPQ) ويغطي المرحلة من ١٢ إلى ١٨ سنة، و«استخبار الشخصية للأطفال Children's Personality Questionnaire (CPQ) ويغطي المرحلة من ٦ إلى ٨

سنوات. وكذلك نشر كاتل ومساعدوه إستخبارات أخرى تغطي مجالات محددة من الشخصية مثل العصابية، والقلق، والانبساط.

❖ ❖ ❖

- ٣٥ -
بطارية الاستعدادات العامة
General Aptitude Test Battery (GATB)

❖ ❖ ❖

تستخدم لأغراض التوجيه المهني، وتطبق على نطاق واسع منذ سنة ١٩٤٧، بعد دراسات مستفيضة عليها وتقنينها على أعداد ضخمة من طالبي الوظائف والتأهيل المهني. والبطارية مصممة أصلاً للأفراد في مستوى التعليم الإعدادي، وتشتق منها عدة بطاريات أحدث تقيس المهن المتجانسة وفق متطلبات كل منها، ووضعت لها صور غير لفظية، وتتكون الصورة النهائية من البطارية اللفظية من ١٢ إختباراً، تقيس الذكاء باختبار للمفردات، وللحساب، ولإدراك الأماكن؛ والاستعداد اللفظي verbal aptitude، باختبار المفردات المتشابهة والمتقابلة؛ والاستعداد العددي numerical aptitude، باختبار حسابي؛ والإدراك المكاني spatial aptitude، باختبار إدراك للأشياء ثلاثية الأبعاد؛ وإدراك الشكل form perception، باختبار مطابقة العدد tools من صورها، واختبار مطابقة للأشكال الهندسية؛ والإدراك الكتابي clerical perception، باختبار مطابقة بين الأسماء؛ والتآزر الحركي motor coordination، باختبار ورقة وقلم عادي، بوضع علامات بالقلم داخل مربعات بشكل محدد؛ ومهارة الأصابع finger dexterity، باختبار تجميع وتفكيك لعدد من الصواميل والورد (جمع صامولة ووردة)؛ والمهارة اليدوية manual dexterity، باختبار لوحة الأوتاد pegboard، بنقل وتثبيت وقلب الأوتاد الصغيرة للوحة في ثقوبها.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Cronbach, L. J.: Essentials of - Psychological Testing.

Dvorak, B. J.: The General - Aptitude Test Battery.

❖ ❖ ❖

- ٣٦ -
التصنيف ق
Q Sorting

❖ ❖ ❖

يقيس هذا الاختبار السمات والاتجاهات ونواحي الشخصية الأخرى بطريقة مختلفة عن بقية طرق القياس النفسي، وذلك أنّ المفحوص يُعطى مثلاً عدداً من البطاقات كتب على كل منها سمة أو إتجاه، ويُطلب منه أن يصنفها في مدرج، موزعة توزيعاً محدداً على عدد من الأكوام، بحيث تكون البطاقات التي تتضمن السمات التي يرى أنها تنطبق عليه جداً في أقصى طرف، والبطاقات التي تتضمن السمات التي يرى أنها لا تنطبق عليه البتة في أقصى الطرف الآخر، ثم بين هذين الطرفين تكوم البطاقات في الأكوام المحددة بالعدد المطلوب، بحيث يأتي توزيعها من الأكثر تفضيلاً نزولاً إلى الوسط، ومن الأقل تفضيلاً نزولاً إلى الوسط أيضاً. ومن شأن هذا التوزيع أن يكشف للمفحوص نفسه، عن نفسه، بنفسه، ويتسنى له به أن يقارن نفسه بنفسه، وليس بأفراد آخرين، وأن يتعرف إلى نواحي القوة فيه ونواحي الضعف، وما بين ذلك. وقد يستخدم هذا الاختبار ليكشف للمفحوص أو للمعالج النفسي ما يراه المفحوص في غيره من المحيطين به، كأمه، أو كأبيه، أو كزوجته. وكذلك قد يكشف عن نفسه في مواقف مختلفة، كالعمل مثلاً أو البيت، وما يظن أنّ الآخرين يرونه فيه، وما يحب أن يكونه. وقد يستخدم الاختبار عدة مرات على المفحوص خلال مرحلة العلاج النفسي ليكشف عن التغيرات في مفهوم الذات نتيجة التقدم في العلاج.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Stephenson, W.: The Study of Behavior.

❖ ❖ ❖

- ٣٧ -
تمايز المعاني
Semantic Differential

❖ ❖ ❖

طريقة من طرق القياس النفسي ذهب إليها أوزجود Osgood (١٩٥٢)، وهوفستاتر Hofstatter (١٩٥٧)، وسوسي Suci، وتانينباوم Tannenbaum (١٩٥٧)، وتستخدم في مجال سيكولوجية المعاني أصلاً، ولكن تبين إمكان استخدامها في تقويم الشخصية وقياس الاتجاهات والعواطف وما إليهما. والمعنى الذي يقصد إليه قد يكون المعنى الدلالي، فالكتاب معناه معروف وينصرف إلى شيء بالذات، ويمكن أن يقصد بالمعنى مفهومه الضمني، من حيث أنّ بعض المعاني قد تكون أقرب إلينا ونستخدمها أكثر، ونعرب عن ميولنا إليها. وقد يستدعي المعنى مستدعيات له من مثل ما تستدعى بطريقة تداعي المعاني المعروفة، ومن ثم فإنّ اختبار تمايز المعاني يفيد في قياس الاتجاهات من هذه الزاوية، والأساس الذي يقوم عليه هذا الاختبار: أنّ المعاني يتم التعبير عنها غالباً، بصفات تكشف عن مظاهرها المختلفة وانفعالات الأفراد تجاهها، ومعظم الصفات لها أضداد، فالطويل ضده القصير، وما ليس له ضد قد نصنع العكس به ببوادئ من مثل «لا» كقولنا أخلاقي ولاأخلاقي، أو «غير» كقولنا صالح وغير صالح، أو «عديم» كقولنا له لون وعديم اللون. وتصلح الصفات وأضدادها لتكون مقياساً للاتجاهات ولتقدير الأشياء. وينصرف تمايز المعاني إلى ثلاث نواح، فناحية منها تقويمية evaluative، من حيث أنّ الشيء يمكن أن نقضي فيه برأي فنصفه بأنه مفيد أو غير مفيد، قيم أو عديم القيمة، نظيف أو قذر، إلخ؛ وناحية تخص فعاليته، فقد نصفه بأنه فعال أو غير

فعال، إيجابي أو سلبي، قوي أو ضعيف، إلخ؛ وناحية تتناول وصف نشاطه activity، فهو سريع أو بطيء، ذكي أو غبي، إلخ. ويبرز عامل التقويم إحصائياً على العاملين الآخرين. وقد تظهر عوامل أخرى بخلاف هذه العوامل الثلاثة، مثل عامل المألوفية familiarity، حيث يمكن أن نصف الشيء بأنه عادي او غير عادي، بسيط أو معقد، مألوف أو غير مألوف، إلخ. وتتوقف المعاني على المجال الذي نقيس فيه الصفة، فمثلاً صفة الخشونة لو وصفنا بها جنس الإناث لكان لها معنى سيئ، في حين أن وصفنا لجنس الذكور بها يحمل معنى حسناً.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Suci and Tannenbaum: The Measurement of Meaning. –

Hofstatter: Psychology. –

Osgood: The Nature and Measurement of Meaning. –

❖ ❖ ❖

– ٣٨ –

سجل المفاضلات لكودر

Kuder Preference Record

(K.P.R.)

❖ ❖ ❖

يجيء تصميم هذا السجل أو الاختبار زمنياً بعد «صحيفة أو إختبار الميول لسترونج (Strong Vocational Interest Blank)، ويحاول به مؤلفه كودر أن يتحاشى سلبيات إختبار ستورنج، لاستحالة تحقيق ما كان سترونج يرمي إليه من تغطية كل المهن، فقد قضى خمساً وعشرين سنة ليغطي ستين مهنة إضافية، ولنا أن نتصور ما يمكن أن تستلزمه تغطية آلاف المهن الأخرى من وقت وجهد، فضلاً عن أنّ مقاييس سترونج ترتبط إرتباطاً عالياً بالمقاييس الأخرى، مما لا يجعل هناك فائدة من الحصول على الدرجات نفسها في أكثر من مقياس، ومن ثم فقد توخى كودر أن

تأتي مقاييسه غير مرتبطة بأية مقاييس أخرى قبله، وقسم لذلك بنود المقاييس إلى مجموعات، ترتبط كل مجموعة داخلياً، وليس ثمة ارتباط بين المجموعات نفسها. ويعتمد هذا التقسيم على تحليل البنود بحيث يأتي مضمونها منطقياً، وهو اتجاه عقلي عند كودر يتميز به عن الاتجاه التجريبي عند سترونج.

ومقاييس كودر ثلاثية، تشمل «التفضيل التخصصي K.P.R. (vocational»، «والتفضيل المهني K.P.R. occupational»، «والتفضيل الشخصي K.P.R. (personal)»، ويبلغ عدد بنود إختبار كودر التخصصي ١٦٠ بنداً، والاختيار المتبع فيه من نوع الاختيار المقيد forced choice بين ثلاثة بدائل يرتبها المفحوص حسب تفضيله لها، وما يحبه منها أكثر من غيره، وما يحبه منها أقل من غيره، كأن يفاضل بين (أ) أن يزور معرضاً فنياً، (ب) أن يزور مكتبة، (جـ) أن يزور متحفاً، أو أن يختار بين (أ) هواية جمع التوقيعات. (ب) هواية جمع النقود. (جـ) هواية جمع الفراشات. ونلاحظ أنّ المفاضلة تكون دائماً بين مجالات مختلفة، فالمعرض الفني، الاهتمامات المرتبطة به فنية، في حين أنّ المكتبة، الاهتمامات المتعلقة بها أدبية، بينما المتحف، إهتماماته تاريخية. وأيضاً فإنّ طريقة كودر تختلف عن طريقة سترونج، حيث يعتمد الأخير في الكشف عن الميول إلى مقياس يختار به المفحوص بين «ما يحب»، «وما لا يحب»، «وما لا يهتم به». والميول التي يقيسها إختبار كودر عشرة هي: الميل للأنشطة التي تستلزم التواجد خلوياً، أي خارج البيت outdoor interest، كأن نميل لامتهان الزراعة؛ والميل الميكانيكي mechanical i.، ويتمثل في إيثار الأعمال الميكانيكية؛ والميل الحسابي computational i.، وأصحابه يفضلون التعامل مع الأرقام والجمع والطرح، إلخ؛ والميل العلمي scientific i. وصاحبه يؤثر الاشتغال بالعلوم، والتجارب فيها، والكشف عن الوقائع العلمية؛ والميل الأدبي literary i. ويتمثل في هواية الأدب والتأليف فيه؛ والميل الفني artistic i. كأن يمتهن التصوير، أو يهوى التمثيل؛ والميل الموسيقي musical i. بالانشغال بالقراءة

فيها، أو التأليف لها، أو الشغف بسماعها، والميل الإقناعي persuasive i.، ويتمثل في امتهان ما يعتمد على الإقناع، مثل مجالات البيع والشراء والسمسرة؛ والميل الكتابي clerical i.، وأصحابه يفضلون التعامل مع الورق على التعامل مع الناس، ويمتهنون السكرتارية أو الأعمال الكتابية التي تستلزم الرصد والتسجيل؛ والميل للخدمة الاجتماعية social-service i.، وصاحبه يميل إلى التعامل مع الناس والتوفر على خدمتهم كالطبيب ورجل الدين.

ويعطي كودر البند الذي يقع عليه التفضيل الأول درجتين، بينما يحصل التفضيل الثاني على درجة واحدة، وأما البند الذي يأتي في النهاية فتقديره صفر. وبعد استخراج الدرجات الخام لكل ميل ينبغي التثبت من صدق الإجابة عن طريق كتاب التعليمات والمفاتيح الخاصة بالاختبار، ثم تترجم الدرجات الخام إلى المقابل المئوي، ويرسم بروفيل أو مخطط عام لميول المفحوص.

واختبار التفضيلات المهنية عند كودر هو اشتقاق أحدث من إختبار التفضيلات التخصصية، ويمكن منه الحصول على درجات تشير إلى مهن مختلفة من عدد ٣٨ مهنة تقيسها بنود الاختبار، كمهن الزراعة، والصحافة، والطب، والهندسة، إلخ. وأما اختبار التفضيلات الشخصية، فمع أنّ تصميمه كان قبل تصميم إختبار التفضيلات المهنية، إلاّ أنه لا يستخدم على نطاق واسع، ويعامل كاختبار تجريبي ويقيس من خصائص السلوك خمسة خصائص يقول كودر إنها سمات traits، مستخدماً إسم السمة للدلالة على خصائص غير مألوفة، كسمات من نوع ما تكشف عنه مقاييس السمات، وهي السمة الاجتماعية social t.، والتفضيل فيها ينصرف إلى اختيار التعامل مع الناس والانخراط معهم في أنشطة جماعية، ومن المتسمين بهذه السمة أشخاص مثل المهندس ومندوب البيع، والسمة العملية practical t.، والمتصفون بهذه السمة يفضلون المهن التي تتطلب إستقراراً، كمهنة الفلاحة أو مهنة التدريس، والسمة النظرية theoretical t. ومن دأب من يتصفون بها أن يؤثروا من المهن ما يقوم

على التفكير والتنظير، كمهنة أستاذ الجامعة، وسمة القبول agreeableness t.، بمعنى أن يكون الشخص مقبولاً لدى الناس ومحبوباً منهم، ومن يتصف بها يؤثر عدم الدخول في معارك وخصومات مع الناس، ويتجنب التصارع معهم، وذلك مطلوب المهن من أمثال المحاسبة أو التدريس الجامعي أو الطب، وسمة التسيُّد dominance t.، بمعنى أن يتصف الشخص بحب التسيد والقيادة وتصدر المجالس، وهو ما تتطلبه مهن كالمحاماة وحفظ الأمن.

وأما «مسح كودر للاهتمامات المهنية Kuder Occupational Interest Survey (K.O.I.S)»، فقد جاء تصميمه واقعياً أكثر من إختباراته الأخرى، وتحسب الميول المهنية به كمعامل ارتباط بين درجة المفحوص على مقياس مهني ونمط إهتمامات مجموعة مهنية معينة. وتستخدم في هذه الصورة أنماط مهنية لسبع وسبعين مهنة مختلفة، بالإضافة إلى ٢٩ نمطاً مختلف من الميول الدراسية مشتقة من مجموعة عاملة من الذكور، كما أنّ هناك مقاييس أخرى للإناث على مجموعات محكية من ٢٩ مهنة أنثوية، وعدد ١٩ إهتماماً دراسياً أنثوياً.

❖ ❖ ❖

- ٣٩ -
صحيفة الميول المهنية لسترونج
Strong Vocational Interest Blank
(S. V. I. B)

❖ ❖ ❖

هي صحيفة إختبار، الهدف الأساسي منه هو الكشف عن الميول والاهتمامات، بالتنبيه إلى ما يحبه الفرد وما لا يحبه، وما يقف منه موقفاً محايداً من مختلف الأنشطة والموضوعات، وأنماط الأشخاص الذين قد يلتقي بهم في حياته اليومية. وقد صمم الاختبار ليناسب الأفراد ممن ينتمون لمهن معينة أو يفضلونها على غيرها، أو قد تضطرهم ظروفهم ليختاروا بين عدد من المهن، أقربها إلى نفوسهم، ليمارسوها أو يتعلموا أسرارها.

ويفيد اختبار سترونج كثيراً في التوجيه المهني والتربوي، ويساعد الأفراد على أن يختاروا دراساتهم أو مهنهم. واختبار سترونج يعد من الاختبارات الرائدة في مجاله، ويقوم على دعوى أنّ الناس الذين يعملون في المهن المتماثلة يكونون أقرب إلى بعضهم البعض من حيث الميول والاهتمامات عن غيرهم ممن ينتمون أو لا يمتهنون هذه المهن، وأنّ هذه المماثلة أو المغايرة لا تقتصر على الأمور المتعلقة بالمهنة ولكنها تشمل كذلك أنواع الدراسات والأنشطة الأخرى العملية أو العقلية أو الرياضية، بل وحتى الاجتماعية والهوايات والكتب، وغير ذلك من الممارسات في الحياة، ومن ثم كان من المنطقي أن ترتب اهتمامات أي شخص بحسب أفضلياته، وفي ضوء درجة إتفاقها مع اهتمامات وتفضيلات مجموعة محكية من الأفراد الناجحين في المهن نفسها. ويميز سترونج بين المهن المختلفة، بدعوى أنّ بعضها تميل إليه النساء أكثر، كالصحافة، والبعض يميل إليه الرجال أكثر، كالهندسة، وجعل سترونج عدد المهن الرجولية ٤٨ بينما النسائية عددها ٢٨ مهنة.

و« اختبار أو استبيان سترونج كامبل للاهتمامات Strong-Campbell Interest Inventory (S.C.I.I.) » صورة أحدث صدرت سنة ١٩٧٤ جمع فيه بين «اختبار سترونج للنساء VIB for Women» و«اختبار سترونج للرجال (VIB for Men)، ويتضمن الاختبار ٤٠٠ بند مصنفة في ثماني مجموعات، في الخمسة الأولى يختار المفحوص بين ثلاثة بدائل هي «لا أحب» و «أحب» و «لا أهتم» وتدور موضوعاتها حول المهن المختلفة، والمواد الدراسية، والأنشطة المسلية، وأنشطة أخرى متفرقة كإلقاء الخطب مثلاً، أو إصلاح الساعات، إلخ، وأنماط من الناس. وفي المجموعات الثلاث المتبقية يطلب من المفحوص ترتيب بعض الأنشطة بحسب أفضلياتها، والاختبار بين بديلين، مثل هل تفضل التعامل مع الأشياء أو التعامل مع الناس، والتأشير على بعض العبارات التي قد يرى أنها تصف بعضاً من نواحي شخصيته. وتتضمن صورة إختبار سترونج لسنة

١٩٧٤ مقاييس تغطي ١٢٤ مهنة، منها ٦٧ تخص الرجال، و٥٧ تخص النساء. ويكشف الاختبار فيما يكشف عن إهتمامات المفحوص مقارنة باهتمامات صنف الرجال بعامة، أو صنف النساء بعامة. وبالإضافة إلى أنّ اختبار سترونج هو في الأصل إختبار للميول المهنية، فإنّ من الممكن تعديل مفاتيحه ليقيس مسائل أخرى غير مهنية، ومن ذلك درجة نضج الميول interest maturity، فالمتخصص يتميز ضمن ما يتميز به بأنّ ميوله قد بلغت مستوى عالياً من النضج يرشحه للدراسات الأرفع والأدق. ولقد تبين أن نضج الميول يتماشى مع السن، وأنه بين سن ١٥ و٢٥ يكون التقدم في النضج أسرع، والتغيير في الميول أكثر، وببلوغ الخامسة والعشرين نصل إلى هضبة نضج الميول، فإذا تجاوز المفحوص هذه السن فالتغييرات تكون طفيفة، وخاصة كلما تقدمت به السن، ومن ثم فإنّ حصول المفحوص على درجة منخفضة في هذا الاختبار قد تعني أنه ما يزال غضاً قليل الخبرة، وننتظر له الكثير من التغييرات في الميول، فإذا حصل على درجة عالية فقد يعني ذلك أنّ ميوله قد استقرت نسبياً، وأننا لا نتوقع لها من بعد إلاّ أقل التغيير.

وتقيس صورة الاختبار المخصصة لبعد الذكورة والأنوثة ميول المفحوص من حيث أنّ الاستجابات ترصد فرقاً بين الذكور والإناث، وقد تدل الدرجة التي يحققها المفحوص على هذا الاختبار أنّ ميوله أقرب إلى الذكور أو إلى الإناث، ويفيد ذلك في مقارنة درجته في هذا الاختبار بدرجته في اختبار الميول المهنية، لبيان ما إذا كانت ميوله كما يرصدها هذا الاختبار تتفق مع اختياراته لمهن ذكورية أو أنثوية. وإذا كانت درجاته عالية على مقياس المهن الذكورية، وكان مفتاح الذكورة - الأنوثة يشير إلى ميول ذكورية - كان ذلك مؤكداً لصدق درجات الميول المهنية.

وبالإضافة إلى ما سبق فإنّ بعض صور إختبار سترونج قد يستهدف رصد الفروق في الاهتمامات والميول، بين العمال والمهرة والفنيين، والعمال غير المهرة وغير الفنيين، باعتبار أنّ العامل الماهر هو عامل فني، فإذا حقق العامل

درجة منخفضة على مقياس المستوى المهني، فإنّ ذلك يكشف أنه لا يصلح للأعمال التي تحتاج فنية عالية، وأنه أدعى أن يوكل إليه أعمال أقل مهارة. وبالمثل فإنّ المقياس الموضوع لرصد إستجابات الطلبة في المرحلة الثانوية أو الجامعية، ومقارنتها بتحصيلاتهم الدراسية، قد يكشف عن إتفاق بين انخفاض أو إرتفاع الدرجات هنا وهناك، وكذلك إتفاق الميول العلمية والعقلية في مقابل الميول العملية والتجارية.

ويفيد إختبار الميول الطلاب كثيراً من حيث توجيههم لأنسب الدراسات التي تتفق وميولهم، كما يفيد في التوجيه المهني، بأن يكشف للأفراد عن المهن التي تتفق معها ميولهم. واختبار سترونج، قضى فيه صاحبه نحواً من خمس وعشرين سنة يجمع لحقائقه التجريبية، ليثبت نظريته التي استطاع من خلالها أن يدلل على أنّ الأفراد مع ثبات العوامل الأخرى كالقدرات، يكونون أسعد حالاً وأكثر نجاحاً لو أنها اختاروا لدراساتهم ومهنهم ما يتناسب مع ميولهم التي كشف عنها الاختبار! ولا يبين إختبار سترونج أي شيء عن القدرة، وليس هذا الاختبار مجاله القدرات، فهذه مجالها إختبارات القدرات والذكاء، فبينما قد يكشف اختبار سترونج أنّ أحد الطلبة له من الميول ما يشبه ميول المهندسين الناجحين، فإنّ اختبار القدرات قد يبين عن ضعف مستواه الرياضي، ومن ثم يكون الأوفق له أن يبحث لنفسه عن دراسة أخرى بخلاف الهندسة، وكذلك فإنّ اختبار القدرات لو أظهر له أنّ لديه القدرة والذكاء للعمل بالهندسة، ثم كشف اختبار الميول المهنية عن درجة عالية في الميل مع المهندسين الناجحين، فإنّ ذلك أدعى له أن يختار لنفسه دراسة الهندسة وامتهانها.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Strong, E. K. and Campbell, – D.P.: Manual for Strong Vocational Interest Blanks.

❖ ❖ ❖

الآخر.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Edwards, A. L.: Edwards – Personal Preference Schedule.

❖ ❖ ❖

– ٤٠ –

قائمة إدواردز للتفضيلات الشخصية

Edwards Personal Preference Schedule

(E.P.P.S.)

❖ ❖ ❖

من الاختبارات الباكرة التي صممت لقياس الاحتياجات كما تعرضها نظرية موراي Murray في الشخصية ضمن كتابه: Explorations in Personality، وعددها طبقاً لبنود الاختبار ١٥ حاجة، منها التحصيل، والاستعراض، والعدوان، والجنسية الغيرية.

ويقوم تقدير أهمية الحاجات على التقدير النسبي وليس على التقدير المطلق، قياساً إلى وضع الحاجة المفضلة بالنسبة لحاجات الفرد الأخرى، ولذلك فقد يحصل شخصان على درجتين متساويتين ولكنهما تعبران عن إحتياجات مختلفة القوة عند أحدهما عن الآخر.

– ٤١ –

قائمة مراجعة المشكلات لموني

Mooney Problem Checklist

❖ ❖ ❖

الهدف من القائمة التعرف على ما يعترض المفحوص من مشاكل يمكن أن تخدم أغراض التشخيص أو التوجيه، وتتناول القائمة مشاكل الصحة، والمال، والأسرة، والحب، والزواج، والجنس، والصداقة، والعمل، والمدرسة، وما يمكن أن يخص المستقبل.

وللقائمة عدد من الصور لمختلف المستويات من طلبة المدارس الإعدادية والثانوية والجامعة وغير هؤلاء من

الراشدين. واستخلصت بنود القائمة من التقارير المكتوبة لطلبة الثانوي ومختلف الأفراد تحت العلاج. وليس الهدف من القائمة الحصول على درجات للمجالات التي تقيسها، وإنما تقديم بيان بالمشاكل التي يمكن أن يعاني منها الفرد في أي من المجالات السابقة. والقائمة نوع من التقرير الذاتي self-report، يتواجه المفحوص بتوصيات مختصرة تتضمنها القائمة لمواقف ومشاكل، كثيراً ما تكون منغصة ومثيرة للقلق، والمطلوب منه أن يؤشر أمام تلك البنود التي يشعر أنها شبيهة بما يعاني.

❖ ❖ ❖

مراجع:
Dictionary of Behavior Science. – Wolman.

❖ ❖ ❖

– ٤٢ –
قوائم جيزيل الارتقائية

Gesell Development Schedules
(G.D.S.)

❖ ❖ ❖

هي قوائم إختبارية يقصد بها دراسة الارتقاء العقلي، فقد يطلب أحياناً التنبؤ عن ذكاء طفل رضيع، أو يتطلب الأمر في حالات تأخر الكلام أو الضعف العقلي قياس ذكاء الطفل من مرحلة مبكرة من نموه. ولعل أشهر الدراسات في هذا المجال هي التي قام بها جيزيل (١٨٨٠-١٩٦١) ومعاونوه في عيادة جامعة ييل الأمريكية لنمو الأطفال Yale Clinic of Child Development، وكان جيزيل قد أسسها سنة ١٩١١، وظل يديرها حتى سنة ١٩٤٨، وكانت هذه القوائم في الأصل دراسات طولية للتطور العادي في الارتقاء السلوكي للطفل بدأت سنة ١٩٢٧ حتى سنة ١٩٤٧، وتكونت العينة في البداية من ١٠٧ أطفال في الأعمال ٤ و٦ و٨ أسابيع، وأعيد الاختبار بعد ذلك كل أربعة أسابيع حتى سن ٥٦ أسبوعاً، ثم في سن ١٨ شهراً، ثم كل عام من سن سنتين إلى ست سنوات، وامتدت المتابعة عشر سنوات أخرى واستكملت

بدراسات أخرى، وكانت النتيجة هذه القوائم وتسمى أحياناً معايير جيزيل الارتقائية Gesell Development Norms، وأحياناً يقال مقاييس Scales بدلاً من معايير، وأحياناً يقال إختبارات جيزيل Gesell Tests. ونشرت هذه القوائم سنة ١٩٢٥ باعتبارها إختبارات إرتقائية عامة general development tests، ثم عدلت بعد ذلك وشارك في وضعها زميله أماترودا C.S. Amatruda سنة ١٩٤٧، وحفَّز نشرها آخرين أن يحذو حذو جيزيل، مثل هيتسر H. Hetzer، وبيهلر C. Buhler. وتحدد القوائم مستوى الارتقاء السلوكي في مجالات رئيسية هي: مجالات السلوك الحركي motor behavior: ويشمل ضبط حركات الجسم والتناسق الحركي الدقيق، ومن أمثلته المحافظة على توازن الرأس، والجلوس، والوقوف، والزحف، والمشي، ومحاولة الوصول إلى الأشياء، والإمساك بها، وتناولها؛ والسلوك التكيفي adaptive behavior: ويشمل كل وسائل الاتصال، مثل تعبيرات الوجه، والإيماء، وحركات الجسم، والجهر بالأصوات التي تسبق الكلام كالنحنحة وغيرها، ثم الكلام نفسه، ويتضمن كذلك فهم محاولات الآخرين للتواصل بالطفل؛ والسلوك الشخصي الاجتماعي personal-social behavior: ويشمل إستجابات الطفل الشخصية للمواقف التي يتحصل له منها التعلم، كمواقف التغذية، وضبط الإخراج، واللعب، وغير ذلك من المواقف التي يجبر فيها على التدريب، او التي يمارس فيها الابتسام، ويزيد بها الإحساس بالملكية، ويكون فيها مجابهة مع الآخرين، أو مع صورته في المرايا. ولا نحصل من هذه القوائم على درجة مركبة، ولكن على تقدير تقريبي للمستوى الارتقائي، بتعبيرات الشهور، لكل مجال من المجالات الأربعة التي يقيسها الاختبار، بمقارنة التقديرات على القائمة بتقديرات معيارية للارتقاء في الأسابيع ٤ و١٦ و ٢٨ و ٤٨، والشهور ١٢ و١٨ و٢٤ و٣٦ من عمر الطفل.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Gesell, A, and Amaturda, C. S.: –

Development Diagnosis.
Normal and Abnormal Child Development.
Gesell: The Mental Growth of - the Pre-School Child.
Gesell: The First Five Years of - life. A Guide to the Study of the Pre-School Child.
Gesell: The Child from Five to - Ten.

❖ ❖ ❖

- ٤٣ -
القياس الاجتماعي
Sociometry

❖ ❖ ❖

القياس الاجتماعي هو الاسم الشائع لاختبار العلاقات الاجتماعية sociometric test أو الاختبار السوسيومتري، وضعه مورينو Moreno سنة ١٩٥٣، لقياس بناء الجماعات من حيث ميول أفرادها لبعضهم البعض، واتجاهات إختياراتهم لبعضهم البعض، واتجاهات الرفض أو التنافر والتجاذب التي يمكن أن تكون بين الأفراد المعروفين لبعضهم البعض في الجماعة الواحدة. والتحليل السوسيومتري sociometric analysis هو استقراء دلالات هذه البيانات التي نحصل عليها من الاختبار السوسيومتري، وذلك برصدها في مصفوفة، وطرح مرات الرفض من مرات الاختيار. وقد تمثل البيانات بأسهم مستقيمة توضح رؤوسها إتجاه الاختيار أو الرفض، وقد تلون أسهم الاختيار باللون الأخضر، بينما تلون أسهم الرفض باللون الأحمر. والرسم البياني الاجتماعي sociogram المتحصل هو صورة للعلاقات النفسية الاجتماعية بين أفراد الجماعة. ومن أمثلة هذا الاختبار أن نسأل الأفراد، كلاً على حدة، وفي سرية، أن يختار أقرب الزملاء إلى نفسه، ليقوما معاً بنشاط علمي أو رياضي أو ترفيهي، أو قد يكون السؤال مجرد: من تختار ليجلس إلى جوارك؟ ومن الممكن للفرد أن يختار أكثر من زميل، على أن يرتبهم بحسب قربهم، وقد نطلب من كل فرد أن يذكر أسباب الاختيار أو الرفض. وعندما تتوفر

لنا نتائج عدة إختبارات لأكثر من محك، فقد يتسنى أن نتحصل على سورة بيانية profile، تكون صفحة للعلاقات الاجتماعية للجماعة لعدة أنشطة، كالنشاط العلمي، والنشاط الرياضي، والسياسي، إلخ. ومن الممكن أن نتعرف من خلالها على النجوم stars في الجماعة الذي يحصلون على أكبر قدر من الاختيارات the overchosen ، أو الذين يتمتعون بشعبية كبيرة popular leaders، أو الذين يعتبرون مراكز سلطة power figures في الجماعة، وهؤلاء هم الشخصيات القيادية الذين يمكن التأثير في الجماعة عن طريقهم. كما يمكن أن نتعرف من خلال هذه الرسوم البيانية الاجتماعية على الشخصيات المرفوضة the rejected، أو غير المختارين the unchosen، أو المعزولين the isolates، وهم الذين يحصلون على أكبر عدد من أصوات الرفض، أو الذين لا يختارهم أحد، وهم غير المتوافقين إجتماعياً، وينبغي التوجه إليهم بالعلاج لتصحيح وضعهم والعمل على إدماجهم في الجماعة. ومن الممكن أيضاً أن نتعرف على الأفراد الذين يتبادلون الرفض أو الاختيار mutual rejection أو mutual choice، وعلى الجماعات الفرعية sub-groups التي ينسجم أفرادها مع بعضهم أكثر منهم مع غيرهم. وقد نتبين من هذه الرسوم ما إذا كان أفراد الجنسين في الجماعة يتخالطون أو يتباعدون، أو ما إذا كانوا مندمجين أو يكونون جماعات فرعية.

وتفيد الدراسات السوسيومترية ذاتياً من حيث أنّ كل فرد يتعرف على مكانه في الجماعة وشعبيته بين أفرادها، وقد يقارن بين تقديره الذاتي لنفسه والصورة التي له عن نفسه، وبين هذه الصورة الجديدة التي تطالعه بها الدراسة السوسيومترية، والدرجة التي حصل عليها فيها، ولذلك دلالته من حيث مفهومه لذاته ومضمون شخصيته.

ولقد تبين من هذه الدراسات السوسيومترية أنّ بناء العلاقات الاجتماعية للجماعة يتأثر بخصائص شخصيات الأفراد، وأنه يختلف في مجال النشاط الاجتماعي عن مجال القيادة، الأمر الذي جعل البعض من العلماء يفرق

بين الشعبية الاجتماعية social popularity والقيادة الجماعية collective leadership، ومن ثم يفرق بين الجماعة الاجتماعية sociogroup والجماعة النفسية psychogroup، فاختيار الأشخاص بحسب الشعبية له مواصفاته الاجتماعية، بينما اختيارهم للقيادة له مواصفاته النفسية.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Lindzey, G. et al: Sociometric - Measurement. Handbook of Social Psychology. Vol. 1.

Moreno, J.: Who Shall - Survive?.

❖ ❖ ❖

- ٤٤ -
قياس جتمان
Guttman Scale

❖ ❖ ❖

صاحبه L. Guttman، وهو طريقة في القياس النفسي توصف بأنها طريقة تحليلية أو متدرجة تدرجاً بيانياً، فإذا كنا بصدد قياس أحد الاتجاهات النفسية أو السمات المزاجية فعلينا أن نراعي هذا المحك - محك جتمان - وهو أن نتأكد أولاً من أنّ ما نريد قياسه هو فعلاً إتجاه أو سمة واحدة، وليس جملة إتجاهات أو سمات تحتاج لأكثر من مقياس، فإذا تحصل هذا اليقين، فعلينا أن نعد المقياس بحيث تأتي بنوده متدرجة في الصعوبة، وتعني الإجابة الصحيحة على أي منها أنّ ما سبق هذا البند من بنود تكون الإجابات عليها صحيحة كذلك، ومعنى ذلك أنّ مستوى الصعوبة سيكون موحداً لكل الأفراد، وأنّ كل فرد يستطيع أن يقدم إجابات صحيحة لعدد من البنود إلى حد معين لا يستطيع أن يتجاوزه ويقابل مستوى الصعوبة الملائم له، وأنه من الممكن بعد ذلك ترتيب الأفراد بناء على الأساس السابق ترتيباً مسلسلاً من حيث مستوى صعوبة البنود، ومن ثم درجة الاتجاه عندهم. فمثلاً تعني الدرجة ١٧ على المقياس بالنسبة لأحد الأفراد أنه أجاب إجابة صحيحة على أول

١٧ بنداً، وأجاب إجابة خاطئة على بقية البنود، كما يكون للدرجة ١٧ المعنى نفسه بالنسبة لكل من حصل عليها، وهو أنهم جميعاً أجابوا إجابة صحيحة على السبعة عشر بنداً الأولى.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Wolam, B. B.: Dictionary of - Behavioral Science.

❖ ❖ ❖

- ٤٥ -
لوحات الأشكال
boards - Form

❖ ❖ ❖

هي لوحات خشبية كان سيجان Edouard Seguin (١٨٤٦) أول من استخدمها مع ضعاف العقول، ثم طورها جودارد Goddard (١٨١٥) كاختبار أدائي للذكاء. وباللوحة أماكن فارغة يمكن إدخال أشكال هندسية فيها، وهذه الأشكال عددها عشرة، هي الدائرة، والمربع، والمستطيل، ونصف الدائرة، ونجمة، وصليب، ومثلث، وشكل سداسي، وشكل بيضاوي، ومعين. وتشتهر اللوحة باسم لوحة أشكال سيجان Seguin fromboard. وتوضع اللوحة في الاختبار في وضع معين بينما الأشكال مختلطة ببعضها البعض في صندوق مستقل، وعلى المفحوص أن يقارن بين الشكل الفارغ في اللوحة والأشكال في الصندوق، ويختار من بينها ما يناسب الشكل الفارغ ويُدخل فيه، وأن يجري ذلك بأقصى سرعة ممكنة، وتعطى له ثلاث محاولات، ويحسب الزمن الذي يستغرقه بالكرونومتر، ويسجل ومن كل محاولة، ويؤخذ أقصر زمن، كما يحسب الزمن الكلي للمحاولات الثلاث مجتمعة، ثم تقابل هذه الأزمنة على جدول المعايير لاستخلاص العمر العقلي.

وقد صممت لوحات أخرى كما في «مقياس بنتنر وباترسون الأدائي (Pintner-Paterson Performance Scale)، حيث هناك لوحة الأشكال الخمسة five-figure board، وتتضمن خمسة أشكال

هندسية - مجزأة إلى قطعتين أو ثلاث، ويطلب من المفحوص تجميع الأجزاء لكل شكل وتثبيتها في مكانها من اللوحة، وتؤخذ الدرجة على الوقت والأخطاء، وكذلك لوحة الشكلين two-figure board، وتتكون من شكلين هندسيين الاول مجزأ إلى أربعة أجزاء، والثاني إلى خمسة، والمطلوب تجميع كل شكل في مكانه من اللوحة، وتحسب الدرجة على الزمن وعدد الحركات اللازمة للأداء. وهناك أيضاً لوحة التقديرات casuist board، وبها أربعة أماكن تتسع لأشكال موزعة على ١٢ قطعة، والمطلوب ملء الأماكن بالقطع المناسبة، وتحسب الدرجة على الزمن وعدد الأخطاء. والميزة الكبرى لاختبار لوحة الأشكال أنه يقيس الذكاء من سن ٣,٥ إلى سن ٢٠ سنة، إلاّ أنه من الواجب الاحتياط في ذلك، حيث أنّ الاختبار لا يصدق كمقياس للعامل العام إلاّ في سن أقل من عشرة في حالة الأطفال الأسوياء، ويمكن تطبيقه على أطفال أكبر في حالة المتخلفين عقلياً. وهو أيضاً إختبار يمكن تأديته بمفرده، كما يمكن إدراجه ضمن مقياس أدائي أكبر كاختبار فرعي مع إختبارات فرعية أخرى، كما في اختبار بنتنر وباترسون الأدائي.

❖ ❖ ❖

مراجع:

R. Meili: Formboards. In-Encyclopedia of Psychology. Search Press. Vol 1.

Seguin, E.: Traitement Moral.-Hygiène et Education des Idiots.

❖ ❖ ❖

- ٤٦ -
مسح المزاج لجيلفورد وزيمرمان
Guilford-Zimmerman Temperament Survey (G.Z.T.S.)

❖ ❖ ❖

هو استبيان للسمات المزاجية للشخصية، ينضاف إلى الاستبيانات الثلاثة التي سبق لجيلفورد تصميمها وحده أو بالاشتراك مع مارتن (راجع فيما سبق)، وهي: إستبيان عوامل الشخصية S T D C R، واستبيان عوامل الشخصية G A M I N، واستبيان الأفراد. وهذا الاستبيان الجديد صورة حديثة مشتقة من الاستبيانات الثلاثة السابقة يختصر فيها جيلفورد وزيمرمان بنود الاستبيانات السابقة، ويقللان الارتباطات العالية بين بعضها، وعلى ذلك فقد احتوى هذا الاستبيان أو المسح على ٣٠٠ بند بدلاً من ٥٥١ بنداً هي عدد بنود الاستبيانات الثلاثة، وكذلك فإنّ السمات التي يقيسها عشر سمات بدلاً من ثلاث عشرة سمة. والبنود في هذا الاستبيان كما في الاستبيانات السابقة مصاغة على هيئة عبارات تقريرية، كما أنّ جميع العوامل عبارة عن متقابلات تقيس متصلاً من السمات الإيجابية التي يحمل إسمها العامل إلى السمات السلبية المناقضة لاسم العامل، وكانت تسمية العوامل بأعلى التشبعات عليها. وهذه السمات هي: السمة G أو general activity، أي النشاط العام، ومن ذلك: العجلة، والسرعة، والحيوية، والحبور، والإنتاجية، والكفاءة، عكس: البطء، والاستسلام للتعب، وقلة الحيلة، والعجز، وعدم الكفاءة؛ والسمة R أو restraint، أي الضبط، ومنه جدية التفكير والقصد فيه، والمثابرة في مقابل الاندفاع وعدم الحرص وحب الجلبة؛ والسمة A أو ascendance أي السيطرة، ومنها الدفاع عن النفس، والزعامة، والميل إلى الخطابة، والتحايل في الكلام، ضد الخضوع والتردد والعزوف عن المظهرية؛ والسمة S أو sociability، أي الاجتماعية، بكثرة الأصدقاء، وإقامة العلاقات الاجتماعية، وحب الظهور، وان نكون موضوع النظر والأضواء، في مقابل الخجل وقلة الأصدقاء؛ والسمة E أو emotional stability، أي الثبات الانفعالي، ومن ذلك إعتدال المزاج وعدم التقلب بين المزاجات المختلفة، والتفاؤل ورباطة الجأش، كنقيض لتقلب الأمزجة

والتشاؤم، وأحلام اليقظة، والتهيج السريع، ومشاعر الذنب، والهم، والوحدة، وسوء الصحة؛ والسمة O أو objectivity أي الموضوعية، ومن ذلك تبلد الحس، كنقيض لفرط الحساسية، وحب الذات، والتشكك، واستجلاب المتاعب؛ والسمة F أو friendliness، أي المسالمة، وتعني التسامح، واحترام الآخرين، وتقبل زعاماتهم، كمقابل للمشاكسة، وحب القتال، والعدائية، والحقد، والرغبة في السيطرة، واحتقار الآخرين؛ والسمة T أو thoughtfulness أي التفكير، وتعني الميل للتأمل وملاحظة الذات والآخرين، واتخاذ المواقف الفكرية، كمقابل للميل للحركة الزائدة، والعزوف عن الأمور التي تتطلب جهداً ومثابرة فكريين؛ والسمة P أو personal relations أي العلاقات الشخصية، ومنها تقبل الناس ومسامحتهم، وتدعيم المؤسسات الاجتماعية والإيمان برسالاتها، كمقابل لتلمس الأخطاء للناس، وتوجيه النقد الهدام للمؤسسات الاجتماعية، والتشكك في نوايا الآخرين وأهدافهم، والمقارنة دائماً بين أوضاعنا وأوضاع الناس، والحسرة على أحوالنا؛ والسمة M أو masculinity أي الذكورة، وتعني التصرف بذكورة، وأن تكون لنا إهتمامات الذكور ونشاطاتهم وتقشفهم وجلدهم واحتمالهم، وأسلوبهم المتميز في الملبس، وتحفظهم في إظهار العواطف، كمقابل للتصرفات الأنثوية، والاهتمامات النسائية والرومانسية، والتداعي للعواطف وللمخاوف، وسرعة إظهار القرف والتأفف.

وعبارات أو بنود هذا الاستبيان من مثل: أنت تبدأ العمل في مشروع جديد بحماس كبير... نعم؟ لا؛ أو مثل: كثيراً ما أكون في حالة قرف.. نعم؟ لا.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Guilford, J. P. and Zimmerman, W. S.: – Fourteen Dimensional Temperaments. Psychol. Monogr. 1956.

❖ ❖ ❖

- ٤٧ -
مقياس الاتجاهات عند ثيرستون
Thurstone Attitude Scale

❖ ❖ ❖

إشتهر مقياس ثيرستون Louis Thurstone (١٨٨٧ - ١٩٥٥) للاتجاهات النفسية بسبب بساطته واعتماده على مبادئ الفيزياء النفسية، ويقوم على طريقة جمع ما يمكن جمعه من عبارات تعبر عن مختلف الاتجاهات نحو موضوع من الموضوعات، كالحرية، أو الحرب، أو التفرقة العنصرية، أو الدين، وتعاد صياغتها لتكون موجزة وبسيطة ومفهومة، ويعهد بها إلى من يسميهم ثيرستون: قضاة أو محكمين raters or judges، ليصنفوها إلى إحدى عشرة فئة أو مجموعة، بحيث تأتي المجموعة الأولى مشتملة على أقوى العبارات الموجبة، ثم تليها العبارات الأقل، فالأقل، إلى أن نصل إلى آخر مجموعة وتضم أقوى العبارات السالبة. وقد يختلف القضاة حول بعض العبارات، فيضعها أحدهم ضمن مجموعة، ويضعها آخرون ضمن مجموعات أخرى، وعندئذ تحسب للعبارة درجاتها ضمن ما يحسب من درجات لمختلف العبارات، ويؤخذ متوسط درجات المحكمين لها فيكون هو درجة هذه العبارة، وأما العبارات التي يكون الاختلاف حولها كبيراً فتستبعد. ويعطي ثيرستون لطريقته هذه إسم «المنهج (the method) ويطلق عليها إسم «منهج فترات الظهور المتساوي (the method of equal appearing intervals)، لأنه يراعي في ترتيب العبارات - تبعاً لدرجات شدتها - أن يكون الفرق بين العبارة والعبارة التي تقل عنها في الشدة أو الدرجة، مساوياً للفرق بينها وبين العبارة التي تزيد عنها في الشدة أو الدرجة. ويعطى المقياس في صورته النهائية في شكل استفتاء للأفراد المطلوب قياس إتجاهاتهم، فيؤشرون على العبارات التي تتفق ورأيهم، فتكون درجة الفرد على المقياس للعبارات التي اختارها.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Thurstone: The Measurement of-Attitude.

❖ ❖ ❖

- ٤٨ -

مقاييس بايلي للإرتقاء الحركي والعقلي للأطفال في سني المهد

The Bayley Infant Scales of Mental and Motor Development

❖ ❖ ❖

وتشتهر أيضاً باسم «مقاييس بايلي الارتقائية للأطفال الصغار (Bayley Scales of Infant Development) وهذه المقاييس طُوِّرت من «اختبار كاليفورنيا للارتقاء الحركي للأطفال California (Infant Scale for Motor Development) سنة ١٩٣٥، وتتضمن بنوداً من قوائم جيزيل (أنظر فيما سبق)، ومن غير ذلك من إختبارات الأطفال في السن بين شهرين وثلاثين شهراً، وتنقسم ثلاثة أقسام بحسب الاختبار العقلي، والاختبار الحركي، وسجل الطفل السلوكي. ويتضمن الاختبار العقلي mental test بنوداً تقيس الإدراك والذاكرة والتعلم وحل المشكلات وغيرها. ويقيس الاختبار الحركي motor test القدرة على الجلوس والوقوف والسير وصعود السلالم، علاوة على القدرة على استخدام اليدين والأصابع بطريقة صحيحة. ويختص السجل السلوكي behavior record بجوانب الارتقاء في الشخصية، مثل السلوك الاجتماعي والانفعالي، ومدى الانتباه والمثابرة والتوجه نحو الهدف، وهو مقياس تقديرات يقوم الفاحص بملئه بعد الانتهاء من الجزأين السابقين.

ويعد اختبار بايلي من أفضل الاختبارات المنهجية، وكان تقنينه على عينة تمثل الأطفال بحسب التوزيع السكاني ومستوى تعليم الأبوين؛ وللجزئين العقلي والحركي درجات مقننة متوسطها ١٠٠، وانحرافها المعياري ١٦،

بحسب المجموعة العمرية للطفل لمراحل قصيرة، بواقع نصف شهر من عمر شهرين حتى ٦ وعمر من ٦ شهور حتى ٣٠ شهراً.

❖ ❖ ❖

- ٤٩ -
مقاييس التقدير
Rating Scales

❖ ❖ ❖

يعطي التقدير Rating معلومات تقريبية عن الدرجة التي توجد عليها صفة مستمرة لا يتيسر قياسها بطرق القياس المعروفة. والتقدير وسيلة جزافية تمهد لتطبيقات قياسية أدق. والبيانات التي تتوفر بالتقدير من نوع «أكثر من»، أو «أشد من»، او من المرتبة الثانية أو الثالثة، بمعنى أنّ التقديرات تكون غالباً رتبية بالمقارنة إلى صفات أو خصائص أو كميات أخرى. ومقياس التقدير من درجات، والحكم rater هو الذي يُصدر التقدير، وهو تقدير ذاتي يقال شفهياً أو يذكر بالأرقام، والمقدر ratee (بفتح الدال) هو الشخص الذي نعطيه درجة على مقياس التقدير، وتحديد الدرجة يكون على تقدير سلوك behavior rating، بشرط أن يكون السلوك ملحوظاً وموضوعياً يمكن تقديره، أو يكون سلوكاً غائباً يقضى فيه بأنه غير قائم، أو تقدير سمة trait rating. وكثيراً ما تستخدم مقاييس التقدير لقياس السمات كالزعامة، والتعاون، والغش، والمثابرة، والضبط الانفعالي، والجاذبية الشخصية وغيرها. ومن المبادئ العامة التي ينبغي مراعاتها عند تصميم قياس التقدير تحديد السلوك أو السمة المراد تقديرها بحيث تكون واضحة المفهوم عند المحكمين. وغالباً ما لا يكتفى في المحكمين بواحد، لضمان عدم التحيز، بالنظر إلى أنّ مقاييس التقدير هي مقاييس ذاتية. والسمات الظاهرة أكثر ثباتاً في التقدير من السمات الكامنة أو الضمنية. وتقدير السمات على أساس السلوك المكشوف أو الواقعي والملموس من الحكام يكون أكثر ميلاً للثبات من

تقدير السمات الكامنة غير الظاهرة أو الضمنية. وقد يكون الحكام في التقدير من الرفاق - تقدير الرفاق peer rating - أي يكون الاعتماد عليهم في الحصول على تقدير عن الشخص المراد تقديره، وقد يكون التقدير من الشخص لنفسه - تقدير الذات self-rating - وقد يكون تقدير شخص بشخص man-to-man rating بمقارنة الشخص المراد تقديره بآخر أو بآخرين يعتبرون ممثلين للصفة موضوع التقدير، وتكون للشخص المراد تقديره الدرجة أو الرتبة التي للآخر الذي له هذه الصفة.

ومن الأنواع الشائعة لمقاييس التقدير «مقاييس التقدير الرقمية (numerical rating scales)، فيحدد الحكم القائم بالتقدير قيمة عددية أو رقمية للسمة المراد تقديرها. ويرتبط هذا النوع من المقاييس بوصف للأوزان الرقمية يسترشد به الحكام ويلزم تحديد أقصى طرفي المقياس.

وفي «مقاييس التقدير البيانية (graphic rating scales) تحدد الدرجات أو المستويات المتعددة للسمة عند نقط معينة على خط مستقيم، ويضع الحكم علامة أو نقطة عند الموضع الذي يختاره على الخط للدلالة على السمة، بدلاً من أن يضع درجة أو قيمة رقمية.

وفي «مقاييس التقدير الرتبية (rank rating scales) يرتب الحكم أسماء الأفراد المطلوب ترتيبهم بالنسبة لبعضهم البعض من داخل مجموعة معينة منهم، بحسب معرفته لأوضاعهم النسبية في شكل متسلسل، وهو يبدأ بأن يضع أولاً الأفراد الذين يقع ترتيبهم أعلى المقياس، ثم الأفراد الذين يقع ترتيبهم في منتصف المقياس، وبعد ذلك يراتب الباقين بحسب مواضعهم النسبية من هؤلاء أو أولئك، إلخ. وقد يرتب الحكم أفراد المجموعة بحسب مئينياتهم، بحيث تأتي الرتب الأعلى في الربع المئيني الأعلى، ثم الأوسط، ثم الأدنى.

وقد يكون المطلوب تحديد وجود السمة من عدمها، ويتيسر ذلك بمقاييس تقدير قوائم المراجعة checklist rating scales، والقائمة المراد مراجعة أوصاف المفحوص عليها تتضمن عبارات يؤشر الحكم على الأنسب منها لوصف

المفحوص، وقد تعطى العبارة تقديرات، فالسمة المقبولة يمكن إعطاؤها +١ وغير المقبولة تعطى -١ والمحايدة صفراً.

وفي «مقاييس التقدير الفئوية (itemized rating scales) تكون التقديرات في شكل عبارات مقسمة إلى فئات، بحيث تكون العبارة الأولى أقوى العبارات الموجبة (أكثر الناس كرماً مثلاً)، ثم تليها العبارات الأقل فالأقل إلى أن نصل إلى آخر فئة تضم أقوى العبارات السالبة (أقل الناس كرماً مثلاً). والنموذج لهذا النوع من المقاييس هو «مقياس الاتجاهات لثيرستون (Thurstone Attitude scales)

وفي «مقاييس التقدير ثنائية النهايات (bipolar rating scales) يكون الاختيار للتقديرات من بديلين كلاهما نقيض الآخر، مثل جيد وسيئ، وطيب وشرير، ومبهج ومقبض، ومتعاون وغير متعاون. وهذا النوع مثل «طريقة التصنيف ق (Q sorting) و «البروفيل الطرفي (polarity profile) - وهو تمثيل بالرسم عن طريق خط منحني قطبين، لأنه عن السلوكيات أو السمات المتضادة على طرفي قطبين أو على طرفي نقيض، ولذا يقال البروفيل القطبي، والبروفيل الطيفي أيضاً. (أنظرالتصنيف ومقاييس الاتجاهات لثيرستون).

ومن مقاييس التقدير المعروفة «قائمتا تقدير هاجرتي وأولسون وويكمان (Haggerty-Olson-Wickman Rating Schedules) للكشف عن النزعات المشكلة ودراستها عند الأفراد من سن الحضانة حتى المرحلة الثانوية، وتحوي القائمة الأولى على ١٥ نوعاً من المشكلات السلوكية، كمشكلات الكلام وتحدي السلطة، وتقدر كل مشكلة من درجة إلى أربع درجات حسب تكرار حدوثها. وتحوي القائمة الثانية مقاييس بيانية لخمس وثلاثين سمة مصنفة إلى أربعة تصانيف عقلية وجسمية ووجدانية واجتماعية، وتقدر السمات بمقاييس من خمس نقاط.

ومنها أيضاً «مقياس فاينلاند للنضج الاجتماعي (Vinleland Social Maturity Scale) لقياس النضج الاجتماعي للأفراد، إبتداء من الطفولة المبكرة حتى سن الثلاثين، والتمييز بين

حالات الضعف العقلي غير الصالحة للتكيف الاجتماعي وحالات التأخر العقلي التي يمكنها التكيف إلى حد ما (أنظر مقياس فاينلاند).

ويحتوي «مقياس تقدير توافق التلميذ (Rating Scale for Pupil Adjustment) أحد عشر مجالاً للشخصية، يقدرها المدرس، وهي: التوافق الانفعالي، والنضج الاجتماعي، والاكتئاب، والعدوان، والانطواء والانبساط، والأمن الانفعالي، والضبط الحركي، والاندفاعية، والتهيج الانفعالي، والتحصيل الدراسي، والسلوك المدرسي.

ومن عيوب مقاييس التقدير أنّ معاملات ثباتها أقل بكثير من كثير من المقاييس السيكولوجية الأخرى، كمقاييس الذكاء والقدرات وغيرها. وقد يعيب الحكام التساهل في التقدير، وعند تقدير الذات قد يعطي الفرد درجة عالية لنفسه، وقد يكون بعض الحكام من المقلين في إعطاء الدرجات، فتأتي تقديراتهم أقل من الواقع. وقد يميل البعض إلى الاتجاه الواحد في التقدير، فيقدرون كل السمات بطريقة واحدة، أو يتأثرون بما لديهم عن المفحوص من إنطباعات، وهي الظاهرة المعروفة باسم أثر الهالة halo effect، وكثيراً ما تظهر كانحياز على مقاييس التقدير الشخصية.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Weltner, K.: Informations theories und - Erziehungswissenschaft.

❖ ❖ ❖

- ٥٠ -

مقاييس الذكاء لويكسلر

Wechsler Intelligence Scales

❖ ❖ ❖

هي «مقياس ويكسلر بلفيو (Wechsler Bellvue Scale)، و«مقياس ويكسلر لذكاء الأطفال (W.I.S.C.) Wechsler IntelligenceScale for Children »، و «مقياس ويكسلر لذكاء الأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة W.P.P.S.I. Wichsler Pre-school and)

«Primary Scale for Intelligence»، و«مقياس ويكسلر لذكاء الراشدين (W.A.I.S.) Wichsler Adult Intelligence Scale».

والمقاييس الأربعة وضعها دافيد ويكسلر، الاول سنة ١٩٣٩، وقد ظهرت الصورة الثانية منه سنة ١٩٤٦، ثم نشرت الصورة المعدلة والمراجعة سنة ١٩٥٥، وهي التي تعرف باسم «مقياس ويكسلر لذكاء الراشدين». وأما «مقياس ذكاء الأطفال» فقد صدر سنة ١٩٤٩، ثم نشرت له نسخة مراجعة سنة ١٩٧٤ عرفت باسم النسخة المراجعة W I S C-R؛ وأما نسخة أطفال الحضانة او ما قبل المدرسة فكان صدورها سنة ١٩٦٩.

وهناك تداخل بين مقياسي ذكاء الراشدين والأطفال، إلاّ أنّ الأول صمم لسن ١٦ سنة فما فوق، والثاني لسن ١٥ سنة وما تحتها، وتضمن المقياسان نوعية الأسئلة والأنشطة نفسها التي استخدمها بينيه وتيرمان في قياس الذكاء، إلاّ أنّ ويكسلر ينتظمها بطريقة مختلفة، وبدلاً من أن يجمعها حسب مستويات الأعمار فقد جمعها حسب نوع الأسئلة أو الأنشطة، ورتب البنود النوعية في كل مجموعة بحسب درجة الصعوبة، وعلى سبيل المثال فقد جمع كل أسئلة الحساب في اختبار فرعي واحد، وكل بنود المكعبات في اختبار واحد، وهكذا. وكذلك نجد أنّ كل الاختبارات الفرعية قد جمعت في صنفين رئيسيين هما الاختبارات اللفظية والاختبارات الأدائية. وتتضمن الاختبارات اللفظية في مقياس ذكاء الراشدين إختبارات في مجالات المعلومات، والفهم، وتذكر الأرقام والمتشابهات، والحساب، والمفردات. وأما الاختبارات الأدائية فهي ترتيب الصور وإكمال الصور، وبناء المكعبات، وتجميع الأشياء ورموز الأرقام. والاختبارات الفرعية في الاختبار الخاص بالأطفال تشبه ذلك مع تعديلات طفيفة. وأعد ويكسلر معايير لكل اختبار، بحيث يمكن مقارنة الراشد أو الطفل في كل فئة من الأسئلة بمجموعة من الأفراد تمثل المجتمع ككل، بالإضافة إلى أنه يمكن جمع الدرجات المعيارية على كل اختبار لفظي لنحصل على درجة كلية في المقياس اللفظي، وعلى كل اختبار أدائي

لنحصل على درجة كلية في المقياس الأدائي، ثم لنحصل على درجة كلية في المقياس الكلي، وبمقارنة هذه الدرجات الثلاث الكلية بجداول المعايير الخاصة بعمر المفحوص يمكن تحديد نسبة ذكاء المفحوص اللفظي، وذكائه الأدائي، وذكائه الكلي. وليست نسبة الذكاء هذه كنسبة الذكاء على مقياس ستانفورد بينيه، بين العمر العقلي والعمر الزمني، وإنما هي تشير إلى مدى العلاقة بين المفحوص والفرد اللمتوسط في توزيع مجموعته العمرية باستخدام وحدات الانحراف المعياري.

وقد كان نشر ويكسلر لمقاييسه لتغطية جوانب القصور في مقياس ستانفورد بينيه وغيرها من مقاييس الذكاء الفردي. ويبني ويكسلر مقياسه للذكاء على أساس أنّ ما يقيسه ليس مجرد العامل العام، ولكنه هذا العامل العام بالإضافة إلى القدرة على استخدام العقل في مواقف لها مضمون وغرض وشكل ومعنى. ويُعرِّف ويكسلر الذكاء بأنه القدرة الكلية للفرد على القيام بالفعل الهادف، والتعامل بعقلانية وفاعلية مع البيئة. ولا يقوم استخراجه لنسبتين للذكاء، لفظية وأدائية، على افتراض وجود نوعين من الذكاء اللغوي والعلمي، بل على افتراض أنّ البعض قد تصبح لهم عادات نتيجة المران والتدريب والموهبة تجعلهم أقدر على التعامل مع الأشياء عن التعامل مع الكلمات. وللخبرات التعليمية والمهنية تأثيرها في تحديد كمية الفرق بين النسبتين، والمتوقع مثلاً أن تكون نسبة الذكاء اللفظي عند المتعلمين مرتفعة عن نسبة الذكاء الأدائي، في حين أنّ نسبة الذكاء الأدائي ترتفع غالباً عن نسبة الذكاء اللفظي عند العمال. وهذا الفرق بين النسبتين له دلالته الكلينيكية، لارتباطه بأنواع من الاضطرابات النفسية والعقلية والعضوية وتأثر الوظائف العقلية بها.

وتثبت البحوث أنّ تدهور الوظائف العقلية يكون مردوده أكثر على الأداء منه على الاستجابات اللفظية، وتزيد نسبة الذكاء العملي على نسبة الذكاء اللفظي عند السيكوباتيين وضعاف العقول. ويرتبط الذكاء المرتفع بنسبة أعلى في الذكاء اللفظي عن الذكاء العملي أو

الأدائي. ويقيس كل اختبار من المقياس وظيفة عقلية أو وظيفتين على الأكثر، فاختبار المعلومات يقيس مدى معرفة الفرد وذاكرته البعيدة. وتدل الدرجة على الاختبار على مدى تنبه الفرد لما يجري حوله في العالم. ويعوق اكتسابه للمعلومات لجوؤه الكثير إلى ميكانيزم الكبت وميله إلى الانعزال. ويقيس «اختبار الفهم (apperception test) قدرة الفرد على تقويم خبراته الماضية، ومن ثم فإنّ هذا الاختبار يقترب في مفهومه من «اختبار الواقع reality test، وهو عندما يطبق على الأطفال فإنّ الدرجة عليه ترتبط بسن الطفل ونضجه الاجتماعي. ويقيس «اختبار المتشابهات (similarities test) تكوين المفهوم اللفظي والقدرة على التعبير اللفظي عن العلاقة بين شيئين أو موضوعين. وأما «اختبار تذكر الأرقام number recall test فإنّ القياس به يتعدى اختبار الذاكرة حيث يرتبط إنخفاض الدرجة عليه بتشتت الانتباه، وبخاصة بالنسبة لاستعادة الأرقام بالعكس، وذلك مؤشر على نقص الضبط العقلي. وأيضاً فإنّ اختبار الحساب arithmetic test لا يقيس الاستدلال الحسابي وحده ولكنه يقيس كذلك القدرة على تركيز الانتباه للقيام بالعمليات الفكرية التي تدخل في الاستدلال الحسابي، وتتأثر الدرجة فيه بالحالات الانفعالية وبسوء التوافق. ويرى ويكسلر أنّ «اختبار المفردات vocabulary test لا يقيس مقدار الألفاظ التي نتعلمها فقط، ولكنه أيضاً مقياس للذكاء العام حيث أنّ عدد ما نتعلمه من ألفاظ هو مقياس للقدرة على التعلم ومساحة ما يذهب إليه الذهن من أفكار. وقد تبين أنّ اختبار المفردات هو أكثر الاختبارات ثباتاً على المقياس، لانه لا يتأثر كثيراً بتقدم السن وبالعمليات العقلية المرضية. «واختبار ترتيب الصور» هو اختبار للتنظيم البصري وللتوقع، ويقيس قدرة الفرد على تقدير المواقف ككل، وفهم الفكرة العامة منها قبل الاستجابة لها. ويرى ويكسلر أنّ الاختلاف في الاستجابات على اختبار ترتيب الصور ليس بسبب الفروق الثقافية فقط، ولكنه نتيجة العوامل الشخصية، مما يجعل هذا الاختبار أقرب إلى الاختبارات الإسقاطية.

وأما «اختبار تكملة الصور» picture completion test فهو مقياس للتنظيم البصري والقدرة على تمييز التفاصيل والكشف بصرياً عن النقائص في الصورة نتيجة الحذف. وكذلك يمكن إعتبار «بناء المكعبات» مع «اختبار تجميع الأشياء ورموز الأرقام» إختبارات للتناسق البصري الحركي، وهي تهيئ الفرصة لملاحظة المفحوص ورصد أدائه عليها، من حيث تردده وحذره واندفاعه، وتحصل الإحباط السريع له أو مثابرته، والتحليل إلى الأجزاء، والقدرة على الخلق وعلى التجريد. ويبين «اختبار تجميع الأشياء object assembly test أسلوب الفرد في حل المشاكل، كما أنّ «اختبار رموز الأرقام» يكشف عن السرعة والدقة في الأداء.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Rapaport et al: Diagnostic-Psychological Testing.

The Measurement of : Wechsler-Adult Intelligence.

❖ ❖ ❖

- ٥١ -
مقياس آرثر الأدائي
Arthur Performance Scale

❖ ❖ ❖

صدرت الصورة الأولى من هذا المقياس سنة ١٩٣٠ واشتملت على عشرة اختبارات، منها ثمانية إختبارات لبنتنر Pintner وباترسون Paterson، بالإضافة إلى متاهات بورتيوس Porteus Mazes، و«مكعبات كوهس (Kohs Cubes). وفي سنة ١٩٤٧ صدرت الصورة الثانية المعدلة من خمسة إختبارات هي مكعبات نوكس Knos Cubes، ولوحة أشكال سيجان Seguin Form-board، ومتاهات بورتيوس، واختبارات الستنسل Stencil Tests، واختبار إكمال الصورة لهيلي Healy Picture Completion Test.

واختبار المكعبات هو اختبار للذاكرة الفورية لسلسة من الحركات، حيث يدق الممتحن على مكعب من المكعبات الأربعة التي يتكون منها الاختبار دقات محسوبة، وبنظام معين،

ويطلب من المفحوص أن يحذو حذوه. وتتكرر العملية مع تتابع سلاسل الدقات وزيادة مدتها وصعوبتها. ويعطى هذا الاختبار مرتين، وتحسب درجته بمتوسط درجات المرتين.

وأما لوحة سيجان فهي عبارة عن لوحة خشبية بها أماكن لعشر قطع من أشكال هندسية فيها، وهذه الأشكال عددها عشرة، هي الدائرة، والمربع، والمستطيل، ونصف الدائرة، ونجمة، وصليب، ومثلث، وشكل سداسي، وشكل بيضاوي، ومعين، وعلى الطفل أن يصفها في أماكنها بسرعة على اللوحة، وتعطى له ثلاث محاولات، وتحسب له المحاولة الأقل في الوقت.

وفي اختبار متاهة بروتيوس يطلب من الطفل أن يضع قلمه على أول المتاهة، ويسير به عبر ممراتها حتى الخروج، دون أن يلمس جدران الممرات أو يخطئ فيدخل مكاناً غير مطروق. ويسمح للطفل بمحاولتين في كل متاهة، والمتاهات تتدرج في الصعوبة بحسب السن، وتحسب للطفل المحاولة الناجحة فقط، ويسجل عليه أنه فشل في المستوى الذي تمثله المتاهة.

واختبار إكمال الصورة لهيلي يمثل مشاهد من الحياة اليومية للطفل على لوحات بها جزء فراغ، وعلى الطفل أن يختار من بين ستين قطعة مكملة لتلك القطعة المناسبة لتكملة المشهد الناقص. ويعتمد اختيار الطفل للقطعة على فهمه لمحتويات المشهد.

وأما اختبارات الستنسل فهي الشيء الجديد الذي يميز الصورة المعدلة من مقياس أرثر، وهي عبارة عن عشرين شكلاً هندسياً ملونة على بطاقات، ويطلب من الطفل الاختيار من قصاصات ستنسل مختلفة تلك التي تناسب الأشكال الهندسية ويلصقها عليها. ويوقف الاختبار حالما يتعثر الطفل في عمل ثلاثة نماذج متتالية.

❖ ❖ ❖

مراجع:

R. Meili: Arthur Scale. In- Incyclopedia of Psychology. Search Press. Vol. 1.

❖ ❖ ❖

- ٥٢ -
مقياس بنتنر وباترسون الأدائي
Pintner-Paterson Performance Scale

❖ ❖ ❖

يقيس هذا الاختبار ذكاء الصم أو أصحاب العيوب السمعية، ويصلح لمن في حكمهم من الأجانب الوافدين الذين يعيب تواصلهم بالناس عدم معرفتهم باللغة المحلية، وقد وضعه المؤلفان سنة ١٩١٧ واستخلصا من نتائجه أنّ الصمم ينشأ عنه تدني في الذكاء، وذلك عكس نتائج بحوث أخرى أظهرت أنه لا فرق بين الأصم والسوي في الذكاء، أو بين الأصم وضعيف السمع. والاختبار يتألف من خمسة عشر اختباراً فرعياً، عبارة عن تجميع قطع من أشكال هندسية وتثبيتها في أماكنها من اللوح الذي يحتويها، أو إكمال صور من لوحات بواسطة قطع خشبية، أو إختبار مكعبات. وتختزل هذه الاختبارات في الصورة المختصرة من المقياس إلى عشرة إختبارات، هي: إختبار الفرس والمهير Mare and Foal Test، وهو إختبار متاهات مصورة، عبارة عن لوحة ملونة بها صورة لفرس ومهر يعدو إلى جواره داخل منظر ريفي، وتنتزع أجزاء من الشكل العام للفرس كالساقين الأماميين، ومن المهر كالرأس، كبداية للاختبار، ثم يطلب من المفحوص إعادتها إلى أماكنها في اللوحة، وتحتسب الدرجة على زمن الإجابة وعدد الأخطاء. واختبار لوحة أشكال سيجان Seguin Formboard Test، عبارة عن لوحة بها أماكن لعشر قطع هندسية كالدائرة والمربع والمثلث، إلخ، ويطلب من المفحوص إعادتها إلى أماكنها، وتحسب له الدرجة على أساس الزمن الذي تستغرقه ثلاث محاولات. واختبار لوحة الأشكال الخمسة Five-Figure board Test، ويتضمن خمسة أشكال هندسية مجزأة إلى قطعتين أو ثلاث، ويطلب من المفحوص تجميع أجزاء كل شكل في مكانه من اللوحة، وتؤخذ الدرجة على الوقت وعدد الأخطاء. واختبار لوحة

الشكلين Two-figure board Test، ويتكون من شكلين هندسيين، الأول مجزأ إلى أربعة أجزاء، والثاني إلى خمسة، والمطلوب تجميع كل شكل في مكانه من اللوحة، وتحسب الدرجة على الزمن وعدد الحركات اللازمة في الأداء. واختبار لوحة التقديرات Casuist Board Test، وهو عبارة عن لوحة بها أربعة أماكن تتسع لأشكال موزعة على اثنتي عشرة قطعة، والمطلوب ملء الأماكن بالقطع المناسبة، وتحسب الدرجة على زمن الأداء وعدد الأخطاء. واختبار متاهة هيلي Healy Puzzle Test، وهو عبارة عن خمسة مستطيلات مطلوب وضعها في لوحة مستطيلة، وتحسب الدرجة على زمن الأداء والحركات اللازمة له. واختبار المانيكان Manikin Test، ويتكون من قطع خشبية تجميعها يصنع جسم رجل، وتمثل القطع الرأس والجسم والذراعين والساقين، وتعطى الدرجة على السرعة وعدد الأخطاء. واختبار ملامح الوجه Feature Profile Test، وهو عبارة عن أجزاء خشبية تجميعها يصنع ملامح وجه رجل، وتحسب الدرجة على السرعة.

واختبار الباخرة Ship Test ويشتمل على صورة لمركب مجزأة إلى عشر قطع، والمطلوب تجميعها في لوحة مستطيلة، وتحسب الدرجة على السرعة وعدم الأخطاء. واختبار هيلي لتكميل الصورة Healy Picture Completion Test، وهو عبارة عن صورة انتزعت منها عشرة مربعات صغيرة، والمطلوب فرز ٤٨ مربع مشابه، وتجميع مربعات الصورة منها وتثبيتها في مكانها، وتحسب الدرجة على الزمن وعدد الأخطاء. واختبار المكعبات Cube Test، ويتكون من أربعة مكعبات يدق الممتحن عليها بمكعب خامس بنظام معين، ثم يطلب من المفحوص أن يقلده، وتتزايد مرات الدق ويتعقد النظام، وتعطى الدرجة على ما يستطيع المفحوص تقليده من الدقات.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Encyclopedia of Psychology: - Search Press. Vol. 1.

❖ ❖ ❖

- ٥٣ -
مقياس بينيه للذكاء
Binet Intelligence Scale

❖ ❖ ❖

أول مقياس للذكاء، وضعه بينيه وسيمون سنة ١٩٠٥، ويطلق عليه لذلك أحياناً إسم «مقياس بينيه وسيمون Binet-Simon Scale» ونشره المؤلفان بالمجلة السنوية لعلم النفس L'Année psychologique، وكانت أول مجلة علم نفس تنشر بالفرنسية، وكان أول إصدارها سنة ١٨٩٤، ونشر بها بينيه بحثاً باسم «طرق مستحدثة في تحديد المستوى العقلي لضعاف العقول»، وكانت وزارة التربية الفرنسية قد كلفته، على رأس لجنة للبحث في طريقة لتمييز الأطفال المتخلفين عقلياً الذي لا يصلحون للدراسة العادية شأن الأطفال الأسوياء. وفي أقل من سنة أعلن بينيه ومساعده وسيمون عن مقياسهما هذا الذي اشتمل على ثلاثين بنداً لاختبار الجوانب العقلية، كالتذكر البصري، وتذكر الأرقام، وإدراك التشابه، والتقدير اللمسي، وإكمال الجمل، وغير ذلك مما يعتمد للإجابة عليه على الذكاء وليس على المعلومات، وبحسب المرحلة العمرية على مدى عمري من الثالثة حتى الحادية عشرة. وكانت عينة التقنين للاختبارات محدودة، لا تتعدى الخمسين طفلاً من متوسطي الذكاء بتقديرات معلميهم. وقد شجع النجاح الذي لاقاه المقياس المؤلفين على تطويره، وجاء تعديل سنة ١٩٠٨ مختلفاً عن المقياس الأول، إذ لم يكن هذا المقياس لتمييز ضعاف العقول كالمقياس الأول، بل كان لقياس ذكاء التلاميذ في مختلف الأعمار، وتم تقنينه على عينة أكبر بلغت مائتين وثلاثة أطفال من أبناء الطبقة العاملة في مدارس باريس. ويمتاز هذا المقياس بأنه قد تم وضع الأسئلة فيه وترتيبها حسب توالي الأعمار، بوضع السؤال للسن الملائمة تبعاً لنسبة عدد الأفراد الذين يجيبون عليه في كل عمر، فإذا نجح ثلثا أو ثلاثة أرباع الأفراد في سن معينة في الإجابة على سؤال، إعتبر هذا السؤال مقياساً مناسباً لسنهم. وكذلك جعل

المؤلفان متوسط العمر العقلي مساوياً لمتوسط العمر الزمني. ويحسب العمر العقلي بأخذ العمر الذي ينجح الطفل في الإجابة على كل أسئلته، واعتباره العمر القاعدي basal age للطفل، ثم يضاف إلى هذا العمر القاعدي سنة عن كل خمسة أسئلة يجيب عليها الطفل بعد ذلك. وتميز تعديل سنة ١٩٠٨ كذلك بسعة المدى العمري عن مقياس سنة ١٩٠٥، فأصبح من سن الثالثة حتى سن الثالثة عشرة. ومع ذلك أُخذ على هذا المقياس أنّ بعض أسئلته لم تتحرر من تأثير المواد الدراسية للتلاميذ، كما أنها لم تكن متساوية في العدد بالنسبة للأعمار المختلفة، وكانت سهلة جداً بالنسبة للأعمار الأكبر، واقتضى ذلك تعديل المقياس مرة أخرى سنة ١٩١١، بزيادة عدد الأسئلة لتصبح ٥٤ سؤالاً بدلاً من ثلاثين، وليصبح عددها في كل مستوى عمري خمسة أسئلة، ما عدا سن أربع سنوات فظلت أسئلته أربعة، ولم توجد أسئلة للأعمار ١١ و١٢ و١٤، إعتماداً على تقدير الذكاء من خلال العمر القاعدي كما أسلفنا، وإضافة سنة عن كل خمسة أسئلة يجيب عليها الطفل بعد ذلك. ومع ذلك لم تلق الصورة المعدلة لسنة ١٩١١، النجاح الذي لاقته الصورة المنشورة سنة ١٩٠٨، والتي ترجمت إلى عدة لغات، وأدخلت عليها عدة تعديلات كان أهمها تعديل تيرمان سنة ١٩١٦، والذي اشتهر باسم «مقياس ستانفورد بينيه Stanford-Binet Scale، نسبة إلى جامعة ستانفورد التي كان تيرمان وزملاؤه يجرون من خلالها التعديلات لتناسب طبيعة الشعب الأمريكي وثقافته، وهي تعديلات كانت ضرورية، ومن الكثرة والشمول حتى لقد أتت المراجعة للمقياس بحيث أصبح شيئاً جديداً يكاد لا يبين فيه تأثير مقياس بينيه. (أنظر مقياس ستانفورد بينيه).

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Binet, A. B.: L Etude expérimentale de l'intelligence.
- Binet, A. B.: Le développement de l'intelligence chez les enfants.

❖ ❖ ❖

- ٥٤ -
مقياس ستانفورد بينيه للذكاء
Stanford-Binet Intelligence Scale

❖ ❖ ❖

هو تعديل على مقياس بينيه سيمون Binet-Simon لسنة ١٩٠٨ توفر عليه تيرمان Terman وآخرون من خلال جامعة ستانفورد التي ينسب إليها، ونشروه سنة ١٩١٦ ثم أجريت عليه مراجعات لسنوات ١٩٣٧ و١٩٦٠ و١٩٧٢، والتزم المؤلفون له الأسس نفسها التي قام عليها مقياس بينيه، سوى أنّ التعديل والمراجعات إستهدفت ملاءمة المقياس لظروف المجتمع الأميركي وثقافته، وفيما عدا ذلك فإنّ اختبار ستانفورد بينيه يقيس الذكاء باعتباره قدرة عامة تتمثل في نشاطات عقلية موقفية، ويذهب تيرمان إلى تعريف بينيه نفسه للذكاء، بأنه قدرة عامة على الملاءمة مع الظروف المستجدة، والأسئلة التي يضعها المؤلفون يأخذون ثلثيها تقريباً من مقياس بينيه. وتتدرج الأسئلة في الصعوبة بحسب المراحل العمرية، ويحدد الأداء على الاختبار بالمقارنة بأداء الأسوياء في الأعمار المختلفة. ويزيد مقياس ستانفورد بينيه على مقياس بينيه أنّ الأسئلة فيه تزيد إلى ٩٠ سؤالاً بعد أن كانت في مقياس بينيه ٥٤، كما أنّ عينة التقنين زادت كثيراً حتى بلغت ألف طفل، وأربعمائة راشد من كافة طبقات وشرائح المجتمع الأمريكي وليس من خلال أبناء الطبقة العاملة الفرنسية في باريس وحدها كما في مقياس بينيه. وزاد المدى العمري إلى ١٦ سنة بعد أن كان من ٣ إلى ١٣ سنة، ولأول مرة تستخدم معادلة شتيرن للتعبير عن المستوى العقلي للمفحوص باستخراج نسبة الذكاء من خلال قسمة العمر العقلي على العمر الزمني وضرب النتيجة في مائة للتخلص من الكسور. ويزيد من أهمية تعديل تيرمان التعليمات المفصلة لطريقة التطبيق والتصحيح، ثم استخدامه لنسبة الذكاء، وتلك مزايا يخلو منها مقياس بينيه. ورغم ذلك فقد ظهرت للمقياس الجديد عيوب، منها عدم تمثيل الأعمار المتطرفة، وانخفاض

صدق بعض الاختبارات، وتشبع الاختبار بالعامل اللفظي في السنوات الباكرة، وبالذاكرة الصماء rote memory في المستويات الأعلى، ولعلاج ذلك وضعت نتائج المقياس ضمن برنامج ضخم للبحوث إستغرق عشر سنوات وأدى إلى التعديل باسم ستانفورد بينيه ١٩٣٧، أو تعديل تيرمان وميريل Terman and Merrill، وروعي فيه أن يكون إختبار الأسئلة على أساس إرتباطها بمحكات مستقلة للذكاء، وأفضل الاختبارات من هذا النوع هي اختبارات الفهم العام والمفردات والمتماثلات وإكمال الجمل والأضداد والمتناقضات. ووضعت صورتان للمقياس وانتخبت للصورة L ٢٠٩ أسئلة، وللصورة M ١٩٩ سؤالاً، بحيث يتنوع مضمونها ويسهل تصحيحها وتطبيقها. كما روعي في عينة التقنين تمثيلها للمراحل العمرية حتى ١٦ سنة، مناصفة بين الذكور والإناث من ١٧ تجمع سكاني من ١١ ولاية أمريكية. وقد اقتضى الأمر إجراء تعديل آخر على المقياس ظهر بعد ٢٣ سنة من تعديل ١٩٣٧ واشتهر لذلك باسم مقياس ستانفورد بينيه لسنة ١٩٦٠. وجاء هذا التعديل نتيجة تقادم مضمون بعض الاختبارات والصورة التي تشتمل عليها، وظهور مقاييس ذكاء فردية جديدة تنافس الصورة L وتعفو عليها، بالإضافة إلى أنّ اختبارات تعديل سنة ٣٧ كانت تقف عند سن ١٦، بينما أظهرت بحوث الذكاء نمواً فيه بعد هذه السن. واستهدف التعديل إنتخاب أفضل الأسئلة من الصورتين L و M والاكتفاء بصورة واحدة، وإصلاح عيوب بعض الاختبارات، وإعادة حساب صعوبتها، وتوفير إختبار إحتياطي لكل مستوى عمري. واقتضى الأمر بعد اثنتي عشر عاماً من صدور مقياس سنة ١٩٦٠ أو الصورة L-M أن يجرى تقنين له، حيث لم يكن قد أجري هذا التقنين في حينه، ولقد نشر التقنين الجديد سنة ١٩٧٢ واستهدف وضع معايير جديدة، ولكن مقياس سنة ١٩٦٠ إستُخدم في هذا التقنين دون تعديل عليه، وتم التقنين على عينة بلغ حجمها ٢١٠٠ فرد في المراحل العمرية من سنتين إلى ثماني عشرة سنة، على أساس من التمثيل

الجغرافي والاقتصادي لسكان الولايات المتحدة. ويتحدد العمر القاعدي على الاختبار بالمستوى العمري الذي يستطيع المفحوص فيه الإجابة على كل الأسئلة، ثم يستمر الاختبار بعد ذلك إلى أن يصل المفحوص إلى المستوى العمري الذي لا يتمكن من الإجابة على أي من أسئلته فيصبح هذا المستوى العمري هو سقف الاختبار، ويحسب العمر العقلي بإضافة الشهور أو السنوات بين العمر القاعدي وسقف الاختبار.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Terman, L. M.: The Measurement of - Intelligence. An Explanation and a Complete Guide for the Use of the Stansford Revision and Extension of the Binet-Simon Intelligence Scale. (1916).

❖ ❖ ❖

- ٥٥ -
مقياس السلوك التوافقي
The Adaptive Behavior Scale (A.B.S.)

❖ ❖ ❖

وُضع أساساً لاختبار المتخلفين عقلياً، إلاّ أنّ نسخته المعدلة سنة ١٩٧٤ تصلح أيضاً لاختبار الأطفال غير المتوافقين إنفعالياً وغيرهم من المعوقين. والمقياس من جزأين، الأول: للسلوك الارتقائي، من أمثال استقلال الأداء والأنشطة المنزلية والمهنية، والتعامل بالنقود، وارتقاء اللغة، ونمو الجسم، واستخدام الأرقام والوقت، والشعور بالمسؤولية، والتطبيع الاجتماعي، والاعتماد على النفس؛ والثاني: للسلوك غير التوافقي العنيف أو الانسحابي أو الزائد، ويمكن رصد كل هذه المجالات في شكل بروفيل تلخيصي للدرجات.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Adaptation Level Theory. In S. Kosh - (Ed.): Psychology. A Study of a Science. Vol. 10.

❖ ❖ ❖

- ٥٦ -

مقياس ذكاء سنيجدرز-أومن غير اللفظي

Snijders-Omen Non-verbal Intelligence Scale

❖ ❖ ❖

مقياس ذكاء غير لفظي لا تستخدم فيه اللغة، سواء من جانب الفاحصين أو المفحوصين، واختباراته مصممة للمصابين بالصمم، وقد راعى فيه المؤلفان عندما وضعاه سنة ١٩٣٩ أن لا يقتصر على جانب واحد كمعظم الاختبارات المماثلة، فضمّا إليه إختبارات للتفكير التجريدي والفهم لمواقف الحياة والتصميمات المكانية، واستبعدا منه السرعة كمحك للأداء. ويتكون المقياس من ثمانية إختبارات مقسمة إلى أربع فئات تقيس القدرات على التشكيل والتركيب والتجريد والتذكر. وتتضمن إختبارات التشكيل تحليل وتصميم الأشكال المكانية باستخدام المربعات والمكعبات في تقليد الأشكال، أو تقليدها بالرسم وتكملة الأجزاء الناقصة. وتتضمن إختبارات التركيب فهم العلاقات بين أجزاء الشيء الواحد أو بين الأشياء المختلفة، وترتيب سلاسل الصور أو تكملتها بالاختيار بين بدائل، أو تكملة أنصاف الصور بعضها ببعض. ويعتمد إختبار التجريد على المتشابهات والتصنيف للأشكال، والمتشابهات ليست ألفاظاً ولكنها أيضاً أشكال، ويقوم التصنيف على أساس اللون والشكل. ويتألف إختبار التذكر من صور ومكعبات يحاول المفحوص أن يتذكر شكل الصور الصغيرة ضمن صور أكبر، وتذكر أصوات الطرق بالمكعبات وتقليدها بنفسه.

❖ ❖ ❖

- ٥٧ -
مقياس فاينلاند للنضج الاجتماعي
The Vineland Social Maturity Scale

❖ ❖ ❖

وضعه دول Doll سنة ١٩٣٥ لقياس القدرة الاجتماعية والارتقاء فيها من الميلاد وحتى سن الخامسة والعشرين، وهو يصلح أكثر للأطفال في سني المهد والأطفال الذين يعانون نقصاً عقلياً، ويمكن أن يميز بين الطفل المتخلف عقلياً والكفوء إجتماعياً، وبين الطفل المتخلف عقلياً وغير الكفوء إجتماعياً. ويختبر المقياس الوظائف العقلية نفسها التي يختبرها أي مقياس ذكاء، كاتباع التعليمات، واستخدام البسيط من الأدوات، والتعرف على أسماء الأشياء القريبة من الطفل. وقد ثبت من مقارنة نتائجه على نتائج إختبارات الذكاء الأخرى إرتباط الكفاءة الاجتماعية بالذكاء والقدرات العقلية. وللاختبار دالة ثبات حيث أنّ أسلوبه يقوم على الحصول على المعلومات عن الطفل من المصادر المباشرة، مثل الأم أو الممرضة أو غيرهما ممن يعتمد عليهما الطفل في تلبية حاجاته، ولذلك ينبغي تنبيه المسؤول عنه عند الإجابة على بنود الاختبار أن يذكر ما يفعله الطفل فعلاً، لا ما يمكن أن يفعله، أو ما يستطيع أن يفعله. ويتضمن الاختبار ١١٧ بنداً مرتبة بحيث يناظر كل بند مستوى إرتقائياً من مرحلة عمرية معينة تحسب بالشهور، ويساوي مجموع الشهور على الاختبار العمر الاجتماعي social age (SA)، وبذلك تحسب نسبة الارتقاء الاجتماعي بقسمة العمر الاجتماعي social quotient (SQ) على العمر الزمني والضرب في مائة. وتغطي البنود ثمانية جوانب من نضج السلوك الاجتماعي، من حيث المهنة أو العمل، والتواصل بالناس، والحركة في الحياة، والتطبيع الاجتماعي، والاعتماد على النفس عموماً، والاعتماد عليها خصوصاً في الأكل، وفي الملبس، وفي توجيه الفرد لنفسه بنفسه.

❖ ❖ ❖

– ٥٨ –
مقياس كاتل لذكاء الأطفال في سني المهد
Cattell Infant Intelligence Scale

❖ ❖ ❖

أُعد سنة ١٩٤٧ ليكون امتداداً للمرحلة العمرية التي لا يغطيها اختبار ستانفورد بينيه لسنة ١٩٣٧ الصورة L، من شهرين إلى ٣٠ شهراً، ويتضمن بنوداً من ستانفورد بينيه، ومن قوائم جيزيل، ومن اختبارات الأطفال الأخرى المتاحة، بالإضافة إلى بعض البنود الجديدة. وقد صنفت البنود في مجموعات عمرية من شهر إلى شهر على امتداد السنة الأولى، ومن شهرين إلى شهرين على امتداد السنة الثانية، ثم من ثلاثة شهور إلى ثلاثة شهور بدءاً من سن ٢٤ شهراً وحتى ٣٠ شهراً، فإذا اجتاز الطفل أي اختبار عند المستوى ٣٠ شهراً إستمر الاختبار بمقياس ستانفورد بينيه عند مستوى ثلاث سنوات، وابتداء من ٢٢ شهراً إلى ٣٠ شهراً تختلط في المقياس البنود من ستانفورد بينيه بالبنود من مقياس كاتل، وعدد البنود في كل مستوى عمري هو خمسة، بالإضافة إلى اختبار احتياطي أو إختبارين. وقنن المقياس، ويتم التصحيح بأسلوب ستانفورد بينيه، غير أنه لا يحدد وقتاً للاستجابة للبنود، ولا يحدد ترتيباً لها، حيث قد لا يوافق ذلك ظروف كل طفل في هذه الأعمار.

❖ ❖ ❖

– ٥٩ –
مقياس ليتر الأدائي الدولي
Leiter International Performance Scale

❖ ❖ ❖

إستغرق تأليف هذه السلسلة من الاختبارات عدة سنوات بتجريبها على عدد من المجموعات العرقية المختلفة من هاواي، من طلبة المستويين الابتدائي والثانوي، ثم طبقت من قبل باحثين آخرين على مجموعات عرقية إفريقية وغيرها، وأخيراً أجري تعديل ونشرت

سنة ١٩٤٨ بعد تجربة تطبيقها على الأطفال الأميركيين وصغار المجندين. ولعل أبرز ما يمكن أن تذكر به هذه الاختبارات هو استغناؤها بالكلية عن التعليمات، سواء كانت لفظية أو بالإشارة، مما يدرجها ضمن الاختبارات غير المتحيزة حضارياً، والتي يمكن من ثم تطبيقها على أية مجموعة عرقية دون حرج.

ولكل اختبار مقدمة سهلة تمهد للجزء الأصعب منه ومع ذلك فهي من الاختبار، والمطلوب من المفحوص إستخراج الألوان والصور والأشكال المتماثلة، وأن يقلد بالمكعبات تنفيذ بناء نماذج مصورة، وأن يكمل الصور الناقصة وسلاسل الأرقام، ويستخرج المتشابهات، ويتعرف على الفروق في الأعمار والعلاقات المكانية، ويتذكر سلاسل الأرقام، ويصنف الحيوانات بحسب بيئاتها الطبيعية. وتتناسب الاختبارات والمستويات العمرية إبتداءً من السنتين حتى الثمانية عشرة، وتقدم فردياً بدون حدود للوقت.

❖ ❖ ❖

- ٦٠ -
مقياس ليكرت للاتجاهات
Likert Attitude Scale

❖ ❖ ❖

يُعتبر هذا المقياس تبسيطاً لمقياس ثيرستون للاتجاهات Thurstone Attitude Scale، ويفضله الكثيرون لسهولته، بالنظر إلى أنّ ليكرت فيه لا يستعين بمن يسميهم ثيرستون القضاة أو المحكمين ليصنفوا العبارات المتضمنة للاتجاهات نحو موضوع من الموضوعات. وليكرت يضع درجات المقياس من قبل وليس من بعد كما عند ثيرستون، وهو العمل الذي يقوم به المحكمون بعد ترتيب العبارات على الميزان، من الأقوى إلى الأقل قوة. وعند ليكرت تتحدد شدة الاتجاه، حيث أنّ كل عبارة تتضمن الاستجابات عليها بدائل هي «أوافق بشدة»، و«أوافق»، و«لم أقرر بعد»، و«لا أوافق»، و«لا أوافق بشدة»، على عكس طريقة ثيرستون التي لا يستطيع المفحوص فيها أن يعبر عن شدة

اتجاهه. ودرجات ليكرت على الميزان بسيطة، وهي إما ٥ أو ٤ أو ٣ او ٢ أو ١. وتأخذ الإجابة المؤيدة ٥ سواء كانت موافقة جداً لبعض البنود، أو معارضة جداً لبعضها الآخر، بينما الإجابة المعارضة للاتجاه تعطى درجة واحدة. وتمثل الدرجة الكلية للفرد مجموع درجاته على المقياس.

❖ ❖ ❖

مراجع:

Lickert, R.: A Technique for-Measurement of Attitudes.

❖ ❖ ❖

- ٦١ -
نموذج بحث الشخصية لجاكسون
Jackson Personality Research Form (P.R.F.)

❖ ❖ ❖

وضعه جاكسون على أساس من نظرية موراي Murray في الشخصية، وهو مجموعة إختبارات تقيس المتغيرات في الشخصية ويتحدد بها نحو من عشرين متغيراً مثل: تجنب الأذى، والاندفاعية، ، واللعب، والاعتراف الاجتماعي، والتفهم، والبناء المعرفي، والحساسية. وينقسم النموذج إلى صورتين متكافأتين قصيرتين، تستخلص منهما درجات لأربع عشرة سنة، وصورتين متكافأتين طويلتين تستخلص منهما درجات ليست سمات إضافية، بالإضافة إلى مقياسين لقياس الجاذبية وعدم التكرار، وهما مقياسا صدق، غير أنّ مقياس الجاذبية بالإضافة إلى أنه مقياس صدق فهو أيضاً يقيس سمة الجاذبية، وهي من سمات الشخصية الهامة.

❖ ❖ ❖